أصل الدين والإيمان

عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان

جميع حقوق الطبع والتصوير محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

موافقة وزارة الإعلام

رقـــم: ٧١٢٤٢

تاريخ: ٩/٢/٢٠٠٢

أصل الدين والإيمان

عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان

دراسة تحليلية منهجية شاملة
لأصول الإيمان ومنهج التوحيد ومسائل العقيدة
على منهاج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة

الجزء الأول

تأليف الدكتور
مأمون حموش

بسم الله الرحمن الرحيم

ـ المقدمـة ـ

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد: فإن الله سبحانه قد اصطفى من خلقه أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم ، لما بدّل أكثر الناس عهد الله إليهم ، واجتالتهم الشياطين عن دينهم ، وصرفتهم إلى وسائط تثنيهم عن إفراد التعظيم لربهم ، وعن استكمال التوجه إلى بارئهم ، فبعث فيهم سبحانه رسلاً ، ليستأدوهم ميثاق فطرتهِ ، ويأطروهم على الحق وتنزيه صفاته ، ويذكروهم منسِيَّ نعمته ، ويحيوا فيهم توحيد أسمائه ، ويحتجوا عليهم بإثارة دفائن العقول وصرفهم لرؤية آيات المقدرة: من سقف فوقهم مرفوع ، ومهادٍ تحتهم موضوع ، ومعايش تحييهم ، وآجال تفنيهم ، وأوصاب تهرمهم ، وأحداث تتابع عليهم ، إلىٰ أن ختمِ فيهم النبوة سبحانه ، فأرسل محمداً عليه الصلاة والسلام وأهل الأرض يومئذ مِلَل متفرقة ، وأهواء منتشرة ، فهداهم به من الضلالة وأنقذهم بالوحي من الجهالة ، ثم اختار سبحانه لنبيِّه لقاءه ، فقبَضه إليه كريماً صلى الله عليه وآله ، وخلف فيكم ما خلفت الرسل في أممها وأقوامها ، العلماء وهم ورثة الأنبياء ، خصوم أهل البدع والأهواء. يرفعهم الله فَيَنْـبُـلون في الأمة بما رووا عن الرسول ، وهم المأمونون عليه العدول ، حفظة الدين وخزنته وأوعية العلم وحملته .

فإلى أولئك الذين تشرفوا لحمل ميراث نبيهم ، وإلى أولئك الذين شمخوا بعزة دينهم وهدي ربهم ، وإلى أولئك الذين نصبوا الحق طريقاً لهم في حياتهم ، وعكفوا على الإخلاص والإحسان منهجاً في سلوكهم ، ورأوا في العلم أمانة فشمروا لإنقاذ أمتهم ، وتنكروا للجَدل والفلسفة فعظموا الوَحيين كتاب ربهم وسنة

نبيهم ، وإلى أولئك الذين قاموا في أيام الصبر والغربة لحراسة الدين وسياسة الدنيا به ، وإلى بعث الأمل في نفوس الناس أيام المحن والمصائب بأن الله يكشف البلاء ويرفع به ، وبأنِ مع العسر يسراً وبأن ما يلوح في الأفق لفجراً ، فإلى أولئك جميعاً أهدي ما كتبت عن أصل الدين الحنيف عند أهل العلم والحديث الذين قال الله فيهم : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . والذين امتدحهم بقوله : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ . ووصفهم بخشيته فقال جل وعزّ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ .

قال قتادة : (كان يقال كفى بالرهبة علماً) . وقال مجاهد : (إن العالم من خشي الله عز وجل) .

وقال وهب بن مالك : (إن العلم ليس بكثرة الرواية وإنما العلم نور يجعله الله في القلب) .

وقد أخرج الإمام النسائي في كتاب العلم بإسناد صحيح عن مسروق : (بحسب المرء من العلم أن يخشى الله وبحسبه جهلاً أن يعجب بعلمه) . وهذا كلام يدل على عمق فهم لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ عند السلف الصالح رضوان الله عليهم .

وإنما العلم المقصود هو العلم بالله وأسمائه وصفاته ومحامده ، ويدخل بذلك كل علم نافع مشروع يزيدك من الله خشية وطاعة سواء كان هذا العلم من علوم الآخرة والتهيؤ للمعاد ، أم من علوم الدنيا التي فتحها الله وكشفها للعباد ، ليعمروا بها الأرض ويقيموا شرع الله في حكم البلاد ، ولعمر الله كم ضيّع الشباب اليوم أوقاتهم في علوم لا تنفع ، ولا تورث قلباً يخشع ، فانعكست في قلوبهم قسوة وكبراً فلم تعد آذانهم وعقولهم تصغي إلى الحق أو تسمع ، ووالله الذي لا إله إلا هو مَنْ أراده الله بخير وفقه إلى علوم من نور وحيه تسطع ، ومَنْ تَبَخْتَرَ في عقله وأعجب برأيه صرفه إلى علوم ومناهج إلى نار جهنم تدفع .

لقد أخرج الإمام أبو خيثمة[1] في كتاب العلم بإسناد صحيح عن عمرو بن مرة

---

(1) هو الحافظ أبو خيثمة زهير بن حرب النسائي (160 ـ 234) هـ.

عن أبي البَخْتَري قال: حدثني شيخ من عبس قال: (صحبت سلمان فأردت أن أعينه وأتعلم منه وأن أخدمه قال: فجعلت لا أعمل شيئاً إلا عمل مثله قال: فانتهينا إلى دجلة وقد مدَّت وهي تَطْفَحُ ، فقلنا لو سقينا دوابنا ، قال: فسقيناها ، ثم بدا لي أن أشرب فشربت فلما رفعت رأسي قال: يا أخا بني عبس عُدْ فاشرب ، قال: فعدتُ فشربت وما أريده إلا كراهية أن أعصيه ، ثم قال لي: كم تراك نقصتها؟ قال: قلت يرحمك الله وما عسى أن ينقصها شربي؟ قال: وكذلك العلم تأخذه ولا تنقصه شيئاً ، فعليك من العلم بما ينفعك)(1) .

لقد أخذ سلمان هذا الفقه العظيم من تربية النبي ﷺ له ولأصحابه ، أن العمر ساعات قصيرة طوبى لمن أحسن الاستفادة منها ، وكأنه يشير بذلك إلى قوله ودعائه صلوات ربي وسلامه عليه: [اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها](2) .

فاعلم رحمك الله أن علم أصول الدين هو أشرف العلوم وأعلاها وهو الفقه الأكبر كما سماه الإمام أبو حنيفة رحمه الله ، وهو إن صلح صلح ما دونه وفيه النجاة يوم القيامة ، وهو مجموع بقولة لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ ، فلا علم عن الله إلا من كتابه ومن هدي نبيه وفهم أصحابه ، ولا روح إلا فيما مضى عليه أنبياؤه وورثوه وأوصوا به .

لقد أخرج الإمام أحمد في المسند والبيهقي في الأسماء بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو قال: [كنا عند رسول الله ﷺ فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيجان مزرورة بالديباج فقال: ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس. قال: يريد أن يضع كل فارس ابن فارس ويرفع كل راع ابن راع. قال: فأخذ رسول الله ﷺ بمجامع جبته وقال: ألا أرىٰ عليك لباس من لا يعقل ثم قال:

إن نبيّ الله نوحاً ﷺ لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاص عليك الوصية ، آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين ، آمرك بـ (لا إله إلا الله) فإن السموات السبع والأرضين

(1) كتاب العلم للحافظ أبي خيثمة زهير بن حرب النسائي (58) تحقيق الألباني.
(2) تخريج الترغيب (1/73-74) ورواه أحمد وأصحاب السنن عن أبي هريرة وأنس وابن عمرو. صحيح الجامع (1308).

السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة ، رجحت بهن لا إله إلا الله ، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتهن لا إله إلا الله ، وسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق الخلق ، وأنهاك عن الشرك والكِبْرِ ، قال: قلت: أو قيل: يا رسول الله هذا الشرك قد عرفناه فما الكبر؟ قال: أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان؟ قال: لا ، قال: هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: لا. قيل: يا رسول الله فما الكبر؟ قال: سفه الحق وغمص الناس][1]. ورواه البخاري في الأدب المفرد وقال فيه الهيثمي:

(رواه أحمد والطبراني بنحوه وزاد في رواية: (وأوصيك بالتسبيح فإنها عبادة الخلق ، وبالتكبير). ورواه البزار من حديث ابن عمر ورجال أحمد ثقات)[2].

فانظر إلى وصية نوح عليه الصلاة والسلام كم جمعت من علوم كثيرة عن الله وأسمائه وصفاته ومحامده ، وكم ترفعت عن وصايا الناس لأبنائهم وذراريهم عند الموت ، فتجاوزتها سمواً من وصايا تخص العقارات والأموال والتجارات إلى وصايا رفيعة إن صلحت صلح أمر الأموال والتجارة والدنيا ، فأول ما أمر نوح ﷺ ابنه أمره بأن يحيا على لا إله إلا الله قولاً وفعلاً وتصديقاً وأن تكون أموره جميعاً لخدمة لا إله إلا الله ولخدمة الحق وحراسته ، فهي الكلمة العظيمة التي قامت عليها السماوات والأرض ، والتي خلق الله لأجلها الخلق ، وأعلم نوح عليه السلام ابنه بصفات هذه الكلمة بأن السموات السبع والأرضين السبع لا تستطيع أن تثبت في الميزان أمام ثقل كلمة الحق كلمة التوحيد لا إله إلا الله ، وبأنه لو جعل من السموات السبع والأرضين السبع حلقة مبهمة أي مغلقة قاسية صلبة لكسرتها وأبانتها لا إله إلا الله ولفصمتها. ثم أوصاه ثانياً بالتسبيح والتحميد والتكبير الذي هو من لوازم لا إله إلا الله وأشار إلى أن التسبيح هو عبادة الخلق جميعاً كما قال جل ثناؤه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۢ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾. وأشار إلى سبحان الله وبحمده سبب الرزق لكل الخلق كما أنها صلاة كل شيء ونهاه عن ما يناقض لا إله إلا الله وهو الشرك ، ونهاه

---

(1) السلسلة الصحيحة (134).

(2) المرجع السابق ص 50.

عن ما يوصل إلى الشرك وهو الكبر والذي خسر إبليس تجارته به.

لكن الصحابة رضوان الله عليهم ظنوا لشدة شفافية نفوسهم ورقة قلوبهم أن تمتع الرجل برؤية أصحابه حوله أو الاستئناس بهم في مجلس أو لبس نعلين جديدين من الكبر، فأخبرهم صلوات الله وسلامه عليه أن الكبر هو سفه الحق أي جهله والاستخفاف به، وغمص الناس أي احتقارهم والطعن فيهم والاستخفاف بهم.

فأفاد الحديث الفوائد الكثيرة التالية:

1 ـ مشروعية الوصية عند الوفاة منذ زمن نوح عليه الصلاة والسلام.

2 ـ الوصية بالتزام كلمة الحق «لا إله إلا الله» قولاً وفعلاً ومنهجاً، وأن السلامة هي سلامة الدين واليقين.

3 ـ فضيلة التسبيح والتكبير، وأن التسبيح عبادة الخلق، وأن «سبحان الله وبحمده» سبب رزق الخلق جميعاً.

4 ـ الميزان في الآخرة حق، وله كفتان توزن به أعمال العباد.

5 ـ الأرضون سبع كالسماوات، والحديث يصلحُ شاهداً لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: 12].

6 ـ الكبر مقرون بالشرك، وهو الكبر على الحق، واحتقار الناس والتعالي عليهم، ومن ثمّ فإن التجمل باللباس الحسن ليس من الكبر، بل هو مشروع لأن الله سبحانه يحب أن يرى أثره على عبده حسنا، وهو تعالى جميل يحب الجمال.

7 ـ جلوس المرء بين أصحاب مؤمنين ليس من الكبر، وإنما هو مما يعين على الحق، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾. فبين الله سبحانه أن كل أحد خاسر إلا الذين آمنوا واجتمعوا على الحق، ليدل أن الجماعة ضرورة للنجاة والصبر على المحن والتواصي بالحق والحكم بمنهج الله عز وجل.

ولما كان أصل الدين والإيمان أو ما يسمى اصطلاحاً «بالعقيدة» هو أول ما يجب على المسلم معرفته والعلم به من أجل سلامة منهج العمل في الدنيا الذي يوصل إلى النجاة من عذاب الله في الآخرة والفوز بنعيم الجنة ورضوان الله سبحانه،

فقد رأيت بسط مفاهيم أصول هذا الدين في كتاب على منهج الوَحْيَيْن: القرآن والسنة الصحيحة وفهم المسلمين الأوائل من علماء الصحابة والتابعين وأئمة العلم الراسخين الذين لهم قدم صدق في الأمة، بعيداً عن طريقة أهل الكلام والجدل التي اتصفت بها معظم كتب العقائد إن لم تكن كلها، والتي حُجِبَ بسببها نور الوحي الساطع الذي جعله الله حياة القلوب ومنهجاً لنهوض الأمة وسبباً لقوتها واستمرار مجدها وشوكتها.

وقد قسمت الكتاب إلى الأبحاث التالية:

1 ـ مفهوم الإيمان.

2 ـ مقتضيات الإيمان.

3 ـ توحيد الربوبية.

4 ـ توحيد الألوهية.

5 ـ الميثاق.

6 ـ شهادة أن لا إله إلا الله (أركانها ـ شروطها ـ نواقضها ـ آفاقها).

7 ـ شهادة أن محمداً رسول الله (مفهومها ـ أركانها ـ نواقضها).

8 ـ توحيد الأسماء والصفات.

9 ـ صفة العلو لله تعالى.

10 ـ رؤية الله يوم القيامة.

11 ـ مستلزمات العبودية وتوحيد الألوهية والأسماء والصفات.

12 ـ أدلة الأسماء والصفات من الكتاب والسنة.

13 ـ بعض الآفاق العلمية في مفهوم الصفات.

14 ـ توحيدالتشريع.

15 ـ حماية الوحي جناب التوحيد وسد كل ذرائع الشرك.

16 ـ الإيمان بالملائكة.

17 ـ الإيمان بالكتب .

18 ـ الإيمان بالرسل .

19 ـ الإيمان باليوم الآخر .

20 ـ الإيمان بالقدر .

21 ـ ثمرة منهج الإيمان .

22 ـ علامات الساعة ودلائل القيامة .

23 ـ شبهات في مسائل الألوهية وجوابها .

24 ـ شبهات في مسائل الأسماء والصفات وجوابها .

25 ـ شبهات في مسائل القدر وجوابها .

26 ـ الفِرَقُ وبيان مناهجها .

27 ـ منهج الوحْيين في بناء العقيدة الصحيحة .

28 ـ آثار غياب منهج الإيمان في حياة المسلمين .

وقد بدأت في وضع محاور هذا البحث أيام التخصص في الولايات المتحدة الأمريكية مستفيداً من المراجع والأمهات التي كانت تغدو إلى المراكز الإسلامية من مختلف مكتبات العالم الإسلامي ، ثم قدّر الله لي أن أعرض معظم هذه الأبحاث على منبر مسجد البراء بن عازب بدمشق بعد عودتي من أمريكا؛ حتى شاء الله سبحانه إخراج هذه الموسوعة في أصول الدين ، التي أرجو الله أن يسدّ بها حاجة طلبة العلم خاصة والمسلمين عامة ، وقد استفدت من تخصصاتي في علوم الرياضيات والهندسة في التدليل بدقة على كل أصل من هذه الأصول أو أمر من الأمور العَقَدية والإيمانية ، والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم إنه نعم المولى ونعم النصير .

الدكتور المهندس مأمون حموش

الخميس 14 رمضان 1422

29 تشرين الثاني 2001

-1-

- مفهوم الإيمان -

المقدمة: الحمد لله الذي وصف نفسه بأوصاف الكمال والجمال ، فلا يبلغ تمام مِدْحته صاحبُ علم أو حجة أو مقال ، والحمد لله الذي أنشأ الخلق وما أفاد من تجربة ولا فكر ولا أمثال ، فقد فطر السماوات والأرضين بقدرته وخلق الشمس والقمر والنجوم والجبال ، والشجر والدواب والبحار والأنهار وأنشأ السحاب الثقال ، ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ . خلق التربة يوم السبت ثم خلق يوم الأحد الجبال ، وخلق الشجر يوم الاثنين والمكروه يوم الثلاثاء والنور يوم الأربعاء وبث فيها من الدواب يوم الخميس كما روى ذلك الإمام أحمد عن الثقات من الرجال ، ثم أحال المخلوقات لوقتها ولأَمَ بين مختلفاتها وغرّز غَرَائزها فتبارك الله الكبير المتعال ، لا مرد لأمره ولا تغيير لحكمه وما لهم من دونه من وال .

أما بعد: فقد مدح الله في كتابه الإيمان وأهله في أكثر من موضع ، وأثنى على المؤمنين الذين يقولون ويفعلون ، ويجدون ويعملون ، ويخبتون ويخشعون ، وهم من خشية ربهم مشفقون. فقال في سورة السجدة: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴾ .

وقال فيها: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

وقال في سورة البقرة: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ .

وقال في سورة الشورى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وقال في سورة العصر: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

وخاطب أهل الإيمان بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ خطاب تشريف وتكريم، وذلك في أكثر من موضع من القرآن.

فقال في سورة محمد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

وقال في سورة الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ﴾.

وقال في سورة الصف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

تعريف الإيمان:

أصل كلمة الإيمان في لغة العرب: من أَمِنَ، وهي من الأمن ضد الخوف، وقد وصف الله تعالى نفسه في القرآن بأنه المؤمن فقال في سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فالله سبحانه هو المؤمن لأنه آمَنَ عباده من أن يظلمهم. قال الرازي: (وأصل آمَنَ أأْمَنَ بهمزتين لُيِّنَت الثانية ومنه المَهَيمن وأصله مُؤأْمِن: لُيِّنت الثانية وقلبت ياء كراهة اجتماعهما وقلبت الأولى هاء كما قالوا أراق الماء وهَرَاقه). والعرب تقول: استأمن فلان إلى فلان إذا دخل في أمانه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾.

قال الأخفش: (يريد البلد الآمن وهو من الأمن).

وقد يطلق الإيمان لغة على التصديق المحض، وقد يستعمل في القرآن بهذا المعنى، كقوله تعالى في سورة يوسف: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾، وكقوله في سورة التوبة: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وكذلك لو استعمل

مقروناً مع الأعمال ، كقوله جل ذكره في سورة العصر : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ .

وأما الإيمان في مفهومه الشرعي فيشمل القول والعمل معاً ، كما يشمل على كل ما جاءت به اللغة العربية من مفاهيم جزئية ، فهو يتضمن الأمن والأمان والتصديق بالقلب والعمل بالجوارح والأركان ، كما قال جل وعز في سورة الأنعام : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ .

قال الحافظ ابن كثير عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ : (أما إذا استعمل ـ أي الإيمان ـ مطلقاً فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً) .

وهذا هو اختيار شيخ المفسرين الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله حيث قال : (والأولى أن يكونوا موصوفين بالإيمان قولاً واعتقاداً وعملاً) .

قال ابن عباس : (تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ثم قرأ : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ .

وقد علَّم جبريل عليه السلام النبي ﷺ بالوحي معنى الإيمان ، ثم علم النبي ﷺ ذلك أصحابه .

ففي سير أعلام النبلاء عن حمَّاد بن نَجيح : عن أبي عمران الجَوني ، عن جندب ، قال : (كنا غِلماناً حزاورة[1] مع رسول الله ﷺ ، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن ، ثم تعلمنا القرآن ، فازددنا به إيماناً) .

ما ينتظر المؤمنين في الدنيا :

وإذا كان شرف العلم بشرف المعلوم ، فإن علم الإيمان يتعلق بمعرفة الله ،

(1) جمع حَزَوَّر وهو الغلام إذا قارب البلوغ .

ومعرفة رسوله ، ومعرفة دين الله ، ومن ثم فإن علم الإيمان يحقق للإنسان السعادة والفوز العظيم ، في الدنيا والآخرة.

ولقد وعد الله المؤمنين في الدنيا بوعود كثيرة ، منها :

1 ـ النصر على أعدائهم ، قال تعالى : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم : 47].

2 ـ الدِّفاع عنهم ، قال تعالى : ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج : 38].

3 ـ الوِلاية لهم ، قال تعالى : ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة : 257].

4 ـ الهِداية لهم ، قال تعالى : ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج : 54].

5 ـ عدمُ تسليط الكافرين عليهم ، قال تعالى : ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء : 141].

6 ـ التمكين لهم والاستخلاف في الأرض ، قال تعالى : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور : 55].

7 ـ الرزق الطيب ، قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف : 96].

8 ـ العِزَّة ، قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون : 8].

9 ـ الحياة الطيبة ، قال تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل : 97].

هذا بعض ما يفوز به المؤمنون في الدنيا ، وهذا ما تحقق للأوائل المؤمنين الصادقين.

أما الدار الآخرة فحسبهم قول الله سبحانه : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف : 107 ـ 108] ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [لقمان : 8 ـ 9].

والمتأمل واقع المسلمين اليوم يجد أن ما وعد الله المؤمنين به في الدنيا غير مُتَحقِّقٍ لهم ، مما يشهد بضعف إيمانهم ، ويخبر أنهم فقدوا صفاتٍ كثيرة من الإيمان أو أكثرها ، فغاب عنهم في حياتهم الدنيا ما وعد الله به المؤمنين من : النصر ، والوِلاية ، والدفاع ، والهداية ، والاسْتخلاف ، والتمكين ، وعدم تسليط الكافرين ، والرزق الَطيب ، والعِزة ، والحياة الطيبة . ومن ثم فإن من استمر على حاله هذا فلربما يخسر نفسه في الآخرة فضلاً عن خسارته لما وعد الله به المؤمنين في دار الخلود والنعيم .

الإيمان يزيد وينقص :

فالإيمان يزيد وينقص كما دلت على ذلك نصوص القرآن والسنة ، ففي التنزيل :

1 ـ ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال : 2] .

2 ـ ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم : 76] .

3 ـ ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر : 31] .

4 ـ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح : 4] .

5 ـ ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [آل عمران : 173] .

6 ـ ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [آل عمران : 167] .

7 ـ ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة : 124-125] .

وأما السنة الصحيحة :

1 ـ ففي الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ قال : [لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين](1) .

---

(1) مختصر مسلم (23) ورواه البخاري .

2 ـ وفي صحيح البخاري عن أنس عن النبي ﷺ قال: [لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه][1]، وفي صحيح مسلم: [لا تؤمنوا حتى تحابوا][2]، [من غشنا فليس منا][3]، [من حمل علينا السلاح فليس منا][3].

3 ـ وفي صحيح البخاري عن أنس عن النبي ﷺ قال: [يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير (وفي رواية معلقة وصلها الحاكم ووصلها البخاري: من إيمان)، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن بُرَّةٍ من خَيْر، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير][4].

4 ـ وكتب عمرُ بن عبد العزيز إلى عديٍّ بن عديٍّ: (إن للإيمان فرائضَ وشرائعَ وحدوداً وسُنناً، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن أعش فسأبيِّنُها لكم حتى تعملوا بها، وإن أمُتْ فما أنا على صحبتكم بحريص). ذكره البخاري في كتاب الإيمان من صحيحه: «باب: قول النبي ﷺ بني الإسلام على خمس» وهو قول وفعل، ويزيد وينقص[5].

5 ـ وقال معاذ: (اجلس بنا نؤمن ساعة) البخاري[5].

6 ـ وقال ابن مسعود: (اليقين: الإيمان كله) البخاري[5].

7 ـ وقال ابن عمر: (لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما حاك في الصدر) البخاري[5].

8 ـ وقال عمار: (ثلاث من جمعهنَّ فقد جمع الإيمان، الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالَم، والإنفاق من الإقتار) البخاري[6].

---

(1) مختصر البخاري (13).
(2) جزء من حديث أبي هريرة، مختصر مسلم (42).
(3) مختصر مسلم (1235).
(4) مختصر البخاري (41)، الزبيدي.
(5) مختصر صحيح الإمام البخاري ص 6-7 الألباني.
(6) المرجع السابق ص 12.

9 ـ وفي الأثر عن عمر أنه كان يقول لأصحابه : (هلموا نزدد إيماناً) شرح العقيدة الطحاوية .

10 ـ ثم وصف النساء بأنهن ناقصات عقل ودين ، وحديث الشفاعة في خروج من كان في قلبه أدنىٰ أدنىٰ أدنىٰ مثقال ذرة من إيمان من النار وغيره ، فكيف يقال بعدها أن إيمان أهل السماوات والأرض سواء؟ .

الوحي مصدر الإيمان :

ثم نزل جبريل عليه السلام لِيُثَبِّتَ للصحابة ما تعلموه في قلوبهم ، فأتاهم في مجلسهم مع نبيهم ﷺ ، فأخذ يسأله عن أصول الدين والإيمان ثم يصدقه بما يجيب .

ففي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : [بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال يا محمد : أخبرني عن الإسلام؟ قال : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحجَّ البيت إن استطعت إليه سبيلا ، قال : صدقت .

فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرني عن الإيمان؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت ، قال : فأخبرني عن الإحسان؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : فأخبرني عن الساعة؟ قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل . قال : فأخبرني عن أماراتها؟ قال : أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان . قال : ثم انطلق ، فلبثت ملياً ، ثم قال لي : يا عمر! أتدري من السائل؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم][1] .

---

(1) صحيح مسلم (30/1) ومختصر مسلم (2) من حديث أبي هريرة بلفظ مشابه .

فبدأ بالإيمان بالله وهو أعلى درجات الإيمان ، فإن الإيمان بضع وسبعون شعبة .

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [الإيمان بضع وسبعون شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان] واللفظ لمسلم[1] .

والإيمان بالله هو الإيمان بما وصف الله به نفسه سبحانه من غير تمثيل ولا تأويل ولا تعطيل ، بل تنزيه أسمائه وصفاته ومحامده كما يليق بجلاله سبحانه ، وكما عَلِمها وعلَّمها نبيّه ﷺ . ومصدر العلم عن الله هو الوحي الكريم ، ولذلك كان وقع الوحي شديداً على النبي ﷺ ، لأن الله أراد أن يلقي عليه قولاً ثقيلاً ، وديناً عظيماً ، فلابد أن يلتمس قوة ما يوحى إليه ، ولابد أن يدرك المؤمنون قيمة الإيمان الذي يدعو إليه .

يروي الإمام البخاري عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : [أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ : أحياناً يأتيني مثل صلصلة[2] الجرس ، وهو أشده علي فيفصم[3] عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول .

قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصّد[4] عرقا][5] .

وكذلك فقد أخرج البخاري في «كتاب بدء الوحي» من صحيحه ، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : [أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثلَ فلقِ الصبح ، ثم حُبِّبَ إليه

---

(1) مختصر مسلم (30) .
(2) صوت وقوع الحديد بعضه على بعض ويطلق على كل صوت له طنين .
(3) يقلع .
(4) من الفصد وهو قطع العِرق لإسالة الدم فشُبه جبينه بالعرق المفصود مبالغة لكثرة العرق .
(5) مختصر البخاري (2) الزبيدي .

الخلاء وكان يخلو بغار حِراء فيتحنث فيه قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى فجئه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ ، قال: ما أنا بقارىء. قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجَهْد ثم أرسلني فقال: اقرأ ، قلت: ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجَهْد ثم أرسلني فقال: اقرأ ، قلت: ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾. فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره ، فدخل على خديجة بنتِ خويلد. فقال: زملوني زملوني ، فزمّلوه حتى ذهب عنه الرّوع ، فقال لخديجة مالي؟ وأخبرها الخبر ، وقال: لقد خشيت على نفسي. فقالت له خديجة: كلا ، أبشر فوالله ما يخزيك الله أبداً ، فوالله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكلَّ وتكسِبُ المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بنَ نوفلَ بنِ أسد بن عبد العزى بن قصي ، وهو ابن عم خديجة أخي أبيها ، وكان امرؤاً قد تنصَّر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عَمِيَ. فقالت له خديجة: يا ابن عمِّ اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبرَ ما رأى ، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى ، يا ليتني فيها جَذَعا ، ليتني أكون حياً إذ يخرجُك قومُك ، فقال رسول الله ﷺ: ومُخرجي هم؟ قال: نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي (وفي رواية: أوذي) وإن يدركني يومُك أنصُرك نصراً مؤزراً ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي][1].

فكان الإيمان مصدره الوحي ، نزل على قلب رسول الله ﷺ ، فعلَّمه أسماء الله وصفاته وتوحيده ، وأخبره وَرَقَةُ بأن ضريبة هذا الإيمان محاولة أعداء الله النيل من أوليائه ، ولكن الغلبة والنصر في غاية الطريق للحق وأهله ، كما قال جل ثناؤه: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: 21] ، ﴿ ٱلَّذِينَ إِن

---

(1) مختصر البخاري (3) في بدء الوحي ، وأخرجه مسلم في الإيمان ، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ، رقم: 160.

﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: 41].

وقد أخذ الصحابة الكرام منهج الإيمان من مشكاة النبوة ، فكان فهمهم هو الفهم ، وعلمهم هو العلم ، ومضى على أثرهم التابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين ، فكان اتباعهم هدى وخلافهم ضلالاً . قال تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران: 31]. وقال جل ذكره: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: 115]. وقال أيضاً: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النور: 54].

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153].

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [آل عمران: 105].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [الأنعام: 159].

قال الإمام الطحاوي رحمه الله: (ونتبع السنة والجماعة ، ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة)(1).

وفي صحيح الترمذي عن العرباض بن سارية قال: [وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب ، فقال قائل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع؟ فماذا تعهد إلينا؟ فقال: أوصيكم بالسمع والطاعة ، فإنه مَنْ يَعِشْ منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين

(1) متن العقيدة الطحاوية: (73).

المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومُحَدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة)[1] .

قال ابن مسعود : (من كان مستناً فليستن بمن قد مات فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة ، أبرَّها قلوباً وأعمقها علماً ، وأقلّها تكلفاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيّه وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم في آثارهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم) .

وقال عمر : (السنة ما سنّه الله ورسوله ﷺ ، لا تجعلوا خطأ الرأي سنة للأمة) .

وقال أبو بكر الصديق : (أي أرض تقلني وأي سماء تظلني ، إن قلت في آية من كتاب الله برأيي ، أو بما لا أعلم) .

وعن ابن سيرين قال : (لم يكن أحدٌ أهيبَ لما لا يعلم من أبي بكر ، ولم يكن بعد أبي بكر أهيب لما لا يعلم من عمر ، وإن أبا بكر نَزَلَتْ به قضية فلم يجد في كتاب الله منها أصلاً ولا في السنة أثراً ، فاجتهد برأيه ثم قال : هذا رأيي فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمني وأستغفر الله) .

قواعد منهج الإيمان :

وأصول الدين والمنهج واحدة عند الرسل جميعهم صلوات الله وسلامه عليهم ، وكلهم أرسل بدين الإسلام ، وإن اختلفت الشرائع أحياناً باختلاف الأزمنة والظروف والأقوام التي بعثوا فيها .

قال الإمام الطحاوي رحمه الله : (ودين الله في الأرض والسماء واحد ، وهو دين الإسلام ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ وهو بين الغلو والتقصير وبين التشبيه والتعطيل وبين الجبر والقدر ، وبين الأمن والإياس)[2] . وتفصيل ذلك :

---

(1) صحيح الترغيب (34/1) .

(2) متن العقيدة الطحاوية (103-104) .

1 ـ الدين الحق واحد:

فقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: 85]، عام بكل زمان، ولكن الشرائع تتنوع كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: 48].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: [والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم وحد][1].

2 ـ بين الغلو والتقصير:

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: 77].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: 87-88].

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها: [أن أناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج رسول الله ﷺ: عن عمله في السر؟ ـ وفي رواية: عن عبادته في السر فكأنهم تقالوها ـ فقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال:

[ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا؟ لكني أصوم وأفطر وأنام وأقوم وآكل اللحم وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني][2].

3 ـ بين التشبيه والتعطيل:

فيجب وصفه سبحانه بما وصف به نفسه ووصفه رسوله.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

فقوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ رد على المشبهة، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ رد على المعطلة.

---

(1) جزء من حديث أطول. مختصر مسلم (1618).

(2) وانظر حديث أنس، مختصر مسلم (795) بلفظ مشابه.

4ـ بين الجبر والقدر :

فالعبد غير مجبور على أفعاله وأقواله وأنها ليست بمنزلة حركات المرتعش وحركات الأشجار بالرياح وغيرها ، وليست مخلوقة للعباد بل هي فعل العبد وكسبه وخلقُ الله تعالى .

5ـ بين الأمن والإياس :

يجب أن يكون العبد خائفاً من عذاب ربه راجياً رحمته ، قال تعالى : ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة : 16] .

السُّنَّة والإيمان :

قال الحافظ ابن رجب : (وإنما خصوا هذا العلم باسم السُّنَّة لأن خطره عظيم والمخالف فيه على شفا هلكة) .

وقال سفيان الثوري : (استوصوا بأهل السنة خيراً فإنهم غرباء) ابن رجب .

وقال الفضيل بن عياض : (أهل السنة : من عرف ما يدخل في بطنه من حلال) ابن رجب .

والسُّنة عند المحدثين : (ما أثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير ، أو صفة خِلقية أو خُلقية أو سيرة ، سواء كان قبل البعثة أو بعدها ، وهي بهذا ترادف الحديث عند بعضهم)[1] .

والسُّنة عند الأصوليين : (ما جاء منقولاً عن النبي ﷺ على الخصوص مما لم ينص عليه في الكتاب العزيز ، بل إنما نُصَّ عليه من جهته عليه الصلاة والسلام وكان بياناً لما في الكتاب أولاً)[2] .

والسُّنة عند الفقهاء : (ما ثبت عن النبي ﷺ من غير افتراض ولا وجوب)[3] .

والسُّنة عند أهل الحديث ـ من العلماء المتأخرين ـ : (عبارة عما سلم من

---

(1) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للسباعي ، ص 47 .

(2) الموافقات للشاطبي ج4 ص47 .

(3) إرشاد الفحول للشوكاني ص 31 .

الشبهات في الاعتقادات خاصة في مسائل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ومسائل القدر وفضائل الصحابة). وقد صنفوا بذلك تصانيف سموها كتب السنة (كالسّنة لابن أبي عاصم ، السنة للإمام أحمد ، السنة للالّكائي ، السنة لأبي بكر الخلال. . .) بينما صنَّف ذلك بعضهم تحت اسم الإيمان ، ككتاب الإيمان لابن منده ، وكتاب الإيمان لابن أبي شيبة وغيرهم.

* * *

- 2 -

ـ مقتضيات الإيمان ـ

1-التصديق بكل ما جاء من عند الله :

فالمؤمن يصدق بكل ما أخبر به الله ورسوله دون شك أو ريب ، ويؤمن أن كل ما خالفَ خبر الله ورسوله فهو باطل مهما زيّنه أصحابه .

قال تعالى : ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس : 32] .

قال ابن جرير في التفسير : (فأي شيء سوى الحق إلا الضلال ، وهو الجور عن قصد السبيل) .

وقال تعالى : ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ[1] ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين : 7-8] .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [قال الله تعالى : شتمني ابنُ آدم ، وما ينبغي له أن يشتمني ، وكذبني ، وما ينبغي له أن يكذبني ، أما شتمه إياي فقوله : إن لي ولداً ، وأنا الله الأحد الصمد لم أَلِدْ ولم أُولد ولم يكنْ لي كُفْواً أحد ، وأما تكذيبُهُ إيايَ ، فقوله : ليس يعيدني كما بدأني ، وليس أولُ الخلق بأهونَ عليَّ من إعادته][2] .

2- طاعة الله عز وجل وطاعة رسوله ﷺ .

فإن الإيمان بالله ورسوله واليقين بوعده سبحانه ، والثواب والعقاب الذي رتّبه

---

(1) بالجزاء بعد البعث والحساب .

(2) ورواه أحمد والنسائي ، انظر صحيح الجامع (4199) .

جل ثناؤه للطائعين والعاصين ، يحمل المؤمن أن يتحرى في عمله موافقة الكتاب والسنة .

قال تعالى : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء : 69] .

وقال تعالى : ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ [النساء : 80] .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ، قال رسول الله ﷺ: [كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبىٰ ، قيل : ومن يأبىٰ؟ قال : من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى][1] .

3- **أداء الفرائض :**

فإن القلب الذي عُمِر بالإيمان تنطلق منه إشارات إلى الجوارح لامتثال الأعمال الصالحة والاجتهاد في أداء الفرائض ، وأما من ادعىٰ الإيمان بقلبه دون القيام بالفرائض فقد خدعه الشيطان بإيمان كاذب .

ففي صحيح البخاري من حديث النعمان بن بشير ، عن النبي ﷺ قال : [ألا وإن في الجسد مضغةٌ ، إذا صلحت صلحَ الجسد كلُّه ، وإذا فسدت فسدَ الجسد كلُّه ، ألا وهي القلب][2] .

وروى الطبراني ، وحسنه الألباني ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [خمس من جاء بهن مع إيمان دخل الجنة : من حافظ على الصلوات الخمس ، على وضوئهن ، وركوعهن ، وسجودهن ، ومواقيتهن ، وصام رمضان ، وحج البيت إن استطاع إليه سبيلاً ، وآتى الزكاة طيبة بها نفسُه ، وأدى الأمانة. قيل: يا رسول الله! وما أداء الأمانة؟ قال: الغُسل من الجنابة ، إن الله لم يأمَنْ ابنَ آدم على شيء من دينه غيرها][3] .

---

(1) وهو في صحيح الجامع برقم (4389) .
(2) البخاري : كتاب الإيمان ، باب : فضل من استبرأ لدينه .
(3) صحيح الترغيب (365/1) .

4ـ القيام بالواجبات والانتهاء عن المحرمات :

فلا يتم إيمان العبد إلا بقيامه بما أوجبه الله عليه ، وانتهائه عما حرمه الله عليه ، طبْقاً لما جاءنا من رسول الله ﷺ.

قال تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر : 7].

وفي الصحيحين عن أبي أيوب رضي الله عنه : [أن رجلاً قال للنبي ﷺ : أخبرني بعمل يُدخلني الجنة . قال. تعبدُ اللهَ ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصِلُ الرحم][(1)].

وفي المسند عن علي رضي الله عنه قال : [لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ، وموكلَه ، وشاهدَه ، وكاتبه ، والواشمةَ ، والمستوشمةَ ، ومانعَ الصدقة ، والمحلِّل والمحلَّل له] وحسنه الألباني في الترغيب 756/1 . ونحو ذلك كثير كثير.

5ـ التوبة والاستغفار :

يسارع المؤمن إلى التوبة والاستغفار كلما استزله الشيطان ببعض ما كسب فأوقعه في شباك المعصية ، فيندم ولا يصر ويقبل على الله بسؤاله المغفرة.

قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : 135].

وفي معجم الطبراني بسند صحيح عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : [مامن عبدٍ مؤمن إلا وله ذنب ، يعتاده الفينة بعد الفينة ، أو ذنب هو مقيمٌ عليه لا يفارقه ، حتى يفارق الدنيا ، إن المؤمن خلق مُفتَّناً ، تواباً ، نسيّاً ، إذا ذُكِّرَ ذَكَرَ][(2)].

وفي المسند والسنن عن أبي بكر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : [مامن عبدٍ

---

(1) وله شواهد كثيرة تظهر الصلة بين الإيمان والعمل وامتثال الأوامر الإلهية ، انظر صحيح الترغيب (748,747/1).

(2) صحيح الجامع (5611).

يُذنب ذنباً فيتوضأ ، فيحسن الطُّهور ، ثم يقوم فيصلي ركعتين ، ثم يستغفر الله لذلك الذنب ، إلا غفر الله له][1] .

6 ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

قال تعالى : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [التوبة : 71] .

فجعل سبحانه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مُقتضيات الإيمان .

قال أبو العالية : (كل ما ذكره الله في القرآن من «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» فـ«الأمر بالمعروف» ، دعاء من الشرك إلى الإسلام ، و«النهي عن المنكر» النهي عن عبادة الأوثان والشياطين)[2] .

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي ﷺ قال : [من رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان] .

وفي لفظ : (ليس وراء ذلك حبَّةُ خرْدل من إيمان)[3] .

فجعل النبي ﷺ بين قوة الإيمان في قلب المؤمن وقيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ارتباطاً وثيقاً ، وبترك ذلك يكون الخسران قال تعالى : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ .

وفي المسند وصحيح الترمذي عن حذيفة ، عن النبي ﷺ قال : [والذي نفسي بيده لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتنهوُنّ عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم][4] .

7 ـ دعوة الناس إلى دين الله وجهاد الصادين عن سبيل الله :

يسعى المؤمن الذي ذاق حلاوة الإيمان وتمكن حبّ الله من قلبه إلى دعوة أهله

---

(1) صحيح الترغيب (680/1) .

(2) تفسير الطبري . التوبة : آية (71) .

(3) انظر صحيح أبي داود (1034) ، وتخريج المشكاة (66) .

(4) صحيح الجامع (6947) .

وجيرانه ومن حوله والناس جميعاً إلى الخروج من ظلمات الجاهلية والكفر والغفلة إلى نور الإيمان والقرآن والهداية ، ويتحمل في ذلك الأذى محتسباً الأجر والثواب عند الله سبحانه .

قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت : 33] .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [من دعا إلى هُدى كان له من الأجر مِثْلُ أجور من تَبِعَهُ لا ينقُصُ ذلك من أجورهم شيئاً][1] .

وأما الذين يصدون عن سبيل الله ويحاولون الوقوف في طريق الدعوة يبغونها علواً في الأرض وظلماً فأولئك يجب على المؤمن أن يجاهدهم حتى يمكنٍّ لدين الله من الانتشار ، ليؤمن من آمن عن بيِّنة ، ويهلِك من هلك عن بيِّنة . قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصف : 10 - 13] . وقال تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال : 39] .

قال قتادة : (يقول : قاتلوهم حتى لا يكون شرك ، «ويكون الدين كله لله» ، حتى يقال : لا إله إلا الله ، عليها قاتل نبي الله ﷺ ، وإليها دعا)[2] .

وقال ابن جريج : (أي : لا يفتن مؤمن عن دينه ، ويكون التوحيد لله خالصاً ليس له فيه شرك ، ويُخْلع ما دونه من الأنداد)[2] .

وقال ابن زيد : (حتى لا يكون كفر ، «ويكون الدين كله لله» ، لا يكون مع دينكم كفر)[2] .

---

(1) ورواه أحمد وأصحاب السنن بألفاظ كثيرة متقاربة ، انظر صحيح ابن ماجه : باب من سَنَّ سنة حسنة أو سيئة .

(2) تفسير الطَّبري . سورة الأنفال ، آية 39 .

وفي صحيح مسلم عن عقبة بن عامر ، عن النبي ﷺ قال: [لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله ، قاهرين لعدوهم ، لا يضرهم من خالفهم ، حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك][1] .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [من مات ولم يَغْزُ ولم يحدث به نفسه ، مات على شُعْبة من نِفاق][2] .

وفي صحيح أبي داود عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: [إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد ، سلط الله عليكم ذلاً ، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم][3] .

8ـ موالاة المؤمنين والتبرؤ من الكافرين:

الوَلاءُ: هو حُبٌّ وَوُدٌّ ومُناصَرَةٌ وتأييدُ المؤمن لأخيه المؤمن ، ومن ثَمَّ فإن من أهم مقتضيات الإيمان أن يستكمل المؤمن ولاءَه لإخوانه المؤمنين ، ولا يُعطي المؤمن ولاءَه إلا على أساس الإيمان. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: 55-56].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 71].

وقد جعل الله للمؤمن أسوة حسنة في التبرؤ من الكافرين ، قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: 4].

---

(1) وله ألفاظ كثيرة ذكرها ابن ماجه في السنن: باب اتباع سنة الرسول ﷺ. المجلد الأول ، تحقيق الألباني.

(2) ورواه أحمد وأبو داود والنسائي ، صحيح الجامع (6424).

(3) ورواه أحمد وصححه الألباني ، السلسلة الصحيحة (11).

وفي الصحيحين وسنن ابن ماجه عن حذيفة ، عن النبي ﷺ قال : [تكون دعاةٌ على أبواب جهنم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها ، هم قوم من جلدتنا ، يتكلمون بألسنتنا ، فالزم جماعة المسلمين وإمامهم ، فإن لم تكن جماعةٌ ولا إمام فاعتزل تلك الفِرقَ كلَّها ، ولو أن تعضَّ بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت كذلك][1] .

* * *

---

(1) رواه البخاري في الفتن ، ومسلم في الإمارة .

- 3 -

ـ توحيد الربوبية ـ

توحيد الربوبية معناه: الإقرار بأن الله عز وجل هو الفاعل المطلق في الكون بالخلق والتدبير والتغيير والتسيير والزيادة والنقص والإحياء والإماتة والحكم والتشريع والضر والنفع وغير ذلك من الأفعال التي لا يشاركه فيها أحد من خلقه. قال الله في سورة يونس: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ [يونس: 31].

فالله سبحانه وحده خلق العالم، وله الأمر والتدبير في هذا الكون، وليس ثمَّ صانعان لهذا العالم متكافئان في الصفات والأفعال.

وأصل كلمة الربوبية في لغة العرب من (رَبَبَ). قال الرازي: (ربُّ كل شيء مالِكُه، والرَّبُ اسم من أسماء الله تعالى، ولا يقال في غيره إلا بالإضافة، وقد قالوه في الجاهلية للملك). وقيل الربّ السيد والمالك والمربي.

وتفصيل ذلك:

1 ـ **الرب**: بمعنىٰ المربي، من التربية والإصلاح، ولذلك قيل الرباني: المتألِّهُ العارف بالله تعالى، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: 79]. قال ابن عباس: (أي حكماء علماء حلماء). وقال الحسن: (فقهاء). وقال أيضاً: (يعني أهل عبادة وأهل تقوى)[1].

(1) انظر تفسير ابن جرير، آل عمران آية 79.

2 ـ **الرب** : بمعنى المالك ، مثل قول عبد المطلب لأبرهة : (إني أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه)[1].

3 ـ **الرب** : بمعنىٰ السيد ، نحو قول يوسف عليه السلام حين جاءه رسول الملك : ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسف : 50].

وهذه المعاني الثلاثة كلها حق بالنسبة لله تعالى ، وثابتة له عز وجل ، وإن كان أشهر هذه المعاني وألصقها بالله عز وجل أنه المالك لكل شيء في هذا الوجود.

ويتضمن الإيمان بتوحيد الربوبية الإيمان بما يلي :

1 ـ لا خالق إلا الله :

فكل من آمن أن أحداً غير الله تعالى ينشىء شيئاً من العدم فهو كافر ، ومنه قوله تعالى في سورة الطور : ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ .

والأدلة على وجود الخالق سبحانه وتعالى غير منحصرة لأن كل مخلوق هو بذاته دليل على خالقه.

قال شيخ الإسلام : (كيف يطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء). وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت :

وليس يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

وقال آخر :

فيا عجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية ... يدل على أنه واحد

وفي التنزيل : ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف : 54].

وقد اعترف بهذا المفهوم غالب البشر : ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [العنكبوت : 61].

ولم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم ، بل القلوب جميعاً مفطورة

---

(1) سيرة ابن هشام ، قصة الفيل.

على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات ، كما قال سبحانه في سورة إبراهيم : ﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ .

وأشهر من عُرِفَ تجاهله وتظاهره بإنكار الصانع فرعون ، ولكنه كان متيقناً به في الباطن ، وإنما دفعه إنكاره الظاهر له حبُّ الرياسة والخوف على السلطان والهيبة والملك ، ففضحه الله سبحانه بقول موسى عليه السلام له : ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴾ [الإسراء : 102-103]. وكشف سبحانه ماخَبَّأَ فرعون في قلبه ، وما تجاهلت حاشيته حرصاً منهم على الدنيا وزينتها ، وأن تكون لهم الكلمة النافذة في الأرض ، واستمرار العيش في القصور والاستمتاع بملذات هذه الدنيا الفانية ، فقال سبحانه في سورة النمل : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل : 13-14].

وقد صور لنا القرآن في موضع آخر محاولة فرعون الهزيلة في تجاهل الحق حين قال لموسى : ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فقال له موسى : ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ فأراد فرعون أن يظهر اندهاشاً مُصطنعاً متكلفاً أمام حاشيته : ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ فأعاد عليه موسى الحقيقة التي يحاول التفلت منها : ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ فحاول فرعون ثانية صرف الحقيقة إلى الاستهزاء والهزل : ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ فأعادها عليه موسى قوية ثاقبة لنفسه الساحرة : ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء : 23 ـ 28].

بينما جاء وقع البيان أشد حين ضيّق موسى الخناق على منافذ الهروب لدى فرعون وعلى كل طرق التفلت عنده ، فلنستمع إلى الحوار الذي دار بينهما كما جاء في سورة طه .

قال فرعون هارباً من الاعتراف بالربوبية لله الواحد الأحد : ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ فأجابه موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ . فلما رأى

فرعون الجواب صريحاً قاطعاً حاول الهرب بسؤال لا علاقة له: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ فأعاده موسى إلى ما يفر منه: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ ثم عرّفه بخالقه وخالق هذا الكون الفسيح: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾. فلما هُزم فرعون أمام حجة الوحي وحقيقة الفطرة التي تشهد بالربوبية لله الواحد الأحد، لجأ إلى اتهام نوايا موسى وهارون عليهما السلام، واتهام الحق بالسحر شأن أكثر الأمم مع رسلها: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 76-78].

وخلاصة القول: إنه لم يُعرف عن أحد من الطوائف أنه قال: (للعالم صانعان متماثلان في الصفات والأفعال)، حتى المانوية القائلون بالأصلين: النور والظلمة، وأن العالم قد صدر عنهما، متفقون على أن النور خير من الظلمة، وهو الإله المحمود، وأن الظلمة شريرة مذمومة، وكذلك النصارى القائلون بالتثليث لم يثبتوا ثلاثة أرباب بل هم متفقون أن صانع العالم واحد، وإنما يقولون: باسم الابن والأب وروح القدس إله واحد، وحتى المشركون من العرب لم يكونوا يعتقدون بأن الأصنام مشاركة لله في الخلق، بل كانوا كما قال الله عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ وإنما حالهم كحال مشركي الأمم من الهند والترك والبربر يظنون أن هذه تماثيل قوم صالحين من الأنبياء والأولياء، فيتخذونهم شفعاء ويتوسلون إلى الله بهم، فهذا هو أصل شرك العرب.

فقد أخرج الإمام البخاري عن ابن عباس قال: [صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد: أما ودّ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي كلاع، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا

إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً ، وسمّوها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت][1] .

وكذلك روى ابن جرير بسنده عن محمد بن قيس : ﴿ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرًا ﴾ قال : (كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم) .

ولقد كان العرب في الجاهلية على دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، حتى جاء عمرو بن لحي فأحدث فيهم الشرك بعبادة الأصنام ، نقلها إليهم من حيث رآها كآثار (ود ، وسواع ، . . .) لذلك استحق وعيد الله وخزيه .

ففي المسند بسند صحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [إن أول من سيّب السوائب وعبد الأصنام أبو خزاعة عمرو بن عامر ، وإني رأيته في النار يجرُّ أمعاءه فيها][2] .

ولقد دل على وجود الله تعالى الفطرة والعقل والشرع والحس .

أما دليل الفطرة : فإن كل مخلوق قد فطر على الإيمان بالخالق من غير سبق تفكير أو تعلم ، ويظهر ذلك جلياً عندما يقع الإنسان في شدّة أو مأزق : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل : 62] .

وأما دلالة العقل : فإن كل مخلوق لابد له من خالق ، كما قال الأعرابي : (البعرة تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا تدل على اللطيف الخبير) .

وأما دليل الشرع : فكل الكتب السماوية نطقت بإثبات وجود الخالق سبحانه .

قال الله في القرآن : ﴿ ۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ [إبراهيم : 10] .

---

(1) رواه البخاري (511/8-512) في تفسير سورة نوح .

(2) أخرجه أحمد (446/1) وصححه الألباني في الصحيحة (1677) .

وأما دلالة الحس: فتظهر من إجابة دعوات المكروبين والمظلومين في كل زمان ومكان، كما تظهر من المعجزات التي أعطاها الله لأنبيائه عليهم السلام.

2 ـ لا مالك ولا متصرف في الكون إلا الله:

فالله سبحانه وحده المتصرف في هذا الكون، ولا يشاركه في التدبير أحد، فهو المالك المدبر المتحكم وله الكبرياء، قال في سورة الشورى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. وقال في سورة الزمر: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وقال لنبيه في سورة آل عمران: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾.

وأمر رسوله أن يقول للناس: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: 49].

ومن ثمّ فمن اعتقد أن هناك من يتصرف في الكون سوى الله فقد كفر، ومن اعتقد أن أرواح بعض المشايخ تشارك الله في تصريف أمور العالم فقد خرج من الملة.

قال في البزازية: (من اعتقد أن أرواح المشايخ حاضرة تتصرف في الكون فقد كفر).

وفي التنزيل: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: 26].

ولقد ضلّ قوم ظنوا أن الأنبياء والأولياء يتصرفون بعد موتهم فصاروا يلجؤون إليهم وقت الشدائد ويبثون إليهم حاجاتهم ويستجيرون بهم ويدعونهم من دون الله، فيشركون ويجهلون، وقد قال الله لنبيه: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: 22]، وقال له: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الروم: 52]، فأنّى لغيره أن يسمعهم.

ففي المسند للإمام أحمد، بسند صحيح عن أبي تميمة قال: شهدت رسول الله ﷺ وأتاه رجل فقال: أنت رسول الله أو قال أنت محمد؟ فقال: نعم، قال: فإلامَ تدعو: قال: [أدعو إلى الله وحده، مَنْ إذا كان بك ضرّ فدعوته كشفه عنك، ومن إذا أصابك عامُ سنة فدعوته أنبت لك، ومن إذا كنت في أرض قَفْرٍ فأضللت فدعوته ردّ عليك][1].

---

(1) وانظر صحيح الجامع (242/1).

وأما اعتقاد بعض الناس حضور بعد الأرواح بعد موت أصحابها مجالس الأحياء فهو خرافة يبطلها العقل والنقل ، وما ثبت من رد النبي ﷺ السلام على من سلّم عليه من أمته ، وأن الله يرد عليه روحه ليرد السلام فهو خاص بالنبي ﷺ وهو ضمن مفاهيم حياة البرزخ التي تختلف عن حياتنا ولا يعلم تفصيل ذلك إلا الله .

ففي سنن أبي داود بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [مامن أحد يُسلم عليَّ ، إلا ردّ الله عليَّ روحي ، حتى أرُدَّ عليه السلام](1) .

وفي المسند بسند صحيح عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : [إن لله تعالى ملائكة سيّاحين في الأرض ، يبلغوني من أمتي السلام](2) .

وله شاهد عند الديلمي وحسّنه الألباني عن أبي بكر الصديق مرفوعاً : [أكثروا الصلاة عليَّ ، فإن الله وكّلَ بي ملكاً عند قبري ، فإذا صلّى عليّ رجل من أمتي قال لي ذلك الملك : يا محمد : إن فلان بن فلان صلى عليك الساعة](3) .

ومن ثمّ فإن إيماننا بأن الأنبياء أحياء في قبورهم وكذلك الشهداء يبقى مطلقاً دون تفصيل ، فإن حياة البرزخ غيب لا يعلمها إلا الله ، فهي ليست من جنس حياتنا .

3 ـ لا ضار ولا نافع على الحقيقة إلا الله :

قال الله في سورة الأنعام : ﴿ قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ .

ومن ثمَّ فكل ما يحصل به الضر والنفع من الأشياء فليس ذلك لقوة فيها ، وإنما بخلق الله تعالى ذلك فيها ، وهو سبحانه يسلب من المواد الضارة ضررها متى شاء ، ومن المواد النافعة نفعها متى شاء ، كما حصل لنبينا إبراهيم وموسى عليهما السلام بشأن النار والماء .

وما يعتقده بعض العوام من الضر والنفع في التمائم والخرزة الزرقاء وحدوة الحصان والنعل القديمة والعجينة ، وما يتشاءمون منه كيوم الأربعاء أو صوت البوم

(1) وانظر السلسلة الصحيحة (2266/5) .
(2) تخريج المشكاة للألباني (924) .
(3) السلسلة الصحيحة (1530/4) .

أو الهر الأسود كل ذلك من الاعتقادات الجاهلية التي حاربها الإسلام وأنكرها ، فالله وحده هو القادر على دفع الضر والمصائب ورفع البلاء ، فهو الذي أنزله بعدله ولو شاء رفعه ، كما قال جل ثناؤه في سورة الزمر : ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن عمران بن حُصين رضي الله عنه : [أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حلقة من صُفر ، فقال : ما هذا؟ قال : من الواهنة. فقال : انزِعها ، فإنها لا تزيدك إلا وهناً ، فإنك لو مِتَّ وهي عليك ما أفلحت أبداً][1] .

والواهنة عرق يأخذ في المنكب وفي اليد ، وقيل مرض يأخذ في العضد ، يصيبُ الرجال دون النساء ، يُرقى منه عادة ، فنهاه النبي ﷺ عن اتخاذ تلك الحلقة فإنها لا تنفعه بل تضره وتزيده ضعفاً بإذن الله .

وأخرج أبو داود بسند صحيح عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت : [إن عبد الله رأى في عنقي خيطاً ، فقال : ما هذا؟ قلت : خيط رقي لي فيه ، قالت : فأخذه ثم قطعه ، ثم قال : أنتم آل عبد الله لأغنياء عن الشرك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الرقى والتمائم والتولة شرك][2] .

والتمائم : هو شيء يعلق بأعناق الأولاد يتقون به العين ، من خرزات وعظام وغير ذلك مما يشبه القلائد التي كان أهل الجاهلية يقلدون بها دوابهم ويظنون أنها تدفع العين .

والرقى هي ألفاظ جاهلية كانوا يتعوذون بها ، ومثلها تعويذات بعض الناس التي تذكر أو تكتب لدفع البلاء ككتابة القرآن منكوساً. وأما التولة فشيء يصنعونه

---

(1) أحمد في المسند (445/4) وابن ماجه في الطب (3531) ، وهو حديث صحيح ، انظر فتح المجيد /125 .

(2) رواه أبو داود في الطب (3883) ، وأحمد في المسند (381/1) ، وهو حديث صحيح ، وانظر فتح المجيد/133 .

يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها ، والرجل إلى زوجته ، وهو ضرب من ضروب السحر .

وفي السنة الصحيحة ، عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه قال : [كنت مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره ، فأرسل رسولاً أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت][1] .

ثم إنه من صور اعتقاد الضر والنفع بغير الله التبرك بالأحجار والأشجار والقبور ونحو ذلك من التماثيل والأصنام .

وأما الرقى فنوعان : مشروعة وممنوعة .

أما المشروعة : فما كان بالقرآن الكريم وأسماء الله وصفاته وما صحّ عن رسول الله ﷺ من أدعية ومأثورات .

وأما الممنوعة : فما كان من رقىٰ الجاهلية وتعاويذها المجهولة أو المنحرفة ، وكذلك ما كان بغير العربية أو بالحروف المقطعة أو بالأرقام والخطوط غير المفهومة . وقد صحّ عن النبي ﷺ أنه قال : [اعرضوا عليّ رقاكم ، لابأس بالرقىٰ ما لم تكن شِركا][2] .

والرقىٰ الجائزة المتفق عليها ما كان كلاماً يتلفظ به ، وأما تعليقها على الأطفال أو غيرهم ففيه خلاف بين أهل العلم والأولى المنع .

4 ـ لا مشرع للخلق إلا الله وحده :

فهو سبحانه دوه غيره المالك لأن يقول هذا حلال وهذا حرام ، هذا حق وهذا باطل ، هذا خطأ وهذا صواب .

قال الله في سورة الشورى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ .

---

(1) رواه البخاري (98/6) في الجهاد ، ومسلم (2115) في اللباس والزينة .

(2) رواه مسلم (2200) في السلام ، باب لا بأس بالرقى مالم يكن فيه شرك ، وهو من حديث عوف بن مالك قال : [كنا نرقي في الجاهلية ، فقلنا : يا رسول الله ، كيف ترى في ذلك؟ فقال : اعرضوا عليَّ رقاكم ، لابأس بالرقىٰ مالم تكن شركاً] .

وقال في سورة الأعراف: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقال في سورة الرعد: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾.

وقال في سورة الكهف: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾.

وقال في سورة الإسراء: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾.

وقال في سورة النحل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾.

وقال في سورة التوبة: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وفي جامع الترمذي بسند حسن: [أن النبي ﷺ تلا هذه الآية ـ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ـ على عدي بن حاتم الطائي، فقال: يا رسول الله لسنا نعبدهم. قال: أليس يحلّون لكم ما حرّم الله فتحلونه، ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟ قال: بلى. قال النبي ﷺ: فتلك عبادتهم](1).

ومن ثم فكل من شرع للناس أو رضي بتشريع مخالف لتشريع الله سبحانه داخل في وعيد الله وتهديده لأولئك الذين حرّفوا وبدّلوا في الأمم قبلنا.

5 ـ والقضاء والقدر بيد الله تعالى:

فكل ما ينفع في الكون من خلق ورزق وموت وحياة وعزة وذلة ونقص وزيادة كله بتقدير الله سبحانه وتعالىٰ.

قال الله في سورة القمر: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾.

وفي المسند وجامع الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [قدّر الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرضين بخمسين ألفَ سنة](2).

---

(1) حسن. أخرجه الترمذي (3095)، وانظر تخريج تفسير ابن كثير، تحقيق عبد الرزاق المهدي.

(2) صحيح الجامع (4256).

6 ـ ولا عالم للغيب إلا الله تعالى :

قال جل ثناؤه في سورة الأنعام : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ .

وقال سبحانه في سورة النمل : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ .

وقال في سورة الجن : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ .

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : [مفاتيح الغيب خمس لا يعلمُها إلا الله تعالى : لا يعلم أحد ما يكون في غدٍ إلا الله تعالى ، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام إلا الله تعالى ، ولا يعلم متىٰ تقوم الساعة إلا الله تعالى ، ولا تدري نفس بأي أرض تموتُ إلا الله تعالى ، ولا يدري أحدٌ متى يجيءُ المطر إلا الله تعالى][1] .

ولو كان النبي ﷺ يعلم بالغيب لما خفيت عليه أمور كثيرة ، ولما قال ـ كما يروي الشيخان عن أم سلمة ـ: [إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إليّ ، فلعل بعضكم أن يكون ألحنَ بحجته من بعض ، فأقضي له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق مسلم ، فإنما هي قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها][2] .

ومن هنا كان فساد اعتقاد أن بعض الأئمة يعلمون الغيب ، أو أن الغيب المدون في اللوح المحفوظ هو من علوم الرسول ﷺ حتى قال قائلهم :

وإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

وكذلك ما ينتشر بين بعض المسلمين من أمر التبصر بالكف أو الرمل أو الفنجان أو الأبراج أو السحر والكهانة كله من الكفر والعياذ بالله تعالى .

---

(1) ورواه أحمد في المسند ، وهو صحيح الجامع برقم (5760) .

(2) ورواه مالك وأحمد وأصحاب السنن ، وانظر تفصيل ذلك في الإرواء (2702) ، والصحيحة (1162) .

فإن قال قائل : إن المشركين كانوا معتقدين باختصاص الله تعالى بحق التشريع بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ﴾ ! .

قلنا إنهم كانوا يعتقدون بأن المشرع للخلق هو الله ، إلا أنهم يرون أن من حقهم أن يشرعوا لأنفسهم ما يقربهم إلى الله تعالىٰ .

* * *

- 4 -

- توحيد الألوهية -

توحيد الألوهية: وهو إفراد الله سبحانه بجميع أنواع العبادات الظاهرة والباطنة ، وأن الله وحده هو المستحق للعبادة .

ولذلك فهو يسمى توحيد العبادة والطاعة وتوحيد القصد والطلب .

وهذا التوحيد هو أول الدين وآخره وظاهره وباطنه ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فإنه الإله المألوه المعبود بالمحبة والخشية والإجلال والتعظيم وجميع أنواع العبادة .

وأصل الألوهية في لغة العرب من (أَلَه) يألَهُ إلاهَةً أي عبد . والتأليه : التعبيد ، و(التألُّه) التنسُّك والتعبُّد . قال الرازي : (ومنه قولنا الله وأصله (إلاه) على فِعَال بمعنىٰ مفعول لأنه مألوه أي معبود كقولنا إمام بمعنىٰ مُؤتَمٌّ به ، فلما أدخلت عليه الألف واللام حُذِفت الهمزة تخفيفاً لكثرته في الكلام) .

ومن أجل هذا التوحيد خلقت الخليقة وأرسلت الرسل وأنزلت الكتب ، وبه افترق الناس إلى مؤمنين وكفار ، وسعداء أهل جنة وأشقياء أهل نار .

قال الله في سورة الأنبياء : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ .

ولقد أفصح القرآن عن هذا النوع كل الإفصاح ، وأبدء فبه وأعاد وضرب لذلك الأمثال ، بحيث أن كل سورة في القرآن فيها دلالة على هذا التوحيد .

وهذا التوحيد كما ذكر العلماء يتضمن في حقيقته أنواع التوحيد الأخرى ، فيتضمن توحيد الله في ربوبيته وتوحيده في أسمائه وصفاته وليس العكس ، فقد يقر

العبد بالربوبية ولا يعبد الله عز وجل ، وقد يقر في الأسماء والصفات ولا يقر بإفراد الله بالعبادة ، ومن هنا كانت شهادة أن لا إله إلا الله متضمنة في مفهومها كل أنواع التوحيد.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: (وهذا التوحيد هو الفارق بين الموحدين والمشركين وعليه يقع الجزاء والثواب في الأولى والآخرة فمن لم يأت به كان من المشركين).

اقتضاء توحيد الربوبية توحيد الألوهية:

لما كان توحيد الألوهية هو اليقين المقترن بالعمل بأنه لا معبود ولا مألوه بحق إلا الله سبحانه ، وبأنه لا تُصرف عبادة إلا لوجهه الكريم ، فلا خضوع ولا تذلل إلا إليه ، فهو وحده الذي يُفرد باللجوء والدعاء والاستغاثة والاستعانة وكشف الضر وجلب النفع والرزق ، وهو وحده الذي يجأر إليه في النائبات والمصائب ، فإن ذلك كله يقتضيه صدق الإيمان بالربوبية.

فإن الذي خلق وأنبت وسخر الشمس والقمر وجعل بين البحرين حاجزاً ، وأرسل الرياح وأنزل الماء والمطر والثلج والبرد ، وذلّل الكون لخدمة بني آدم ، وحفّ الإنسان بما لا يحصى من النعم والخيرات ، وأحيا وأمات ورزق وبسط وقبض هو وحده المستحق للدعاء والعبادة والتذلل والخضوع والتعظيم ، وقد لفت القرآن انتباه المشركين إلىٰ هذه الآفاق.

قال الله في سورة النمل: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ
ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن
جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا
أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ
وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى
ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ
هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا

﴿يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٦٥ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ .

ومن هنا كانت دعوة الرسل صلوات الله وسلامهُ عليهم حين خاطبوا أقوامهم :

ليس هناك شركاء ولا شفعاء ولا وسطاء ، ومن حق كل امرىءٍ أن يُهرع إلى ربه عز وجل ، وأن ينكر من أقاموا أنفسهم أو أقيموا من غيرهم زلفىٰ إلى الله من البشر والحجارة .

وإذا كنتم تقرون بأنه الخالق فلم تخضعون لغيره ، وإذا كنتم تقرون بأنه المحيي والمميت فلم تسألون حجراً أو قبراً أو صالحاً مضىٰ لا يملك لنفسه موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

وإذا كنتم تقرون بأنه الرازق فلم تلتمسون الرضىٰ من غيره ، وإذا كنتم تقرون بأنه الممطر أرضكم والمخصب زرعكم فلم تشكرون غيره .

وإذا كنتم تقرون بأنه وحده يُلجأ إليه في الشدائد والنائبات والكرب ، فلم تسجدون لغيره ، ولم تستغيثون بغيره ، ولم تنافقون لبشر من خلقه ، ولم تحتكمون لغير شرعه ولغير منهاجه .

فاحتج الأنبياء والرسل على أقوامهم بإقرارهم لله بالربوبية ، لماذا لم يفردوه سبحانه بالألوهية ، ولماذا لم يوحدوه في أسمائه وصفاته ومحامده ، ولماذا لم يفردوه بالتشريع والحاكمية .

فهذه هي معاني توحيد الألوهية التي دعت إليها الرسل ، وقد احتجوا على أقوامهم بأنها من مستلزمات توحيد الربوبية الذي آمنوا به وأقروا بمفاهيمه ، وأنه لابد للعاقل المنصف أن تقوده إلى إفراد الله بالمحبة والتعظيم .

فإن التوحيد نوعان :

1 ـ **توحيد في المعرفة والإثبات** : وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات .

2 ـ **توحيد في الطلب والقصد** : وهو توحيد الإلهية والعبادة .

قال ابن القيم : (وأما التوحيد الذي دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب فهو نوعان : توحيد في المعرفة والإثبات ، وتوحيد في الطلب والقصد) .

فقد كان مشركو العرب مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء ، ومع هذا كانوا

مشركين ، فقد قال الله فيهم : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : 106].

قال طائفة من السلف : (تسألهم من خلق السماوات والأرض فيقولون الله وهم مع هذا يعبدون غيره).

قال الله في سورة المؤمنون : ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾.

وقال في سورة الأنعام : ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾.

ثم ذكرهم سبحانه بأنه هو الذي فلق الحب والنوى وأخرج من الميت حياة ، وفلق الإصباح وخلق للشمس والقمر حركة مفيدة ، وجعل النجوم لتهتدوا بها في البر والبحر ، وزين الأرض بجنات من نخيل وأعناب ورمان وذات ثمر بهيج ، فقال جل ذكره يصف أفعاله العظيمة ويدعو إلى توحيد التوجه له بعد هذه الذكرى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾
[الأنعام: 95 ـ 103].

فاقتضىٰ توحيد الربوبية عند أصحاب الفطرة توحيد الألوهية ، فمن أيقن بأنه لا خالق لهذا العالم إلا الله الأحد الذي بيده الرزق ، وبيده الخير والشر ، والذي يحيي ويميت وهو مالك كل شيء ، وهو المعز والمذل والمعطي والممسك ، والصمد الذي يلجأ إليه في النازلات ، والمدبر والمصرف للمقادير في هذا الكون الفسيح ، اقتضى هذا أن يُفردَ بالعبادة والتوجه ، وأن يوصف كما يحب هو سبحانه ويرضى لنفسه.

قال الله في سورة الزمر : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ .

العبادة: هي معنىٰ الحياة الدنيا ، وعلى مفهومها يُدرك ما سيجري في الدار الآخرة.

فالعبادة هي التذلل لله سبحانه بامتثال ما يحب واجتناب ما يكره ، تذلل مقرون بكامل المحبة له ـ جل ثناؤه ـ ولأوامره وشرعه وقدره ، وقد أجاد ابن القيم رحمه الله إذْ عرّفها بقوله :

وعبادةُ الرحمن: غاية حُبِّه ... مع ذُلِّ عابده ، هما قُطْبَانِ
وعليهما فلكُ العبادة دائر ... ما دار حتى قامت القطبانِ
ومدارُهُ بالأمر أمرِ رسوله ... لا بالهوىٰ والنفس والشيطانِ

وهي لغة مشتقة من العبودية والعُبودة ، فالعرب تقول عَبْدٌ بَيِّنُ العبودة والعبودية. وأصل العبودية: الخضوع والذل. و(التعبيد) التذليل يقال طريق معبد.

قال الرازي : (والعبادة : الطاعة ، والتعبُّدُ : التنسك).

قلت : فدخل المعنىٰ اللغوي في المعنى الاصطلاحي بعد أن أضيف له المحبة

للمعبود سبحانه ولشرعه ولأمره ، حتى تميز مفهوم التعبد والتذلل من مشاهداته في الحياة الدنيا بين الناس ومستعبديهم ليسمو إلى معناه الرفيع المتألق بين العباد وربهم جل ثناؤه ، قال سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ .

وفي التفاسير عن علي رضي الله عنه قال : (إلا لآمرهم أن يعبدوني وأدعوهم إلى عبادتي) . وقال مجاهد : (إلا لآمرهم وأنهاهم) .

وقد عرّفها شيخ الإسلام بقوله : (العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة) .

وقال في موضع آخر : (العبادة هي طاعة الله بامتثال ما أمر الله به على ألسنة الرسل) .

قال ابن القيم رحمه الله : (ومدارها على خمس عشرة قاعدة ، من كمَّلها كَمَّل مراتب العبودية) .

وبيان ذلك أن العبادة منقسمة على القلب واللسان والجوارح . والأحكام التي للعبودية خمسة : واجب ومستحب وحرام ومكروه ومباح ، وهن لكل واحد من القلب واللسان والجوارح .

بينما أفاد الحافظ ابن كثير رحمه الله في مفهوم العبادة حيث قال : (وعبادته هي طاعته بفعل المأمور وترك المحظور ، وذلك هو حقيقة دين الإسلام ، لأن معنى الإسلام الاستسلام لله تعالى ، المتضمن غاية الانقياد والذل والخضوع) .

وقد ذكر الإمام القرطبي رحمه الله تفصيلاً آخر حيث قال : (أصل العبادة : التذلل والخضوع ، وسميت وظائف الشرع على المكلفين عبادات ، لأنهم يلتزمونها ويفعلونها خاضعين متذللين لله تعالى) .

وكل هذه المعاني تصب في مفهوم واحد ، وهو أن الأصل في خلق الله عباده ليعبدوه ويعظموه وحده لا شريك له ، كما قال جل ثناؤه في سورة النحل : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ .

قال شيخ المفسرين رحمه الله : (أن اعبدوا الله وحده لا شريك له ، وأفردوا له الطاعة وأخلصوا له العبادة) .

وقال القرطبي في التفسير: (أي اتركوا كل معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم وكل من دعا إلى الضلال).

والطاغوت: مشتقة لغة من الطغيان، وهو مجاوزة الحدّ، وطغىٰ البحر هاجت أمواجه. قال الرازي: (والطاغوت الكاهن والشيطان وكل رأس في الضلال). ويكون واحداً كقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ ﴾ ويكون جَمْعاً كقوله تعالى: ﴿ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ ﴾ والجمع طواغيت.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (الطاغوت: الشيطان). وقال جابر رضي الله عنه: (الطواغيت كهان كانت تنزل عليهم الشياطين). وقال مالك: (الطاغوت كل ما عُبِدَ من دون الله).

وكذلك فهو يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والاستنصار بها، ويشمل اليوم كل ما ينصرف الناس إليه بقلوبهم عن الله ويخضعون له بمحبة وقصد، كالتعلق بالفواحش ورؤيتها ومتابعتها، والتعلق بأنواع من اللهو الذي يصرفهم عن حق الله وحق أنفسهم من رياضة ورقص ومعازف واختلاط وموضات وأزياء ومسابقات الجمال وإظهار عورات النساء، وكذلك فهو يشمل كل أشكال التحاكم وكل المناهج المطروحة اليوم في الأرض المعاكسة لفطرة الله ومنهجه الذي ارتضاه سبحانه للناس في الحكم.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: (الطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حدّه: من معبود أو متبوع أو مطاع، فَطاغوت كل قوم: من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله، فهذه طواغيت العالم، إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم أعرض عن عبادة الله تعالى إلى عبادة الطاغوت، وعن طاعة رسول الله ﷺ إلى طاعة الطاغوت ومتابعته).

والخلاصة: إن الله سبحانه خلق الخلق ليكرمهم بعبادته، وليرفعهم بامتثالهم لأوامره واجتنابهم لنواهيه، فكانت العبودية بذلك أعظم نسب وصلة ومقام بين

العبد وربه ، ولا شرف أرفع من شرف العبودية ومقامها ، فقد أثنى الله بها على خير عباده محمد ﷺ.

قال سبحانه في سورة الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

وقال في سورة الجن: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾.

وقال في سورة النجم: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾.

وقال في سورة البقرة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾.

وقال في سورة الأنفال: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقال عن عيسىٰ عليه السلام: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. [الزخرف: 59].

وفي صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [لا تطروني[1] كما أطرت النصارىٰ ابن مريم فإنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله].

ويوم خُيِّر نبينا ﷺ بين الملك والعبودية ، اختار نصيحة جبريل عليه السلام بالتزام مقام العبودية.

فقد أخرج ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء فإذا ملك ينزل ، فقال له جبريل: هذا الملك ما نزل منذ خلق قبل الساعة ، فلما نزل قال: يا محمد! أرسلني إليك ربك ، أمَلِكاً أجعلك أم عبداً رسولاً؟ فقال له جبريل: تواضع لربك يا محمد ، فقال رسول الله ﷺ: لا ، بل عبداً ورسولاً] وصححه الألباني[2].

---

(1) الإطراء: المبالغة في المدح والتغالي فيه. والحديث في صحيح الجامع برقم (7240).
(2) السلسلة الصحيحة (1002).

فاختار عليه الصلاة والسلام نصيحة جبريل له بالتواضع ولزوم مقام العبودية ، ليكون بذلك أسوة للعالمين ، وهذا المقام يحبه الله ويرفع به ، فكلما امتثل العبد أوامر ربه عز وجل أورثته هذه الطاعة تواضعاً ورِقّة تظهر آثارها بين الناس فيحبه أهل الأرض.

فقد أخرج الطبراني وحسنه الألباني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: [مامن آدمي إلا في رأسه حكمة[1] بيد ملك ، فإذا تواضع قيل للملك ارفع حكمته ، وإذا تكبر قيل للملك دع حكمته][2].

ولذلك فقد وعد الله سبحانه بالفرج وذهاب الهم والحزن لمن التجأ إليه بجوامع الكلم التي علمنا إياها رسول الله ﷺ مبتدئاً بالإقرار بالعبودية له سبحانه ، وبالتذلل بين يديه والتواضع على أبوابه.

فقد أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [ما أصاب أحداً قط هم ولا حَزَنٌ فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمَتِك ، ناصيتي بيدك ، ماض فيّ حكمك ، عدل فيّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سَمَّيْتَ به نفسك أو أنزلته في كتابك ، أو عَلَّمْتَه أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي إلا أذهب الله همّه وحزنه وأبدله مكانه فرجاً ، فقيل: يا رسول الله ألا نتعلمها؟ قال: بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها][3].

فشمل هذا الدعاء العظيم الإقرار بالعبودية له سبحانه والتذلل أمام كبريائه والتوسل إليه بأسمائه وصفاته ، وهذا من أعظم الكلام الجامع الذي جعله الله سبباً لفرج أكبر الكروب وأعظمها ، وزوال أصعب الهموم وأعقدها ، فحري بالمسلم أن يتأملها ويتدبرها ، ويكثر الإلحاح على ربه بها ، لعل الله سبحانه أن يكشف المصاب ويرفع الآلام والأحزان التي تغلغلت في حياة المسلمين اليوم بها.

---

(1) موضع الناصية من الرأس.

(2) صحيح الجامع (5551).

(3) ورواه ابن السني من حديث أبي موسىٰ بلفظ آخر. انظر تخريج الأذكار للنووي ص 203 ، دار الفكر. تحقيق أحمد راتب حموش.

حل العقدة الكبرىٰ:

لقد حارت البشرية قديماً وحديثاً في حل ما يسمونه بالعقدة الكبرى ، وهي المتمثلة بالإجابة عن الأسئلة الثلاثة : من أين؟ ولماذا؟ وإلى أين؟

من أين أتينا إلى هذه الحياة ، ولماذا نحن فيها ، وإلى أين نحن ذاهبون بعد الموت؟!

وكانت النتيجة أن تخبط الفلاسفة في الإجابة عليها وانقسموا مذاهبَ ومسالك شتىٰ ، فمن مؤله للطبيعة وأحجارها ، أو للشمس والقمر والكواكب ، وأنها سبب الوجود وتستحق العبادة ولوازمها ، أو مؤله للنور أو النار أو الأبقار والحيات وغيرها ، أو ظان أنه لا معاد ولا نشور بل فناء وقبور ، أو عابد للشهوات والفروج والنساء وأن الحياة ملذات وتسابق في الفرح والاستمتاع وخدمة الغرائز.

فأجاب الله تعالى في الحديث القدسي الجامع عن هذه المعضلات المحيّرة ، ألا يعلم من خلق ولم خلق وأين القرار والمنتهىٰ ، فلنصغ جميعاً إلى كلام الجبار عز وجل: روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما روىٰ عن الله تبارك وتعالى أنه قال: [يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أُطْعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكْسُكُم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم ، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضَرِّي فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقىٰ قلب رجل واحدٍ منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد ، فسألوني ، فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المِخْيطُ إذا أُدخل البحر ، يا عبادي إنما هي أعمالكم ، أحصيها لكم

(وفي رواية: عليكم) ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله عز وجل ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلا نفسه][1] .

فأجاب سبحانه عما حيَّر الناس وفلاسفتهم بهذا الحديث العظيم ، فجواب السؤال الأول (من أين)؟ هو قوله جل ثناؤه (يا عبادي) أي إن البدء كان بإرادته سبحانه ، خلقهم وخلق أرزاقهم وأحوالهم ومعايشهم ، وخلق هذا الكون الفسيح يعيشون في جزء منه ، فهم جزء من خلقٍ كثير أراد الله إيجاده من عدم ، جلت قدرته وأسماؤه وأفعاله وصفاته ، ثمَّ أجاب عن السؤال الثاني (ولماذا)؟ بقوله: (فاستهدوني ، فاستطعموني ، فاستكسوني ، فاستغفروني) فالمطلوب من خلقه صرف التوجه كاملاً إلى الله خالقهم وموجدهم ، فلا يملك الهداية أحد سواه ، ولا يملك أحد أن يطعم نفسه أو يرزقها أو يكسوها إلا بإذنه ، فلقد خلقهم حفاة عراة محتاجين إلى طعام وكسوة ورزق وهداية ، فذلل لهم هذا ورحمهم ، فخلق آباءهم وأمهاتهم وجعل الرحمة بينهم وأنزل أرزاقهم وطعامهم وكسوتهم ، فإذا ما ترعرعوا ومضوا في هذه الحياة تربصت بهم الشياطين لتجتالهم عن فطرتهم وعن دينهم الذي فطرهم الله عليه ، فاحتاجوا إلى بارئهم فعلمّهم أن يلجؤوا إليه وأن يطلبوا الهداية منه ، ليأمن الطريق من قُطاعه الشياطين ، ومن تهديد المستقبل من إبليس اللعين ، إذ يدعوهم إلى البغي والاستكبار في الأرض ، ثم الجواب عن السؤال الثالث (وإلى أين)؟ كان الجواب في قوله سبحانه : (إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه) أي إنكم ذاهبون إلى دار القرار ، دار الجزاء والحساب ، إلى الدار الآخرة ، فمن وجد خيراً فليحمد الله الذي ساق له الخير وهداه له ، وذلَّل له طريق الجنة وحماه في الدنيا من اتباع الهوى والشياطين ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه التي اتبعها فظلمها ، وعظم شهواتها فأرداها ، وضيع الوقت وبدّد العمر في الكبر والعجب والشبهات إلى يوم منتهاه ، فلا يلومن إلا نفسه وهواه .

ومن هنا ندرك دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، إنما توجهت لحمل الناس أن يفردوا ربهم بالعبادة ، كما قال شيخ الإسلام: (التوحيد الذي جاءت به الرسل ،

---

(1) صحيح مسلم (17/8) ، وأحمد في المسند (160/5) .

إنما يتضمن إثبات الإلهية لله وحده ، بأن يشهد أن لا إله إلا الله : لا يعبد إلا إياه ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يوالي إلا له ، ولا يعادي إلا فيه ، ولا يعمل إلا لأجله. وذلك يتضمن إثبات ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات).

وفي التنزيل: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163].

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: 117].

﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: 45].

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: 4].

والقرآن العظيم كله عن التوحيد وحقوقه وجزائه ، وعن مناقضات التوحيد ، وهي الشرك بأنواعه ، وأهله وجزائه ، كما قال ابن القيم رحمه الله : (وأما التوحيد الذي دعت إليه الرسل ، ونزلت به الكتب فهو نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات ، وتوحيد في الطلب والقصد ، فالأول هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه ، وتكلمه بكتبه وتكليمه لمن شاء من عباده ، وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمته ، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جدّ الإفصاح كما في أول سورة الحديد وسورة طه ، وآخر الحشر وأول تنزيل: السجدة ، وأول آل عمران ، وسورة الإخلاص بكمالها وغير ذلك. النوع الثاني: ما تضمنته سورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64] ، وأول سورة تنزيل الكتاب وآخرها وأول سورة المؤمن ووسطها وآخرها وأول سورة الأعراف وآخرها وجملة سورة الأنعام وغالب سور القرآن بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد ، شاهدة به داعية إليه ، فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأقواله ، فهو التوحيد العلمي الخبري ، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له

وخَلْع ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي ، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته وأمره ونهيه فهو حقوق التوحيد ومكملاته ، وإما خبر عن إكرام أهل التوحيد وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة ، فهو جزاء توحيده ، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يَحُلُّ بهم في العُقْبى من العذاب ، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد ، فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم) .

فحديث أبي ذر عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي . . .) اشتمل على محاور التوحيد وجزائه ومستلزماته ، وتضمن الحل الكامل الأمثل للعقدة الكبرىٰ .

ألوان الشرك في تاريخ الأمم ونواقض توحيد الألوهية :

لقد فصل القرآن الكريم الحديث عن الشرك وألوانه في حياة الأمم التي دمرّها الله تعالى ، وبيّن أن إقرار المشركين بوجود الله وملكه للكون لا يكفي للنجاة من عذابه ، بل لابد من إفراده سبحانه بالألوهية .

قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس : 31] .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف : 9] .

وقال جل ذكره : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف : 87] .

وقال جل ثناؤه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت : 61] .

وقال : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان : 25] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت : 63] .

فلقد أقر المشركون لله أنه مالك الأرض، ورب السماوات ، ورب العرش العظيم، وبيده ملكوت كل شيء ، وأنه يجير ويرزق ويحيي ويميت ، وأنه خالق السماوات والأرض ، وخالق الإنس ، ومسخر الشمس والقمر ، ومنزل المطر ، ومع ذلك :

1 ـ يجعلون له أنداداً يحبونهم كحب الله . قال تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة : 165] .

2 ـ يطلبون العزة من آلهة لا يلبثون أن يكفروا بها ، أو من عبيد لله مخلوقين لا يلبثون أن يبرؤوا منهم ويكونون عليهم ضدا . قال تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم : 81-82] .

3 ـ يتجهون إليهم في طلب النصرة مع أنهم لا يستطيعون نصرهم . قال تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ [يس : 74-75] .

4 ـ يفرحون ويستبشرون عند ذكر آلهتهم ويشمئزون من ذكر الله وحده . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر : 45] .

5 ـ ينفرون من ذكر الله وحده ، ويحبون ذكر آلهتهم الأخرىٰ معه .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ [الإسراء : 46] .

6 ـ يحللون ويحرمون حسب أهوائهم ، فيميزون آلهتهم في القسمة ويسيئون الأدب مع الله .

قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الأنعام : 136] .

فيستندون إلى الهوىٰ أثناء تقسيمهم الزروع والأنعام ، فيردون نصيب شركائهم الذي يصل إلى الله ، ولا يردون نصيب الله الذي يصل إلى شركائهم ، فتقرعهم الآية في النهاية على سوء أدبهم وفساد حكمهم .

وقال تعالىٰ: ﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: 138-139].

فبيّن الله سبحانه أن المشركين يحرمون الأنعام والزروع على الإناث ويحللونها للذكور، أو يحرمونها إلاّ على خدّام الأصنام زعماً منهم أن الله أذن لهم بذلك، كما يحرمون البحيرة والسائبة والحامي أن تركب ظهورها أو يحمل عليها، ويحرمون كذلك الحج على بعض الأنعام، ثم هم ـ في الآية الثانية ـ يحرمون حليب الأنعام على النساء ويحللونه للذكور، وإن يكن ما يولد ميتاً فللنساء المشاركة في الأكل منه، فهددهم سبحانه بكذبهم عليه في التحليل والتحريم الذي إنما كان خاضعاً لأهوائهم.

وقال تعالىٰ يصف صورة أخرىٰ من صور تحريمهم وتحليلهم: ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: 143-144].

فقرعتهم الآيات بسؤالها لهم استهزاء بمنهاجهم في الحكم والتحليل والتحريم: هل حرم الله الذكرين أم الأنثيين؟ أم حرم ما احتوته أرحام الأنثيين؟ وقد كان هذا ضمن شرك العرب.

7 ـ زعم العرب أن الملائكة إناث وهم بنات الله. قال تعالىٰ: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: 57-59].

فقرعهم الله على حكمهم السيء عندما رأوا في وأد الأنثىٰ خلاصاً من سواد

الوجه والحيرة أمام عادات القوم الفاسدة ، فكيف يرضى أحدهم لله مالم يرضه لنفسه؟؟!!

وقال تعالى كذلك: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات: 149-159].

فوبّخهم سبحانه إذ زعموا أن الملائكة إناث ، ودعاهم إلى إثبات الحقيقة بعلم أو كتاب ، وأنّى لهم ذلك وهم يتبعون أهواءهم.

وقال تعالى أيضاً: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: 19-23].

أيحتكرون الذكر لأنفسهم ويتركون الأنثى لله تعالى؟! هذه قسمة غير عادلة ، عابها الله عليهم وعلى سوء أدبهم وخضوعهم للأهواء وشهوات النفوس.

وقال أيضاً: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ [الزخرف: 16-21].

والخلاصة: لا يخرج شرك العرب في جزيرتهم عن الشرك الذي وقعت فيه الأمم السابقة وكذبت به الرسل وعاندت الوحي واستكبرت في الأرض ألا وهو: اتباع الهوىٰ وتعظيم الشهوات والتنطع بالشبهات لخدمة تلك الشهوات.

فكيف واجه الوحي الكريم هذه الألاعيب والافتراءات من المشركين؟

1 ـ تحدّىٰ الوحي الكريم آلهتهم التي أحبوها واستبشروا بذكرها وطلبوا منها النصرة ، أن تخلق شيئاً ما ولو صغيراً ، لأن من أبسط صفات الإله الجدير بالتأليه : الخلق .

قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [فاطر : 40] .

وقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [الأحقاف : 4] .

وقال تعالىٰ : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان : 10-11] .

2 ـ استهزاء الوحي بهم وبشركهم وتخلف محاكماتهم .

قال تعالىٰ : ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ [فاطر : 40] .

وقال تعالىٰ : ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأحقاف : 4] .

فيستهزىء الله بهم : لعل كتاباً نزل عليهم بخصوص تعظيم آلهتهم دون علم من الله فهم متأكدون من صحته وصدقه .

وقال سبحانه : ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد : 16] .

وقال جل ذكره : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ

مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٣ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٤ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ [النحل: 4-21].

وقال جل ثناؤه: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣٤ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ [يونس: 34-35].

فأخبرهم سبحانه أنها كما لا تقدر على الخلق بإقرارهم، كذلك لا تقدر على الهداية، فكيف يحبونها ويعظمونها من دون الله؟!

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ [فاطر: 3].

3 ـ تحدّي الوحي الكريم المشركين أن يدعو آلهتهم لتجيبهم ولتكشف الضر عنهم! وأنىٰ لها ذلك وهي عاجزة ضعيفة مثلهم.

قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ [سبأ: 22].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ [الإسراء: 56].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُ

﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج : 73-74].

فَيَأَّسَهُمْ من آلهتهم بشكل نهائي ، وأخبرهم أنهم لا يمكنهم خلقَ أضعف مخلوقات الله ولو ساند بعضهم بعضاً وهو الذباب ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لن يستطيعوا رده ، ثم أكد ضعف الطرفين : آلهتهم والذباب ، فكيف لها أن تجيبهم مع هذا الضعف؟!

وقال جل ذكره : ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف : 191-195].

العوامل التي تجعل الإنسان يقع في حبائل الشرك :

1 ـ العجب بالعقل والرأي واتباع الهوىٰ :

قال تعالىٰ : ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية : 23].

وقال تعالىٰ : ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان : 43-44].

وقال تعالىٰ : ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف : 175-176].

وقال جل ذكره : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان : 7].

وقال تعالىٰ لنبيّه ﷺ: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص: 50].

وقال: ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [الروم: 29].

وقال: ﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ [القمر: 3].

2 ـ **تعظيم الشهوات والخضوع للغرائز:**

قال تعالىٰ: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم: 59].

فبين سبحانه أن ضلال الأمم بعد مجيء أنبيائهم يكون في وقوعها في الشرك باتباع الشهوات وقد نهىٰ الله تعالى أهل الكتاب أن يتبعوا أهواء القوم الضالين فقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة: 77]. إلا أنهم كانوا عند أسوء الظن فحرفّوا الشريعة بما يناسب شهواتهم وخضوعهم للغرائز.

ففي الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: [أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم (وفي لفظ لمسلم: ما تجدون في التوراة على من زنىٰ؟) فقالوا: نفضحهم ويجلدون (وفي لفظ مسلم: نسود وجوههما ونُحَمِّلُهُما ونخالف بين وجوههما ويطاف بهما. قال: فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) قال عبد الله بن سلام: كذبتم، إن فيها الرجمَ، فأتوا بالتوراة، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك فرفع يده، فإذا آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، فرأيت

الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة]. وفي لفظ : [فوضع يده عليه فقال : ارفع يدك فرفع ، فإذا آية الرجم تلوح ، قال : يا محمد إن فيها آية الرجم ولكنا نتكاتمه بيننا ، فأمر بهما فرجما][1] .

* * *

(1) البخاري : (7543,6841,3635) ومسلم : (1699) .

- 5 -

ـ الميثاق ـ

قال الإمام الطحاوي رحمه الله: (والميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم عليه السلام وذريته حق) متن الطحاوية (42).

وقد ذكر الله ذلك في سورة الأعراف فقال جل ثناؤه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

فأخبر سبحانه عن هذا الميثاق: أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أمام أبيهم أن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو.

أخرج الإمام أحمد بإسناد حسن عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: [أخذ الله تبارك وتعالى الميثاق من ظهر آدم بنعمان ـ يعني عرفة ـ (وفي رواية: يوم عرفة) فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلاً قال: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ»][1].

وفي صحيح الترمذي والحاكم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لما خلق الله آدم مسح على ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور، ثم عرضهم على آدم،

---

(1) أخرجه أحمد (272/1) والنسائي في «الكبرى» (11191) والحاكم عن ابن عباس مرفوعاً وصححه الألباني في السلسلة (1623).

فقال: أي ربّ، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأىٰ رجلاً منهم فأعجبه وبيصُ ما بين عينيه، فقال: أي رب، من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود، قال: ربّ كم عمره؟ قال: ستون سنة، قال: أي رب، زده من عمري أربعين سنة، فلما انقضىٰ عمر آدم، جاء ملك الموت، قال: أو لم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أولم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد! فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطىء آدم فخطئت ذريته][1].

وفي المسند عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: [أنه سُئل عن هذه الآية[2] فقال: سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال: إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية قال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره، فاستخرج منه ذرية قال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون.

فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: إن الله عز وجل إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتىٰ يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخل به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار، حتىٰ يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخل به النار][3].

ثم إنه سبحانه قد احتج بهذا الميثاق على أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة: ففي الصحيحين والمسند عن أنس عن النبي ﷺ قال: [يقول الله لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة: يا ابن آدم! كيف وجدت مضجعك؟ فيقول: شر مضجع، فيقال له: لو كانت لك الدنيا وما فيها أكنت مفتدياً بها؟ فيقول: نعم، فيقول: كذبت، قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم (وفي رواية: ظهر آدم) أن لا تشرك بي شيئاً ولا أدخلك النار فأبيت إلا الشرك، فيؤمر به إلى النار][4].

وقد كان هذا الميثاق نوراً قذفه الله في حياة الإنسان بعد أن خلقه في ظلمة،

---

(1) الترمذي (3076) وهو حديث حسن.
(2) آية الأعراف السابقة.
(3) قال الألباني: صحيح لغيره إلا مسح الظهر فلم أجد له شاهداً. تخريج الطحاوية فقرة (42).
(4) البخاري (3334)، ومسلم (2805)، وأحمد (129,127/3).

فأضاء له سبحانه به طريق النجاة وعرفه سبل السلام ، وحذره به من مغبة الاسترسال والمضي في الظلمة ، وما يعقب ذلك من مصائب وأسقام وآلام ، وبصره بذلك العهد نتيجة اتباع الشهوات وفتح نار الغرائز التي يمكن أن تدمره عبر الليالي والأيام ، إن لم يوازن في مشيه وبنائه بين السمو بالروح والعقل ، وبين حاجات الجسد والغرائز بشكل تمام .

ففي المسند وصحيح ابن حبان عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ أنه قال : [إن الله تعالى خلق خَلقه في ظلمة ، ثم ألقىٰ عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل][1] .

والظلمة : هي ظلمة الطباع والجهل والأهواء والخضوع للغرائز والشهوات ، والنور : هو نور الوحي ونور السنة ، نور النبوة والرسالات ، نور الفطرة والميثاق مع الله ، الذي أخذه سبحانه على عباده بنعمان وهو واد إلى جنب عرفات .

فاحتج سبحانه كما مضىٰ على أهون أهل النار عذاباً بذلك الميثاق وما تبعه من الفطرة ، كما قال الحسن البصري حين روى عن الأسود بن سريع مرفوعاً : (ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة . قال الحسن : ولقد قال الله ذلك في كتابه : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ -إلى قوله- ٱلْمُبْطِلُونَ﴾)[2] .

ثم إنه ليلوح لنا وإن كنا لا نتذكر جميعاً ذلك الميثاق الرباني ، فإنه كما أفاد العلامة الألباني ، حيث قال : (فإن الفطرة التي فطر الله الناس عليها والتي تشهد فعلاً بأن الله هو الرب وحده لا شريك له ، إنما هي أثر ذلك الميثاق)[2] .

فخلق الله الخلق في ظلمة ، وهي ظلمة الطباع والجهل والأهواء والخضوع للغرائز والشهوات ، ثم ألقىٰ عليهم من نوره : نور الوحي ونور السنة ، نور النبوة ونور الفطرة ، نور الميثاق ونور الرسالات ، ثم إن الشياطين قد استخفوهم من بعد ذلك فحملوهم على اجتراح الموبقات والسيئات .

---

(1) صحيح الجامع (1760) ، والسلسلة الصحيحة (1076/3) .

(2) السلسلة الصحيحة (1623/4) ، ص 163 .

خبر النبي ﷺ رواه مسلم عن عياض: [قال الله تعالىٰ: إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً][1].

وفي التنزيل: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: 257].

قال ابن القيم: (فأولياؤهم يعيدوهم إلى ما خلقوا فيه من ظلمة طبائعهم وجهلهم وأهوائهم، وكلما أشرق لهم نور النبوة والوحي وكادوا أن يدخلوا فيه منعهم أولياؤهم منه وصدوهم، فذلك إخراجهم من النور إلى الظلمات)[2].

وخلاصة القول: لقد استخرج الله ذرية آدم من صلبه وميز بعلمه بين أهل النار وأهل الجنة، وقد أشهدهم أمام أبيهم على ربوبيته المقتضية إفراده بالألوهية، فأقروا على توحيده، وبقيت الفطرة تشهد بذلك، وإنما قامت الحجة عليهم بالرسل والفطرة معاً، ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾. وأما قوله: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ ففيه أمران يحذرهم:

1 ـ ألاّ يدّعوا الغفلة.

2 ـ ألاّ يدّعوا التقليد.

فلو كان الآباء مهتدين كيوسف الصديق مع آبائه فنعم، حيث قال: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [يوسف: 38]. فقد صح اتباعهم لأنهم أثبتوا الألوهية لله سبحانه وعليه كان الاتباع، ومثله قول بني يعقوب له: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [البقرة: 133]. وأما إن كانوا مخالفين الرسل، فوجب على الابن اتباع الرسل

(1) أخرجه مسلم (2865)، وأحمد (266/4).

(2) اجتماع الجيوش الإسلامية ص 5.

كما قال جل ثناؤه: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ ﴾ [العنكبوت: 8].

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: 170].

* * *

- 6 -

- شهادة أن لا إله إلا الله -
أركانها - شروطها - نواقضها - آفاقها

الحمد لله الذي لا يحصي نعماءه العادّون ، ولا يؤدي حقّه المجتهدون ، ولا يحيط بعلمه العالمون ، أكرم عباده الصالحين بالإذن لهم بعبادته ، ونيل شرف الصلة به ، والسفر في بحار رضوانه ، وما في هذا السفر من سعادة لقلوبهم ، وأنس لوحشتهم ، فقطعوا مسافة دار الدنيا بما فيها من آلام ، بما زوّدهم به سبحانه في قلوبهم من قرآن وإيمان ، وعِلْم بأسمائه وصفاته ومحامده وما يتعلق بذلك من واجبات وأركان ، فهانت عليهم الدنيا ومصائبها وهان عليهم الطغاة في الأرض وما بيّتوا من مكر وإجرام ، لَمّا امتلأت نفوسهم وقلوبهم بحب لقائه ونيل الشهادة في سبيله والاستعداد لنفخة القيام ، ولمّا علموا مستلزمات كلمة التوحيد ومالها من شروط ونواقض وأركان .

لقد أفرز منهج العبادة في حياة الأنبياء الكرام عليهم صلوات الله وعلى نبينا محمد أخص الصلاة والسلام ، رجالاً مؤمنين كانوا جماعة الحق في حياة الرسل ، إذ أقاموا الإسلام في نفوسهم ، واعتزوا بصلتهم بخالقهم ، وأفردوه في توجههم ودعائهم ، ثم تحركوا بعونه فدكّوا معاقل الكفر والشرك في الأرض حولهم ، وكانوا حرّاس دين الله في أرجاء المعمورة ، حكموا بـ (لا إله إلا الله) وعاشوا من أجلها وربّوا نسلهم وذريتهم عليها .

فالأنبياء جميعاً بعثوا بـ (لا إله إلا الله) كما قال جل ثناؤه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء : 25] . ومن ثم فإن

هذه الكلمة العظيمة كانت منهج الأنبياء جميعاً صلوات الله وسلامه عليهم ، فمن أجلها عاشوا ، ولأجلها قاتلوا ، ولها بذلوا ، وعلى معانيها ولوازمها فاصلوا.

أما أركانها: فهما ركنان اثنان: النفي والإثبات.

أولاً ـ النفي: أي نفي استحقاق العبودية لكل أحد ، وهو قوله (لا إله).

ثانياً ـ الإثبات: أي إثبات استحقاق العبودية لله الواحد الأحد ، وهو قوله (إلا الله).

ففي الصحيحين عن معاذ رضي الله عنه قال: [كنت رُدْفَ رسول الله ﷺ على حمار ، ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرحل ، فقال: يا معاذ؟ هل تدري ما حق الله على عباده؟ وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإن حقّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً. فقلت: يا رسول الله! أفلا أبشر به الناس؟ قال: لا تبشرهم فيتكلوا](1).

أما شروطها ـ فهي:

1 ـ العلم المنافي للجهل:

فقد أمر الله المؤمن بالعلم بها وبمدلولها وبلوازمها ، حيث قال جل ذكره لنبيّه في سورة محمد: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾.

وفي صحيح مسلم عن عثمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة](2).

وفيه أيضاً عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار](3).

---

(1) البخاري (300/13) في التوحيد ، ومسلم (30) في الإيمان.

(2) ورواه أحمد. وهو في صحيح الجامع برقم (6428).

(3) رواه مسلم (93) في الإيمان: باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات مشركاً دخل النار.

2 ـ اليقين المنافي للشك :

والمقصود أن يكون القلب قائماً بها مستيقناً بمعانيها ، لا مرتاباً ولا شاكّاً ولا متردّداً .

فقد وصف الله المؤمنين بها بقوله في سورة الحجرات : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ .

فقوله : «لم يرتابوا» أي أيقنوا ولم يشكّوا .

وبهذا المفهوم روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : [أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، لا يلقىٰ الله بهما عبدٌ غير شاك فيهما إلا دخل الجنة . (وفي رواية : فيحجب عن الجنة)][1] .

3 ـ الإخلاص المنافي للرياء :

ومعناه تصفية العمل الصالح من جميع شوائب الشرك وحظوظ النفس وما يعتري النية ليفسدها ، كالرياء وحب الظهور أو حب الرياسة وتصدر المجالس أو حب الشهرة والسمعة وغير ذلك .

قال الله سبحانه في سورة البينة : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ .

وفي صحيح الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قلت يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ : [لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ ، أول منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه][2] وفي رواية : (خالصاً مخلصاً من قلبه) .

وفي صحيح الإمام مسلم عن عتبان بن مالك عن النبي ﷺ قال : [إن الله حرّم

---

(1) مختصر مسلم (10) ص 10 كتاب الإيمان .

(2) البخاري (174,173/1) في العلم .

على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله عز وجل][1] .

4 ـ الصدق المنافي للكذب :

وهو أن يقولها صدقاً من قلبه ليترجمها صدقاً في عمله ، فإن الله سبحانه يطلع على الصدق في قلوب عباده ، ويعلم ما يقولون وما يفعلون .

قال جل ذكره في سورة العنكبوت : ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ .

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه : [أن النبي ﷺ ومعاذ رديفه على الرحل ، قال يا معاذ ! قال : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال يا معاذ! قال : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال يا معاذ ! قال : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال : ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرّمه الله على النار . قال يا رسول الله : أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال : إذاً يتكلوا . فأخبر بها معاذ عند موته تأثّماً[2]][3] .

قال الوزير أبو المظفر : (لم يكن يكتمها إلا عن جاهل يحمله جهله على سوء الأدب بترك الخدمة في الطاعة ، فأما الأكياس الذين إذا سمعوا بمثل هذا زادوا في الطاعة ، ورأوا أن زيادة النعم تستدعي زيادة الطاعة ، فلا وجه لكتمانها عنهم)[4] .

5 ـ القبول المنافي للرّد :

وهو قبول ما اقتضته هذه الكلمة العظيمة بقلبه ولسانه ، فقد قال الله حكاية عن المشركين في سورة الصافات : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴾ . فهم يستكبرون أن يقولوها كما يقولها المؤمنون .

---

(1) البخاري (206/11)، ومسلم (33) في الإيمان .

(2) أي تحرّجا من الإثم .

(3) أخرجه البخاري في كتاب العلم . مختصر البخاري (103) ص 40 ، ومسلم في الإيمان (32) .

(4) قال الحافظ في الفتح : (وإخباره يدل على أنّ النهي عن التبشير كان على الكراهة لا التحريم) ، وانظر فتح المجيد ص 37 .

وفي صحيح الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [قال رسول الله ﷺ لعمه عند الموت: قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة ، فأبىٰ. (وفي رواية: قال: لولا أن تُعيِّرني قريش يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك). فأنزل الله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ و﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾][(1)].

6ـ الحب المنافي للبغض:

وهو الحب لهذه الكلمة الطيبة والمحبة لأهلها. فقد قال الله جل ثناؤه في سورة البقرة: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾.

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحب المرءَ لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقىٰ في النار. (وفي لفظ: كما يكره أن يقذف في النار)][(2)].

7ـ الانقياد المنافي للتمرّد:

وهو الاستسلام لما دلت عليه كلمة الشهادة ، فقد قال الله في سورة الزمر: ﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾.

وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: [أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله][(3)].

قال النووي: (لابد مع هذا من الإيمان بجميع ما جاء به الرسول ﷺ كما جاء في

---

(1) مختصر مسلم (3) ص 8. كتاب الإيمان.
(2) مختصر البخاري (16) ص 12 كتاب الإيمان ، ومختصر مسلم (22) ص 14 كتاب الإيمان.
(3) البخاري (71,70/1) في الإيمان ، ومسلم (22) فيه أيضاً.

الرواية: «ويؤمنوا بي وبما جئت به»). قلت: (يشير إلى رواية مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: [أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي، وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله] مسلم (21),(34) في الإيمان).

8ـ الكفر بالطواغيت:

والمقصود الكفر بكل ما يعبد من دون الله، فالمسلم يبني إيمانه على أنقاض الطاغوت الذي كفر به، لِتُصرف العبادة والتعظيم لله وحده لا شريك له.

قال الله في سورة البقرة: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وفي صحيح مسلم عن والد أبي مالك الأشجعي عن النبي ﷺ قال: [من قال لا إله إلا الله وكفر بما يُعْبد من دون الله حَرُمَ ماله ودمه. (وفي رواية: وحسابه على الله عز وجل][(1)].

وفي لفظ: [من وحّد الله تعالىٰ، وكفر بما يعبد من دونه، حَرُمَ ماله ودمه، وحسابه على الله عز وجل] ورواه الإمام أحمد عن أبي مالك الأشجعي عن أبيه مرفوعاً.

واليوم، هل قال المسلمون لا إله إلا الله بشروطها ولوازمها وهل أقاموا أركانها؟

كلا، لقد نقضوها فلم يتحاكموا إليها فسلط الله عليهم الفقر.

ونقضوها فلم يقيموا منهاجها فسلط الله عليهم الذل.

ونقضوها فلم يقيموا شرائعها فسلط الله عليهم المصائب والفتن والآلام.

ونقضوها وعكفوا على رؤية الفواحش والعمل بها فسلط الله عليهم الأمراض وجديد الأسقام والأوجاع.

---

(1) رواه مسلم رقم (23) في الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتىٰ يقولوا لا إله إلا الله.

فما هي نواقض كلمة الشهادة «لا إله إلا الله» وما هي معالم ذلك في حياة المسلمين اليوم؟

هذا ما سنراه في البند القادم إن شاء الله .

نواقض «لا إله إلا الله» :

لقد حذّر الله سبحانه من نقض عَقْد التوحيد والإيمان ، فقص علينا في القرآن قصص قوم نقضوا العهد وظلموا أنفسهم وتحاكموا لأهوائهم وشهواتهم فأذاقهم لباس الذل والهوان بما كانوا يصنعون .

قال جل ذكره في سورة الأنبياء : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَارْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ .

وأصل القَصْم في لغة العرب: الكسر ، قال مجاهد: (وكم قصمنا: وكم أهلكنا). وقوله: «منْ قرية» المراد أهل القرية التي كانت ظالمة ، وظلمها هو نقضها العهد مع الله سبحانه ، نقضها (لا إله إلا الله).

وقوله: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ أي محاولين الفرار. قال شيخ المفسرين الإمام ابن جرير رحمه الله: (فلما عاينوا عذابنا قد حلّ بهم إذا هم يهربون سراعاً عجلىٰ يَعْدون منهزمين). قال الله سبحانه: ﴿ لَا تَرْكُضُواْ ﴾ ، قال مجاهد: (لا تفروا) ، ﴿ وَارْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ ﴾ قال قتادة: (ارجعوا إلى دنياكم التي أترفتم فيها). ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴾ قال مجاهد: (لعلكم تفقهون).

وقال قتادة: (لعلكم تُسألون من دنياكم شيئاً استهزاء بهم).

أي لا تركضوا ولا تفروا لعلكم تسألون عن أنواع الخمور التي تعرفونها وعن أصناف المعازف والمسكرات التي كنتم تتقنونها. لا تركضوا وارجعوا لعلكم تسألون عن أسماء نجوم اللهو والفجور والمجون التي كنتم تفقهون بها. لا تركضوا لعلكم تسألون عن فقه استعمال الشاشات وفقه الاستمتاع بالنظر إلى العورات. لا تركضوا وارجعوا لعلكم تسألون عن الحيل التي كنتم تتعاملون بها في بيعكم وشرائكم وتجارتكم، وعن طرق التلاعب بالأسعار وسبل الرشوة والاحتكار.

لقد أخرج الطبراني بسد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: [خمس بخمس: ما نقض قوم العهد إلا سُلِّط عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طففوا المكيال إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر][1].

ورواه ابن ماجه والبزار والبيهقي ـ واللفظ له ـ بسند صحيح من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: [يا معشر المهاجرين خصال خمس إن ابتليتم بهن ونزلن بكم أعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتىٰ يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سُلِّطَ عليهم عدو من غيرهم فيأخذ بعض مافي أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله (عز وجل ويتحروا فيما أنزل الله) إلا جُعل بأسُهم بينهم. (وفي رواية: إلا جعل الله بأسهم بينهم)][2].

فنقص العهد مع الله سبحانه ونقض شهادة التوحيد يحمل الأمة إلى دفع ثمن ذلك غالياً: الفقر والأمراض والقحط والمصائب والآلام والفتن والزلازل وشدة المؤنة وجور السلطان وضنك العيش، كما قال جل ثناؤه في سورة طه: ﴿ وَمَنْ

(1) صحيح الجامع (3235)، تحقيق الألباني.
(2) صحيح الجامع (7855) والسلسلة الصحيحة (106).

أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ .

فإلى تفصيل نواقض الإسلام ، نواقض (لا إله إلا الله) :

ـ نواقض الإسلام ـ

أولاً ـ الشرك وأنواعه.

قال تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر : 65].

وقال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء : 48].

والشرك يتناقض مع الإسلام ، وهو أنواع :

1 ـ شِرْكُ من يؤمن بالله ولكنه يجعلُ له شريكاً في الملك والتصرف في المخلوقات : خلقاً ، وحياة ، ورزقاً ، وموتاً ، وضراً ، ونفعاً.

وهذا الشرك كشِركِ النصارى والمجوس ، إذ يعتقد النصارى أن الله ثالثُ ثلاثة ـ سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ـ ويعتقد المجوس أنه ثانيَ اثنين ـ تعالى الله عما يقولون ـ قال تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان : 2].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : [قال الله تعالى : شتمني ابن آدم ، وما ينبغي له أن يشتمني ، وكذّبني ، وما ينبغي له أن يكذبني ، أما شتمه إياي فقوله : إن لي ولداً ، وأنا الله الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ، ولم يكن لي كفواً أحد. وأما تكذيبه إيايَ ، فقوله : ليسَ يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهونَ عليَّ من إعادته][1].

وفي رواية للبخاري من حديث ابن عباس : [. . . وأما شتمه إياي ، فقوله : لي

(1) انظر صحيح الجامع (4199) ,(4203).

ولدٌ ، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً][1] .

2 ـ شرك من يصف نفسه أو غيره بصفات الكمال .

وهي الصفات التي لا تكون إلا لله ، كقول فرعون : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات : 24] . أو من يجحد صفةً من صفات كمال الله عز وجل ، كقول فرعون : ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء : 23] .

وقول كفار قريش كما قال الله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴾ [الفرقان : 60] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ [الرعد : 30] .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ، قال رسول الله ﷺ : [قال الله تعالىٰ : الكبرياء ردائي ، والعِزّ إزاري ، فمن نازعني في شيء منهما عذّبته][2] .

ورواه الإمام أحمد عنه بلفظ : [قال الله تعالىٰ : الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما قذفتُه في النار] وصححه الألباني[3] .

ورواه الحاكم عن أبي هريرة أيضاً بلفظ : [قال الله تعالىٰ : الكبرياء ردائي ، فمن نازعني في ردائي قصمته][4] .

3 ـ شرك من يعبد غير الله بأي لون من ألوان العبادة .

قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [النساء : 36] .

وقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ [الزمر : 64] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر : 65-66] .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : [قال الله تعالىٰ : أنا أغنىٰ

---

(1) المرجع السابق .

(2) أخرجه مسلم في صحيحه (8/35-36) والبخاري في الأدب المفرد (552) نحوه .

(3) السلسلة الصحيحة (540) .

(4) صحيح الجامع (4185) .

الشركاء عن الشرك ، مَنْ عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركتُه وشِركَه][1] .

وفي معجم الطبراني عن أبي الدرداء ، عن النبي ﷺ قال : [قال الله تعالىٰ : يا ابن آدم! مهما عَبَدْتني ورجَوْتني ولم تُشْرك بي شيئاً غفرتُ لك على ما كان منك ، وإن استقبلتني بملءِ السماء والأرض خطايا وذنوباً استقبلتك بملئهِنَّ من المغفرة ، وأغفِرُ لك ولا أبالي][2] .

ثانياً ـ الكفر وأنواعه .

1 ـ كُفْر التكذيب :

وهو اعتقاد كذب الرسول ـ ﷺ ـ في أي شيء مما جاء به ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾[3] [فاطر : 25-26] .

وفي الصحيحين عن أبي موسىٰ عن النبي ﷺ قال : [مثلي ومثل ما بعثني الله بهِ ، كمثل رجل أتىٰ قوماً ، فقال : يا قوم إني رأيت الجيش بعيني ، وإني أنا النذيرُ العُريان ، فالنّجاءَ النّجاءَ ، فأطاعه طائفةٌ من قومه ، فأدلجوا ، وانطلقوا على مهلِهم فنجوا ، وكذبته طائفة منهم ، فأصحبوا مكانهم ، فصبَّحهم الجيش ، فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثلُ من أطاعني فاتبع ما جئت به ، ومثل من عصاني وكذَّب بما جئت به من الحق][4] .

2 ـ كفر إباء واستكبار :

وهو مِثْلُ كُفْرِ إبليس ، فإنه لم يجحَدْ أمرَ الله ، ولا قابله بالإنكار ، وإنما تلقَّاه بالإباء والاستكبار ، وهو مِثْلُ حال من يعلم أن دينَ الإسلام هو دينُ الحق الذي لا يقبلُ الله سِواه ، والذي فيه صلاحُهُ في الدنيا والآخرة ، ثم يترُكُه ، ويتخذ له ديناً أو مذهباً من صُنْع البشر .

---

(1) ورواه ابن ماجه ، وهو في صحيح الجامع برقم (4189) .
(2) صحيح الجامع (4217) .
(3) زبر : كتب، مكتوبة .
(4) صحيح الجامع (5736) .

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: 34].

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: [لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقالُ ذرة من كِبر، قيل: إن الرجل يحبُّ أن يكون ثوبُه حسناً، ونعله حسنة، قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكِبْرُ بطرُ الحق، وغمْطُ الناس][1].

وله شاهد فيه عنه بلفظ: [لا يدخل النار أحد في قلبه مثقالُ حبةِ خردلٍ من إيمان، ولا يدخل الجنة أحدٌ في قلبه مثقالُ حبة خردل من كبرياء][2].

3ـ كفْر الإعراض:

وهو الإعراضُ عما جاء به الرسولُ ـ ﷺ ـ فلا يُصدِّقُهُ ولا يكذِّبُه ولكنه يُعْرِض عنه. قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [السجدة: 22].

يروي البخاري في صحيحه عن أبي واقد الليثي: [أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه، إذْ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، قال: فوقفا على رسول الله ﷺ فأما أحدهما فرأىٰ فرجة في الحَلْقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذَاهباً، فلما فرغ رسولُ الله ﷺ قال: ألا أخبرُكم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوىٰ إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرضَ الله عنه][3].

4ـ كفر الشّك:

وهو الذي يشكُّ في ما جاء به رسول الله ﷺ فلا يجْزم بصِدْقه ولا بكذِبه، قال

---

(1) رواه مسلم (65/1) ورواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي، وهو في مختصر مسلم برقم (54).

(2) ورواه أهل السنن إلا النسائي، صحيح الجامع (7556).

(3) رواه البخاري في كتاب العلم، مختصر البخاري (59)، ورواه مسلم في السلام (2176). باب من أتىٰ مجلساً فوجد فرجة فجلس فيها.

الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: 9].

5 ـ كفر الجُحُود:

وهو أن يجحد جُمْلة ما أنزله الله، أو يجحد شيئاً مما هو معلوم بالضرورة من الإسلام. قال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: 14].

قال تعالىٰ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: 33].

وفي مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: [الكبر سفه الحق وغمطُ الناس][1].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [سيكون في آخر الزمان ناس من أمتي يحدثونكم بما لم تسمعوا به أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم].

وفي المسند عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: [سيكون في أمتي أقوام يكذبون بالقدر][2].

ثالثاً ـ الرِّدَّة.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: 217].

والمرتد هو من تَرَك دين الإسلام وهو عاقلٌ، مختارٌ، غيرَ مُكْرَهٍ إلى دين آخر، كاليهودية والنصرانية أو إلى غير دين كالشيوعية، أو أنكر ما هو معلوم من الدين ضرورة ـ كما قال أهل العلم ـ كوجوب الصلاة والزكاة، أو عمل أعمالاً ضدَّ الإسلام ومناهِجه المعلومة أو قال قولاً لا يحتمل تأويلاً غيرَ الكفر.

(1) وصححه الألباني في السلسلة (134/1)، ومضىٰ نحوه في صحيح مسلم.
(2) صحيح الجامع (3563).

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: [من بدَّل دينَه فاقتلوه][1].

بماذا تحصل الرِّدة؟

أ ـ ردّة الاعتقاد.

ومنها ما يلي:

1 ـ اتفق علماء الإسلام على أن منِ أشرك من المسلمين بالله، أو جَحَد به، أو نفىٰ صفة ثابتة من صفاته لا يجهْلُهَا مِثْلُه، أو أثبت له شيئاً أنكَرَهُ كالولد، أو كذَّب بالملائكة أو الكتب أو الرسل، أو اليوم الآخر، أو القدر خيرِه وشره، أو أي أمر عُلم من الدين بالضرورة فهو مرتد كافر.

2 ـ مَنْ جَحَدَ من المسلمين القرآن كلَّه أو بعضَهُ ولو آية، فهو مرتد، وكذلك لو اعتقد وجود تناقض في القرآن أو اختلاف في آياته، أو شك في إعجازه، أو ادّعىٰ القدرة على الإتيان بمثله، أو إسقاط حرمته، أو الزيادة فيه، أو النقص منه، فهو في أي من ذلك مرتد.

3 ـ من اعتقد كذبَ النبي ﷺ في بعض ما جاء به، أو اعتقد حِلَّ شيءٍ مُجْمَعٍ على تحريمه كالزنا وشرب الخمر، فهو مرتد.

ب ـ ردة الأقوال.

ومنها ما يلي:

1 ـ من حلف بغير ملة الإسلام كاذباً.

أخرج الجماعة إلا أبا داود عن ثابت بن الضحاك أن رسول الله ﷺ قال: [من حلف على يمين بملة غير الإسلام كاذباً فهو كما قال][2].

وفي صحيح أبي داود والنسائي وابن ماجه عن بُريْدَةَ قالت: قال رسول الله ﷺ:

---

(1) ورواه أحمد وأصحاب السنن، انظر الإرواء 2537.

(2) وذهب الإمام أحمد وسفيان أن عليه كفارة بينما رأى الإمام مالك أنه قد أتىٰ عظيماً ولا كفارة عليه. انظر صحيح الترمذي (1249).

[من قال : إني بريءٌ من الإسلام فإن كان كاذباً فهو كما قال ، وإن كان صادقاً لم يَعُدْ إلى الإسلام سالماً][1] .

2 ـ مَنْ سَبَّ الله تعالى ، أو القرآن ، أو الرسولَ أو أحداً من الأنبياء فقد كفر سواءً كان مازِحاً أو جادّاً ، أو مستهزئاً .

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [التوبة : 65-66] .

وسئل الإمام أحمد بن حنبل عن رجل شتم الله فقال : (هذا مرتد عن الإسلام نضرب عنقه) .

وسئل الإمام الشافعي رحمه الله عن رجل استهزأ بشيء من آيات الله تعالى فقال : (هو كافر واستدل بقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [التوبة : 65ـ66]) .

وعند الفقهاء فإن شاتم الله أو الرسول يجب قتله سواء تاب أم لم يتب إذا رفع أمره إلى الحاكم ، أما إذا تاب قبل أن يقدر عليه أحد وقبل أن يرفع أمره للحاكم قبلت توبته لأنها توبة نصوح من قلب نادم غير خائف من القصاص والعقاب .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ [الكوثر : 3] .

وقال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : 63] .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾ [المجادلة : 20] .

وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْأَخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [الأحزاب : 57] .

وورد أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لأمير له : (بلغني الذي سرت به في المرأة التي تغنت بشتم النبي ﷺ ، فلولا ما قد سبقتني لأمرتك بقتلها لأن حَدَّ

---

(1) صحيح الجامع (6297) .

الأنبياء ليس يشبه الحدود ، فمن تعاطىٰ ذلك من مسلم فهو مرتد ، أو من معاهد فَهو محارب غادر) .

وأتي عمر بن الخطاب رضي الله عنه برجل سبّ النبي ﷺ فقتله ثم قال عمر : (من سب الله أو سب أحداً من الأنبياء فاقتلوه)(1) .

وفي صحيح أبـي داود عن ابـن عباس : [أن أعمىٰ كانت لـه أم ولـد ، تشتـم النبي ﷺ ، وتقع فيه ، فينهاها فلا تنتهي ، ويزجرها فلا تنزجر ، قال : فلما كانت ذات ليلة جعلت تقع في النبي ﷺ وتشتمه ، فأخذ المغول(2) فوضعه في بطنها ، واتكأ عليها فقتلها ، فوقع بين رجليها طفل ، فلطخت ما هناك بالدم ، فلما أصبح ذُكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فجمع الناس فقال : أنشد الله رجلاً فعل ما فعل ، لي عليه حق ، إلا قام . فقام الأعمىٰ يتخطىٰ الناس ، وهو يتزلزل حتىٰ قعد بين يدي النبي ﷺ فقال : يا رسول الله! أنا صاحبها ، كانت تشتمك وتقع فيك فأنهاها فلا تنتهي ، وأزجرها فلا تنزجر ، ولي منها ابنان مثل اللؤلؤتين ، وكانت بي رفيقة ، فلما كانت البارحة جعلت تشتمك وتقع فيك ، فأخذت المغول فوضعته في بطنها واتكأت عليها حتىٰ قتلتها ، فقال النبي ﷺ : ألا اشهدوا : أن دمها هدر](3) .

3 ـ أجمع العلماء على أن من رمىٰ أمَّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ بحديث الإفك الذي برّأها الله منه فليس بمؤمن . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ إلى قوله ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(4) فمن عاد فليس بمؤمن .

قال الحافظ ابن كثير عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ : (وقد أجمع العلماء رحمهم الله

---

(1) انظر تفصيل ما سبق في كتاب «الصارم المسلول على شاتم الله والرسول» .
(2) سيف قصير أو سلاح خفي للاغتيال .
(3) صحيح أبي داود (3665) وصحيح النسائي (4070) .
(4) النور (11-17) . الإفك : الكذب . عصبة : من العشرة إلى الأربعين .

قاطبة على أنّ من سبَّها بعد هذا ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية ، فإنه كافر لأنه معاند للقرآن) .

فلقد شرفها الله بنزول الوحي لتبرئتها ولم تكن هي تتوقع تدخل الوحي مباشرة ، فكانت تقول : [ولشأني في نفسي كان أحقرَ من أن يتكلم الله فيَّ بوحي يُتلىٰ] أخرجاه في الصحيحين عنها .

وفي الصحيحين عنها : قال لها رسول الله ﷺ : [أبشري يا عائشة! أما الله فقد بّرأكِ][(1)] .

4 ـ الطّعن في الدين :

فمن هاجم الإسلام وطعن في دين الله ، أو دعا إلى مَبْدءٍ إلحادي أو كفري ، فهو مرتد .

قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ [التوبة : 12] .

وفي صحيح ابن ماجه عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال : [أيُّما داع دعا إلى ضلالة فاتُّبع ، فإن له مثلَ أوزار من اتبعه ولا ينقصُ من أوزارهم شيئاً][(2)] .

جـ ـ ردَّة الأفعال .

ومنها ما يلي :

1 ـ أجمع العلماء على أنّ مما يوجب كُفْرَ المسلم إلقاءُ المُصْحف أو جُزْءٍ منه أو تلطيخُهُ بالقَذَر ، ومِثلُهُ كُتُبُ الحديث القدسي والنبوي ، وكذا من استخف بالقرآن .

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ . . ﴾ [التوبة : 65-66] .

---

(1) أخرجه البخاري في التفسير ، ومسلم (117/8) .

(2) تخريج الترغيب (48/1) وصحيح الجامع (2709) وهو جزء من حديث أطول .

2 ـ اتفق العلماء على أن من سجد من المسلمين لصنم أو شمس أو قمر ، أو أتىٰ بقول ، أو فِعل صريح يدل على الاستهزاء بالدين فقد ارتدَّ .

3 ـ من هرب من المسلمين إلى دار الحرب (وهي بلاد الكفار الذين يحاربون المسلمين) مختاراً ، مُحارباً للمسلمين فقد كفر ، وذلك لقوله تعالىٰ : ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة : 51] ، ولنهيه ﷺ عن ذلك وبراءته منه .

ففي معجم الطبراني بسند حسن عن جرير عن النبي ﷺ قال : [برئت الذمة ممن أقام مع المشركين في ديارهم](1) .

4 ـ من حارب الشريعة الإسلامية من المسلمين ، واستبدلها بالقوانين البشرية تعطيلاً للأحكام الشرعية فقد كفر .

قال تعالىٰ : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة : 44] .

الأحكام المترتبة على الردة بعد ثبوتها :

ذكر الفقهاء مجموعة من الأحكام تترتب على المرتد في دولة الإسلام :

1 ـ استتابة المرتد ـ فإن تاب ورجع إلى الإسلام في خلال ثلاثة أيام قُبِلَ ذلك منه وترك .

2 ـ إذا أبىٰ أن يتوب وجب قتله لقوله ﷺ : [من بدّل دينه فاقتلوه] البخاري عن ابن عباس(2) .

3 ـ يمنع من التصرف في ماله في مدة استتابته فإن أسلم فهو له ، وإلا صار فيئاً لبيت المال من حين قتله أو موته على الردة ، وقيل من حين ارتداده يصرف في مصالح المسلمين .

4 ـ انقطاع التوارث بينه وبين أقاربه فلا يرثهم ولا يرثونه ، لقوله ﷺ : [لا يرث

---

(1) انظر السلسلة الصحيحة (768) .

(2) وقد مضىٰ تخريجه .

الكافر المسلم ، ولا المسلم الكافر] أخرجه الشيخان عن أسامة(1).

5 ـ إذا مات أو قتل على ردته فإنه لا يغسل ولا يصلىٰ عليه ولايدفن في مقابر المسلمين وإنما يدفن في مقابر الكفار أو يوارىٰ في التراب في أي مكان غير مقابر المسلمين.

ففي صحيح أبي داود من حديث بشير بن الخصاصية قال: [بينا أماشي رسول الله ﷺ. . . فأتىٰ على قبور المشركين فقال: لقد سبق هؤلاء خيراً كثيراً ، ثلاث مرات ، ثم أتىٰ على قبور المسلمين فقال: لقد أدرك هؤلاء خيراً كثيراً ، ثلاث مرات](2).

رابعاً ـ النفاق:

وهو أن يظهر الإنسان للمسلمين إيمانه وهو في الباطن كافر مكذِّب.

والنفاق في العقيدة كفر ، غيرَ أن صاحبَه لا يُعامَلُ معاملة الكافرين لعدم إظهارِ كُفرِه.

قال تعالىٰ: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون: 1].

وقال تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون: 3].

وهناك نفاق عملي غير النفاق الاعتقادي مثل: خيانة الأمانة والكذب ، وخُلْفِ الوعد ، ولا يُعْتَبَرُ المنافق بالنفاق العملي كافراً ، وإنما فاسقاً عاصياً فيه شعبة من نفَاق.

صفات المنافقين:

1 ـ الإفساد في الأرض بتهديم شريعة الله واتهام المؤمنين بالسَّفَه.

قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ

(1) ورواه أحمد وأهل السنن. انظر صحيح الجامع (7562).
(2) أحكام الجنائز (136/88).

ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ[1] وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 11-13].

2 ـ خِداع المؤمنين بإظهار الإيمان إذا قابلوهم ، ثم إظهار الكفر إذا خلَوا بأوليائهم.

قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ[2] إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [البقرة: 14].

3 ـ الإعراض عن التحاكم إلى شرع الله وصدُّ الناس عن الحكم بما أنزل الله.

قال تعالىٰ: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾ [النساء: 60-61].

وقد نزلت هذه الآية في رجل من المنافقين اختصم مع يهودي فأراد التحاكم إلى كاهن ورسول الله ﷺ بين أظهرهم.

يروي ابن جرير بسنده إلى عامر الشعبي قال: (كانت بين رجل ممن يزعم أنه مسلم، وبين رجل من اليهود، خصومة، فقال اليهودي: أحاكمك إلى أهل دينك ـ أو قال: إلى النبي ـ لأنه قد علم أن رسول الله ﷺ لا يأخذ الرشوة في الحكم، فاختلفا، فاتفقا على أن يأتيا كاهناً في جهينة قال: فنزلت ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ. . .﴾ الآية)[3].

ويؤيد ذلك ما أخرج الطبراني ورجاله رجال الصحيح ـ كما قال الهيثمي ـ عن عكرمة عن ابن عباس قال: [كان أبو بَرْزة الأسلمي كاهناً يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه، فتنافر إليه ناس من المشركين فأنزل الله عز وجل: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ

---

(1) السفهاء: ضعاف العقول.
(2) انصرفوا إليهم.
(3) تفسير الطبري. آية النساء 60-61.

يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ - إلى قوله - إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾][1].

4ـ الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف:

قال تعالى: ﴿ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [التوبة: 67].

قال ابن جرير: (《بعضهم من بعض》: هم صنف واحد، وأمرهم واحد، في إعلانهم الإيمان، واستبطانهم الكفر، 《يأمرون》 مَنْ قَبِل منهم 《بالمنكر》 وهو الكفر بالله وبمحمد ﷺ وبما جاء به وتكذيبه، 《وينهون عن المَعروف》 يقول: وينهونهم عن الإيمان بالله ورسوله، وبما جاء به من عند الله)[2].

وقال مجاهد: (《ويقبضون أيديهم》: لا يبسطونها بنفقة في حق)[3].

فلما نسوا الله: أي تركوا أمره وطاعته 《فنسيهم》 أي فتركهم الله من توفيقه وحرمهم من هدايته ورحمته.

5ـ اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين:

قال تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: 138-139].

وفي صحيح مسلم عن عائشة عن النبي ﷺ قال: [إنا لا نستعين بمشرك].

وله شاهد في المسند عن خُبيب بن يساف عن النبي ﷺ قال: [إنا لا نستعين بالمشركين على المشركين][4].

---

(1) انظر الصحيح المسند من أسباب النزول. مقبل الوادعي. آية النساء 59.

(2) تفسير الطبري. سورة التوبة، آية 67.

(3) المرجع السابق.

(4) وانظر السلسلة الصحيحة (1101) وصحيح الجامع (2288).

وفيه المسند وصحيح الحاكم عن حكيم بن حزام عن النبي عليه السلام: [إنا لا نقبل شيئاً من المشركين](1).

6ـ معاداة المؤمنين لإيمانهم، وموالاة الكافرين لكفرهم:

فإن من يوالي الكافرين ويحبهم ويناصرهم بسبب مبادئهم الكفرية ينقض إيمانه.

قال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: 22].

وكذلك فإن من يُعادي المؤمنين فيحاربُهُم ويَبْغَضُهُم، وينصُرُ أعداءَهم عليهم بسبب إيمانهم فقد نقضَ إيمانه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ (2) ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: 8-10].

ثم إن هؤلاء يندمون يوم القيامة بسبب سخريتهم واستهزائهم بالمؤمنين، قال الله جل ثناؤه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون: 109-111].

وفي صحيح أبي داود عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: [من أحب لله، وأبغض لله، وأعطىٰ لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان](3).

* * *

(1) وانظر السلسلة الصحيحة (1707).

(2) ابتلوهم بالإيذاء، وذلك بإحراقهم بالنار.

(3) أخرجه أبو داود (4681) وصححه الألباني في الصحيحة (380).

ـ الجهل بالكفر وأنواعه عذر إلى حين ـ

الكفر ثلاثة أنواع :

1 ـ **كفر لفظي** : كالحلف بغير الله تبارك وتعالى من نبي أو ولي .

2 ـ **كفر عملي** : كالذبح لغير الله جلّ وعلا .

3 ـ **كفر اعتقادي** : كاعتقاد أن مع الله أقطاباً وأبدالاً يديرون الكون بالنيابة عن الله تعالىٰ .

ولقد عمّ الجهل بدين الإسلام كثيراً من بلاد المسلمين ، حتى وُجِدَ المسلم الذي يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيم الصلاة ، ويؤتي الزكاة ، ويصوم رمضان ، ويحج البيت ، ويؤمن بكل مافي القرآن ، يحبّ رسول الله ﷺ ويصدِّقه ويغار على الإسلام ، ومع ذلك تراه يأتي أعمالاً ويقول أقوالاً ويعتقد بمعتقدات توقِعُه في الكفر ، أو الشرك ، أو النفاق ، وهو لا يعلم حقيقتها بل ربما ظن أن ما هو عليه من شرِك وكفر ونفاق هو الصواب الذي يُرضي الله .

فهو مسلم يغار على دينه ولكنه واقع في الكفر أو الشرك بجهله الذي يعرضه لعذاب النار .

وتفصيل ذلك :

أولاً : الجاهل معذور بجهله .

إن من ثبت له الإسلام لا يُنْزَعُ منه إلا بما ينقُضُ الإسلام ، ومن ثم فإن القصد والنية شرط صحة الأعمال ، فالجاهل الذي صدر منه ما ينقض إيمانه ولم يقصد ذلك معذور إلى أن يحصل له العلم والبيان . وفي القرآن والسنة أمثلة على ذلك :

المثال الأول : لقد سأل الحواريون عيسىٰ بن مريم ـ جهلاً منهم ـ بقولهم ، كما جاء في القرآن : ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة : 112] .

فهم بهذا يجهلون أن الله على كل شيء قدير ، ومن كذّب بقدرة الله فهو كافر ، ولكن الجهل كان عذراً لهم عند الله ورسوله عليه السلام .

قال ابن جرير : (قال عيسىٰ للحواريين : راقبوا الله ، أيها القوم ، وخافوه ، أن يَنْزِلَ بكم من الله عقوبة على قولكم هذا ، فإن الله لا يعجزه شيء أراده . وفي شكّكم في قدرة الله على إنزال مائدة من السماء ، كفرٌ به ، فاتقوا الله أن يُنْزِلَ بكم نقمته)[1] .

المثال الثاني : لقد سأل قوم موسىٰ ـ بنو إسرائيل ـ نبيّهم موسىٰ عليه السلام ـ جهلاً منهم وضعفاً من عقولهم ـ كما حكىٰ الله عنهم في القرآن بقوله : ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف : 138-140] .

قال ابن جرير : (قال موسىٰ لقومه : أسِوىٰ الله ألتمسكم إلهاً ، وأجعل لكم معبوداً تعبدونه ، والله الذي هو خالقكم فضلكم على عالمي دهركم وزمانكم؟ يقول : أفأبغيكم معبوداً لا ينفعكم ولا يضركم تعبدونه وتتركون عبادة من فضلكم على الخلق؟ إن هذا منكم لجهل !)[2] .

أخرج الإمام أحمد في المسند ، والإمام الترمذي في السنن ، بسند صحيح عن أبي واقد الليثي قال : [خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حُنين ، ونحن حُدثاء عهد بكفر ، وللمشركين سِدْرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم ، يقال لها ذات أنواط ، فمررنا بسدرة ، فقلنا : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر ، إنها السنن ، قلتم : والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ : ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾][3] .

فظن بعض المسلمين أن لتلك الشجرة أثراً في نصر المشركين إذ كانوا يعلقون

---

(1) تفسير الطبري . سورة المائدة : آية 112 .

(2) تفسير الطبري . سورة الأعراف آية 138-140 .

(3) رواه أحمد في المسند (218/5) ، والترمذي في الفتن (2181) وقال : حديث حسن صحيح ، وهو مخرج في فتح المجيد تحقيق الأرناؤوط ص (147) .

عليها سيوفهم عند الحرب ، ووقع أصحاب هَذَيْن السؤالين لموسىٰ ومحمد عليهما السلام جَهْلاً فيما يوجب الشرك ، فكان جواب موسىٰ لقومه: ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ وجواب محمد عليه وعلى موسىٰ الصلاة والسلام: (لتركبن سنة من كان قبلكم). وما قال موسىٰ ولا محمد ـ ولا عيسىٰ من قبل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ لهؤلاء الذين وقعوا جهلاً في الكفر ، والشرك بعد أن صحَّ إيمانهم: إنكم كافرون أو مشركون ، وإنما عذروهم في الجهل وبينوا لهم حتىٰ حصل العلم.

وفي التنزيل: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: 5].

ثانياً: الواجب على الجاهل تعلم الحق والإصغاء له ، وسؤال أهل العلم:

قال تعالىٰ: ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: 43].

ومن ثم فيجب على العلماء أن يبيِّنوا للناس دين الله ولا يكتمونه. قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: 159-160].

وفي صحيح ابن حبان عن عبد الله بن عمرو ، أن رسول الله ﷺ قال: [من كتم علماً ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار] وصححه الألباني(1).

وقد رغّب الوحي الكريم في البحث عن الحق وطلب العلم وأرصد لذلك الأجر العظيم.

ففي معجم الطبراني «الكبير» عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: [من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيراً أو يُعَلِّمَهُ ، كان له كأجر حاجٍّ ، تاماً حجَّتُهُ].

قال الألباني: (وأخرجه الحاكم «91/1» بلفظ: «أجر معتمر تام العمرة» وزاد: «ومن راح إلى المسجد لا يريد إلا ليتعلم خيراً ، أو يعلمه ، فله أجر حاج تام الحجة» وصححه على شرط البخاري ووافقه الذهبي) صحيح الترغيب 82/1.

---

(1) تخريج الترغيب (117/1).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: [من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة][1].

ثالثاً: لا عذر لأحد بعد العلم:

فقد احتج الله على أهل النار بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ [الملك: 8-9].

وقال في سورة مريم: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾.

وقال سبحانه عن الذين يصرون على مخالفة دين الله وسنة رسوله، ويتبعون طريقاً غير طريق المؤمنين بعد أن جاءهم البيان: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 115].

وفي المسند بسند صحيح عن ابن عمرو، عن النبي ﷺ قال: [ارحموا تُرحموا، واغفروا يُغفر لكم، ويل لأقماع القول، ويلٌ للمصرِّين الذين يصرّون على ما فعلوا وهم يعلمون][2].

وروى الترمذي وحسنه الألباني عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [لا يزول قدما ابن آدم يوم القيامة حتى يُسأل عن خمس، عن عمره فيمَ أفناه؟ وعن شبابه فيمَ أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وماذا عَمِلَ فيما علم][3].

وروى البيهقي عن لقمانَ يعني ابنَ عامر قال: كان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول: [إنما أخشىٰ من ربي يومَ القيامة أن يدعوني على رؤوس الخلائق فيقولَ لي: يا عُوَيْمِرُ! فأقول: لبيك ربِّ. فيقول: ما عمِلتَ فيما عَلمتَ].

---

(1) مختصر مسلم 1888، جزء من حديث طويل.

(2) تخريج السلسلة الصحيحة 482.

(3) صحيح الترغيب 124/1.

قال الألباني : (ورواه الدارمي (82/1) وابن عبد البر (3,2/2) من طرق عن أبي الدرداء)[1].

آفاق مفهوم كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» :

قال أهل العلم: النطق بكلمة التوحيد من غير معرفة لمعناها ، ولا يقين ولا عمل بمقتضاها: من البراءة من الشرك ، وإخلاص القول والعمل: قولِ القلب واللسان ، وعملِ القلب والجوارح ، فغير نافع بالإجماع.

يروي البخاري عن عبد الله رضي الله عنه قال: [لما نزلت ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ قلنا يا رسول الله: أينا لا يظلم نفسه؟ قال: ليس كما تقولون ، لم يلبسوا إيمانهم بظلم: بشرك ، أو لم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: ﴿ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾][2].

قال شيخ الإسلام: (والذي شق عليهم أنهم ظنوا أن الظلم المشروط عدمه هو ظلم العبد نفسه ، وأنه لا أمن ولا اهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه ، فبين لهم النبي ﷺ ما دلهم على أن الشرك ظلم في كتاب الله ، فلا يحصل الأمن والاهتداء إلا لمن لم يلبس إيمانه بهذا الظلم ، فإن من لم يلبس إيمانه بهذا الظلم كان من أهل الأمن والاهتداء ، كما كان من أهل الاصطفاء في قوله: (﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر: 32]. وهذا لا ينفي أن يؤاخذ أحدهم بظلمه لنفسه بذنب إذا لم يتب كما قال تعالىٰ: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾)[3].

وفي الصحيحين عن معاذ بن جبلٍ رضي الله عنه قال: [كنت رَديف النبي ﷺ على حمار ، فقال لي: يا معاذُ ، أتدري ما حق الله على العباد ، وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم ، قال: حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به

---

(1) صحيح الترغيب (125/1).
(2) البخاري (281/6) في الأنبياء ، باب قول الله تعالىٰ: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾.
(3) فتح المجيد ص 41.

شيئاً ، وحقُّ العباد على الله : أن لا يعذب من لا يُشرك به شيئاً ، قلت : يا رسول الله ، أفلا أبشِّر الناس؟ قال : لا تبشرهم فيتكلوا][1] .

قال شيخ الإسلام : (كون المطيع يستحق الجزاء هو استحقاق إنعام وفضل ، ليس هو استحقاق مقابلة ، كما يستحق المخلوق على المخلوق)[2] .

فالله سبحانه هو الذي كتب على نفسه الرحمة ، وأوجب على نفسه الحق لم يوجبه عليه مخلوق . وقد أبعد المعتزلة حين ذهبوا أن ذلك واجب عليه بالقياس على المخلوق ، وأن العباد هم الذين أطاعوه بدون أن يجعلهم مطيعين له ، وأنهم يستحقون الجزاء بدون أن يكون هو الموجب ، وغلطوا في ذلك كما غلطت الجبرية والقدرية أتباع جهم والقدرية النافية .

وقد صنف الإمام مسلم في صحيحه بابا سمّاه : (باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً) وروى فيه عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسىٰ عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، والجنة حق ، والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل] ورواه البخاري[3] .

قال القرطبي في «المفهم على صحيح مسلم» : «باب لا يكفي مجرد التلفظ بالشهادتين ، بل لابد من استيقان القلب» : (هذه الترجمة تنبيه على فساد مذهب غلاة المرجئة ، القائلين بأن التلفظ بالشهادتين كاف في الإيمان ، وأحاديث هذا الباب تدل على فساده ، بل هو مذهب معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها ، ولأنه يلزم منه تسويغ النفاق ، والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح ، وهو باطل قطعاً) انتهىٰ نقلاً عن فتح المجيد ص 44 .

وقال النووي رحمه الله : (هذا حديث عظيم جليل الموقع ، وهو أجمع ـ أو من أجمع ـ الأحاديث المشتملة على العقائد ، فإنه ﷺ جمع فيه ما يُخرج من ملل الكفر

---

(1) البخاري (300/13) في التوحيد . ومسلم (30) في الإيمان .

(2) فتح المجيد ص (35) .

(3) البخاري (342/6) في الأنبياء . ومسلم(28) في الإيمان .

على اختلاف عقائدهم وتباعدها ، فاقتصر ﷺ في هذه الأحرف على ما يباين جميعهم)[1] .

فمفهوم كلمة النجاة ـ كلمة التوحيد ـ أن لا معبود إلا هو ، فهو المألوه الذي تألهه القلوب وتصرف له كل أنواع التعظيم .

قال الزمخشري : («الإله» من أسماء الأجناس ، كالرجل والفرس ، يقع على كل معبود بحق أو باطل ، ثم غلب على المعبود بحق)[2] .

وقال شيخ الإسلام : («الإله» هو المعبود المطاع ، فإن الإله هو المألوه ، والمألوه هو الذي يستحق أن يعبد ، وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب ، المخضوع له غاية الخضوع . قال : فإن الإله هو المحبوب المعبود الذي تألهه القلوب بحبها ، وتخضع له وتذل له ، وتخافه وترجوه. وتنيب إليه في شدائدها ، وتدعوه في مهماتها ، وتتوكل عليه في مصالحها ، وتلجأ إليه وتطمئن بذكره ، وتسكن إلى حبه ، وليس ذلك إلا الله وحده ، ولهذا كانت «لا إله إلا الله» أصدق الكلام ، وكان أهلها أهل الله وحزبه ، والمنكرون لها أعداؤه وأهل غضبه ونقمته ، فإذا صحت صح بها كل مسألة وحال وذوق ، وإذا لم يصححها العبد ، فالفساد لازم له في علومه وأعماله)[2] .

وقال ابن القيم : («الإله» هو الذي تألهه القلوب محبة وإجلالاً وإنابة ، وإكراماً وتعظيماً ، وذلاً وخضوعاً ، وخوفاً ورجاء وتوكلاً)[2] .

وقال ابن رجب : («الإله» هو الذي يطاع فلا يعصىٰ ، هيبة له وإجلالاً ، ومحبة وخوفاً ورجاء ، وتوكلاً عليه ، وسؤالاً منه ودعاءً له ، ولا يصلح هذا كله إلا لله عز وجل .

فمن أشرك مخلوقاً في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية ، كان

---

(1) فتح المجيد ص 44 .

(2) فتح المجيد ص 46 .

ذلك قدحاً في إخلاصه في قوله «لا إله إلا الله» وكان فيه من عبودية المخلوق، بحسب ما فيه من ذلك)[1].

وقال البقاعي: («لا إله إلا الله» أي: انتفاءً عظيماً أن يكون معبود بحق غير الملك الأعظم، فإن هذا العلم هو أعظم الذكرىٰ المنجية من أهوال الساعة، وإنما يكون علماً إذا كان نافعاً، وإنما يكون نافعاً إذا كان مع الإذعان والعمل بما تقتضيه، وإلا فهو جهل صرف)[2].

وفي جامع الترمذي ومسند الإمام أحمد بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: [يُصاح برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مدّ البصر، ثم يقول الله تبارك وتعالىٰ: هل تُنكر من هذا شيئاً؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أظلمتك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، ثم يقول: ألك عذر، ألك حسنة؟ فيهاب الرجل فيقول: لا، فيقول: بلىٰ، إن لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فتُخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبدُه ورسوله، فيقول: يا رب! ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة][3].

قال ابن القيم رحمه الله: (فالأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل مافي القلوب، فتكون صورة العملين واحدة، وبينهما من التفاضل كما بين السماء والأرض. قال: وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مدّ البصر، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات، فلا يعذب، ومعلوم أن كل موحد له هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار بذنوبه)[4].

وفي المسند وجامع الترمذي بسند قوي عن أنس رضي الله عنه: سمعت

---

(1) فتح المجيد (47).
(2) المرجع السابق.
(3) وصححه الألباني في صحيح الجامع (7951).
(4) فتح المجيد (59).

رسول الله ﷺ يقول: [قال الله تعالىٰ: يا ابنَ آدم، لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة][1].

قال ابن رجب: (من جاء مع التوحيد بقُراب الأرض خطايا لقيه الله بقرابها مغفرة ـ إلى أن قال ـ: فإن كَمُل توحيد العبد وإخلاصه لله تعالى فيه، وقام بشروطه بقلبه ولسانه وجوارحه، أو بقلبه ولسانه عند الموت، أوجب ذلك مغفرة ماقد سلف من الذنوب كلها، ومنعه من دخول النار بالكلية. فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه أخرجت منه كل ما سوى الله: محبة وتعظيماً، وإجلالاً ومهابة، وخشية وتوكلاً، وحينئذ تحرق ذنوبه وخطاياه كلها، وإن كانت مثل زبد البحر)[2].

وقال ابن القيم في معنىٰ الحديث: (ويُعفىٰ لأهل التوحيد المحض الذي لم يشوبوه بالشرك ما لا يعفىٰ لمن ليس كذلك. فلو لقي الموحد الذي لم يشرك بالله شيئاً البتة ربَّـهُ بقراب الأرض خطايا أتاه بقرابها مغفرة، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده، فإن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك لا يبقىٰ معه ذنب، لأنه يتضمن من محبة الله وإجلاله وتعظيمه، وخوفه ورجائه وحده ما يوجب غسل الذنوب، ولو كانت قراب الأرض، فالنجاسة عارضة، والدافع لها قوي)[3].

قال صاحب فتح المجيد: (وفي هذا الحديث: كثرة ثواب التوحيد، وسعَة كرم الله وجوده ورحمته، والرد على الخوارج الذين يكفّرون المسلم بالذنوب، وعلى المعتزلة القائلين بالمنزلة بين المنزلتين، وهي الفسوق، ويقولون: ليس بمؤمن ولا كافر، ويخلد في النار. والصواب قول أهل السنة: إنه لا يُسلب عنه اسم الإيمان، ولا يُعطاه على الإطلاق، بل يقال: هو مؤمن عاص، أو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته. وعلى هذا يدل الكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة)[4].

وفي صحيح البخاري من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: [عُرضت عليَّ

---

(1) ورواه الدارمي (322/2). انظر تحقيق فتح المجيد.
(2) فتح المجيد (61).
(3) فتح المجيد (61).
(4) المرجع السابق.

الأمم ، فرأيت النبي ومعه الرهط ، والنبيَّ ومعه الرجل والرجلان ، والنبي ليس معه أحد ، إذ رُفِعَ لي سواد عظيم ، فظننت أنهم أمتي ، فقيل لي: هذا موسىٰ وقومه ، فنظرت فإذا سواد عظيم ، فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب. ثم نهض فدخل منزله ، فخاض الناس في أولئك ، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ. وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ، فلم يشركوا بالله شيئاً ، وذكروا أشياء ، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه ، فقال: هم الذين لا يسترقون ، ولا يكتوون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون][1].

زاد أحمد في روايته: [فاستزدت ربي فزادني مع كل ألف سبعين ألفاً] وهو من حديث أبي هريرة وسنده جيد.

ووقع في رواية لمسلم «ولا يرقون» قال شيخ الإسلام: (هذه الزيادة وهمٌ من الراوي ، لم يقل النبي ﷺ: «ولا يرقون» ، وقد قال النبي ﷺ وقد سئل عن الرقىٰ: من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه[2] ، وقال: لا بأس بالرقىٰ ما لم تكن شركاً[3]. قال: وأيضاً فقد رقىٰ جبريل النبي ﷺ ورقىٰ النبي ﷺ أصحابه. قال: والفرق بين الراقي والمسترقي: أن المسترقي سائل مستعط ملتفت إلى غير الله بقلبه ، والراقي محسن. قال: وإنما المراد وصف السبعين ألفاً بتمام التوكل ، فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم ولا يكويهم)[4].

وقيل: لا يسألون غيرهم أن يكويهم ، كما لا يسألون غيرهم أن يرقيهم استسلاماً للقضاء ، وتلذذاً بالبلاء.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الظاهر من قوله «لا يكتوون» أعم من أن يسألوا ذلك أو يفعل ذلك باختيارهم. وهذا وجه حسن من التأويل ، مع أن الكيّ في نفسه جائز.

---

(1) البخاري (10/130-131) في الطب ، ومسلم (220) في الإيمان.
(2) مسلم (2199) في السلام من حديث جابر.
(3) مسلم (2200) في السلام من حديث عوف بن مالك.
(4) فتح المجيد (72).

ففي صحيح البخاري عن أنس: [أنه كوىٰ من ذات الجنب والنبي ﷺ حيٌّ][1].

وروى الترمذي بسند حسن عن أنس: [أن النبي ﷺ كوى أسعد بن زُرارة من الشوكة][2].

وعند البخاري في الطب عن ابن عباس مرفوعاً: [الشفاء في ثلاث: شربة عسل، وشرطة محجم، وكيّة نار. وأنا أنهىٰ أمتي على الكي]. وفي لفظ: (وما أحب أن أكتَوِي)[3].

قال ابن القيم رحمه الله: (قد تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع. أحدها: فِعله. والثاني: عَدمُ محبته، والثالث: الثناء على من تركه، والرابع: النهي عنه.

ولا تعارض بينها بحمد الله، فإن فعله له يدل على جوازه، وعدم محبته له لا يدل على المنع منه. وأما الثناء على تاركه فيدل على أن تركه أولىٰ وأفضل، وأما النهي عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهة)[4].

وأما قوله: «ولا يتطيرون» أي لا يتشاءمون بالطيور ونحوها، وله تفصيل قادم إن شاء الله.

وقوله: «وعلى ربهم يتوكلون» بيانٌ للأصل الجامع الذي تفرعت عنه كل هذه الأمور، فيصدقون اللجوء إلى الله والاعتماد بالقلب عليه، هذا مع مباشرة الأسباب، وإنما يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم إليها، توكلاً منهم على الله، كالاكتواء والاسترقاء. وأما مباشرة الأسباب والتداوي فلا يعاب فاعله ولا يقدح في توكله.

ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً: [ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء][5].

---

(1) البخاري (145/10) في الطب، باب ذات الجنب.
(2) الترمذي (2051) في الطب بسند حسن. تحقيق فتح المجيد 73.
(3) البخاري (116/10) في الطب، باب الشفاء في ثلاث.
(4) فتح المجيد 73.
(5) البخاري (113/10, 114) في الطب.

وهو في صحيح مسلم من حديث جابر بلفظ : [لكل داء دواء ، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله][1] .

وفي المسند بسند صحيح من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : [ما أنـزل الله من داء إلا أنـزل لـه شفـاء . علِمـه من عِلمَـه ، وجهـله مـن جهله][2] .

وفي المسند وجامع الترمذي بسند صحيح عن أسامة بن شريك قال : [كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب ، فقالوا : يا رسول الله ، أنتداوىٰ؟ قال : نعم يا عباد الله تداووا ، فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء ، غير داءٍ واحد . قالوا : وما هو؟ قال : الهرم][3] .

قال ابن القيم رحمه الله : (وقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات ، وإبطال قول من أنكرها ، والأمر بالتداوي ، وأنه لا ينافي التوكل ، كما لا ينـافيه دفع ألم الجوع والعطش ، والحر والبرد: بأضدادها ، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله تعالى مقتضية لمسبباتها قدراً وشرعاً ، وإن تعطيلها يقدح في نفس التوكل ، كما يقدح في الأمر والحكمة ، ويضعفه من حيث يظن مُعَطِّلها أن تركها أقوى في التوكل ، فإن تركها عجز ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله تعالى في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه ، ودفع ما يضره في دينه ودنياه . ولابد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب ، وإلا كان معطلاً للحكمة والشرع ، فلا يجعل العبد عجزه توكلاً ولا توكله عجزاً)[4] .

وقد اختلف العلماء في التداوي : هل هو مباح ، وتركه أفضل ، أو مستحب أو واجب؟

---

(1) صحيح مسلم (2204) في السلام .
(2) المسند (377/1) وسنده صحيح . تحقيق فتح المجيد 74 .
(3) أحمد (278/4) ، وسنده صحيح . تحقيق فتح المجيد 75 .
(4) فتح المجيد (75) .

فالمشهور عن أحمد الأول ، لهذا الحديث ومافي معناه ، والمشهور عند الشافعية الثاني ، حتىٰ ذكر النووي في «شرح مسلم» : أنه مذهبهم ومذهب جمهور السلف وعامة الخلف ، واختاره الوزير أبو المظفر . قال : ومذهب أبي حنيفة : أنه مؤكد حتىٰ يداني به الوجوب .

قال : ومذهب مالك : أنه يستوي فعله وتركه ، فإنه قال : (لابأس بالتداوي ، ولابأس بتركه)[1] .

وقال شيخ الإسلام : (ليس بواجب عند جماهير الأئمة ، وإنما أوجبه طائفة قليلة من أصحاب الشافعي وأحمد)[2] .

* * *

---

(1) المرجع السابق .

(2) المرجع السابق .

- 7 -

ـ شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ ـ

أ: مفهومها ـ أركانها ـ نواقضها

الحمد لله الذي اصطفىٰ من خلقه أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم ، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم ، لما بدّل أكثر الناس عهد الله إليهم ، واجتالتهم الشياطين عن دينهم ، وصرفتهم إلى وسائط تثنيهم عن إفراد التعظيم لربهم ، فبعث فيهم سبحانه رسلاً ، ليستأدوهم ميثاق فطرته ، ويذكروهم منسي نعمته ، ويحتجوا عليهم بإثارة دفائن العقول ، وصرفهم لرؤية آيات المقدرة : من سقف فوقهم مرفوع ، ومهاد تحتهم موضوع ، ومعايش تحييهم ، وآجال تفنيهم ، وأوصاب تهرمهم ، وأحداث تتابع عليهم ، إلى أن ختم فيهم النبوة سبحانه فبعث محمداً عليه الصلاة والسلام ، وأهل الأرض يومئذ مِلَلٌ متفرقة ، وأهواء منتشرة ، فهداهم به من الضلالة ، وأنقذهم بالوحي من الجهالة، ثم اختار سبحانه لنبيّه لقاءه ، فقبضه إليه كريماً ﷺ ، وخلف فيكم ما خلف الرسل في أممهم : العلماء ورثة الأنبياء ، خصوم أهل البدع والأهواء ، يرفعهم الله فينبلون في الأمة بما رووا عن الرسول ، وهم المأمونون عليه العدول ، حفظة الدين وخزنته ، وأوعية العلم وحملته.

أما بعد: فإن الله سبحانه قد وصف في كتابه العظيم ، عباده المؤمنين ، أصحاب وأتباع هذا النبي الكريم ، فقال جل ثناؤه في سورة النور : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن

شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ .

يرشد الله سبحانه عباده في هذه الآيات إلى الأدب مع نبيّهم فإذا دخلوا أو خرجوا فليستأذنوا ولا يتفرقوا إلا عن أمره .

وفي التفاسير[1] عن ابن عباس قال : (كانوا يقولون يا محمد يا أبا القاسم فنهاهم الله عز وجل عن ذلك إعظاماً لنبيّه ﷺ. قال : فقولوا : يا نبي الله يا رسول الله) .

وقال قتادة : (أمر الله أن يُهاب نبيّه ﷺ وأن يَبَجَّلَ وأن يُعظم وأن يسود) .

من ثم فإن في قوله سبحانه : ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ﴾ تأويلين :

التأويل الأول: هو بنحو ما ذكره ابن عباس وقتادة ، وكذلك رُوي عن مقاتل قوله : (قال : لا تسمّوهُ إذا دعوتموه يا محمد ولا تقولوا يا ابن عبد الله ، ولكن شرفوه فقولوا : يا نبي الله يا رسول الله) .

وهذا المعنى كقوله تعالىٰ في سورة الحجرات : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ .

التأويل الثاني: هو ما رُوي عن الحسن البصري وعطية العوفي : (أي لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره ، فإن دعاءه مستجاب فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا) .

ثم قال سبحانه : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ﴾ . قال مقاتل

---

(1) تفسير الطبري وتفسير القرطبي وتفسير ابن كثير وغيرهم .

ابـن حيان: (هم المنافقون كان يثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة فيلوذون ببعض أصحاب محمد ﷺ حتىٰ يخرجوا من المسجد).

ثم ختم الآية جل ذكره بتهديد ووعيد لكل متجرىء على مخالفة أمر رسوله ﷺ وهديه فقال جل ثناؤه: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

والمعنىٰ: فليحذر من خالف شريعة الرسول ﷺ باطناً وظاهراً أن تصيبهم في قلوبهم فتنة: من كفر أو نفاق أو بدعة، أو يصيبهم عذاب أليم في الدنيا: بقتل أو حدٍّ أو حبس أو نحوه، ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله.

لقد روىٰ أبو يعلىٰ والبزار بسند حسن عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ [إني مُمْسك بِحُجَزِكم عن النار: هَلُمَّ عن النار، وتغلبونني، تقاحمون فيه تقاحم الفراش أو الجنادب، فأوشِك أن أرسل بحجزكُمْ وأنا فرطكم على الحوض، فتردون عليّ معاً وأشتاتاً، فأعرفكم بسيماكم وأسمائكم، كما يعرف الرجل الغريبة من الإبل في إبله، ويذهب بكم ذات الشمال، وأناشد فيكم ربّ العالمين فأقول: أي رب أمتي فيقول: يا محمد إنـك لا تـدري ما أحدثوا بـعدك، إنهم كانوا يمشون بعـدك القهقرىٰ على أعقابهم، فلا أعرفن أحدكم يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء، فينادي يا محمد يا محمد، فأقول لا أملك لك شيئاً قد بلغتك. فلا أعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل بعيراً له رُغاء، فينادي يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك شيئاً قد بلغتـك، فلا أعرفـن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل فرساً له حَمْحَمَة، فينادي يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك شيئاً قد بلغتك، فلا أعرفن أحدكم يوم القيامة يحمل سقاء من أدم ينادي يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك شيئاً قد بلغتك][1].

أركان شهادة ـ محمد رسول الله ـ:

1 ـ التصديق:

أي اليقين بأنه رسول الله حقاً يخبر عن ربه عز وجل ويوحىٰ إليه بشرع ناسخ للشرائع السماوية.

---

(1) صحيح الترغيب (782/1).

قال الله في سورة النساء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾.

وفي الصحيحين واللفظ للبخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [إن وفد عبد القيس لما أتوا النبي ﷺ، قال رسول الله ﷺ: من القوم؟ أو من الوفد؟ قالوا: ربيعة. قال: مرحباً بالقوْم (أو بالوفد) غير خزايا ولا ندامىٰ، قالوا: يا رسول الله! إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام وبيننا وبينك هذا الحيّ من كفار مُضَر فمُرْنا بأمر فَصْلٍ نُخْبر به من وراءنا وندخل به الجنة وسألوه عن الأشربة. فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع: أمرهم بالإيمان بالله وحده. قال: أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وأن تُعطوا من المغنم الخُمسَ. ونهاهم عن أربع: عن الحَنْتَمِ والدُّباء والنقير والمزفَّت[1] وقال: احفظوهن وأخبروا بهن من وراءكم][2].

فكان التصديق بأنه رسول الله جزء من مفهوم الإيمان بالله وحده وركنا من أركان هذه البنيان.

2ـ الاتباع:

أي متابعة النبي ﷺ في أقواله وأفعاله وإقراره وهديه وشرعه والتزام منهاجه.

فقد قال الله جل ثناؤه في سورة آل عمران: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

---

(1) وهذه أوعية كانوا ينتبذون بها. فالحَنْتَم: الجرار الخضر، والدُّباء: القرع اليابس (الوعاء منه) والنقير: جذع ينقر وسطه ويضعون فيه التمر ثم الماء حتىٰ إذا سكن غليانه شربوه فسكروا به، والمزفَّت: المطلي بالقار.

(2) مختصر البخاري (94) كتاب الإيمان. ومختصر مسلم (1) كتاب الإيمان. باب: أول الإيمان قول لا إله إلا الله.

وفي صحيح الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [والذي نفس محمد بيده ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار][1].

3 ـ تقديم قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ والتحاكم له والرضا بحكمه:

فقد قال الله في سورة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقال في سورة الأحزاب: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾.

وقال في سورة النساء: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

وفي صحيح مسلم عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً][2].

فلا تكتمل الشهادة بأن محمداً رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ في قلب المؤمن حتىٰ يُعَظِّمَ منهاج نبيّه ويقدم قوله وفعله وإقراره فوق كل قول أو فعل أو إقرار ، فإن الرسول ﷺ قد أوتي القرآن ومثله معه ، ومن ثَمَّ فكلا الوحيين: الكتاب والسنة من الله العظيم جلت أسماؤه وصفاته ولن يتفرقا في منهاج الحكم والتحاكم ، فالدين كلاهما معاً. قول القائل:

وقدِّم أحاديث الرسول ونَصَّه ... علىٰ كل قول قد أتىٰ بإزائه
فإن جاء رأي للحديث معارض ... فللرأي فاطرح واسترح من عنائه
فهل مع وجود البحر يكفي تيمم ... لمن ليس معذوراً لدى فقهائه
وهل يوقد الناس المصابيح للضِيا ... إذا ما أتىٰ ردؤ الضحىٰ بضيائه

(1) مسلم (93/1) ومختصر مسلم 20 ص13.
(2) مسلم (46/1) ومختصر مسلم 25 ص14.

سلامي على أهل الحديث فإنهم مصابيح علم بل نجوم سمائه
بهم يهتدي من يقتدي بعلومهم ويرقي بهم ذو الداء علة دائه
ويحيا بهم من مات بالجهل قلبُه فهم كالحيا تَحْيَ البقاع بمائه
لهم حُلَلٌ قد زينتهُمْ من الهدى إذا ما تردىٰ ذو الرَّدا بردائِه
ومن يكن الوحي المطهر عِلْمُهُ فلا ريب في توفيقه واهتدائه
وما يستوي تالي الحديث ومن تلا زخارف من أهوائه وهُذائه
وكن راغباً في الوحي لا عنه راغبا كخابط ليل تائهٍ في دجائه
إذا شام بَرْقاً في سحاب مشىٰ به وإلا بَقِيْ في شكه وامترائه

* * *

ومن قال ذا حِلٌّ وهذا محرم بغير دليل فهو محض افترائه
وكل فقيه في الحقيقة مُدَّعٍ ويَثْبُتُ بالوحيين صِدْقُ ادعائه
هما شاهدا عدل ولكن كلاهماً لدىٰ الحكم قاض عادل في قضائه
فواحَرَّ قلبي من جهول مُسَوَّدٍ به يُقتدىٰ في جهله لشقائه
إذا قلت قول المصطفىٰ هو مذهبي متى صَحَّ عندي لم أقل بِسوائِه
يرىٰ أنها دعوىٰ اجتهاد صحيحة فواعجباً من جَهْلِهِ وجفائه
فَسَلْهُ أَقَوْلُ الله ماذا أجبْتُم لمن هو يوم الحشر عند ندائه
أيسْألهم ماذا أجبتم مُلوكَكُمْ وما عَظَّمَ الإنسان من رؤسائه
أم اللهُ يوم الحشر يمتحن الورى بماذا أجابوا الرُّسْلَ من أنبيائه
وهل يُسْألُ الإنسان عن غير أحمد إذا ما ثوى في الرّمْسِ تحت ثرائِه
وهل قَوْلُهُ يا ربّ قَلَّدْتُ غيره لدى الله عُذْرٌ يوم فصل قضائه

4 ـ تزكية النفس بهديه وسنته :

وذلك بتطهيرها من القبائح وسيء العادات وفاسد الأعراف ، والتزام مكارم الأخلاق التي أمر بها النبي ﷺ ورغّب فيها ، وتعلُّق القلب والجوارح بما أحبه وشَرَعه ودعا إليه .

قول الله سبحانه في سورة الأحزاب: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ .

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين][1] .

وفي صحيح الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [مِن أشد أمتي لي حبّاً ، ناس يكونون بعدي ، يودّ أحدهم لو رآني بأهله وماله][2] .

فلا تكتمل شهادة عبد أن محمداً رسول الله حتىٰ ينهض فيقوِّمَ نفسه وسلوكه متأسِّياً برسوله عليه الصلاة والسلام ، ومن ثَمَّ فإن تزكية النفس بهدي هذا النبي الكريم تكون بتتبع كل أحواله والتعلق بما أحبّه وندب إليه: في حكمه وفي سياسته ، في علاقاته مع أعدائه ، في ولائه وبرائه ، في علاقته مع أصحابه ، في صلته بأزواجه وأخلاقه مع أهل بيته ونسائه ، في مداعبته أطفال أصحابه ، في غزوه ، في تنعله وترجله ، في طهوره وغسله ، في صلاته ، في طريقة حزنه وطريقة فرحه ، في دخوله وخروجه ، في تقلبات حياته كلها ، صلوات ربي وسلامه عليه.

تقرأ من ذلك في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: [كان إذا أتىٰ مريضاً أو أُتي به قال: أذهب الباس ربَّ الناس ، اشْفِ وأنت الشافي ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً][3] .

وتقرأ في صحيح الحاكم عن عائشة أيضاً رضي الله عنها قالت: [كان إذا أتاه الأمر يسُرُّه قال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وإذا أتاه الأمر يكرهه قال: الحمد لله على كل حال][4] .

وتقرأ في المسند عن عبد الرحمن بن أبي أبزىٰ قال: [كان إذا أصبح وإذا أمسىٰ

(1) مختصر البخاري (15) ص12 ، ومسلم رقم (44) كلاهما في كتاب الإيمان.

(2) مسلم (145/8) ، وله شاهد في المسند (156/5) صححه الألباني في الصحيحة (1418).

(3) ورواه ابن ماجه. انظر صحيح الجامع (4515).

(4) السلسلة الصحيحة (265).

قال : أصبحنا على فطرة الإسلام ، وكلمة الإخلاص ، ودين نبينا محمد ، وملة أبينا إبراهيم ، حنيفاً مسلماً ، وما كان من المشركين][1] .

وتقرأ في سنن أبي داود والنسائي عن أبي أيوب قال : [كان إذا أكل أو شرب قال : الحمد لله الذي أطعم وسقىٰ وسوّغه وجعل له مخرجاً][2] .

وكذلك تقرأ في صحيح الإمام البخاري عن أنس قال : [كان يمر بالصبيان فيسلم عليهم][3] .

في حين تقرأ في المسند بسند صحيح عن جرير قال : [كان يمر بنساء فيسلم عليهن][4] .

بينما تقرأ في تاريخ ابن عساكر بسند حسن عن ابن عباس قال : [كان يمشي مشياً يعرف فيه أنه ليس بعاجز ولا كسلان][5] .

كما حفلت السنة الصحيحة كذلك بضوابط المنهج النبوي وقواعد الحفاظ على بناء صرح حضارة الأمة وشوكتها بين الأمم .

ومن ذلك ما جاء في مسند الإمام أحمد وسنن أبي داود بسند صحيح عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : [إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتىٰ ترجعوا إلى دينكم][6] .

ففيه بيان منهاج عز الأمة في سياستها وأسباب قوتها وفيه توضيح لأسباب انتكاسها وهوانها .

وخلاصة القول : لابد من تزكية النفس بهدي هذا النبي الكريم ، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، حتىٰ تكتمل شهادة العبد أن محمداً رسول الله ، وقد أفرز

---

(1) إسناده صحيح . انظر تخريج الطحاوية (35) .
(2) صحيح . السلسلة الصحيحة (2061) .
(3) ورواه مسلم والدارمي . الصحيحة (1278) .
(4) ورواه أبو داود والترمذي . صحيح الجامع (4891) .
(5) صحيح . انظر السلسلة الصحيحة (2140) .
(6) صحيح الجامع (416) .

هذا المنهج في فهم الشهادتين رجالاً مؤمنين في حياة النبي عليه الصلاة والسلام ، لا أشباه رجال ولا رويبضة ولا أهل تشدق وكلام ، بل كانوا أهل اتباع وتعلق بحركات وسكنات نبيهم رسول المعالي والأمن والسلام ، لقد تتبعوا آثاره في طعامه وشرابه وطهوره وصيامه وحجه وزكاته وصلاته بالنهار وفي الليل وأثناء القيام ، وقلدوه في سياسته ومنهاج حكمه وطريقة قيادته لجنوده وطريقة حزمه أمام أعدائه الكافرين اللئام ، فملأت سجاياه عليهم حياتهم وعمرت نفوسهم وقلوبهم حتىٰ صارت أحاديثهم بين الأنام ، فهانت عليهم الدنيا ـ حين تذكروا صبره ـ وما فيها من آلام وأسقام ، وهان عليهم الطغاة في الأرض لما تذكروا جهاده للمعاندين أهل البغي والكفر والإجرام ، فقاتلوا في سبيل الله وهم يشتدون نحو عدوهم يتسابقون لنيل الشهادة ودرجات الكرام ، واليوم تشتد الحاجة لأمثال أولئك الأصحاب لحراسة دين الله في الأرض وسياسة الدنيا به والذّب عن عرض الأمة وقد استباحها اللئام.

نواقض شهادة أن محمداً رسول الله :

1 ـ إنكار رسالة محمد ﷺ ، لأن شهادة أن محمداً رسول الله من أركان الإسلام :

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـًٔا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ [محمد : 32 ـ 33].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ، قال رسول الله ﷺ: [والذي نفس محمد بيده ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار] وقد مضىٰ تخريجه.

2 ـ الطعن في رسول الله ﷺ أو في صدقه ، أو أمانته ، أو عفته ، أو سب الرسول أو الاستهزاء أو الاستخفاف به ، أو الطعن في تصرفاته الثابتة :

قال تعالىٰ : ﴿ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ ﴾ [التوبة : 65-66].

قال شيخ الإسلام : (من سب الله ورسوله طوعاً بغير كره ، بل من تكلم بكلمات الكفر طائعاً غير مكره ، ومن استهزأ بالله وآياته ورسوله فهو كافر باطناً وظاهراً ،

وإن من قال: إن مثل هذا قد يكون في الباطن مؤمناً بالله وإنما هو كافر في الظاهر ، فإنه قال قولاً معلوم الفساد بالضرورة من الدين) الفتاوىٰ (558/7).

وقال الإمام محمد بن سمنون: (أجمع العلماء أن شاتم النبي ﷺ المتنقص له كافر ، والوعيد جارٍ عليه بعذاب الله ، وحكمه عند الأمة القتل ، ومن شك في كفره وعذابه كفر)[1].

3 ـ الطعن في أحاديث الرسول ﷺ الصحيحة أو تكذيبها ، أو نفي الأخبار الثابتة التي أخبر عنها ـ كظهور الدجال، نزول عيسىٰ عليه السلام للحكم بشريعته، وعذاب القبر . . . . وغير ذلك ـ مما ثبت في القرآن أو السنة الصحيحة بعد إقراره بصحة نسبتها.

وفي صحيح ابن ماجه (13/1) عن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: [لا أُلْفِيَنَّ أحدَكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه][2].

وكذلك في صحيح ابن ماجه (19/1) عن علي بن أبي طالب قال: [إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ حديثاً فظُنُّوا به الذي هو أهناه وأهداه وأتقاه].

4 ـ جحود أحد الرسل الذين أرسلهم الله قبل محمد ﷺ أو إنكار قصصهم مع أقوامهم الثابتة في القرآن أو السنة الصحيحة:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء: 150-151].

5 ـ ادعاء النبوة بعد محمد ﷺ[3]:

قال تعالىٰ: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: 40].

---

(1) انظر كتاب «الصارم المسلول على شاتم الله والرسول» للمزيد من التفصيل.

(2) وانظر تخريج المشكاة 162.

(3) كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي وميرزا غلام أحمد القادياني وأمثالهم.

وفي الصحيحين عن جُبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: [إنّ لي أسماءً: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يَحْشُرُ الناس على قدمي(1)، وأنا العاقب، والعاقب الذي ليس بعده نبي(2)].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [لا تقوم الساعة حتىٰ يبعثَ دجالون كذّابون، قريب من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسولُ الله](3).

وهو في صحيح أبي داود من حديث ثوبان بلفظ: [وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي الله، وأنا خاتم النبيين، لا نبيَّ بعدي].

6ـ وصف رسول الله ﷺ بما لا يوصف به إلا الله.

كوصفه بعلم الغيب المطلق، أو علم مافي اللوح المحفوظ، كقول أحدهم:

يا علَّام الغيوب قد لجأنا إليك
يا شفاء القلوب الصلاة عليك

والله يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: 65].

كما أمر نبيه أن يقول: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 188].

وفي صحيح البخاري عن عمر، عن النبي ﷺ قال: [لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله] وقد مضىٰ تخريجه.

7ـ الطلب من الرسول ﷺ ما لا يقدر عليه إلا الله.

كطلب النصر والمدد، والشفاء، أو سؤال قبره الغوث والفرج، وغير ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله، حتىٰ قال قائلهم البوصيري:

ومن تكن برسول الله نُصرته إن تلقه الأسد في آجامها تهِمِ
ما سامني الدهر ضيماً واستجرتُ به إلا ونلتُ جواراً منه لم يُضَمِ

---

(1) يتقدم النبي ﷺ الناس يوم المحشر ويحشر الناس على أثره.
(2) قال الألباني: (قيل هذا من قول الزهري فيكون مدرجاً في الحديث) مختصر الشمائل ص 191.
(3) مختصر مسلم (2023) ص535.

وهذا شرك تجاوزه الشعراء باسم المدح والإطراء وخالفوا فيه قول الله تعالىٰ: ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال: 10].

وفي صحيح الترمذي من حديث ابن عباس قال له عليه الصلاة والسلام: [يا غلام، إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. . .][1].

8ـ اعتقادات باطلة في النبي ﷺ: مردّها إلى أحاديث مكذوبة وموضوعة.

أ ـ القول بأن الله خلق الدنيا لأجل محمد ﷺ: ويستندون إلى حديث قدسي مكذوب: (ولولاك ما خُلقت الدنيا). قال ابن الجوزي: حديث موضوع.

وقد بين أهل العلم كذب البوصيري بقوله:

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة مَنْ ... لولاه لم تُخلَق الدنيا من العدم

لأن هذا الاعتقاد يخالف قول الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: 56].

حتى إن محمداً ﷺ خلقه الله لعبادته حيث قال له: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: 99].

والرسل جميعا خلقهم الله للدعوة إلى عبادته، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: 36].

ب ـ القول بأن الله خلق نور النبي ﷺ: أولاً، ومن نوره خُلِقت الأشياء.

وهذا اعتقاد باطل لا دليل عليه، فالأشياء تشمل: آدم والشيطان والإنس والجن والحيوانات والحشرات والجراثيم وغيرها، فهذا مخالف لما جاء في القرآن أن آدم خلق من طين، والشيطان خلق من نار، والإنسان خلق من نطفة. . . إلخ.

وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: [خُلِقت الملائكة من نور، وخُلِق الجان من مارج من نار، وخُلق آدم مما وصف لكم][2].

---

(1) صحيح الجامع (7834).

(2) أي من طين، مختصر مسلم (2169) ص578.

وإنما استدلوا بحديث مكذوب: أن جابر بن عبد الله سأل رسول الله ﷺ: ما أول ما خلق الله؟ فقال: نور نبيك يا جابر. والحديث موضوع وباطل كما ذكر أهل العلم بالحديث.

وهو مخالف لقول الله في القرآن بخلق آدم أول البشر أولا ، قال تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: 71] ، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [غافر: 67].

قال ابن جرير الطبري: (خلق آباكم آدم من تراب ، ثم خلقكم من نطفة).

وفي الحديث: [كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب] رواه البزار وصححه الألباني(1).

وأما المخلوقات فأولها القلم ، ولكن ورد في الحديث الصحيح أن الرسول ﷺ مكتوب عند الله خاتم النبيين قبل خلق آدم ، وهو قوله ﷺ: [إني عند الله مكتوب خاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدِلٌ في طينته] صححه الحاكم ووافقه الذهبي وأقره الألباني.

وقوله (لمنجدل): لملقي على الأرض ، والحديث يقول (مكتوب) ولم يقل: مخلوق.

ومثله قوله ﷺ: [كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد] رواه أحمد في السنة وصححه الألباني(2).

وأما حديث: [كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث] فضعيف عند المحدثين ، ضعفه الحافظ ابن كثير والمناوي والألباني رحمهم الله جميعاً.

* * *

(1) صحيح الجامع (4444).

(2) السلسلة الصحيحة (1856) ، وصحيح الجامع (4457) ، وقد صحّ بلفظ: [كُتِبْتُ نبياً. . .].

ـ شهادة أن محمداً رسول الله ـ

ب: ـ الأدلة البينة على صِدق رسالة محمد ﷺ ـ

يؤيد الله رُسله بالبينات الدالة على صِدْقِ رسالتهم حتىٰ لا يكذبهم الناس. قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾(1) [الحديد: 25]، ولقد أيّد الله محمداً ﷺ ببينات واضحة وأدلة قاطعة معجزة، أعلاها:

أولاً: البينة (المعجزة) القرآنية:

لقد جعل الله الوحي أكبر معجزة إلى يوم القيامة، تُظْهر صدق محمد ﷺ وتكشف للناس هزالة شبهاتهم حتىٰ يتبينوا أنه الحق، وقد حفظه سبحانه من التحريف.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: 50-51].

وقال جل ذكره: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ۚ﴾(2) [هود: 17].

---

(1) أي المعجزات.

(2) ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ هو النبي ـ ﷺ ـ والبينة: هي القرآن من ربه تعالى. «الأحزاب» جميع الكفار على اختلافهم في الملل والنحل.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [مامن الأنبياء من نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيتُه وحياً أوحاه الله إليَّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة] ورواه أحمد[1] .

ولهذه البينة القرآنية أوجه توضِّح إعجاز القرآن نذكر منها :

1 ـ فصاحة القرآن وجِدَّتُه الدائمة :

القرآن مكون من أحرف الهجاء (أ ـ ب ـ ت ـ ث) التي يتكون منها كلام الناس ، إلا أن فصاحة القرآن أعجزت الجن والإنس ، فسرعان ما يبلى كلام الناس إذا كُرِّرَ مهما كان بليغاً فصيحاً ، وأما كتاب الله فلا يبلىٰ مهما أعاد المسلم قراءته ، فهو يكرر الفاتحة كل يوم عشرات المرات ، ولا يمل منها ، بل كلما تدبرها اكتشف فيها علوماً جديدة ، وآفاقاً مثيرة ، ومعاني عظيمة جليلة . ولقد تحدى القرآن من ارتاب في صدقه أن يأتي بسورة من مثله ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم[2] مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : 23-24] .

2 ـ إخبار القرآن بالغيب :

الغيب لا يعلمه إلا الله ، ولقد أخبر القرآن بغُيوب كثيرة ، فكان هذا دليلاً على أن القرآن من عند الله ، وأن محمداً ﷺ الذي بلَّغ القرآن للناس رسولُ الله ، ومن هذه الأخبار الغيبية :

أ ـ انتصار الروم على الفرس بعد هزيمة .

فعندما انتصر الفرس وهم عُبّاد أوثان على الروم وهم أهل كتاب في فلسطين فرح المشركون في مكة ، وتوعّدوا المسلمين بمصير كمصير الروم ، فساء ذلك المؤمنين فأنزل الله قوله : ﴿ الم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ

(1) صحيح الجامع (5557) .

(2) وهم آلهتهم التي يعبدونها من دون الله .

﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 1-6].

وعندما نزلت هذه الآيات ردَّدها المسلمون، وتهكَّمَ بما وعدتْ به الكافرون، وتصدىٰ كافر لأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ يُراهِنُه على أن الفُرْسَ لن تنهزم في المدة التي حدَّدَتْها الآية بكلمة «بضع سنين» وهي مدة تمتد من ثلاثِ سنواتٍ، إلى عَشْرٍ ولا تزيد، فقبل أبو بكر الصديق الرِّهان قبل تحريم الرِّهان، وسمحَ الرسول ﷺ بمضي الرهان، ووقف الكافرون مع الكافر الذي دخل الرهان، كما وقف المسلمون ينتظرون تحقُّقَ وعد الله، والرسول ﷺ يقول: [فإن البِضْعَ ما بين الثلاث إلى التِّسْع] رواه الترمذي والطبراني، وتفصيل ذلك:

أخرج الترمذي بسند صحيح عن عروة عن نيار بن مكرم الأسلمي قال: [لما نزلت ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم، لأنهم وإياهم أهل كتاب، وفي ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وكانت قريش تحب ظهور فارس، لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب، ولا إيمان ببعث، فلما أنزل الله هذه الآية، خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ فقال ناس من قريش لأبي بكر: فذاك بيننا وبينكم، زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين، أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلىٰ، وذلك قبل تحريم الرهان، فارتهن أبو بكر والمشركون، وتواضعوا الرهان وقالوا لأبي بكر: كم نجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين، فسم بيننا وبينك وسطاً ننتهي إليه؟ قال: فسمّوا بينهم ست سنين، قال: فمضت ست السنين قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهن أبي بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس، قال: فعاب المسلمون على أبي بكر تسميته ست سنين لأن الله يقول: ﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ قال: فأسلم عند ذلك ناس كثير][1].

(1) السيرة النبوية على منهاج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة. د. مأمون حموش. (228/1).

فَوُضعت النبوة أمام امتحان ، والكفار جميعاً يعلمون أن محمداً ﷺ من أعقل الناس ، ولا يمكن أن يورِّط نفسه في مثل هـذا الامتحان ، لو لم يكن في غاية الثقة من ربـه وتصديقه لـه. لذلك ما مرّت سَبْعُ سنوات حتىٰ تحقق وعد الله ، وفـرح المؤمنون ، وظهـر صِدْق الرسول ﷺ فآمن جمع من الناس ، ودخلوا في دين الله.

ب ـ حماية الله لنبيّه ﷺ من الاغتيال.

فقد نزل الوحي الكريم يبشر النبي ﷺ بالحراسة الإلهية وأن أعداءه لن يصلوا إليه رغم محاولات المشركين واليهود المتتالية. قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ [الإسراء: 60]. وقال سبحانه: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: 67].

يروي الترمذي بإسناد حسن عن عائشة قالت: [كان النبي ﷺ يُحرس حتىٰ نزلت هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة ، فقال لهم: يا أيها الناس انصرفوا ، فقد عصمني الله][1].

ولقد كَثُرت المؤامراتُ وتتابعت فأحبطها الله تحقيقاً لوعده ، ولقد استُشهدَ بعد رسول الله ﷺ ثلاثـة من الخلفـاء الراشديـن والإسلامُ قـويٌ ، والكفر مُنْدحِـرٌ ، وأسباب الأمن متوفِّرَة للخلفاء ولم تكنْ متوفِّرةً في عهد الرسول ، لكن الدفاع الإلهي هو الذي نجّىٰ رسوله الذي وَثَقَ بوعد ربه ، فمضىٰ في دعوته وصرف حَرَسَهُ ، فصَدَقَهُ الله ما وعده.

ج ـ إنهاء تعاقب الرسل بخاتم الرسل والأنبياء ﷺ.

فلقد كان الرسل يتعاقبون على الأرض ، حتى ظهر محمد ﷺ فانقطع الرسل تصديقاً لقوله تعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: 40]. فهذا خبر غيبي صدّقته القرون التي جاءت بعد بعثة محمد ﷺ تشْهدُ بأنه لا نبي آخَرَ بعد خاتم الأنبياء.

---

(1) السيرة النبوية على منهاج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (1/426-427).

3 ـ الإعجاز العلمي الحديث للقرآن :

قال تعالىٰ : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : 53] .

وعن السدي : («سنريهم آياتنا في الآفاق» يقول : ما نفتح لك يا محمد من الآفاق «وفي أنفسهم» في أهل مكة ، يقول : نفتح لك مكة) .

واختاره ابن جرير وقال : (وذلك أن الله عز وجل وعد نبّيه ﷺ أن يري هؤلاء المشركين الذين كانوا به مكذبين آيات في الآفاق) .

ومن ثمّ فإن الآية عامة في المشركين من بعدهم ، بأن الله سيظهر في الآفاق والأنفس ما يظهر للمعاندين صدق نبوة محمد ﷺ وصدق الوحي النازل عليه حتىٰ يعلموا أنه الحق من عند الله .

لقد تحقق الوعد من ربنا في هذا الزمان ، فرأىٰ الكافرون الذين لم يتبيّنوا الحق آياتِ الله في آفاق المخلوقات ، وما رأوا تلك الآيات والأسرار إلا بأدقِّ الأجهزة والوسائل ، كالطائرات والغوّاصات ، والتي لم يملِكْهـا الإنسانُ إلا فـي هذا الزمان ، فكان لهم في ذلك بيّنة بأن الله هو الذي أخبر محمداً ﷺ عن هذه الأسرار في الخلق ، يوم لا أجهزةَ بحْثٍ علمي ، ولا طائراتٍ ، ولا غواصاتٍ ، فكان هذا لوْناً جديداً من إعجاز القرآن ، يبيِّن للكافر صِدْقَ رسول الله ﷺ وصِدْقَ هذا الدين ، ومن أمثلة ذلك :

1 ـ ما كان أحدٌ يظنّ أن أصل السماء ونجومَها وكواكبَها هو الدخان ، حتىٰ تقدّمت أجهزة البحث العلمي ، وشاهد الباحثون بقايا الدخان ، لا تزال تتكون منه النجوم إلى يومنا هذا ، والله يقول : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت : 11] .

2 ـ وكشف الباحثون الآن : أن نجومَ السماء لا تزال تُخلَقُ ، وأن مُدُنَ النجوم يتباعدُ بعضها عن بعض ، وبهذا عُرِف أن السماء لا تزال تَتَّسِعُ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ (1) وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات : 47] .

---

(1) بقوة .

3 ـ وكشف الباحثون أخيراً: أن القمر كان مُشْتعلاً ثم انطفأ ، ومُحِيَ ضَوءُهُ ، وأن النور الذي يَخرجُ منه في الليل ليس إلا انعكاساً مِن سرَاج آخَر ، هو الشمس ، والله يقول: ﴿ . . . فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء: 12]. قال المفسِّرون: (آيةُ الليل القمر وآية النهار الشمس). وقال ابن عباس: (كان القمر يضيء كالشمس).

وقال المفسِّرون: (فمحونا آية الليل: أي طمسنا ضوءها).

ثم ذكر القرآن القمرَ وسِرَاجه ، فقال تعالىٰ: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [الفرقان: 61]. فلو كان القمر يضيء لقال الرحمن: سِرَاجين بدل سراجا.

4 ـ وكان الناس يظنون: أن من صَعَدَ في السماء تنفَّسَ الهواء العليل ، فلما صنع الإنسان الطائرات الحديثة وصعد في السماء ، وجد: أن من صَعَدَ في السماء يضيق صدره ، ويبلغ أشدَّ درجات الضيق بسبب أن الهواء ينقص كلما صعد الإنسان في السماء ، والله يقول: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا (1) كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام: 125].

5 ـ وما كان أحدٌ يتصور أن الجبال تَخْرِقُ الأرض ، كالأوتاد ، حتىٰ اكتشف الدارسون ، أن تحت الطبقة الأرضية الصلبةَ التي نعيش عليها ، طبقة ليِّنةً لزجةً ، وأن تحتَ كلِّ جبل جذراً يغوص في هذه الطبقة اللِّينة ، فيمسك الأرض الصُّلبة التي نعيش عليها من أن تضْطربَ من تحتنا ، بسبب لين ما تحتها ، والله يقول: ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ [النبأ: 7]. ويقول: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ (2) أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ [الأنبياء: 1].

6 ـ واكتشف الدارسون: أن الماء إذا نزل أخرج النباتَ ، وأن النبات يُخرجُ مادةً خضراءَ اللون ، هي التي تُصنع فيها الحبوب والثمار ، ومن هذه المادة

---

(1) شديد الضيق.

(2) جبال ثوابت.

الخضراء تخرجُ الحبوبُ والثمار ، والله يقول: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا[1] نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا[2] ﴾ [الأنعام: 99].

7ـ واكتشف الباحثون: أن في النباتات جميعاً زوجيةً (ذكراً وأنثىٰ) وما كان أحد يعلم ذلك من قبلُ ، والله يقول: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: 36].

8ـ واكتشف الأطباء: أن الأعصاب التي تتألم بحريق النار وشدة البرد توجَدُ في الجلد فقط ، كما تتركّز باقي أعصاب الإحساس في الجلد ، مما يجعل الإنسان يتألم عند دخول إبرة الطبيب في مَنْطِقَة الجِلْد ، فإذا غارتْ في اللحم تلاشىٰ الألم ، وقد بيَّن القرآنُ أن الألم بالحرق يكون في الجلد ، في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: 56].

9ـ واكتشف الدارسون أن اللبن في الأنعام يُسْتَخْلَصُ من بين الفَرْثِ في الأمعاء الدقيقة ، فتبقىٰ الفضلات التي تخرج في صورة بَعَرٍ ، وغيرِه ، بعد أن كانتْ كُلُّها فَرْثاً سائلاً ، ثم تَدْخلُ الموادُّ الغذائية في الدمِ ، ثم يُستَخْلَصُ اللبَنُ من الدم في الضروع ، والله يقول: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ[3] ﴾ [النحل: 66].

10ـ ما كانت البشرية تَعْرِف أن في البحر مَوْجاً داخلياً ، غيرَ الموج السطحي ، وما كان الناس يعلمون أن في أعماق البحار ظلماتٍ ، فجعل الله للأسماك سُرُجاً تُنير لها في تلك الظلمات ، وما كان أحدٌ يعلم أن الموج بِسَطْحهِ المائل يُشتِّت الضوء الذي يَسْقُط عليه من أعلى فيُكَوِّنُ بذلك ظلمةً كما تفعلُ السحابُ في مَنْع بعض الأشعة ، من النَّفاذ إلى أسفل ، لكِنَّ كُلَّ هذه الأسرار قد ذكرها الله في آية

---

(1) مادة خضراء.

(2) متراكماً كسنابل الحنطة.

(3) لقد تصفىٰ اللبن مرتين ، مرة من الفرث ثم صار دماً ، ومرة من الدم ثم صار لبناً خالصاً.

واحدة ، قال تعالىٰ : ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ[1] يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ[2] مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور : 40].

هذه الأسرار وغيرُها في أعماق السماء ، وأعماق الماء ، وباطن الأرض ، وبُطون الأنعام ، وجوْف النبات ، وفي تركيب الإنسان ، ما عرفَها الإنسان إلا في هذا الزمان ، بعد أن صنع أدقَّ الآلات ، التي تمكَّن بها ، من معرفة هذه الأسرار.

فمن كشف لمحمد ﷺ هذه الأسرار قبل ألْفٍ وأربعمائة عام ، يوم لا طائرات ، ولا غوّاصات ، ولا مخترعات علمية؟؟!

إن هذا كُلَّه يشهد لكل عاقل ، في أمريكا أو روسيا ، في الهند أو الصين ، في أوربا أو أسْتُراليا ، أن هذا القرآن نزل بعلم الله ، قال تعالىٰ : ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: 6] ، كما يشهد لكل عاقل ، أن محمداً رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ثانياً: المعجزات العملية وتغيير نظام الخلق.

لقد خلق الله الكون على نظام ثابت ، ولكن الله يُغير هذا النظام تأييداً لرسله وتصديقاً لهم.

ومن أمثلة ذلك: ما حدث لرسولنا ﷺ من بينات أقنعت الكثير من الناس بصدق رسالته ونبوته ، ومنها:

1 ـ انشقاق القمر:

القمر جسم واحد في نظام الخِلْقَةِ الثابت لا يقدر على شقِّهِ نصفين إلا الله ، ولكن الكفار لما كذبوا محمداً ﷺ وطالبوه بآية تُصدِّقه شقَّ الله له القمر نصفين ، فقال لهم عليه الصلاة والسلام: (اشهدوا) فقال الكافرون: سحَرنا محمد ، ولم يُكَذِّبوا الآية التي شاهدوها فأنزل الله قوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: 1-2].

---

(1) أي عميق كثير الماء.

(2) يعلوه ويغطيه.

أخرج البخاري عن أنس رضي الله عنه: [أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شِقَّتَين حتَى رأوا حراءً بينهما][1].

وقد رواها الإمام البخاري أيضاً عن شاهد عيان وهو عبد الله بن مسعود حيث قال: [انشق القمر ونحن مع النبي ﷺ بمنىٰ فقال: اشهدوا، فذهبت فرقة نحو الجبل][1].

وفي صحيح الترمذي عن أنس قال: [سأل أهل مكة النبي ﷺ آية، فانشق القمر بمكة مرتين فنزلت: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي ذاهب][1].

2ـ الإسراء والمعراج:

شاء الله أن يَرْفَعَ رسوله إلى سدرة المنتهىٰ، فوق السماء السابعة، فلم يُعْرَجْ به من مكة، بل أُسْري به منها ليلاً، إلى بيت المقدس، ثم عُرج به من بيت المقدس.

وقد كان في إسرائه الدليلُ للكفار على صِدْقه، لأنهم كذبوا الرسول، ثم امتحنوا صِدْقه، فسألوه عن وَصْفِ بيتِ المَقْدِسِ، وهم يعلمون أنه لم يَرَهُ مِنْ قبلُ، فوصفه حجراً حَجَراً، فسألوه عن قافلة لهم في الطريق، فحدّد مكانها، وعدّد رجالها، ومن أي القبائل هم، ووصف الإبل، كما روي أنه وصف الجمل الذي يتقدم القافلة، وما يحمل، وحدّد الزمن الذي تصل فيه القافلة، فوصلت في الموعد الذي حدّده.

إن الإسراء والمعراج خَرْقٌ لنظام الخلِقة، وقد جعله الله تصديقاً لرسوله، فإلى تفصيل هذا الحدث الكبير والعلوم المستفادة منه:

---

(1) السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة، د. مأمون حموش (211/1). البخاري (فتح الباري 182/7 و617/8) والترمذي (397/5-398).

ـ الإسراء والمعراج ـ

لقد ثبت حادث الإسراء والمعراج بنص القرآن الكريم ، وسميت سورة من سوره بسورة الإسراء ، افتتحها الباري عز وجل بقوله : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء : 1].

ثم فصّل سبحانه حادث المعراج في سورة النجم فقال جل ثناؤه : ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم : 1-18].

والإسراء : هو الرحلة من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصىٰ بالقدس ، وقد سمي بالأقصىٰ لأنه أبعد المساجد الثلاث التي تزار وتشد إليها الرحال في الإسلام .

وقد ذكر الإمام البخاري في صحيحه أن الإسراء وقع بعد موت أبي طالب ، وكان فيما يبدو بعد العودة من رحلة الطائف المؤلمة تسلية ومواساة من الله لرسوله ﷺ .

وأما المعراج : فهو ارتفاع بعد الإسراء في طباق السماوات إلى مستوى تنقطع عنده علوم الخلائق ثم العودة إلى مكة ، والمعراج لغة على وزن مِفْعال : من العروج أي الآلة التي يُعرج ـ أي يصعد ـ فيها ، ولا نعلم كيف هو ولا نسأل وحكمه كحكم المغيبات نؤمن به ولا نشتغل بكيفيته .

وقد ذهب قوم إلى أن الإسراء كان مرتين مرة في اليقظة ومرة مناماً ، وقالوا : بالروح لا بالجسد ، وينسبون لعائشة ومعاوية أنه أسري بروحه ولم يُفْقد جسده ،

وكل ذلك لم يصح عنهما ، وقد ردّه العلماء المحققون :

قال الإمام الطحاوي رحمه الله : (والمعراج حق وقد أسري بالنبي ﷺ وعُرِج بشخصه في اليقظة إلى السماء ، ثم إلى حيث شاء الله تعالى من العُلا ، وأكرمه الله تعالى بما شاء فأوحىٰ إلى عبده ما أوحىٰ)(1) .

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله : (يا عجباً لهؤلاء الذين زعموا أنه كان مراراً ، كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه في كل مرة يفرض عليهم الصلوات خمسين ، ثم يتردد بين ربه وبين موسىٰ حتى تصير خمساً فيقول : «أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي» ، ثم يعيدها في المرة الثانية إلى خمسين ثم يحطها إلى خمس؟ وقد غلط الحفاظ شريكاً في ألفاظ من حديث الإسراء ، ومسلم أورد المسند منه ثم قال : «فقدّم وأخّر وزاد ونقص» ولم يسرد الحديث وأجاد رحمه الله) .

لقد كان الإسراء والمعراج بالروح والجسد ، لا بالحلم والنوم ، وإلا لم يكن له معنىٰ التحدي والإعجاز ، وقد تواترت نصوص الكتاب والسنة على إثبات ذلك ، وقد هيأ الله نبيّه لتلك الرحلة المعجزة :

يَرْوي البخاري عن أنس عن مالك بن صعصعة أنَّ رسول الله ﷺ حدّثهم عن ليلة أسري به قال : [بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان أتاني آت ، فشق ما بين هذه إلى هذه ـ يعني ثغرة نحره إلى شعرته ـ فاستخرج قلبي ثم أتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً ، فغسل قلبي ثم حُشي ثم أعيد](2) .

فإلى تفصيل هذه الرحلة النبوية العظيمة وهذا المؤتمر الكبير الذي حضره الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين :

روى مسلم في صحيحه عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : [أُتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهىٰ طرفه فركبته حتىٰ أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء ، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن ، فاخترت اللبن فقال

---

(1) متن العقيدة الطحاوية فقرة (39) .

(2) صحيح البخاري (الفتح 458/1) كتاب الصلاة ، وكتاب الأنبياء باب (5) (الفتح 374/6) .

جبريل: اخترت الفطرة. ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل فقيل له: من أنت؟ قال جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحَّبَ بي ودعا لي بخير - وفي رواية البخاري: (وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء. ففتح فلما خَلَصْتُ فإذا فيها آدم. فقال: هذا أبوك آدم فسلِّم عليه، فسلَّمت عليه فردّ السلام ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح) - ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل عليه السلام فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد؟ قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة عيسىٰ بن مريم، ويحيىٰ بن زكريا فرحبا بي ودعوا لي بخير. (وفي رواية البخاري: فقالا: مرحباً بك من أخ ونبيّ) ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بيوسف، فإذا هو قد أعطي شطرَ الحسن فرحب بي ودعا لي بخير. (قال: مرحباً بك من أخ ونبي) (مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح). ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب بي ودعا لي بخير. (قال: مرحباً بك من أخ ونبي). (مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح) قال الله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل قيل: من هذا؟ فقال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بهارون فرحب بي ودعا لي بخير. (قال: مرحباً بك من أخ ونبي) (مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح). ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بموسىٰ فرحب بي ودعا لي بخير (قال مرحباً بك من أخ ونبي) (مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح). (وفي رواية البخاري: فلما جاوزت بكىٰ، فقيل له: ما أبكاك؟ قال: يا رب هذا الغلام الذي بعث من بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخل من أمتي) ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد،

قيل: وقد بعث إليـه ؟ قال: قد بعث إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم (فقال: هذا أبوك فسلم عليـه. قال: فسلمت عليه فـرد السلام. قال: مرحباً بالابـن الصالح والنبي الصالح (مرحباً بك من ابـن ونبي)) مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخلـه كلّ يوم سبعون ألف ملك ، لا يعودون إليه. ثم ذهب بي إلى السدرة المنتهىٰ ، وإذا ورقهـا كآذان الفيلـة ، وإذا ثمرها كالقـلال[1] ، فلمـا غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن يَنْعَتَها من حُسْنها فأوحىٰ الله إليّ ما أوحىٰ ، ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة ، فنزلت إلى موسىٰ فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة في كل يوم وليلة ، قال: ارجع إلى ربك فسله التخفيف[2] فإن أمتك لا تطيق ذلك فإني بلوت بني إسرائيل وخبرتهم. قال: فرجعت إلى ربي ، فقلت: يا رب! خفف على أمتي فحطّ عني خمساً ، فرجعت إلى موسىٰ فقلت: حطّ عني خمساً. قال: إن أمتك لا تطيق ذلك ، فارجع إلـى ربك فسلـه التخفيف. قـال: فلم أزل أرجع بين ربـي وبين موسىٰ حتىٰ قال: يا محمد! إنهن خمس صلوات كلَّ يوم وليلـة ، لكل صـلاة عشر ، فذلك خمسون صلاة ، من همَّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً. ومن همَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب لـه شيئـاً ، فإن عملها كتبت له سيئة واحدة ، قال: فنزلت حتىٰ انتهيت إلى موسىٰ فأخبرته فقال: ارجع إلى ربك فَسَلْهُ التخفيف. فقال رسول الله ﷺ: فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييتُ منه][3] .

فوائد ونتائج :

(1) ـ لم ير النبي ﷺ ربَّه ، وقوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ ، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ صح عن النبي ﷺ أن هذا المرئي جبرائيل ، رآه مرتين على صورته التي خلق عليها.

---

(1) جمع قلة: وهي الجرة العظيمة.

(2) وفي رواية: (فالتفت إلى جبرائيل كأنه يستشيره في ذلك فأشار أن نعم إن شئت ، فعلابه جبرائيل حتىٰ أتىٰ به إلى الجبار تبارك وتعالىٰ ـ وهو في مكانه ـ) والأخيرة من لفظ شريك وقد غلطه الحفاظ.

(3) صحيح مسلم 148/1.

(2) ـ أما قوله ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ فهو دنو جبرائيل وتدليه كما قالت عائشة وابن مسعود رضي الله عنهما ، فإنه تعالى قال : ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ فالضمائر كلها راجعة إلى هذا المعلم الشديد القوىٰ. والقوىٰ: جمع قوة. وقال ابن زيد: (المِرَّة: القوة). وقال ابن عباس: (ذو منظر حسن). وقال ابن جرير: (عني بالقوة: صحة الجسم وسلامته من الآفات والعاهات).

وأما بحديث الإسراء أن الدنو والتدلي هو لله فغير ثابت عند المحققين من العلماء.

(3) ـ ومما يدل أن الإسراء بجسده عليه السلام في اليقظة قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ والعبد عبارة عن مجموع الجسد والروح ، كما أن الإنسان اسم لمجموع الجسد والروح ، هذا هو المعروف عند الإطلاق وهو الصحيح ، ولا يمتنع عقلاً ، وقد ذكر بعض أهل العلم أنه لو جاز استبعاد صعود البشر لجاز استبعاد نزول الملائكة ومن ثمَّ إنكار النبوة.

(4) ـ فإن قيل ما الحكمة من الإسراء لبيت المقدس أولا؟ قيل: إنه كان إظهاراً لصدق دعوى الرسول ﷺ المعراج ، وذلك حين سألته قريش عن نعت بيت المقدس فوصفه لهم وأخبرهم عن عيرهم التي مرّ عليها في طريقه ، ولو كان عروجه إلى السماء من مكة لما حصل ذلك ، إذ لا يمكن إطلاعهم على مافي السماء لو أخبرهم عنه ، وقد اطلعوا على بيت المقدس فأخبرهم بنعته. ذكره شارح الطحاوية.

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي ، فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أُثْبتها ، فكُرِبتُ كرباً ما كربت مثله ، فرفعه الله لي أنظرُ إليه ، ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم][1].

(5) ـ في حديث المعراج إثبات صفة العلو لله سبحانه.

(1) صحيح مسلم (1/156 - 157).

فقوله عليه الصلاة والسلام كما في حديث أنس الذي رواه مسلم: [ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل][1] إثبات لصفة العلو، كما قال سبحانه في سورة السجدة: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾.

(6) - في الإسراء نعت لبعض صفات بعض الرسل، ولقاء مالك خازن النار.

ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة السابق: [وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء فإذا موسىٰ قائم يصلي، فإذا رجل ضَرْبٌ[2] جعد[3] كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسىٰ قائم يصلي، أقرب الناس به شبهاً عروةُ بن مسعود الثقفي، فإذا إبراهيم قائم يصلي، أشبه الناس به صاحبكم - يعني نفسه - فحانت الصلاة فأممتهم، فلما فرغت من الصلاة قال لي قائل: يا محمد! هذا مالك خازن النار فسلّم عليه، فالتفت إليه فبدأني بالسلام][4].

(7) - في المعراج أوحى الله لنبيّه خواتيم سورة البقرة.

ففي صحيح مسلم من حديث عبد الله قال: [فأعطي رسول الله ﷺ ثلاثاً: الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله من أمته شيئاً المقحمات][5].

(8) - في المعراج: دخل رسول الله ﷺ الجنة ورأى نهر الكوثر فيها، ورأىٰ في أصل سدرة المنتهى أنهاراً أربعة تفجر منها.

فقد أخرج البخاري عن أنس عن النبي ﷺ قال: [بينما أنا أسيرُ في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قبابُ الدر المجوف، قلتُ: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فإذا طينُه مِسْكٌ أذفَرُ][6]. والأذفر هو الشديد الرائحة.

---

(1) صحيح مسلم (148/1).
(2) أي خفيف اللحم.
(3) مجتمع الجسم.
(4) مسلم (156/1-157).
(5) مسلم (109/1). مختصر مسلم حديث (81) ص28.
(6) صحيح البخاري (فتح الباري 731/8).

وفي مسند الإمام أحمد من حديث حذيفة وفيه: [حتىٰ أتيت بيت المقدس، ففتحت لي أبواب السماء، ورأيت الجنة والنار][1].

وفي صحيح البخاري من حديث مالك بن صعصعة وفيه: [ورُفعت لي سِدْرَةُ المنتهىٰ فإذا نَبِقُها كأنه قلال، وورقها كأنه آذان الفيول، في أصلها أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فسألت جبريل فقال: أما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران النيل والفرات][2].

(9) ـ في المعراج: رأى رسول الله ﷺ عذاب الذي يغتابون الناس ويقعون في أعراضهم، وأبصر عذاب خطباء القول الذين لا يمتثلونه بالعمل.

ففي المسند بإسناد صحيح عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [لما عرج بي ربي عز وجل، مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم][3].

وعند البيهقي بسند حسن عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [أتيت ليلة أسري بي على قوم تُقرض شفاههم بمقاريض من نار، كلما قرضت وَفَتْ، فقلت يا جبريل: من هؤلاء؟ قال: خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون، ويقرؤون كتاب الله ولا يعملون به][4].

(10) ـ رأىٰ عن يمين آدم أهل الجنة، وعن يساره أهل النار.

فقد خرّج البخاري من حديث أنس: [. . . فلما فُتِح علونا السماء الدنيا فإذا رجل قاعد على يمينه أَسْوِدة، وعلى يساره أسودة، إذا نظر قِبَلَ يمينه ضحك، وإذا نظر قبل يساره بكىٰ. فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسَمُ بنيه، فأهل اليمين

---

(1) حسن، السلسلة الصحيحة (872)، وصحيح الجامع (127).
(2) صحيح البخاري (فتح الباري 7/201-202).
(3) مسند أحمد (3/224) والسلسلة الصحيحة للألباني (2/60).
(4) صحيح الجامع (128).

منهم أهل الجنة ، والأسودة التي عن شماله أهل النار ، فإذا نظر عن يمينه ضحك ، وإذا نظر قِبَل شماله بكى][1] .

فصدقه المؤمنون بكل ما ذكره لهم وعلى رأسهم الصديق رضي الله عنه ، وقد سُمِّيَ بذلك من يومئذ ، فهو خير المؤمنين بنبيّه ﷺ .

3 ـ الرياح والجنود التي لا تُرىٰ تقاتل مع الرسول وصَحْبه .

لقد أرسل الله الرياح الشديدة يوم الخندق وجنوداً لا ترىٰ ، تطفِىء نار الكافرين ـ الذين عسكروا مقابل المسلمين من الخندق الذي حفروه ـ وتُكفىء قدورهم ، وتَهْدِم بناءَهم ، وتَقْتلع خيامهم ، وتُشَرِّدُ خيلهم وجمالهم ، وإذا بالمشركين الذين جاؤوا من أماكن بعيدة ، وحاصروا المسلمين ليالي طويلة ، يُطْرَدون رغم أنوفهم ، ويعودون خائبين ، وأصبح المسلمون يرددون مع رسول الله ﷺ قوله : (الحمد لله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده) ، وفي ذلك نزل قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب : 9] .

قال ابن جرير : (وقوله ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾ قال : ريح الصبا أرسلت على الأحزاب يوم الخندق ، حتىٰ كفأت قدورهم على أفواهها ، ونزعت فساطيطهم حتى أظعنتهم . وقوله : ﴿ وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ ﴾ قال الملائكة ولم تقاتل يومئذ)[2] .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول : [لا إله إلا الله وحده ، أعز جنده ، ونصر عبده ، وغلب الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده][3] .

---

(1) البخاري (فتح الباري 477/6) .
(2) السيرة النبوية على منهج الوحيين : القرآن والسنة الصحيحة . د. مأمون حموش . ج (2)/ ص 749 .
(3) ورواه مسلم (83/8) .

وكذلك روى البخاري عن سُليمان بن صُرَد قال: [قال النبي ﷺ يوم الأحزاب: نغزوهم ولا يغزوننا]. وفي رواية: [الآن نغزوهم ولا يغزونـا ، نحن نسير إليهم][1].

4ـ النعاسُ والمطر والملائكة تنزل لتأييد المسلمين.

هذا ما حصل يوم بدر ، حين توجه المسلمون لقتال المشركين في بدر وهم خائفون لِقلَّتهم ، وضَعْفهم ، فأنـزل الله النعاس أمانـاً لهم ، واحتلم بعضهم ، فأخذ الشيطان يوسوس لهم ، ويخوفهم من الموت ، وهم جُنُبٌ ، ليردَّهُم عن المعركة ، فأنزل الله ماء ليغتسلوا بـه ، وليثبِّتَ الرمال بـه تحت أقدامهم عنـد سيرهم إلى المعركة ، ثم نزلت الملائكة عند اللقاء بيـن الجيشين فَهُزِمَ الكفار هزيمة نكْراء في أول معركة بين الكفار والمسلمين ، وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ[2] ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً[3] مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ[4] وَلِيَرْبِطَ[5] عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ[6]﴾ [الأنفال: 11-12].

أخرج الإمام أحمد في المسند بإسناد صحيح عن علي رضي الله عنه قال: [لقد رأيتنا يوم بدر ، ومامنا إلا نائم ، إلا رسول الله ﷺ فإنه كان يصلي إلى شجرة ويدعو حتىٰ أصبح . . . ثم إنه أصابنا من الليل طشٌّ ـ أي قليل ـ من المطر ـ فانطلقنا تحت الشجر والحَجف[7] نستظل تحتها من المطر ، وبات رسول الله ﷺ يدعو ربه ويقول: اللهم إن تهلك هذه الفئة لا تعبد. فلما طلع الفجر نادىٰ: الصلاة عباد الله. فجاء الناس من تحت الشجر والحجف ، فصلىٰ بنا رسول الله ﷺ وحرَّض على القتال][8].

---

(1) صحيح البخاري (48/5).
(2) يغطيكم ، أي جعله غاشياً عليكم كالغطاء.
(3) أمنا من الله وتقوية لكم.
(4) وسوسته وتخويفه لكم.
(5) يشد على قلوبكم ويقويها باليقين.
(6) كل الأطراف أو كل مفصل.
(7) التروس من جلود.
(8) أحمد بسند صحيح (الفتح الرباني 36,30/21). وانظر السيرة النبوية الصحيحة ـ د. عمري ـ 361/2.

وقوله: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ أي أنصركم ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي قوّوا عزمهم، وصححوا نياتهم في قتال عدوهم من المشركين. قيل: تثبيتهم كان حضورهم الحرب معهم، وقيل: بل معونتهم بقتال أعدائهم.

ففي شرح النووي على صحيح مسلم قال ابن عباس: (بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم ـ وهو اسم فرس المَلك ـ فنظر إلى المشرك أمامه فخرّ مستلقياً فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال: صدقت ذلك مدد من السماء الثالثة)(1).

5 ـ جنود الله تنْصُر محمداً على الكافرين أثناء الهجرة:

قررت قريش قتلَ محمد ﷺ فأحاط شبابها بداره، لكن رسول الله خرج من بينهم وقد أغشىٰ الله أبصارهم، واختفىٰ في غار حراء وصاحِبَه أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ يخشىٰ أن ينظر الكفار الذين يطاردونهم إلى داخل الغار فيكتشفونهما ولكن جنود الله صرفتهم عن النظر إلى داخل الغار.

ففي التنزيل: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 40].

وفي الصحيحين عن أنس أن أبا بكر حدثه قال: [قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه! فقال: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما](2).

وحاول سراقة الفوز بجائزة قريش في قتل محمد أو تسليمه فساخت قوائم فرسه

---

(1) وانظر تفاصيل شهود الملائكة معركة بدر في كتابي «السيرة النبوية على منهج الوحيين» ج (1)/476-477.

(2) وفي رواية (اسكت يا أبا بكر اثنان الله ثالثهما) صحيح البخاري (فتح الباري 257/7).

في الرمال ، حتى لامست بَطْنُ الفرس الأرض ، وسقط من فوق فرسِه ، فأخذ سراقة يطلب من رسول الله ﷺ الأمان .

ففي صحيح البخاري عن أنس قال : [فالتفت أبو بكر فإذا هو بفارس قد لحقهم ، فقال يا رسول الله : هذا فارس قد لحق بنا ، فالتفت نبي الله ﷺ فقال : اللهم اصرعه ، فصرعه الفرس ، ثم قامت تُحمْحِمُ ، فقال : يا نبي الله مُرْني بما شئت؟ قال : فقف مكانك لا تتركن أحداً يلحق بنا . قال : فكان أول النهار جاهداً على نبي الله ﷺ وكان آخر النهار مسلحةً له](1) .

6ـ تكثير الماء القليل :

كان المسلمون بحاجة إلى ماءٍ وهم في المدينة للوُضوء ، قال أنس : [أُتي النبي ﷺ بإناء ، وهو بالزَّوراء مع أصحابه ، فوضع يده في الإناء ، فجعل يُنبُعُ من بين أصابعِه ، فتوضأ القوم ، قال قتادةُ : قلت لأنسٍ كم كنتم؟ قال : ثلاثمائة] رواه البخاري ومسلم .

وحدث مثلُ هذا والرسول مسافِرٌ مع سبعين من أصحابه . رواه البخاري .

وحدث مثلُ هذا في الحديبية والمسلمون ألف وأربعمائة ـ رواه البخاري ـ فزاد ماءَ البئر .

وحدث مِثلُ هذا في سفر الرسول ـ ﷺ ـ مع أصحابه ، عندما مَسَح على مَزادتَيْ امرأةٍ كانتا مملوءتين من الماء ، فامتلأتا فشرب المسلمون وكان عددهم أربعين رجلاً ، ثم ملأ كلٌ قربتَهُ فعادت المرأة تقول : لقيت أسْحرَ الناس أو هو نبيٌّ كما يقولون ، فأسلم قومُها . رواه البخاري .

7ـ تكثير الطعام القليل :

اشتد الجوع على رسول الله ﷺ وأصحابه وهم يحفرون الخندق ، فذبح جابر رضي الله عنه شاة لرسول الله وبعض أصحابه ، فنادى الرسولُ ـ ﷺ ـ أهل الخندق جميعاً وكانوا ألفاً ، وحدثت المعجزة إذ بارك الله اللحم والخبز حتىٰ شبعوا جميعاً .

يروي البخاري عن جابر قال : [لما حُفِرَ الخندق رأيت بالنبي ﷺ خمصاً

---

(1) فتح الباري(7/249-250) .

شديداً ، فانكفأت إلى امرأتي فقلت : هل عندك شيء فإني رأيت برسول الله ﷺ خمصاً شديداً ، فأخرجَتْ إليَّ جراباً فيه صاعٌ من شعير ولنا بُهَيمة داجِنٌ فَذَبَحْتُهَا وطحنت الشعير ، ففرغت إلى فراغي وقطَّعْتُها في بُرْمَتِهَا ثم وليت إلى رسول الله ﷺ ، فقالت : لا تفضَحْني برسول الله ﷺ وبمن معه ، فجئته فسارَرْتُه ، فقلت : يا رسول الله ذبحنا بُهيمة لنا وطحنّا صاعاً من شعير كان عندنا ، فتعال أنت ونفر معك ، فصاح النبي ﷺ فقال : يا أهل الخندق ، إن جابراً قد صنع سُوراً فحيَّ هلا بهلّكُمْ . . . قال : وهم ألف ، فأقسِمْ بالله لقد أكلوا حتىٰ تركوه وانحرفوا وإن بُرْمَتنا لتغِطّ كما هي وإن عجيننا ليخبَزُ كما هو][1] .

وقد حدث نحو هذا يوم الحديبية كما في صحيح مسلم عن إياس بن سلمة عن أبيه رضي الله عنه قال : [خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ، فأصابنا جَهْدٌ ، حتى هَمَمْنا أن نَنْحَر بعض ظهرنا ، فأمر نبي الله ﷺ فجمعنا مزاوِدنا ، فبسطنا له نِطعاً . . . ونحن أربع عشرة مائة ، قال : فأكلنا حتىٰ شبعنا جميعاً ، ثم حشونا جُرُبَنا ، فقال نبي الله ﷺ : فهل من وضوء؟ فجاء رجل بإداوة له فيها نطفة ، فأفرغها في قَدَح ، فتوضأنا كلنا نُدَغْفِقُهُ دَغْفَقَةً[2] أربع عشرة مائة][3] .

8ـ حنين جذع النخلة وتسبيح الطعام .

لما ترك رسول الله ﷺ الاستناد في خطبة الجمعة إلى جذع النخلة بعد أن صُنِعَ لَه المنبر ، حَنَّ الجِذْعُ كحنين الناقة ، حتىٰ كاد يتصدع ، فجاء إليه رسول الله وضمّه حتىٰ سكن .

ففي صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : [كان جِذْعٌ يقوم إليه النبي ﷺ ، فلما وُضِعَ له المِنْبَرُ ، سمِعْنَا للجذع مثلَ أصواتَ العِشار ، حتىٰ نزل النبي ﷺ فوضع يدهُ عليه][4] .

---

(1) السيرة النبوية على منهاج الوحيين : القرآن والسنة الصحيحة ، د. مأمون حموش . 725/2 .
(2) أي نصبُّه صَبّاً .
(3) صحيح مسلم ، كتاب اللقطة 19 ، والمسند (3/417-418) عن أبي عمرة الأنصاري .
(4) مختصر البخاري حديث (485) . والعشار جمع عشراء وهي الناقة التي أتىٰ على حملها عشرة أشهر .

وكذلك روى البخاري والترمذي: [أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يسمعون تسبيح الطعام وهو يُؤكل بحضرة رسول الله ﷺ].

9 ـ حماية الرسول من أعدائه وكشف مؤامراتهم:

أقسم أبو جهل أن يطأ رقبة محمد بقدمه إذا رآه يصلي، فرآه يُصلي، فذهب ينفذ وعده، فعاد على عقِبه وهو يتقي بيديه.

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: [قال أبو جهل: هل يُعَفِّر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل نعم، فقال: واللات والعزىٰ لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه في التراب. قال: فأتىٰ رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له: مالك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة. فقال رسول الله ﷺ: لو دنا لاختطفته الملائكة عضواً عضواً. . .][1].

وتآمرت يهودية على رسول الله ﷺ فدست السُّم في شاة قدّمتها له فعلم أنها مسمومة فمجَّها، بينما أصاب السُّمُ بعض أصحابه.

ففي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة قال: [لما فُتحت خيبر أُهديت للنبي ﷺ شاةٌ فيها سمٌّ، فقال النبي ﷺ: اجمعوا إليَّ من كان هاهنا من يهود، . . . ثم قال: هل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم. قال: هل جعلتم في هذه الشاة سُمّاً؟ قالوا: نعم. قال: ما حملكم على ذلك؟ قالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريحُ وإن كنت نبياً لم يضرَّك][2].

وفي لفظ ابن إسحاق: (إن هذا العظم ليُخبرني أنه مسموم).

10 ـ معجزة مشي الشجرة وعودتها لمكانها:

ففي صحيح ابن ماجه عن أنس قال: [جاء جبريل عليه السلام ذاتَ يوم إلى رسول الله ﷺ وهو جالس حزين قد خُضِّبَ بالدماء، قد ضربَهُ بعض أهل مكة، فقال: مالك؟ قال: فعل بي هؤلاء وفعلوا. قال: أتحبُّ أن أريَكَ آية؟ قال: نعم

---

(1) صحيح مسلم (2154/4).

(2) البخاري (176/5)، ومسلم (7/14-15).

أرني ، فنظر إلى شجرة من وراء الوادي قال: ادْعُ تلك الشجرة ، فدعاها فجاءت تمشي حتىٰ قامت بين يديه . قال : قل لها فلترجع فقال لها ، فرجعت حتىٰ عادت إلى مكانها ، فقال رسول الله ﷺ حَسْبي][1] .

فبعث الله الأمل في قلب نبيه من جديد ، ليعلم أن الله معه ولو شاء لسخّر له الطبيعة في أي وقت ، بأحجارها وأشجارها وجبالها فأطبقها عليهم ودمرهم .

سؤال وجواب :

قد يسأل سائل فيقول: وكيف أجعل إيماني بوقوع هذه الخوارق كإيمان من شاهدها؟

الجواب : بالتفكر في الأمر واستخدام العقل بمحاكمات بسيطة : لقد وقعت هذه الخوارق أمام مئات وآلاف المسلمين والمشركين ، ثم نزل قرآن سجَّل هذا الذي وقع ، كما جاءت كتب السنة الصحيحة بتفصيلات ذلك ، وقد حفظ الله القرآن من كل تبديل وتحريف ، كما حفظ السنة بعلماء الحديث الراسخين ، فأنت ترىٰ أن النسخة من القرآن الموجودة في أمريكا ، والصين ، والهند ، وروسيا ، وأوروبا ، وأفريقيا ، هي نفس النسخة التي كان يقرؤها الآباء ، والأجداد في مشارق الأرض ومغاربها ، وهي نفس النسخة التي نزلت على محمد ﷺ ، وكذلك ترىٰ صحيح الإمام البخاري ومسلم[2] لهما نفس الدقة في كل أرجاء العالم ـ مع اختلاف معروف لبعض الروايات ـ فتدرك من هنا أن الخوارق البيِّنة سُجِّلت في أعظم سِجِلٍّ وفي أدق سند تلقاها الناس على اختلاف أجناسهم وأوطانهم وأزمانهم بالتصديق والقبول .

ثالثاً : البشارات في الكتب السابقة .

لا يستطيع أحد أن يزعم أن محمداً ﷺ هو الذي كتب لليهود ، والنصارىٰ ، والمجوس ، والهُنْدُوس في كتبهم المقدسة : أوصافه ، واسْمَه ، وأوصافَ زمنه ، وبلادَه التي تشهد له ، بأنه رسولٌ من عند الله . لأن ذلك قد كُتِبَ في كتبهم قبل ولادته بقرون كثيرة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ[3] ﴾ [الشعراء : 196] .

---

(1) السيرة النبوية على منهاج الوحيين : القرآن والسنة الصحيحة د . مأمون حموش (202/1) .

(2) وكذلك بقية كتب السنة .

(3) أي كتب الأولين .

ولقد كانت هـذه البِشاراتُ سبباً في إقناع أجيال من النصـارىٰ ، والمجـوس واليهـود ، والهُنْـدوس ، إلا أن الـذيـن أصـروا علـى عـداوة محمـد ﷺ قـامـوا بالتحريف ، والتبديل لهذه البشارات ، وبرغم ذلك لا تزال في كتبهم بشاراتٌ ، تشهد بصِدْق رسالة محمد ﷺ إلى يومنا هذا ، ومن تلك البشارات :

1 ـ في التوراة :

جاء في التوراة : (أن نبياً سيظهر في مكة ، (الدِّيار التي سكنها قيدارُ) ـ وهو أحد أبناء إسماعيل عليه السلام ، وقيدارُ سكن مكة ، كما تحكي التوراة ذلك ـ وأن اسْمَه يرتفع فيهـا ، وأنـه يركب الجمـل ، وأنـه يحارب بالسيف ، وأنـه ينتصر هـو وأصحابُه ، وأنه يُبَارك عليه في كل يوم ، (وهذا ما يفعله المسلمون عند التشهد) ، وأن ملوك اليمن تأتيه بالقرابين ، وأن علامةَ سلطانه على كتِفه بقَدْر بيضة الحمام)(1) .

كما جاء في التواة : (أن الله تجلىٰ على الناس في أماكن ثلاثة ، هِيَ :

سيْنَاءَ ، حيث أُعطي موسىٰ عليه السلامُ التوراةَ .

ساعير (جبال في فلسطين) ، حيث أُعطي الإنجيل لعيسىٰ عليه السلام .

مكَّة (فاران) : حيث نزل القرآن على محمد عليه وعلى آله الصلاة والسلام .

تقول التوراة التي بين يدي اليهود إلى يومنا هذا : «جاء الرَّبُ من سَيْناء ، وأشرقَ لنا من ساعيرَ ، وتلألأ من جبل فاران» .

وفـاران هو الاسم القديم لمكـة ، كما تذكر التوراة نفسها في سِفْـرِ التّكوين (22:21) .

وقد أشار بعض الباحثين ، إلى أن القرآن قد أشار إلى هذه الأماكن الثلاثة بقوله تعالىٰ : ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ .

التين والزيتون : إشارة إلى منابتهما في فَلسطين .

---

(1) وهذه العلامة كانت على كتِف رسول الله ﷺ وهذه أوصاف لا تنطبق إلا على محمد عليه الصلاة والسلام .

طور سينين : سيْناء .

هذا البلد الأمين : مكة .

2 ـ في الإنجيل :

جاء في إنجيل بَرْنابا ، في الباب (220) : أن عيسىٰ عليه السلام ، قال لأتباعه : «وسيبقىٰ هذا إلى أن يأتي محمدٌ رسولُ الله الذي متىٰ جاءَ كشف هذا الخِداعَ للذين يؤمنون بشريعة الله» .

جاء في إنجيل يوحَنّا : أن عيسىٰ عليه السلام ، أخبر قومه بالنبي الذي سيأتي بعده ، فقال : «إن لي أموراً كثيرةً ، أيضاً لا أقول لكم ، ولكن لا تستطيعون الآن أن تحتَمِلوا ، وأما متىٰ جاء ذاك روحُ الحق فهو يُرشِدُكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفْسه بل كُلُّ ما يَسْمَعُ يتكلَّمُ ويخبرُكُم بأمور آتية» .

ومحمد ﷺ هو الذي جاء بعد عيسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتكلم بالوحي ، وأخبر الناس بالغيب الذي سيأتي .

وقال أحد كبار العلماء من النصارىٰ ، هو الأبُ عبدُ الأحد داود الآشوري ، في كتابه (الإنجيل والصلب) : (إن العبارة التي يردِّدُها النصارى الآن «المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المَسَرَّة) لم تكن هكذا من الأول بل كانت : «المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وللناس أحمَدُ» .

قال تعالىٰ : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف : 6] .

3 ـ في كتب الهُنْدوس :

جاء في كتاب (السامافيدا) وهو كتاب مقدس عند البراهمة في الهند ، في الفقرة السادسة ، والثامنة من الجزء الثاني ، ما نصُّه : «أحمد تلقّىٰ الشريعة من ربه وهيَ مملوءة بالحكمة» .

وجاء في كتاب «ادروا فيدم» ـ وهو كتاب مقدس عند الهُندوس ـ : «أيها الناس

اسمعوا وَعُوا يُبْعث المُحَمَّدُ[1] بين أظهر الناس ، وَعظمتُهُ تُحْمَدُ حتىٰ في الجنة ، وهُوَ المحَامِدُ»[2] .

وجاء في كتاب (بهوش برانم) من كتب الهندوس المقدسة : «في ذلك الحينِ يُبعث أجْنبيٌّ مع أصحابه باسم مَحَامِد[3] المُلَقَّبُ بأُسْتاذِ العالم[4] ، والمَلِكُ يُطهِّرُه بالخمس المطهَّرة»[5] ـ الجزء : 2 ـ فصل 3 عبارات 3 وما بعدها[6] .

4 ـ في كتب المجوس :

جاء في كتاب (زندا أفستا) : «أن الله سيبعث رسولاً هذا وَصْفُه : رحمةٌ للعالمين ، ويتصدّىٰ له عدوٌّ يُسمّىٰ أبا لهب ، ويدعو إلى إله واحدٍ» . وصدق الله القائل :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ [البقرة : 146] .

واليهود والنصارى هم أهل الكتاب ، والهُندوس والمجوس أمرَ الرسول ﷺ أن نَسُنَّ بهم سُنَّة أهل الكتاب ، غيرَ آكلي ذبائحهم ولا ناكِحي نسائِهم ، لأنه ـ والله أعلم ـ قد تطاول العهد على كتبهم ، وكثر فيها التحريف ، ولقد كانت هذه البشارات وغيرها سبباً في إسلام الكثير من أسلاف اليهود ، والنصارىٰ ، والمجوس ، والهُندوس .

رابعاً : شهادة أحواله ـ من أتباعه وأعدائه ـ بصدق نبوته .

مامن شخص يتصدىٰ لأمر الناس إلا وسلّطَ الناس أنظارهم عليه لدراسة أحواله ، فما تمر الأعوام إلا وقد انكشف على حقيقته ، وخاصة إذا تقلب بين أوضاع الضعف والقوة ، والخوف والأمن ، والفقر والغنىٰ ، وقلة الأتباع وكثرتهم ، والشدة والرخاء ، كما حدث في حياة محمد ﷺ . وإذا تأملنا أحواله

---

(1) أي محمد .

(2) أي محمد .

(3) أي محمد ولكنه التحريف .

(4) أي رسول العالمين .

(5) الصلوات الخمس .

(6) من كتاب التيارات الخفية في الديانات الهندية القديمة لمؤلفه (تى محمد) .

وجدْناها تشهد بأنها أحوال لا تكون إلا لنبي ، ومن أبرز هذه الأحوال :

1 ـ الصدق :

لقد شهد له قومه بالصدق فسمَّوه قبل أن يبعثه الله بالرسالة (الصادق الأمين) حتىٰ قال له أبو جهل : (إنا لا نكذبك ، ولكن نكذِّبُ ما جئت به)[1] فأنزل الله قولَه : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام : 33] .

ولقد عُرِفَ عنه الصدق في أموره كلها حتىٰ في مِزاحِه ﷺ ، الأمر الذي لا يتحقق إلا لنبي مرسل .

2 ـ الالتزام الكامل بما يدعو الناس إليه .

إن النفس البشرية تكرهُ أن يُفْرَضَ عليها قيود الالتزام ، وخاصة إذا وصلت إلى درجة التمكن في المجتمع ، وإذا تأملنا حالَ رسول الله ﷺ وجدنا أن حاله يشهد بأنه أتقىٰ الناس ، وأكملهم خُلُقاً ، وأعظمهم عبادة .

أخرج البخاري ومسلم عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال : [صلّىٰ رسول الله ﷺ حتىٰ انتفخت قدماه ، فقيل له : أتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً][2] .

ورواه الترمذي في الشمائل بلفظ : [كان رسول الله ﷺ يصلي حتى تَرِم (وفي رواية : تنتفخ) قدماه] قال الألباني : إسناده حسن صحيح .

وكذلك يروي الترمذي عن عبد الله بن شقيق قال : سألت عائشة رضي الله عنها عن صلاة رسول الله ﷺ . عن تطوعه؟ فقالت : [كان يصلي ليلاً طويلاً قائماً ، وليلاً طويلاً قاعداً][3] .

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك أنه سئل عن صوم النبي ﷺ؟ فقال : [كان

---

(1) أخرجه الترمذي ، وقال الحافظ ابن كثير : (ورواه الحاكم من طريق إسرائيل عن أبي إسحاق . ثم قال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه) .

(2) أخرجه البخاري في «صلاة الليل» ومسلم في «صفة القيامة والجنة والنار» وانظر مختصر الشمائل 221/ ص144 .

(3) صحيح . وانظر صحيح أبي داود (882) . ـ تحقيق الألباني .

يصوم من الشهر حتى نُرىٰ أن لا يريد أن يُفطِرَ منه ، ويُفْطِرُ حتى نُرىٰ أن لا يريد أن يصومَ منه شيئاً ، وكنت لا تشاءُ أن تراهُ من الليل مُصلياً إلا رأيته مصلياً ، ولا نائماً إلا رأيته نائماً][1] .

وفي صحيح أبي داود ، عن عبد الله بن الشِّخِّير قال : [أتيت رسولَ الله ﷺ وهو يصلي ، ولجوفه أزيز كأزيز المِرْجل من البكاء][2] .

قال الألباني : (أي غليان كغليان القدر . وهذا دليل على كمال خوفه ﷺ من ربه ، ومعلوم أن العمل على قدر العلم والمعرفة ، وهو ﷺ سيد العارفين بالله ، وقد قال ﷺ: «إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية» ، وقال: «إني لأخشاكم لله وأتقاكم لله» ، وقال: «إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة») مختصر الشمائل ص169 .

وكان ينفق المال فلا يُبقي في بيته شيئاً ، ومات ودِرْعُه مرهونَةٌ عند يهودي .

وما حُفظ عنه من أذكار وأدعية يشهد أنه كان دائم الذكر لربه ليلاً ونهاراً ، وعند كل عمل من الأعمال .

قالت عائشة : [كان يذكر الله تعالى على كل أحيانه] رواه مسلم[3] .

ومع ذلك كان هو الرسول المبلغ لدين الله ، قائد جيش المسلمين ، مضرب المثل في الشجاعة والإقدام ، ثبت يوم حنين مع مائة من أصحابه لأربعة آلاف من المشركين ونصرهم الله على عدوهم .

روى مسلم عن البراء قال : [كنا إذا احمّر البأس نتقي به ، وإن الشجاع منا الذي يحاذي به ـ يعني النبي ﷺ][4] .

خيّره المشركون في مكة بين إعطائه ما يريد من المال ، والجاه ، والسلطان ، مع ترك الدين ، وبين الحرب ، والتنكيل به إن أصرّ على دينه ، فاختار أن يُبَلِّغ

---

(1) مختصر الشمائل 253/ ص159 .
(2) صحيح أبي داود (839) .
(3) صحيح مسلم (194/1) .
(4) السيرة النبوية على منهاج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة . د. مأمون حموش (1106/3) معركة حنين .

ما أمره الله به . وبعد أن خضعت له الدنيا ، نزل قول الله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ [الأحزاب : 28] . فاخترن جميعاً رسول الله ، وزهِدْن رضوان الله عليهن في الحياة الدنيا وزينتها .

ولقد كان مثلاً أعلى للحكم بين الناس بالعدل فقال : [لو سرقت فاطمة بنتُ محمد لقطع محمدٌ يدَها](1) .

وكذلك كان مثلاً أعلى في كل شيء حتىٰ إن أبناء أمته يجهدون في تقليده والتشبه به . وهذا الاجتماع للمثل العليا في كل جانب لا يكون إلا لنبي مرسل ، شهد له ربه بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : 4] . وجعله أسوة للناس ، فقال سبحانه : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : 21] .

3 ـ قيامه بالرسالة وتبليغ الناس :

لقد قام الرسول مبلغاً رسالة ربه أحسن تبليغ وجاهد في ذلك أعظم الجهاد ، مرة باتصاله الشخصي ، ومرة بدعوة الناس إلى الطعام ، ومرة يعرض نفسه على القبائل صابراً ، والقبائل تردُّه ، وتحاول إيذاءه ، ومرة بدعوة الناس إلى الاجتماع ، ومرة بالتصدي للناس ، ومرة بإرسال الدعاة من أصحابه ، ومرة بإرسال الرسل إلى الملوك والأمراء ، ومرة بجهاد الذين يصدون عن سبيل الله ، وتعرض هو وأصحابه للأذىٰ أكثر من مرة ، وجاع في سبيل الله وصبر ، وحوصر في الشعب ثلاث سنوات ، حتى أكل المسلمون الجِلْدَ والشَّجر ، وهاجر أصحابه مرتين إلى الحبشة فراراً بدينهم ثم إلى المدينة ، وتآمرت قريش مرات على اغتياله حتىٰ أمره الله بالهجرة . ثم عاد فاتحاً بعد سنوات ، ووقف في حجة الوداع يبلغ الأمة ، ويقول للمسلمين : (ألا هل بلغت؟) ، (اللهم أشهد) .

4 ـ شهادة الأعداء بحب الفاتحين المسلمين ودخولهم في الإسلام .

فإن الغزو يولد حقداً بين الشعوب وكراهية وحباً للثأر ، شأن المستعِمرين اليوم

---

(1) متفق عليه .

مع المستَعْمرين. ولكن هذه القاعدة نُقضِت مع الفاتحين المسلمين الذين سادوا الأرض في زمنهم. لقد أحدث الفتح الإسلامي حباً ونصراً وولاء ، وامتزاجاً بين المسلمين وغيرهم ، فما عرفت الدنيا فاتحين أرحم من المسلمين ، ذلك لأنهم فتحوا البلاد لإنقاذ الناس من عذاب الله لا طعماً في دنياهم ، بل إنهم تركوا الدنيا للجهاد في سبيل الله ، حتىٰ تحول الأعداء إلى أشد الأنصار ، وأسلم كثير من أهل الكتب السابقة ، مما يدل على صدق محمد ﷺ بالنبوة.

5 ـ صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان.

لقد عجز الإنسان أن يضع تشريعات ثابتة تصلح لكل زمان ومكان ، وواقع الناس في الأرض يشهد لذلك ، ولكن دين الرحمان يتحدىٰ الدنيا بأسرها في ثباته واستقراره وصلاحيته لكل أهل الأرض ولكل الأزمنة إلى يوم القيامة.

ولقد فرضت شريعة الإسلام نفسها في زماننا هذا حتىٰ جعلتها الأمم المتحدة مصدراً من مصادر القانون الدولي ـ رغم ضعف المسلمين أهلها ـ مع أن القانون الروسي أو الأمريكي لا يُعْتبر أيٌّ منهما مصدراً من مصادر القانون الدولي. ولقد شهد خبراء القانون الدولي الأجانب بأن الشريعة الإسلامية صالحةٌ لكل زمان.

يقول الدكتور «إيزيكو انسابا توحين» أحد علماء القانون: (إن الإسلام يتمشىٰ مع مقتضيات الحاجات الظاهرة فهو يستطيع أن يتطوَّر دون أن يتضاءل في خلال القرون ويبقىٰ محتفِظاً بكامل مالَه من قُوة الحياة والمرونة. فهو الذي أعطىٰ للعالم أرسخَ الشرائع ثباتاً وشريعتُهُ تفوق في كثير الشرائِع الأورُبية).

ولما انعقد المؤتمر الدولي للقانون في (لاهاي) عام 1932 طالب الأمم المتحدة أن تجعل الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر القانون الدولي وذلك بعد اقتناع خبراء القانون في العالم بعظمة الشريعة الإسلامية وفائدتها للناس في هذا الزمان.

وأما المؤتمر الدولي للقانون المقارَن الذي انعقد في باريس 1952م ، فقد طالب الجهات القانونية الدولية أن تسمح بانعقاد المؤتمر الدولي للفقه الإسلامي في كل سنة بدلاً من عقده في كل عشر سنوات ، وعلّلوا ذلك بقولهم: (نظراً لما ثبت للمؤتَمِرين من الفائدة المحقَّقَة التي أتاحَتْها البحوث التي عُرضت في خلال أسبوعِ «الفقهِ الإسلامي» وما دار حَوْل هذه البحوث من مُناقشاتٍ أثبتت بجلاء أن «الفقهَ

الإسلامي» يقوم على مبادىء ذاتِ قيمةٍ أكيدة لا مِرْيَةَ في نفعِها ، وإن اختلاف المبادىء في هذا الجهاز التشريعي الضخم ، مُنْطوٍ على ثَرْوةٍ من الآراء الفقهية ، وعلى مجموعة من الأصول الفنية البديعة التي تُتيحُ لهذا الفقه أن يستجيب بمرونة هائلة لجميع مطالب الحياة الحديثة ، فإن أعضاء المؤتمر يُعْلنونَ رَغْبَتَهُم في أن يظلّ أسبوع الفقه الإسلامي يتابعُ أعماله سنة فسنة) .

فمن أين لأُمِّيٍّ بُعث منذُ ألفٍ وأربعمائة عام أن يأتيَ بهذا التشريع لو لم يكن مُرسلاً من عند ربه . وعجباً للجهلة من المسلمين الذين يريدون إلغاء الشريعة الإلهية واستبدالها بالقوانين البشرية[1] .

* * *

(1) تحليل ملخص من (كتاب الإيمان) . قسم التوجيه والتربية الدينية ـ اليمن/ ط 1982 .

- 8 -

- توحيد الأسماء والصفات -

قواعد الإيمان بالأسماء والصفات:

1 ـ القاعدة الأولىٰ:

(إثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه في كتابه ، أو أثبته له رسوله ﷺ ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل).

لأن الله تعالى أعلم بنفسه من خلقه ، ورسوله ﷺ أعلم الخلق بربه.

2 ـ القاعدة الثانية:

(نفي ما نفاه الله عن نفسه في كتابه ، أو نفاه عنه رسوله ﷺ ، مع اعتقاد كمال ضده لله تعالىٰ).

فنفي الموت عنه يتضمن كمال حياته ، ونفي الظلم عنه يتضمن كمال عدله. فقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ لكمال قدرته. ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ لكمال علمه. ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ لكمال عدله. ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ لكمال حياته وقيوميته. ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ لكمال جلاله وعظمته وكبريائه.

3 ـ القاعدة الثالثة:

(صفات الله عز وجل توقيفية ، فلا يثبت منها إلا ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ ، ولا ينفىٰ عن الله عز وجل إلا ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ).

4 ـ القاعدة الرابعة:

(التوقف في الألفاظ المجملة التي لم يرد إثباتها ولا نفيها ، أما معناها فيستفصل عنه ، فإن أريد به باطل ينزه الله عنها ، وإن أريد به حق لا يمتنع على الله

تعالى قُبِلَ ، مع بيان ما يدل على المعنىٰ الصواب من الألفاظ الشرعية والدعوة إلى استعماله مكان هذا اللفظ الحادث) .

مثاله : لفظة «الجهة» نتوقف في إثباتها ونفيها ، ويُسأل قائلها ما تعني بالجهة؟ فإن قال أعني أنه في مكان يحويه قلنا هذا معنىٰ باطل ينزه الله عنه ورددناه ، وإن قال أعني جهة العلو المطلق قلنا : «هذا حق لا يمتنع على الله» وقبلنا المعنىٰ .

ثم نقول : لكن الأولىٰ أن تقول في السماء ، أو في العلو ، كما وردت به الأدلة لصحيحة ، وأما لفظة «جهة» فهي مجملة حادثة والأولى تركها .

5 ـ القاعدة الخامسة :

(كل صفة ثبتت بالنقل الصريح وافقت العقل الصحيح ولا بد) .

6 ـ القاعدة السادسة :

(قطع الطمع عن إدراك حقيقة الكيفية ، لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾) .

7 ـ القاعدة السابعة :

(صفات الله عز وجل تثبت على التفصيل وتنفىٰ علىٰ وجه الإجمال) .

فالإثبات المفصل كإثبات السمع والبصر وسائر الصفات ، والنفي المجمل كنفي المثلية في قوله تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[1] وقوله : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ . فطريقة القرآن في النفي عكس طريقة أهل الكلام المذموم ، يقولون : (ليس بجسم ولا شبح ، ولا جثة ولا صورة ، ولا لحم ، ولا دم ، ولا شخص ولا جوهر ، ولا عرض ولا بذي لون ، ولا رائحة ، ولا طعم ، ولا بذي حرارة ولا برودة ولا رطوبة ، ولا يتحرك ولا يسكن ولا يتبعض ولا يتجزأ ، وليس بذي جهات ولا بذي يمين ولا شمال . .) مما هو ذم لا مدح .

8 ـ القاعدة الثامنة :

(كل اسم ثبت لله عز وجل فهو متضمن لصفة ولا عكس) .

---

(1) الكاف في قوله (كمثله) صلة زيدت للتوكيد . فيكون مثله خبر ليس واسمها شيء ، وهذا وجه قوي تعرفه العرب ، وجاء عن العرب أيضاً زيادة الكاف للتأكيد .

مثاله : اسم «الرحمن» متضمن صفة الرحمة ، و«الكريم» متضمن صفة الكرم ، و«اللطيف» متضمن اللطف ، وهكذا ، ولكن صفاته لا يشتق منها أسماء ، مثاله : (الإتيان ، والاستواء) فلا نقول الآتي والمستوي . . . وهكذا .

9 ـ القاعدة التاسعة :

(صفات الله تعالى كلها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه) .

10 ـ القاعدة العاشرة :

(صفات الله عز وجل ذاتية وفعلية ، والصفات الفعلية متعلقة بأفعاله ، وأفعاله لا منتهىٰ لها ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم : 27]) .

11 ـ القاعدة الحادية عشرة :

(دلالة الكتاب والسنة على ثبوت الصفة ، يكون حيناً بالتصريح بها أو تَضَمُّن الاسم لها ، وأحياناً بالتصريح بفعل أو وصف دالٍ عليها) .

أ ـ مثال الأول (التصريح) : الرحمة ـ العزة ـ القوة ـ الوجه ـ اليدين ـ الأصابع ـ وغير ذلك .

ب ـ مثال الثاني (التضمن) : البصير متضمن صفة البصر ، السميع متضمن صفة السمع ، وهكذا . . .

12 ـ القاعدة الثانية عشرة :

(صفات الله عز وجل يستعاذ بها ويحلف بها) .

ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : (. . . أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك) رواه مسلم .

ولذلك بوّب الإمام البخاري في كتاب الأيمان والنذور : «باب الحلف بعزة الله وصفاته وكلماته» .

13 ـ القاعدة الثالثة عشرة :

(الكلام في الصفات كالكلام في الذات) .

فكما أن لله ذاتاً حقيقية لا تشبه الذوات ، فكذلك صفاته صفات حقيقية لا تشبه

الصفات ، وكما أن إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية ، فكذلك إثبات الصفات.

14 ـ القاعدة الرابعة عشرة :

(القول في بعض الصفات كالقول في بعضها الآخر).

فمن أَقَرَّ بصفات الله كالسمع والبصر والإرادة ، يلزمه أن يقرَّ بمحبة الله ورضاه وغضبه وكراهيته . . . الخ .

15 ـ القاعدة الخامسة عشرة :

(إن الإضافة إلى الله نوعان : إما إضافة أعيان أو إضافة معاني .

فإن كان الأول فالإضافة للتشريف : «نحو : بيت الله ، ناقة الله ، عبد الله» وإن كانت الإضافة إضافة معاني فهي صفات لله غير منفصلة عنه : «مثل : سمع الله ، بصر الله ، رضاه وسخطه . . . »).

16 ـ القاعدة السادسة عشرة :

(صفات الله عز وجل وسائر مسائل الإيمان والاعتقاد تثبت بما ثبت عن رسول الله ﷺ وإن كان الدليل حديث آحاد).

17 ـ القاعدة السابعة عشرة :

(معاني صفات الله عز وجل الثابتة بالكتاب أو السنة معلومة ، وتفسر على الحقيقة ، وليس على المجاز ولا استعارة فيها البتة ، أما كيفية الصفات فمجهولة).

18 ـ القاعدة الثامنة عشرة :

(ما جاء في الكتاب والسنة فالواجب على كل مؤمن القول بموجبه ، والإيمان به ، وإن لم يفهم معناه).

19 ـ القاعدة التاسعة عشرة :

(باب الإخبار أوسع من باب الصفات ، وما يطلق عليه من الإخبار لا يجب أن يكون توقيفياً ، كالقديم ، والشيء الموجود . . .).

20 ـ القاعدة العشرون :

(صفات الله عز وجل لا يقاس عليها) .

فلا يقاس السخاء على الجود ، ولا الجَلَد على القوة ، ولا الاستطاعة على القدرة .

21 ـ القاعدة الحادية والعشرون :

(صفات الله عز وجل لا حصر لها ، لأن كل اسم يتضمن صفة ، وأسماء الله لا حصر لها ، ومنها الذي استأثر الله به في علم الغيب عنده) .

إثبات الأسماء الحسنى لله وأمره بدعائه بها :

قال الله في سورة الأعراف : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ .

وفي التفاسير عن ابـن عباس : («يلحدون فـي أسمائه» يشركون) . قال : (سمّوا اللات من الإلـه ، والعُـزّى من العزيـز) . وقال الأعمش : (يدخلون فيهـا ما ليس منها) .

وفي الصحيحين عن أبـي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : [إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر](1) .

ورواه الترمذي من حديث الوليد بن مسلم عن شعيب بسنده مثله ، وزاد بعد قوله «يحب الوتر» ذكر تسعة وتسعين اسماً لا يصح رفعها إلى النبي ﷺ وإنما هي مدرجة في الحديث كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك : أي جمعوها من القرآن ، وبعضها لا يثبت لله سبحانه بدليل صحيح ، ومن ثمّ فلم يعوِّل العلماء على هذا الإدراج ولم يتفقوا على ما جاء فيه من أسماء .

---

(1) البخاري (186/11-192) في الدعوات . ومسلم (2677) في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار .

وقد صنف الإمام البخاريُّ الحديث في الدعوات: (باب لله مائة اسم غير واحد).

وقال الحافظ ابن كثير في التفسير: (ليعلم أن الأسماء الحسنىٰ ليست منحصرة في تسعة وتسعين. بدليل ما رواه أحمد[1] عن يزيد بن هارون، ... عن عبد الله بن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: [ما أصاب أحداً قط هَمٌّ ولا حَزَن، فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدكَ، ماضٍ فيَّ حكمك، عَدلٌ فيّ قضاؤك. أسألك اللهم بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همِّي وغمي. إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرجاً، فقيل: يا رسول الله، ألا نتعلمها؟ فقال: بلىٰ، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها]).

قلت: والذي أميل له من تصنيف الإمام البخاري لحديث أبي هريرة وبالجمع مع حديث ابن مسعود أن هذه الأسماء التسعة والتسعين ليس المقصود عدّها وجمعها إنما المقصود الحياة مع آفاقها ومفهومها وآثارها حتىٰ يدخل العبد الجنة، ويبدو أن بعضها لا يعلمه إلا الله بدليل قوله عليه الصلاة والسلام: (أو استأثرت به في علم الغيب عندك)، وقد رأيت قوماً اشتغلوا بعدِّها وجمعها، وخالفوا القواعد العلمية السابقة بغية إتمام العدد ثم اشتغلوا بحسابات على تلك المجموعة من الأسماء التي حصلوا عليها ـ وبعضها غير ثابت على الله سبحانه ـ لاكتشاف أرقام جديدة زعموا أنها مقدسة لقابليتها القسمة على بعض الأرقام المذكورة في القرآن فضلوا وأضلوا حين قدّسوا مالم يأت به الدليل على تقديسه، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾. [الأعراف: 180].

قال قتادة: (يلحدون: يشركون). وقال ابن عباس: (الإلحاد: التكذيب).

وأصل الإلحاد في لغة العرب: العدول عن القصد، والميل والجور

(1) رواه أحمد وصححه ابن حبان وهو حديث صحيح كما قال المحققون. انظر المسند (452,391/1) وتحقيق فتح المجيد ص537.

والانحراف. ومنه اللحد في القبر، سمي كذلك لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر.

قال ابن القيم رحمه الله:

وحقيقة الإلحاد فيها الميل بالـ إشراك والتعطيل والنكران

قال: (فالإلحاد: إما بجحدها وإنكارها، وإما بجحد معانيها وتعطيلها، وإما بتحريفها عن الصواب، وإخراجها عن الحق بالتأويلات، وإما أن يجعلها أسماء لهذه المخلوقات كإلحاد أهل الاتحاد، فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون، محمودها ومذمومها. حتىٰ قال زعيمهم: هو المسمىٰ بمعنىٰ كل اسم ممدوح عقلاً وشرعاً وعرفاً. وبكل اسم مذموم عقلاً وشرعاً وعرفاً. تعالىٰ الله عما يقولون علواً كبيراً). انتهى.

وقد ذمّ الله سبحانه في القرآن المنافقين والمشركين الذين خذلوا النبي ﷺ يوم أحد وظنوا بالله غير الحق ظن الجاهلية فقال جل ذكره: ﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [آل عمران: 154].

قال العلامة ابن القيم في زاد المعاد: (وقد فُسِّرَ هذا الظن الذي لا يليق بالله، بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمرَه سيضمحِلُّ، وأنه يُسلِمهُ للقتل، وقد فُسِّر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضائه وقدره، ولا حِكمة له فيه، فَفُسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يُتمَّ أمرَ رسوله ويُظهره على الدين كُلِّه، وهذا هو ظنّ السَّوء الذي ظنّه المنافقون والمشركون به سبحانه وتعالىٰ في سورة الفتح حيث يقول: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾.

وإنما كان هذا ظنّ السَّوء، وظنّ الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل، وظنّ غير الحق، لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنىٰ، وصفاته العليا، وذاتِه المبَّرأة من كلِّ عيب وسوء، بخلافِ ما يليق بحكمته وحمدِه، وتفرّده بالربوبية والإلهية، وما يليق بوعده الصادق الذي لا يُخلفُهُ، وبكلمته التي سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذُلهم، ولجنده بأنهم هم الغالبون.

قال: وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظنّ السَّوء فيما يختص بهم وفيما يفعلُه بغيرهم، ولا يسلَمُ عن ذلك إلا من عرف الله، وعرف أسماءَه وصفاته، وعرف موجِبَ حمدِه وحكمته، فمن قَنِطَ من رحمته، وأيس من رَوحه، فقد ظن به ظَنَّ السوء.

ومن جوَّز عليه أن يعذِّبَ أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم، ويسوي بينهم وبين أعدائه، فد ظنّ به ظنَّ السوء.

ومن ظنَ به أن يترُكَ خلقه سُدىً، معطَّلين عن الأمر والنهي، ولا يُرسِل إليهم رسله، ولا ينزِّل عليهم كتبه، بل يتركهم هَمَلاً كالأنعام، فقد ظنّ به ظنَّ السوء.

ومن ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعِقاب في دار يُجازي المحسنَ فيها بإحسانه، والمسيءَ بإساءته، ويبيّن لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه، ويظهرُ للعالمين كلِّهم صدقَه وصدقَ رسله، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين، فقد ظن به ظن السوء.

ثم قال: ومن ظن به أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل، وتشبيه، وتمثيل، وترك الحقَّ، لم يخبر به، وإنما رَمَزَ إليه رموزاً بعيدة، وأشار إليه إشارات مُلْغِزَةً لم يُصرح به، وصَرَّح دائماً بالتشبيه والتمثيل والباطل، وأراد من خلقه أن يُتعبوا أذهانَهم وقُواهم وأفكارهم في تحريف كلامه عن مواضعه، وتأويلِه على غير تأويله، ويتطلَّبوا له وجوهَ الاحتمالات المستكرهة، والتأويلات التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالكشف والبيان، وأحالهم في معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم، لا على كتابه، بل أراد منهم أن لا يحمِلوا كلامَه على ما يعرِفُون من خطابهم ولغتهم، مع قدرته على أن يُصَرِّح لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به، ويُريحهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل، فلم يفعل، بل سلك بهم خلافَ طريق الهدى والبيان، فقد ظنّ به ظنَّ السَّوْء، فإنه إن قال: إنه غير قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح الذي عبَّر به هو وسلفُه، فقد ظن بقُدرته العجز، وإن قال: إنه قادرٌ ولم يُبَيِّنْ، وعدَل عن البيان، وعن التصريح بالحق إلى ما يُوهم، بل يُوقعُ في الباطل المحال، والاعتقاد الفاسد، فقد ظن بحكمته ورحمته ظنّ السَّوء، وظن أنه، هو وسلفُه عبروا عن الحق

بصريحه دونَ الله ورسوله ، وأن الهدى والحقَّ في كلامهم وعباراتهم. وأما كلامُ الله ، فإنما يُؤخذ من ظاهره التشبيه ، والتمثيل ، والضلال ، وظاهر كلام المتهوِّكين(1) الحيارىٰ ، هو الهدىٰ والحق ، وهذا من أسوءِ الظن بالله ، فكل هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء ، ومن الظانين به غير الحق ظن الجاهلية.

ومن ظن به أن يكونَ في ملكه ما لا يشاء ولا يقدِرُ على إيجاده وتكوينه ، فقد ظن به ظنّ السوء.

ومن ظنّ به أنه كان مُعَطَّلاً من الأزل إلى الأبد عن أن يفعل ، ولا يُوصف حينئذ بالقدرة على الفعل ، ثم صار قادراً عليه بعد أن لم يكن قادراً ، فقد ظنّ به ظن السَّوء.

ومن ظنّ به أنه لا يسمع ولا يُبصر ، ولا يعلم الموجودات ، ولا عدَد السماوات والأرض ، ولا النجوم ، ولا بني آدمَ وحركاتهم وأفعالهم ، ولا يعلم شيئاً من الموجودات في الأعيان ، فقد ظَنّ به ظنّ السَّوء.

ومن ظن أنه لا سمعَ له ، ولا بصرَ ، ولا عِلم له ، ولا إرادة ، ولا كلامَ يقولُ به ، وأنه لم يُكَلِّم أحداً من الخلق ، ولا يتكلم أبداً ، ولا قال ولا يقول ، ولا له أمرٌ ولا نهي يقومُ به ، فقد ظن به ظنَّ السَّوء.

ومن ظن به أنه ليس فوق سماواته على عرشه بائناً من خلقه ، وأن نِسبة ذاته تعالى إلى عرشه كنِسبتها إلى أسفلِ السافلين ، وإلى الأمكنة التي يُرغب عن ذكرها ، وأنه أسفلُ ، كما أنه أعلى ، فقد ظنّ به أقبحَ الظن وأسوأَه.

ومَنْ ظنَّ به أنه يحب الكفر ، والفسوقَ ، والعصيانَ ، ويحبُّ الفسادَ كما يحب الإيمان ، والبر ، والطاعة ، والإصلاح ، فقد ظن به ظن السَّوء.

ومن ظنَّ به أنه لا يحب ولا يرضىٰ ، ولا يغضب ولا يَسخط ، ولا يُوالي

---

(1) التهوك: كالتهور ، وهو الوقوع في الأمر بغير رؤية. والمتهوك الذي يقع في كل أمر. وفي المسند عن جابر: [أن عمر أتىٰ النبي ﷺ فقال: إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا أفترىٰ أن نكتب بعضها؟ فقال: أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى ، لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، ولو كان موسىٰ حياً ما وسعه إلا اتباعي] وهو حديث حسن كما في زاد المعاد وغيره. وله شاهد في المسند (471,470/3). زاد المعاد 232/3.

ولا يُعادي ، ولا يقرب من أحد من خلقه ، ولا يقرُبُ منه أحد ، وأن ذواتِ الشياطين في القُرب مِن ذاته كذوات الملائكة المقربين وأوليائه المفلحين ، فقد ظنّ به ظنَّ السوء .

ومن ظنَّ أنه يُسوي بين المتضادَّيْن ، أو يفرِّق بين المتساويين من كل وجه ، أو يُحْبِطُ طاعات العمر المديد الخالصةَ الصوابَ بكبيرة واحدة تكون بعدها ، فيخلد فاعلِ تلك الطاعات في النار أبدَ الآبدين بتلك الكبيرة ، ويُحبط بها جميع طاعاته ويخَلِّدُه في العذاب ، كما يخلد من لا يؤمن به طرفة عين ، وقد استنفد ساعاتِ عمره في مساخِطه ومعاداة رسله ودينه ، فقد ظنّ به ظنّ السوء .

وبالجملة فمن ظنّ به خِلافَ ما وصف به نفسه ووصفه به رسله ، أو عطّل حقائقَ ما وصفَ به نفسه ، ووصفته به رُسله ، فقد ظنّ به ظنّ السَّوء .

ثم قال: فأكثر الخلق ، بل كلهم إلا من شاء الله يظنون بالله غير الحقِّ ظنَّ السوء ، فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوسُ الحق ، ناقصُ الحظ وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله ، ولِسانُ حاله يقول: ظلمني ربِّي ، ومنعني ما أستحقُّه ، ونفسُه تشهد عليه بذلك ، وهو بلسانه يُنكره ولا يتجاسر على التصريح به ، ومن فتَّش نفسه ، وتغلغل في معرفة دفائنها وطواياها ، رأىٰ ذلك فيها كامناً كمون النار في الزِّناد ، فاقدح زناد من شئت يُنبئك شَرارُهُ عما في زناده ، ولو فتَّشت من فتّشته ، لرأيت عنده تعتُّباً على القدر وملامة له ، واقتراحاً عليه خلاف ما جرىٰ به ، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا ، فمستقِلٌّ ومستكثِر ، وفتِّش نفسَك هل أنت سالم من ذلك .

فإن تَنْجُ منها تَنْجُ من ذي عَظيمةٍ ... وإلا فإني لا إخالُكَ ناجِيَاً

فليعتنِ اللبيبُ الناصحُ لنفسه بهذا الموضع ، وليتُب إلى الله تعالىٰ وليستغفره كلَّ وقت من ظنه بربه ظن السوء ، وليظنَّ السوءَ بنفسه التي هي مأوى كل سوء ، ومنبع كل شر ، المركبة على الجهل والظلم ، فهي أولىٰ بَظَنِّ السَّوءِ من أحكم الحاكمين ، وأعدِل العادلين ، وأرحمِ الراحمين ، الغني الحميد ، الذي له الغنىٰ التام ، والحمدُ التام ، والحكمة التامة ، المنزه عن كل سوء في ذاته وصفاته ، وأفعاله وأسمائه ، فذاتُه لها الكمالُ المطلق من كل وجه ، وصفاته كذلك ، وأفعاله كذلك ، كُلُّها حكمة ومصلحة ، ورحمة وعدل ، وأسماؤه كلُّها حسنىٰ .

فـلا تَظْنُـنْ بـربـك ظـنّ سَـوْءٍ ... فـإن الله أوْلـى بـالجميـل
ولا تَظْنُـنْ بنفسِـك قـطُّ خيـراً ... وكَيْـفَ بظـالِـمٍ جـانٍ جَهُـولِ
وقـل يـا نَفْسُ مـأوىٰ كُـلِّ سـوءٍ ... أيُـرجىٰ الخَيْـرُ مـن مَيْـتٍ بخيـل
وظُـنَّ بنفسـك السُّـوآىٰ تَجِـدْهَـا ... كـذاك وخَيْـرُهَـا كـالمُسْتحيـل
ومـا بـك مـن تُقـىً فيهـا وخَيْـرٍ ... فتلـك مَـوَاهِـبُ الـربِّ الجليـل
ولَيْـسَ بهـا ولا مِنْهـا ولكـنْ ... مـن الـرحمـن فـاشكُـرْ للـدَّليـل)[1].

أنواع الصفات :

أولاً ـ من حيث إثباتها ونفيها :

تنقسم الصفات من حيث الإثبات والنفي إلى قسمين :

1 ـ **صفات ثبوتية** : وهي ما أثبته الله تعالى لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ ، كالاستواء ، والنزول ، والوجه ، واليد . . .

2 ـ **صفات سلبية** : وهي ما نفاه الله تعالى عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ كالموت والسنة والنوم والظلم ، وغالباً ما تسبق بأداة نفي وهي تُنفىٰ ويراد إثبات كمال ضدها .

مثال ذلك : نفي النوم عن الله يُراد منه إثبات كمال قيوميته ، ونفي الظلم عنه يراد منه إثبات كمال عدله ، وهكذا .

ثانياً ـ من حيث تعلقها بذات الله تعالىٰ وأفعاله :

فإنها تنقسم إلى قسمين :

1 ـ **صفات ذاتية** : وهي الصفات المتعلقة بذات الله كالوجه واليدين والأصابع والساق والقدمين .

2 ـ **صفات فعلية** : وهي الصفات المتعلقة بالمشيئة والقدرة ، إن شاء الله فعلها وإن شاء لم يفعلها ، كالمجيء والنزول والغضب والفرح والضحك ، وتسمىٰ الصفات الاختيارية .

---

(1) زاد المعاد 228/3-236 ملخصاً .

وأفعاله سبحانه وتعالىٰ نوعان:

أ- لازمة «صفة ذات»: كالاستواء والنزول والإتيان.

ب- متعدية «صفة فعل»: كالخلق والإعطاء.

والصفات الفعلية من حيث قيامها بالذات تسمىٰ صفات ذات، ومن حيث تعلقها بما ينشأ عنها من الأقوال والأفعال تسمىٰ صفات أفعال.

ثالثاً- من حيث ثبوتها وأدلتها.

تنقسم الصفات من حيث ثبوتها وأدلتها إلى قسمين:

1- **صفات خبرية «سمعية»**: وهي الصفات التي لا سبيل إلى إثباتها إلا السمع والخبر عن الله أو عن رسوله ﷺ، وقد تكون ذاتية كالوجه واليدين وقد تكون فعلية كالفرح والضحك.

2- **صفات سمعية عقلية**: وهي الصفات التي يشترك في إثباتها الدليل السمعي والدليل العقلي، وقد تكون ذاتية كالحياة والعلم والقدرة، وقد تكون فعلية كالخلق والإعطاء.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: (فائدة جليلة - ما يجري صفة أو خبراً على الرب تبارك وتعالىٰ أقسام:

أحدها: ما يرجع إلى نفس الذات، كقولك: ذات، وموجود.

الثاني: ما يرجع إلى صفاته ونعوته، كالعليم، والقدير، والسميع، والبصير.

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله: كالخالق والرازق.

الرابع: التنزيه المحض، ولابد من تضمنه ثبوتاً، إذ لا كمال في العدم المحض، كالقدوس، والسلام.

الخامس: ولم يذكره أكثر الناس - وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة، بل دال على معان، نحو المجيد، العظيم، الصمد، فإن المجيد: من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا، فإنه موضوع للسعة والزيادة والكثرة، فمنه «استمجد المرخ والعفار» وأمجد

الناقة: علفها، ومنه «ذو العرش المجيد» صفة للعرش، لسعته وعظمته وشرفه.

وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترناً بطلب الصلاة من الله على رسوله كما علّمناه ﷺ، لأنه في مقام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء، وكثرته ودوامه، فأتىٰ في هذا المطلوب باسم يقتضيه، كما تقول: اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، فهو راجع إلى التوسل إليه بأسمائه وصفاته، وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه، ومنه الحديث الذي في الترمذي «أَلِظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام»[1] ومنه «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنتَ المنان، بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام»[2].

فهذا سؤال له، وتوسل إليه بحمده، وأنه: لا إله إلا هو المنان، فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته، وما أحق ذلك بالإجابة، وأعظمه موقعاً عند المسؤول.

وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد.

السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو الغني الحميد، الغفور القدير، الحميد المجيد، وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن، فإن «الغنىٰ» صفة كمال، و«الحمد» كذلك، واجتماع «الغنىٰ» مع «الحمد» كمال آخر، فله ثناء من غناه، وثناء من حمده، وثناء من اجتماعهما، وكذلك الغفور القدير، والحميد المجيد، والعزيز الحكيم، فتأمله، فإنه من أشرف المعارف).

دلالات الأسماء:

1 ـ **دلالة مطابقة**: (تطابق اللفظ والمعنىٰ) على الذات وعلى الصفة المشتقة بآن واحد. فاسم (الخالق) فيه دلالة اللفظ على كل المعنىٰ.

2 ـ **دلالة تضمن**: (مدلوله ذات وصفات) أي يتضمن الذات كما يتضمن الصفات. فاسم (الخالق) يدل على العلم كما يدل على القدرة، فهي دلالة تضمن.

---

(1) رواه الترمذي عن أنس وهو حديث صحيح.

(2) رواه أبو داود وابن ماجه والنسائي بسند صحيح من حديث أنس.

3 ـ **دلالة التزام**: فلا يمكن الخلق دون علم وقدرة ، ومن ثم فالدلالة على العلم والقدرة دلالة التزام.

أنواع الإلحاد في الأسماء:

1 ـ أن يسمى الله بغير أسمائه.

2 ـ أن ينكر شيءٌ من أسمائه.

3 ـ أن ينكر شيء مما دلت عليه الصفات بأي نوع: (مطابقة ، تضمن ، التزام).

4 ـ أن تُثبت لله لكن تُجعل دالة على التمثيل والتشبيه (نحو: علم كعلمنا ، ومغفرة كمغفرتنا ، وبصر كبصرنا...).

5 ـ أن تنقل للمعبودات أو يشتق منها أسماء لها (كاللات من الإله ، والعزى من العزيز ، ومناة من المنان).

الإلحاد في الآيات الكونية:

1 ـ نفي أن تكون من صنع الله.

2 ـ اعتقاد شريك مع الله.

3 ـ اعتقاد معين لله في إيجادها.

الإلحاد في الآيات الشرعية:

1 ـ التكذيب.

2 ـ التحريف.

3 ـ المخالفة.

ثمرات الإيمان بالأسماء والصفات:

إن ثمة صلة من النسب بين الإيمان وبين القول والعمل ، فليس هناك اعتقاد عقلي بارد إلا على صفحات الورق ، وأما منهج المسلم فيجمع بين الأعمال الثلاثة: عمل اللسان ، وعمل القلب ، وعمل الجوارح. فالإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل ، فإذا آمنت بالله وأسمائه وصفاته ، مَنَعك تعظيم هذه الصفات من الوقوع في المعاصي والآثام.

فعلمك بأن الله سميع ، يحملك على عدم الاستماع للهو الباطل ومنكر القول ، والذي كثيراً ما يصاحبه العزف والمجون ، كما يحملك على ترك الاستماع لقول الغيبة والنميمة وقول الزور .

وعلمك بأن الله بصير ، يحملك على أن لا يراك في الأماكن التي تسخطه ، كبيوت القمار والزنا واقتراف الفواحش ، فيمنعك تعظيم صفة البصر لله من أن يراك تسقط في تلك الآثام .

ويقينك بأن القرآن كلام الله ، يحملك على الصلة به آناء الليل وأطراف النهار ، ثم خوفك من السؤال عنه في القبر يحملك على التمسك به تمسك الأخيار والأبرار .

ثم يقينك بأن الله سبحانه هو مصرف المقادير وقد كتب على عباده ما هو واقع بهم ، يُسليك عند المصيبة ليراك سبحانه صابراً محتسباً ، راضياً عن الله في قضائه وإرادته ، ومشيئته وقدره .

وقد لخّص بعض أهل العلم ثمرات الإيمان بالأسماء والصفات بتفصيل جميل فقال :

1 ـ إن العبد يسعىٰ إلى الاتصاف والتحلي بما يليق به منها ، لأن المحب يحب أن يتصف بصفات محبوبه ، كما أن المحبوب يحب أن يتحلىٰ محبه بصفاته .

فالله كريم يحب الكرماء ، رحيم يحب الرحماء ، فإذا علم العبد ذلك سعىٰ إلى التحلي بصفات الكرم والرحمة وهكذا .

2 ـ إن العبد إذا آمن بصفات العلم والمحبة أورثه ذلك المراقبة لله والخوف منه ، فإذا آمن بصفة السمع علم أن الله يسمعه ، وإذا آمن أن من صفات الله الغضب والسخط واللعن والأسف عمل بما لا يغضب مولاه .

3 ـ ومنها أنه إذا علم أن الله يتصف بصفة القوة والعزة والغلبة وآمن بها فإنه لا يخنع لكافر ولا يستسلم لمخلوق لأن الله غالب على أمره .

4 ـ إن صفات الله الخبرية كالوجه ، والأنامل ، واليدين ، والأصابع ، والقدمين ، والساق ، وغيرها تكون كالاختبار الصعب للعباد ، فمن آمن بها وصدق بها على وجه يليق بالله بلا تمثيل ولا تحريف وقال : «كل من عند ربنا» فقد

فاز فوزاً عظيماً ، ومن قدّم عقله السقيم على النقل الصحيح وأول هذه الصفات فقد كذب الله فيما وصف به نفسه وكذب رسوله ﷺ وخسر خسراناً مبيناً .

قال ابن القيم في المدارج : (والحال المستندة إلى وارد تذاق به حلاوة المناجاة : هو من حضرة الأسماء والصفات ، بحسب ما يصادف القلب من ظهورها وكشف معانيها .

فمن ظهر له اسم «الودود» ـ مثلاً ـ وكشف له عن معاني الاسم ، ولطفه ، وتعلقه بظاهر العبد وباطنه : كان الحال الحاصل له من حضرة هذا الاسم مناسباً له ، فكان حال اشتغال حب وشوق ، ولذة مناجاة ، لا أحلى منها ولا أطيب ، بحسب استغراقه في شهود معنىٰ هذا الاسم ، وحظه من أثره .

فإن «الودود» ـ إن كان بمعنىٰ المودود ، كما قال البخاري في صحيحه «الودود» الحبيب ـ واستغرق العبد في مطالعة صفات الكمال ، التي تدعو العبد إلى حب الموصوف بها : أثمر له صفاء علمه بها ، وصفاء حاله في تعبده بمقتضاها سروراً وبهجة .

وكذلك إن كان اسم فاعل بمعنىٰ «الواد» وهو المحب : أثمرت له مطالعة ذلك حالاً تناسبه .

فإنه إذا شاهد بقلبه غنياً كريماً جواداً ، عزيزاً قادراً ، كل أحد محتاج إليه بالذات . وهو غني بالذات عن كل ما سواه . وهو ـ مع ذلك ـ يَودُ عباده ويحبهم ، ويتودد إليهم بإحسانه إليهم وتفضله عليهم ـ : كان له من هذا الشهود حالة صافية خالصة من الشوائب .

وكذلك سائر الأسماء والصفات ، فصفاء الحال بحسب صفاء المعرفة بها) .

منهج أهل السنة والجماعة في فهم الأسماء والصفات :

إن أهل السنة والجماعة هم أتباع الرسول ﷺ من الصحابة والتابعين لهم بإحسان حتىٰ نهاية القرن الثالث ثالث قرون التفضيل ، وكذا كل من سار على نهجهم إلى يوم الدين ، وهم الفرقة الناجية والطائفة المنصورة بنص قول النبي ﷺ : [وستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ،

وهي الجماعة][1] ، وفي رواية : [ما أنا عليه وأصحابي][1] .

ومذهبهم في الأسماء والصفات هو منهج الوحيين : القرآن والسنة الصحيحة : (إثبات كل ما أثبته الله تعالى لنفسه ، وأثبته له رسوله ﷺ ، ونفي ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ من غير تفريق بين اسم واسم أو صفة وصفة ، وإثباتهم إنما هو إثبات لمعاني الأسماء والصفات بمقتضىٰ ومفهوم لغة العرب ، وأما الكيفية فيفوضونها إلى الله تعالىٰ) .

قال الإمام ابن عبد البر ـ إمام أهل المغرب في كتابه التمهيد م7 ص145 : (أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة والإيمان بها وحملها على الحقيقة لا على المجاز ، إلا أنهم لا يكيفون شيئاً من ذلك ولا يحددون فيه صفة محصورة) .

ويقول الإمام الأوزاعي رحمه الله : (كنا والتابعون متوافرون نقول بأن الله فوق عرشه ونؤمن بما وردت به السنة من كتابه) فتح الباري 13 ص406 .

وقال الإمام أبو حنيفة في كتابه «الفقه الأكبر» : (وما ذكر الله تعالى في القرآن من ذكر الوجه واليد والنفس فهو له صفات بلا كيف ولا يقال إن يده قدرته أو نعمته لأن فيه إبطال الصفة وهذا قول أهل القدر والاعتزال ولكن يده صفته بلا كيف وغضبه ورضاه صفتان من صفاته بلا كيف) .

وفي البخاري قال أبو العالية : (استوىٰ إلى السماء : ارتفع) . وقال مجاهد : (استوىٰ : علا) وبه قال شيخ المفسرين الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله .

ونقل محي السنة الإمام البغوي في تفسيره لاستوىٰ : (أن معناه ارتفع) . وكذلك أكثر المفسرين .

وقيل لعبد الله بن المبارك : (كيف نعرف ربنا)؟ فقال : (بأنه فوق السماء السابعة على العرش بائن من خلقه) . قيل : (بحد)؟ قال : (بحدٍ لا يعلمه غيره) ومعنىٰ بحد :

---

(1) أخرجه أبو داود (503/2-504) وأحمد (102/4) والحاكم والدارمي وغيرهم ، وانظر السلسلة الصحيحة 204 .

أي بكيف. ذكره البخاري في خلق أفعال العباد وكذلك عبد الله بن الإمام أحمد في السنة.

ويقول الإمام الشافعي رحمه الله: (السنة التي أنا عليها ورأيت أصحابنا أهل الحديث الذين رأيتهم عليها فأحلف عنهم مثل سفيان ومالك وغيرهم: الإقرار بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن الله تعالى على عرشه في سمائه يقرب من خلقه كيف يشاء وأن الله ينزل إلى السماء الدنيا كيف يشاء) عون المعبود شرح سنن أبي داود.

وأخرج البيهقي من طريق أبي داود الطيالسي: (كان سفيان الثوري وشعبة وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وشريك وأبو عوانة لا يحددون ولا يشبهون ويروون هذه الأحاديث ولا يقولون كيف؟ قال أبو داود: وهو قولنا. وقال البيهقي: وعلى هذا مضىٰ أكابرنا) فتح الباري ج13.

وقال الترمذي عقب روايته لحديث النزول: (وهو على العرش كما وصف به نفسه في كتابه). وكذلك قال غير واحد من أهل العلم في هذا الحديث وما يشبهه من الصفات. كما جاء في عون المعبود م 13 ص4.

وقال أبو الحسن الأشعري في «رسالة إلى أهل الثغر»: (وأجمعوا على أنه عز وجل يسمع ويرىٰ وأن له تعالىٰ يدين مبسوطتين).

وقال أيضاً في مسألة الاستواء: (قال أهل السنة والجماعة وأصحاب الحديث: ليس بجسم ولا يشبه الأشياء وإنه على عرشه كما قال، ولا نتقدم بين يدي الله ورسوله في القول، بل نقول استوىٰ بلا كيف وأن له يدين بلا كيف كما قال تعالىٰ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، وأن الله ينزل إلى السماء الدنيا كما في الحديث).

وقال أبو عمر الطلمنكي في كتابه: «الوصول إلى معرفة الأصول»: (إن أهل السنة والجماعة متفقون على أن الله تعالى استوىٰ بذاته على عرشه).

وقال يحيىٰ بن عثمان: (لا نقول كما قالت الجهمية: إنه بداخل الأمكنة وممازج كل شيء ولا نعلم أين هو، بل نقول: هو بذاته على عرشه وعلمه محيط بكل شيء).

وذكر أبو نصر السجزي الحافظ في كتابه: «الإبانة» قال: (وأئمتنا كالثوري ومالك وابن عيينة وحماد بن سلمة وحماد بن زيد وابن المبارك والفضيل بن عياض وأحمد وإسحاق متفقون على أن الله تعالىٰ فوق العرش بذاته وأن علمه بكل مكان).

قال الخطيب البغدادي: (وأما الكلام في الصفات فمذهب السلف إثباتها وإجراؤها على ظواهرها ونفي الكيفية والتشبيه عنها، ولا نقول معنىٰ اليد القدرة) مختصر العلو ص272.

وقال عبد القادر الجيلاني: (وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل وأنه استواء الذات على العرش لا على معنىٰ القعود والمماسة كما قالت المجسمة والكرامية، ولا على معنىٰ العلو والرفعة كما قالت الأشعرية ولا على معنىٰ الاستيلاء والغلبة كما قالت المعتزلة، لأن الشرع لم يرد بذلك ولا نقل عن أحد من الصحابة والتابعين من السلف الصالح من أصحاب الحديث) الغنية ص5.

وقال شيخ الإسلام في «التدمرية» ص29: (القول في الصفات كالقول في الذات، فإن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فإذا كان له ذات حقيقية لا تماثل الذوات، فالذات متصفة بصفات حقيقية لا تماثل سائر الصفات.

فإذا قال السائل، كيف استوىٰ على العرش؟ قيل له كما قال ربيعة، ومالك وغيرهما رضي الله عنهم: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عن الكيفية بدعة» لأنه سؤال عما لا يعلمه البشر، ولا يمكنهم الإجابة عنه. وكذلك إذا قال: كيف ينزل ربنا إلى السماء الدنيا؟ قيل له: كيف هو؟ فإذا قال: لا أعلم كيفيته. قيل له: ونحن لا نعلم كيفية نزوله. إذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف، وهو فرع له، وتابع له، فكيف تطالبني بالعلم بكيفية سمعه وبصره، وتكليمه واستوائه ونزوله، وأنت لا تعلم كيفية ذاته؟ وإذا كنت تقر بأن له حقيقة ثابتة في نفس الأمر مستوجبة لصفات الكمال، لا يماثلها شيء، فسمعه وبصره، وكلامه ونزوله واستواؤه ثابت في نفس الأمر، وهو متصف بصفات الكمال التي لا يشابهه فيها سمع المخلوقين وبصرهم وكلامهم ونزولهم واستواؤهم).

وقال في «الحموية» ص99: (ومذهب السلف بين التعطيل وبين التمثيل ، فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه ، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه ، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه ، ووصفه به رسوله ، فيعطلوا أسماءه الحسنىٰ ، وصفاته العليا ، ويحرفوا الكلم عن مواضعه ، ويلحدوا في أسماء الله وآياته.

وكل واحد من فريقي التعطيل والتمثيل ، فهو جامع بين التعطيل والتمثيل. أما المعطلون فإنهم لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ما هو اللائق بالمخلوق ، ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات. فقد جمعوا بين التعطيل والتمثيل ، مثلوا أولاً ، وعطلوا آخراً. وهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم ، وتعطيل لما يستحقه هو سبحانه من الأسماء والصفات اللائقة به سبحانه وتعالىٰ.

فإذا قال القائل: لو كان الله فوق العرش للزم إما أن يكون أكبر من العرش ، أو أصغر ، أو مساوياً ، وكل ذلك من المحال ـ ونحو ذلك من الكلام ـ فإنه لم يفهم من كون الله على العرش إلا ما يثبت لأي جسم كان على أي جسم كان. وهذا اللازم تابع لهذا المفهوم ، إما استواء يليق بجلال الله ، ويختص به فلا يلزمه شيء من اللوازم الباطلة التي يجب نفيها ، كما يلزم سائر الأجسام. وصار هذا مثل قول الممثل: إذا كان للعالم صانع ، فإما أن يكون جوهراً أو عرضاً ، إذ لا يعقل موجود إلا هذا ، وقوله: إذا كان مستوياً على العرش فهو مماثل لاستواء الإنسان على السرير والفُلك ، إذ لا يعلم الاستواء إلا هكذا. فإن كليهما مَثَّلَ وكليهما عطل حقيقة ما وصف الله به ، وامتاز الأول بتعطيل كل اسم للاستواء الحقيقي ، وامتاز الثاني بإثبات استواء هو من خصائص المخلوقين.

والقول الفصل هو ما عليه الأمة الوسط ، من أن الله مستوٍ على عرشه استواءً يليق بجلاله ، ويختص به. فكما أنه سبحانه موصوف بأنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وأنه سميع بصير ، ونحو ذلك ، ولا يجوز أن يثبت للعِلم والقدرة خصائص الأعراض التي لعلم المخلوقين وقدرتهم ، فكذلك هو سبحانه فوق العرش ، ولا يثبت لفوقيته خصائص فوقية المخلوق على المخلوق وملزوماتها.

واعلم أنه ليس في العقل الصريح ، ولا في شيء من النقل الصحيح ، ما يوجب مخالفة الطريقة السلفية أصلاً).

وقد نقل الحافظ أبو حاتم[1] الرازي المتوفىٰ سنة 277 هـ مجمل اعتقاد الشافعي وأحمد وإسحاق وغيرهم فقال ـ كما يروي الحافظ أبو القاسم الطبري المعروف بالإمام اللالكائي ـ يقول: (وجدت في كتاب أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر الحنظلي مما سمع منه يقول: مذهبنا واختيارنا اتباع رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين من بعدهم بإحسان، والتمسك بمذاهب أهل الأثر مثل الشافعي وأحمد وإسحاق وأبي عبيد رحمهم الله تعالى، ولزوم الكتاب والسنة. ونعتقد أن الله عز وجل على عرشه، بائن من خلقه «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير» قال: واختيارنا أن الإيمان يزيد وينقص، ونؤمن بعذاب القبر، وبالحوض، والمساءلة في القبر، وبالشفاعة، ونترحم على جميع الصحابة، ولا نسب أحداً منهم، ولا نقاتل في الفتنة، ونسمع ونطيع لمن ولاه الله أمرنا، ونرى الصلاة والحج والجهاد مع الأئمة، ودفع صدقات المواشي إليهم، ونؤمن بما صح بأن يخرج قوم من النار من الموحدين بالشفاعة ـ إلى أن قال: وعلامة أهل البدع: الوقيعة في أهل الأثر، وعلامة الجهمية: أن يسموا أهل السنة مشبهة ونابتة، وعلامة القدرية: أن يسموا أهل السنة مجبرة، وعلامة الزنادقة: أن يسموا أهل الأثر حشوية) ذكره الذهبي في مختصر العلو.

وقال الإمام العلامة الخطابي[2] في كتابه «الغنية عن الكلام وأهله»: (فأما ما سألت عنه من الكلام في الصفات، وما جاء منها في الكتاب والسنن الصحيحة، فإن مذهب السلف إثباتها وإجراؤها على ظاهرها، ونفي الكيفية والتشبيه عنها) مختصر العلو.

وقد ألف الحافظ الدارقطني[3] كتاباً في الصفات وكتاباً في الرؤية. قال الذهبي: (وكان إليه المنتهىٰ في السنة ومذهب السلف).

---

(1) أحد الأعلام وكبار أئمة أهل الأثر، جرح وعدل، وصحح وعلل، وكان جارياً في مضمار قرينه وقريبه الحافظ أبي زرعة، حدث عنه أبو داود والكبار، توفي سنة 277 هـ.

(2) هو أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب الخطابي البستي صاحب «معالم السنن»، توفي 388 هـ.

(3) هو العلامة الحافظ أبو الحسن علي بن عمر نادرة عصره، وفرد الجهابذة (306-385 هـ).

وقال الحافظ ابن مندة[1] ـ محدث الشرق ـ: (فهو تعالى موصوف غير مجهول، وموجود غير مدرك، ومرئي غير محاط به، لقربه كأنك تراه، قريب غير ملاصق، وبعيد غير منقطع، وهو يسمع ويرى، وهو بالمنظر الأعلى، وعلى العرش استوى، فالقلوب تعرفه، والعقول لا تكيفه، وهو بكل شيء محيط) مختصر العلو.

إن النفي والتشبيه مرضان من أمراض القلوب، فإن أمراض القلوب نوعان:

1 ـ مرض شبهة.

2 ـ مرض شهوة.

ومثال الأول: قوله تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: 10].

وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة: 125].

ومثال الثاني: قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: 32].

ومرض الشبهة أردأ من مرض الشهوة، فمرض الشهوة يرجىٰ له الشفاء بقضاء الشهوة، وأما مرض الشبهة فلا شفاء له إن لم يتداركه الله برحمته.

والشبهة بمسألة الصفات نفيها وتشبيهها، وشبه النفي أردأ من شبه التشبيه، فالأولى ردّ وتكذيب لما جاء به رسول الله ﷺ، والثانية غلو ومجاوزة للحد فيما جاء به النبي ﷺ، ومن ثم فتشبيه الله بخلقه كفر، فإن الله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾.

قال الإمام الطحاوي رحمه الله: (فإن ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوحدانية، منعوت بنعوت الفردانية، ليس بمعناه أحد من البرية، تعالى الله عن الحدود والغايات والأركان والأدوات، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات) متن الطحاوية 37.

---

(1) (316-395 هـ).

فقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ دليل الوحدانية.

وقوله: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ دليل الفردانية.

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ يدل أنه ليس بمعناه أحد من البرية.

وذكر أهل العلم: أن (الوصف: للذات، والنعت: للفعل) وأن (الوحدانية: للذات، والفردانية: للصفات).

سئل عبد الله بن المبارك: (بم نعرف ربنا)؟ قال: (بأنه على العرش بائن من خلقه، قيل: بحدّ؟ قال: بحد). والحد: يقال لما ينفصل به الشيء ويتميز عنه.

وخلاصة القول: (إن الله سبحانه على عرشه، بائن من خلقه، فوق كل مخلوقاته، ليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، وهو غير محتاج إلى العرش ولا إلى كرسيه، بل ذكر العرش لأنه أعظم مخلوقاته، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه، له يد ووجه ونفس وساق لا كمخلوقاته، بل كلتا يديه يمين، ولا نسأل عن الكيف، ولا نؤول اليد بالقدرة والنعمة، ففيه إبطال الصفة).

* * *

-9-

- صفة العلو لله تعالىٰ -

الحمد لله العلي العظيم، رب العرش العظيم، الذي اصطفىٰ من خلقه أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم، ليدلوا الناس على صفات ربهم، ليفردوه سبحانه بالتوحيد والتعظيم، قال سبحانه في سورة الفرقان: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾.

فأمر سبحانه بالتوكل عليه وتنزيهه عما يصفه به الجهلة، فهو الذي فطر السموات والأرضين ثم استوى على العرش. قال ابن جرير (أي علا عليه). الرحمن: خبر لمبتدأ محذوف أو هو بالرفع على الابتداء، ويكون الخبر قوله: ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ وفيه تأويلان:

التأويل الأول: قيل الباء بمعنىٰ (عن)، ذكره بعض أهل اللغة. قال الزجاج: (المعنىٰ: فاسأل عنه). قال القرطبي: (أي فأسأل عنه خبيراً، أي عالماً به، أي بصفاته وأسمائه).

فيكون خبيراً قد نُصب على المفعول به بالسؤال.

التأويل الثاني: قيل بل المعنىٰ ﴿ فَسْـَٔلْ له خَبِيرًا ﴾ بالنصب على الحال، وقيل بل هو حال مؤكدة مثل قوله «وهو الحق مصدقاً».

قال مجاهد: (يقول لمحمد ﷺ: إذا أخبرتك شيئاً فاعلم أنه كما أخبرتك. أنا الخبير). وقال شمر بن عطية: (فاسأل به خبيراً: هذا القرآن خبير به).

فخلاصة المعنىٰ: فاسأل به سبحانه عالماً بصفاته وأسمائه، أو فاسأل الله يخبرك عن نفسه، أو فاسأل القرآن يخبرك عن الله.

فقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: أي علا واستعلىٰ فله العلو والفوقية، وأما **أدلة العلو في القرآن** فكثيرة:

1 ـ قال سبحانه في سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾. قال مجاهد: (استوىٰ: علا)(1).

2 ـ قال تعالى في سورة طه: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾.

3 ـ قال جل ذكره في سورة فصلت: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

4 ـ قال جل ثناؤه في سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾.

5 ـ قال في سورة النساء: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾.

6 ـ وقال في سورة النحل: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾.

7 ـ وقال في سورة السجدة: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

8 ـ وقال في سورة فاطر: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾.

9 ـ وقال في سورة الملك: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾.

10 ـ وقال في سورة المعارج: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

11 ـ وقال في سورة غافر: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾.

---

(1) وصله الفريابي بسند صحيح عن مجاهد كما ذكر الألباني في مختصر العلو للذهبي.

قلت: ومن ثم فمن شك أن الله في السماء اليوم ، فقد تشبه بطريقة فرعون[1] .

قال الإمام الجويني أبو محمد والد إمام الحرمين: (وهذا يدل على أن موسى أخبره بأن ربه تعالى فوق السماء ، ولهذا قال: وإني لأظنه كاذباً) مختصر العلو 80 .

وقال الإمام الذهبي رحمه الله: (فإن أحببت يا عبد الله الإنصاف ، فقف مع نصوص القرآن والسنن ، ثم انظر ما قاله الصحابة والتابعون وأئمة التفسير في هذه الآيات ، وما حكوه من مذاهب السلف ، فإما أن تنطق بعلم ، وإما أن تسكت بحلم ، ودع المراء والجدال ، فإن المراء في القرآن كفر) مختصر العلو 80 .

قلت: ومن الآيات الدالة على إثبات العلو لله تعالى بذاته على خلقه آية الكرسي إذ جاء في آخرها ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ .

قال بعض أهل العلم: تجمع الآية بين اسم العلي واسم العظيم وهما اسمان مختلفان في معناهما ، ولو كان العلو هنا علو عظمة لما ذكر الله سبحانه لفظ «العظيم» بعد العلي ولاكتفى بالعلي دون العظيم .

قال ابن جرير: («وهو العلي العظيم» معنىٰ ذلك وهو العلي علىٰ خلقه بارتفاع مكانه عن مكان خلقه ، لأنه تعالى فوق جميع خلقه). ونقل في قوله: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ عن الربيع بن أنس: (أنه بمعنىٰ ارتفع). ونقل في تفسير: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ﴾ في مواضع كثيرة: (أنه علا وارتفع) .

قال أبو سعيد الدينوري مستملي محمد بن جرير: قرىء على أبي جعفر محمد بن جرير الطبري وأنا أسمع في عقيدته فقال: (وحسب امرىء أن يعلم أن ربه هو الذي على العرش استوىٰ ، فمن تجاوز ذلك فقد خاب وخسر) رواه اللالكائي وسنده صحيح .

قال الخطيب: (كان ابن جرير أحد العلماء ، يحكم بقوله ، ويرجع إلى رأيه ، وكان قد جمع من العلوم مالم يشاركه فيه أحد من أهل عصره ، وكان عارفاً

(1) قال الطبري: (قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ ﴾ أي وإني لأظن موسىٰ كاذباً فيما يقول ويدعي من أن له في السماء رباً أرسله إلينا). والطبري هو محمد بن جرير شيخ المفسرين (224-310 هـ) .

بالقرآن ، بصيراً بالمعاني ، فقيهاً في الأحكام ، عالماً بالسنن وطرقها ، صحيحها وسقيمها ، ناسخها ومنسوخها ، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين في الأحكام ، في الحلال والحرام - إلى أن قال : سمعت علي بن عبيد الله اللغوي يحكي أن محمد بن جرير مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة .

وقال الأستاذ أبو حامد الإسفراييني : لو سافر رجل إلى الصين حتىٰ يحصل له تفسير ابن جرير لم يكن كثيراً - أو كما قال - .

وقال إمام الأئمة ابن خزيمة : (ما أعلم على أديم الأرض أحداً أعلم من محمد بن جرير) .

ذكر ذلك الذهبي[1] وقال : (توفي سنة عشر وثلاثمائة وله نحو من تسعين سنة رحمه الله) .

وأما **السنة الصحيحة** فقد تواترت فيها الأحاديث الدالة أن الله في السماء ، أي على السماء ، وله الملك والجبروت والكبرياء ، وأنه جل ذكره على عرشه ، بائن من خلقه ، ليس في ذاته شيء من مخلوقاته ، وليس في مخلوقاته شيء من ذاته ، وهو سبحانه غير محتاج إلى العرش ولا إلى الكرسي ولا إلى الجلوس عليه ، وإنما وصف العرش في القرآن لأنه أعظم مخلوقاته ، وتفصيل ذلك في أحاديث[2] :

الحديث الأول :

أخرج مسلم وأبو داود والنسائي عن معاويةَ بن الحَكَم السلمي قال : [كانت لي غنم بين أحد والجَوَّانِيَّة فيها جارية لي ، فاطَّلَعْتُها ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب منها بشاة - وأنا رجل من بني آدم - فأَسِفْتُ ، فَصَكَكْتُها ، فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له ، فعظَّمَ ذلك علي ، فقلت : يا رسول الله أفلا أُعْتِقُها؟ قال : ادعها ، فدعوتها ، فقال لها : أين الله؟ قالت في السماء[3] ، قال : من أنا؟ قالت : أنت رسول الله ﷺ ، قال : أَعْتِقْهَا فإنها مؤمنة] .

---

(1) مختصر العلو . ص 223-225 .

(2) معظم هذه الأحاديث ذكرها الذهبي في مختصر العلو .

(3) قال الذهبي : (وهكذا رأينا كل من يسأل : أين الله؟ يبادر بفطرته ويقول : في السماء) مختصر العلو . 81 .

قلت: وفي الحديث مشروعية قول المسلم أين الله وصحة هذا السؤال من جهة، ومن جهة أخرىٰ قول المسؤول الله في السماء، فصفة العلو صفة كمال وجمال.

الحديث الثاني:

أخرج مسلم عن جابر بن عبد الله: [أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يوم عرفة: ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم. وفي لفظ: (وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بَلَّغْتَ وأدَّيت ونصحت) ـ فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكتها إليهم ـ ويقول: اللهم اشهد. وفي رواية: (فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء ويَنْكتُها إلى الناس، اللهم اشهد، اللهم اشهد ثلاث مرات].

فقوله: (فقال بإصبعه) أي أشار. قال الألباني رحمه الله: (وفيه دلالة صريحة على أن الله فوق مخلوقاته وأنه يجوز الإشارة إليه تعالى بالإصبع، وأنه ليس في ذلك شيء من التجسيم أو التحديد، كيف وقد أشار إليه بإصبعه أعرف الخلق بربه تبارك وتعالى)[1].

الحديث الثالث:

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: [الملائكة يتعاقبون فيكم، ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم، وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون][2].

الحديث الرابع:

أخرج الشيخان وأحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [ينزل ربنا تبارك وتعالى كلَّ ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقىٰ ثلثُ الليل الآخرُ، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطِيه؟ من يستغفرني فأغفرَ له].

وفي رواية لمسلم: (ثم يبْسط يديه يقول: مَنْ يُقرض غيرَ عديم ولا ظلوم).

---

(1) مختصر مسلم ص188.

(2) وفي رواية: [يتعاقبون فيكم ملائكة...] صحيح الجامع (7875).

وفي رواية أخرى: (فلا يزال كذلك حتىٰ يضيءَ الفجر).

وفي لفظ لأحمد: (حتىٰ يطلع الفجر).

وفي لفظ لعبد الله بن الإمام أحمد من حديث عبيد بن عمير قال: (حتى إذا كان الفجر صعد الرب عز وجل).

قلت: غير عديم أي غير فقير، ويبسط يديه سبحانه كما يليق بجلاله، وانظر تفصيل الروايات في صحيح الجامع[1].

الحديث الخامس:

أخرج أبو داود والترمذي بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: [الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء][2].

وله شاهد أخرجه الطبراني[3] من حديث جرير أنه سمع النبي ﷺ يقول: من لم يرحم من في الأرض، لم يرحمه من في السماء] ورواته ثقات كما قال الألباني.

قلت: وهذا من الأدلة التي يفهم بها قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فإن في بمعنىٰ علىٰ، كما بقوله عليه الصلاة والسلام: «ارحم من في الأرض»، «ارحموا من في الأرض» والمراد من على الأرض.

قال العلامة الفقيه أبو بكر الضبعي: (قد تضع العرب «في» موضع «على» قال الله تعالىٰ: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وقال: «ولأصلبنكم في جذوع النخل» ومعناه على

---

(1) صحيح الجامع (8021 ـ 8024)، وانظر مختصر العلو.

(2) انظر السلسلة الصحيحة(922).

(3) هو محدث الدنيا، الحافظ الكبير أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي نزيل أصبهان، قال الذهبي: (انتهىٰ إلى الطبراني علو الإسناد في الدنيا، وعاش مائة سنة وأياماً، وعمل المعاجم الثلاثة وصنف كتباً كثيرة تدل علىٰ حفظه وبراعته وسعة روايته).
قال: (ومعجمه الكبير ستين ألف حديث). قال الألباني: (وعليه فهو أغزر مادة من مسند أحمد، لكن هذا أنقى، وأصفىٰ منه حديثاً) مختصر العلو 246.

الأرض وعلى النخل ، فكذلك قوله : «من في السماء» أي من على العرش ، كما صحت الأخبار عن رسول الله ﷺ»)[1] .

الحديث السادس :

أخرج البخاري عن أنس : أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول : [زوجكن أهاليكن ، وزوجني الله من فوق سبع سماوات] .

وفي لفظ : [إن الله أنكحني في السماء] .

وفي رواية : [زوجنيك الرحمن من فوق عرشه][2] .

الحديث السابع :

أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : [والذي نفسي بيده ، مامن رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبىٰ عليه إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتىٰ يرضىٰ عنها زوجها][3] .

الحديث الثامن :

أخرج الشيخان عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : [ألا تأمنوني وأنا أمين مَنْ في السماء؟ يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً][4] .

الحديث التاسع :

أخرج الإمام أحمد والحاكم على شرط الشيخين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [إن الميت يحضره الملائكة ، فإذا كان الرجل الصالح قالوا : اخرجي أيتها النفس الطيبة ، كانت في الجسد الطيب ، أبشري بروح وريحان ، ورب غير غضبان ، فلا يزال يقال لها ذلك حتىٰ تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح

---

(1) رواه الحاكم وساقه الذهبي وقال : (كان هذا الضبعي عديم النظير في الفقه ، بصيراً بالحديث ، كبير الشأن ، توفي سنة اثنين وأربعين وثلاثمائة ، أكثر عنه الحاكم) مختصر العلو 246 .

(2) البخاري في «التوحيد» والترمذي (210/2) وأحمد (226/3) في روايات تجمع الألفاظ السابقة .

(3) وفي لفظ (حتىٰ يرضىٰ عنها) صحيح الجامع 6957 .

(4) جزء من حديث طويل ، انظر مختصر مسلم 514 ص 140 .

لها ، فيقال ن هذا؟ فيقال : فلان ، فيقال : مرحباً بالنفس الطيبة ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله تعالى][1] .

الحديث العاشر :

أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند جيد ، حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [كان ملك الموت يأتي الناس عياناً ، فأتىٰ موسىٰ عليه السلام فلطمه ، فذهب بعينه ، فعرج إلى ربه عز وجل فقال : يا رب بعثتني إلى موسىٰ فلطمني فذهب بعيني ، ولولا كرامته عليك لشققت عليه . قال : ارجع إلى عبدي فقل له : فليضع يده على ثور ، فله بكل شعرة وارت كفه سنة يعيشها ، فأتاه ، فبلغه ما أمره ، فقال : ثم ماذا بعد ذلك؟ قال : الموت ، قال : الآن . فشمه شمة قبض فيها روحه ، ورد الله على ملك الموت بصره] .

وفي لفظ : [فلطم عينه ففقأها ، فرجع فقال : أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت ، فرد الله عليه عينه ، وقال : ارجع إلى عبدي فقل له : (إن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور) ـ وفيه ـ (قال : يا رب فالآن ، وقال : رب أدنني من الأرض المقدسة رمية بحجر ـ قال رسول الله ﷺ : لو كنت ثمَّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر)][2] .

الحديث الحادي عشر :

أخرج البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ، ولا يصعد إلى الله إلا طيب ، فإنها يتقبلها بيمينه ، ويربيها لصاحبها ، حتىٰ تكون مثل الجبل][3] .

الحديث الثاني عشر :

أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسىٰ الأشعري ، قال رسول الله ﷺ :

[إن الله لا ينام ، ولا ينبغي أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل

---

(1) تخريج الترغيب (4/188-189) للألباني .

(2) قال ابن القيم : حديث صحيح ، أصله وشاهده في الصحيحين ، وانظر مختصر العلو ص 86 .

(3) ورواه مسلم وأحمد . صحيح الجامع (6028) .

الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور[1] (أو النار) ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره].

الحديث الثالث عشر:

أخرج الحاكم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [اتقوا دعوة المظلوم ، فإنها تصعد إلى الله كأنها شرارة][2].

الحديث الرابع عشر:

أخرج البيهقي بسند حسن عن سعد بن أبي وقاص ، أن النبي ﷺ قال لسعد بن معاذ: [لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سماوات] وأخرجه النسائي وأصله في الصحيحين[3].

الحديث الخامس عشر:

أخرج الإمام أحمد بسند جيد حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [. . . فنأتي باب الجنة فآخذ بحلقة الباب فأقرع الباب فيقال من أنت فأقول أنا محمد ، فيفتح لي فآتي ربي عز وجل على كرسيه أو سريره فأخر له ساجداً فأحمده بمحامد لم يحمده بها أحد كان قبلي . . . .] حديث الشفاعة[4].

وبنحوه في الصحيح للبخاري من حديث أنس ، وفي غير الصحيح بلفظ: (فأدخل على ربي وهو على عرشه تبارك وتعالى).

الحديث السادس عشر:

حديث المعراج ـ في الصحيحين وغيرهما ـ عن أنس وفيه: [ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل].

---

(1) قال الألباني: (هذا الحجاب هو الذي يحجب الأبصار كلها أن تراه سبحانه وتعالى في الدنيا ، وهو الذي أشار إليه النبي ﷺ بقوله حين سئل: هل رأيت ربك؟ نور ، أنىٰ أراه) مختصر العلو. ص 86.

(2) وانظر السلسلة الصحيحة 869.

(3) من حديث أبي سعيد ، انظر مختصر العلو ص 87.

(4) المسند (1/281-282) ومختصر العلو ص 88.

وفي لفظ: [فلما فُتِح علونا السماء الدنيا].

وفي لفظ مسلم من حديث عبد الله: [لما أسري برسول الله ﷺ انتهي به إلى سدرة المنتهىٰ، وهي في السماء السادسة].

قال الذهبي رحمه الله: (فلو كان معراجه مناماً، ورقية إلى عند سدرة المنتهىٰ في عالم السنة وغلبة الفكر، كوقائع العارفين، لما كان للمصطفىٰ صلوات الله عليه في ذلك كبير مزية على كثير من صالحي أمته، ولما قرر الحق معراجه ونوه بذكره بأنه يقظة عياناً بقوله تعالىٰ: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ قال حبر هذه الأمة ابن عباس: هي رؤيا عين رآها رسول الله ﷺ).

الحديث السابع عشر:

يروي الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن لله ملائكة سياحين في الأرض فضلاً عن كتاب الناس، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تعالىٰ تنادوا: تعالوا هلموا إلى بغيتكم، فيحفون بهم، فإذا تفرقوا، صعدوا إلى السماء، فيقول الله تعالىٰ: أي شيء تركتم عبادي يصنعون؟ فيقولون: تركناهم يحمدونك ويمجدونك ويذكرونك...] الحديث.

وفي رواية لمسلم: [إن لله تبارك وتعالى ملائكة سيّارة...][1].

الحديث الثامن عشر:

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: [يا أبا المنذر، أي آية في كتاب الله أعظم؟ - قلت: الله ورسوله أعلم، فرددها مراراً ثم قال أبي: الله لا إله إلا هو الحي القيوم - فضرب صدري وقال: ليهنك العلم أبا المنذر، والذي نفسي بيده أن لهذه الآية لساناً وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش][2].

الحديث التاسع عشر:

أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(1) مختصر مسلم (1890).

(2) وله شاهد في صحيح مسلم (199/2) دون الشطر الأخير الذي هو في المسند (141/5-142).

[لما خلق الله الخلق كتب في كتاب كتبه على نفسه فهو مرفوع فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي] وله شاهد في الصحيحين(1).

وفي رواية: (فهو عنده فوق العرش).

الحديث العشرون:

أخرج الحاكم حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [ما طرف(2) صاحب الصور مذ وكل به مستعداً ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه، كأن عينيه كوكبان دريان].

الحديث الحادي والعشرون:

حديث أبي هريرة قال: [إذا أحب الله عبداً نادىٰ جبرائيل فقال: إني أحب عبدي فأحبوه، فينوه بها جبرائيل في حملة العرش، فتسمع أهل السماء لغط حملة العرش، فيحبه أهل السماء السابعة، ثم سماء سماء حتىٰ ينزل إلى السماء الدنيا، ثم يهبط إلى الأرض فيحبه أهل الأرض] قال الألباني: موقوف حسن الإسناد(3).

الحديث الثاني والعشرون:

أخرج البخاري عن أبي ذر قال: قال النبي ﷺ: [أتدري أين تغرب هذه الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب حتىٰ تسجد تحت العرش عند ربها وتستأذن...](4).

الحديث الثالث والعشرون:

أخرج الإمام مسلم عن أنس قال: [أصابنا ونحن مع رسول الله ﷺ مطر، قال: فَحَسَرَ(5) رسول الله ﷺ ثوبه حتىٰ أصابه من المطر، فقلنا: يا رسول الله لم صنعت هذا؟ قال: لأنه حديث عهد بربه].

---

(1) انظر الصحيحة 1629، وتخريج السنة 810-811.

(2) ما غفل لحظة ترقباً لأمر الله. والحديث صححه الألباني في مختصر العلو (23/ ص93).

(3) مختصر العلو ص 92.

(4) وله شاهد في صحيح مسلم، مختصر مسلم 2138.

(5) أي كشف ثوبه.

ورواه الحافظ أبو القاسم البغوي بلفظ : [عن أنس : أن رسول الله ﷺ كان إذا أمطرت السماء حسر عن منكبيه حتىٰ يصيبه المطر ، ويقول : إنه حديث عهد بربه][1] .

الحديث الرابع والعشرون :

أخرج الترمذي وصححه الألباني حديث عبد الله بن السائب ، وفيه قول النبي ﷺ : [إنها ساعة تفتح فيها أبواب السماء فأحب أن يصعد لي فيها عمل صالح][2] .

الحديث الخامس والعشرون :

أخرج الإمام أحمد وغيره بسندين صحيحين عن ابن عباس مرفوعاً : [يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة ورأسه بيده وأوداجه تشخب يقول : يا رب قتلني ، حتىٰ يدنيه من العرش][3] .

وفي لفظ : [يؤتىٰ بالمقتول متعلقاً بالقاتل وأوداجه تشخب دماً حتىٰ ينتهي به إلى العرش يقول : يا رب سل هذا فيم قتلني] .

الحديث السادس والعشرون :

حديث عبد الله بن عمرو قال : [جعل الله فوق السماء السابعة الماء ، وجعل فوق الماء العرش ، والذي نفسي بيده إن الشمس والقمر ليعلمان أنهما سيصيران إلى النار يوم القيامة][4] .

الحديث السابع والعشرون :

أخرج أبو داود بسند صحيح عن سلمان الفارسي قال : قال رسول الله ﷺ : [إن ربكم حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه يدعوه أن يردهما صفراً ليس فيهما شيء][5] .

---

(1) وانظر مسند أحمد (276,133/3) .
(2) مختصر العلو ص 96.
(3) وانظر تخريج الألباني للمشكاة (3465) .
(4) حديث موقوف إسناده صحيح . مختصر العلو 35/ ص 97.
(5) صحيح أبي داود 133 . تحقيق الألباني .

الحديث الثامن والعشرون:

روى أبو بكر الخلال في كتاب السنة حديث قتادة بن النعمان أنه سمع النبي ﷺ يقول: [لما فرغ الله من خلقه استوى على عرشه].

قال ابن القيم في (الجيوش الإسلامية): إسناده صحيح على شرط البخاري[1].

الحديث التاسع والعشرون:

أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: [بلغ أبا ذر مبعث النبي ﷺ فقال لأخيه: اعلم لي هذا الرجل الذي يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء].

ذكره في (باب قوله: إليه يصعد الكلم الطيب).

الحديث الثلاثون:

أخرج اللالكائي[2] في السنة بإسناد صالح عن ثابت البناني قال: [كان داود عليه السلام يطيل الصلاة ثم يركع ثم يرفع رأسه إلى السماء ثم يقول: إليك رفعت رأسي يا عامر السماء، نظر العبيد إلى أربابها يا ساكن السماء].

الحديث الحادي والثلاثون:

أخرج أبو الشيخ بسند قوي ـ كما ذكر الألباني ـ عن حسان بن عطية قال: [حملة العرش ثمانية يتجاوبون بصوت حسن رخيم، فيقول أربعة منهم: سبحانك وبحمدك على حلمك بعد علمك. ويقول أربعة: سبحانك وبحمدك على عفوك بعد قدرتك][3].

---

(1) مختصر العلو. ص 98. تحقيق الألباني.

(2) هو الإمام الحافظ هبة الله بن الحسن الطبري الشافعي الملقب بأبي القاسم اللالكائي صاحب مصنف كتاب «شرح اعتقاد أهل السنة» قال فيه: (قال الله عز وجل: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ وقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ وقال: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ فدلت هذه الآيات أنه في السماء، وعلمه بكل مكان، روي ذلك عن عمر وابن مسعود وابن عباس وأم سلمة، ومن التابعين: ربيعة وسليمان التيمي ومقاتل بن حيان. وبه قال مالك والثوري وأحمد) مختصر العلو. قال الذهبي: (كان اللالكائي من أوعية العلم ومن كبار الشافعية) مات 418 هـ.

(3) مختصر العلو ص (101).

الحديث الثاني والثلاثون:

أخرج البخاري وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

[من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي ولد فيها. قالوا: يا رسول الله: أفلا نبشر الناس بذلك؟ قال: إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، إذا سألتم الله عز وجل فاسألوه الفردوس، فإنه في وسط الجنة وأعلا الجنة وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة].

وذكر[1] من حديث عمران قال: [إني عند النبي ﷺ وجاءه قوم من بني تميم فقال: اقبلوا البشرى يا بني تميم. قالوا: بشرتنا فأعطنا. فدخل ناس من أهل اليمن. قال: اقبلوا البشرىٰ يا أهل اليمن. قالوا: قد بشرتنا فاقض لنا على هذا الأمر كيف كان؟ فقال: (كان الله على العرش، وكان قبل كل شيء، وكتب في اللوح كل شيء)].

وفي لفظ: [كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وخلق السماوات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء][2].

الحديث الثالث والثلاثون:

أخرج ابن خزيمة في التوحيد وعبد الله بن أحمد في السنة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: [الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر أحد قدره][3].

الحديث الرابع والثلاثون:

أخرج الدارمي بإسناد صحيح عن قيس قال: [لما قدم عمر رضي الله عنه الشام استقبله الناس وهو على بعيره، فقالوا: يا أمير المؤمنين لو ركبت برذوناً يلقاك عظماء الناس ووجوههم، فقال عمر رضي الله عنه: ألا أريكم ههنا، إنما الأمر من

---

(1) أي البخاري.

(2) مختصر العلو ص (102).

(3) صحيح موقوف رجاله كلهم ثقات. مختصر العلو (45/ ص102) ـ تحقيق الألباني.

ههنا ، فأشار بيده إلى السماء]. قال الذهبي: إسناده كالشمس. وقال الألباني: وهو إسناد صحيح على شرط الشيخين. (مختصر العلو ص 103).

الحديث الخامس والثلاثون:

أخرج الدارمي وكذلك سمويه في الفوائد بإسناد صحيح واللفظ له ـ عن عبد الرحمن بن غنم قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: [ويل لديان الأرض من ديان السماء يوم يلقونه، إلا من أمر بالعدل، فقضىٰ بالحق، ولم يقض على هوىٰ، ولا على قرابة، ولا على رغبة ولا رهب، وجعل كتاب الله مرآة بين عينيه]. قال ابن غنم: (فحدثت بهذا عثمان ومعاوية ويزيد وعبد الملك)[1].

الحديث السادس والثلاثون:

أخرج الدارمي واللالكائي بسند صحيح على شرط مسلم حديث مجاهد قال: (قال عبد الله بن عمر: خلق الله أربعة أشياء بيده: العرش، والقلم، وآدم، وجنة عدن، ثم قال لسائر الخلق: كن، فكان)[2].

الحديث السابع والثلاثون:

أخرج أحمد بسند جيد عن أبي ذر الغفاري قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الآيتين من آخر سورة البقرة أوتيتهن من تحت العرش لم يؤتهما نبي قبلي].

وله شاهد عنده من حديث عقبة بن عامر بلفظ: [من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة . . . فإن الله أعطانيهما من تحت العرش] وسنده جيد كالذي قبله[3].

الحديث الثامن والثلاثون:

أخرج أحمد والترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة مرفوعاً: [من أنظر معسراً، أو وضع عنه أظله الله تحت عرشه يوم لا ظل إلا ظله] «تخريج الترغيب 37/2».

---

(1) قال الألباني: وأخرجه الدارمي ص 104 مختصراً وإسنادهما صحيح. مختصر العلو ص 103.

(2) قال الألباني: وأخرجه الدارمي ص90,35 ، وأبو الشيخ في «العظمة» (2/209,2/35) واللالكائي (1/97/1) بسند صحيح على شرط مسلم، مختصر العلو (105).

(3) السلسلة الصحيحة (1482).

وله شاهد في المسند من حديث أبي قتادة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: [من ترك لغريمه أو تجاوز عنه كان في ظل العرش يوم القيامة][1].

الحديث التاسع والثلاثون:

أخرج أبو يعلىٰ في مسنده والبيهقي في الأسماء، عن علي رضي الله عنه قال: [أول من يكسىٰ إبراهيم قبطيتين، ثم يكسىٰ النبي ﷺ حلة حبرة وهو عن يمين العرش][2].

الحديث الأربعون:

وفي الأثر عن زيد بن أسلم قال: (مرّ ابن عمر براعٍ فقال: هل من جزرة؟ فقال: ليس هاهنا ربها، قال ابن عمر: تقول له: أكلها الذّئب. قال: فرفع رأسه إلى السماء وقال: فأين الله؟ فقال ابن عمر: أنا والله أحق أن أقول: أين الله؟ واشترىٰ الراعي والغنم، فأعتقه، وأعطاه الغنم).

قال الألباني: وهذا إسناد جيّد. «مختصر العلو 127/95».

وأما ما اتصل بنا عن التابعين في مسألة العلو فكثير جداً، فإلى ذكر بعض ما ورد في ذلك بالأسانيد الصحيحة:

1 ـ روى أبو الشيخ بسند صحيح عن كعب الأحبار قال: (قال الله عز وجل في التوراة: أنا الله فوق عبادي، وعرشي فوق جميع خلقي، وأنا على عرشي، أدبر أمور عبادي، لا يخفىٰ علي شيء في السماء ولا في الأرض) وصححه الألباني «مختصر العلو ص128».

2 ـ ذكر الذهبي في العلو عن مسروق أنه كان إذا حدث عن عائشة قال: (حدثتني الصديقة بنت الصديق، حبيبة حبيب الله، المبرأة من فوق سبع سماوات) وصححه ابن القيم.

---

(1) قال الألباني: إسناده صحيح. مختصر العلو (125).

(2) وأخرجه أبو يعلىٰ مرفوعاً والبيهقي نحوه وله شاهد في المسند (398/1) كما في مختصر العلو ص 125.

3 ـ أخرج عبد الله بن الإمام أحمد حديث عبيد بن عمير قال: (ينزل الرب عز وجل شطر الليل إلى السماء الدنيا فيقول: من يسألني فأعطه؟ من يستغفرني فأغفر له؟ حتىٰ إذا كان الفجر صعد الرب عز وجل) «مختصر العلو 99/128-129».

4 ـ أخرج أبو الشيخ في «العظمة» وصححه ابن القيم حديث شريح بـن عبيد أنـه كان يقول: (ارتفع إليك ثغاء التسبيح، وصعد إليك وقار التقديس، سبحانك ذا الجبـروت، بيـدك الملـك والملكـوت، والمفاتيـح والمقادير) مختصر العلو ص 129.

5 ـ حديث أبي قلابة قال: (لما أهبط الله تعالى آدم قال: «يا آدم إني مهبط معك بيتاً يطاف حوله كما يطاف حول عرشي، ويصلى عنده كما يصلى عند عرشي». فلم يزل كذلك حتىٰ كان الطوفان رفع، فكانت الأنبياء تحجه، يأتونه فلا يعرفون موضعه، حتىٰ بوأه الله تعالى لإبراهيم عليه السلام). قال الذهبي: (وهو ثابت عن أبي قلابة، وأين مثل أبي قلابة في الفضل والجلالة؟ هرب من تولية القضاء من العراق إلى الشام) مختصر العلو 129.

6 ـ أخرج عُثمان الدارمي بسند على شرط مسلم حديث عائشة أن ابن عباس دخل عليها وهي تموت فقال لها: (كنت أحب نساء رسول الله ﷺ ولم يكن يحب إلا طيباً، وأنزل الله براءتك من فوق سبع سماوات) وصححه الألباني في مختصر العلو ص 130.

7 ـ أخرج عثمان الدارمي بسند حسن حديث قتادة قال: (قالت بنو إسرائيل: يا رب أنت في السماء، ونحن في الأرض، فكيف لنا أن نعرف رضاك من غضبك؟ قال: إذا رضيت عنكم استعملت عليكم خياركم، وإذا غضبت استعملت عليكم شراركم).

قال الذهبي: (هذا ثابت عن قتادة أحد الحفاظ الكبار). وقال الألباني: (وسنده حسن) مختصر العلو ص 131.

8 ـ أخرج البيهقي في كتاب «الأسماء والصفات» بسند صحيح حديث مجاهد: (﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ قال: بين السماء السابعة وبين العرش سبعون ألف حجاب، فما زال

يقرب موسىٰ حتىٰ كان بينه وبينه حجاب ، فلما رأىٰ مكانه وسمع صريف القلم قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ ﴾) .

قال الذهبي : هذا ثابت عن مجاهد إمام التفسير ، وأقره الألباني في مختصر العلو ص 132 .

9 ـ وذكر الذهبي بإسناد متصل إلى سفيان الثوري قال : (كنت عند ربيعة بن أبي عبد الرحمن فسأله رجل فقال : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ كيف استوىٰ؟ فقال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة) .

وفي لفظ عند اللالكائي عن ابن عيينة قال : (سئل ربيعة كيف استوىٰ؟ فقال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ وعلينا التصديق) . مختصر العلو ص 132 .

10 ـ أخرج اللالكائي وغيره حديث مقاتل بن حيان عن الضحاك في قوله تعالىٰ : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ ﴾ قال : (هو على عرشه وعلمه معهم) . وفي لفظ : (هو فوق العرش وعلمه معهم) . وفي لفظ : (هو فوق العرش وعلمه معهم أين ما كانوا) ورواه ابن عبد البر بسند جيد . مختصر العلو ص133 .

11 ـ أخرج اللالكائي عن صدقة قال : سمعت سليمان[1] التيمي يقول : (لو سئلت أين الله؟ لقلت في السماء) ورجاله ثقات . مختصر العلو ص 133 .

12 ـ أخرج الدارمي[2] عن عبد الرحمن بن محمد بن حبيب بن أبي حبيب عن أبيه عن جده قال : (شهدت خالد بن عبد الله القسري ـ وخطبهم بواسط ـ فقال : يا أيها الناس ، ضحّوا تقبل الله منكم ، فإني مضح بالجعد بن درهم ، فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسىٰ تكليماً ، سبحانه وتعالى عما يقول الجعد علواً كبيراً ، ثم نزل فذبحه) .

---

(1) من أئمة البصرة علماً وعملاً .

(2) هو عثمان بن سعيد الدارمي مؤلف «الرد على المريسي» و«الرد على الجهمية» وهو غير عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي صاحب «السنن» المعروف بـ«مسند الدارمي» وغير أحمد بن سعيد الدارمي ، الحافظ من شيوخ الشيخين .

وفي رواية عند ابـن أبي حاتم الرازي عن السري بـن يحيىٰ قال: (خطبنا خالد القسري وقال: انصرفوا إلى ضحاياكم تقبل الله منكم ، فإني مضح بالجعد ، وذكر القصة) وإسنادها جيد يُقوي التي قبلها. «مختصر العلو ص 133».

قال الذهبي: (والجهمية والمعتزلة تقول بهذا ، وتحرف نص التنزيل في ذلك ، وزعموا أن الرب منزه عن ذلك).

13 ـ وفي الأثر عن أبي مطيع الحكم بن عبد الله البلخي صاحب «الفقه الأكبر» قال: (سألت أبا حنيفة عمن يقول: لا أعرف ربي في السماء أو في الأرض. فقال: قد كفر ، لأن الله تعالىٰ يقول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ وعرشه فوق سماواته. فقلت: إنه يقول: أقول على العرش استوىٰ ، ولكن قال لا يدري العرش في السماء أو في الأرض. قال: إذا أنكر أنه في السماء فقد كفر) مختصر العلو بسند صحيح (136/118).

قال الذهبي: (وسمعت القاضي الإمام تاج الدين عبد الخالق بن علوان قال: سمعت الإمام أبا محمد عبد الله بن أحمد المقدسي مؤلف «المقنع» رحم الله ثراه ، وجعل الجنة مثواه ، يقول: بلغني عن أبي حنيفة رحمه الله أنه قال: (من أنكر أن الله عز وجل في السماء فقد كفر).

14 ـ وأخرج عبد الله بن الإمام أحمد عن معدان ـ الذي يقول فيه ابن المبارك: هو أحد الأبدال ـ قال: (سألت سفيان الثوري[1] عن قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ قال: علمه).

قال شعيب بن حرب: (قلت لسفيان: حدثني بشيء من السنة فقال: القرآن كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، من قال غير هذا فهو كافر ، والإيمان قول وعمل ، ويزيد وينقص) مختصر العلو (128/139-140).

والمراد بقولـه (منه بدأ) أي هو المتكلم بـه وهـو الذي أنزله من لدنـه (وإليه يعود) بأن يسرىٰ بـه فـي آخر الزمان من المصاحـف والصـدور ، فلا يبقىٰ فـي

---

(1) هو عالم زمانه (97-161) هـ.

الصدور منه كلمة ولا في المصاحف منه حرف ، كما ذكر شيخ الإسلام في العقيدة الواسطية.

15 ـ أخرج عبد الله بن أحمد في «السنة» وأبو داود في المسائل بسند صحيح قال: حدثني أبي ـ يعني الإمام أحمد ـ عن عبد الله بن نافع قال: قال مالك بن أنس[1]: (الله في السماء ، وعلمه في كل مكان ، لا يخلو منه شيء) وصححه الألباني «مختصر العلو 140/130».

قال إسحاق بن عيسىٰ الطباع: قال مالك: (كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما نزل به جبرائيل على محمد ﷺ لجدله) رواه ابن عبد البر في الجامع وسنده صحيح.

وذكر البيهقي عن ابن وهب قال: (كنت عند مالك فدخل رجل فقال: يا أبا عبد الله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ كيف استوىٰ؟ فأطرق مالك وأخذته الرحضاء ، ثم رفع رأسه فقال: الرحمن على العرش استوىٰ كما وصف نفسه ، ولا يقال كيف ، وكيف عنه مرفوع ، وأنت صاحب بدعة ، أخرجوه) ويتقوىٰ بالذي بعده ـ كما ذكر الألباني ـ «مختصر العلو 141/131».

وأخرج عثمان الدارمي نحوه عن يحيىٰ بن يحيىٰ التيمي وجعفر بن عبد الله وطائفة قالوا: (جاء رجل إلى مالك فقال: يا أبا عبد الله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ كيف استوىٰ؟ قال: فما رأيت مالكاً وجد[2] من شيء كموجدته من مقالته ، وعلاه الرحضاء ـ يعني العرق ـ وأطرق القوم ، فسرِّي[3] عن مالك وقال: الكيف غير معقول ، والاستواء منه غير مجهول[4] ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وإني أخاف أن تكون ضالاً ، وأمر به فأخرج).

قال الذهبي: (هذا ثابت عن مالك ، وتقدم نحوه عن ربيعة شيخ مالك ، وهو قول أهل السنة قاطبة: أن كيفية الاستواء لا نعقلها ، بل نجهلها ، وأن استواءه

---

(1) إمام دار الهجرة (93-179 هـ).
(2) أي تغيظ وحنق.
(3) انكشف عنه الهم.
(4) أي في اللغة ، بل هو من التأويل الذي يعلمه الراسخون في العلم ، وأما الكيفية فمن التأويل الذي لا يعلمه إلا الله كسائر صفاته سبحانه.

معلوم كما أخبر في كتابه ، وأنه كما يليق به ، لا نتعمق ولا نتحذلق ، ولا نخوض في لوازم ذلك نفياً ولا إثباتاً ، بل نسكت ونقف كما وقف السلف ، ونعلم أنه لو كان له تأويل لبادر إلى بيانه الصحابة ، والتابعون ، ولما وسعهم إقراره وإمراره والسكوت عنه ، ونعلم يقيناً مع ذلك أن الله جل جلاله لا مثل له في صفاته ، ولا في استوائه ، ولا في نزوله ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً).

ثم قال: (نعم ، وقال الفقيه أبو ثور الكلبي: سمعت الشافعي يقول: (كان مالك إذا جاءه بعض أهل الأهواء قال: أما إني على بينة من ديني ، وأما أنت فشاك ، فاذهب إلى شاك مثلك فخاصمه) «مختصر العلو 142/133».

16 ـ وروى عَبد الله بن الإمام أحمد عن أبي النعمان عارم قال: قال حماد بن زيد: (القرآن كلام الله أنزله جبرائيل من عند رب العالمين) مختصر العلو «147/142».

ويروي ابن أبي حاتم بسند صحيح عن أحمد بن يونس قال: (أول من قال القرآن مخلوق: رجل ، فاستتابه ابن أبي ليلى[1] كما استتاب النصارىٰ) وصححه الألباني ، مختصر العلو ص 148.

وذكر الذهبي بسند صحيح عن عباد بن العوام قال: (قدم علينا شريك[2] بن عبد الله مذ نحو من خمسين سنة ، فقلنا له: يا أبا عبد الله ، إن عندنا قوماً من المعتزلة ينكرون هذه الأحاديث: (أن الله ينزل إلى السماء الدنيا) و(أن أهل الجنة يرون ربهم) ، فحدثني شريك بنحو من عشرة أحاديث في هذا ثم قال: أما نحن فأخذنا ديننا عن أبناء التابعين عن الصحابة ، فهم عمن أخذوا؟!).

وفي لفظ عند ابن مندة في «التوحيد»: (وما ينكرون؟! إنما جاء بهذه من جاء بالصلاة والسنن عن رسول الله ﷺ) وصححه الألباني في مختصر العلو ص149 .

17 ـ أخرج عثمان الدارمي وعبد الله بن أحمد بسند صحيح عن علي بن

---

(1) قاضي الكوفة وأحد أوعية العلم في القرآن والفقه والحديث ، قال الذهبي: (لكن غيره أثبت في الحديث منه ، وبعضهم يحتج به ، وهو من طبقة الإمام أبي حنيفة). توفي 148 هـ.

(2) شريك القاضي أحد الكبار توفي 178 هـ.

الحسن بن شقيق قال: قلت لعبد الله بن المبارك[1]: كيف نعرف ربنا عز وجل؟ قال: (في السماء السابعة على عرشه، «بائن من خلقه»[2]، ولا نقول كما تقول الجهمية: إنه هاهنا في الأرض).

وفي رواية: (سألت ابن المبارك: كيف ينبغي لنا أن نعرف ربنا عز وجل؟ قال: علىٰ السماء السابعة على عرشه، ولا نقول كما تقول الجهمية: إنه هاهنا في الأرض).

فقيل هـذا لأحمد بـن حنبل، فقال: (هكذا هـو عندنـا) مختصر العلـو للذهبي ص 151.

18 ـ وعن عبد الله بن شيرويه[3]: سمعت إسحاق بن راهويه[4]، أنبأنا بشر بن عمر قال: (سمعت غير واحد من المفسرين يقولون: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ على العرش ارتفع) وصححه الألباني: «مختصر العلو 160/167».

19 ـ أخرج البيهقي بسند جيد عن محمد بن الجهم ـ وهو ابن هارون البصري الثقة ـ قال: حدثنا يحيىٰ بن زياد الفراء[5] قال: (وقد قال ابن عباس في ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾: صعد. وهو كقولك للرجل: كان قاعداً فاستوىٰ قائماً ـ وكان قائماً فاستوىٰ قاعداً ـ وكل في كلام العرب جائز) قال الألباني: إسناده إلى الفراء لابأس به ـ مختصر العلو ص 171.

20 ـ روى شيخ الإسلام أبو الحسن الهكاري، والحافظ أبو محمد المقدسي بإسنادهم إلى أبي ثور وأبي شعيب، كلاهما عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي[6] ناصر الحديث رحمه الله تعالىٰ قال: (القول في السنة التي أنا عليها، ورأيت عليها الذين رأيتهم، مثل سفيان ومالك وغيرهما، الإقرار بشهادة أن لا إله

---

(1) هو شيخ الإسلام (118-181 هـ).

(2) زيادة صحيحة عنه عند إسحاق بن راهويه كما ذكر الألباني.

(3) حافظ ثقة.

(4) ثقة حافظ من أقران الإمام أحمد.

(5) إمام العربية (ت 207 هـ)، وكذلك الخليل بن أحمد إمام العربية توفي بعد 160 هـ يقول بالاستواء: الارتفاع، ويأخذه من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾.

(6) الإمام الشافعي رحمه الله (150-204 هـ).

إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأن الله على عرشه في سمائه ، يقرب من خلقه كيف شاء ، وينزل إلى السماء الدنيا كيف شاء . . . وذكر سائر الاعتقاد) ذكره الذهبي في العلو ثم قال :

قال الحاكم : سمعت الأصم يقول : سمعت الربيع يقول : سمعت الشافعي وقد روىٰ حديثاً فقال له رجل : تأخذ بهذا يا أبا عبد الله؟ فقال : (إذا رويت حديثاً صحيحاً عن رسول الله ﷺ فلم آخذ به فأشهدكم أن عقلي قد ذهب)[1] .

ثم روى عن ابن خزيمة وغيره : سمعت يونس يقول : قال الشافعي : (لا يقال للأصيل لم ولا كيف) ورواه ابن أبي حاتم وقال : (زاد أبي في حديثه عن يونس عن الشافعي : إنما يقال للفرع : لم؟ فإذا صح قياسه على الأصل صح ، وقامت به الحجة) .

وقال أبو ثور وغيره : سمعنا الشافعي يقول : (ما ارتدى أحد بالكلام فأفلح) .

وقال الربيع : سمعت الشافعي يقول : (المراء في الدين يقسي القلب ، ويورث الضغائن) أخرجه ابن أبي حاتم ، وأبو نعيم في الحلية .

وذكر ابن القيم في «الجيوش الإسلامية» من رواية عبد الرحمن بن أبي حاتم عن يونس بن عبد الأعلى : سمعت الشافعي يقول : (لله تعالى أسماء وصفات لا يسع أحداً قامت عليه الحجة ردها . فإن خالف بعد ثبوت الحجة عليه فهو كافر ، فأما قبل ثبوت الحجة عليه فمعذور بالجهل ، لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ، ولا بالرواية والفكر ، ويثبت هذه الصفات وينفي عنها التشبيه كما نفىٰ عن نفسه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾) وذكره الذهبي .

وأخرج ابن أبي حاتم في الآداب وأبو نعيم في الحلية عن الربيع بن سليمان قال : سمعت الشافعي يقول : (من حلف باسم من أسماء الله فحنث فعليه الكفارة ، لأن اسم الله غير مخلوق ، ومن حلف بالكعبة وبالصفا والمروة فليس عليه كفارة لأنها مخلوقة) .

---

(1) قال الألباني : وهذا إسناد صحيح . مختصر العلو ص 176 .

قال الذهبي: (تواتر عن الشافعي ذم الكلام وأهله، وكان شديد الاتباع للآثار في الأصول والفروع. مات في رجب سنة أربع ومائتين بمصر كهلا، عاش أربعاً وخمسين سنة)[1].

21 ـ وهذا القعنبي أكبر شيخ لمسلم مطلقاً كما ذكر الذهبي وقال: (قال بنان بن أحمد: كنا عند القعنبي رحمه الله، فسمع رجلاً من الجهمية يقول: الرحمن على العرش استولىٰ.

فقال القعنبي: من لا يوقن أن الرحمن على العرش استوىٰ كما يقر في قلوب العامة فهو جهمي).

قال الذهبي رحمه الله: (والمراد بالعامة عامة أهل العلم. . . . ولقد كان القعنبي من أئمة الهدىٰ، حتىٰ لقد تغالى فيه بعض الحفاظ وفضله على مالك الإمام. توفي سنة إحدىٰ وعشرين ومائتين عن بضع وثمانين سنة).

قال الألباني رحمه الله: (وبنان بن أحمد لا بأس به) مختصر العلو ص 178.

22 ـ وهذا عاصم بن علي بن عاصم الواسطي قال: (ناظرت جهما فتبين من كلامه أنه لا يؤمن أن في السماء رباً).

قال الذهبي: (كان عاصم حافظاً من أوعية العلم صادقاً، حمل عن شعبة وابن أبي ذئب وخلق، ذكر الخطيب في ترجمته أن المعتصم وجه من يحرز مجلس عاصم هذا في رحبة جامع الرصافة، وكان يجلس على سطح الرحبة ويجلس الخلق في الرحبة وما يليها، فعظم الجمع مرة حتىٰ قال أربع عشرة مرة: «حدثنا الليث بن سعد» والناس لا يسمعون لكثرتهم. وكان المستملي هارون يركب نخلة يستملي عليها، فحزروا الجمع فكان عشرين ومائة ألف.

وقال يحيىٰ بن معين: عاصم بن علي سيد المسلمين). مات مع القعنبي في سنة. مختصر العلو ص179.

قلت: (وعاصم بن علي شيخ البخاري توفي 221 هـ).

---

(1) مختصر العلو ص 177.

23 ـ وهذا شيخ بغداد محمد بن مصعب العابد[1] المتوفىٰ 228 هـ ، كان يقول: (من زعم أنك لا تتكلم ولا تُرىٰ في الآخرة ، فهو كافر بوجهك ، أشهد أنك فوق العرش ، فوق سبع سموات ، ليس كما تقول أعداء الله الزّنادقة) أخرجه عبد الله بن أحمد عن أبي الحسن محمد بن العطار قال: سمعت محمد بن مصعب العابد يقول: فذكره ، قال الألباني: فالإسناد صحيح[2].

24 ـ وهذا بشر الحافي زاهد العصر (151-227 هـ) له عقيدة رواها ابن بطة في كتاب «الإبانة» وغيره كما يذكر الذهبي ، فمما فيها: (والإيمان بأن الله على عرشه استوىٰ كما شاء ، وأنه عالم بكل مكان ، وأنه يقول ويخلق فقوله: «كن» ليس بمخلوق).

ثم ساق الذهبي أثراً عن عباس بن دهقان قال: (قلت لبشر بن الحارث: أحب أن أخلو معك ، قال: إذا شئت ، فبكرت يوماً ، فرأيته قد دخل قبة فصلىٰ أربع ركعات ، فسمعته يقول في سجوده: «اللهم إنك تعلم فوق عرشك أن الذل أحب إلي من الشرف ، اللهم إنك تعلم فوق عرشك أن الفقر أحب إلي من الغنىٰ ، اللهم إنك تعلم فوق عرشك أني لا أوثر على حبك شيئاً» . فلما سمعته أخذني الشهيق والبكاء ، فلما سمعني قال: أنت تعلم أني لو أعلم أن هذا هاهنا لم أتكلم)[3].

25 ـ وهذا قتيبة بن سعيد شيخ خراسان (150-240 هـ) كان يقول: (نعرف ربنا في السماء السابعة على عرشه ، كما قال جل جلاله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾).

ذكره الذهبي في مختصر العلو ثم قال: (فهذا قتيبة في إمامته وصدقه قد نقل الإجماع على المسألة ، وقد لقي مالكاً والليث وحماد بن زيد والكبار ، وعمر دهراً وازدحم الحفاظ على بابه ، قال لرجل: أقم عندنا هذه الشتوة حتىٰ أخرج لك عن خمسة أناسي مائة ألف حديث) مختصر العلو ص 187.

---

(1) كان قارئاً لكتاب الله ، وقد سمع الحديث ، وجالس الناس.
(2) مختصر العلو ص 183.
(3) مختصر العلو ص 185.

26 ـ وهذا إمام الأئمة ابن خزيمة (223-311 هـ) كان يقول ـ كما يروي الحاكم بسند جيد عن محمد بن صالح بن هانىء ـ: (من لم يقر بأن الله على عرشه استوىٰ فوق سبع سمواته ، بائن من خلقه ، فهو كافر يستتاب ، فإن تاب وإلا ضربت عنقه ، وألقي على مزبلة لئلا يتأذىٰ بريحه أهل القبلة وأهل الذمة).

قال الذهبي: (كان ابن خزيمة رأساً في الحديث ، رأساً في الفقه ، من دعاة السنة ، وغلاة المثبتة ، له جلالة عظيمة بخراسان ، أخذ الفقه عن المزني[1] ، وسمع من علي بن حجر وطبقته ، توفي سنة إحدىٰ عشرة وثلاثمائة ، وله بضع وثمانون سنة ، رحمة الله عليه آمين).

قال الألباني: (والظاهر أنه ثقة ـ يعني ابن هانىء ـ فقد صحح ابن تيمية في «الحموية» ص 117 إسناد هذا الأثر) مختصر العلو ص 226.

27 ـ وهذا الإمام أبو جعفر الطحاوي عالم الديار المصرية في وقته (239-321 هـ) كتب في عقيدته: (والعرش والكرسي حق كما بين في كتابه ، وهو مستغن عن العرش وما دونه محيط بكل شيء وفوقه).

والإمام الطحاوي انتهت إليه رياسة أصحاب أبي حنيفة بمصر ، وروىٰ عن أصحاب سفيان بن عيينة وابن وهب ، وله تصانيف شهيرة كثيرة.

قال الإمام السبكي: (جمهور المذاهب الأربعة على الحق يقرون عقيدة الطحاوي التي تلقاها العلماء سلفاً وخلفاً بالقبول) شرح الطحاوية ـ المقدمة ـ.

28 ـ وهذا الإمام الحافظ الزاهد أبو بكر الآجري[2] ـ محمد بن الحسين ـ المجاور بحرم الله ، صنّف في كتابه «الشريعة في السنة» فأحسن التصنيف ، وذكر باباً سماه: «باب التحذير من مذهب الحلولية» قال: (الذي يذهب إليه أهل العلم أن الله تعالى على عرشه فوق سماواته ، وعلمه محيط بكل شيء ، قد أحاط بجميع

---

(1) هو أبو إبراهيم المزني المتوفىٰ 264 هـ. كان فقيه الديار المصرية في زمانه ، وأنبل تلامذة الشافعي ، وكان يقول في وصف الله تعالى: (عال على عرشه ، فهو دان بعلمه من خلقه) مختصر العلو.

(2) (280-360 هـ).

ما خلق في السماوات العلى ، وبجميع مافي سبع أرضين ، يرفع إليه أعمال العباد .
فإن قيل : فإيش معنىٰ قوله : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾؟ قيل : علمه ، والله على عرشه ، وعلمه محيط بها . كذا فسره أهل العلم ، والآية يدل أولها وآخرها على أنه العلم وهو على عرشه ، هذا قول المسلمين . ثم قال : حدثنا ابن مخلد حدثنا أبو داود ، حدثنا أحمد بن حنبل ، حدثنا سريح بن النعمان ، حدثنا عبد الله بن نافع قال : قال مالك : الله في السماء ، وعلمه في كل مكان ، لا يخلو من علمه مكان)[1] .

قال الذهبي : (كان الآجري فقيهاً محدثاً أثريا ، حسن التصانيف ، جاور مدة ، روى عن الكجي وأبي شعيب الحراني وطبقتهما ، وحمل عنه خلق كثير من الحجاج ، توفي سنة ستين وثلاثمائة)[2] .

29 ـ وهذا الحافظ أبو الشيخ (274-369 هـ) محدث أصبهان ـ مع الطبراني ـ أبو محمد ابن حيان يقول في كتابه «العظمة» : (ذكر عرش الرب تبارك وتعالى وكرسيه ، وعظم خلقهما وعلو الرب فوق عرشه) ثم ساق جملة من الأحاديث في ذلك قد مضت .

قال الذهبي : (وكان إماماً في الحديث ، رفيع الإسناد ، سمع أبا بكر بن أبي عاصم وطبقته) .

قال : (وله كتاب «السنة» وكتاب «فضائل الأعمال» و«السنة الكبير» وقع لنا جملة من تصانيفه) مختصر العلو ص 248 .

30 ـ وقال الإمام أبو محمد ابن أبي زيد[3] المغربي شيخ المالكية ـ المتوفىٰ 389 هـ ـ في أول رسالته المشهورة في مذهب مالك الإمام : (وأنه تعالى فوق عرشه المجيد بذاته ، وأنه في كل مكان بعلمه) . ذكره الذهبي وقال : (وقد تقدم مثل هذه العبارة عن أبي جعفر بن أبي شيبة ، وعثمان بن سعيد الدارمي ، وكذلك أطلقها يحيىٰ بن عمار واعظ سجستان في رسالته ، والحافظ أبو نصر الوائلي السجزي في

---

(1) مختصر العلو ص 247 . والشريعة للآجري (ص 285-289) .
(2) مختصر العلو ص 247 .
(3) كان من علماء المغرب العاملين ، لقب بمالك الصغير ، وكان غاية في علم الأصول .

كتاب «الإبانة» له ، فإنه قال : «وأئمتنا كالثوري ومالك والحمادين وابن عيينة وابن المبارك والفضيل وأحمد وإسحاق متفقون على أن الله فوق العرش بذاته ، وأن علمه بكل مكان») مختصر العلو ص 255.

31 ـ وقال الحافظ الكبير أبو نعيم[1] الأصبهاني في كتاب الاعتقاد له : (طريقتنا طريقة السلف المتبعين للكتاب والسنة وإجماع الأمة ، ومما اعتقدوه أن الله لم يزل كاملاً بجميع صفاته القديمة ، لا يزول ولا يحول ، لم يزل عالماً بعلم ، بصيراً ببصر ، سميعاً بسمع ، متكلماً بكلام ، ثم أحدث الأشياء من غير شيء ، وأن القرآن كلام الله ، وكذلك سائر كتبه المنزلة ، كلامه غير مخلوق ، . . . وأن الأحاديث التي ثبتت في العرش ، واستواء الله عليه يقولون بها ، ويثبتونها من غير تكييف ولا تمثيل ، وأن الله بائن من خلقه ، والخلق بائنون منه ، لا يحل فيهم ولا يمتزج بهم ، وهو مستو على عرشه في سمائه من دون أرضه).

ذكره الذهبي وقال : (فَقد نقل هذا الإمام الإجماع على هذا القول ولله الحمد ، وكان حافظ العجم في زمانه بلا نزاع ، جمع بين علو الرواية ، وتحقيق الدراية) مختصر العلو ص 261.

32 ـ وقال الإمام العارف شيخ الصوفية أبو منصور ، معمر بن أحمد بن زياد الأصبهاني[2] رحمه الله : «أحببت أن أوصي أصحابي بوصية من السنة ، وأجمع ما كان عليه أهل الحديث ، وأهل التصوف والمعرفة» فذكر أشياء إلى أن قال فيها : (وأن الله استوى على عرشه بلا كيف ، ولا تشبيه ولا تأويل ، والاستواء معقول ، والكيف مجهول ، وأنه بائن من خلقه ، والخلق بائنون منه ، فلا حلول ، ولا ممازجة ، ولا ملاصقة ، وأنه سميع بصير ، عليم خبير ، يتكلم ويرضىٰ ، ويسخط ، ويعجب ، ويضحك ، ويتجلى لعباده يوم القيامة ضاحكاً ، فمن أنكر النزول أو تأول فهو مبتدع ضال) مختصر العلو ص 262.

33 ـ وقال شيخ الإسلام أبو عثمان الصابوني[3] في رسالته في السنة : (ويعتقد

---

(1) هو أحمد بن عبد الله بن أحمد مصنف «حلية الأولياء» (336-430 هـ).

(2) توفي 418 هـ ، وروى عن أبي القاسم الطبراني وذويه.

(3) هو إسماعيل بن عبد الرحمن النيسابوري الصابوني (372-449) هـ.

أصحاب الحديث ويشهدون أن الله فوق سبع سماواته على عرشه كما نطق به كتابه ، وعلماء الأمة وأعيان الأئمة من السلف لم يختلفوا أن الله على عرشه ، وعرشه فوق سماواته. وإمامنا الشافعي احتج في المبسوط في مسألة إعتاق الرقبة المؤمنة في الكفارة بخبر معاوية بن الحكم ، فسأل رسول الله ﷺ عن إعتاق السوداء الأعجمية فامتحنها ليعرف أهي مؤمنة أم لا ، فقال لها: (أين ربك؟ فأشارت إلى السماء إذ كانت أعجمية فقال: أعتقها فإنها مؤمنة) ، حكم بإيمانها لما أقرت بأن ربها في السماء ، وعرفت ربها بصفة العلو والفوقية).

قال الألباني معقبا: (أصل الحديث صحيح دون قوله «الأعجمية» ، وبلفظ: «قالت في السماء» مكان «فأشارت إلى السماء». هذا هو المحفوظ من طرق في «صحيح مسلم» وغيره ، ولفظ «سوداء أعجمية» في سنده ضعيف ومختلط) مختصر العلو ص 265.

قال الذهبي: (كان شيخ الإسلام الصابوني فقيهاً محدثاً وصوفياً واعظاً ، كان شيخ نيسابور في زمانه ، له تصانيف حسنة ، سمع من أصحاب ابن خزيمة والسراج ، توفي سنة تسع وأربعين وأربعمائة. وقد روى إسماعيل بن عبد الغافر أنه سمع إمام الحرمين يقول: كنت بمكة أتردد في المذاهب فرأيت النبي ﷺ فقال: عليك باعتقاد ابن الصابوني) مختصر العلو ص 265.

34 ـ وقال الإمام العلامة حافظ المغرب أبو عمر ـ ابن عبد البر[1] ـ لما انتهى إلى شرح حديث النزول من الموطأ: (هذا حديث صحيح لم يختلف أهل الحديث في صحته ، وفيه دليل على أن الله تعالى في السماء على العرش فوق سبع سماوات ، كما قال الجماعة ، وهو من حجتهم على المعتزلة). وقال في شرح الموطأ: (أجمع علماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل ، قالوا في تأويل قوله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾: هو على العرش ، وعلمه في كل مكان ، وما خالفهم في ذلك أحد يحتج بقوله).

قال الذهبي: (ولقد كان أبو عمر ابن عبد البر من بحور العلم ، ومن أئمة

---

(1) هو يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري الأندلسي صاحبه «التمهيد» و«الاستذكار» و«الاستيعاب» و«العلم» والتصانيف النفيسة «368-463» هـ.

الأثر ، قل أن ترىٰ العيون مثله ، وكان عالي الإسناد ، لقي أصحاب ابن الأعرابي وإسماعيل الصفار ، وروى المصنفات الكبار ، واشتهر فضله في الأقطار) مختصر العلو ص 269.

35 ـ وقال عالم العراق القاضي أبو يعلى[1] بعد أن ذكر حديث الجارية : (الكلام في هذا الخبر في فصلين : أحدهما : جواز السؤال عن الله تعالى سبحانه بـ (أين هو؟) والثاني : جواز الإخبار عنه بأنه في السماء ، وقد أخبرنا تعالىٰ أنه في السماء فقال : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو على العرش).

قال الذهبي : (وكان آية في معرفة مذهب الإمام أحمد ، صنف التصانيف الفائقة ، . . . وكان عالي الإسناد) مختصر العلو ص 271.

36 ـ وقال الإمام شيخ الإسلام أبو بكر البيهقي[2] في كتاب «المعتقد» له : («باب القول في الاستواء» قال الله تعالىٰ : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ ، وقال : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ ، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ ، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ ، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ، وأراد من فوق السماء ، كما قال تعالىٰ : ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ بمعنىٰ على جذوع النخل. وقال : ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي : على الأرض. وكل ما علا فهو سماء ، والعرش أعلى السماوات ، فمعنىٰ الآية : أأمنتم من على العرش ، كما صرح به في سائر الآيات. وفيما كتبناه من الآيات دلالة على إبطال قول من زعم من الجهمية بأن الله بذاته في كل مكان. وقوله : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ إنما أراد بعلمه لا بذاته)[3].

قال الذهبي : (شهرة البيهقي وجلالته في الإسلام تغني عن التعريف به ، عاش أربعاً وسبعين سنة ، ولحق أصحاب الحافظ أبي حامد بن الشرقي) مختصر العلو ص 272.

---

(1) هو محمد بن الحسين بن الفراء البغدادي الحنبلي «380-458» هـ.
(2) هو أحمد بن الحسين بن علي البيهقي صاحب التصانيف «384-458» هـ.
(3) كتاب «الاعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة».

37 ـ وقال الإمام الزاهد شيخ الإسلام الفقيه نصر المقدسي[1] في كتاب «الحجة» له:

(وأن الله تعالىٰ مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه، كما قال في كتابه).

قال الذهبي: (كان الفقيه نصر سيد أهل الشام في وقته علماً وعملاً، وكان يتقوت باليسير، يخبز في جنب الكانون قرصاً يفطر عليه. قال: درست على الفقيه سُليم الفقه من سنة سبع وثلاثين إلى سنة أربعين، كتبت عنه تعليقته في ثلاثمائة جزء، وما كتبت حرفاً إلا وأنا على وضوء. وقد نزل إليه السلطان تتش بدمشق فلم يقم له، ونفذ إليه بمال من الجزية فرده، أخذ عنه الغزالي والكبار، ومات في سنة تسعين وأربعمائة). مختصر العلو ص 274.

38 ـ وقال الإمام الكبير أبو إسماعيل شيخ الإسلام الأنصاري[2] في كتاب «الصفات» له: «باب استواء الله على عرشه فوق السماء السابعة بائناً من خلقه من الكتاب والسنة».

فساق حججه من الآيات والحديث إلى أن قال: (وفي أخبار شتىٰ أن الله في السماء السابعة على العرش بنفسه، وهو ينظر كيف تعملون، وعلمه وقدرته واستماعه ونظره ورحمته في كل مكان) مختصر العلو ص278.

قال الذهبي: (كان أبو إسماعيل آية في التفسير، رأساً في التذكير، عالماً بالحديث وطرقه، بصيراً باللغة، صاحب أحوال ومقامات... وقد هدد بالقتل مرات ليقصر من مبالغته في إثبات الصفات، وليكف عن مخالفيه من علماء الكلام، فلم يرعو لتهديدهم، ولا خاف من وعيدهم).

39 ـ وقال العلامة أبو الحسن الكرخي الشافعي «458-532» هـ، صاحب شيخ الإسلام الهروي في عقيدته المشهورة، أولها:

عقيدة أصحاب الحديث فقد سمت ... بأرباب دين الله أسنىٰ المراتب

---

(1) هو أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي «410-490» هـ.

(2) هو عبد الله بن محمد بن مت الأنصاري الهروي صاحب كتاب «ذم الكلام وأهله» «396-481» هـ.

عقائدهم أن الإله بذاته على عرشه مع علمه بالغوائب
وأن استواء الرب يعقل كونه ويجهل فيه الكيف جهل الشهارب[1]

قال الذهبي: (وهذه القصيدة طويلة أزيد من مائتي بيت، وكان ناظمها الكرجي من كبار الفقهاء الشافعية).

قال الألباني: (قلت: وهو من الفقهاء المتحررين من الجمود المذهبي، فقد جاء في ترجمته من «الشذرات» (100/4) ما نصه: «وكان لا يقنت في الفجر، ويقول: لم يصح في ذلك حديث، وقد قال الشافعي: إذا صح الحديث فاضربوا بقولي الحائط) مختصر العلو ص 281.

40ـ وهذا الإمام أبو عبد الله القرطبي (ت 671 هـ) صاحب التفسير الكبير يقول في كتابه «الأسنىٰ في شرح الأسماء الحسنىٰ»: (وقد كان السلف الأول رضي الله عنهم لا يقولون بنفي الجهة ولا ينطقون بذلك، بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه وأخبرت رسله. ثم قال عن المتكلمين أنه: يلزم من ذلك عندهم أنه متىٰ اختص بجهة أن يكون في مكان وحيّز، ويلزم على المكان والحيز الحركة والسكون للتميز والتغير والحدوث).

ذكره الذهبي ثم قال: (نعم هذا ما اعتمده نفاة علو الرب عز وجل، وأعرضوا عن مقتضىٰ الكتاب والسنة وأقوال السلف وفطر الخلائق، وإنما يلزم ما ذكروه في حق الأجسام، والله تعالى لا مثل له، ولازم صرائح النصوص حق، ولكنا لا نطلق عبارة إلا بأثر. ثم نقول: لا نسلم أن كون الباري على عرشه فوق السماوات يلزم منه أنه في حيز وجهة، إذ ما دون العرش يقال فيه حيز وجهات، وما فوقه فليس هو كذلك) مختصر العلو ص 287.

فائدة: إن لفظ الجهة قد يراد به (ما هو موجود، وما هو معدوم). ومعلوم أنه لا موجود إلا الخالق والمخلوق، فإذا أريد بالجهة أمر موجود غير الله تعالى كان مخلوقاً والله لا يحصره شيء ولا يحيط به شيء من المخلوقات. وإن أريد بالجهة أمر عدمي وهو ما فوق العالم فليس هناك إلا الله وحده، فإذا قيل: إنه في جهة بهذا

---

(1) جمع شهرب: العجوز الكبير.

الاعتبار فهو صحيح ، أي فوق العالم حيث انتهت المخلوقات ، فهو فوق الجميع عال عليه. ونفاة لفظ الجهة يريدون نفي العلو يقولون: الجهات كلها مخلوقة وأنه كان قبل الجهات ومن قال إنه في جهة اقتضىٰ ذلك قدم شيء من العالم وأنه كان مستغنياً عن الجهة ثم صار فيها. وهذه الألفاظ يراد منها أنه ليس في شيء من المخلوقات سواء سمي جهة أم غيره وهذا حق ، لكن الجهة ليست أمراً وجودياً بل أمر اعتباري ، ولاشك أن الجهات لا نهاية لها ، وما لا يوجد فيما لا نهاية له فليس بموجود. فالله لا يحويه شيء ولا يحيط به شيء ، وهو العالي عن كل شيء. قال الإمام الطحاوي: «تعالى الله عن الحدود والغايات والأركان والأدوات ، لا تحويه الجهات الست كسائر المُبْتَدعات».

قال شارح الطحاوية: أما قوله كسائر المبتدعات: يفهم منه أنه مامن مبتدع إلا وهو محوي ، ففيه نظر! فإن أراد أنه محوي بأمر وجودي فممنوع ، لأن العالم ليس في عالم آخر وإلا لزم التسلسل ، وإن أراد أمراً عدمياً فليس كل مبتدع في العدم بل منها ما هو داخل في غيره ـ كالسماوات والأرض في الكرسي ، ومنها ما هو منتهىٰ المخلوقات ـ كالعرش ـ فسطح العالم ليس في غيره من المخلوقات قطعاً للتسلسل. لكن نحمل كلام الشيخ: أن سائر[1]: بمعنىٰ بقية لا بمعنىٰ الجميع).

* * *

(1) السؤر: ما يبقيه الشارب في الإناء.

-10-

ـ رؤية الله يوم القيامة ـ

مفهوم الرؤيـة وإثبـاتهـا :

لقد أثبت الله سبحانه الرؤيا للمؤمنين يوم القيامة ، ينظرون إلى وجه ربهم عز وجل ، فما أعطوا في الدنيا ولا في الآخرة نعمة هي أعظم من تلك النعمة ولا أقر لأعينهم ، وأما في الدنيا فلا أحد كتب الله له ذلك ، فهذا نبي الله موسىٰ عليه الصلاة والسلام من أولي العزم من الرسل ما استطاع رؤية تجلي الله سبحانه للجبل حتىٰ خر صعقا .

قال الله في سورة الأعراف : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ .

وقال جل ثناؤه : ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : 103] .

وفي صحيح الإمام مسلم عن أبي موسىٰ قال : [قام فينا رسول الله ﷺ بخمسِ كلمات فقال : إن الله تعالـى لا ينـام ، ولا ينبغي لـه أن ينـام ، يخفض القِسْـط ويرفعُهُ ، ويُرفَـعُ إليـه عمل الليل قبل عمل النهـار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابُه النور ، لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه][1] .

---

(1) صحيح مسلم (179) .

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قال: [سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: نورٌ أنّى أراه][1].

فإذا كان يوم القيامة هيّأ المؤمنين لرؤيته سبحانه وأذن لهم بذلك:

قال جل ثناؤه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: 22-23].

وأما الكفار فيحرمهم ربهم من هذه النعمة العظيمة فلا يبصرون إلا ما يخزيهم:

قال جل ذكره: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: 15].

قال الحاكم: حدثنا الأصم حدثنا الربيع بن سليمان قال: [حضرت محمد بن إدريس الشافعي وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها: ما تقول في قول الله عز وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾؟ فقال الشافعي: لما أن حُجب هؤلاء في السخط، كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضىٰ]، وفي رواية: (ما حَجَبَ الفجار إلا وقد عَلِم أن الأبرار يَرَونه عز وجل)[2].

وفي التنزيل أيضاً: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26]، والزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم. ففي صحيح مسلم عن صهيب، عن النبي ﷺ قال: [إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول الله تعالىٰ: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار! قال: فيرفَعُ الحجاب فينظرون إلى وجه الله، فما أعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم ثم تلا: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾][3].

وفي أفراد مسلم عن جابر في حديثه: [إن الله يتجلّىٰ للمؤمنين يضحك][4] ـ يعني في عرصات القيامة ـ مما يدل أن المؤمنين ينظرون إليه سبحانه في العرصات وفي روضات الجنات.

وفي الصحيحين عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: [إنكم سترون

---

(1) مختصر مسلم 85/ ص 30.

(2) تفسير ابن كثير، سورة القيامة 22-23.

(3) مسلم (181) والترمذي (2552) وأحمد (333/4).

(4) أخرجه مسلم (191) في أثناء حديث مطول.

ربكم عِياناً. وفي رواية: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغْلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾][1].

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: [أن أناساً قالوا: يا رسول الله! هل نرىٰ ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: نعم. هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صَحْواً ليس معها سحاب؟ وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحْواً ليس معها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله! قال: ما تضارون في رؤية الله يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما...][2].

وفي صحيح الترمذي عن الشعبي قال: [لقي ابن عباس كعباً بعرفة فسأله عن شيء فكبّر حتىٰ جاوبته الجبال. فقال ابن عباس: إنا بنو هاشم. فقال كعب: إن الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسىٰ فكلم موسىٰ مرتين، ورآه محمد مرتين. قال مسروق: فدخلت على عائشة فقلت: هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد تكلمت بشيء قَفَّ[3] له شعري، قلت: رُويداً، ثم قرأت: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ فقالت: أين تذهب بك؟ إنما هو جبريل. من أخبرك أن محمداً رأى ربه أو كتم شيئاً مما أمر به أو يعلم الخمس التي قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ فقد أعظم الفرية، ولكن رأىٰ جبريل، لم يره في صورته إلا مرتين، مرةً عند سدرة المنتهىٰ، ومرةً في أجياد[4]، له ستمائة جناح، قد سدّ الأفق][5].

وأصله في الصحيحين، وفيه قال: [قلت لعائشة: فأين قوله ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾، قالت: ذاك جبريل عليه السلام، كان يأتيه في صورة

(1) أخرجه البخاري (573) وأحمد (362/4).
(2) أخرجه البخاري (7437) ومسلم (182).
(3) قام من الفزع.
(4) موضع أسفل مكة.
(5) تخريج المشكاة (5661).

الرجل ، وإنه أتاه هذه المرة في صورته التي هي صورته ، فَسَدَّ الأفق][1] .

وله شاهد في الصحيحين أيضاً : [عن ابن مسعود في قوله ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ وفي قوله : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ وفي قوله : ﴿ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ قال فيها كلها : رأىٰ جبريل عليه السلام له ستمائة جناح][2] .

وأما ما رواه مسلم عن ابن عباس : [﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ، وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ قال : رآه بفؤاده مرتين]. وفي رواية الترمذي قال : [رأى محمد ربه . قال عكرمة : قلت : أليس يقول : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ قال : ويحك ، ذاك إذا تجلىٰ بنوره الذي هو نوره ، وقد رأىٰ ربه مرتين]. فهذا كما قال أهل العلم موقوف ، وهو من اجتهاد ابن عباس الخاص وحديث عائشة مرفوع صريح أنه لم يره[2] .

قال ابن القيم في زاد المعاد : (واختلف الصحابة : هل رأىٰ ربَّه تلك الليلة [3] ، أم لا؟ فصح عن ابن عباس أنه رأى ربه ، وصح عنه أنه قال : رآه بفؤاده . وصح عن عائشة وابن مسعود إنكارُ ذلك ، وقالا : إن قوله : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ ، إنما هو جبريل . وصح عن أبي ذر أنه سألَهُ : هل رأيت ربك؟ فقال : «نورٌ أنّىٰ أراه» أي : حال بيني وبين رؤيته النور كما قال في لفظ آخر : رأيت نوراً .

وقد حكى عثمانُ بن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على أنه لم يره) .

وقد فصّل شيخ الإسلام في ذلك فقال : (وليس قولُ ابن عباس : «إنه رآه» مُناقِضاً لهذا ، ولا قولهُ : «رآه بفؤاده» وقد صحَّ عنه أنه قال : «رأيت ربي تبارك وتعالى» ولكن لم يكن هذا في الإسراء ، ولكن كان في المدينة لما احتُبِسَ عنهم في صلاة الصبح ، ثم أخبرهم عن رؤية ربِّه تبارك وتعالى تلك الليلةَ في منامه ، وعلى هذا بنىٰ الإمام أحمد رحمه الله تعالىٰ ، وقال : نعم رآه حقاً ، فإن رؤيا الأنبياء حق ، ولابُدَّ ، ولكن لم يَقُل أحمد رحمه الله تعالىٰ : إنه رآه بِعَيْنَي رأسه يقظةً ، ومن حكىٰ عنه ذلك ، فقد وَهِمَ عليه ، ولكن قال مرة : رآه ، ومرة قال : رآه بفؤاده فحُكيَتْ عنه

---

(1) انظر مشكاة المصابيح ، باب رؤية الله تعالىٰ ، تحقيق الألباني . ص 1574 .

(2) انظر مشكاة المصابيح . باب رؤية الله تعالى . تحقيق الإلباني . ص 1574 .

(3) يعني ليلة الإسراء .

روايتان ، وحُكيت عنه الثالثة مِن تصرُّفِ بعض أصحابه : أنه رآه بعيني رأسه ، وهذه نصوص أحمد موجودة ، ليس فيها ذلك .

وأما قولُ ابنِ عباس : إنّه رآه بفؤاده مرتين ، فإن كان استنادُه إلى قوله تعالىٰ : ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ ، ثم قال : ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ والظاهر أنه مستندُه ، فقد صح عنه ﷺ أن هذا المرئي جبريلُ ، رآه مرتين في صورته التي خُلِقَ عليها ، وقول ابن عباس هذا هو مُسْتَنَدُ الإمام أحمد في قوله : رآه بفؤاده ، والله أعلم) .

قلت : وأما قوله : (رأيت ربي تبارك وتعالىٰ) فهذه رؤيا منامية صح فيها الخبر عن رسول الله ﷺ . ففي المسند وجامع الترمذي بإسناد صحيح عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : [أتاني الليلة ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة فقال : يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت : لا ، فوضع يده بين كتِفَيَّ ، حتىٰ وجدت بَرْدها بين ثَديَيَّ ، فعلمت ما في السماوات وما في الأرض ، فقال : يا محمد! هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلىٰ ؟ قلتُ : نعم : في الكفارات والدرجات ، والكفارات : المكثُ في المساجد بعد الصلوات ، والمشي على الأقدام إلى الجماعات ، وإسباغ الوضوء في المكاره ، قال : صدقت يا محمد ، ومن فعل ذلك عاش بخير ومات بخير ، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه . وقال : يا محمد ! إذا صليت فقل : اللهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحبَّ المساكين وأن تغفر لي وترحمني وتتوب عليّ ، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غيرَ مفتون ، والدرجات : إفشاء السلام ، وإطعام الطعام ، والصلاة بالليل والناس نيام][1] .

وأما يوم القيامة فقد أثبت أهل العلم الرؤية ، لأن الله ورسوله والصحابة وأهل الحديث أثبتوها ، قال تعالىٰ : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ومن تأولها ضرب بغيرها وإن شذ شذّ في النار . وكم جنىٰ التأويل الفاسد على الدين وأهله من جناية ، فهل قتل عثمان رضي الله عنه إلا بالتأويل الفاسد؟ وكذلك ما جرى يوم الجمل وصفين وفي مقتل الحسين ، والحرة ، وهل افترقت الأمة على ثلاث وسبعين فرقة إلا بالتأويل الفاسد؟

---

(1) صحيح الجامع (59) ، وتخريج الترغيب (126,98/1) .

ففي قوله سبحانه ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ أشد الصراحة والوضوح بإثبات الرؤية .

فإن النظر له استعمالات عدة في لغة العرب حسب صلاته وتعديه بنفسه كما ذكر أهل العلم :

1 ـ إن عُدِّي بنفسه فمعناه : التوقف والانتظار ، نحو قوله تعالى في سورة الحديد : ﴿ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ .

2 ـ إن عُدِّي بـ (في) فمعناه : التفكر والاعتبار : نحو قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ .

3 ـ وإن عُدِّي بـ (إلىٰ) فمعناه المعاينة بالأبصار ، نحو قوله سبحانه في سورة الأنعام : ﴿ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ ﴾ .

فمن هنا كان إضافة النظر بالآية : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ إلى الوجه وتعديته بـ (إلى) الصريحة في نظر العين ، وإخلاء الكلام من قرينة تدل على خلافِه لدليلٌ أنه سبحانه أراد نظر العين التي في الوجه إلى الرب جل جلاله .

قال الإمام أبو جعفر الطحاوي : (والرؤية حق لأهل الجنة بغير إحاطة ولا كيفية ، كما نطق به كتاب ربنا : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ وتفسيره على ما أراده الله تعالى وعلمه ، وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن الرسول ﷺ فهو كما قال ، ومعناه على ما أراد ، لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ، ولا متوهمين بأهوائنا ، فإنه ما سلم في دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله ﷺ ، ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه . ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام ، فمن رام علم ما حظر عنه علمه ، ولم يقنع بالتسليم فهمه ، حجبه مرامه عن خالص التوحيد ، وصافي المعرفة ، وصحيح الإيمان ، فيتذبذب بين الكفر والإيمان ، والتصديق والتكذيب ، والإقرار والإنكار ، موسوساً تائهاً ، شاكاً ، لا مؤمناً مصدقاً ، ولا جاحداً مكذباً . ولا يصح الإيمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم ، أو تأولها بفهم ، إذ كان تأويل الرؤية ـ وتأويل كل معنىٰ يضاف إلى الربوبية ـ بترك التأويل ولزوم التسليم ، وعليه دين المسلمين ، ومن لم يتوق النفي والتشبيه ، زل ولم يصب التنزيه . فإن ربنا جل وعلا موصوف

بصفات الوحدانية، منعوت بنعوت الفردانية، ليس في معناه أحد من البرية) متن الطحاوية (35-37).

وسئل مالك بن أنس عن قوله تعالىٰ: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ فقيل: قوم يقولون: إلى ثوابه. فقال مالك: [كذبوا فأين هم عن قوله تعالىٰ: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾؟ قال مالك: الناس ينظرون إلى الله يوم القيامة بأعينهم، وقال: لو لم يرَ المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعيِّر الله الكفار بالحجاب فقال: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾] رواه في شرح السنة[1].

قال الألباني معلقاً: (قلت: فما أبعد ضلال من ينكر الرؤية من بعض المقلدة الذين يزعمون تقليد الأئمة ثم هم يخالفونهم في عقيدتهم في رؤية الرب يوم القيامة ومعهم الكتاب والسنة!!).

شبهات في مسألة الرؤية وجوابها

الشبهة الأولىٰ: قوله تعالىٰ: ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ [الأعراف: 143].

الجواب: هذا هو استدلال المعتزلة، فإن المخالف في الرؤية الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والإمامية.

فالآية دليل على ثبوت رؤيته من وجوه ـ كما ذكر أهل العلم ـ:

1 ـ لا يجوز أن يظن بكليم الله ورسوله وأعلم الناس بربه في وقته أن يسأل ما لا يجوز له.

2 ـ إن الله لم ينكر عليه سؤاله. فحين سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر عليه سؤاله وقال: ﴿ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾.

3 ـ إنه سبحانه قال: ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ ولم يقل: «إني لا أُرى» أو «لا تجوز رؤيتي» أو «لست بمرئي». فمن كان بيده حجر وقال له آخر أطعمني فالجواب لا يؤكل.

ففيه دليل ـ كما قال شارح الطحاوية ـ أنه سبحانه مرئي لكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته.

---

(1) انظر مشكاة المصابيح (5663). تحقيق الألباني.

4 ـ قوله ﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ﴾ إعلام أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت للتجلي في هذه الدار فكيف بالبشر.

5 ـ قوله ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ فيه جواز تجليّه سبحانه للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب، فكيف يمتنع أن يتجلىٰ لرسوله وأوليائه في دار كرامته؟ ولكنه سبحانه أعلم موسىٰ أن الجبل إذ لم يثبت لرؤيته في هذه الدار فالبشر أضعف.

6 ـ إن الله كلم موسىٰ وناداه وناجاه، ومن جاز عليه التكليم والتكلم وأن يسمع مخاطبه كلامه بغير واسطة فرؤيته أولى بالجواز، ولهذا لا يتم إنكار رؤيته إلا بإنكار كلامه وقد جمعوا بينهما.

وأما دعواهم تأبيد النفي بـ (لن) وأنها تدل على نفي الرؤية في الآخرة ففاسد، فإنها لو قيدت بالتأبيد فلا تدل على دوام النفي بالآخرة، فكيف لو أطلقت؟

فهذا قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾ أي الموت، مع قوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾.

ثم إنه لو كانت (لن) للتأبيد المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها، انظر قوله تعالىٰ في سورة يوسف: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ ﴾ فدلّ عند العلماء أن (لن) لا تقتضي النفي المؤبد.

الشبهة الثانية: قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [الأنعام: 103].

الجواب: في الآية استدلال على الرؤية لا كما يظن المخالفون، وذلك من وجوه:

1 ـ ذكرها سبحانه في سياق التمدح، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالصفات الثبوتية، أما العدم المحض فليس بكمال فلا يمدح به، وإنما يمدح الرب تعالى بالنفي إذا تضمن أمراً وجودياً، كمدحه بنفي السِّنَة والنوم المتضمن كمال القيومية، ونفي الموت المتضمن كمال الحياة، ونفي اللغوب والإعياء المتضمن كمال القدرة، ونفي الشريك والصاحبة والولد والظهير المتضمن كمال الربوبية والألوهية وقهره، ونفي الأكل والشرب المتضمن كمال صمديته وغناه، ونفي

الشفاعة إلا بإذنه المتضمن كمال توحده وغناه عن خلقه ، ونفي الظلم المتضمن كمال عدله وعلمه وغناه ، ونفي النسيان المتضمن لكمال علمه وإحاطته ، ونفي المثل المتضمن كمال ذاته وصفاته.

2 ـ مفهوم الآية أنه يُرىٰ ولا يُدرك ولا يُحاط به ، فإن قوله تعالىٰ: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ يدل على كمال عظمته وأنه أكبر من كل شيء ، وأنه لكمال عظمته لا يدرك بحيث يحاط به ، فإن الإدراك: هو الإحاطة بالشيء ، وهو قدر زائد على الرؤية كما قال سبحانه في سورة الشعراء: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ فلم ينف موسىٰ الرؤية بل نفىٰ الإدراك ، فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه ، فالرب تعالىٰ يُرىٰ ولا يُدرك ، كما يُعلم ولا يُحاط به علماً[1].

3 ـ قد روى أحاديث الرؤيا نحو ثلاثين صحابياً:

ففي الصحيحين عن أبي موسىٰ عن النبي ﷺ قال: [وجنتان من فضة ، آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب ، آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن يروا ربهم تبارك وتعالى إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن][2].

وفي صحيح البخاري من حديث عدي بن حاتم: [وليلقين اللهَ أحدُكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له ، فيقول: ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك؟ فيقول: بلىٰ يا رب ، فيقول: ألم أعطك مالاً وأفضل عليك؟ فيقول: بلى يا رب][3].

فكيف يروي هؤلاء الجمع أحاديث الرؤيا إن لم يكونوا موقنين بسماعها وثبوتها عن المصطفىٰ ﷺ الذي حذر أشد التحذير من الكلام عليه دون علم أو تثبت: [إياكم وكثرة الحديث عني ، من قال عليّ فلا يقولن إلا حقاً أو صدقا ، فمن قال علي ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار] رواه ابن ماجه بسند حسن من حديث أبي قتادة.

---

(1) انظر شرح العقيدة الطحاوية.

(2) أخرجه البخاري (4878) ، ومسلم (180) وأحمد (411/4).

(3) صحيح البخاري: كتاب المناقب ، باب علامات النبوة في الإسلام. وانظر كتابي السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (1196/3-1197).

وسئل أبو بكر رضي الله عنه عن قوله تعالىٰ: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ ما الأبّ؟ فقال: (أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم).

الشبهة الثالثة: أليس تشبيه رؤية الله تعالى برؤية الشمس والقمر تشبيهاً لله بخلقه؟

الجواب: لقد ثبت في الصحيح تشبيه الرؤية بالرؤية لا تشبيه المرئي بالمرئي:

ففي الصحيحين عن أبي هريرة: [أنا ناساً قالوا يا رسول الله هل نرىٰ ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا، قال: فإنكم ترونه كذلك][(1)].

وفي الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلي قال: [كنا جلوساً مع النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة فقال: إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا، لا تضامون في رؤيته].

وفي رواية: (إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر)[(1)].

وفي صحيح ابن ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [تَضَامّون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا. قال: فكذلك لا تضامون في رؤية ربكم يوم القيامة] وأصله في الصحيحين، وقد صنَّفَهُ الإمام ابن ماجه في باب: (فيما أنكرت الجهمية)[(2)].

ثم ذكر بسند حسنه الألباني عن أبي رزين قال: [قلت: يا رسول الله! أنرىٰ الله يوم القيامة؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال: يا أبا رزين! أليس كلكم يرى القمر مُخْلِياً به؟ قال: قلت بلىٰ، قال: فالله أعظم، وذلك آية في خلقه].

فليس تشبيه رؤية الله تعالى برؤية الشمس والقمر تشبيهاً لله، بل هو تشبيه الرؤية بالرؤية لا تشبيه المرئي بالمرئي، فلم نره في الدنيا لعجز أبصارنا لا لامتناع

---

(1) وانظر صحيح ابن ماجه 148,147، وقد مضىٰ تخريجهما في الصحيحين.

(2) صحيح ابن ماجه، تحقيق الألباني. ص 35.

الرؤية ، فهذه الشمس لو حدق الرائي البصر في شعاعها ضعف عن رُؤيتها لا لامتناع في ذات المرئي بل لعجز الرائي ، فإذا كان يوم القيامة أكمل الله قوىٰ المؤمنين حتىٰ أطاقوا رؤيته .

قال الإمام ابن أبي العز الحنفي : (لذا لما تجلىٰ الله للجبل ﴿ خَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : 143]. بأنه لا يراك حيٌّ إلا مات ولا يابس إلا تدهده ، ولهذا كان البشر يعجزون عن رؤية الملك في صورته إلا من أيده الله كما أيّد نبينا ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ . قال غير واحد من السلف : لا يطيقون أن يروا الملك في صورته ، فلو أنزلنا عليهم ملكاً لجعلناه في صورة بشر ، وحينئذ يشتبه عليهم هل هو بشر أو ملك؟ ومن تمام نعمة الله علينا أن بعث فينا رسولاً منا)[1] .

* * *

---

(1) شرح العقيدة الطحاوية .

-11-

ـ مستلزمات العبودية وتوحيد الألوهية والأسماء والصفات ـ

إن تحقيق العبودية وتوحيد الألوهية يستلزم من العبد أن يتوجه إلى الله عز وجل بجميع أنواع العبادة من المحبة والخوف والرجاء والتوكل والرغبة والرهبة والإنابة والخشوع والخشية والاستعانة والاستغاثة والاستعاذة والنحر والذبح والنذر والدعاء وغير ذلك من أنواع العبادة. فإلى تفصيل آفاق ذلك:

1 ـ الإخلاص في القصد والتوجه:

فإن أول مستلزم لتعظيم الحق سبحانه وامتثال ما يحبه واجتناب ما يسخطه هو صدق التوجه والنية الخالصة لوجهه سبحانه، حياء منه وتعظيماً لأمره، وقد أمر الله بذلك عباده فقال في سورة البينة: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾.

وقال في سورة الكهف: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾.

وقال في سورة الحج: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ ﴾.

وقال في سورة آل عمران: ﴿ قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾.

وقد افتتح الإمام البخاري إمام المحدثين صحيحه ـ الذي هو أصح كتاب بعد القرآن الكريم ـ بحديث علقمة بن وقاص الليثي ـ المشهور ـ قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخطب على المنبر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [يا أيها الناس، إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها (وبرواية: يتزوجها) فهجرته إلى ما هاجر إليه].

- أثـر النيـة في بلوغ المقامات العاليـة:

إنّ هذا التصنيف في افتتاح البخاري لكتابه يدل على فقهه رحمه الله ، فتالله كم يبلغ العبد من المقامات والأجور والمراتب بصدق نيته ما لا يستطيع تحصيله بعمله ولا بماله ، وقد سقانا عليه الصلاة والسلام من جوامع كلمه في ذلك ما يروي ظمأ المؤمن في طموحاته العالية وتأملاته الرفيعة وهممه السامقة.

فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده ، والترمذي في جامعه ، بإسناد صحيح ، واللفظ للترمذي ، عن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: [ثلاث أقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه: ما نقص مال عبد من صدقة ، ولا ظُلم عبدٌ مظلمةً صبر عليها إلا زاده الله عزاً ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر. وأحدثكم حديثاً فاحفظوه: إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقاً فهذا بأفضل المنازل ، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول: لو أنّ لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيّته فأجرهما سواء ، وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً ، يخبط في ماله بغير علم ، ولا يتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقاً فهذا بأخبث المنازل ، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء][1].

فانظر كيف بلغ صاحب العلم بصدق نيته أجور ذلك العالم صاحب المال الذي أنفق علمه وماله في سبيل الله ، وتأمل كيف بارك الله في هذا الصدق فكانوا في الآخرة سواء ، ثم تأمل ذلك الشقـي الفقير السيء النية كيف أركسه الله وحقّره وأبلغه آثام ذلك الطاغية صاحب المال الذي عاث في ماله فساداً ، ومضى معظماً شهواته مرتكباً للفواحش والموبقات ، مع أن ذاك الفقير الفاسد النية ما تلذذ بتلك الدنيـا كما فعل مَنْ قبلـه ، ولكن الله ينظر إلـى قلوب عبـاده لا إلى أجسامهم وأموالهم.

وفي الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال فيما يروي عن ربه عز وجلّ: [إن الله كتب الحسناتِ والسيئاتِ ثم بين ذلك في كتابه ، فمن همَّ بحسنة

---

(1) تخريج الترغيب (26/1) وصحيح الجامع (3021).

فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، فإن همَّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسناتٍ إلى سبع مائة ضعفٍ إلى أضعاف كثيرة ، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملَة وإن هو همَّ بها فعَمِلها كتبها الله سيئة واحدة[1] (زاد مسلم في رواية : أو محاها ، ولا يهلكُ على الله إلا هالك)] .

فبصدق النية والقصد لله كتب له ما حاك في صدره من الهمة ، نحو فعل خير لكنه لم يفعله ، وكذلك بتركه فعل سوء خوفاً من الله ، فكتب له عنده به حسنة كاملة ، وهذا المعنى مفسر في الحديث الآخر الذي هو في الصحيحين أيضاً واللفظ للبخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : [يقول الله عز وجل : إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها ، وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة ، وإن أراد أن يعمل حسنةً فلم يعْمَلْها فاكتبوها له حسنةً ، فإن عمِلَها فاكتبوها له بعشر أمثالها ، إلى سبع مئة ضعف] .

وفي رواية لمسلم : [قال الله عز وجل : إذا تحدث عبدي بأن يعمل حسنةً ، فأنا أكتبُها له حسنة ما لم يَعْمَلْها فإذا عملها فإني أكتبها له بعشر أمثالها ، وإذا تحدث عبدي بأن يعمل سيئة ، فأنا أغفرها له ما لم يعملها ، فإذا عَمِلَها فأنا أكتبها له بمِثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة ، إنما تركها من جرّاي][2] أي من أجلي .

فانظر إلى أثر توحيد الله في قلب المؤمن كيف ترك فعل السيئة إنما تركه خوفاً من ربه عز وجل الذي يراه ويسمع ما يهمس به بينه وبين نفسه ، فاستحضر عظمة الله في قلبه فخاف مقام ربه ودافع نفسه عن الهوى ، فاستحق عند الله أن يكتب له حسنة بهذه المدافعة والمجاهدة مع هذه النفس التي حاول الشيطان جاهداً أن يفسدها على صاحبها فتأمره بسوء ، فكان الإخلاص لله هو المانع للمسلم من الوقوع في ما يسخط الله ويكرهه . لذلك نشغ أبو هريرة عند ذكره لأثر نية السوء عندما ذكر حديث النبي ﷺ في ذلك فشهق حتى كاد يغشى عليه أسفاً أو خوفاً . فقد أخرج الترمذي في جامعه وابن حبان في صحيحه وأصله عند الإمام مسلم في صحيحه واللفظ للترمذي من حديث عقبة بن مسلم أن شُفَيّاً الأصبحيَّ حدثه : [أنه دخل

---

(1) صحيح الجامع (1792) .
(2) مختصر مسلم (67) .

المدينة فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس فقال: من هذا؟ قالوا: أبو هريرة، قال: فدنوتُ منه، حتى قعدتُ بين يديه، وهو يحدث الناس فلما سكت وخلا قلت له: أسألك بحقّ وبحقّ، لمّا حَدَّثتني حديثاً سمعتَه من رسول الله ﷺ وعَقَلْتَهُ وعَلِمْتَهُ فقال أبو هريرة: أفعلُ، لأحَدِّثنّك حديثاً حَدَّثنيه رسول الله ﷺ عقلْتُهُ وعلمتُه، ثم نشغ (أي شهق حتى كاد يغشى عليه أسفاً أو خوفاً) أبو هريرة نشغةً فمكثنا قليلاً ثم أفاق، فقال: لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ أنا وهو في هذا البيت ما معنا أحدٌ غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغةً أخرى، ثم أفاق ومسح عن وجهه فقال: أفعلُ، لأُحَدِّثنّك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ أنا وهو في هذاالبيت، ما معنا أحدٌ غيري وغيرُه، ثم نشغ أبو هريرة نشغةً شديدة، ثم مال خارّاً على وجهه فأسندتُه طويلاً، ثم أفاق، فقال حدثني رسول الله ﷺ: [إن الله تبارك وتعالى إذا كان يومُ القيامة ينزلُ إلى العبادِ ليقضيَ بينهم، وكل أمة جاثية، فأول من يدعىٰ به رجل جمع القرآن، ورجل قُتِلَ في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله عز وجل للقارىء: ألم أعلِّمك ما أنزلتُ على رسولي؟ قال: بلىٰ يا ربّ، قال: فما عَمِلْتَ فيما عَلِمْتَ؟ قال: كنت أقومُ به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله عز وجل له: كذبت وتقول له الملائكة كذبت ويقول الله تبارك وتعالى: بل أردت أن يقال فلان قارىء وقد قيل ذلك. ويؤتىٰ بصاحب المال فيقول الله عز وجل: ألم أُوْسعْ عليك حتى لم أدَعْكَ تحتاجُ إلى أحد؟ قال: بلىٰ يا رب، قال: فما ذا عملتَ فميا آتيتكَ؟ قال: كنت أصِلُ الرحم وأتصدق. فيقول الله له: كذبت وتقول الملائكة كذبت ويقول الله تبارك وتعالى: بل أردت أن يقالَ فلانٌ جوادٌ وقد قيل ذلك. ويؤتى بالذي قُتِل في سبيل الله فيقول الله له: فيماذا قُتِلْتَ؟ فيقول: أي ربِّ! أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلتُ حتى قتلتُ فيقول الله له: كذبت وتقول الملائكة كذبت ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جريء فقد قيل ذلك]. ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال: يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أولُ خلقِ الله تُسعَرُ بهم النار يومَ القيامة][1]. ولقد دخل شُفيٌّ على معاوية فأخبره بهذا عن أبي هريرة فقال معاوية: [قد فُعل بهؤلاء هذا، فكيف بمن بَقِيَ مِنَ الناس؟ ثم بكىٰ معاوية بكاء

(1) تخريج الترغيب (20/1) ص 13 - 15.

شديداً ، حتى ظننا أنه هالك ، وقلنا : قد جاءنا هذاالرجل بشرٍّ. ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه وقال : صدق الله ورسوله : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾](1) .

من هنا فلا يستقيم إيمان العبد بربه وإفراده له بالألوهية والطاعة ما لم يصدقه التوجه والقصد ولا يشرك في عبادته أحداً ، ومن فعل ذلك قابله الله بوفير من الأجر والثواب والرضا . فقدأخرج النسائي وابن ماجه بإسناد جيد عن أبي الدرداء يبلغُ به النبي ﷺ قال : [من أتى فراشَهُ وهو ينوي أن يقومَ يُصلي من الليل فغلبته عينُه حتى أصبح كُتِبَ له ما نوى ، وكان نومه صدقةً عليه من ربِّه](2) . فمنّ الله على عبده لما علم صدقه بأن أبلغه ذلك الأجر وهو نائم لما كان قصده خالصاً نقياً لا رياء فيه ولا سمعة ، ولذلك كان أجر النافلة في البيت كأجر المكتوبة في الفريضة . فقد روى الديلمي وصححه الألباني عن صهيب عن النبي ﷺ قال : [صلاة الرجل تطوعاً حيث لا يراه الناس تعدل صلاته على أعين الناس خمساً وعشرين](3) .

ولعمرو الله لا ينفع المؤمن في النائبات وعند حلول الفتن وكثرة الهرج وخاصة في مثل هذه الأيام التي تقترب بها البشرية من يوم الحساب ومن أهوال الحشر إلا صدق النية وصفاء السريرة مع الله والإكثار من الأعمال الرفيعة الخالصة لوجهه جل ثناؤه ، فإذا ما حلكت الظلمات وادلهمت الخطوب أخرج المؤمن ما خبأ من الأعمال العالية التي لا يعلم أمرها وسرّها إلا بارؤه وخالقُه فأطلقها دعاء متوسلاً بتلك الأعمال الصالحة إلى الله العلي الكريم أن يكشف ما أهمه وما أغمه وما أحزنه فيفرج الله عنه ويدخل السرور على قلبه ، كما نفع الثلاثة ذلك لما سدت الصخرة عليهم الغار . فقد أخرجا في الصحيحين عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيتُ إلى غار فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل

---

(1) المرجع السابق .
(2) تخريج الترغيب (19/1) ص 12 .
(3) تخريج الترغيب (159/1) وصحيح الجامع (3715) .

فسدّت عليهم الغار فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أنْ تَدْعوا الله تعالى بصالح أعمالكم. قال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبِقُ قبلهما أهلاً ولا مالاً. فنأى بي طلبُ الشجر يوماً فلم أُرِحْ عليهما حتى ناما فحلبت لهما غَبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً فلبثت أنتظر استيقاظهما حتى بَرَقَ الفجر والصبية يتضاغونَ عند قدمي فاستيقظا فشربا غبوقهما. اللهم إن كنت فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه. قال الآخر: اللهم إنه كانت لي ابنة عم كانت أحبَّ الناس إليّ (وفي رواية: كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء) فأردتها على نفسها فامتنعت مني حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومئة دينار على أن تُخليّ بيني وبين نفسها ففعلتْ، حتى إذا قدَرْتُ عليها (وفي رواية للبخاري: فلما قعدت بين رجليها) قالت اتق الله ولا تفضَّ الخاتم إلا بحقه فانصرفت عنها وهي أحبّ الناس إليَّ وتركت الذهب الذي أعطيتها. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرُج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها. وقال الثالث: اللهم إني استأجرت أجراءَ وأعطيتُهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثمرْت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله أدّ إليّ أجري فقلت: كل ما ترى من أجرك: من الإبل والبقر والغنم والرقيق. فقال يا عبد الله: لا تستهزىء بي فقلت: لا أستهزىء بك، فأخذه كلّه فاستاقه فلم يترك منه شيئاً، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهكَ فافرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون][1].

دقائقُ من التقوى، ومعان رقيقة من الإيمان والصدق يحتاجها المرء في رخائه ليكشف الله عنه في شدائده، وهي من لوازم التوحيد والعبودية لله وحده، فهذا الإخلاص من لوازم لا إله إلا الله ومن مقتضياتها.

2 ـ **تعظيم الله وشرعه**: وهذا التعظيم من مستلزمات توحيد المؤمن ويقينه بالله

---

(1) تخريج الترغيب (1/1).

العظيم ومن مقتضياته فقد قال جل ثناؤه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: 13 - 14].

قال مجاهد: (لا تبالون لله عظمة). وعن ابن عباس قال: (مالكم لا تعلمون لله عظمة). وفي رواية عنه: (ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته). وعن قتادة: (﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ قال: لا ترجون لله عاقبة). وقال ابن زيد في قول الله ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ قال: (الوقار: الطاعة). واختار ابن جرير أن يكون المعنى: (مالكم لا تخافون لله عظمة).

وقال ابن كيسان: (لا ترجون في عبادة الله أن يثيبكم على توقيركم إياه خيراً).

فإذا استقام توجه قلب المؤمن لله فصار قصده الإخلاص له سبحانه لزمه إفراده بالتعظيم، فلا أحد يستحق أن يوصف بالعظيم سواه سبحانه جلت أسماؤه وصفاته، فالكل ضعيف محتاج إلى رحمته ومغفرته وتكرمه وتفضله، وكل أعمال العباد من خلقه سبحانه؛ فهو الذي خلق الأعمال العالية وامتن على أنبيائه وأوليائه بامتثالها، وهو الذي خلق مواقف الاعتزاز بالحق ونصرته وتفضل على الأنبياء والشهداء والصالحين بالتزامها، وهو الذي خلق البطولات والمسابقات في المعارك إلى الشهادة في سبيله وقهر أعدائه ورفع كلمته وهديه وشرعه، واختار من المؤمنين أهلاً لرفع هذه الألوية وبذل النفس والمال في سبيل رفع كلمته والحكم بأمره، وهوالذي خلق المال وذلّله بيد بعض عباده وأعانهم على إنفاقه في سبيله ولنصرة دينه.

فقد أخرج ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج والطبراني في الكبير بإسناد حسن عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: [إن لله تعالى أقواماً يختصّهم بالنعم لمنافع العباد ويقرّها فيهم ما بذلوها فإذا منعوها نزعها منهم فحولها إلى غيرهم][1].

وفي المسند للإمام أحمد وعند الحاكم في المستدرك بإسناد صحيح عن عمرو بن الحمق عن النبي ﷺ قال: [إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله، قيل:

---

(1) حسن. صحيح الجامع (2160) والسلسلة الصحيحة (1692).

وما استعمله؟ قال: يفتح لـه عملاً صالحاً بيـن يدي موتـه حتى يرضى عليـه من حوله][1].

وفي طريق آخر عن أنس قال عليـه الصلاة والسلام: [إذا أراد الله بعبـد خيراً استعمله ، قيل: كيف يستعمله؟ قال: يوفقه لعمل صالح قبل الموت ثم يقبضه عليه][2].

وفي رواية الطبراني عن أبي أمامة لفظه: [إذا أراد الله بعبد خيراً طهره قبل موته ، قـالوا: وما طهور العبد ؟ قـال: عملٌ صالح يلهمه إيـاه حتى يقبضـه عليه][3].

وهو من طريق أبي عِنبة بلفظ: [إذا أراد الله بعبد خيراً عسله ، قيلَ: وما عَسَلَهُ؟ قال: يفتح له عملاً صالحاً قبل موته ثم يقبضه عليه] أخرجه الإمام أحمد[4]. وعسله: أي طيّب ثناءه بين الناس.

فإذا علم المؤمن هذا ، أن كل عمل عظيم يقوم به نبي أو شهيد أو رجل صالح أو مسلم فإنما الفضل به والمنّ لله العظيم ، فلزم من ذلك أن يفرد المؤمن التعظيم في قلبه لله وحده لا يشاركه أحد ، وكل أمر عظيم من خلق أو عمل أو قول فإنما يحمد عليه الله العظيم ، فإذا تأمل المؤمن في هذاالكون الواسع الفسيح وما أودع الله به من الآيات العظيمة والبحار الكبيرة والنجوم والكواكب المتناثرة والدواب المتباينة والجبال الراسية والرياح والعواصف المدمرة ، طأطأ رأسه تواضعاً لخالق هذا الكون لا إله إلا هو الرحمن الرحيم العلي العظيم.

قال الله جل ثناؤه: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: 190 - 191].

وقال جل وعزّ: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ

---

(1) صحيح الجامع (301) والصحيحة (1114).
(2) تخريج المشكاة (5288).
(3) صحيح الجامع (303).
(4) السلسلة الصحيحة (1114).

﴿عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ۝٢٤ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: 17 - 26].

وقال أيضاً: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ [سبأ: 46]. أي مجتمعين ومنفردين تفكرون في الخالق العظيم للسماوات والأرض وفي نبيّه الصادق الأمين المبعوث رحمة للعالمين، فتجدون صحة ذلك بعقولكم المميزة. وقال جل ثناؤه: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: 1 - 14].

فإذا أمعن المؤمن النظر في ملكوت الله العظيم، ورأى ما في هذا العالم من آيات كبيرة تشير إلى الخالق الكريم، وقرأ في كتاب الله عن أهوال يوم الدين، هان عليه أمر الجبابرة والطغاة والظلمة في الأرض الملحدين، وهان عليه أمر المكذبين بالحق والمعاندين، وأمر المنافقين والمستهزئين، فلزم الحق وأهله الصابرين، ولزم تعظيمه والدفاع عنه إلى أن يورث الله المؤمنين التمكين، فمضىٰ في الحياة معظماً لشعائر الله وحرماته.

كما قال جل ثناؤه: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: 32]. ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: 30].

قال مجاهد: (الحرمة: مكة والحج والعمرة وما نهى الله عنه من معاصيه كلها).

وقال الليث: (حرمات الله ما لا يحل انتهاكها). وقال قوم: (الحرمات هي الأمر والنهي). وقال جماعة من المفسرين: (حرمات الله هنا مغاضبه وما نهى عنه وتعظيمها ترك ملابستها).

وقال الزجاج: (الحرمة ما وجب القيام به وحرم التفريط فيه).

وقال العلامة ابن القيم بعد ذكر بعض هذه الأقوال والمعاني: (والصواب أن الحرمات تعم هذا كله، وهي جمع حرمة وهي ما يجب احترامه وحفظه من الحقوق

والأشخاص والأزمنة والأماكن ، فتعظيمها: توفيتها حقها وحفظها من الإضاعة والخروج من حرج المخالفة وجسارة الإقدام عليها).

وقال في موضع آخر: (وروح العبادة: هو الإجلال والمحبة فإذا تخلى أحدهما عن الآخر فسدت ، فإذا اقترن بهذين الثناء على المحبوب المعظم فذلك حقيقة الحمد. ثم قال: وأول التعظيم تعظيم الأمر والنهي ، وهو أن لا يُعارَضا بترخص جاف ، ولا يُعَرَّضا لتشدّد غال).

أي فلا إفراط ولا تفريط ولا ترخص ولا غلو ، فالغلو نوعان: نوع يخرجه عن كونه مطيعاً كمن زاد في الصلاة ركعة أو صام في أيام النهي ، ونوع يخاف منه الانقطاع والاستحسار كقيام الليل كله وصيام الدهر أجمع.

ففي المسند عن أنس ، قال عليه الصلاة والسلام: [إن هذا الدين متين ، فأوغلوا فيه برفق] وإسناده حسن[(1)].

وفي صحيح البخاري وسنن النسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [إن الدين يُسرٌ ولا يشادّ الدين أحدٌ إلا غلبه ، فسدّدوا وقاربوا وأبشروا ، واستعينوا بالغُدوة والرَّوحة وشيءٍ من الدُّلجةِ][(2)].

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: [هلك المتنطعون ـ قالها ثلاثاً][(3)] وهم المتعمقون المتشددون.

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: [كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم أمرهم من الأعمال بما يطيقون ، قالوا: إنا لسنا كهيئتك يا رسولَ الله ، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فيغضب حتى يُعرف الغضبُ في وجهه ثم يقول: إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا][(4)].

وله شاهد بلفظ: [عليكم من الأعمال ما تطيقون فو الله لا يَمَلُّ الله حتى تملوا] أخرجاه في الصحيحين عنها[(5)].

---

(1) صحيح الجامع (2242).
(2) صحيح الجامع (1607).
(3) مختصر صحيح مسلم (1824).
(4) صحيح الجامع (1529).
(5) وهو في صحيح أبي داود برقم (1238).

وإنما وصف الله عباده المعظمين له المؤمنين المخبتين لوجهه بقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: 90]. والرغب والرهب رجاء الرحمة والخوف من النار، وجعل جزاء المعظمين له ولأمره وشرعه بحصول الرضا لهم يوم القيامة. فقال جل ذكره: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: 71 - 72]. فجعل لهم رضواناً وهو خير من كل شيء: ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾. قال ابن القيم: (وأتى به مُنَكّراً في سياق الإثبات: أَيْ أَيُّ شيء كان من رضاه عن عبده فهو أكبر من الجنة).

كقول القائل:

قليــــل منـــك يقنعُنـــي ولكـــن   قليلـــك لا يقـــال لـــه قليـــل

وحـفَّ المُمَجِّديـن لـه ولأسمائـه، واللاهجين بذكـره المعظمين لكبريائـه سبحانـه، بملائكتـه ورضي عنهم وغفـر لهم. ففي الصحيحيـن عن أبـي هريـرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله عز وجل، تنادَوا: هلموا إلى حاجتكم فيُحفّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا فيسألهم ربهم ـ وهو أعلم ـ: ما يقول عبادي؟ قال: يقولون: يُسبّحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك فيقول: هل رأوني؟ فيقولون: لا والله ما رأوك، فيقول: وكيف لو رأوني؟ قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشدَّ لك عبادة، وأشدَّ لك تمجيداً وأكثرَ لك تسبيحاً. قال: يقول: فما يسألوني؟ قال: يقولون: يسألونك الجنة. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها. قال: يقول: فكيف لو أنهم رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشدَّ عليها حِرْصاً، وأشدَّ لها طلباً، وأعظمَ فهيا رغبةً. قال: فمِمَّ يتعوذون؟ قـال: يقولون: يتعوذون من النار، قـال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله ما رأوها. فيقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فِرَاراً وأشد لها مخافة. قال: فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم قال:

يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجة ، قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسُهم][1] .

3ـ الخوف والإشفاق والخشوع والخشية :

وهذه الصفات في قلب المؤمن يقتضيها توحيد الله وتوحيد أسمائه وصفاته ، فقد وصف نفسه بقوله : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج 12] . وبقوله : ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة : 40] . وبقوله : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران : 175] .

وقال أيضاً : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون : 57] . وقال : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور : 25 - 28] . وقال : ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه : 108] . وقال : ﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة : 44] .

قال الحسن البصري رحمه الله : (إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة ، وإن المنافق جمع إساءة وأمنا) .

فوصف سبحانه عباده المؤمنين بقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ . وقد أخرج الإمام أحمد في المسند عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : [يا رسول الله! الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: لا يا بِنت الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم ، أولئك الذين يسارعون في الخيرات][2] .

قال ابن القيم رحمه الله : (والوجل والخوف والخشية والرهبة ألفاظ متقاربة غير مترادفة) .

وفصّل بعضهم في ذلك . فقد قال أبو القاسم الجنيد رحمه الله : (الخوف توقع العقوبة على مجاري الأنفاس) .

---

(1) مختصر صحيح مسلم (1890) ورواه البخاري .

(2) أحمد (159/6) والترمذي (201/2) وانظر السلسلة الصحيحة (162) .

وقيل: (الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف). وقيل: (الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره). وقال أبو حفص: (الخوف سوط الله، يقوِّم به الشاردين عن بابه. وقال: الخوف سراج في القلب به يبصر ما فيه من الخير والشر وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله عز وجل فإنك إذا خفته هربت إليه).

فهذا كقوله تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ [الذاريات: 50 - 51].

فأثر إفراد الله بالألوهية في قلب المؤمن أن يَفِرَّ إليه، وأن يخافه فيزداد بذلك الخوف إقبالاً عليه والتجاء إليه، وإشفاقا وخوفاً من عقوبته، وخشوعاً نحوه في قلبه وخشية من أن يحل به سخطه ونقمته، كما قال إبراهيم بن سفيان: (إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها وطرد الدنيا عنها).

وكما قال ذو النون: (الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق).

وكما قال أبو سليمان: (ما فارق الخوف قلبنا إلا خرب. وقال: ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف فإن غلب عليه الرجاء فسد).

والخوف ليس مقصوداً لذاته بل لغيره كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (الخوف المحمود: ما حجزك عن محارم الله). ولذلك يزول الخوف عن أهل الجنة فهم لا خوف عليهم كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: 30]. وقال: ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾ [الأعراف: 49]. ولذلك قيل: (أكمل الأحوال اعتدال الرجاء والخوف وغلبة الحب، فالمحبة هي المركب والرجاء حادٍ والخوف سائق والله الموصل بمنه وكرمه).

والخشية أخص من الخوف فالخشية للعلماء بالله والخوف لعامة المؤمنين. وتفصيل ذلك:

أولاً: الخشية للعلماء هي خوفٌ مقرون بمعرفة بالله وأسمائه وصفاته وشرعه. فقد قال الله جل ثناؤه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28]. وقال نبيه عليه الصلاة والسلام: [إني أتقاكم لله وأشدكم له خشية] مسلم(1).

فالعالم بالله سبحانه يستحضر من الخوف ما لا يستحضره غيره من المؤمنين، لأنه يعيش معاني الحق أكثر ويدارس القرآن أكثر وصلته بميراث النبوة أكبر، ويعلم خطورة اتخاذ العلم مهنة للدنيا أو ابتغاء عرض من أعراضها.

فقد أخرج أبو داود في سننه وابن ماجه في سننه وابن حبان في صحيحه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليُصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة](2).

وكذلك أخرج ابن ماجه وابن حبان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا تماروا به السفهاء ولا تخيّروا به المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار](3).

وقد روى عبد الرزاق في مصنفه بإسناد منقطع لكن الدارمي وصله، وكذلك الحاكم، بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: [كيف بكم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير ويَهْرَمُ فيها الكبير وتتخذ سنة، فإن غيرت يوما قيل: هذا منكر، قيل ومتى ذلك؟ قال: إذا قلت أمناؤكم وكثرت أمراؤكم، وقلت فقهاؤكم وكثرت قراؤكم، وتُفقِّه لغير الدين، والتمست الدنيا بعمل الآخرة](4).

وروى أيضاً عبد الرزاق في مصنفه بإسناد صحيح عن علي رضي الله عنه أنه ذكر

---

(1) وله شاهد عند البخاري من حديث عائشة بلفظ: (إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا). صحيح الجامع (1529).

(2) ورواه أحمد بلفظ (عوضاً) بدل (عرضا) أيضاً، انظر صحيح الجامع (6035).

(3) تخريج الترغيب (68/1).

(4) تخريج الترغيب 1/(106).

فتنا تكون في آخر الزمان فقال له عُمر: متى ذلك يا عليّ؟ قال: [إذا تفقه لغير الدين وتعلم العلم لغير العمل والتمست الدنيا بعمل الآخرة][1].

ثانياً: المؤمنون في خوف مستمر من الله العظيم، أن تزل أقدامهم في هذه الدنيا: من وقوع في معصية أو اجتراح إثم أو فاحشة أو كسب حرام.

فهم في خوف أن يصيبهم من المال الحرام: فقد روى النسائي في سننه بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [يأتي على الناس زمان ما يبالي الرجل من أين أصاب المال؟ من حلال أو حرام][2].

وهم في خوف من الاختلاط بالنساء وأماكن المنكر وقد حذرهم نَبِيُّهُم من مغبة ذلك: ففي صحيح الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء][3].

فشبه عليه الصلاة والسلام هذه الدنيا بالفاكهة الحلوة المذاق والخضرة المنظر واللون وحذر من أن يتعلق قلب المؤمن بها، فالمؤمن في خوف دائم من مصائدها التي يُسخط الوقوع بأحبلها ربه عز وجل.

وهم في خوف من فجأة الموت وقلة الزاد والعمل، فيتجلى ذلك في حياتهم بكثرة ذكر هادم اللذات وفزعه، ولقاء الله سبحانه، وضعف الحيلة، فهم يذكرون دوماً وصية نبيّهم عليه الصلاة والسلام، فيما أخرجه البيهقي وابن حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [أكثروا ذكر هادم اللذات الموت، فإنه لم يذكره أحدٌ في ضيق من العيش إلا وسّعه عليه ولا ذكره في سعة إلا ضيقها عليه][4].

وفي الصحيحين والمسند عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: [إن رجلاً كان قبلكم رَغَسَهُ الله مالاً فقال لبنيه لما حُضِرَ: أيّ أب كنت لكم؟ قالوا: خير أب. قال:

---

(1) المرجع السابق (107).
(2) صحيح الجامع (7880).
(3) مختصر صحيح مسلم (2068).
(4) الإرواء (682).

إني لم أعمل خيراً قط ، فإذا مت فاحرقوني ثم اسحقوني ثم ذروني في يوم عاصف ففعلوا ، فجمعه الله فقال : ما حملك؟ قال : مخافتك فتلقاه برحمته][1] . فشعور المؤمن بالخوف من لقاء الله وهو على حاله من الذنب وقلة الزاد والعمل هو من آثار إيمان المؤمن بصفات ربه وأسمائه الحسنى وتعظيمه لهذه الأسماء والصفات فهو يعيش بذلك آثار يقينه بها .

فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ سورة الطور إلى أن بلغ قوله : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ فبكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه ، وقال لابنه : (ويحك ضع خدي على الأرض عساه أن يرحمني ثم قال : ويل أمي إن لم يغفر الله لي ، ويل أمي إن لم يغفر الله لي ، ويل أمي إن لم يغفر الله لي ثم قضى) .

وقال له ابن عباس رضي الله عنه : (مصَّر الله بك الأمصار وفتح بك الفتوح وفعل وفعل) ، فقال : (وددت أني أنجو لا أجر ولا وزر) .

وهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه كان إذا وقف على القبر يبكي حتى تبل لحيته وقال ذات يوم : (لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير) .

وخلاصة القول : أنّ الخوف لعامة المؤمنين ، وأنّ الخشية للعلماء بالله العارفين ، وبأنه على قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية ، فنبيّنا عليه الصلاة والسلام قال عن نفسه : [إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية [وفي رواية : خوفا] وقال : [والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون] رواه أحمد عن أبي ذر[2] .

فصاحب الخوف كما قال ابن القيم رحمه الله يلتجىء إلى الهرب والإمساك ، وصاحب الخشية يلتجىء إلى الاعتصام بالعلم ، ومثلهما مثل من لا علم له بالطب ، ومثل الطبيب الحاذق ، فالأول يلتجىء إلى الحمية والهرب والطبيب يلتجىء إلى معرفته بالأدوية والأدواء .

---

(1) صحيح الجامع (2073) .

(2) حسن . تخريج المشكاة (5347) .

ومن صَدَقَ الله في الخوف منه في دار الدنيا جمع له الأمن في قلبه ومستقبله في الدار الآخرة. فقد أخرج أبو نعيم والبزار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: [وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين، إن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع عبادي، وإن هو خافني في الدنيا أمَّنْتُه يوم أجمع عبادي] وحسنه الألباني(1).

وقد فصل بعضهم في تعريف المرادفات للخوف كالرهبة والوجل والهيبة والإجلال: فقد قيل:

الرهبة: (هي الإمعان في الهرب من المكروه وهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب). وفي التنزيل: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: 154].

والوجل: (هو رجفان القلب وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته أو رؤيته)، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: 60].

والهيبة: قيل هي (خوف مقارن للتعظيم والإجلال وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة). أما **الإجلال**: (فهو تعظيم مقرون بالحب). ففي الحديث: [إنَّ من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه وإكرام ذي السلطان المقسط] رواه أبو داود عن أبي موسى وحسنه الألباني(2).

وفي المسند عن عبادة، قال رسول الله ﷺ: [ليس من أمتي من لم يُجِّلَ كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا](3).

أما الإشفاق: فهو رقة الخوف. قال ابن القيم رحمه الله: (فنسبته إلى الخوف نسبة الرأفة إلى الرحمة. فإنها ألطف الرحمة وأرقها. قال: وبدايته إشفاق على النفس أن تجمع إلى العناد أو أن تسرع وتذهب إلى طريق الهوى والعصيان ومعاندة العبودية ثم هو إشفاق على العمل أن يصير إلى الضَياع. قال: وأوسطه: إشفاق على

---

(1) حسن. صحيح الجامع (4208).
(2) حسن. تخريج الترغيب (66/1).
(3) صحيح الجامع (5319) وتخريج الترهيب (66/1).

الوقت أن يشوبه تفرق ـ أي ما يفرقه عن الحضور مع الله عز وجل ـ وعلى القلب أن يزاحمه عارض ـ أي من شبهة أو شهوة أو فترة ـ قال: ونهايته إشفاق يصون سعيه عن العُجب ويكف عن مخاصمة الخلق ويحمل صاحب الإرادة على حفظ الجدّ). ثم فصّل فقال: (والمخاصمة للخلق مُفسدة للخُلق. فيشفق على خُلقه من هذا المفسد شفقة تصونه عنه. والإرادة يفسدها عدم الجد وهو الهزل واللعب، فيشفق على إرادته مما يفسدها فإذا صح له عمله وخلقه وإرادته استقام سلوكه وقلبه وحاله).

ولقد ضرب الله مثلاً في كتابه ليشفق المؤمن على عمله ألا يختم له بسوء، وألا يكون قد ضيع العمل بالرياء وحب الشهرة، وإشراك بعض الخلق في عوائد العمل بدلاً من تصفية التوجه به لله، فقال جل وعز: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 266].

وقد أخرج ابن جرير باسناده عن ابن جريج قال: سمعت أبا بكر بن أبي مليكة يخبر عن عبيد بن عمير أنه سمعه يقول: (سأل عمر أصحاب رسول الله ﷺ فقال: فيمَ تَرون أنزلت ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾؟ فقالوا: الله أعلم. فغضب عمر فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم. فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين. فقال عمر: قل يا ابن أخي، ولا تحقِّر نفسك! قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل. قال عمر: أي عمل؟ قال: لعمل. فقال عمر: رجل غنيّ يعمل الحسنات ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله كلها).

وفي رواية عن عطاء: (قال عمر: هذا مثل ضربه الله عز وجل فقال: أيود أحدكم أن يعمل عمره بعمل أهل الخير وأهل السعادة حتى إذا كان أحوج ما يكون إلى أن يختمه بخير حين فني عمره واقترب أجله، ختم ذلك بعمل من عمل أهل الشقاء فأفسده كله، فحرَّقه أحوج ما كان إليه).

وأما الخشوع: لغة فهو الانخفاض والذل والسكون. يقال خشع ببصره أي غضّه

وذلك كما قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾[1] أي سكنت وذلت وخضعت. والتخشّع: تكلف الخشوع، وكذلك الأرض إذا يبست وانخفضت فلم ترتفع بالري والنبات يقال إنها خاشعة كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ [فصلت: 39].

والخشوع كما عرّفه بعض العلماء بأنه: (قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل والجمعية عليه). وقيل: (الخشوع: الانقياد للحق). وقيل: (الخشوع: خمود نيران الشهوة وسكون دخان الصدور وإشراق نور التعظيم في القلب).

وقال الجنيد: (الخشوع تذلل القلوب لعلاّم الغيوب). وقال بعض العارفين: (حُسْنُ أدب الظاهر عنوان أدب الباطن).

وكان حذيفة رضي الله عنه يقول: (إياكم وخشوع النفاق. فقيل له وما خشوع النفاق؟ قال أن ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع). وكان يقول: (أول ما تفقدون من دينكم الخشوع وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة. ورب مصل لا خير فيه، ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعاً).

وهذا يصلح شاهداً لما أخرج الطبراني في الكبير بإسناد صحيح عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [أول شيء يرفع من هذه الأمة الخشوع حتى لا ترى فيها خاشعاً][2].

ولفظه من طريق شداد بن أوس: [أول ما يرفعُ من الناس الخشوع].

وقد عاتب الله المؤمنين في كتابه بقوله: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: 16].

قال ابن جرير في التفسير: (ألم يحن للذين صدقوا الله ورسوله أن تلين قلوبهم لذكر الله فتخضع قلوبهم له ولما نزل من الحق وهو هذا القرآن الذي نزله على رسوله ﷺ).

---

(1) طه (108).

(2) صحيح الجامع (2566).

وفي صحيح الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين)[1].

وقال ابن عباس: (إنّ الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن).

وقال الحسن: (استبطأهم وهم أحبّ خلقه إليه).

وقال القرطبي فيها: (رُوي أن المزاح والضحك كثر في أصحاب النبي ﷺ لما ترفهوا بالمدينة فنزلت الآية، ولما نزلت هذه الآية قال ﷺ: إنّ الله يستبطئكم الخشوع فقالوا عند ذلك: خشعنا).

قال العلامة ابن القيم في علامات الخشوع: (فمن علاماته: أن العبد إذا خولف وَرُدَّ عليه بالحق استقبل ذلك بالقبول والانقياد. قال: وجماع الخشوع التذلل للأمر والاستسلام للحكم والاتضاع لنظر الحق. قال: والتذلل للأمر: تلقيه بذلة القبول والانقياد والامتثال ومواطأة الظاهر الباطن مع إظهار الفعل والإعانة عليه حال الفعل وقبوله بعد الفعل. قال: وأما الاستسلام للحكم الشرعي فبعدم معارضته برأي أو شهوة. وأما الاتضاع لنظر الحق فهو اتضاع القلب والجوارح وانكسارها لنظر الرب إليها).

ثم ذكر قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حيث قال: (العارف لا يرى له على أحد حقاً ولا يشهد له على غيره فضلاً ولذلك لا يعاتب ولا يطالب ولا يضارب). ثم قال ابن القيم رحمه الله: (ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية من ذلك أمراً لم أشاهده من غيره وكان يقول كثيراً: (مالي شيء ولا مني شيء ولا فيَّ شيء) كما كان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المكدّى وابن المكدى ... وهكذا كان أبي وجدي

قال: وكان إذا أثني عليه في وجهه يقول: (والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت. وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً).

---

(1) مختصر صحيح مسلم (2170).

قال: وبعث إليّ في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه:

أنـا الفقيـر إلـى ربّ البـريـات ... أنـا المسيكين في مجموع حـالاتـي
أنـا الظلـوم لنفسـي وهـي ظـالمتـي ... والخيـر إن يـأتنـا مـن عنـده يـأتـي
لا أستطيـع لنفسـي جلـب منفعـة ... ولا عـن النفس لـي دفـع المضـرات
والفقـر لـي وصـف ذات لازم أبـداً ... كمـا الغنـى أبـداً وصـف لـه ذاتـي
وهـذه الحـال حـال الخلـق أجمعهم ... وكلهـم عنـده عبـد لـه آتـي).

فتأمل أثر صفات الله وأسمائه على قلوب عباده العارفين المؤمنين الخائفين الذين عرفوا ربهم وبحثوا في العلوم التي توصلهم إليه فظهرت آثارها عليهم، فكان توحيدهم له سبحانه توحيداً أسوتهم به توحيد الرسل وهو القول في الله بما يحب والعمل بمتقتضى ذلك العلم والحب.

وأما الخشية: فتعرف بضدها كما قال الحسن رحمه الله: (عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم، إن المؤمن جمع إحساناً وخشية والمنافق جمع إساءة وأمنا).

فقد روي أن عمر رضي الله عنه رأى رجلاً طأطأ رقبته في الصلاة فقال: (يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلوب).

ورأت عائشة رضي الله عنها شباباً يمشون ويتماوتون في مشيتهم فقالت لأصحابها: من هؤلاء؟ فقالوا: نسّاك. فقالت: (كان عمر بن الخطاب إذا مشى أسرع وإذا قال أسمع وإذا ضرب أوجع وإذا أطعم أشبع وكان هو الناسك حقاً).

وبهذا المعنى قال الفضيل بن عياض رحمه الله: (كان يُكرَهُ أن يُري الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه).

فإذا ظهرت آثار التوحيد لله في القصد والتوجه والتحاكم والخوف والتعظيم والخشوع والخشية والإشفاق على جوارح العبد وفي قلبه لم يبال هل أقبلت الدنيا أم أدبرت، وصار قلبه معلقاً برضاء ربه ولو سخط الناس، وصار مشفقاً من هيئة الختام ومفارقة الحياة الدنيا إلى دار البقاء والدوام، كما قال عمر رضي الله عنه:

(لا أبالي على أي حال أصبحت أو أمسيت . إن كان الغنى ، إنّ فيه للشكر وإن كان الفقر إن فيه للصّبر) .

وكما قال بعض السلف: (يا ابن آدم ، لا تدري أي النعمتين عليك أفضل: نعمته فيما أعطاك أو نعمته فيما زوى عنك؟) . وقال آخر: (نعمته فيما زوىٰ عني من الدنيا أعظم من نعمته فيما بسط لي منها . إني رأيته أعطاها قوما فاغتروا) .

4 ـ الرجاء والدعاء والاستعانة والتوسل والتوكل:

الرجاء حاد يحدو القلوب إلى المحبوب وهو الله سبحانه ويُطيّب لها السير إلى بلاده وهي الدار الآخرة . وقيل: (هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه) .

وقيل: (هو الثقة بجود الرب تعالى) . كما وصف الله المؤمنين في كتابه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء: 57] .

قال أبو جعفر: (هؤلاء الذين يدعوهم هؤلاء المشركون أرباباً «يبتغون إلى ربهم الوسيلة» يقول: يبتغي المدعُوّون أرباباً إلى ربهم القربة والزّلفة لأنهم أهل إيمان به ، والمشركون بالله يعبدونهم من دون الله «أيهم أقرب» أيهم بصالح عمله واجتهاده في عبادته أقرب عنده زلفة «ويرجون» بأفعالهم تلك «رحمته ويخافون» بخلافهم أمره «عذابه إن عذاب ربك يا محمد «كان محذوراً» متقّى) .

وعن عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ قال: (كان ناس من الإنس يعبدون قوماً من الجن فأسلم الجن وبقي الإنس على كفرهم فأنزل الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ يعني الجن)[1] .

قال ابن القيم رحمه الله: (فابتغاء الوسيلة إليه: طلب القرب منه بالعبودية والمحبة ، فذكر مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه: الحب والخوف والرجاء) . وقد ورد الرجاء في القرآن كثيراً نحو قوله سبحانه:

---

(1) مختصر مسلم (1245) .

﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت: 5].

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف: 110].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: 218].

وفي صحيح الإمام مسلم عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول ـ قبل موته بثلاث ـ [لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه](1). وفي الصحيح: [أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء](2).

وفي جامع الترمذي بإسناد حسن وكذلك عند ابن ماجه وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن أنس: [أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو بالموت فقال: كيف تجدك؟ قال: والله يا رسول الله إني أرجو الله وإني أخاف ذنوبي. فقال رسول الله ﷺ: لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمّنه مما يخاف](3).

وفي صحيح الإمام مسلم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار](4). وفي رواية في الصحيحين عنه: [من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبدُ الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حَقّ والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل](5).

وبين الرجاء وبين التمني فرق كبير، فالتمني لا يسلك صاحبه غالباً طريق الجد والاجتهاد، بل يكون مع الكسل. أما الرجاء فيكون مع بذل الجهد وحسن التوكل، فالأول كمن يتمنى أن يكون له أرض يبذرها ويسعد بثمرها، والثاني

---

(1) مختصر مسلم (455).

(2) رواه ابن حبان في صحيحه، ورواه الطبراني في الأوسط من حديث واثلة بلفظ: [إن الله تعالى يقول: أنا عند ظن عبدي بي، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر]. وانظر صحيح الجامع (1901).

(3) أحكام الجنائز (2).

(4) صحيح مسلم (43/1).

(5) صحيح الجامع (6196).

كحال من يجهد في أرضه فيفلحها ويرجو طلوع الزرع ، ولهذا فالرجاء لا يصح إلا مع العمل . وكذا المؤمن يرجو رحمة ربه ويخاف عذابه ، فيحمله ذلك الرجاء على الدعاء الحثيث والإلحاح وسؤال الله المغفرة والجنة ، ويحمله ذلك الخوف على ترك مسالك الشيطان واعتزال أهل المعاصي والاغتراب من أجل الله ، فينهى نفسه عن الهوى والله وعد هؤلاء بالرحمة منه لهم .

ففي جامع الترمذي عن أنَس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [قال الله تعالى : يا ابن آدم ، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم ، لو بلغت ذنوبك عَنانَ[1] السماء ، ثم استغفرتني غفرت لك ، يا ابن آدم ، إنك لو أتيتني بقُرابِ[2] الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة] .

وعلامة صحة الرجاء هو حسن الطاعة ، فمن عمل بطاعة رجا أجرها ، ومن تاب من معصية رجا غفرانها ، أما من تمادى بالتفريط ويرجو رحمة الله بلا عمل فهذا تمن كاذب وغرور ، فقد سئل أحمد بن عاصم : (ما علامة الرجاء في العبد؟ فقال : أن يكون إذا أحاط به الإحسان ألهم الشكر ، راجياً لتمام النعمة من الله عليه في الدنيا والآخرة ، وتمام عفوه عنه في الآخرة) .

وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : [قال الله عز وجل : أنا عند ظنِّ عبدي بي وأنا معه حين يذكُرني ، واللهِ ، لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجدُ ضالَّتهُ بالفلاة ، ومن تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ومن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً وإذا أقبل إليّ يمشي أقبلت إليه أهرولُ][3] .

فليظن العبد بربه خيراً ، وبأن واقعه الذي يؤلمه سيغيره له ، بصدق الرجاء والدعاء والأمل به سبحانه ، وبأن مع العسر يسراً وبأن مع الكرب فرجاً وبأن مع الصبر نصراً ، وليفرح بذكر ربه وليتمنّ لقاءه يفرح به الله ويحب لقاءه . وقد روي عن

---

(1) عنان السماء : ما عَنَّ لك منها أي ظهر إذا رفعت رأسك ، وقيل هو السحاب .

(2) وقُراب الأرض : بضم القاف وقيل بكسرها والأضم أشهر وهو ما يُقارب مِلأها .

(3) وله شاهد في مختصر مسلم (1917) باب : الحض على التوبة .

يحيى بن معاذ أنه كان يقول: (إلهي ، أحلى العطايا في قلبي رجاؤك وأعذب الكلام على لساني ثناؤك. وأحبّ الساعات إليّ ساعة يكون فيها لقاؤك).

وروي عنه أيضاً أنه قال: (يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال ، لأني أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص وكيف أصفيها وأحرزها؟ وأنا بالآفات معروف. وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف؟).

ومن آثار الإمام ابن القيّم في هذا الباب رحمه الله قوله: (وهكذا عادة المسافر: أنه إذا عاين القرية التي يريد دخولها أسرع السير وبذل الجهد وكذلك المسابق إذا عاين الغاية استفرغ قوى جريه وسوقه. وكذلك الصادق في آخر عمره: أقوى عزماً وقصداً من أوله ، لقربه من الغاية التي يجري إليها وكذلك الراجي يتخلص من تخذيل اليأس فيعاين نعيم الآخرة فيسرع السَّير).

وقال في موضع آخر: (فإن الطباع لها معلوم ورسوم تتقاضاها من العبد ولا تسمح له بتركها إلا بِعِوَضٍ هو أحب إليها من معلومها ورسومها وأجَلُّ عندها منه وأنفع لها ، فإذا قوي تعلق الرجاء بهذا العوض الأفضل الأشرف سمحت الطباع بترك تلك الرسوم وذلك المعلوم فإن النفس لا تترك محبوباً إلا لمحبوب هو أحب إليها منه أو حذراً من مَخوف هو أعظم مفسدة لها من حصول مصلحتها بذلك المحبوب).

وهذا النظم بهذه المعاني:

لا تخف وحشة الطريق إذا ... جئت وكن في خفارة الحب سائر
واصبر النفس ساعة عن سواهم ... فإذا لم تُجَبْ لصبر فصابر
وافْطِم النفس عن سواه فكل العيـ ... ـش بعد الفطام نحوك صائر
يا أخا اللب إنما السير عزمٌ ... ثم صبر مؤيد بالبصائر
يالها من ثلاثة مَنْ يَنَلْها ... يَرْقَ يوم المزيد فوق المنابر

ولابن القيم أبيات جميلة بهذا الباب:

لولا التعلق بالرجاء تقطعت ... نفس المحب تحسراً وتمزقا
وكذاك لولا برده بحرارة ... الأكباد ذابت بالحجاب تحرقا

أيكون قط حليف حب لا يُرى ... برجائه بحبيبه متعلقا
أم كلما قويت محبته له ... قوي الرجاء فزاد فيه تشوقا
لولا الرجا يحدو المطيَّ لما سرت ... بحمولها لديارهم ترجو اللقا

أما **الدعاء** فهو العبادة ، وبه أمر الله سبحانه عباده حيث قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60]. فاعتبر سبحانه ترك دعائه كبراً ، فالعبد ما زال محتاجاً إلى الله جل ثناؤه ، وما زال مفتقراً إلى جوده وكرمه وعفوه ونعمته وهدايته وتوفيقه ، فلا يترك الدعاء إلا عاجز أصابه طرف من الكبر والعياذ بالله ، أما المؤمنون فقد وصفهم الله بأنهم أهل دعاء وبكاء ، أهل قيام بالليل ورقة وحزن وخوف ورجاء ، فقد قال جل وعز فيهم: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: 16].

قال مجاهد في التفسير: (يعني بذلك قيام الليل). وقال قتادة: (هو الصلاة بين العشاءين). وقال أنس: (هو انتظار صلاة العتمة).

وقال عبد الله بن رواحة:

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروف من الصبح ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أنّ ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وفي جامع الترمذي بإسناد صحيح عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: [أول ما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه فكنت فيمن جاءه ، فلما تأملت وجهه واستبنته عرفت أن وجهه ليس بوجه كذّاب. قال: فكان أولّ ما سمعتُ من كلامه أن قال: أيها الناس! أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصِلُوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام](1).

وفي المسند للإمام أحمد عن معاذ رضي الله عنه قال: [قلت يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار قال: لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير

---

(1) صحيح الترغيب (612/1).

على من يسره الله تعالى عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت. ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار وصلاة الرجل في جوف الليل ثم تلا ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ثم قال: ألا أدلك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد. ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه فقال: كف عليك هذا، فقلت يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: ثكلتك أمك يا معاذ وهل يُكبّ الناس في النار على وجوههم أو قال على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم][1].

فوصف سبحانه المؤمنين بأنهم أهل دعاء وبكاء، أهل رقة وخوف ورجاء، يبثون إلى الله العظيم همومهم وأحزانهم فيكشف الله بكرمه كما وعد مصابهم. ويَوْمَ انحسر الدعاء من حياة المسلمين وأصبح طقوساً يؤدونها وقد يظن بعضهم أنها لا تقدم ولا تؤخر، خَبَتْ روح الدعاء، وانقطعت الصلة بين العباد وبارئهم، واستسلموا للقدر عاجزين وقطعوا المناجاة بينهم وبين مليكهم القادر، ولم يرفعوا إليه حوائجهم وهمومهم حتى قال قائلهم (اللهم إنا لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه) لظنهم أن القدر لا يُرَدّ وأن القضاء لا يتغير، فاستسلموا للمصائب وأهملوا الدعاء وتعقدت أحوالهم وأمورهم وأحزانهم، وانعكست على نفوسهم وقلوبهم وعلاقاتهم، ودفعوا ثمن جهلهم بصفات الله وأسمائه الحسنى.

لقد أخرج الإمام الحاكم بإسناد حسن عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: [لا يغني حذر من قدر والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وإن البلاء لينزل فيتلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة][2].

---

(1) ورواه الترمذي. وانظر صحيح الترغيب (587/1) في سبب نزول الآية.

(2) حسن. تخريج المشكاة (2234) وصحيح الجامع (7616).

وفي صحيح الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [إنه مَنْ لَمْ يسأل الله تعالى يغضب عليه][(1)] .

فلرب ضائقة يضيق بها الفتى ذرعاً   وعنـــد الله منهـــا المخـــرج

ضـاقـت فلمـا استحكمـت حلقـاتهـا   فـــرجـت وكـــان يظنهـا لا تفـــرج

وأما **الاستعانة** فهي طلب العون ، والاستغاثة هي طلب الغوث وهو إزالة الشدة كالاستنصار وهو طلب النصر ، والمخلوق يُطلب منه من هذه الأمور ما يقدر عليه منها كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ ﴾ [الأنفال : 72] . وكما قال سبحانه : ﴿ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ ﴾ [القصص : 15] . وكقوله : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ ﴾ [المائدة : 2] . وأما ما لا يقدر عليه إلا الله فلا يُطلب إلا من الله ، لذا كان المسلمون الأوائل لا يستغيثون بالنبي ﷺ ، وإنما كانوا يستسقون به ويتوسلون بدعائه عليه الصلاة والسلام .

وإنما المغيث بمعنى المجيب ولكن الإغاثة أخص بالأفعال والإجابة أخص بالأقوال .

فمن وقف على قبر واستغاث بصاحب القبر أن يكشف همه حتى ولو كان قبرَ نَبِيٍّ من الأنبياء فقد سأل غير الله مالا يقدر عليه إلا الله ، وهذا هو الشرك ، فإنه إذا مات ابن آدم انقطع عمله واحتاج هو إلى رحمة الله ومغفرته . ففي معجم الطبراني (الأوسط) وفيما أخرج أبو نعيم بإسناد صحيح في (أخبار أصبهان) عن أبي هريرة قال : مَرَّ النبي ﷺ على قبر دفن حديثاً فقال :

[ركعتان خفيفتان مما تحقرون وتنفلون ، يزيدهما هذا ـ يشير إلى القبر ـ في عمله ، أحبُّ إليه من بقية دنياكم][(2)] .

وأما **الوسيلة** في القرآن فهي ما يتقرب به إلى الله من الواجبات والمستحبات . فالوسيلة التي أمر الله بها الخلق بابتغائها هي التوسل إليه باتباع ما جاء به الرسول

---

(1) صحيح الجامع (2414) .

(2) السلسلة الصحيحة (1388) .

عليه الصلاة والسلام: فقد قال جل ثناؤه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: 35].

وقال سبحانه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ [الإسراء: 57].

أما من تقربّ بالمعاصي والآثام وترك سبيل الرحمن فقد ذمّه الله وعابه وأوعده عذابه، قال جل ثناؤه: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 175 - 176].

وقال جل ذكره: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: 146].

والمسلم مطلوب منه أن يسأل الله لنبيه الوسيلة وهي منزلة خاصة يوم القيامة، اختص الله بها محمداً عليه السلام من بين الأنبياء والرسل، وسيكون مردودها شفاعة لأمته يوم القيامة.

ففي المسند عن عبد الله بن عمرو، قال عليه الصلاة والسلام: [إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلَ ما يقول ثم صلوا عليَّ فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عبادِ الله وأرجو أن أكونَ أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلَّت عليه الشفاعة][1].

وفي المسند عن جابر، قال رسول الله ﷺ: [من قال حين يسمعُ النداء: اللهم ربّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آتِ محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة][2].

فلما دعوا للنبي ﷺ بذلك الخير استحقوا أن يدعو لهم هو يوم القيامة، وهي

(1) تخريج الإرواء (242).
(2) تخريج الإرواء (243) وصحيح أبي داود (540).

الشفاعة ، فالشفاعة نوع من الدعاء . لذلك كان التوسل المشروع في هديه عليه الصلاة والسلام هو أحد أنواع ثلاثة ، فإلى تفصيل ذلك .

التوسل وأنواعه :

النوع الأول : وهو التوسل بالله سبحانه أو باسم من أسمائه أو بصفة من صفاته .

فيتقرب العبد من ربه بتذلله بين يديه وبقوله يا الله يا رحمان يا ودود يا سميع يا مجيب دعوةِ المضطرين ، يا غافر الذنوب ويا كاشف الضر ، أغثني وأجرني من مصيبتي ، أو اقض لي حاجتي كذا وكذا . . . . فهو بذلك يتوسل باسم من أسماء الله سبحانه ، وقد يتوسل بصفة لله فيقول : اللهم إني أسألك بالقرآن العظيم أن تكشف عني كربي وهمي ، أو يقول : اللهم إني أسألك بحبك لنبيك محمد ﷺ ، أو اللهم إني أتوسل إليك بحبك للصالحين وبغضك للكافرين أجب مطلبي وفرج همي كذا وكذا ، فهو بذلك يتقرب ويتوسل بصفة من صفات الله الكريم ، والله يستحي من عبده إذا رفع يديه يسأله أن يردهما خائبتين .

ففي المسند عن سلمان بإسناد صحيح عن النبي ﷺ قال : [إن الله تعالى حييّ كريم ، يستحي إذا رفع الرجلُ إليه يديه أن يردهما صِفْراً خائبتين](1) .

وفي المسند وصحيح ابن حبان وسنن النسائي وأبي داود وابن ماجه عن بريدة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : [من قال حين يصبح أو حين يمسي : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، فمات من يومِه أو ليلته دخل الجنة](2) .

وفي المسند أيضاً عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : [ما أصاب أحداً قط همٌّ ولا حَزَن فقال : اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماض فيّ حكمك عدل فيّ قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، وفي رواية (أو علمته أحداً من خلقك)

---

(1) تخريج الترغيب (272/2) .

(2) السلسلة الصحيحة (1747) وصحيح الجامع (6300) .

أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي ، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرجا . فقيل يا رسول الله ألا نتعلمها؟ قال بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها](1) .

فجعل الله التوسل إليه بأسمائه بعد الاعتراف بالعبودية له سبيلاً إلى كشف الهم ورفع الألم، فهذا باب من التوسل عظيم قد لا يجد العبد قلبه مهيئاً دوما لاستقباله وولوجه .

النوع الثاني : وهو التوسل إلى الله بعمل صالح . وأصل ذلك في قوله تعالى : ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾ [آل عمران : 193 - 195] . فلجؤوا إلى ربهم بعمل جليل وهو قبولهم الإيمان بالله ، والقيام بمقتضى ذلك من العلم والعمل والبذل والجهاد في سبيله ، فرضي الله عن تقربهم هذا واستجاب لهم ما سألوه .

وقد تقدم حديث النفر الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار فانحدرت صخرة فسدت عليهم الغار فلجؤوا إلى الله بصالح أعمالهم ، فتوسل الأول إلى الله ببرٍّ والديه والمبالغة في الإحسان إليهما وتفضيلهما على الولد والأهل ، وتوسل الثاني إلى ربه عز وجل بتركه الوقوع في الزنا تعظيماً لأمره وحياءً من وجهه الكريم سبحانه ، وتوسل الثالث إلى الله العظيم بالمبالغة في الأمانة وحفظ حقوق الناس فرضي الله عن حالهم وتوسلهم وكشف الصخرة من طريقهم . وهذه أمثلة عملية .

فالتوسل إلى الله تعالى بعمل صالح قام به الداعي هو من أنواع التوسل المشروع . ومن أمثلة ذلك أيضاً أمثلة قولية ، نحو قول المسلم : (اللهم بإيماني بك وحبي لرسولك ﷺ فَرِّج عني) أو قوله : (اللهم بحبي لأصحاب نبيك والتماسي منهاجهم اكشف مصيبتي) أو قوله : (اللهم إني أسألك بتعلق قلبي بالقرآن وحب تلاوته نوّر بصيرتي وارفع محنتي) ونحو ذلك .

---

(1) تخريج الأذكار . تحقيق د . أحمد راتب حموش . باب ما يقول إذا أصابه هم أو حزن .

ومن أمثلة ذلك القولية والفعلية معاً توجه سارة رضي الله عنها لما عرض لها الطاغية يريد انتزاعها لنفسه من إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

فقد أخرج البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [فقامت توضأ وتصلي قالت: اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي، فلا تسلط عليّ هذا الكافر، فغط حتى رَكَضَ بِرِجْلِه][1].

النوع الثالث: التوسل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح.

ومن ذلك ما في الصحيحين عن أنس: [أن رجلاً دخل المسجد يوم الجمعة ورسول الله ﷺ قائم يخطب. فقال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا. (وفي رواية: أصاب الناس سنة على عهد النبي ﷺ فبينما هو يخطب قائماً يوم الجمعة قام أعرابي فقال: يا رسول الله هلك المال وجاع العيال فادع الله لنا، فرفع يديه يدعو) ثم قال: اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا] الحديث[2].

ومن ذلك أيضاً ما رواه البخاري في كتاب الاستسقاء من صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه: [أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا. قال: فيسقون][3].

التوكل:

أما التوكل فهو عمل من أعمال القلب حقيقته معرفة الله سبحانه بأسمائه وصفاته كما مدح نفسه، وسره هو يقين العبد ورضاه عن قدر ربه وقضائه وقيوميته، ولا يستقيم إلا من أهل العمل ومواجهة القدر بالقدر، وإلا كان عجزاً وكسلاً.

وقد عرفه الإمام أحمد فقال: (التوكل عمل القلب). وقال عنه سهل: (التوكل الاسترسال مع الله مع ما يريد).

---

(1) أي سقط واختنق حتى ضرب برجله الأرض كأنه مصروع. والحديث رواه البخاري في كتاب البيوع من صحيحه. انظر مختصر البخاري (992).

(2) مختصر صحيح البخاري، كتاب الاستسقاء: (521).

(3) مختصر البخاري (520).

وقيل: (هو علم القلب بكفاية الرب للعبد). وقيل: (هو الرضا بالمقدور). وقيل: (التوكل هجر العلائق ومواصلة الحقائق). وقد امتدح الله المؤمنين بهذه الصفة العالية فقال جل ثناؤه: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم: 12]. وقال ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: 23]. وقال: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: 3]. وقال عن أوليائه أنهم يقولون: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة: 4]. ووصف أهل الإيمان بقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: 2].

وقال لنبيّه محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الملك: 29]. وقال: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ [النمل: 79]. وقال: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء: 81]. وقال: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ ﴾ [الفرقان: 58]. وقال له: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: 159].

وقال عن أنبيائه ورسله قولهم: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ ﴾ [إبراهيم: 12]. ووصف أتباع نبيّه بقولهم: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: 173].

وقد أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: [حسبنا الله ونعم الوكيل. قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل](1).

وللتوكل فضائل وخصائص عظيمة:

أولاً: رضىٰ المؤمن عن ربه عز وجل: فيمتلىء قلبه طمأنينة بالله العظيم، وتمتلىء حياته ثقة وأملاً بالرحمان الرحيم، فيخلص من التقلب والشكوك التي يعانيها القلب السقيم.

---

(1) تخريج رياض الصالحين (76).

فقد أخرج أبو داود والترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [من قال ـ يعني إذا خرج من بيته ـ بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله ، يقال له: هُديت وكُفِيتَ ووقيتَ ، وتنحَّى عنه الشيطان][1] . زاد أبو داود: [فيقول ـ يعني الشيطان ـ لشيطان آخر: كيف لك برجل قد هدِيَ وكُفِيَ ووُقِيَ؟] .

فالقلب الحي يمتلىء حياة بالتوكل ويضيف إلى التوكل الدعاء ، فقد علمنا نبينا ذلك ، ففي سنن أبي داود وجامع الترمذي عن أم المؤمنين أم سلمة ، واسمها هندُ بنتُ أبي أميةَ حذيفة المخزومية رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا خرج من بيته قال: [بسم الله ، توكلت على الله ، اللهم إني أعوذ بكَ أن أضِلَّ أو أُضَلَّ ، أو أزِلَّ أو أُزَلَّ ، أو أظْلِمَ أو أُظْلَم أو أجْهَل أو يُجْهَلَ عليَّ][2] .

وفي جامع الترمذي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصاً وتروح بطانا][3] . فيطمئن المؤمن المتوكل على الله على رزقه ولا يشغله عن ذكر ربه وعن عبادته والدعوة إلى أمره ، فيخلص من القلق الذي يقتل الناس عندما يعيشون لأرزاقهم ويهملون دينهم .

ثانياً: التوكل عدوّ الشيطان: فالمؤمن المتوكل يفسد على الشيطان وساوسه وطريقه إلى قلبه ، فالشيطان يجد الأرض الخصبة لحركته في القلب المشغول عن الله المعتمد على فلان وفلان من عباد الله ، فيملؤه ذعراً وخوفاً على المستقبل وعلى المال وعلى عرض هذه الحياة الدنيا ، طالما كان فارغاً من الحياة مع أسماء الله وصفاته العليا ، ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (ولذا لا يصح التوكل ولا يتصور من فيلسوف ولا من القدرية النفاة القائلين بأنه يكون في ملكه ما لا يشاء ، ولا يستقيم أيضاً من الجهمية النفاة لصفات الرب جل جلاله ، ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات) .

---

(1) صحيح الترمذي (2724) وتخريج المشكاة (2443) .
(2) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح . صحيح الترمذي (2725) تحقيق الألباني .
(3) صحيح الجامع (5130) .

وقال ابن القيم رحمه الله: (وحقيقة الأمر أن التوكل حال مركبة من مجموع أمور لا تتم حقيقة التوكل إلا بها فأول ذلك معرفة بالله وصفاته: من قدرته وكفايته وقيوميته وانتهاء الأمور إلى علمه وصدورها عن مشيئته وقدرته). وقال أيضاً: (التوكل من أعم المقامات تعلقاً بالأسماء الحسنى فإن له تعلقاً خاصاً بعامة أسماء الأفعال وأسماء الصفات فله تعلق باسم الغفار والتواب والعفو والرؤوف والرحيم. وتعلق باسم الفتاح والوهاب والرزاق والمعطي والمحسن وتعلق باسم المعز المذل الحافظ الرافع المانع من جهة توكله عليه في إذلال أعداء دينه وخفضهم ومنعهم أسباب النصر وتعلق بأسماء القدرة والإرادة).

فهذا التعلق كله يفسد على الشيطان طريقه ومخادعته كما حصل للمؤمنين يوم الأحزاب، فقال الله يصفهم: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 22].

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (كان آخِرَ قول إبراهيم ﷺ حين أُلقي في النار: حَسْبِيَ الله ونعم الوكيل)[1].

ثالثاً: بالتوكل يواجه المؤمن مصائب الدنيا والآلام والمحن: فيستجمع المؤمن طاقات قلبه ويقول كما علمه ربه ونبيّه: إنا لله وإنا إليه راجعون، فقد وصف الله المؤمنين المتوكلين بذلك فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ البقرة.

وقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: (إنا لله وإنا إليه راجعون) اللهم آجرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها إلا أخلف الله له خيراً منها. قالت: فلما مات أبو سلمة قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة، أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ؟ ثم إني قلتها، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ قالت: أرسل إلي رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له، فقلت: إن لي بنتاً وأنا غيور،

---

(1) قد مضى تخريجه.

فقال: أما ابنتها فندعو الله أن يغنيها عنها، وأدعوا الله أن يذهب بالغيرة][1].

ولهذا وضح بشر الحافي ذلك المعنى بقوله: (يقول أحدهم: توكلت على الله، يكذب على الله، لو توكل على الله لرضي بما يفعله الله به).

ولهذا قيل: (التوكل إسقاط التدبير)، يعني الاستسلام لتدبير الرب لك وهذا في باب التجربة الابتلائية وليس في باب الأمر والنهي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (المقدور يكتنفه أمران: التوكل قبله والرضا بعده).

رابعاً: يهون أمام المؤمن المتوكل أمر الطغاة والعتاة. فقد أفرز التوكل الذي بناه رسول الله ﷺ في قلوب أصحابه رجالاً خوفّوا الأرض وأذعروا ملوكها وجيوشها، فتحركوا في برهة وجيزة من الزمن فدكوا أكبر معقلين من معاقل الكفر في الأرض، دكّوا معقل فارس ومعقل الروم، فامتدحهم الله في كتابه وأثنى عليهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾ [آل عمران: 173 - 174]. وإمامهم بذلك نبيّهم أشجع الشجعان في الأرض عليه الصلاة والسلام، شجاعة اكتسبها من توكله على الله العظيم، فهان أمامه كل جبار لئيم.

ففي الصحيحين عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه: [أنه غزا مع رسول الله ﷺ قِبَلَ نَجْد، فلما قَفلَ رسول الله ﷺ قفل معه، فَأَدْرَكَتْهُم القائلة[2] في واد كثير العِضَاهِ[3]، فنزل رسول الله ﷺ وتفَرَّق الناس يستظلون بالشَّجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سَمُرَة فعَلَّق بها سيفه ونمنا نَوْمَةً فإذا رسول الله ﷺ يَدْعونا، وإذا عنده أعرابيٌّ فقال: إن هذا اخْتَـرَطَ عَليَّ سَيْفِي وأنَا نائم، فاسْتَيْقَظْتُ وهو في يده صَلْتاً، فقال: من يَمْنَعُك منّي؟ قلت اللهُ ـ ثلاثاً. وفي رواية للبخاري قال جابر: كنا مع رسول الله ﷺ بذات الرِقاع[4] فإذا أتَيْنا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ،

---

(1) أخرجه مسلم (37/3) وأحمد (309/6).
(2) القيلولة وهي النوم في الظهيرة.
(3) العضاه: الشجر الذي له شوك. والسَّمُرة: الشجرة من الطلح وهي العظام من شجر العضاه.
(4) غزوة سميت بذلك لأنهم شدوا على أرجلهم الخرق من شدة الحر وفقد النعال وقيل غير ذلك.

فجاء رجل من المشركين وسيفُ رسول الله ﷺ مُعَلّقٌ بالشجرة ، فاخْتَرَطَهُ[1] فقال: تَخَافُني؟ قال: لا ، قال: فمن يمنعك مني؟ قال: الله. وفي رواية أبي بكر الإسماعيلي في صحيحه فقال: من يمنعك مني؟ قال الله. قال: فسقط السيف من يده ، فأخذ رسول الله ﷺ السيف فقال: من يَمْنَعُكَ مني؟ فقال: كُنْ خَيْرَ آخِذ. فقال: تشهد أنْ لا إله إلا الله وأني رسولُ الله؟ قال: لا ، ولكني أعاهِدُك ألا أقاتِلكَ ، ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، فخلَّى سبيله ، فأتىٰ أصحابه فقال: جئتكم من عند خير الناس][2].

وفي الصحيحين أيضاً عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ـ واسمه عبد الله بن عثمان بن عامر بن عُمَرَ بن كعب بن سَعْدِ بن تَيْمِ بن مُرّة بن كعب بن لؤي بن غالب القرشِيِّ التيميّ رضي الله عنه ـ وهو وأبوه وأمه صحابة رضي الله عنهم ـ قال: [نظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار وهم على رؤوسنا فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدمَيْه لأبصرنا فقال: ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما][3]. فكيف يصيبهما ضَيْمٌ والله معهم أي بالنصر والحفظ والمعونة ، فمن يتوكل على الله فهو حسبه ، فالمؤمن المتوكل يهون عليه أمر الطغاة ومَنْ أمَرَ الله بمعاداته وجهاده ، فهو قد سما بتوكله فيقاتل بالله ولله ويستعين بالله ويصول ويجول في المعارك معتمداً على قوة من الله.

فقد أخرجا في الصحيحين واللفظ للإمام مسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول: [اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنَبْتُ وبك خاصَمْتُ. اللهم إني أعوذ بعزتك ، لا إله إلا أنت أن تُضِلَّني ، أنت الحيّ الذي لا يموت ، والجن والإنس يموتون][4].

أي استسلمت لحكمك وأمرك راضياً بقضائك قانعاً بقدرك يا إلهي يا رحيم ، وإليك رجعت في أموري كلها إلى عبادتك والإقبال على ما يقرب منك ، واعتمادي

(1) اخترط السيف: أي سَلَّه وهو في يده. وصَلْتاً أي مسلولاً.
(2) مختصر صحيح البخاري (1557) ورواه مسلم.
(3) السيرة النبوية على منهج الوحيين. د. مأمون حموش. ص 359.
(4) مختصر صحيح مسلم (1866).

على تدبيرك وحكمتك وبك خاصمت وعاديت أعداءك يا عظيم وأعداء دينك في سبيلك وانتصرت عليهم وبك أصول وبك أجول وبك أقاتل فأعوذ بعزتك وعظمتك أن تضلني فأنسب النصر لنفسي ولضعفي أو أعتمد على حَوْلي وقوتي من دونك.

خامساً: بصحيح التوكل يزداد باعث المؤمن لنيل المعالي ومكابدة الساعات في رفيع الأمور وأشرفها ورفيع الصلة بالله وعظيمها. فلا ييأس إذا قل السالكون في هذا السبيل وعكف الناس على الشهوات والأهواء وخضعوا لها، وسقط الشباب في الأمة صرعى الفلسفة والعجب بالغرب والرأي بل يزيده توكله بالله عزماً ومضاء وإتقاناً.

فقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: [عرضت عليَّ الأمم فرأيت النبيَّ ومعه الرُّهَيْط والنبيَّ ومعَهُ الرجل والرجلان، والنبيَّ ليس معه أحدٌ إذ رُفِعَ لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي فقيل لي: هذا موسى وقومُه ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب. ثم نَهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك الذي يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسولَ الله ﷺ وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله ـ وذكروا أشياء ـ فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: ما الذي تخوضون فيه؟ فأخبروه فقال: هم الذين لا يَرْقون ولا يَستَرقون ولا يتطيّرون وعلى ربهم يتوكلون. فقام عُكَّاشة بنُ مِحصَنٍ الأسدي فقال: ادْعُ الله أن يجعلني منهم فقال: أنت منهم. ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم فقال سبقك بها عُكَّاشَةُ][1]. والرُّهَيْطُ تصغير رَهْطٍ وهم دون عَشْرَة أنفس. والأفق: الناحية والجانب، وعُكّاشة بضم العين وتشديد الكاف وبتخفيفها والتشديد أفصح. فقد رتب الله سبحانه هذه الصفقة الكبيرة وهذا الأجر العظيم لذوي الهمم العالية والمراتب الرفيعة والاهتمامات العالية وهم المتوكلون على الله ببالغ الصدق

(1) صحيح مسلم (1/137 - 138).

فهم الذين لا يَرْقُون[1] : أي لا يُعوّذون وينفثون في العوذة وإنما الرقية الممنوعة هي ما كانت من أعمال الجاهلية والشعوذة والضلال أما الرقية المشروعة الجائزة فهي بالقرآن الكريم وما صح من هدي النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم. ثم هم أيضاً من صفاتهم العالية أنهم لا يسترقون لأنفسهم أي لا يطلبون الرقية لهم من غيرهم بل إن احتاجوا لجؤوا بأنفسهم إلى الله ربهم ، فلشدة توكلهم واعتمادهم المباشر على الله ، ولشدة توحيدهم وإيمانهم وصفائه من شوائب الشرك صغيره وكبيره لا يبثون همّهم وشكواهم إلا إلى الله العظيم الذي ابتلاهم ، وهم على ثقة به كاملة أن يكشف مصابهم ويجازيهم بالعافية في الدنيا والآخرة على صدق اعتمادهم وصلتهم. ثم هم موصوفون أيضاً بعد ذلك بأنهم لا يتطيرون أي لا يتشاءمون لا بالطيور كما اعتاد أهل الجاهلية ولا بغيرها من أدوات التشاؤم الحديثة وسبلها ، فهم حقيقة على ربهم يتوكلون ، فقد انعكس صدق توكلهم باهتمام في المعالي وأشراف الأمور ونبذ سفسافها فنالوا بالتوكل ما نالوا.

قال ابن القيم رحمه الله : (وكثير من المتوكلين يكون مغبوناً في توكله. وقد توكل حقيقة التوكل وهو مغبون. كمن صرف توكله إلى حاجة جزئية استفرغ فيها قوة توكله. ويمكن نيلها بأيسر شيء وتفريغ قلبه للتوكل في زيادة الإيمان والعلم ونصرة الدين ، والتأثير في العالم خيراً ، فهذا توكل العاجز القاصر الهمة. كما يصرف بعضهم همته وتوكله ودعاءه إلى وجع يمكن مداواته بأدنى شيء أو جوع يمكن زواله بنصف رغيف أو نصف درهم ويدع صرفه إلى نصرة الدين وقمع المبتدعين وزيادة الإيمان ومصالح المسلمين).

وفي صحيح الإمام مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه : [أنّ رسول الله ﷺ أخذ سيفاً يوم أحد فقال: من يأخذ مني هذا؟ فبسطوا أيديهم ، كلُّ إنسان منهم يقول: أنا أنا. قال: فمن يأخذه بحقه؟ فأحجم القوم ، فقال أبو دجانة رضي الله عنه : أنا آخذه بحقِّهِ ، فأخذه ففلق به هامَ المشركين][2].

فلما سألهم أخذه بحقه أحجم القوم أي توقفوا فإن للمعالي أهلاً وليس كل الناس

---

(1) وقيل هذا اللفظ شاذ في الحديث ، والصحيح لا يسترقون وإليه ذهب الألباني رحمه الله.

(2) صحيح مسلم (151/7).

لها بأهل ، فنهض لها من أهلهـا أبو دجانـة وهو سِمَـاك بـن خَرْشـة ففلق به هام المشركين أي شقَّ به رؤوسهم .

وقد أخرجا في الصحيحين عن أنس أيضاً رضي الله عنه قال: [غاب عمِّي أَنَسُ بنُ النَّضْر رضي الله عنه عن قتال بدر فقال: يا رسول الله غِبْتُ عن أوَّلِ قتالٍ قاتلت المشركين ، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليُرينَّ اللهُ ما أصنعُ. فلما كان يومُ أُحُد انكشف المسلمون فقال: اللهم أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني أصحابه ـ وأبْرَأ إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني المشركين ـ ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا سعدُ بن معاذ ، الجنةُ ـ ورب الكعبة ـ إني أجد ريحها من دون أُحُد. قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع ! قال أنس: فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف أوْ طعْنة بِرُمْح أو رميةً بسَهْم ، ووجدناه قد قُتِلَ ومثَّلَ به المشركون فما عرفَه أحد إلا أختُهُ ببنانِه. قال أنس: كنا نرى أو نظنَّ أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب: 23]][1]. وقوله ليُرِيَنَّ اللهُ روي بضم الياء وكسر الراء أي لَيُظْهِرَنَّ اللهُ ذلك للناس ورُوي بفتحهما ومعناه ظاهر والله أعلم. وقوله ما أصنع: قال القرطبي: (هذا الكلام يتضمن أنه ألزم نفسه إلزاماً مؤكداً هو الإبلاغ في الجهاد وبذل ما يقدر عليه ولم يصرح به مخافة ما يتوقع من التقصير وتبرؤاً من حوله وقوته ومع ذلك نوى بقلبه وصمم على ذلك بصحيح قصده ولذا سماه الله عهداً فقال: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾).

سادساً: بالتوكل يزداد المؤمن من الله قرباً ومن الناس حبّا.

فقد روى أبو نعيم في الحلية بإسناد صحيح عن أنس عن النبي ﷺ قال: [ازهد في الدنيا يحبك الله وأما الناسُ فانبذْ إليهم هذا يحبوكَ][2].

وله شاهد عند ابن ماجه والطبراني والبيهقي عن سهل بن سعد عن النبي ﷺ قال: [ازهد في الدنيا يُحبَّكَ الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبَّكَ الناس][3].

سابعاً: التوكل الحق جزاؤه الجنة. فقد قال الله في كتابه ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ

---

(1) السيرة النبوية على منهج الوحيين. د. مأمون حموش ص 556.
(2) صحيح الجامع (936).
(3) السلسلة الصحيحة (942) وصحيح الجامع (935).

ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: 173 - 174].

وفي الصحيحين عن أبي عمارَة البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: [يا فلان إذا أويتَ إلى فراشك فقل: اللهم أسلمتُ نفسي إليكَ ووجَّهتُ وجهي إليك وفوضْتُ أمري إليكَ، وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجىٰ منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبِنَبِيِّكَ الذي أرسلت فإنك إن مُتَّ من ليلتك مُتَّ على الفطرة وإن أصبحت أصبت خيراً](1).

وقوله يا فلان والمقصود أسيد بن حضير، وقوله وجهت وجهي إليك أي أقبلت عليك راضياً قانعاً وفوضت أمري إليك أي توكلت عليك في جميع شؤوني الدنيوية والأخروية وأرجعتها إليك، وألجأت ظهري إليك: أي اعتمدت عليك وتقويت بك، رغبة ورهبة إليك أي طمعاً في ثوابك وخوفاً من عقابك وليس لمسلم أن يتنكر لهذا أبداً، فإن مت من ليلتك مُتُّ على الفطرة أي مُتَّ على الإيمان.

وقد تقدم حديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب بأن محور صفاتهم أنهم على ربهم يتوكلون.

والخلاصة أن للتوكل درجات كثيرة أولها معرفة الرب بصفاته، وثانيها إثبات في الأسباب والمسببات، وثالثها رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل وصدق اعتماده واستناده وسكونه إلى الله العظيم، ورابعها حسن الظن بالله وتفويضه إليه، وخامسها الرضا عن الله وقدره، وخير جامع لهذه الصفات العالية هو دعاء الاستخارة فهو يتضمن هذه المراتب كلها وهو خير مثل على التوكل(2).

5 ـ اليقظة والمحاسبة والإنابة والتوبة:

وهذه الخصائص من مستلزمات التوحيد والعبودية لله العظيم. فقد قال جل ثناؤه في كتابه: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: 1-3].

---

(1) ورواه أبو داود. صحيح أبي داود (952/3).

(2) كما سيأتي ذلك مفصلاً إن شاء الله تعالى في بحث الإيمان بالقدر.

قال ابـن القيم: (أقسم سبحانـه أن كل أحد خاسر إلا من كمّـل قوتـه العلميـة بالإيمان وقوتـه العملية بالعمل الصالح، وكمل غيـره بالتوصية بالحق والصبـر عليه).

واليقظة هي صفة للقلب الحيّ الذي آمن بالحيّ القيوم فصار ينبض بالحياة في كل وقت وحين، يواجه ما يعتريه من غفلة ووسوسة شيطان رجيم إرضاءً للعلي الكريم.

وقيل: وكأنها هي القومة لله المذكورة في قوله: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ [سبأ: 46]. فالقومة لله هي اليقظة من سنة الغفلة والنهوض عن ورطة الفترة.

وقد عرفها ابن القيم رحمه الله حيث قال في مدارج السالكين: (فأول منازل العبودية (اليقظة) وهي انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين). قال: (فإذا انتبه شمّر للهِ بهمته إلى السفر إلى منازله الأولى وأوطانه التي سُبي منها). ثم قال: (وأول أنوارها: لحظُ القلب إلى النعمة، على اليأس من عَدِّها، والوقوف على حدّها والتفرغ إلى معرفة المنة بها، والعلم بالتقصير في حقها... قال: فأوجب له شهود تلك المنة والتقصير نوعين جليلين من العبودية: محبة المنعم، واللهج بذكره). فعلم أن الله يحتج بنعمه على خلقه وأن رحمته خير لهم من أعمالهم.

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند عن زيد بن ثابت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أحد ذهبا في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لدخلت النار][1].

أما **المحاسبة** فهي مراجعة القلب ومراجعة العمل والتمييز بين ماله وما عليه، وهل يصلح أن يلقى الله بما قدمه، كما قال عمر رضي الله عنه: (حاسبوا أنفسكم

(1) تخريج الطحاوية (447) وصحيح الجامع (5120).

قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، وتزينوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾).

وقال ابن القيم رحمه الله: (وبداية المحاسبة أن تقايس بين نعمته عز وجل وجنايتك فحينئذ يظهر لك التفاوت وتعلم أنه ليس إلا عفوه ورحمته أو الهلاك والعطب. . ثم قال: وأما سوء الظن بالنفس فإنما احتاج إليه لأن حسن الظن بالنفس يمنع من كمال التفتيش ويُلَبِّسُ عليه فيرى المساوىء محاسن والعيوب كمالاً . . . . ثم قال: فالرضا بالطاعة من رعونات النفس وحماقتها ، وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفاراً عقيب الطاعات لشهودهم تقصيرهم فيها وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه).

وقد أخرج البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال: [إنكم لتعملون أعمالاً هي أدقُّ في أعينكم من الشَّعْرِ ، كنا نَعُدُّهَا على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات] أي المهلكات.

لذلك كان من آثار صفات الله سبحانه في قلب المؤمن أن يتدارك ماضيه ويحاسب نفسه في كل وقت وحين وبين الفينة والفينة ، ويراقب قلبه ألا يلتفت إلى الفتن أو إلى مواقعها كأماكن الاختلاط وتواجد النساء الكاسيات العاريات ، وأن يبتعد عن رؤية الشاشات التي تنقل حركاتهن وفجورهن واختلاطهن.

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [إن الدنيا حلوةٌ خَضِرةٌ وإن الله تعالى مُسْتَخْلِفُكُمْ فيها فينظرُ كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء][(1)].

فشبه الدنيا بالفاكهة الحلوة الخضرة فيرغب الإنسان بالحلوة لمذاقها وبالخضرة لجمالها ولمنظرها ، فإذا اجتمعا زادت الرغبة بها لجمعها بين وصفين محبوبين ، فاتقوا الوقوع في مصائدها فالله مستخلفكم فيها أي جاعل بعضكم يرث ويخلف بعضاً فيها ، فلم تصل إليكم إلا بعد آخرين ، واتقوا النساء خاصة لخطر فتنتهن واجعلوا ذلك ذخراً لكم للآخرة ، كما قال جل ثناؤه: ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ

(1) قد مضى تخريجه.

فِيهِ﴾ أي أنفقوا من مال من تقدمكم وسيخلفكم فيه من بعدكم وستحاسبون عليه فاختاروا لآخرتكم ما تحرزون به أنفسكم غداً.

وبالمحاسبة يظهر للعبد فوارق بين الخير والشر وبين الصالح وما هو أصلح لذلكِ ، روى الإمام مسلم بهذا المعنى عن أبي طريف عَديٍّ بن حاتم الطائي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [من حلف على يمين ثم رأى أتقى لله منها فليأت التقوى][1].

وفي المحاسبة يحتاج المؤمن إلى العلم الذي يميز به بين الحق والباطل والهدى والضلال والضار والنافع ، فيهديه الله بنور العلم لاختيار الأمثل واتقاء الأسوء ، وبهذا المعنى أخرج الشيخان في صحيحهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [قيل يا رسول الله من أكْرَمْ الناس؟ قال: أتقاهمْ. فقالوا: ليس عن هذا نَسْألُكَ ، قال: فيوسف نبيُّ الله ابنُ نبيِّ الله ابنِ نبيِّ الله ابْنِ خليلِ الله. قالوا: ليس عن هذا نسألك ، قال: فَعَنْ معادِنِ العَرَب تسألوني؟ خيارُهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فَقُهُوا][2]. أي صار الفقه لهم سجية ، فإن العلم يعوضهم ما فاتهم من مفاخر الجاهلية فإنهم إذا علموا أحكام الشرع وعظموها في حياتهم وامتثلوها وقايسوا أمورهم بها فيرفعهم الله بذلك فيكونوا أكرم الناس بها.

وأما الإنابة: فهي المسارعة بالرجوع إلى مرضاته سبحانه في كل وقت وحين ، والإنابة لغة: الرجوع.

قال جل وعز يصف أهل الإنابة من أنبيائه والصالحين من أوليائه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: 75]. وقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: 6-8]. وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: 13]. ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: 54]. وقال جل ثناؤه: ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: 31].

---

(1) وفي مختصر صحيح مسلم (1019) من حديث أبي هريرة بلفظ مقارب.

(2) مختصر مسلم (1615) ورواه البخاري.

ووصف داود عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [ص: 24]. ووصف المشهد يوم القيامة: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: 31 - 33]. ووصف منهاج المؤمنين: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ [الزمر: 17]. والإنابة كما ذكر المحققون نوعان: إنابة لربوبيته وإنابة لألوهيته، فالإنابة الأولى: هي إنابة كل المخلوقات يشترك بها البر والفاجر والمؤمن والكافر، فهي لا تستلزم الإسلام بل تلاقي الشرك والكفر، فقد وصف الله الناس على مختلف أحوالهم وقلوبهم بقوله: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ [الروم: 33]، فهو وصف لجميع الناس فكل من أصابه ضر تشمله، ثم وصف حالهم بعد إنابتهم: ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝٣٣ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: 33 - 34].

أما إنابة الصالحين فهي إنابة لإلهيته، إنابة محبة وعبودية وتذلل وإقبال على بابه سبحانه و إعراض عما سواه، فقد وصفها بعض أهل العلم بأنها: (الرجوع إلى الحق إصلاحاً كما رجع إليه اعتذاراً، والرجوع إليه وفاء كما رجع إليه عهداً، والرجوع إليه حالاً كما رجعت إليه إجابة).

فقد قال جل ثناؤه: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾. فالمؤمن المنيب يعيش أثر صفات الله في قلبه فتحمله رهبته سبحانه وخوفه وعظمته على الرجوع المتسارع إلى الاحتماء برضاه سبحانه والأنس بمغفرته وقبوله، فلا تهنأ له عين وهو يشعر أن قلبه بعيد عن ربه جل ثناؤه، فتتحرك شفتاه بالاستغفار وتلهج بذكره والاعتذار من معصيته وإساءته.

واليوم تهدد الأمة أخطار محدقة وفتن قادمة يرقق بعضها بعضاً، هي بسبب جبال من الآثام وركام ضخم من المنكرات استباحها المسلمون في بلادهم وفي بيوتهم، وبسبب ضياع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبسبب غياب فئة الحق وعصبة الإيمان التي تقود الأمة في سفينة النجاة إلى شاطىء الإيمان بالله والصدق في الاستعداد للقائه والمجاهدة إلى إقامة أمره وشرعه ومنهاجه، رغم

الباطل المترنح وصولجانـه ، فلا ينفع والحالة هذه إلا صدق الإنابة واستئناف العمل.

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافراً أو يمسي مؤمنا ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرض من الدنيا](1).

وله رواية عند الترمذي بلفظ: (بادروا بالأعمال الصالحة فستكون فتن). فهي رواية مفسرة للأولى أي ليكن استعدادكم قائماً وجاهزيتكم حاضرة في التماس الأعمال الصالحة والمعالي ، فإن كثرة الخَبَث سيقابلها الله بكثرة فتن تهدد قلوب الناس ومستقبلهم عقاب الله لهم ، فستكون الفتن كقطع الليل المظلم ، وقطع الليل أي طوائفه ، فكلما ذهبت منه ساعة مظلمة أعقبتها ساعة مثلها ، وكذلك الفتن السود فيبيع المرء دينه بالعرض من الدنيا وهو المتاع والحطام ، فيصبح كافراً وسبب كفره أخذه حطام الدنيا في مقابلة دينه ، فالنجاة من مثل هذه الحال هو بالتمسك بالدين عند تتابع الفتن المضلة نسأل الله السلامة.

وللإنابة أحوال كثيرة تختلف بين مواطن كبيرة ، تتوزع على اللسان وعلى القلب وعلى المال وعلى القتال وعلى الصبر وعلى المجاهدة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيام لنصرة الحق عند اختلاف الرايات وفشو الباطل.

فهي **أولاً** إنابـة بالاستغفار والتذلـل لله حتـى يرضى: فالمؤمن لا يهنـأ قلبه ولا تنام عينه وهو يشعر بقسوة الذنب وألم البعد حتى يبادر لسانه إلى أن يلهج بذكر بارئه.

فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن شدّاد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عَبْدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعتُ ، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوءُ بذنبي فاغفِر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة ،

---

(1) صحيح الجامع (2811).

ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة][1].

ومعنى أبوء: أقِرُّ وأعترِف.

وقد وصف الله المؤمنين بسرعة إنابتهم إذا استذلهم الشيطان بوسوسة أو حشرجة فضعفوا عندها فقال جل ثناؤه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135].

قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد حدثنا سلمة حدثنا ابن إسحاق ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ أي: (إن أتوا فاحشة ﴿أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بمعصية، ذكروا نهي الله عنها وما حرّم الله عليهم فاستغفروا لها وعرفوا أنه لا يغفر الذنوب إلا هوَ).

وفي المسند للإمام أحمد بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: [ارحموا تُرحموا واغفروا يُغْفَر لكم، ويلٌ لأقماع القول، ويل للمصرين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون][2].

فالمؤمن مسراع إلى الاستغفار مبادر إلى إزاحة الخطيئة والظلم عن قلبه بذكر ربه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 110]. وإمامه بذلك نبيُّه عليه أفضل الصلاة والتسليم.

فقد روى مسلم في صحيحه عن الأغرِّ بن يسار المُزَني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [إنه لَيُغانُ على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة][3].

والغَيْنُ لغة السحاب والغيم وغان على قلبه وغين عليه أي غطى عليه وستر، فالمراد والله تعالى أعلم أن النبي ﷺ يصف قلبه حين ينصرف إلى ما يعترضه في الحياة الدنيا من أمور وهو بشر فيسهو عن الانشغال بالله تعالى أحياناً قليلة فيعد ذلك تقصيراً وذنباً فيفزغ إلى الله عز وجل لتداركه بالاستغفار.

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: [كان رسول الله ﷺ يُكثِرُ أن

---

(1) صحيح الجامع (3568).
(2) صحيح الحامع (910).
(3) صحيح الجامع (2411).

يقول قبل موته: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه][1].

وفي المسند عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنه قال: [إن كنا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس يقول: رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الغفور مائة مرة][2].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله تعالى بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم][3].

وعند الحاكم على شرط الشيخين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحيَّ القيومَ وأتوب إليه غُفِرَتْ ذنوبُه وإن كان قد فَرَّ من الزَّحف][4].

وهي **ثانياً**: إنابة في القلب بمعاكسة انشغاله بأحوال الدنيا ليسارع بالتوجه والانشغال بالله سبحانه.

فقد قال ابن القيم رحمه الله: (وما يحصل للمطمئن من الأحوال والعبودية والإيمان فوق ما يحصل لهذا المجاهد نفسه في ذات الله، وإن كان أكثر عملاً. فقدر عمل المطمئن المنيب بجملته وكيفيته أعظم، وإن كان هذا المجاهد أكثر عملاً. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. فما سبق الصديق الصحابة بكثرة عمل وقد كان فيهم من هو أكثر صياماً وحجّاً وقراءة وصلاة منه، ولكن بأمر آخر قام بقلبه، حتى إن أفضل الصحابة كان يسابقه ولا يَراه إلا أمامه).

وقد مضى حديث الإمام مسلم عن الأغر المزني أن رسول الله ﷺ قال: [إنه لَيُغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة]. فالقلب شديد التقلب شبهه عليه الصلاة والسلام بالريشة، فعند ابن ماجه بسند صحيح عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: [مثل القلب مثل الريشة تقلبّها الرياح بفلاة][5]. وكل القلوب بين

---

(1) وله شاهد في مختصر مسلم (294) في ركوعه وسجوده.
(2) وله شاهد في صحيح مسلم (73/8).
(3) مختصر مسلم (1922).
(4) قد مضى تخريجه.
(5) تخريج المشكاة (103) وصحيح الجامع (5709).

أصبعين للرحمان يقلبها كيف يشاء. ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، يُصرّفه حيث شاءَ](1).

فخير القلوب قلب رجّاع إلى الله لهاجّ بذكره وبتذكر نعمائه وفضله، متقلل من دنياه وإعمال النظر في زخارفها.

وهي **ثالثاً**: إنابة إلى الله بالمال وإنفاقه في الصدقات ووجوه نصرة الحق. وفي ذلك قال الله جل ثناؤه: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: 195].

﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: 7].

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 134].

وقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أبي سَرْوَعَةَ ـ عقبة بن الحارث ـ رضي الله عنه قال: [صليت وراء النبي ﷺ بالمدينة العَصْرَ، فسلَّمَ ثم قام مُسرعاً فتخطى رقاب الناس إلى بعض حُجَر نسائه، ففزع الناس مِنْ سُرْعته فخرج عليهم، فرأى أنهم قد عجبوا من سرعته قال: ذكرت شيئاً من تِبْرٍ عندَنا فكَرِهْتُ أن يحبسَني فأمَرْت بقسمته]. وفي رواية: [كنت خلَّفْتُ في البيت تِبْراً من الصدقة فكرهتُ أن أبيّتَهُ](2). والتبر: قطع ذهب أو فضة.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال: أن تصدق وأنت صحيح شحيح(3) تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تُمهل حتى إذا بلغت الحُلقوم(4) قلت: لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان](5).

---

(1) مختصر صحيح مسلم (1851).
(2) تخريج رياض الصالحين. د. أحمد راتب حموش (88).
(3) الشح: هو البخل مع الحرص.
(4) الحلقوم مجرى النفس والمري مجرى الطعام والشراب.
(5) مختصر صحيح مسلم (538).

ولمسلم عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: [يا معشر النساء تصدقن ، وأكثرن من الاستغفار فإني رأيتُكنَّ أكثرَ أهل النار. قالت امرأة منهن: مالنَا أكثرَ أهل النار؟ قال: تُكثرنَ اللَّعْن ، وتَـكفُرْنَ العشير ، ما رأيتُ من ناقصاتِ عقل ودين أغلب لذي لبٍّ منكن ، قالت: ما نقصانُ العقل والدين؟ قال: شهادة امرأتين بشهادة رجل وتمكثُ الأيام لا تصلي][(1)].

وفي رواية للبخاري عن أبي سعيد الخدري: [أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟ قلن: بلىٰ ، قال: فذلك من نقصان عقلها ، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟ قلن بلى! قال: فذلك من نقصان دينها]. وقوله تكفرن العشير أي تنسين جميل الزوج وتنكرن معروفه ، وقوله لذي لب أي لصاحب عقل.

وهي **رابعاً**: إنابة إلى الله بِقتال المشركين والجهاد في سبيل الله وعدم التولي في الزحف ومواجهة الذنوب بالصدق عند اللقاء. وفي هذا المعنى روى مسلم عن أنس رضي الله عنه: [أن رسول الله ﷺ أخذ سيفاً يوم أحد فقال: من يأخذ مني هذا؟ فبسطوا أيديهم ، كُلُّ إنسان منهم يقول: أنا أنا. قال: فمن يأخذُهُ بحقه؟ فأحجم القوم ، فقال أبو دجانة رضي الله عنه: أنا آخذه بحقه ، فأخذه ففلق به هام المشركين][(2)]. أي شق رؤوسهم. وفي الصحيحين عن جابر رضي الله عنه قال: [قال رجل للنبي ﷺ يوم أحد: أرأيت إن قُتلت فأين أنا؟ قال: في الجنة. فألقىٰ تمرات كنّ في يده ثم قاتل حتى قتل][(3)].

وهي **خامساً**: إنابة إلى الله بالصبر على المحن وعلى مدافعة حظ النفس وحب الشهوات والفتن.

فقد قال جل ثناؤه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: 17 - 18].

---

(1) مختصر مسلم (524).
(2) قد مضى تخريجه.
(3) السيرة النبوية على منهج الوحيين. د. مأمون حموش. معركة أحد.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [حُجبَتِ النارُ بالشهوات وحُجِبَتِ الجنة بالمكاره][(1)]. وفي رواية لمسلم (حُفَّت) بدل (حُجبت) والمعنى واحد أي بينه وبينها هذا الحجاب فإذا فعله دخَلها.

وكما قال بعض السلف: (لن تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس في ذات الله ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشد مقتاً).

وقال ابن القيم رحمه الله: (وإنما يستقيم الرجوع إليه إصلاحاً بثلاثة أشياء: بالخروج من التبعات، والتوجع للعثرات واستدراك الفائتات. قال: وإنما يستقيم الرجوع إليه عهداً بثلاثة أشياء: بالخلاص من لذة الذنب، وبترك الاستهانة بأهل الغفلة، تخوفاً عليهم مع الرجاء لنفسك وبالاستقصاء في رؤية علة الخدمة. قال: ولكن عبودية مجاهد نفسه على لذة الذنب والشهوة قد تكون أشق ولا يلزم من مشقتها تفضيلها في الدرجة، فأفضل الأعمال الإيمان بالله والجهاد أشق منه وهو تاليه في الدرجة ودرجة الصديقين أعلى من درجة المجاهدين والشهداء. ثم قال: وأما الاستقصاء في رؤية علل الخدمة فهو التفتيش عما يشوبها من حظوظ النفس وتمييز حق الرب منها من حظ النفس، ولعل أكثرها ـ أو كلها ـ أن تكون حظاً لنفسك وأنت لا تشعر. إلى أن قال: وإنما يستقيم الرجوع إليه حالاً بثلاثة أشياء: بالإياس من عملك وبمعاينة اضطرارك ورؤية لطفه بك). فيكون الرجوع إليه سبحانه إصلاحاً وعهداً وحالاً ويورث هذا النوع من الإنابة ذلاً لله وفقراً يحمله على التواضع والشعور بالافتقار إلى بارئه وتوفيقه فما طاع أحد الله إلا بتوفيقه وعونه. كما قال شيخ الإسلام رحمه الله:

والفقر لي وصف ذات لازم أبداً ... كما الغنى أبداً وصف له ذاتي

وهي **سادساً**: إنابة إلى الله بإحياء منهج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبإحياء مفهوم الجماعة لنصرة الحق وببث روح الوحيين في الأمة ورفع لوائهما عند اختلاف الرايات.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: 165].

---

(1) مختصر مسلم (1969).

وقال جل وعز: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [المائدة: 78ـ79].

وقال سبحانه: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104].

وقال أيضاً: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 110].

وقد أخرج الترمذي في جامعه بإسناد حسن عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعثَ عليكم عقاباً منه ثم تدعونهُ فلا يُستجاب لكم](1).

وعند أبي داود والترمذي والنسائي بإسناد صحيح عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: [يا أيها الناس إنكم لتقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنّ الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يَعُمَّهم الله بعقاب منه](2).

وفي المسند عن جبير بن مطعم عن النبي ﷺ قال: [نضَّر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها وحَفِظها ثم أدّاها إلى من لم يسمعها، فَرُبَّ حامل فقه غيرُ فقيه، ورُبَّ حامِلِ فقهٍ إلى من هو أفقه منه، ثلاثٌ لا يَغِل عليهن قلب امرىء مسلم: إخلاص العملَ لله والنصح لأئمة المسلمين ولزوم جماعتهم فإن دعوتَهم تحوطُ مَنْ وراءَهم](3).

أما عند اختلاف الرايات فالإنابة إلى الله تتضمن رفع لواء منهج الوحيين ونصر أهله أهل الحق. فقد أخرجا في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: [تلا رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾ وقرأ إلى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ

(1) صحيح الجامع (6947).
(2) تخريج المشكاة (5142).
(3) صحيح الجامع (6642).

﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ قالت: قال رسول الله ﷺ: فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم][1]. واللفظ لمسلم وعند البخاري (فإذا رأيت) بدل رأيتم. وتمام الآية السابقة وهي في سورة آل عمران: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

وفي صحيح الإمام مسلم أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [يكون في آخر الزمان دجالون كذابون يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم فإياكم وإياهم لا يُضلونكم ولا يفتنونكم][2].

وفي سنن الدارمي بسند صحيح عن حسان بن عطية[3] قال: [ما ابتدع قوم بدعة في دينهم إلا نزع الله من سنتهم مثلَها ثم لا يعيدها إليهم إلى يوم القيامة].

وعند البيهقي عن إبراهيم بن عبد الرحمن العُذري قال: قال رسول الله ﷺ: [يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريفَ الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين]. والحديث قد روي موصولاً من طريق جماعة من الصحابة وصحح بعض طرقه الحافظ العلائي في (بغية الملتمس) فإن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري تابعي مقل كما قال الذهبي، وقد أفاد في تصحيحه وتتبع طرقه العلامة المحدث الألباني رحمه الله[4].

وقد أخرج ابن عبد البر في (جامع بيان العلم وفضله) عن ابن مسعود قال: [من كان مُسْتَنّاً فليستَنَّ بمن قد مات، فإن الحي لا تُؤْمَنُ عليه الفتنة. أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة، أبَرَّها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلّها تكلفاً،

---

(1) صحيح مسلم (8/56 - 57).
(2) صحيح الجامع (8007).
(3) تابعي جليل توفي سنة (130).
(4) قد مضى تخريجه في المشكاة.

اختارهم الله لصحبة نبيّه ولإقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم على آثارهم[1] وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم ، فإنهم كانوا على الهُدى المستقيم].

وهي سابعاً: إنابة إلى الله عند الشعور بدنو الأجل ، فيرضىٰ المؤمن عن الله وقضائه ويستسلم لأمره.

فعند الترمذي بسند حسن عن أنس: [أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو بالموت فقال: كيف تجدك؟ قال: والله يا رسول الله إني أرجو الله وإني أخاف ذنوبي ، فقال رسول الله ﷺ: لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف][2].

ولحديث أم الفضل رضي الله عنها الذي أخرجه الحاكم على شرط البخاري: [أن رسول الله ﷺ دخل عليهم وعباس عم رسول الله ﷺ يشتكي فتمنى عباس الموت ، فقال له رسول الله ﷺ: يا عم! لا تتمن الموت ، فإنك إن كنت محسناً فأن تؤخر تزداد إحساناً إلى إحسانك خير لك وإن كنت مسيئاً فأن تؤخر فتستعتب من إساءتك خير لك فلا تتمن الموت][3].

فهذا ما وفقني الله سبحانه في فهم أبعاد الإنابة وأنها لا تقتصر على القول باللسان والاستغفار ، وإنما تشمل العمل ومنهج البناء والتغيير ، حتى تكون إنابة حقيقية يرى أثرها في حياة المؤمن وفي حياة جماعة المؤمنين.

وأما **التوبة**: فحقيقتها الرجوع إلى الله سبحانه ، وهذا الرجوع لا يصح ولا يتم إلا بمعرفة الرب بأسمائه وصفاته وآثارها في نفسه وفي الآفاق.

فالعبد ما وقع في مخالب عدوه إلا بسبب جهله بربه وجرأته عليه ، فلابد له أن يعرف كيف جهل؟ وكيف وقع أسيراً لشيطانه؟ ومتى عرف ذلك فلابد له أن يعاين الحسرة في قلبه على هذا الوقوع الذين حصل وأن يحدث توبة نصوحاً كما وصفها عمر بن الخطاب وأبي بن كعب رضي الله عنهما: (التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه ، كما لا يعود اللبن إلى الضَّرْع).

---

(1) وفي مخطوطة الحاكم: أثرهم.
(2) أحكام الجنائز (2).
(3) أحكام الجنائز (3).

ووصفها الحسن البصري رحمه الله بقوله: (هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى، مجمعاً على أن لا يعود فيه).

ووصفها سعيد بن المسيب بقوله: (توبة نصوحاً تنصحون بها أنفسكم).

وقال محمد بن كعب القرظي: (يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيء الإخوان).

قال ابن القيم رحمه الله: (وأول معاني التوبة: أن تنظر إلى ما كان من انخلاعك عن الاعتصام بالله حين إتيان الذنب وأن الله منع عصمته عنك، وأن تنظر إلى ما كان من فرحك عند ظفرك بذلك الذنب.

قال: فما خلّى الله بينك وبين الذنب إلا بعد أن خذلك وخلى بينك وبين نفسك ولو عصمك ووفقك لما وجد الذنب إليك سبيلا. قال: وتشتد الغفلة على مقارف الذنب حتى يفرح عند ظفره بشهوته المحرمة... وفرحه بها أشد ضرراً عليه من مواقعتها، والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبداً، ولا يكمل بها فرحه بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه. قال: ومتى خلي قلبه من هذا الحزن واشتدت غبطته وسروره فليتّهم إيمانه وليبْكِ على موتِ قلبه).

فالمؤمن لا ييأس من مغفرة الله له، بل يتوكل على رحمته سبحانه، فقد قال جل ثناؤه: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: 53].

وقد قال مجاهد في التفسير: «أسرفوا على أنفسهم» قال: (قتل النفس في الجاهلية). وعن ابن عباس: «لا تقنطوا من رحمة الله» قال: (لا تيأسوا من رحمة الله). وعن ابن جرير في قوله «إن الله يغفر الذنوب جميعاً» قال: (يقول: إن الله يستر على الذنوب كلها بعفوه عن أهلها وتركه عقوبتهم عليها إذا تابوا منها). ولهذه الآيات العظيمة أسباب نزول.

فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما: [أن أناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا وزنوا وأكثروا فأتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ

مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ ونزل: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾][1].

وعند الحاكم والبزار بإسناد رجاله ثقات عن عبد الله بن عمر عن عمر رضي الله عنهما قال: [كنا نقول ما لمفْتَتِن توبة وما الله بقابل منه شيئاً فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل فيهم: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ والآيات بعدها. قال عمر: فكتبتها بيدي في صحيفة وبعثت بها إلى هشام بن العاص. قال هشام بن العاص: فلما أتتني جعلت أقرؤها بذي طوى أصعد بها فيه وأصوب ولا أفهمها حتى قلت اللهم فهمنيها قال: فأُلقِيَ في قلبي أنها إنما أنزلت فينا وفيما كنا نقول في أنفسنا ويقال فينا قال: فرجعت إلى بعيري فجلست عليه فلحقت برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو بالمدينة][2].

ثم قال جل ثناؤه: ﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ قال السدي: (وأجيبوا)، وقال قتادة: (أي أقبلوا إلى ربكم). فالتائب يحتاج أن يقبل بصدق إلى الله وأن يلتمس أحسن الأعمال وأعلاها التي تدل على صدق إقباله وتوبته كما قال جل وعز: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾، قال أبو جعفر: (وأحسنه أن تأتمروا لأمره وتنتهوا عما نهى عنه لأن النهي مما أنزل في الكتاب فلو عملوا بما نهوا عنه كانوا عاملين بأقبحه فذلك وجهه). فليسارع المؤمن الذي آمن بأسماء ربه وصفاته سبحانه إلى التنزه عن المعاصي والخطيئات. وشروط التوبة:

أولاً: أن يكف عن الآثام وينقلع عن المحرمات.

وثانياً: أن يندم على ما فرط باجتراح السيئات.

وثالثاً: أن يعقد العزم ألا يعود إلى السقوط في هذه الآثام والزلات.

ورابعاً: أن يؤدي الحقوق إلى أصحابها وكذلك الأمانات.

وخامساً: أن يترك الصحبة الفاسدة التي تحمله على الموبقات. وأن يهاجر من

---

(1) الصحيح المسند من أسباب النزول. مقبل الوادعي. آية الزمر (53).

(2) المرجع السابق.

الأرض والقرية التي يعمل أهلها المنكرات إلى القرى والبلاد التي يغلب على أهلها فعل الحسنات .

فهذه شروط لابد منها للتائب الصادق ليتخلص من ماضٍ مليء بالظلمات . فتأمل تفصيل ذلك بعون الله فاطر الأرضين والسماوات ، وإمام المؤمنين بذلك نبيّهم محمد عليه أفضل السلام والصلوات .

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة][1] .

وكذلك أخرج الإمام مسلم عن الأغرّ بن يسار المزَنيّ قال : قال رسول الله ﷺ : [يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم إليه مئة مرة][2] .

فلأجل فرج مما نحن فيه من الضيق والهموم والمصائب، فلا طريق إلا بالتأسي بهديه عليه الصلاة والسلام بكثرة الاستغفار ، ولا سبيل إلا بالتذلل بين يدي الله بالدعاء والسجود في جوف الليل الذي يرقق القلب ويحمل المرء على الكسب الحلال ، وعلى إقامة الحق والعدل في الأقوال والأعمال. قال الله جل ثناؤه : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح : 10 - 13]. ويكون ذلك :

أولاً : بالكف عن المعاصي والآثام والابتعاد عن المحرمات : فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : [قال الله عز وجل : إذا تحدث عبدي بأن يعمل حسنة ، فأنا أكتبها له حسنة ما لم يَعْملَها ، فإذا عملها فإني أكتبها له بعشر أمثالها ، وإذا تحدث عبدي بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها من جرَّاي][3] . أي من أجلي ، فهذه أول مراتب التوبة والله يبارك بها ويثمرها ، وتلقى

(1) قد مضى تخريجه.
(2) مختصر صحيح مسلم (1916).
(3) مختصر صحيح مسلم (67).

عنده استقبالاً حسناً وفرحاً سبحانه جلت أسماؤه وصفاته ، فإن نقيض هذه الخطوة هو الإصرار واستمراء المعصية والمجاهرة بالفاحشة والعياذ بالله ، فتلك تلقى وعيداً وسخطاً عند الله سبحانه ، ويعجبني في هذا المقام كلام العلامة ابن القيم رحمه الله حيث قال : (وأشد من هذا كله المجاهرة بالذنب مع تيقن نظر الرب جل جلاله من فوق عرشه إليه ، فإن آمن بنظره إليه وأقدم على المجاهرة فعظيم ، وإن لم يؤمن بنظره إليه واطلاعه عليه فذلك كفر وانسلاخ من الإسلام بالكلية) .

وهذا مدخل للشيطان إلى قلب العبد لما اشتد إسرافه على نفسه ، ورأى خلفه جبالاً من الموبقات والفواحش والكبائر قد اجترحها واكتسبها ، فيهوّن عليه الشيطان الاستمرار ويسوف له المعصية ليركبها ويمنّيه الطاعة ليسوفها ، وبأنك ما زلت في مرحلة الشباب والقوة ، وما عليك لو أخرت التوبة قليلاً فالله غفور رحيم ، فيفسد بذلك على العبد دنياه وآخرته ويدعه في قلب سقيم ، ربما تدركه الشيخوخة وهو ما يزال منغمساً في الشهوات والملذات في سبيل عقيم . وكان أولى به أن يذلل لسانه بسؤال الله ورجائه أن يعينه على ترك هذا الشر والانتصار على ذاك الشيطان الرجيم . فيقول بلسانه : يا رب : إنه لم يكن مني ما كان عن استهانة بحقك ولا جهلاً بأمرك ولا إنكاراً لاطلاعك ولا استهانة بوعيدك وعذابك ، وإنما كان من غلبة الهوى وضعف الحيلة والقوى عن مقاومة مرض الشهوة وحب الرياسة والظهور ، وغرني بك الغرور والنفس الأمارة بالسوء وتأخير النظر في الموت والتدبر في عذاب القبور ، وأعانني على ذلك جهلي وعجزي وسترك المرخي علي فاغفر لي يا رحمان فالآن أبصرت واليوم أقبلت فلا تردني وتجاوز برحمتك عني .

ثانياً : بالندم على ما فرط وأسرف على نفسه باجتراح السيئات .

فقد قال الله جل ثناؤه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَـٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف : 201] .

وقال جل ذكره : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ

﴿لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135].

وقد أخرج الطبراني بإسناد حسن عن أبي سعيد الأنصاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [الندم توبة والتائب من الذنب كمن لا ذنب له](1).

وهنا أمر ينبغي التنبه له وهو أن الندم لابد أن يكون ندم تعظيم لله لا ندم علة وهو لا يشعر بها. وقد ضرب لذلك ابن القيم مثلاً بقوله: (كتوبة أرباب الحوائج والإفلاس والمحافظين على حاجاتهم ومنازلهم بين الناس... فتاب للحال لا خوفاً من ذي الجلال. أو أنه تاب طلباً للراحة من الكد في تحصيل الذنب أو اتقاء ما يخاف على عرضه وماله ومنصبه أو لضعف داعي المعصية في قلبه وخمود نار شهوته، أو لمنافاة المعصية لما يطلبه من العلم والرزق ونحو ذلك من العلل التي تقدح في كون التوبة خوفاً من الله وتعظيماً له ولحرماته وإجلالاً له، وخشية من سقوط المنزلة عنده، وعن البعد والطرد عنه والحجاب عن رؤية وجهه في الدار الآخرة. فهذه التوبة لون وتوبة أصحاب العلل لون) وفي هذا التفصيل فقه كبير.

ثالثاً: أن يعقد العزم ألا يعود إلى السقوط في هذه الآثام والزلات: وذلك بأن تكون توبة نصوحاً خالصة يفرح الله بها. فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك خادم رسول الله قال: قال رسول الله ﷺ: [لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخِطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفَرح](2). والخِطام: حبل بطرفه حلقة والخَطم من كل دابة مقدم الأنف والفم.

فالعزم الصادق أن لا يعود إلى ما وقع فيه مما يسخط الرب سبحانه يتضمن تعظيم الجناية واتهام التوبة، والغيرة لله والغضب له إذا انتهكت حرماته، أو خولفت أوامره، وبتعظيم الجناية لابد من تعظيم الأمر وتعظيم الآمر وتعظيم

---

(1) صحيح الجامع (6679).

(2) مختصر مسلم (1917).

الموقف بين يديه سبحانه. أما اتهام التوبة فيزيده ذلك عزما ويزيده من المعصية فراراً. كما قال ابن القيم رحمه الله: (ومن اتهام التوبة أيضاً ضعف العزيمة والتفات القلب إلى الذنب الفينة بعد الفينة وتذكر حلاوة مواقعته فربما تنفس وربما هاج هائجه. قال: ومن اتهام التوبة: طمأنينته ووثوقه من نفسه بأنه قد تاب حتى كأنه قد أُعطي منشوراً بالأمان. ثم قال: ومن علاماتها: جمود العين واستمرار الغفلة وأن لا يستحدث بعد التوبة أعمالاً صالحة لم تكن له قبل الخطيئة).

فيقابل الله العبد الصادق المقبل الذي عزم على الاحتراز من السقوط ثانية وأخلص في عزيمته، يقابله سبحانه بعفوه وكرمه ومغفرته، فقد فتح باباً سبحانه للصادقين في توبتهم لا يغلق إلى يوم القيامة. فقد أخرج الإمام الترمذي في جامعه بإسناد صحيح عن زِرّ بن حُبَيش الأسدي قال: [أتيت صفوان بن عسال رضي الله عنه أسأله عن المسح على الخفين فقال: ما جاء بك يا زِر؟ فقلت: ابتغاء العلم فقال: إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يطلب فقلت: إنه قد حك في صدري المسح على الخفين بعد الغائط والبول وكنْتَ امرءاً من أصحاب النبي ﷺ فجئت أسألك: هل سمعته يذكر في ذلك شيئاً؟ قال: نعم، كان يأمرنا إذا كنا سفراً ألا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن إلا من جنابة لكن من غائط وبول ونوم. فقلت: هل سمعته يذكر في الهوى شيئاً؟ قال نعم، كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فبينا نحن عنده إذ ناداه أعرابي بصوتٍ له جَهورَي: يا محمد فأجابه رسول الله ﷺ نحواً من صوته: هاؤم. فقلت له: ويحك اغضض من صوتك فإنك عند النبي ﷺ وقد نُهيت عن هذا؟ فقال: والله لا أغضُضْ. قال الأعرابي: المرء يحب القوم ولما يلحق بهم؟ قال النبي ﷺ: المرء مع من أحب يومَ القيامة. فما زال يحدثنا حتى ذكر باباً من المغرب يسير الراكب في عرضه أربعين أو سبعين عاماً ـ قال سفيان أحد الرواة: قبل الشام ـ خلقه الله تعالى يوم خلق السماوات والأرض مفتوحاً للتوبة لا يُغلق حتى تطلع الشمس منه][1].

ولهذا العزم علامات تثبت صدق صاحبه في إقباله على الله، منها:

1 ـ أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان عليه قبلها فيظهر الفرق في عمله وخلقه.

---

(1) تخريج رياض الصالحين (8/19).

2 ـ أن يبقى الخوف مصاحباً له فلا يأمن مكر الله وأن يتقطع القلب ندماً وخوفاً إذا ذكر الجناية.

3 ـ أن يظهر أثر هذا العزم بالتواضع بين المؤمنين والانكسار والخشوع فيزداد بذلك من المؤمنين قرباً.

رابعاً: أن يؤدي الحقوق إلى أصحابها ويردّ الأمانات: قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: 58].

وفي المسند للإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يُقضىٰ عنه][1] وإسناده صحيح. وفي الحديث أيضاً: [لا تخيفوا أنفسكم بالدين] رواه البيهقي عن عقبة بن عامر وحسنه الألباني في صحيح الجامع[2].

وعند النسائي بإسناد صحيح عن ميمونة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: [من أخذ دينا وهو يريد أن يؤديه أعانه الله][3].

خامساً: أن يترك الصحبة الفاسدة التي تحمله على الموبقات، وأن يهاجر من الأرض أو القرية التي يعمل أهلها المنكرات، إلى القرى والبلاد التي يغلب على أهلها فعل الحسنات.

فقد قال الله في كتابه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 97]. وقال أيضاً: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: 55 - 57].

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: [كان

---

(1) تخريج المشكاة (2915).

(2) انظر السلسلة الصحيحة (2420) وصحيح الجامع (7136).

(3) صحيح الجامع (5857).

فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على راهب فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة فقال: لا ، فقتله فكمل به مئة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على رجل عالم فقال: إنه قتل مئة نفس فهل له من توبة! فقال نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى إذ نصف الطريق أتاه ملك الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى. وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط ، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم (أي حكماً) فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنىٰ فهو له. فقاسوا فوجدوه أدنىٰ إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة][1].

[وفي رواية لمسلم: فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبرٍ فجُعِلَ من أهلها.

وفي رواية للشيخين: فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقربي وقال قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فَغُفِرَ له.

وفي رواية للإمام مسلم: فنأى بصدره نحوَها].

والخلاصة أن أسماءه الحسنى سبحانه تقتضي آثارها ، فلا تكتمل معرفة العبد بأسماء الله وصفاته ما لم يقتض هذا العلم ظهور معالمه في حياة العبد وسلوكه اقتضاء الأسباب لمسبباتها ، فاسم الرحيم يقتضي مرحوماً ، واسم الغفور يقتضي من يغفر له ، واسم التواب يقتضي من يتوب عليه ، واسم الحليم والعفو يقتضي من يعفو عنه ويحلم ، فعِلْمُ المؤمن بهذه الصفات يحمله على التضرع إلى الله والتذلل له وسؤاله العفو والمغفرة والتوبة والرحمة ، فيكون بذلك مرحوماً مغفوراً له قد تاب الله عليه، كما قال ابن القيم رحمه الله: (ويستحيل تعطيل هذه الأسماء والصفات إذ هي أسماء حسنى وصفات كمال ونعوت جلال وأفعال حكمة وإحسان وجود فلابد من ظهور آثارها في العالم).

فلا يكتمل توحيد عبد حتى يسأل الله ويتضرع إليه ويرجوه ويعظمه بقوله

---

(1) صحيح مسلم (8/103 - 104) ورواه البخاري.

وعمله. وفي الحديث: [إنه من لم يسأل الله تعالى يغضب عليه] رواه الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة(1).

لذلك جَبَلَ الله العبد على الضعف وسهولة الوقوع في المعصية، فلو انتفت المعصية والخطيئة من العالم فلمن يغفر وعمن يعفو ويحلم سبحانه، ولو بسط الله الرزق لعباده فصاروا أغنياء كلهم فأين من يسأله ويتضرع إليه، ولو صار الناس على أتقى قلب رجل منهم فعلى من يتوب سبحانه وعمن يتجاوز؟

وفي الحديث: [لو أنكم لم تكن لكم ذنوب يغفرها الله لكم لجاء الله بقوم لهم ذنوب يغفرها لهم] رواه مسلم عن أبي أيوب مرفوعاً(2).

وفي الحديث أيضاً: [لو أنكم لا تخطئون لأتىٰ الله بقوم يخطئون يغفر لهم] أخرجه الحاكم وصححه الألباني من حديث أبي هريرة مرفوعاً(3).

وفيه أيضاً: [لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون ليغفر لهم] رواه أحمد عن ابن عباس مرفوعاً وصححه الألباني(4).

فيا من أنعم الله عليك بالصحة والعافية فاستخدمتها في الزنا وشرب الخمور وأبليتها بالفواحش والآثام، عُدْ إلى ربك فتذلل له حتى يتوب عليك، ويا من أنعم الله عليك بالمال والجاه فاستعنت به على القمار وأكل المال الحرام، عد إلى ربك فاسأله أن يتوب عليك، ويا من أنعم الله عليك بالسلطان والرياسة فاستعنت بها على الإفساد وتحكيم الشهوات والهوى والطغيان، ارجع إلى ربك فاسأله توبة نصوحاً تنجيك عنده وترفع غضبه عنك، ويا من دعاك إلى بابه فما وقفت عليه ولا طرقته، وفتحه لك فما ولجته، ارجع إلى ربك قبل أن تصل الروح إلى الحلقوم، وتذلل على عتبة بابه حتى يرضى ويتجاوز ويفتح لك طريقاً إلى جنته ورضوانه.

6ـ المراقبة والاستقامة والحياء والتهذيب والأدب:

وهذه الصفات أيضاً من مسلتزمات التوحيد وصدق العبودية لله الواحد الأحد،

---

(1) تخريج المشكاة (2238).
(2) أخرجه مسلم (94/8).
(3) أخرجه الحاكم (246/4) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (969).
(4) أخرجه أحمد (289/1) وانظر السلسلة الصحيحة (970).

فإن القلب الذي آمن بربه عز وجل وبأسمائه وصفاته انعكس ذلك على جوارحه وقلبه وعقله، فالتزم منهج المراقبة والاستقامة والحياء من خالقه وإلهه العظيم، وامتثل منهج التغيير في النفس بحملها على التهذيب والأدب الكريم ومعاكسة منهج الشيطان الرجيم.

وقد وصف الله نفسه في كتابه بأنه رقيب على عباده يعلم ما تخفي صدورهم ويعلم خائنة الأعين وما يجوب في نفوسهم ويرى تقلب قلوبهم: فقال جل ذكره: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: 52]. وقال أيضاً: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: 19]. وقال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: 4]. وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: 235]. وقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق: 14]. وقال لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: 48].

وفي حديث الإمام مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسؤال جبريل للنبي ﷺ قال: [أخبرني عن الإحسان؟ قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك][1].

وقد عرف ابن القيّم رحمه الله المراقبة بقوله: (المراقبة هي دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه. قال: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحا فاتهمه فإن الرب تعالى شكور. يعني أنه لابد أن يثيب العامل على عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه وقوة انشراح وقرة عين فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول).

وقيل: (علامة المراقبة إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظم الله، وتصغير ما صغر الله).

وقيل: (من راقب الله في خواطره عصمه في حركات جوارحه).

وقيل: (المراقبة خلوص السر والعلانية لله عز وجل).

---

(1) قد مضى بتمامه.

والخلاصة فالمراقبة حالة في القلب المؤمن بأسماء ربه وصفاته ، تحمله على تعظيم أوامره وحرماته واجتناب معاصيه ومسخطاته ، وإيثار رضاه على هوى نفسه وشهواته ، وخوفٌ سببه يقينه باطلاعه سبحانه على تصرفاته ، يدفعه إلى سياسة عمله بالعلم الذي يوصل إلى مرضاته.

ومن هنا قول بعض الصالحين: (إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب).

وقول أبي حفص لأبي عثمان النيسابوري: (إذا جلست للناس فكن واعظاً لقلبك ونفسك ، ولا يغرنك اجتماعهم عليك فإنهم يراقبون ظاهرك والله يراقب باطنك).

والمراقبة تشمل أموراً كثيرة:

أولاً: مراقبة القلب وتوجهه ويقينه: وهي من أعلى درجات المراقبة ، فيتعاهد المؤمن قلبه بين الفينة والفينة ، ويتأكد من سلامة توجهه وتعلقه بالله ، ومن سلامة يقينه بأسمائه وصفاته جل ثناؤه. ويمثل لهذا المقام ما رواه الترمذي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: [كنت خلف النبي ﷺ[1] يوماً فقال: يا غلام إني أعلِّمُكَ كلمات: احفظِ الله يحفظك ، احفظ الله تجِدْهُ تُجاهك ، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعْلَمْ: أنَّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيءٍ ، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلامُ وجفت الصُّحُف][2]. فأمره عليه الصلاة والسلام بقوله (احفظ الله) أي بملازمة تقواه واجتناب نواهيه وما لا يرضاه فإذا فعلت ذلك (يحفظك) أي في نفسك وأهلك ودينك ودنياك ، ثم أكد معنى آخر حين أمره بقوله (احفظ الله تجده تجاهك) أي تجده معك بالحفظ والإحاطة والتأييد والإعانة ، فإذا كان ذلك فلا أحد يقدر أن يَمسَّك بضر إلا أن يكون كتبه الله عليك ، ولا أحد يستطيع أن ينفعك إلا إذا قضى الله ذلك لك ، ولو اجتمعوا لذلك أو لذلك ، فهذا العلم لابد

---

(1) أي على دابته.

(2) تخريج المشكاة (5302).

أن يكون حاضراً في قلبك متيقناً به في أمورك وأحوالك فقد رفعت الأقلام أي تركت الكتابة بها وجفت الصحف التي فيها تقادير الكائنات ، وهذا من أحسن الكنايات وأبلغها عن تقدم كتابة المقادير والفراغ منها من أمد بعيد .

وللحديث رواية أخرى عند الإمام أحمد ولفظه : [احفظ الله تجده أمامك ، تعرَّف إلى الله في الرخاء يَعْرِفْكَ في الشدّة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن لِيُصيبَكَ ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أنّ النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً] .

ثانياً: مراقبة اللسان وما يخرج منه. فقد أخبر عليه الصلاة والسلام بأن أكثر مصائب الإنسان من لسانه وبأن من أشد أنواع الإفساد هو ما نطق به اللسان دون مبالاة من صاحبه ، ودون قيد من ناطقه ، قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران : 5]. وفي جامع الترمذي وسنن ابن ماجه عن بلال بن الحارث المزني أن رسول الله ﷺ قال : [إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه][1] . وفي المسند للإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : [من صمت نجا][2] . وعند الطبراني بإسناد جيد على شرط مسلم عن شقيق قال : لبى عبد الله رضي الله عنه على الصفا ثم قال : يا لسان قل خيراً تغنم ، اسكت تسلم ، من قبل أن تندم . قالوا : يا أبا عبد الرحمن هذا شيء أنت تقوله أم سمعته؟ قال لا سمعت رسول الله ﷺ يقول : [أكثر خطايا ابن آدم في لسانه][3] . وفيما روى العقيلي بإسناد حسن عن عائشة مرفوعاً : [يا عائشة إياك والفحش إياك والفحش ، فإن الفحش لو كان رجلاً لكان رجل سوء][4] .

وفيما أخرج أبو يعلى في مسنده والبيهقي في الشعب بإسناد صحيح على شرط

---

(1) صحيح الجامع (1615) .
(2) السلسلة الصحيحة (535) .
(3) السلسلة الصحيحة (533) وصحيح الجامع (1212) .
(4) السلسلة الصحيحة (537) .

البخاري عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب اطلع على أبي بكر الصديق رضي الله عنهما وهو يمد لسانه فقال: ما تصنع يا خليفة رسول الله؟ فقال: هذا أوردني الموارد، إن رسول الله ﷺ قال: [ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى الله اللسان على حدته][1].

وفي المسند عن عروة عن عائشة قالت: [الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات. لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: 1] إلى آخر الآية][2].

فَعِلْمُ المسلم بأن الله سميع عليم يسمع دقائق الكلام المنبعث من لسانه يحمله على تعظيم حرمات الله فلا ينطق إلا بخير، ولا يتكلم إلا بالحق، ويكثر من الاستغفار والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير فهن الباقيات الصالحات.

ثالثاً: مراقبة الجوارح فلا تنبعث إلا لخير أو لنصرة حق أو تعظيم لأمر أو لمباح يعين على الحق. قال تعالى ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: 19]. وقال جل وعز: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: 218 - 219].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى يغارُ، وغَيْرَة الله تعالى أن يأتيَ المرءُ ما حرَّم الله عليه][3]. والغَيْرَةُ أصلها الأَنَفة وهي الامتناع من الضيم ونحوه، وفي شرح مسلم: (أصلها المنع) والرجل غيور على أهله يمنعهم من التعلق بأجنبي بنظر أو غيره، وغيرة الله منعه الناس من الفواحش وسائر المحرمات، ولكنها غيرة تليق بجلاله، فإن الغيرة في حق الناس يقارنها تغير حال الإنسان وانزعاجه وهذا لا يكون في حق الله تعالى.

رابعاً: مراقبة الخُلُق والسلوك والنفوس والمشاعر: فالمؤمن الذي خاف مقام ربه وعلم عن صفاته سبحانه وما يليق بجلاله انعكس ذلك في حياته مع أهله وإخوانه

---

(1) السلسلة الصحيحة (535).
(2) الصحيح المسند من أسباب النزول. مقبل الوادعي. آية المجادلة (1).
(3) مختصر صحيح مسلم (1930).

ومع الناس عامة مراقبةً مستمرة لكل ما يخرج منه من قول أو عمل ، فيراعي بذلك أدب الاجتماع ومنهاج النصيحة ومقام العفو ومكانة الخلق الرفيع وأثره ، متأسياً بذلك بنبيه صلوات الله وسلامه عليه ، حيث كان يتخيّر من الكلام أحسنه ويتخير للنصيحة وقتها ، ويترك في قلوب من حوله محبة وأثراً. ففي جامع الترمذي بإسناد حسن عن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: [اتق الله حيثما كُنْتَ ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بِخُلُقٍ حسن][1].

خامساً: مراقبة الله في الكسب والمال وصحة المهنة والعمل. فإن إيمان المؤمن بغَيرة الله سبحانه أن تُؤتى المحارم والآثام يحمله على أن يتخير المهنة المشروعة والمال الحلال ويراقب الله في معاملاته وتجارته. وقد توعد النبي ﷺ المستهترين بطريقة الكسب وبالحلف الكاذب وبالبيع الذي قاربه غشّ ومخادعة.

ففي سنن النسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [يأتي على الناس زمان ما يبالي الرجل من أين أصاب المال؟ من حلال أو حرام][2].

وفي المسند عن ابن عمر مرفوعاً: [أطيب الكسب عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور][3].

وفي جامع الترمذي بإسناد حسن عن إسماعيل بن عبيد بن رفاعة عن أبيه عن جده: [أنه خرج مع النبي ﷺ إلى المصلى ، فرأى الناس يتبايعون فقال: يا معشر التجارّ! فاستجابوا لرسول الله ﷺ ، ورفعوا أعناقهم وأبصارهم إليه فقال: إن التجار يبعثون يوم القيامة فجاراً ، إلا من اتقى الله وبر وصدق][4].

وله شاهد في مسند الإمام أحمد وإسناده صحيح من حديث عبد الرحمن بن شبل مرفوعاً: [إنّ التجار هم الفجار. قيل يا رسول الله أوليس قد أحل الله البيع؟ قال: بلى ، ولكنهم يحدثون فيكذبون ويحلفون فيأثمون][5].

---

(1) حسن. صحيح الجامع (96).
(2) تخريج الترغيب (14/3).
(3) صحيح الجامع (1044).
(4) السلسلة الصحيحة (994).
(5) المرجع السابق.

سادساً: مراقبة الله في الصحة وجمال الخَلْقِ والقوة والعافية. لقد أثنى الله على موسى عليه السلام وقد آتاه من القوة حيث قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: 24]. وقد روى البيهقي في شعب الإيمان بإسناد حسن عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [لو لم تكونوا تذنبون، لخفْتُ عليكم ما هو أكبر من ذلك العُجْبَ العُجْبَ](1). فمن رزقه الله قوة فمراقبة الله بها أن يستعملها في نصرة الحق والجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته ومنهجه لا في ظلم الناس واختلاس أموالهم وهضم حقوقهم، ومن رزقه الله جمالاً في طلعته وهيئته فمراقبة الله سبحانه بالعفاف واجتناب العجب والبعد عن الفتن لا في مخالطة النساء واستجلاب عواطفهن واستعمال وسائل الشيطان للوقوع في الزنا والحرام.

سابعاً: مراقبة الله سبحانه في الوقت. ففي جامع الترمذي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: [لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه، وماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وماذا عمل فيما علم](2). فالعمر هو الوقت وكثير من الناس مضيّعه، ونادم على صرفه في غير ذكر الله وفي غير الانشغال بالحق ونصرته أو الاهتمام بأمر المسلمين والإعداد للجهاد في سبيل الله والفوز برضوانه، فكم أفسد المسلمون اليوم علىٰ أنفسهم دينهم لما تعلقت قلوبهم بالصور العارية وبالأزياء والممثلات والراقصات، وبمسابقات الفن الساقط وبمسابقات الجمال والتعري للنساء أمام الرجال، وبمتابعة أخبار العشاق منهم وأخبار الاختلاط وتوابعه، وبمراقبة نجوم الرياضة من رجال ونسوة وما في هذه الأوساط من آثام وتعظيم لغير الله، وتضييع للصلوات وحشو للقلب بالصور المثيرة ولقطات الزنا، حتى أصبحت الصلاة عبئاً على كثير منهم لأنها فقدت معناها ولم يعد يشعر أحدهم بحب وإقبال عليها أو بخشوع في أدائها، فقد حُشِيَ القلب بمئات الصور والألوان ففرغ من حب الله والتعلق بأسمائه وصفاته وخشيته ورجائه والخوف منه والاستعداد للقائه، فيا حسرة على العباد كيف أنفقوا أوقاتهم حتى أتاهم ملك الموت فجأة فَحُمِلوا من أمام هذه الشاشات

---

(1) صحيح الجامع (5179).

(2) أخرجه الترمذي (67/2) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (946).

الماجنة إلى قبورهم وإلى مصائرهم ، فلا صَدَّق ولا صَلّى ولكن كذب وتولى ، ويا حسرة على الشباب كيف فُرِّغ من طاقات القوة والجهاد وتحدي الباطل ومقارعة أهله وحُبِّ الشهادة في سبيل الله وتمني لقائه والأنس بما أعدّ للصالحين والمجاهدين والشهداء في جنانه إلى الانغلاق والتعلق بمرض شهوة الزنا ومتابعة لقطاته والاهتمام بنجومه وتعبئة الوقت والجهد جله في التفكير بطرقه وكيف يحظى بالوقوع بغرامه. أضف إلى ذلك صرف الشباب إلى علوم لا تنفع وإلى مسابقات هدفها تفريغ قوى العقل والذكاء في توافه القول وتوافه العمل وما هو إلى سخط الله أسرع ، وإلى فتنة الحياة في الغرب والشغف إلى تقليد أبنائه وبناته الذين هم ضائعون تائهون كالبهائم ترتع.

وقد أشار صلوات ربي وسلامه عليه إلى هذه الحقيقة، فقد أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: [نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ][1].

وأما **الاستقامة**: فهي تصفية التوجه إلى الله من كل شائبة وتصفية القول والعمل بعَرْضه على موازين الحق ، وهي ثمرة العلم بالله وبأسمائه وصفاته وثمرة تنزيهه وتوحيده وإفراده بالعبودية، وقد أثنى الله سبحانه على أهلها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: 30 - 32]. فرفع من شأنهم وطمأن قلوبهم ، وأعدّ لهم نزلاً خاصاً بهم وهيأ من أسباب السرور والفرح لاستقبالهم.

وبَيْنَ الاستقامة وبين المراقبة صلة من النسب ، فإن استمرار المراقبة يقتضي الاستقامة ، فالصدق في التزام مقام المراقبة يورث الوصول إلى مقام الاستقامة. والاستقامة لها فرعان: استقامة مع الله ، واستقامة مع عباده.

والاستقامة مع الله تشمل:

أولاً: الاستقامة في فهم الدين والتزام منهج الوحيين واجتناب البدع. فقد

---

(1) صحيح الجامع (6654).

قال الله جل ثناؤه لنبيه معلماً أمته: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: 112]. وقال ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: 16]. وحين سئل أبو بكر رضي الله عنه عن الاستقامة؟ قال: (أن لا تشرك بالله شيئاً).

وروي عن عمر بن الخطاب قوله: (الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي ولا تروغ روغان الثعلب).

وعن عثمان رضي الله عنه قال: (استقاموا: أخلصوا العمل لله).

وعن علي وابن عباس رضي الله عنهم: (استقاموا أدّوا الفرائض). وعن الحسن: (استقاموا على أمر الله فعملوا بطاعته واجتنبوا معصيته). وعن مجاهد: (استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله). وعنه أيضاً: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ قال: (طريق الحق). وقد ذكر ابن القيم رحمه الله بعض هذه الآثار عن السلف الصالح رضوان الله عليهم وعرّفها بقوله: (فالاستقامة كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء. ثم أوضح أنه لابد من الاستقامة على الاجتهاد في الاقتصاد لا عادياً رسْمَ العلم ولا متجاوزاً حَدَّ الإخلاص ولا مخالفاً نهج السنة. قال: فإن الشيطان يَشُمُّ قلب العبد ويختبره. فإن رأى فيه داعية للبدعة وإعراضاً عن كمال الانقياد للسنة أخرجه عن الاعتصام بها وإن رأى فيه حرصاً على السنة وشدة طلب لها ولم يظفر به منقطعاً عنها: أمره بالاجتهاد والجور على النفس ومجاوزة حد الاقتصاد فيها). ونقل عن شيخ الإسلام قوله: (أعظم الكرامة لزوم الاستقامة). وقوله: (استقاموا على محبته وعبوديته فلم يلتفتوا عنه يَمْنَةً ولا يَسْرَة)[1].

وهذا المعنى غفل عنه أقوام فضلوا وابتدعوا فأضلوا، وما آفة السالك في طلب العلم إلا استحسان ما لم يشرعه الله ولا رسوله. لذلك قال الإمام الشافعي رحمه الله: (من استحسن فقد شرع). وقال بعض الصحابة: (اقتصاد في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة فاحرصوا أن تكون أعمالكم على منهاج

---

(1) مختصر مدارج السالكين (331).

الأنبياء عليهم السلام وسنتهم). وروي عن بعض السلف قوله: (ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان إما إلى تفريط وإما إلى مجاوزة وهي الإفراط، ولا يبالي بأيهما ظفر: زيادة أو نقصان).

ومن هنا نفهم الكلام الجامع الذي جمع فيه رسول الله ﷺ هذا المعنى بأبعاده وآفاقه. فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قال: [قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرَك قال: قل آمنت بالله ثم استقم][1].

ثانياً: استقامة بالثبات على الحق وإلا كانت الفتن: فقد قال الله في كتابه: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 63]. وقال أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: 13 - 14]. وقال جل وعز: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: 16 - 17].

يروي ابن جرير بإسناده عن عمر رضي الله عنه في قوله: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ قال: (أينما كان الماء كان المال وأينما كان المال كانت الفتنة).

واليوم ترى الناس حول المياه ينفقون الأموال على الخمور والمعازف والاختلاط بالنساء والتعري والفواحش، وكان أولى بهم أن يشكروا الله على هذه المياه التي فيها سبب للحياة والقوة، فيزيدهم من فضله ومدده ولكن الحال كما قال القائل:

وحول الينابيع حاناتهم ... وخلف المياه وتحت الشجر
ونسوتهم عاريات وقد أضعن الحياء وطهر الخفر
فلا من يغار على عرضه ... ولا من يقوم بغض البصر
وتؤتى الفواحش مفضوحة ... فلا من رقيب ولا من حذر

(1) مختصر صحيح مسلم (18).

وعن سعيد بن المسيب ، وقتادة والحسن قال: (كان والله أصحاب النبي ﷺ سامعين مطيعين ، ففتحت عليهم كنوز كسرى وقيصر والمقوقس والنجاشي ففُتنوا بها فوثبوا على إمامهم فقتلوه. يعني عثمان بن عفان). يعني الذين دخلوا في الإسلام أيام قوته ولم يتلقوا تربية أصحابه الأوائل ففتحت الدنيا فحملتهم على الفتنة لذلك قال قتادة في قوله ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ قال: (لو آمنوا كلهم لأوسعنا عليهم من الدنيا قال الله «لنفتنهم فيه» يقول: لنبتليهم بها).

وعن مجاهد: (﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ طريقة الإسلام ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ قال: نافعاً كثيراً ، لأعطيناهم مالاً كثيراً ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ حتى يرجعوا لما كتب عليهم من الشقاء).

فنسأل الله السلامة في الدنيا والآخرة ، فو الله ما أصعب من معرفة الحق إلا الثبات عليه ، ومن هنا تدرك أخا الإسلام أن تحويل توحيد الله بأسمائه وصفاته إلى مجرد علوم عن الله يضيفها المسلم إلى ذاكرته وعقله وعدم ربط آثارها بها ومعايشة لوازمها أخَّر المسلمين كثيراً وجعل من عقيدتهم علوماً كلامية فلسفية تمتلىء بها مناهج الجامعات الإسلامية في الشرق والغرب لا تنتج صحابة إلى يوم القيامة ، ولا تفرز رجالاً وقادة وعلماء يواجهون محن الأمة وينهضون لحراسة دينها وسياسة الدنيا به ، أو يصححون انحراف الأمة عن مسارها وعن نهجها بأقلامهم وسيوفهم وبدمائهم وأموالهم. فالله نسأل أن لا نقع في متاهات الفلسفة وعلم الكلام في فهم أصول الدين ومحاوره ، والله نسأل أن يرزقنا الثبات على منهاج الحق ولوازم توحيد أسمائه وصفاته ، خبر النبي ﷺ يرويه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [قاربوا وسدّدوا واعلموا أنه لن يَنْجُو أحد منكم بعمله ، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني(1) الله برحمة منه وفضل](2).

والمقاربة: هي القصْد الذي لا غُلُوَّ فيه ولا تقصير ، والسّداد هو الاستقامة والإصابة.

(1) يُلبِسُني ويَسْترني.

(2) ورواه أحمد عن جابر. صحيح الجامع (4173).

فالاستقامة بالثبات على الحق هي نظام الأمور وسلامة العاقبة وهي الأمن في الدنيا والآخرة والله المستعان.

ثالثاً: استقامة في القول والعمل: فمن لوازم توحيد الأسماء والصفات النطق بكلمة الحق وبما فيه صلاح الدنيا والآخرة، والنهوض بالعمل الصالح الذي يرضي الله العظيم السميع البصير، الذي يعلم ما يخطر في العقل وما يُتحدث في النفس وما يتحرك في القلب، وفي هذا المعنى قول الله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: 30].

وفي مسند الإمام أحمد عن ثوبان، عن النبي ﷺ قال: [استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن](1).

وفي الصحيح أيضاً: [من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو يسكت عن شر. قولوا خيراً تغنموا واسكتوا عن شر تسلموا](2)

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُحْسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت](3).

وفيه أيضاً عنه عن النبي ﷺ قال: [من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإذا شهد أمراً فليتكلم بخير أو ليسكُتْ، واستوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوجَ شيء في الضِّلَع أعلاه، إنْ ذهبتَ تقيمُهُ كسرتَهُ وإن تركتَهُ لم يزل أعوج، استوصوا بالنساء](4).

وفيه أيضاً عن فضالة بن عبيد، قال رسول الله ﷺ: [من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يأخُذَنَّ إلا مِثْلاً بمثْلٍ، يعني الذهب بالذهب](5).

---

(1) تخريج المشكاة (292).
(2) رواه مسلم عن أبي هريرة بلفظ مشابه. صحيح الجامع (6376).
(3) صحيح الجامع (6377) ومختصر مسلم (32).
(4) صحيح الجامع (6376) ومختصر صحيح مسلم (844).
(5) صحيح الجامع (6379).

وعند الترمذي بإسناد حسن عن جابر ، عن النبي ﷺ قال : [من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يَدْخُل الحمّام بغير إزار ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يُدْخل حليلتَهُ الحمام ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يُدار عليها الخمر](1) .

فتأمل بهذه النصوص الكريمة كيف عطف النبي ﷺ على الإيمان بالله واليوم الآخر مقتضياته ولوازمه ، فلا يصح ولا يكمل إيمان اقتصر على التصديق دون أن يتأثر به العمل ، فصدق المعرفة بالله وبصفاته تقتضي من المسلم أن يحسن إلى جاره ، وتقتضي من المسلم أن يقول خيراً أو يسكت ، وتحمل المسلم على أن يحسن عشرته لزوجته ، وتحمله على اجتناب الربا والمال الحرام ، وتدفعه إلى الغيرة على أهله وعرضه ، فلا يدخل حمّام السوق بغير إزار ولا يأذن لزوجته بدخول حمام السوق، بل تستحم في بيتها ولا يجلس على موائد الخمور والاختلاط وسهرات المعازف والتبرج والمنكرات .

أما فرع الاستقامة الثاني فهو الاستقامة مع العباد ، فيحمله إيمانه بالله ومعرفته بأسمائه وصفاته على إقامة العدل في علاقاته مع الناس ، وعلى أداء الأمانة والحقوق ، وعلى البشاشة في وجه إخوانه ، وعلى غض البصر وحفظ اللسان ، وعلى المخالقة بخلق حسن ، وعلى الحلم والعفو وكظم الغيظ والإنفاق في السراء والضراء ، فقد قال الله جل ثناؤه : ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء : 58]. وقال جل ثناؤه : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : 262] . وقال سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : 134] .

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : [إياكم والظَّنَّ فإن الظنَّ أكذبُ الحديث ولا تحسَّسُوا ولا تجسّسوا ولا تنافسوا

(1) حسن . صحيح الجامع (6382) .

ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم الله. المسلم أخو المسلم ، لا يظلمُهُ ولا يخذلُهُ ولا يحقِرُه ، التقوى ها هنا ، التقوى ها هنا ، التقوى ها هنا (ويشير إلى صدره). بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله ، إن الله لا ينظرُ إلى أجسادكم ولا إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم][1].

وفي روايـة : [لا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تجسسوا ولا تـحسسوا[2] ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانا].

وفي رواية : [لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا].

وفي رواية : [لا تهاجروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض]. كلها من روايات الإمام مسلم وروى البخاري أكثرها.

وعند الإمام مسلم أيضاً عن عبد الله بن مسعود ، عن النبي ﷺ قال : [لا يدخل الجنة سن كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كِبر! فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبهُ حسناً ونعلُه حسنةً فقال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكِبرُ بطَرُ الحق وغمْطُ الناس][3]. وبطر الحق دفْعُه ، وغمط الناس احتقارهم.

وفي صحيح الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره واستوصوا بالنساء خيراً][4].

فتأمل ثانية لوازم العلم بأسماء الله وصفاته كيف يأمر النبي ﷺ أن تظهر في واقع حياة المؤمن مع نفسه وولده وزوجته وجيرانه والمؤمنين ، فإن ظهر خلافها أو ما يتنافى مع مقتضياتها دلّ على أن العلم بالأسماء والصفات تحول إلى علم مجرد نظري هو عبارة عن مجرد عقليات وتصنيفات ، وأفسد المسلم عندها حياته وشوّه دينه وظهر بمظهر النقصان ، وعرّض نفسه للانتقاد والخذلان ، فنعوذ بالله أن

---

(1) مختصر مسلم (1803).
(2) التحسّس تتبع عورات الناس بالحواس ، والتنافس الرغبة في الشيء والانفراد به.
(3) مختصر مسلم (54).
(4) صحيح الجامع (6380).

يتحول العلم بالله وأسمائه وصفاته ومحامده إلى علم على طريقة أهل الكلام، والله المستعان.

وأما **الحياء** فهو ثمرة المراقبة والاستقامة ونتيجة الاستمرار على مقاميهما وهو يشير إلى حياة قائمة في القلب ، فهو علامة القلب الحيّ الذي خاف مقام ربه فعظم أمره واجتنب ما يسخطه.

فالحياء حالة في القلب المؤمن الذي أدرك معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1]. وقوله: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: 19]. وقوله ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: 14].

فالحياء من الحياة ، وقلة الحياة إشارة إلى مرض في القلب أو موت وضعف ، فكلما كان القلب أكثر حياة والروح أكثر نشاطاً ظهرت على جوارح العبد آثار الحياء.

والحياء مرتبط بالعلم بالله وأسمائه وصفاته ، فهو أثر الصدق بالإيمان بهذه الصفات العالية وبهذه الأسماء الحسنىٰ ، فهو نتيجة الحياة معها وفي ظلها ، وأحب أن أقسم الحياء إلى أربعة أنواع:

النوع الأول: حياء الإجلال والتعظيم والعبودية والمحبة لله: فهو حياء معرفة العبد بإلهه العظيم ، حياء ممتزج من محبة وخوف واتهام لعبوديته بعدم صلاحها للقائه سبحانه ، فشدة محبته لله يظهر أثرها في قلبه كحياء المحب من محبوبه ، الذي إذا خطر على قلبه هاج الحياء من قلبه ولا يدري ما سببه.

قال ابن القيم رحمه الله: (وكذلك يعرض للمحب عند ملاقاته محبوبه ومفاجأته له روعة شديدة ومنه قولهم (جمال رائع) وسبب هذا الحياء والروعة مما لا يعرفه أكثر الناس).

ومنه قول يحيى بن معاذ: (من استحيا من الله مطيعاً استحيى الله منه وهو مذنب).

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما: [أن

رسول الله ﷺ مَرَّ على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء[1]. فقال رسول الله ﷺ: دَعْهُ ، فإن الحياء من الإيمان][2].

وفيهما أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة ، فأفضلها قوْلُ لا إله إلا الله وأدْناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان][3].

النوع الثاني: حياء التقصير وتعظيم الجناية: وهو حياء ينبض به القلب المؤمن بصفات ربه والمستنكر لعجز أصابه ، فاستزله الشيطان حتى قصر في جنب الله وابتعد قليلاً ، فعاد القلب بعون ربه يضخ الحياء الذي يلهب مشاعره ، فيرى عظم الجناية وهَوْل السقوط فيلهج بذكر الله حتى يبدل له السيئة حسنة ويمحو أثرها من كتابه ومن نفسه وما يعكر عليه داخله وظاهره. قال الله جل ثناؤه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201].

قال الجنيد رحمه الله: (الحياء رؤية الآلاء ورؤية التقصير فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء. وحقيقته خُلُقٌ يبعث على ترك القبائح ويمنع من التفريط في حق صاحب الحق).

وقال الفضيل بن عياض: (خمس من علامات الشقوة: القسوة في القلب وجمود العين وقلة الحياء والرغبة في الدنيا وطول الأمل).

وهذا النوع من الحياء يشبه حياء الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، حتى إذا كان يوم القيامة ورأوا من آيات الله ما لم يروا شعروا بالتقصير فقالوا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك.

فقد رَوَى الحاكم والآجري في الشريعة بإسناد صحيح واللفظ للحاكم عن سلمان عن النبي ﷺ قال: [يوضع الميزان يوم القيامة فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسعت ، فتقول الملائكة: يا رب لمن يزن هذا؟ فيقول الله تعالى: لمن

---

(1) أي يحرضه على عدم ملازمته الحياء.
(2) مختصر البخاري (23).
(3) مختصر البخاري (9) ورواه مسلم.

شئت من خلقي فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك، ويوضع الصراط مثل حد الموس فتقول الملائكة: من تجيز على هذا؟ فقول من شئت من خلقي فيقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك][1]. فهؤلاء الملائكة الكرام لما عاينوا دقيق صنعه سبحانه وعظيم خلقه تقالّوا عملهم وعبادتهم، فلهجوا بذكره سبحانه حياءً منه، فقالوا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك. وكذلك المؤمن الذي يعيش في آثار صفات ربه عز وجل وفي رحاب أسمائه الحسنى إذا أبصرها وذكرها فما يملك إلا أن يشارك الملائكة قولهم سبحانك ما عبدناك حق عبادتك، فيحمله هذا على الندم على ما ضَيَّعَ من الوقت وعلى ما فات من العمر، فيستأنف بذلك همة جديدة وإرادة أفضل نحو العمل والاستعداد للقاء الله سبحانه كما حصل لأبيه آدم عليه الصلاة والسلام يوم عاين ثقل السقوط فقال حياء من الله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23].

النوع الثالث: حياء الكرم والإحسان: وهو حياء النفس العالية إذا أعانها الله على الإنفاق والعطاء، استحيا صاحبها من الآخذ وتمنى أن لا يواجهه، وعظم في نفسه خجلة الآخذ ووضع نفسه مكانه كأنه هو الآخذ السائل، لذلك قال الله يصف ذلك في كتابه: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [البقرة: 261 - 264]. فعطف هذه الخصلة السيئة وهي المن والأذى في الصدقة على عدم الإيمان بالله واليوم الآخر فدل على أن القلب المؤمن بالله واليوم الآخر يحمله حياؤه على الترفع عن جرح الآخذ أو النظر إليه نظرة انتقاص وفوقية.

ويشمل حياء الإحسان أيضاً حياء مرتبة الإحسان ذاتها. وهي كما عرفها النبي ﷺ لجبريل: [أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك] فينبض قلب المؤمن الذي بلغ مقام الإحسان حياء خاصاً من الله سبحانه، وأُحِبُّ أن أمثل لهذا

(1) رواه الحاكم (586/4) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (941).

بحديث النفر الثلاثة الذي هو في الصحيحين من طريق عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وخصوصاً الرجل الثاني منهم حيث قال: [اللهم إنه كانت لي ابنة عم كانت أحبَّ الناس إليّ. وفي رواية: كنت أحبها كأشدِّ ما يحب الرجال النساء، فأردتها عن نفسها فامتنعت مني حتى ألمّت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها عِشْرين ومِئة دينار على أن تُخَلِّي بيني وبين نَفْسِها ففعلت، حتى إذا قدْرتُ عليها. وفي رواية للبخاري: فلما قعدت بين رِجْليها، قالت: اتق الله ولا تَفُضَّ الخاتم إلا بحقه فانصرفت عنها وهي أحبّ الناس إليَّ وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها](1). فحمله حياء الإحسان بعد ما اعتراه من عجز وضعف على مغادرة المكان والخجل من الله العظيم، ومثله حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: [ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله](2). فانصرف عنها حياء من الله فأثابه سبحانه بأن أظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

وقد أشار العلامة ابن القيم رحمه الله لحياء الكرم بحياء النبي ﷺ من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب وطولوا الجلوس عنده فقام واستحيا أن يقول لهم انصرفوا. فقد أخرج الشيخان واللفظ للبخاري عن أنس رضي الله عنه: [أنه كان ابن عشر سنين مقدم رسول الله ﷺ المدينة، فكان أمهاتي يواظبنني على خدمة النبي ﷺ فكنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين أنزل، كان أول ما أنزل في مبتنى رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش أصبح النبي ﷺ بها عروساً، فدعا القوم فأصابوا من الطعام ثم خرجوا، وبقي رهط منهم عند النبي ﷺ فأطالوا المكث، فقام النبي ﷺ فخرج وخرجت معه لكي يخرجوا، فمشى النبي ﷺ ومشيت معه حتى جاء عَتَبَة حجرة عائشة، ثم ظن أنهم خرجوا فرجع ورجعت معه حتى إذا دخل على زينب فإذا هم جلوس لم يقوموا، فرجع النبي ﷺ ورجعت معه حتى إذا بلغ عتبة حجرة عائشة

---

(1) جزء من حديث طويل رواه البخاري في كتاب الإجارة ومسلم في كتاب الرقاق. وانظر صحيح الجامع (1516).

(2) جزء من حديث طويل. مختصر مسلم (537).

وظن أنهم خرجوا ، فرجع ورجعت معه فإذا هم قد خرجوا ، فضرب النبي ﷺ بيني وبينه بالستر وأنزل الحجاب](1) .

فمنعه حياء الكرم عنده صلوات ربي وسلامه عليه أن يشير عليهم بالانصراف حتى يتحرك فيهم الحياء فيخرجوا ، وكان يسعه أن يرسل غلامه للإشارة عليهم بأن يقوموا ولكنه بأبي هو وأمي أمثل الناس حياء وهو معلم الناس الحياء ، فصلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

النوع الرابع : حياء الحشمة وحياء المرء من نفسه : وهو حياء النفوس العزيزة العالية الرفيعة التي حصل لها من الرقة والشفافية ما يحملها على الاحتشام والحياء الذي يسبق كل قول أو عمل ، فإذا استحيا العبد من نفسه فهو بأن يستحي من غيره أجدر . وهذا النوع يحصل للمؤمن الذي اشتدت مراقبته لله سبحانه وغلبت على تصرفاته وعلى أقواله وحركاته وسكناته ، فلشدة استحضاره لمعاني الأسماء والصفات التي اختص الله بها نفسه ولشدة لهجه بذكر الله ولشدة دعائه له وقربه منه امتازت روحه ونفسه على من حوله بهذه الخصائص الكبيرة وبهذه الصفات الشريفة . وهذا النوع من الحياء يورثه التأمل الصادق لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : 102] . وقوله جل ثناؤه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة : 119] . ويورثه تعظيم قوله عليه الصلاة والسلام الذي رواه الإمام أحمد والترمذي والحاكم والبيهقي بإسناد حسن عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : [استحيوا من الله تعالى حقَّ الحياء ، من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى ، وليحفظ البطن وما حوى ، وليذكر الموت والبلا ، ومن أراد الاخرة تركَ زينة الحياة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء](2) . فإن صدق الالتزام بهذه الأوامر النبوية يورث هذا النوع العالي من الحياء وقد كان رسول الله ﷺ يتمثل هذا النوع من الحياء ويتجمل به .

ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : [كان رسول الله ﷺ

---

(1) صحيح مسلم (4/150 - 151) ورواه البخاري باللفظ السابق .

(2) حسن . تخريج المشكاة (1608) وصحيح الجامع (948) .

أشدَّ حياءً من العَذْراء في خِدرها ، فإذا رأى شيئاً يكرَهُهُ عرفناه في وجهه][1] .

وقال السري : (إن الحياء والأنس يطرقان القلب فإن وجدا فيه الزهد والورع وإلا رحلا) .

وقد يمثل لحياء الحشمة بحياء عليّ رضي الله عنه أن يسأل رسول الله ﷺ عن المذي لمكان ابنته منه .

فعند البخاري وغيره عن علي رضي الله عنه قال : [كنت رجلاً مذاء فأمرت رجلاً أن يسأل النبي ﷺ لمكان ابنته فسأل فقال : توضأ واغسل ذكرك][2] .

والخلاصة : فالحياء يتولد من علم العبد بنظر الحق إليه ، فإن العبد متى علم أن الله عز وجل ناظر إليه أورثه هذا العلم حياء منه يحمله على احتمال أعباء الطاعة ومجاهدة النفس واستقباح الجناية ، ويخلص الشكوى إلى الله وحده فتورثه الشكوى إليه سبحانه فقراً وذلاً وخوفاً ورجاء وطمعاً ومحبة وعبودية وإخلاصاً .

فإذا ذاق طعم هذه العبودية ازداد من ربه حياءً وقرباً وازداد قبوله بين الخلق .

ففي الصحيحين عن عمران بن حُصَين الخزاعي رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : [الحياء لا يأتي إلا بخير][3] .

فانظر إلى آثاره السابقة فكلما ازداد حياء ازداد تقرباً وتضرعاً ومحبة وخوفاً ورجاء وفقراً لخالقه عز وجل ، وعكسه قلة الحياء فهي تحرم العبد من هذه الصفات العالية ويفقد قبوله بين الناس .

ففي الصحيح عنه ﷺ أنه قال : [إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت][4] .

وفي معناه قولان عند العلماء أحدهما : أنه أمر تهديد ووعيد ، ومعناه الخبر ، أي من لم يستح صَنع ما شاء .

---

(1) مختصر صحيح مسلم (1568) .

(2) البخاري (132/1 - 230) ، وصحيح مسلم (247/303/1) .

(3) مختصر صحيح مسلم (31) ورواه البخاري باللفظ السابق .

(4) صحيح الجامع (2226) ، وهو في صحيح البخاري ومسند أحمد من حديث ابن مسعود .

والثاني: أنه أمر إباحة، أي انظر إلى الفعل الذي تريد أن تفعله، فإن كان مما لا يستحىٰ منه فافعله. وقد رجح ابن القيم رحمه الله المعنى الأول وهو قول الأكثرين والله تعالى أعلم.

ثمرة الحياء: 1 ـ المعية:

فإذا صدق العبد الحياء بادله الله إياه فصار قريباً من ربه جل ثناؤه، يبث إليه همومه وأحزانه فيستحي الله سبحانه أن يتركه في تعب ونصب فيفرج عنه ما أهمه وأغمه، ففي المسند للإمام أحمد بسند صحيح، وعند أبي داود في السنن وعند الترمذي في الجامع عن سلمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى حييّ كريم، يستحي إذا رفع الرجل إليه يديهِ أن يردَّهما صِفراً خائبتين][(1)]، فاكتسب المؤمن بحيائه من ربه معية خاصة. فالمعية نوعان: معية عامة: وهي معية العلم والإحاطة، وهي متمثلة بقوله تعالى ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ وقوله ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾. أما المعية الخاصة: فهي معية القرب والتوفيق، وهي متمثلة بقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ وقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وبقوله ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وبقوله ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فهي معية تتضمن النصر والتأييد والحفظ والموالاة، وهي معية تليق بجلاله سبحانه.

قال ابن القيم رحمه الله: (فإن (مع) في لغة العرب تفيد الصحبة اللائقة، لا تشعر بامتزاج ولا اختلاط، ولا مجاورة ولا مجانبة. فمن ظن منها شيئاً من هذا فمن سوء فهمه أُتِيَ).

ومثال هذه المعية من السنة، ما أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله تعالى قال: من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه وما يزال عبدي يتقرّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّهُ، فإذا أحببتُه كنت سمعُه الذي يسمعُ به، وبصرهُ الذي يبصر به، ويدهُ التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني

---

(1) تخريج الترغيب (272/2).

لأعطينَّه ، وإن استعاذني لأعيذنّه ، وما تردَّدتُ عن شيء أنا فاعِلُهُ تردّدي عن قبض نفس المؤمن ، يكرهُ الموتَ وأنا أكره مساءتَهُ][1] . فكفى بالحياء من الله سبحانه هذه المعية الرفيعة التي يحمي بها الربّ سبحانه وتعالى عبده ويكلؤه وينجيه من مكائد الشيطان .

فقد أخرج الترمذي والحاكم بإسناد صحيح عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : [إذا أحبَّ الله عبداً حماهُ في الدنيا كما يحمي أحدُكُم سقيمهُ الماء][2] .

2 ـ **القرب** : وهو من ثمرات الحياء ولا يكون إلا خاصاً ، وهو في القرآن والسنة نوعان : قربه سبحانه من داعيه بالإجابة ، وقربه من أهل طاعته بالإثابة .

ومثال الأول من القرآن قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : 186] .

قال ابن جرير : (يعني تعالى ذكره بذلك : وإذا سألك يا محمد عبادي عني : أين أنا؟ فإني قريب منهم أسمع دعاءهم وأجيب دعوة الداعي منهم) .

وقيل نزلت في سائل سأل النبي ﷺ فقال : [يا محمد ، أقريب ربنا فنناجيه أو بعيد فنناديه؟ فأنزل الله ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ ﴾ . الآية] .

فعن الحسن قال : [سأل أصحاب النبي ﷺ النبي ﷺ : أين ربنا؟ فأنزل الله تعالى ذكره : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ . الآية] .

وقيل : بل نزلت جواباً لمسألة قوم سألوا النبي ﷺ : أي ساعة يدعون الله فيها؟

فعن ابن جريج قال : [زعم عطاء بن أبي رباح أنه بلغه : لما نزلت ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ قال الناس : لو نَعلمُ أي ساعة ندعو! فنزلت ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾) .

---

(1) تخريج الطحاوية (500) .

(2) صحيح الجامع (279) .

وقيل بل نزلت جواباً لقوم إذ سألوا إلى أين ندعوه بعد أن قال الله لهم ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ .

فعن مجاهد : (﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ قالوا : إلى أين؟ فنزلت : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾) .

وقيل بل نزلت جوابا لقوم قالوا : كيف ندعوه ، فعن قتادة قال : (ذُكر لنا أنه لما أنزل الله ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ قال رجال : كيف ندعو يا نَبي الله؟ فأنزل الله ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ إلى قوله ﴿ يَرْشُدُونَ ﴾) . فهو القريب سبحانه بالإجابة لداعيه يستحي من عبده المؤمن إذا رفع يديه يسأله أن يردهما صفراً خائبتين ، ولقربه من داعيه بالإجابة هيئات ذكرها رسول الله ﷺ ، منها : أن يبيت طاهراً ، ومنها أن يغادر فراشه في الليلة الباردة إلى صلاة الفجر ، ومنها قيام الليل ، وغير ذلك من ذكر أو عمل .

فقد روى ابن حبان في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : [من بات طاهراً بات في شعاره ملك فلا يستيقظُ إلا قال الملكُ : اللهم اغفر لعبدك فلان فإنه بات طاهراً](1) .

وفي رواية عند أبي داود عن معاذ ولفظه : [ما من مسلم يبيت طاهراً فيتعارُّ(2) من الليل فيسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه الله إياه](1) .

وعند البخاري عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [من تعَارَّ من الليل فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، الحمد لله ، وسبحان الله ، ولا إله إلا الله والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم قال : اللهم اغفر لي ، أو دعا ، استجيب له فإن توضأ ثم صلى قبلت صلاته](3) .

وفي جامع الترمذي بإسناد حسن عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن

---

(1) تخريج المشكاة (1215) وتخريج الترغيب (207/1) وصحيح الجامع (5630) .
(2) فيستيقظ .
(3) صحيح الجامع (6032) .

رسول الله ﷺ قال: [عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى ربكم، ومَكْفَرةٌ للسيئات، ومنهاةٌ عن الإثم][1].

وعند الطبراني بإسناد حسن عن ابن مسعود موقوفاً (وهو في حكم المرفوع إلى النبي ﷺ) قال: [إن الله ليضحك إلى رجلين: رجل قام في ليلة باردة من فراشه ولِحافه ودثاره[2] فتوضأ ثم قام إلى الصلاة فيقول الله عز وجل لملائكته: ما حمل عبدي هذا على ما صنع؟ فيقولون: ربنا رجاء ما عندك وشفقة مما عندك. فيقول فإني قد أعطيته ما رجا وأمنته مما يخاف. ورجل غزا في سبيل الله وانهزم أصحابه وعلم ما عليه في الانهزام وماله في الرجوع فرجع حتى يُهريق دمه فيقول الله لملائكته: انظروا إلى عبدي رجع رجاء فيما عندي وشفقة مما عندي حتى يُهريق دَمَهُ][3].

وأما النوع الثاني فهو قربه من أهل طاعته بالإثابة: فقد روى الإمام أحمد في المسند بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: [بعث رسول الله ﷺ سريّة فغنموا وأسرعوا الرجعة فتحدث الناس بقُرْبِ مغزاهم، وكثرة غنيمتهم، وسرعة رجعتهم فقال رسول الله ﷺ: ألا أدلكم على أقرب منهم مغزى، وأكثر غنيمة وأوشك رجعة؟ من توضأ ثم غدا إلى المسجد لسبحةِ الضحىٰ فهو أقرب منهم مغزى وأكثرُ غنيمة وأوشك رجعة] ورواه الطبراني بإسناد جيد[4].

وفي الصحيح عن أبي موسى رضي الله عنه قال: [كنا مع النبي ﷺ في سفر. فارتفعت أصواتنا بالتكبير فقال: يا أيها الناس: اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصَمَّ ولا غائباً. إن الذي تدعونه سميع قريب أقرب إلى أحدكم من عنق راحته][5].

وفي صحيح الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

---

(1) تخريج الإرواء (451).
(2) الدثار: الغطاء.
(3) حسن. تخريج الترغيب (626/1).
(4) تخريج الترغيب (667/1).
(5) مختصر صحيح البخاري (1570) كتاب المغازي.

[أقرب ما يكون العبدُ من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء][1].

فهذه بعض آثار الحياء ونتائجه، معية خاصة من الله وقرب منه جل ثناؤه بالإجابة وبالإثابة، فو الله إن الحياء لا يأتي إلا بخير وإن تركه إشارة إلى شر، وقد قرنه النبي ﷺ بالإيمان وربطه به ربطا وثيقاً زيادة ونقصاناً، ووجوداً وعدما، فقد روى الحاكم في مستدركه والبيهقي في شعب الإيمان بسند صحيح عن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [إن الحياء والإيمان قرنا جميعاً، فإذا رُفِع أحدهما رُفِع الآخر][2].

وأما **التهذيب**: فهو جُهد العبد المؤمن لحراسة مقام الحياء، وهو ثمرة استمرار المراقبة والاستقامة، فإن المعرفة الخاصة بالله وأمره والمحبة التامة له ومعرفة حقيقة ما بالنفس وما يهدد صفاء هذه المحبة لله يورث مقام التهذيب عند المؤمن، فيصير قلبه مخموماً، ويتميز عن قلوب الناس فيصير الخير عنده عادة، ويلتزم مقام الورع والصدق فيخلص من شوائب التعلق بالدنيا إلى صفاء التهيؤ للآخرة.

فقد أخرج البيهقي في شعب الإيمان والطبراني في الكبير بإسناد صحيح عن ابن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [خيرُ الناس ذو القلب المخموم واللسان الصادق، قيل: ما القلب المخموم؟ قال: هو التقيّ النقيّ الذي لا إثم فيه ولا بغيَ ولا حسد. قيل: فمن على أثره؟ قال: الذي يشنأ الدنيا ويحبّ الآخرة. قيل: فمن على أثره؟ قال: مؤمن في خُلُقٍ حسن][3].

وقد روى الديلمي والبزار والحاكم عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [خيرُ دينكم الوَرَعُ][4].

وعند ابن ماجه بسند حسن عن معاوية رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: [الخير عادة والشر لجاجة ومن يرد الله به خيراً يفقّهْهُ في الدين][5].

---

(1) مختصر مسلم (298).
(2) صحيح الجامع (1599).
(3) السلسلة الصحيحة (946) وصحيح الجامع (3286).
(4) صحيح الجامع (3303).
(5) صحيح الجامع (3343).

فثمرة التهذيب هي أن يصير الخير عادة ، فيوفق الله بذلك صاحبه للتفقه في الدين ، ويحمله على معرفة الحق ويعينه على العمل به ، فهدية الله سبحانه لهذه النفوس العالية التي تداركها أصحابها بالتهذيب وحفظ مقام الحياء وحمايته أن يفتح سبحانه لهم من علمه فيعرفهم بالخير وأبوابه ويفقههم بالدين وشرائعه ويجعل فيهم خيراً للناس ولعباده وأوليائه.

وأما ترك التهذيب وإطلاق الجوارح واللسان فمآله إلى الشر ، وهو كما عرفه رسول الله ﷺ بأنه لجاجة ، والملاّجة التمادي في الخصومة ، ويقال الحقّ أبلَج والباطل لَجْلَجْ ، أي يتردد من غير أن ينفُذَ ، فيكون المعنى والشر لجاجة أي يحمل على التمادي في الباطل ، ويحمل على الشك والخصومة ، والله تعالى أعلم.

وقد عرّف التهذيب ابن القيم رحمه الله بقوله: (هو سبك العبودية في كير الامتحان طلباً لإخراج ما فيها من الخبث والغش. قال: وأولها تهذيب الخدمة أن لا يخالطها جهالة[1] ولا يشوبها عادة ولا يقف عندها همة).

وأما **الأدب**: فهو اتحاد خصال الخير في العبد لحفظ مقامات المعالي من مراقبة الله واستقامة على منهجه وحياء من وجهه سبحانه ، وبين الأدب وبين التهذيب صلة من النسب ، فإن السبيل إلى حصول الأدب وبلوغ مرتبته هو التزام العبد لمقام التهذيب ومدافعة شرور النفس ومطبات الشيطان ووساوسه ، وقد وصف الله سبحانه في كتابه نبيّه الكريم ببلوغ أرفع مقامات الأدب ، فقال جل وعز: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾. و(على) في اللغة العربية حرف استعلاء ، فكأن الخلق العظيم في مقام أنت علوته وسموت فوقه يا محمد.

لذلك كان يلازم عليه الصلاة والسلام هذا الدعاء: فقد أخرج الترمذي وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو بكر: [يا رسول الله مرني بشيءٍ أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت. قال: قل: اللهم عالِمَ الغيب والشهادةِ ، فاطر السماوات والأرض ، ربَّ كُلِّ شيء ومليكَهُ ، أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من

(1) أي لا يخالطها ابتداع أو خمول أو إحجام في موضع إقدام يقف في موضع تقدمه.

شر نفسي ومن شرِّ الشيطان وشِرْكه ، وفي رواية : وأن أقترِفَ على نفسي سوءاً أو أجرَّه إلى مسلم (وفي رواية : وأن أقترف على نفسي شراً أو أجرَّه إلى مسلم)][1] .

وقد فهم الصحابة من قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ لزوم التهذيب وحفظ الأدب مع الله سبحانه وأوامره ونواهيه ومع عباد الله وما يترتب على الاتصال بهم من حقوق وآداب . لذلك قال ابن عباس في تفسير هذه الآية : (أدبوهم وعلموهم) . فالأدب يشير بمعناه إلى اجتماع خصال الخير في العبد ، ومنه المأدبة وهي ما يجتمع عليه الناس من الطعام . وقد عرف ابن القيم علم الأدب بقوله : (هو علمُ إصلاح اللسان والخِطاب وإصابة مواقعه وتحسين ألفاظه وصيانته عن الخطأ والخلل) .

وأُحِبُ تقسيم الأدب إلى ثلاثة أنواع يكمّل بعضها بعضاً :

أولاً : أدب مع الله سبحانه . ويشمل أبواباً ثلاثة ، الباب الأول : أدب مع صفاته جل ثناؤه . والباب الثاني : أدب في التوجه إليه . والباب الثالث : أدب مع أحكامه وشرعه .

ثانياً : أدب مع أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم . ويشتمل على بابين اثنين : الباب الأول : أدب في لقائهم والتلقي منهم . والباب الثاني : أدب في اتباعهم بتعظيم ما جاؤوا به وامتثاله دون خوض برأي أو اعتراض بقياس أو جدال .

ثالثاً : أدب مع عباده وخلقه . ويشمل أبواباً أربعة ، الباب الأول : أدب مع العلماء وحملة ميراث النبوة . الباب الثاني : أدب مع طلبة العلم وحملة القرآن وحفظته . الباب الثالث : أدب مع الكبار والشيّب الذين شابوا في الإسلام . الباب الرابع : أدب مع عامة الناس ومراعاة لأحوالهم ومقاماتهم .

وأبدأ بعون الله وتوفيقه في البحث الأول : الأدب مع الله سبحانه : وهو من أعظم الأمور وأدقها ، ويحتاج إلى جهد من العبد وصبر ودوام مراقبة واستقامة وحياء .

---

(1) صحيح الكلم الطيب (20) .

لذلك قال سهل : (القوم استعانوا بالله على مراد الله ، وصبروا لله على آداب الله) وأبدأ بالباب الأول :

الباب الأول : أدب مع صفاته جل ثناؤه : ومفاده أن يصف المؤمن ربّه سبحانه كما وصف به نفسه من غير تمثيل ولا تأويل ولا تعطيل ، فهو الله سبحانه فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه ليس في ذاته شيء من مخلوقاته ، كلا ولا في مخلوقاته شيء من ذاته ، بل هو معهم بسمعه وبصره وبعلمه ، له وجه سبحانه وله نفس وله يد وله ساق وقدم وله عين وله سمع وكل شيء ليس كمثله ، بل هي أوصاف تليق بجلاله وبكماله ، وهو الغني سبحانه لا يفتقر إلى شيء من خلقه ولا يحتاج إلى عرشه ، بل هو الحامل للعرش ولحملة عرشه وإنما وصف العرش في القرآن لأنه أعظم مخلوقاته .

قول النبي ﷺ رواه ابن أبي شيبة عن أبي ذر : [ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة][1] .

فسلمّ الله سبحانه في القرآن العظيم على الأنبياء والمرسلين ، لسلامة ما وصفوه به من العيوب والنقائص ، بعد أن عاب على أقوامهم سوء أدبهم مع ربهم ، ثم حمد نفسه سبحانه على تفرده بأوصاف الكمال والجمال ، فقال جلّ وعز : ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ . ومضى على هذا المنهاج الصحابة الكرام والتابعون لهم بإحسان ، وأئمة العلم والفضل كالأئمة الأربعة وشيخ الإسلام ، ومن سار على منهاجهم في الأدب مع الله وصفاته ، بوصفه سبحانه كما وصف نفسه من غير تشبيه ولا تأويل ولا تعطيل ، من العلماء العاملين المجدين حفظة الدين وخزنته وأوعية العلم وحملته .

الباب الثاني : أدب في التوجه إليه : وقد تألق الرسل صلوات الله وسلامه عليهم بذلك ، فالمسيح عليه الصلاة والسلام لما قال الله له : ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى

---

(1) قد مضى تخريجه . وانظر السلسلة الصحيحة (109) .

﴿وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لم يقل: لم أقُلْه بل كان جوابه مقارباً وملازماً لحقيقة الأدب، إذ قال عليه السلام: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾. ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أمره الله به وهو إفراده سبحانه بالعبودية والألوهية: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: 117 - 118].

وهذا من أبلغ الأدب مع الله سبحانه كما ذكر ابن القيم رحمه الله حيث قال: (فإذا عذبتهم مع كونهم عبيدك - فلولا أنهم عبيد سوء من أنجس العبيد وأعتاهم على سيدهم، وأعصاهم له، لم تعذبهم لأن قربة العبودية تستدعي إحسان السيد إلى عبده ورحمته). فإن عذبتهم فلفرط عتوهم وامتناعهم عن الطاعة ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ فإن عذبتهم عذبتهم على علم منك بما تعذبهم ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾. قال ابن القيم: (ولم يقل الغفور الرحيم، وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى، فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم والأمر بهم إلى النار، فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعة بل مقامُ براءةٍ منهم).

ومن ذلك الأدب الرفيع قول إبراهيم ﷺ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ عطفاً على قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾. فنسب كل الخير لله سبحانه، وتأدب مع الله فقال وإذا مرضت ولم يقل وإذا أمرضني، مع أن الخلق كله لله ولكن ما أصابه من مرض ينسبه إلى سبب من الذنب أو التقصير في حق الله تبارك وتعالى، ومثله قول موسى عليه السلام لما تمتع بالقوة وأدهش من حوله أمام البئر قال متأدباً متواضعاً لله: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، ومثله قول أيوب: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فهو غاية في الأدب مع الله نسب الضر وإصابته له لتقصير منه فمسّه، ولم يقل فعافني واشفني بل قال متواضعاً مخبتاً مستسلماً لله: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾. وكذلك قال آدم من قبل: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ولم يحتج بالقضاء والقدر، ومنه قول مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ فأتوا بالفعل المبني للمجهول تأدباً ولم يقولوا أراده ربهم، وكذلك قول الخضر في السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ ولم يقل فأراد ربك أن أعيبها بينما قال في الغلام: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن

﴿يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ . ومن هنا كان أبلغ الأدب في الاستغفار ما جمع هذه الخصال من الأدب الرفيع مع الله سبحانه ، فقد خرج البخاري في صحيحه عن شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : [سيّد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربي ، لا إلـه إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنـا على عهدِكَ ووعْدِكَ ما استطعت ، أعـوذ بك من شرِّ ما صنَعْت ، أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . من قالها من النهار موقناً بها ، فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة][1] . فلفظة أبوء وتعني أُقِرُّ وأعترف فيها من الأدب الكثير ، فرتب الله على صاحبها الجزاء الكبير .

وبهذا المعنى قال بعض السلف ، فقد روي عن يحيى بن معاذ قوله : (من تأدب بأدب الله صار من أهل محبة الله) .

ولما سئل الحسن البصري عن أنفع الأدب قال : (التفقه في الدين ، والزهد في الدنيا ، والمعرفة بما لله عليك) .

وكان عبد الله بن المبارك يقول : (الأدب للعارف كالتوبة للمستأنف) وكان يقول أيضاً : (نحن إلى قليل من الأدب أحوج منّا إلى كثير من العلم) .

ولما قال الجنيّد لأبي حفص : (لقد أدبت أصحابك أدب السلاطين ، فأجابه قائلاً : حُسْن الأدب في الظاهر عنوانُ حسن الأدب في الباطن ، فالأدب مع الله حسن الصحبة معه بإيقاع الحركات الظاهرة والباطنة على مقتضى التعظيم والإجلال والحياء ، كحال مجالِسِ الملوك ومُصاحبهم) .

الباب الثالث : أدب مع أحكامه وشرعه : ويكون ذلك بتعظيم أوامره وهديه ومحابه سبحانه كما قال جل ثناؤه : ﴿ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴾ وقال أيضاً ﴿ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ ﴾ . وقد روى الإمام مسلم في صحيحه والإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : [لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ

(1) صحيح الجامع (3568) .

تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب فقالوا: أي رسول الله: كلفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة وقد أنزلت عليك هـذه الآية ولا نطيقها. قال رسول الله ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا سمعنا وأطعْنا غفرانك ربنا وإليك المصير. قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم ذلت بها ألسنتهم فأنزل الله في أثرها: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى فأنزل ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ﴾ قال نعم ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ﴾ قال نعم ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ﴾ قال نعم ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾][1]. فأرشدهم عليه الصلاة والسلام إلى معالي الأخلاق وحسن الأدب مع الله سبحانه، فنسخ الله وخفف عليهم بحسن أدبهم وتعظيمهم لأوامره ولهديه وشرعه.

وأما أن يحشر المرء رأيه وعقله في بعض أوامر الله دون أدب مع الله سبحانه، فهذا قد يعاقب بحرمان نعمة الطاعة والقرب من الله، فالأصل الإخبات إليه سبحانه وعدم الخوض في الحكمة من وراء أي أمر من أوامره إلا ما أعلمنا سبحانه عن بعض حكمته في بعض تشريعاته.

ومن هنا ندرك عمق الفهم لهذا عند علماء سلفنا الصالح. يقول عبد الله بن المبارك رحمه الله: (من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن، ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة).

وقال آخر: (الزم الأدب ظاهراً وباطناً، فما أساء أحد الأدب في الظاهر إلا عُوقِبَ ظاهراً. وما أساء أحد الأدب باطناً إلا عوقب باطناً).

---

(1) الصحيح المسند من أسباب النزول. آخر آيتين من البقرة.

ومن هنا كان أمر النبي ﷺ للرجل أن يستر عورته حتى ولو كان خالياً أدباً منه مع الله سبحانه وحياءً منه.

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند بإسناد حسن عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: [احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينُك، قيلَ: إذا كان القوم بعضهم في بعض؟ قال: إن استطعت أن لا يرينّها أحد فلا يرينّها، قيل: إذا كان أحدنا خالياً؟ قال: الله أحق أن يُستحيا منه من الناس][1].

فكان الهدي النبوي متابعاً لتربية أولئك الأصحاب على أجمل الأخلاق وهو الحياء من الله وحسن الأدب معه سبحانه حتى ولو كان المرء بينه وبين نفسه، وهذا يشير إلى عظمة هذا الدين الذي ما ترك لك شأناً إلا وأعطاك من نوره وهديه، بحيث يقطع على الشيطان أن يتفرد بك، فيكون جهد المؤمن منصباً إلى متابعة الترقي لا إلى التفكير في التدلي ووساوس الشيطان، فانظر إلى آفاق آثار صفات الله سبحانه وأسمائه كيف يعيش المؤمن في كنفها وأنوارها وهذا من كمال توحيد الله في أسمائه وصفاته ومحامده والله المستعان.

البحث الثاني: هو الأدب مع أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم.

وأبدأ بعون الله بالباب الأول: وهو الأدب عند لقائهم والتلقي منهم:

فقد حرص الإسلام في بناء أصحابه على تكريم الأنبياء وتقدير مكانتهم، وقد ورد هذا في القرآن الكريم كثيراً، بينما عاب الله في كتابه على بعض الأمم استهزاءهم بالأنبياء الذين أرسلوا فيهم، كما عاب على بني إسرائيل جدالهم مع أنبيائهم وقتلهم بعضهم، وأوعدهم على ذلك عذابه ونيرانه.

أما المؤمنون من أتباع الرسل فقد سموا بأخلاقهم مع أنبيائهم فمدحهم الله في القرآن الكريم. فهؤلاء قوم عيسى من أتباعه وحوارييه. قال الله في الثناء عليهم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ﴾ [الصف: 14]. وكذلك وصف أتباع الأنبياء بتواضعهم وأدبهم مع المرسلين وبمجاهدة الكفر وأهله معهم فقال جل وعز: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ

---

(1) تخريج آداب الزفاف (34) وصحيح الجامع (201).

مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: 146 - 148]. وكذلك أتباع هذا النبي الكريم قال الله في مدحهم: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾ [الفتح: 29]. وقد كان سبق الأمر بالتأكيد عليهم بالأخلاق العالية والتزامها بحضرة هذا النبي الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: 1 - 3].

وفي الصحيحين والمسند عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين][1]. وهذا غاية الأدب، فتفضيل محبته عليه الصلاة والسلام فوق محبة الولد والوالد والناس جميعاً لمن أعظم الأدب والخلق، وكذلك الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم. فقد روى ابن عساكر بإسناد حسن عن وائل بن حجر عن النبي ﷺ قال: [صلوا على النبيّين إذا ذكرتموني، فإنم قد بُعِثوا كما بُعِثْتُ][2].

وله شاهد عند البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: [صلوا على أنبياء الله ورسله فإن الله بعثهم كما بعثني][3].

الباب الثاني: الأدب مع النبي ﷺ في اتباعه بتعظيم ما جاء به وامتثاله دون خوض برأي أو اعتراض بقياس أو جدال: فقد قال الله جل ثناؤه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن

---

(1) قد مضى تخريجه. وانظر صحيح الجامع (7458).
(2) حسن. صحيح الجامع (3675).
(3) حسن. تخريج فضل الصلاة (42) للألباني.

شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 62 - 63].

فقد أرشد سبحانه بهذه الآيات العظيمة عباده إلى الأدب مع نبيّهم صلوات الله وسلامه عليه فإذا دخلوا أو خرجوا فليستأذنوا ولا يتفرقوا إلا عن أمره فيعظموه بما جاء به ويعظموا الوحي الذي أنزل عليه.

فقد قال الضحاك عن ابن عباس: (كانوا يقولون يا محمد يا أبا القاسم فنهاهم الله عز وجل عن ذلك إعظاماً لنبيّه ﷺ قال فقولوا: يا نبي الله يا رسول الله).

وقال قتادة: (أمر الله أن يُهاب نبيه ﷺ وأن يُبَجَّل وأن يعظم وأن يسود).

وقال مقاتل في قوله ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ﴾ (لا تسموه إذا دعوتموه يا محمد ولا تقولوا يا ابن عبد الله ولكن شرفوه فقولوا يا نبي الله يا رسول الله). فهو يأتيه الوحي الكريم بهذا الشرع العظيم فلابد أن تتأدبوا معه بتعظيم ما جاء به وبامتثاله دون خوض برأي أو اعتراض بقياس أو جدال.

وقال الحسن البصري وعطية العوفي: (أي لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره، فإن دعاءه مستجاب فاحذروا أن يدعوا عليكم فتهلكوا).

وقد ربط سبحانه الإيمان وصحته وكماله بتحكيم هذا النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، دون أن يتحرك في النفس أي شعور بالحرج مما يقضي، وتمام ذلك وكماله بالتسليم، قال جل وعزّ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65].

وقال جل وعزّ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: 59].

وقد أخرج الترمذي في جامعه عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: [وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقلنا: يا رسول الله! كأنها موعظة مودع فأوصنا. قال: أوصيكم بتقوى الله

والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد ، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضّوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة](1) .

ثالثاً : الأدب مع الناس ويشمل أبواباً أربعة :

الباب الأول : الأدب مع العلماء وحملة ميراث النبوة : فقد أخرج الإمام أحمد بإسناد حسن عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال : [ليس من أمتي من لم يُجِلَّ كبيرنا ، ويَرْحَمْ صغيرَنا ، ويعرِفْ لعالِمنا حقَّه](2) .

فإن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وهذا يقتضي التزام الأدب في مجالسهم تعظيماً لما ورثوه من الوحي عن أنبيائهم صلوات الله وسلامه عليهم . فقد روى أبو داود وابن ماجه والترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : [من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّلَ الله له طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضَعُ أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع ، وإن العالِمَ ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضلُ العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يُوَرِّثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورثوا العلمَ ، فمن أخذه أخذ بحظٍ وافرٍ](3) .

فمن وفقه الله لحفظ ميراث النبوة وحراسة دين الله وسياسة الدنيا به فقد وجب على المسلمين أن يُوَقِّروه ويعينوه على نصرة الحق والقيام به . فقد روى الترمذي بسند صحيح عن أبي أمامة الباهلي قال : [ذُكِرَ لرسول الله ﷺ رجلان : أحدهما عابد ، والآخر عالمٌ ، فقال عليه أفضل الصلاة والسلام : فضل العالم على العابد ، كفضلي على أدناكم . ثم قال رسول الله ﷺ : إن الله وملائكتَه وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جُحْرِها وحتى الحوتَ ، ليصلّون على معلمي الناسَ

---

(1) تخريج الطحاوية (369) وصحيح الجامع (2546) .
(2) حسن . تخريج الترغيب (66/1) .
(3) صحيح الجامع (6173) .

الخيرَ][1] . ورواه البزار بإسناد صحيح من حديث عائشة مختصراً قال: [معلم الخيرِ يستغفر له كل شيء حتى الحيتانُ في البحرِ].

الباب الثاني: الأدب مع طلبة العلم وحملة القرآن وحفظته: وهذا مرتبط بالأدب مع كتاب الله وهدي رسول الله ﷺ، فوجب على المسلمين أن يوقروا طلبة العلم وحملة هذا الميراث ومن خصصوا حياتهم للدعوة إلى الله وحراسة الحق وحث الناس على التزامه وتعظيم أوامر الله وشرعه.

فقد روى الإمام أحمد والطبراني بإسناد جيد واللفظ له عن صفوانَ بنِ عسّالٍ المُرادي رضي الله عنه قال: [أتيتُ النبي ﷺ وهو في المسجد مُتكيء على بُردٍ له أحمرَ فقلت له: يا رسول الله! إني جئت أطلبُ العلمَ فقال: مرحباً بطالب العلم، إن طالبَ العلم تحفّه الملائكة بأجنحتها، ثم يركبُ بعضهم بعضاً حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يَطلب]. ورواه ابن ماجه عن زُرٍّ بن حُبَيْش قال: [أتيتُ صفوانَ بنَ عَسّال المُرادي رضي الله عنه قال: ما جاءَ بكَ؟ قلتُ: أنبُطُ[2] العِلمَ. قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما مِنْ خارجٍ خرجَ من بيتهِ في طلب العلم إلا وضَعَتْ له الملائكة أجنحتها رِضاً بما يصنَعُ][3] .

وقد كان من هديه صلوات الله وسلامه عليه تقديم الأكثر أخذاً للقرآن وحفظاً على غيره في إمارة الجيوش والسرايا والبعثات وفي اللحد في القبر عند الموت، فقد روى النسائي والترمذي واللفظ له عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [بعث رسول الله ﷺ بعثـا وهم ذو عـدد فاستقرأهم فاستقرأ كل واحد منهم ما معه من القرآن فأتىٰ على رجل من أحدثهم سناً فقال: ما معك يا فلان؟ فقال: معي كذا وكذا وسورة البقرة فقال: أمعك سورة البقرة؟ قال نعم قال: اذهب فأنت أميرهم. فقال رجل من أشرافهم: والله ما منعني أن أتعلم سورة البقرة إلا أني خشيت أن لا أقوم بها. فقال رسول الله ﷺ: تعلموا القرآن واقرؤوه فإن مثل القرآن لمن تعلمه

---

(1) تخريج الترغيب (60/1) وصحيح الجامع (5759).

(2) أنبطُ العلم: أي أطلبه وأستخرجه.

(3) حسن. تخريج الترغيب (69/1) كتاب العلم. باب الترغيب في العلم وطلبه.

فقرأه وقام بـه كمثل جراب محشو مسكاً يفوح ريحه في كل مكان ومثل من تعلمه فيرقد وهو في جوفه كمثل جراب أوكى على مسك][1] .

وفي صحيح البخاري عن جابر رضي الله عنه : [أن النبي ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أُحُد (يعني في القبر) ثم يقول : أيهما أكثرُ أخذاً للقرآن؟ فإذا أشير إلى أحدهما ، قدَّمه في اللحد][2] .

وروى أبو داود بسند حسن عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : [إن من إجلال الله إكرامَ ذي الشيبة المسلم وحامِل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه وإكرامَ ذي السلطان المُقْسِطِ][3] .

الباب الثالث : الأدب مع الكبار والشيّب الذين شابوا في الإسلام : فقد أخرج الطبراني في الأوسط والحاكم بسند صحيح عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : [البركة مع أكابركم][4] . وروى الحاكم بسند صحيح على شرط مسلم عن عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما يَبْلُغُ به النبي ﷺ قال : [ليس منا من لم يرحم صغيرَنا ، ويعرف حقَّ كبيرنا][5] .

ورواه الطبراني عن واثلة بن الأسقع ولفظه : [ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويُجِلّ كبيرَنا][5]- ورواه الترمذي من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال : [ليس منا من لم يرحَمْ صغيرَنا ، ويعرف شرف كبيرنا][5] .

وقد تقدم حديث الإمام أبي داود عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال : [إنّ من إجلال الله إكرامَ ذي الشيبة المسلم وحامِل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه وإكرام ذي السلطان المُقْسِط] .

---

(1) حسن أو يشبه الحسن . تفسير ابن كثير . تحقيق عبد الرزاق المهدي . وهو عند الترمذي برقم (2876) .
(2) أخرجه البخاري (3/163 - 165) .
(3) حسن . تخريج الترغيب (1/93) .
(4) صحيح الجامع (2881) .
(5) انظر تخريج الترغيب (1/66) والسلسلة الصحيحة (2196) وصحيح الجامع (5319) و(5320) و(5321) .

الباب الرابع: الأدب مع عامة الناس ومراعاة أحوالهم ومقاماتهم: فقد قال يوسف صلوات الله وسلامه عليه لأبيه وإخوته: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ ولم يقل أخرجني من الجُبِّ حفظاً للأدب مع إخوته، لكيلا يخجلهم بما جرى في الجُبِّ، ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ ولم يقل رفع عنكم جهد الجوع وألم الحاجة أدباً معهم ثم قال: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾. فتألق بذلك يوسف صلوات الله وسلامه عليه فأعطى الأدب والخلق والكرم والفتوة والنبل حقه، فصلى الله عليه وسلم، فهو من أكرم البشر نسباً فهو الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إبراهيم صلوات الله عليهم أجمعين.

لذلك عرفّ عبد الله بن المبارك الأدب بقوله: (إنه معرفة النفس ورعوناتها، وتجنُّبُ تلك الرعونات).

قال ابن القيّم رحمه الله: (وحقيقة الأدب استعمال الخلق الجميل، ولهذا كان الأدبُ: استخراجَ ما في الطبيعة من الكمالِ من القوة إلى الفعلِ).

وأما إذا ضاع الأدب بين الناس ولم يرحم كبيرهم صغيرهم، ولم يعرف الناس شرف كبيرهم، ومكانة عالمهم، وصاحب الخير والأسوة فيهم، فإن ذلك من علامات الساعة ومن إشارات الهلاك.

فقد روى الإمام أحمد في مسنده والطبراني في الكبير من معجمه بإسناد حسن عن عبد الله بن بُسر رضي الله عنه قال: [لقد سمعت حديثاً منذ زمان: إذَا كنْتَ في قومٍ، عشرين رجلاً أو أَقلَّ أو أكثرَ، فتصفَّحتَ وجوهَهُم فلم ترَ فيهم رجلاً يُهابُ في الله عز وجل، فاعلم أن الأمر قد رقّ][1].

7ـ الشكر والصبر والرضا والسكينة والطمأنينة:

وهذه صفات عالية يفرزها صدق الإيمان بأسماء الله وصفاته، وصدق توحيده والقصد والتوجه له.

---

(1) صحيح الترغيب (99/1).

وأحب أن أعرف **الشكر** بأنه: سيلان اللسان بذكر الله ونعمائه، واختلاج القلب وتلهفه وتواضعه لكرمه، وإعمال الجوارح في طاعته وتعظيم أوامره.

وأصله في لغة العرب: ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان ظهوراً بَيِّناً، ومنه شَكِرَت الدابة وتَشْكَرُ شَكَراً إذا سَمَنَت، فهي تسمن سمنا إذا ظهر عليها أثر العلف، وبهذا المعنى ما أخبر عليه السلام عن هلاك يأجوج ومأجوج حيث يرسل الله عليهم النغف في أقفائهم فيقتارن بها، كما روى الإمام أحمد في المسند عن أبي هريرة مرفوعاً قال عليه الصلاة والسلام: [والذي نفسي بيده، إن دوابّ الأرض لتسمن وتشْكَرُ شكراً من لحومهم][1]. ثم أصبح الشُكر: الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف، والشكران ضِد الكفران وتشكَّر له مثل شكر له.

وقد عَرَّفَه ابن القيم رحمه الله بأنه: (ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناء واعترافاً. وعلى قلبه: شهوداً ومحبة. وعلى جوارحه: انقياداً وطاعة). ونقل رحمه الله تعاريفَ أخرى.

فقد قال الجنيد: (الشكر أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة). وهذا كما قال غيره: (شكر النعمة أن ترى نفسك فيها طفيلياً). وقال آخر: (الشكر معرفة العجز عن الشكر). وقيل: (الشكر استفراغ الطاقة).

وقيل: (هو مشاهدة المنة وحفظ الحرمة). وقيل: (هو عكوف القلب على محبة المنعم والجوارح على طاعته وجريان اللسان بذكره والثناء عليه).

وشكر الناس نوعان: شكر العامة، وشكر الخاصة.

وقواعد الشكر خمسة: الخضوع للمشكور، ومحبته، والاعتراف بنعمته، وثناؤه عليه، وصرفها فيما يحبه ويرضاه.

وآلات الشكر ثلاثة: اللسان والقلب والجوارح.

وتفصيل ذلك:

---

(1) جزء من حديث طويل سيأتي بتمامه عند الحديث عن أشراط الساعة.

أولاً: أنواع شكر الناس:

الباب الأول: شكر العامة: وهو شكر على ما يشغلهم على الغالب كالمطعم والمشرب والملبس والمنكح وعافية الأبدان. فقد قال الله جل ثناؤه: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: 78]. وقال جل وعز: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: 13].

وقد أخرج الطبراني بإسناد حسن عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [ما أنعم الله على عبد نعمة فحَمِدَ الله عليها إلا كان ذلك الحمد أفضلَ من تلكَ النعمة][1].

وعند ابن ماجه بسند صحيح عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [ما أنعم الله تعالى على عبدٍ نعمة فقال: الحمد لله، إلا كان الذي أعطى أفضلَ مما أخذ][2].

وفي المسند للإمام أحمد وعند النسائي عن والد أبي الأحوص، قال رسول الله ﷺ: [إذا آتاك الله مالاً فليرَ أثَرُ نعمةِ الله عليكَ وكرامتِه][3].

وله شاهد عند الطبراني من حديث زهير بن أبي علقمة ولفظه: [إذا آتاك الله مالاً فليرَ عليك فإن الله يحبُّ أن يرى أثره على عبده حسناً، ولا يحب البؤس ولا التباؤس][4].

ولهذا كان من هديه عليه السلام إذا أكل أو شرب قال: [الحمد لله الذي أطعم وسقى وسوَّغَه وجعل له مخرجاً] رواه أبو داود[5].

وقد أفرد الله أجلّ الثواب لمن ذكره بعد المطعم أو الملبس وربط النعمة به وبمنه وفضله وكرمه سبحانه وأبعد نفسه عن العجب والكبر عند اللباس، وما يصيب

(1) حسن. صحيح الجامع (5438).
(2) المرجع السابق (5439).
(3) صحيح الجامع (252).
(4) السلسلة الصحيحة (1320).
(5) صحيح الجامع (4557).

المرء من الخيلاء وحب المظهر والغرور. فقد روى الإمام أحمد بسند حسن عن معاذ بن أنس أن النبي ﷺ قال: [من أكل طعاماً ثم قال: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه، ومن لَبِسَ ثوباً فقال: الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غَير حول مني ولا قوة غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر](1).

وعند البيهقي بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا رأى أحدكم مبتلًى فقال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به وفضلني عليك وعلى كثير من عباده تفضيلاً، كان شكرَ تلكَ النعمة](2). وفي رواية [لم يصبه ذلك البلاء].

الباب الثاني: شكر الخاصة: وهو يشمل إضافة إلى شكر العامة ما هو أهم وأكبر: الشكر على التوحيد والإيمان وحياة القلوب، والشكر على القرآن وعلى نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام.

قال جل ثناؤه: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: 10]. وقال جل ذكره: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: 152]. وقال سبحانه: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7].

وحقيقة هذا الشكر أن يصل المؤمن إلى محبة لقاء الله سبحانه ومحبة قربه والشهادة في سبيل دينه وإعلاء كلمته، وتعظيم شرعه واجتناب الرياء والشرك به وإخلاص القصد له.

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند عن أبي هريرة قال: قال رسول لله ﷺ: [قال الله تعالى: إذا أحب عبدي لقائي أحببت لقاءه وإذا كره لقائي كرهت لقاءه] ورواه البخاري والنسائي(3).

وفي صحيح الإمام مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالى: أنا

---

(1) حسن. تخريج الكلم (187) وتخريج الإرواء (2049) وصحيح الجامع (5962).
(2) حسن. صحيح الجامع (569).
(3) صحيح الجامع (4179).

أغنى الشركاء عن الشرك ، من عَمِل عملاً أشرك فيه معي غيره تركتُه وشِركَهُ][1] .

وفي صحيح ابن حبان ومعجم الطبراني عن فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ قال: [اللهم من آمن بك ، وشهد أني رسولك فحبب إليه لقاءك وسهل عليه قضاءك وأقلل له من الدنيا ، ومن لم يؤمن بك ويشهد أني رسولك فلا تحبب إليه لقاءك ولا تسهل عليه قضاءك وأكثر له من الدنيا][2] .

وهذا النوع من الشكر متضمن في معاني سورة الفاتحة ، ومن هنا كان توجيه الله العبد لقراءتها في كل ركعة من كل صلاة ، فلا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب ، فيحمل الله فيها المؤمنين على ذكره وشكره على نعمة الإيمان والتوحيد والهداية إلى طريق الجنة وطريق النجاة الذي جاهد نبيّه ﷺ وهو يدعو الناس لسلوكه وعبوره .

ففي صحيح الإمام مسلم ومسند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، ولعبدي ما سأل ، فإذا قال العبد: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال الله: حمدني عبدي ، فإذا قال: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، قال الله: أثنى عليَّ عبدي ، فإذا قال: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ، قال: مجّدني عبدي ، فإذا قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، قال هذا بيني وبين عبدي ، ولعبدي ما سأل ، فإذا قال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل][3] .

ثم الصلاة على النبي ﷺ من معاني هذا الشكر لله العظيم ، الذي امتن على المؤمنين فأرسل إليهم هذا الرسول الكريم ، الذي جاهد الكفار والمنافقين ليهيء للمؤمنين الحياة في ظل هذا الشرع الحكيم ، وليحظوا بالنجاة في الآخرة فلا نجاة إلا بامتثال سبيله القويم عليه أفضل الصلاة والتسليم .

فقال جل وعز: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: 56] .

---

(1) صحيح الجامع (4189) .
(2) السلسلة الصحيحة (1338) .
(3) ورواه أصحاب السنن . صحيح أبي داود (779) وصحيح الجامع (4202) .

وفي سنن أبي داود وجامع الترمذي عن فضالةَ بنِ عُبيد رضي الله عنه قال: [سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يُمَجّدِ الله تعالى، ولم يُصَلِّ على النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: عَجِلَ هذا. ثم دعاه فقال له: إذا صلى أحدُكم فليبدأ بتحميد ربه سبحانه، والثناء عليه، ثم يُصلي على النبي ﷺ، ثم يدعو بعد بما شاء][1].

وروى أحمد والترمذي واللفظ للترمذي عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [البخيل مَنْ ذكِرْت عنده فلم يصلِّ عليَّ][2].

وروى الترمذي بسند صحيح والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [رغِمَ أنفُ رجلٍ ذُكِرتُ عنده فلم يُصلِّ عليَّ، ورغِمَ أنف رجلٍ دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يُغْفَر له، ورغِمَ أنفُ رجلٍ أدرك عندَه أبواهُ الكبر فلم يدخلاه الجنة][3].

وأما **قواعد الشكر** فهي:

أولاً: الخضوع للمشكور: وهذا داخل في قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فنخضع لك يا رب مستعينين بك على طاعتك، فلا طاعة لك إلا بإذنك وتوفيقك، وقال أيضاً: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾. وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾. فهذه الاستجابة من معاني الخضوع للمشكور سبحانه، ومثله قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ ﴾. فالخضوع له سبحانه ولأمره وتعظيمه يقتضي ألا يجالس المؤمن الكفار المستهزئين بالله أو بشرعه، ومن أولى مراتب هذا الخضوع شكره وحمده حتى عند المصيبة، فقد أخرج الترمذي بسند حسن عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [إذا مات ولد الرجل يقول الله تعالى لملائكته: أقبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: أقبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم. فيقول: فماذا

(1) صحيح أبي داود (1331) تحقيق الألباني.
(2) تخريج المشكاة (933).
(3) صحيح الجامع (3504).

قال عبدي ، فيقولون : حمدك واسترجع فيقول : ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد](1) .

ثانياً : محبة المشكور جل ثناؤه : ففي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : [ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكونَ اللهُ ورسولهُ أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحبَّ المرء لا يحبّه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذَفَ في النار](2) .

وهذه المحبة من قبل العبد لربه عز وجل يبادله إياها ربه تبارك وتعالى . ففي الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [إذا أحبَّ الله تعالى العبد ، نادى جبريل : إن الله تعالى يحبّ فلاناً فأحبِبهُ ، فيحبّهُ جبريلُ ، فينادي في أهل السماء : إنّ الله يحب فلاناً فأحبوه ، فيحبّه أهل السماء ، ثم يوضع له القبولُ في الأرض](3) .

وفيهما عن عائشة رضي الله عنها : [أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً على سرية ، فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم ، فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ . فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال : سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟ فسألوه : فقال : لأنها صفة الرحمان ، فأنا أحبُّ أن أقرأ بها ، فقال رسول الله ﷺ : أخبروه أن الله تعالى يحبّهُ](4) .

ثالثاً : الاعتراف بنعمة المشكور جل ثناؤه : وذلك كما قال موسى عليه السلام ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص : 24] . وفي صحيح الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمدُهُ عليها ويشربُ الشَّربَةَ فيحْمَدُه عليها](5) . وخير ما اشتمل عليه هذا الاعتراف سيد الاستغفار .

---

(1) السلسلة الصحيحة (1408) .
(2) مختصر مسلم (22) ورواه البخاري .
(3) صحيح الجامع (281) .
(4) مختصر مسلم (2100) .
(5) مختصر مسلم (1305) .

[اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت] . وقد تقدم بتمامه .

رابعاً: الثناء على المشكور سبحانه: وذلك بامتثال ما يحب ويرضى من الذكر المشتمل على حمده وعلى تنزيهه في أسمائه وصفاته ومحامده ، والتماس جوامع الكلم التي كان رسول الله ﷺ يثني على الله سبحانه بها ويتوسل إليه فيها ، فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [لأن أقولَ: سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، أحبُّ إليَّ مما طلعت عليه الشمس][1] .

وفيه أيضاً عن أبي ذرّ الغفاري رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: [ألا أخْبرك بأحبِّ الكلام إلى الله؟ إن أحبَّ الكلام إلى الله سبحانَ الله وبحمدِه][2] .

وفيه أيضاً عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: [جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: علِّمني كلاماً أقوله . قال: قل لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً ، سبحان الله رب العالمين ، لا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم . قال: فهؤلاء لربي فما لي؟ قال: قل: اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني][3] .

وفي صحيح مسلم أيضاً عن عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما: [أنه كان يقول دُبُرَ كلِّ صلاة ، حين يُسَلِّم: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير . لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن . لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون . قال ابن الزبير: وكان رسول الله ﷺ يهلِّلُ بِهنَّ دُبُرَ كل صلاة مكتوبة][4] .

---

(1) مختصر مسلم (1905) .

(2) مختصر مسلم (1907) .

(3) مختصر مسلم (1906) .

(4) ويشهد له ما في مختصر صحيح مسلم برقم (312) .

خامساً: صرف النعمة فيما يحبه المنعم سبحانه وفي رضاه: فهذا من شكر النعمة وهو من دواعي استمرارها وزيادتها، كما قال جل ثناؤه: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾. وقد تقدم حديث الإمام أحمد عن والد أبي الأحوص، قال رسول الله ﷺ: [إذا آتاك الله مالاً فليُرَ أثرُ نعمة الله عليك وكرامته].

وكذلك ما أخرج الطبراني عن زهير بن أبي علقمة عن النبي ﷺ قال: [إذا آتاك الله مالاً فليُرَ عليك فإن الله يحبّ أن يرى أثره على عبده حسناً ولا يحب البؤس ولا التباؤس].

وأما آلات الشكر فهي:

أولاً: اللسان: وشكره بجريان ذكر المحبوب المشكور سبحانه عليه، فإن الدوام على الذكر يجعل اللسان رطباً بجريانه عليه، فقد أخرج الترمذي بسند حسن عن عبد الله بن بُسْرٍ الأسلمي رضي الله عنه: [أنّ رجلاً قال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثُرَتْ عليّ، فأخبرني بشيء أتشبّثُ به قال: لا يزال لسانك رطباً من ذكرِ الله][1].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن، سبحانَ الله وبحمده، سبحان الله العظيم][2].

وفي صحيح الإمام مسلم عن أم المؤمنين جُوَيْرية بنتِ الحارث رضي الله عنهما: [أن النبي ﷺ خرج من عِندها بُكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة فقال: ما زلتِ على الحال التي فارقتك عليها؟ قالت نعم، فقال النبي ﷺ: لقد قُلتُ بعدكِ أربعَ كلماتِ ثلاث مرّات، لو وُزِنتْ بما قُلْتِ مُنْذُ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزِنَـةَ عرشِهِ ومدادَ كلماتـه]. وفي رواية: [سبحان الله عدد خلقـه، سبحان الله رضا نفسـه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله مدادَ كلماته][3].

---

(1) تخريج الكلم الطيب (3).
(2) مختصر البخاري (2134).
(3) صحيح مسلم (8/83 - 84).

ثانياً: القلب: وشكره يكون بأن يتقلب بين الخوف والرجاء، بين الرغب والرهب، بين الخوف والطمع، يغلب عليه الصدق والحياء والخشوع والورع والخشية والإنابة، ويتحلى بعظيم الأخلاق كالتوكل عليه وحده سبحانه والاستعانة به ورجائه لا شريك له، فمثل هذا القلب الذي عرف ربه وَوَحَّدَه في أسمائه وصفاته وعرف موقعه من آثار هذه الصفات العالية يكون يشكر ربه ويؤدي زكاته. فقد قال الله جل ثناؤه عن إبراهيم خليله عليه السلام في دعائه: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾. وقد أخرجا في الصحيحين عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إن الحلال بين وإن الحرام بيّن، وبينهما مُشتبهاتٌ لا يَعْلَمُهُنَّ كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات، استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يَرْعى حول الحمى يوشكُ أن يَرْتَعَ فيه، ألا وإن لكل ملكٍ حِمى ألا وإن حِمَى الله محارمُه، ألا وإنَّ في الجسد مُضْغةً إذا صلحت صلحَ الجسد كلُّه وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب][1].

ومن شكر القلب أن يعف عن الشبهات ويتركها لله ولا يتعلق بها، ويدافع كل وساوس الشيطان التي يدعوه بها إلى المعصية والفاحشة وركوب الهوى، فقد أخرج الإمام أحمد والدارمي في مُسْنَدَيهما[2] عن وابِصةَ بن معبدٍ رضي الله عنه قال: [أتيت رسولَ الله ﷺ فقال: جئتَ تسألُ عن البِرِّ؟ قلت: نَعم فقال: استفْتِ قلبكَ، البرُّ: ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلبُ، والإثم: ما حاك في النفس وتردّد في الصَّدْر، وإن أفتاك الناس وأفتوكَ][3]. فشكر القلب بورعه، والورع هو ترك ما لا بأس به حذراً مما به بأس، وهو نوعان: الورع المندوب وهو ترك الشبهات، والورع الواجب وهو ترك المحرمات، والشبهة هي التي لم يتضح حلها أو حرمتها.

ومن شكر القلب امتناعه عن الحسد والغل والحقد ومدافعته لهذه الأمراض،

---

(1) مختصر مسلم (956).

(2) المسند: ما جمع من الأحاديث على مسانيد الصحابة كل مسند صحابي على حدة.

(3) صحيح الجامع (2878).

فقد اشتمل منهج التربية والعمل في حياة الأنبياء إضافة لعمل اللسان اشتمل على أعمال للقلب: من خشية لله وتعظيم ورجاء، من حب وتضرع وخوف وتذلل وبكاء، من مدافعة لأمراض القلب من حسد وغل وكبر وحقد وحب للظهور والرياسة بالإخلاص والحياء والدعاء. قول النبي ﷺ أخرجه الطبراني بإسناد صحيح والبيهقي عن ابن عمر رضي الله عنه قال عليه السلام: [خير الناس ذو القلب المحموم واللسان الصادق، قيل: ما القلب المحموم؟ قال: هو التقي النقيّ الذي لا إثم فيه ولا بغي ولا حسد. قيل فمن على أثره؟ قال: الذي يشنأ الدنيا ويحب الآخرة. قيل: فمن على أثره؟ قال: مؤمن في خلق حسن](1).

وكذلك أخرج الطبراني في الكبير بسند حسن عن عباد بن تميم عن عمه مرفوعاً: [يا نعايا العرب! يا نعايا العرب! يا نعايا العرب! إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية](2).

والمنادى محذوف وتقديره: يا هذا انع العرب أو يا هؤلاء انعوا العرب. فقد كان العرب إذا مات فيهم شريف أو قُتل بعثوا راكباً إلى القبائل ينعاه: يا نعاء العرب: أي هلك فلان. فكأن النبي ﷺ ينعى إلى الأمة مصابها إذا ظهرت في أبنائها هذه الأمراض المدّمرة: الرياء والشهوة الخفية.

ثالثاً: **الجوارح**: وهي من آلات الشكر التي يظهر أثرها في الحياة وبين الناس، وفي معركة البناء والإصلاح وتغيير المنكر، فقد اشتمل منهج الأنبياء في العمل والتربية إضافة إلى أعمال اللسان وأعمال القلب اشتمل على أعمال الجوارح: من تغيير للمنكر بالسبل الشرعية بعد العلم بها وأمرٍ بالمعروف وترك للحرام. من قيام بالليل وصلاة وأداء للزكاة وحج وصيام. من جهاد في سبيل الله وقتال وإقدام.

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند عن عائشة رضي الله عنها قالت: [ما ضرب ﷺ بيده خادماً قط ولا امرأة، ولا ضرب رسول الله ﷺ بيده شيئاً قط إلا

(1) السلسلة الصحيحة (946).

(2) السلسلة الصحيحة (508).

أن يجاهد في سبيل الله ، ولا خُيِّرَ بين أمرين قط إلا كان أَحَبُّهما إليه أيسَرهما حتى يكون إثما ، فإذا كان إثما كان أبعد الناس من الإثم ، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتىٰ إليه حتى تنتهك حرمات الله عز وجل فيكون هو ينتقم لله عز وجل][1] .

ولقد وصف الله سبحانه الأنبياء وأتباعهم في القرآن بقوله : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [آل عمران : 146] .

وقد نزل النبي ﷺ بنفسه يوم بدر يهدّ بسيفه جموع المشركين ويفرقهم ، وأصحابه يشتدون نحو عدوهم ، ويرى عليه الصلاة والسلام كبرياءَ الكفر أمامه وهي تمرغ بالتراب فيصيح بهم : [شاهت الوجوه ، شاهت الوجوه][2] . فلقي مثل هذا المصير الفاجع تحت مطارق أيدي أصحابه وجوارحهم سبعون صنديداً من صناديد قريش ، من رؤوس الكفر بمكة دارت عليهم كؤوس الردى فتجرعوها صاغرين . وسقط في الأسر سبعون آخرون ، وفرّ بقية التسعمائة والخمسين يروون لمن خلفهم أن الظلم مرتعُه وخيم وأن مخالفة الأنبياء ومنهجهم عذابه أليم .

وأما الصبر : فهو لغة الحبس والكف ، ومنه قولهم قُتِل فلان صبراً إذا أُمسك وحُبس .

فالصبر : حبس اللسان والقلب والنفس والجوارح عن التشكي والجزع والتسخط والتذمر .

وقيل : (هو تعويد النفس الهجوم على المكاره) . وقيل هو : (المقام مع البلاء بحسن الصحبة ، كالمقام مع العافية) .

وقيل : (هو الثبات مع الله ، وتلقي بلائه بالرحب والدعة) . وقيل : (هو الثبات [15 .
على أحكام الكتاب والسنة) .

قال ابن القيم رحمه الله : (فالصبر حبس النفس عن الجزع والتسخط . وحبس

(1) السلسلة الصحيحة (707) .

(2) مختصر مسلم (1191) من حديث حنين وقد ثبت ببدر ذلك .

اللسان عن الشكوى وحبس الجوارح عن التشويش). وذكر قول الجنيد: (المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هين على المؤمن. وهجران الخلق في جنب الله شديد. والمسير من النفس إلى الله صعب شديد والصبر مع الله أشد. وسئل عن الصبر؟ فقال: تجرّع المرارة من غير تعبّس).

قال الإمام أحمد رحمه الله: (الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعاً). قال ابن القيم: (وهو واجب بإجماع الأمة وهو نصف الإيمان فإن الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر).

فالصبر من لوازم العلم بأسماء الله وصفاته، فهو يدل على صدق مراقبة العبد لربه وصدق إيمانه بالقدر، وصدق توحيد الله باسمه العليم والحكيم والخبير والبصير، فهو الذي يقدر المحن والبلاء كيف يشاء، وهو الذي يعلم ما هو أفضل لحال عبده فيجري له في حياته من الحوادث والمصائب والأفراح ما يصلحه، فعِلْمُ العبد بهذا يعينه على الصبر الذي هو من أهم خصائص الأنبياء صلوات الله عليهم، وقد ذكر الصبر في القرآن والسنة على سبعة أوجه أو أكثر:

الوجه الأول: الأمر به والنهي عن ضده: فقد قال جل ثناؤه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: 153]. ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة: 45].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: 200].

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ [النحل: 127].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ [الأنفال:

﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۚ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [الأحقاف: 35].

﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: 139].
﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ [محمد: 33].

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: [مرّ النبي ﷺ على امرأة تبكي عند قبر فقال: اتقي الله واصبري فقالت: إليك عني فإنك لم تُصَبْ بمصيبتي! ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتتْ بابَ النبي ﷺ فلم تَجِدْ عندَهُ بوابّين فقالت: لم أعْرِفْك فقال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى][1].

ونهى عن ضد الصبر حتى عند الموت وشدة المرض. ففي الصحيحين أيضاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [لا يتمنّين أحدُكُم الموتَ لضرٍّ أصابَه، فإن كان لابُدَّ فاعلاً فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي][2]. فالصبر أَمَرَ به الله وأمر به الأنبياء، ووصى لقمان ابنه به آمراً له: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: 17].

وفي الصحيحين أيضاً عن أبي زيد أسامةَ بنِ زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ وحِبِّهِ وابنِ حِبِّهِ رضي الله عنهما قال: [أرسلتْ بنتُ النبي ﷺ: إنَّ ابْني قد احْتُضر[3] فاشهدنا، فأرسل يُقْرِىء السلام ويقول: إن لله ما أخذ، وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى[4] فلتصبر ولتحتَسِبْ. فأرسلتْ إليه تُقسم عليه ليأتينَّها. فقام ومعه سعدُ بن عبادة ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب وزيدُ بن ثابت ورجال رضي الله عنهم فَرُفِعَ إلى رسول الله ﷺ الصبيّ فأقعده في حجره ونفسُهُ تَقَعْقَعُ[5] ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: هذه رحمة جعلها الله تعالى في قلوب عباده. وفي رواية: في قلوب من شاء من عباده وإنما يَرْحَمُ الله من عبادِهِ الرحماء][6].

ويتجلّى أثر هذا الأمر الإلهي للمؤمنين بالصبر في مشاهد الفصل في معركة

---

(1) مختصر مسلم (459).
(2) مختصر مسلم (1884).
(3) احتضر: حضرته مقدمات الموت.
(4) وقت معين معلوم.
(5) تَقَعْقَع: تتحرك وتضطرب.
(6) أخرجه البخاري (120/3 - 122) ومسلم (39/3).

الحق مع الباطل وفي ملحمة الثبات على الحق حتى يلقىٰ المؤمنون ربهم. وأحبّ أن أمثل لهذا بما روى الإمام مسلم في صحيحه عن صُهَيب الرومي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر، فلما كَبِرَ قال للملك: إني قد كَبِرْتُ فابعثْ إليَّ غلاماً أعلّمهُ السحرَ، فبعث إليه غلاماً يُعَلِّمُهُ، وكان في طريقه إذا سلك راهبٌ، فقعدَ إليه وسمعَ كلامه فأعجَبَهُ، وكان إذا أتى الساحِرَ مرَّ بالراهبِ وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربَه، فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا خشيتَ الساحِرَ فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلكَ فقل حَبَسني الساحر. فبينما هو على ذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حَبَستِ الناس فقال: اليوم أعْلَمُ: الساحر أفضلُ أم الراهبُ أفضل؟ فأخذ حجَراً فقال: اللهم إنْ كان أمرُ الراهب أحبَّ إليكَ من أمر الساحر فاقتلْ هذه الدابة حتى يمضيَ الناس، فرَماها فقتلها ومضى الناسُ، فأتى الراهبَ فأخبَرَهُ فقال له الراهب أي بُنَيَّ، أنت اليوم أفضلُ مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستُبْتلى، فإن ابتُليتَ فلا تدلَّ عليَّ. وكان الغلام يُبْرىء الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عَمِيَ فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما ها هنا لك أجمع إن أنت شفيتني فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله تعالى، فإن آمنتَ بالله تعالى دعوتُ الله فشفاك، فآمن بالله تعالى فشفاه الله تعالى، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من ردَّ عليك بَصَرَك؟ قال: ربّي قال: أولك ربّ غيري؟ قال: ربي وربك الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام فجيء بالغلام فقال له الملك: أي بنيَّ، قد بلغ من سحرك ما تبرىء الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل، فقال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله تعالى، فأخذه فلم يزل يعذبّه حتى دلّ على الراهب فجيء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك فأبىٰ، فدعا بالمنشار فوضِعَ المنشار في مفرق رأسه، فشقَّهُ حتى وقع شقّاه، ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينكَ، فأبىٰ، فوُضعَ المنشارُ في مَفرِق رأسِه فشقّهُ به حتى وقع شِقّاه. ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبىٰ، فدفعه إلى نَفرٍ من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذِرْوَتَه فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه فذهبوا به فَصَعِدوا به الجبل فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال:

كفانيهم الله تعالى. فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قُرْقور وتوسَّطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت فانكفأتْ بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى. فقال للملك إنَّك لستَ بقاتلي حتى تفعَلَ ما آمُرُك بِهِ. قال: ما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتَصْلُبُني على جذع ثم خُذْ سَهْمَاً من كِنانتي، ثم ضَع السهم في كبِدِ القوسِ ثم قل: بسم الله ربّ الغلام ثم ارمني فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني. فجمع الناسَ في صعيد واحد، وصَلَبَهُ على جذع، ثم أخذ سهماً من كِنانَتِهِ ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال: بسم الله ربِّ الغلاَم، ثم رماه فوقعَ السَّهْمُ في صُدْغِهِ فوضَعَ يده في صُدْغِهِ فمات.

فقال الناس: آمنا بربّ الغلام، فأُتِيَ الملكُ فقيل لهُ: أرأيتَ ما كنْتَ تحْذَرُ، قد والله نزل بكَ حَذرُكَ قد آمن الناسُ. فأمَرَ بالأخدودِ بأفواه السِّككِ فخدَّت وأُضْرِم فيها النيران وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها أو قيل له: اقتحم ـ ففعلوا حتى جاءت امرأةٌ ومعها صبيٌّ لها، فتقاعَسَتْ أن تَقَعَ فيها، فقال لها الغلام: يا أُمَّهْ، اصبري فإنك على الحق][1].

الوجه الثاني: الثناء على أهله ومحبة الله لهم ومعيته لهم: قال الله جل ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٦ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: 16 - 17].

وقال جل ثناؤه: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: 177]. وقال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: 146]. وقال سبحانه ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: 153]. وقال تعالى ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: 46]. ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: 249].

وفي صحيح الإمام البخاري عن أنس رضي الله عنه: قال سمعت رسول الله ﷺ

---

(1) تخريج رياض الصالحين (30).

يقول: [إن الله عزّ وجل قال: إذا ابْتَلَيْتُ عبدي بحَبِيبَتَيه فصبر عوضتّه منهما الجنة][1] يريد عينيه.

وفي صحيح الإمام مسلم عن أبي مالك الحارث بن عاصمٍ الأشعريّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [الطُّهُور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك. كل الناس يغدو فبائع نفسَهُ فمعتِقُها أو موبِقُها][2].

والطُّهور: بضم الطاء، التطهر والنظافة، وبفتحها: الاسم لما يتطهر به كالسَّحور اسم لما يتسحر به.

والصدقة برهان: أي حجة على إيمان مؤديها إلى مستحقيها، وكل الناس يغدو: أي ينطلق غدوة أي ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها (أي مهلكها) فمن اشترى نفسه بالأعمال الصالحة أعتقها من عذاب الله تعالى، ومن باعها في الأعمال السيئة أوبقها أي أهلكها والله تعالى أعلم.

والوجه الثالث: إيجاب الجزاء لأهل الصبر بأحسن أعمالهم أو بغير حساب.

فقد قال جل ثناؤه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 96].

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10].

﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: 126].

﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء: 25].

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: 155].

---

(1) صحيح الجامع (4178).
(2) صحيح الجامع (3852).

وقد أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاءً إذا قبضْتُ صَفِيَّهُ(1) من أهل الدنيا ثم احْتَسَبَهُ(2) إلا الجنة](3).

وفي الصحيحين عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: [ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ فقلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء أتتِ النبيَّ ﷺ فقالت: إني أُصْرَعُ وإني أتكشَّفُ، فادع الله تعالى لي قال: إن شئتِ صَبَرْتِ ولك الجنة، وإن شئتِ دعوتُ الله تعالى أن يعافيكِ. فقالت: أصْبِرُ فقالت: إني أتكشف، فادع الله ألا أتكشَّفَ فدعا لها](4).

وفيهما أيضاً عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: [ما يصيب المسلمَ من نَصَب ولا وصب ولا همٍّ ولا حَزَنٍ ولا أذىً ولا غمٍّ حتى الشوكةُ يُشاكُها إلا كفَّر الله بها من خطاياه](5). والنصب: التعب. والوصبُ: المرض.

الوجه الرابع: ضمان النصر والمدد للصابرين. فقد قال جل وعز في كتابه: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: 125].

وفي الصحيحين عن أبي سعيد سَعْد بن مالك بن سِنان الخُدْري رضي الله عنهما: [أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهُمْ، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نَفِدَ ما عِنْدَهُ، فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده: ما يكن عندي من خيرٍ فلن أدَّخِرَه عنكم ومن يَستَعْفِفْ يُعِفَّهُ الله، ومن يستغن يُغْنِه الله، ومن يتَصَبَّر يُصبِّره الله. وما أُعْطِي أحدٌ عطاء خيراً وأوسعَ من الصبر](6).

---

(1) صَفِيَّـه: أي حبيبه وخليله الذي يصافيه وده ويخلصه حبه.
(2) احتسبه: أي ادخر ثواب فقده والصبر عليه عند الله تعالى.
(3) صحيح الجامع (7995).
(4) مختصر مسلم (1470).
(5) مختصر مسلم (1798).
(6) مختصر مسلم (555).

وفي صحيح الإمام مسلم عن أبي يحيى صُهَيب بن سِنانٍ الروميّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [عجباً لأمرِ المؤمن إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صَبَرَ فكان خيراً له](1). وعند الحاكم والبيهقي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [إن المعونة تأتي من الله للعبد على قدرِ المؤنة وإن الصبرَ يأتي من الله على قدر المصيبة](2).

الوجه الخامس: بيان أنهم أهل العزائم وأهل الحظوظ العظيمة في الآخرة: قال جل ثناؤه: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى: 43]. وقال: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [الأحقاف: 35]. وقال تعالى: ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص: 80]. وقال: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: 35].

وقد أخرج البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال: [لما ثَقُل النبي ﷺ جعل يتغشاه الكربُ(3) فقالت فاطمة رضي الله عنها: واكرْبَ أبتاه. فقال عليه الصلاة والسلام: ليس على أبيك كربٌ بعد اليوم. فلما مات قالت: يا أبتاه، أجاب ربّاً دعاه، يا أبتاه، جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه، إلى جبريل ننعاه، فلما دُفِن قالت فاطمة رضي الله عنها: يا أنس أطابَتْ أنفسُكُم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب](4).

وفيه أيضاً عن عائشة رضي الله عنها: [أنّها سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون، فأخبرَها: أنه كان عذابا يبعثه الله تعالى على من يشاء، فجعله الله تعالى رحمة للمؤمنين، فليس من عبد يقعُ في الطاعون فيمكثُ في بلدِه صابراً محتسباً يعلمُ أنه لا يصيبُه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثلُ أجر الشهيد](5).

---

(1) مختصر مسلم (2092).

(2) السلسلة الصحيحة (1664).

(3) أي تصيبه الشدة من سكرات الموت.

(4) مختصر صحيح البخاري (1628).

(5) ويشهد له ما في مختصر البخاري بلفظ: (الطاعون شهادة لكل مسلم) وهو من حديث أنس=

وفي الصحيحين عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: [كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يَحْكي نبيّاً من الأنبياء صلوات الله وسلامُهُ عليهم ، ضربه قومُهُ فأدْموه وهو يمسَحُ الدم عن وجهه وهو يقول: اللهم اغفِرْ لقومي فإنهم لا يعلمون][1]. وقوله: يحكي نبياً: أي يفعل مثل فعل ذلك النبي ، وهذا النبي المحكي اختلف فيه فقيل نوح وقيل نبي من أنبياء بني إسرائيل وقيل إنه النبي محمد ﷺ نفسه فهو الحاكي والمحكي معاً.

وفيهما أيضاً عنه رضي الله عنه قال: [دخلتُ على النبي ﷺ وهو يُوعك فقلت: يا رسول الله إنك توعك وعكاً شديداً قال: أجَلْ ، إني أوعَكُ كما يُوعكُ رجلان منكم. قلت: ذلك أن لك أجرين؟ قال: أجل ، ذلك كذلك ، ما من مسلم يُصيبُه أذى - شوكةٌ فما فوقها - إلا كفّر الله بها سيئاتِه ، وحُطَّتْ عنه ذنُوبُهُ كما تحطُّ الشجرة ورقها][2]. والوعك: الحمى وقيل مَغْثُ الحمىٰ.

وعند الإمام البخاري عن أبي عبد الله خبّاب بن الأرت رضي الله عنه قال: [شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو مُتوسِّدٌ بُرْدَةً له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصرُ لنا ألا تَدْعو لنا؟ فقال: قد كان مَنْ قبلكم يُؤْخَذُ الرجلُ فَيَحْفَرُ له في الأرض حُفَيْرَة ، فيجْعَل فيها ثم يُؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجْعَلُ نِصْفين ويُمشَطُ بأمشاطِ الحديد ما دون لحمْهِ وعظمِهِ ما يَصُدُّه ذلك عن دينه ، والله ليُتمَّنَ الله هذا الأمرَ حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاء إلى حَضْرموتَ لا يخاف إلا الله والذئبَ على غنمه ، ولكنكم تستعجلون][3].

قال الله يبشرهم: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: 23 -24].

الوجه السادس: أن المنتفعين بالآيات والعبر هم أولوا الصبر: فقد قال سبحانه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ

= برقم (1880) كتاب الطب. وأما حديث عائشة فبرقم (1386).

(1) مختصر البخاري (1387) وصحيح مسلم (1792).

(2) وانظر مختصر مسلم (1797) و(1798).

(3) مختصر البخاري (1437).

وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾ [إبراهيم: 5] ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾ [سبأ: 19].

وعند الترمذي بسند حسن عن أنس قال: قال النبي ﷺ: [إن عِظمَ الجزاء مع عِظَم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم، فمن رضيَ فله الرضا، ومن سَخِطَ فله السُّخطُ][(1)].

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [إنها ستكون بعدي أثَرَةٌ وأمور تُنكرونها قالوا: يا رسول الله، فما تأمُرُنا؟ قال: تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم]. وبنحوه فيهما عن أسيد بن حضير رضي الله عنه أن رجلاً من الأنصار قال: يا رسول الله، ألا تستعمِلني كما استعملت فلاناً فقال: [إنكم سَتَلْقون بعدي أثَرَةً، فاصبروا حتى تلقَوْني على الحوض][(2)].

فأولوا الأبصار يؤثرون الصبر على البلاء والبعد عن الفتن ومواقع الظهور والرياسة، ويؤثرون عدم لقاء العدو ولكن يصبرون إذا لاقوه. كما أخرجا في الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقيَ فيها العدو، انتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: [يا أيها الناس لا تتمنوا لقاءَ العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف. ثم قال النبي ﷺ: اللهم مُنْزِلَ الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم][(3)].

الوجه السابع: أن الصبر مع اليقين يورث صاحبه الإمامة في الدين: كما قال جل ثناؤه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: 24].

قال ابن القيم رحمه الله: (سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين ثم تلا قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا

---

(1) صحيح الجامع (2106).

(2) مختصر مسلم (1230) ورواه البخاري.

(3) مختصر مسلم (1126) ورواه البخاري.

صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾). وقال ابن عيينة في هذه الآية: (أخذوا برأس الأمر فجعلهم رؤساء). وقال عمر رضي الله عنه: (خير عيش أدركناه بالصبر).

والصحابة رضوان الله عليهم بيقينهم وصبرهم صاروا أئمة الدنيا ودانت لهم الملوك وعظم ذكرهم عند الله وبين الناس، وشاركت النساء في هذا المقام وسجلت أعلى الأرقام في هذا السباق، وأمثلُ لهذا بقصة أبي طلحة وزوجته رضي الله عنهما. فقد أخرجا في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: [كان ابنٌ لأبي طَلْحَة رضي الله عنه يشتكي، فخرج أبو طلحة، فقُبِضَ الصبيُّ، فلما رجَعَ أبو طلحة قال: ما فعل ابني؟ قالت أمّ سُلَيْم وهي أم الصبي: هو أسكن ما كان، فقرَّبتْ إليه العشاء فتعَشّى، ثم أصاب منها فلما فرغ قالت: واروا الصبيَّ. فلما أصبح أبو طلحة أتى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: أعرّسْتُمُ الليلةَ؟ قال نعم: قال: اللهم بارك لهما فولدت غلاماً فقال لي أبو طلحة: احْمِلْه حتى تأتي به النبي ﷺ وبعثَ مَعَهُ بتمرات، فقال: أمَعَهُ شيء قال: نعم تمرات، فأخذها النبي ﷺ فمضغها، ثم أخذها من فيه فجعلها في فِي الصبي ثم حنَّكه وسماه عَبد الله].

وفي رواية للبخاري: قال ابن عُيَينة: (فقال رجل من الأنصار: فرأيْتُ تِسعة أولادٍ كلّهُمْ قد قرؤوا القرآن. يعني من أولاد عبد الله المولود).

وفي رواية لمسلم: [مات ابن لأبي طلحة من أم سُلَيْم فقالت لأهلها: لا تُحَدِّثُوا أبا طلحة بابنه حتى أكونَ أنا أُحَدِّثُهُ فجاء فقرَّبَتْ إليه عشاءً فأكل وشرب، ثم تصَنَّعَتْ له أحْسَنَ ما كانت تصَنَّعُ قبل ذلك فوقع بها فلما أن رأت أنه قد شبعَ وأصاب منها قالت: يا أبا طلحة، أرأيت لو أنَّ قوماً أعاروا عاريَتَهُمْ أهل بيتٍ فطلبوا عاريتهم، ألَهُمْ أن يَمنعوهُم؟ قال: لا، فقالت: فاحتسب ابنك. قال: فغضب، ثم قال: تركْتني حتى إذا تلطَّختُ[1] ثم أخبَرْتِني بابني، فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان، فقال رسول الله ﷺ: [بارك الله لكما في غابر ليلتكمُا]. قال: فحملتْ، قال: وكان رسول الله ﷺ في سفر وهي معه وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينة من سفرٍ لا يَطْرُقُها طُرُوقاً[2] فَدَنَوا من المدينة فضربها

---

(1) تقذرت بالجماع.

(2) يأتيها ليلاً وكل آت بالليل طارق ونُهي عن الطروق لئلا يرى من أهله ما قد يكره.

المخاض فاحتبَسَ عليها أبو طلحة وانطلق رسول الله ﷺ. قال: يقول أبو طلحة: إنك لتَعْلَمُ يا رب أنه يُعجبني أن أخرُجَ مع رسول الله ﷺ إذا خَرَج وأدخُلَ معه إذا دَخَلَ وقد احْتَبَسْتُ بما ترى. قال: تقول أم سُليم: يا أبا طلحة، ما أجد الذي كنتُ أجدُ، انطَلِقْ فانطلقنا وضربها المخاض حين قَدِما فولدت غلاماً. فقالت لي أمي: يا أنس، لا يُرضعُه أحدٌ حتى تَغْدُوَ به على رسول الله ﷺ، فلما أصبحَ احتملتُهُ فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ. وذكر تمام الحديث][1].

قال ابن تيمية رحمه الله: (كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب، وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه، فا ؛ هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غ ر الصبر. وأما صبره عن المعصية: فصبر اختيار ورضا ومحاربة للنفس.. ولا س ا مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة. فإنه كان شابا وداعيةُ الشباب إليها قوية. وعَزَباً ليس له ما يعوضه ويبرد شهوته. وغريباً: والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه مَنْ بين أصحابه ومعارفه وأهله. ومملوكاً: والمملوك أيضاً ليس وازعه كوازع الحرّ. والمرأة جميلة. وذات منصب وهي سيدته. وقد غاب الرقيب. وهي الداعية له إلى نفسها. والحريصة على ذلك أشد الحرص ومع ذلك توعدته إن لم يفعل بالسجن والصغار، ومع هذه الدواعي كلها: صبر اختياراً وإيثاراً لما عند الله. وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه) ذكره ابن القيم في المدارج.

وكان شيخ الإسلام يقول: (الصبر على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل، فإن مصلحة فعل الطاعة: أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية. ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية).

وأنواع الصبر ثلاثة: أولاً: الصبر على طاعة الله، ثانياً: الصبر عن معصية الله، ثالثاً: الصبر على امتحان الله.

---

(1) صحيح مسلم (6/174 - 175) كتاب الأدب.

فالصبر على طاعة الله كما قال جل ثناؤه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: 28].

وفي المسند للإمام أحمد، وكذلك عند الترمذي والنسائي وابن حبان بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: [ألا أخبركم بخير الناس منزلةً؟ رجل ممسكٌ بعنانِ فرسِهِ في سبيل الله حتى يموت أو يقتل، ألا أخبركم بالذي يتلوه؟ رجل معتزل في شِعْبٍ، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعتزل شرورَ الناس، ألا أخبركم بشرِّ الناس؟ رجل يُسألَ بالله ولا يُعطي][1].

وكذلك أخرج الإمام أحمد والإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: [ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرةُ الخطا إلى المساجدِ، وانتظار الصلاةِ بعد الصلاةِ، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط][2].

وعند الطبراني عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: [يا ولي الإسلام وأهله، مسكني الإسلام حتى ألقاك عليه] وسنده حسن كما أفاد العلامة الألباني رحمه الله[3].

وأما الصبر عن معصية الله: فكما قال جل ثناؤه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: 9 - 11].

قال ابن القيم رحمه الله: (وكما أن الرباط لزوم الثغر لئلا يهجم منه العدو، فكذلك الرباط أيضاً لزوم ثغر القلب لئلا يهجم عليه الشيطان فيملكه أو يُخْربه أو يُشعثه).

---

(1) صحيح الجامع (2597).
(2) صحيح الجامع (2615).
(3) السلسلة الصحيحة (1476).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [سبعة يظلهم الله في ظله يومَ لا ظل إلا ظِلُّه: إمام عادل، وشابٌ نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلقٌ بالمسجد إذا خرج منه حتى يعودَ إليه، ورجلان تحابّا في الله فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجلٌ دعتْه امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفقُ يمينُه][1]. فمنعه الصبر لله عن معصية الله والوقوع بالفاحشة فأكرم نزله سبحانه يوم القيامة، فالصبر من قمة الآثار التي تشع بها صفات الله وأسماؤه في حياة عباده وقلوبهم.

وأما الصبر على امتحان الله: فكما قال جل ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: 156]. وكقوله: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [ص: 44]. وكقوله: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 86].

يروي الطبراني وصححه الألباني عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: [عجبت لصبر أخي يوسف وكرمِه والله يغفرُ له حيث أرسلَ إليه ليستفتى في الرؤيا ولو كنت أنا لم أفعل حتى أخرجَ، وعجبتُ لصبره وكرمه والله يغفر له أتي ليخرج فلم يخرج حتى أخبرهم بعذره ولو كنت أنا لبادرت البابَ، ولولا الكلمة لما لبث في السجن حيث يبتغي الفرجَ من عند غير الله عز وجل][2]. وعند البيهقي بسند صحيح من حديث سعد عن النبي ﷺ قال: [عجبت للمسلم إذا أصابته مصيبة احتسب وصبر وإذا أصابه خيرٌ حمد الله وشكر إن المسلم يؤجر في كل شيء حتى في اللقمة يرفعها إلى فيه][3].

وينافي ذلك الصبر الشكوى لغير الله سبحانه. رُوي أن رجلاً رأى رجلاً يشكو إلى آخر فاقة وضرورة فقال يا هذا: (تشكوا من يرحمك إلى من لا يرحمك؟)ثم أنشد:

وإذا عَـرَتـك بليـة فـاصبـر لهـا   صبـر الكـريـم فـإنـه بـك أرحـم

(1) مختصر مسلم (537) ورواه البخاري.
(2) صحيح الجامع (3879).
(3) صحيح الجامع (3881).

وإذا شكـوت إلـى ابـن آدم إنمـا تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

وقيل مراتب الصبر خمسة: صابر ومصطبر ومتصبر وصبور وصبّار. فقوله تعالى: ﴿ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ ﴾ انتقال من الأدنى إلى الأعلى. فالصبر دون المصابرة، والمصابرة دون المرابطة، والمرابطة مفاعلة من الربط، وهو الشد، وقد سمي المرابط مرابطاً لأن المرابطين يربطون خيولهم ينتظرون الفزع، ثم قيل لكل منتظر قد ربط نفسه أو أقامها على طاعة ينتظرها مرابط، لذلك قال في الحديث السابق: [وانتظارُ الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط].

وقيل: مراتب الصبر ثلاثة: صبر بالله ولله ومع الله، فالأول استعانة به سبحانه، والثاني صبر لوجهه الكريم، والثالث صبر يدور مع أمره الديني ومحابّه وهديه.

يقول بعض الصالحين: (الصبر لله غناء، وبالله تعالى بقاء، وفي الله بلاء، ومع الله وفاء، وعن الله جفاء).

والمصطبر: المكتسب الصبر المليء به. والمتصبر: المتكلف حامل نفسه عليه. وفي الحديث: [من يصبر يصبّره الله]. والصبور: مبالغة وهو العظيم الصبر، والصبّار الكثير الصبر، كما قال جل ثناؤه: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾. وقيل: الصبر على الطلب عنوان الظفر، والصبر في المحن عنوان الفرج. ولذلك قال رسول الله ﷺ: [أفضل الإيمان الصبر والسماحة] رواه الإمام أحمد عن عبادة[1].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه ولا معه، والصفح الجميل هو الذي لا عتاب معه، والهجر الجميل هو الذي لا أذى معه).

الرضا:

وأما الرضا فهو غاية التوكل، ومقام من ذاق طعم الإيمان وآمن بأسماء الله وصفاته كما يليق بجلاله سبحانه. وادعاؤه سهل بالكلام واللسان ولكنه من أصعب الأمور عند حقيقة الامتحان. فكم من ناطق به بلسانه مخالف له في حاله،

---

(1) صحيح الجامع (1108).

فنسأل الله السلامة في الدين والصدق في الإيمان ، والرضا عن الله سبحانه في كل أمره وقدره .

ومقامات الرضا ثلاثة :

المقام الأول : الرضا عن الله والرضا بربوبيته وبألوهيته سبحانه .

والمقام الثاني : الرضا برسوله وتمام الانقياد له .

والمقام الثالث : الرضا بدينه سبحانه والتحاكم له والتسليم لمراده .

وأبدأ بعون الله بالمقام الأول : وهو مقام الرضا عن الله والرضا بربوبيته وبألوهيته سبحانه : ويتضمن هذا المقام توحيد أسمائه وصفاته بمحبته وحده والخوف منه وتعظيمه ورجائه والإنابة والتبتل إليه ، والإخلاص والانجذاب بالكلية إليه ، وصرف العبادة كلها لوجهه ورضاه ، والاستعانة به فهو المدبر وحده وهو الخالق الرازق ، فيفرده بالطلب والتماس الرزق والفرج منه وحده ، وكل الثقة به وكلّ الاعتماد عليه ، وهما في الحقيقة مقامان: مقام الرضا بإلهيته ومقام الرضا بربوبيته. قال ابن القيم رحمه الله: (فالأول يتضمن رضاه بما يؤمر به. والثاني يتضمن رضاه بما يقدر عليه). قال الله سبحانه: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: 164] فهذا هو عين الرضا به رباً. وقال لرسوله: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام: 114].

وقال: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: 14].

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوةَ الإيمان: أن يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يُحِبَّ المرء لا يحبّه إلا لله ، وأن يكره أن يعودَ في الكفر بعدَ إذ أنقذه الله منه كما يكرهُ أن يُلقى في النار][1].

وفي سنن أبي داود عن عبد الله بن معاوية الغاضري عن النبي ﷺ قال: [ثلاث من فَعَلَهُنَّ فقد طَعِمَ طعَم الإيمان: من عَبَدَ الله وحده وأنه لا إله إلا الله ، وأعطى زكاةَ مالِهِ طيّبةً بها نفسُهُ وافِدَةً عليه كلَّ عام ، ولا يُعطي الهرِمَةَ ولا الدّرنة

---

(1) مختصر مسلم (22).

ولا المريضة ولا الشَّرط اللئيمة ، ولكن من أوسطِ أموالكم ، فإن الله لم يسألكم خيره ولا يأمركم بشرِّه ، وزكّى نفسه][1] .

قال ابن القيم رحمه الله : (فمن رسخ قدمه في التوكل والتسليم والتفويض : حصل له الرضا ولابد. ولكن لعزته وعدم إجابة أكثر النفوس له وصعوبته عليها لم يوجبه الله على خلقه رحمة بهم وتخفيفاً عنهم ، لكن ندبهم إليه وأثنى على أهله وأخبر أن ثوابه رضاه عنهم الذي هو أعظم وأكبر وأجل من الجنان وما فيها ، فمن رضي عن ربه رضي الله عنه. بل رضا العبد عن الله من نتائج رضا الله عنه. فهو محفوف بنوعين من رضاه عن عبده : رضا قبله أوجب له أن يرضى عنه ورضا بعده هو ثمرة رضاه عنه. ولذلك كان الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا ومستراح العارفين وحياة المحبين ونعيم العابدين وقرة عيون المشتاقين) .

ففي الصحيحين عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : [إن الله تعالى يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة : فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخيرُ في يديك فيقول : هل رضيتم؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعْط أحداً من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون : يا ربِّ وأيّ شيء أفضلُ من ذلك؟ فيقول : أحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً][2] .

قال الجنيد : (الرضا هو صِحَّةُ العلم الواصل إلى القلب. فإذا باشر القلب حقيقة العلم أدّاه إلى الرضا) .

وقيل ليحيى بن معاذ : (متى يبلغ العبد إلى مقام الرضا؟ فقال : إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به ربه فيقول : إن أعطيتني قبلت. وإن منعتني رضيت ، وإن تركتني عبدت ، وإن دعوتني أجبت) .

المقام الثاني : وهو مقام الرضا برسوله محمد ﷺ وتمام الانقياد له : فهو الذي أرسله كما قال سبحانه : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء : 107]. وقال

---

(1) السلسلة الصحيحة (1046) ولفظ (وزكى نفسه) هو عند الطبراني والبيهقي وتمامه : (فقال رجل : وما تزكية النفس؟ فقال : أن يعلم أن الله عز وجل معه حيث كان) انظر صحيح الجامع (3037) .

(2) صحيح مسلم (144/8) .

جل ذكره: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128]. وفي صحيح الإمام مسلم ومسند الإمام أحمد عن العباس بن عبد المطلب عن النبي ﷺ قال: [ذاق طَعْمَ الإيمانِ من رضيَ بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً][1].

وفيهما أيضاً عن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [من قال حين يسمعُ المؤذن: وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، رضيتُ بالله ربا وبمحمد رسولا وبالإسلام دينا، غفر الله له ما تقدم من ذنبِه][2].

وهذا المقام من الرضا يتضمن كمال التسليم والانقياد لرسول الله ﷺ، فلا يتلقى الهدى إلا من كلماته وسيرته ومنهاجِه، ولا يحاكم إلا إليه، كما قال جل وعز: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65]. وهذا المقام يقتضي تعظيم أوامر هذا النبي الكريم فوق كل أمر في الحياة الدنيا وفوق كل آمر من البشر، واجتناب كل ما نهى عنه ولو خالف ما اعتاده الناس في حياة بيوت الوبر والمدر.

فقد أخرج الإمام مسلم والإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه][3].

قال ابن القيم رحمه الله في المدارج: (وههنا يوحشك الناس كلهم إلا الغرباء في العالم، فإياك أن تستوحش من التفرد. فإنه والله عين العزة، والصحبة مع الله ورسوله، وروح الأنس به. والرضا به رباً وبمحمد ﷺ رسولاً وبالإسلام ديناً. قال: وكلما ذاق حلاوة هذا الاغتراب وهذا التفرد: رأى الوحشة عين الأنس بالناس، والذلَّ عين العزِّ بهم، والجهل عين الوقوف مع آرائهم وزبالة أذهانهم،

---

(1) مختصر صحيح مسلم (25).
(2) مختصر مسلم (200).
(3) مختصر مسلم (639).

والانقطاع عين التقيد برسومهم وأوضاعهم ، فلم يؤثِر بنصيبه من الله أحداً من الخلق ، ولم يَبِعْ حظه من الله بموافقتهم فيما لا يُجْدي عليه إلا الحرمان.

وغايته: مودَّة بينهم في الحياة الدنيا. فإذا انقطت الأسباب وحقَّت الحقائق وبعثِر ما في القبور ، وحصل ما في الصدور ، وبُليت السرائر ، ولم يجد من دون مولاه الحق من قوة ولا ناصر: تبين له حينئذ مواقع الربح والخسران وما الذي يخفُّ أو يرجح به الميزان والله المستعان وعليه التكلان).

المقام الثالث: الرضا بدينه سبحانه والتحاكم له والتسليم لمراده: قول الله عز وجل: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء: 59]. وقال: ﴿ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ [محمد: 33]. وقال جل وعز: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴾ [النساء: 60]. وقال سبحانه: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: 44].

وقد مضى حديث العباس عن النبي ﷺ حيث قال: [ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً]. وقال جل ثناؤه: ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي معبوداً ناصراً ومعيناً وملجأ وهو من الموالاة التي تشمل المحبة مع الطاعة. وقال: ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ ﴾ قال ابن عباس: (سيداً وإلها). وقال في نفس السورة: ﴿ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ ﴾ أي أفغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه.

وهذه الآيات الثلاثة مدارها على الرضا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً.

قال ابن القيم رحمه الله: (فكثير من الناس يرضى بالله رباً ولا يبغي رباً سواه ، لكنه لا يرضى به وحده ولياً وناصراً. بل يوالي من دونه أولياء. ظناً منه أنهم يقربونه إلى الله ، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك. وهذا عين الشرك. بل التوحيد: أن لا يتخذ من دونه أولياء. قال: وكثير من الناس يبتغي غيرهُ حكماً ، يتحاكم إليه

ويخاصم إليه ويرضى بحكمه ، وهذه المقامات الثلاث هي أركان التوحيد: أن لا يتخذ سواه رباً ولا إلهاً ولا غيره حكماً. وتفسير الرضا بالله رباً: أن يسخط عبادة ما دونه. هذا هو الرضا بالله إلهاً. وهو من تمام الرضا بالله رباً. فمن أعطى الرضا به رباً حقه سخط عبادة ما دونه قطعاً. لأن الرضا بتجريد ربوبيته يستلزم تجريد عبادته ، كما أن العلم بتوحيد الربوبية يستلزم العلم بتوحيد الإلهية).

وأما السكينة: فهي الطمأنينة والوقار ، وأصلها السكون الذي ينزله الله في قلب عبده عند اضطرابه من شدة المخاوف والقلاقل ، فيبعث فيه راحة يزيده بها إيماناً وثباتاً.

وقد ذكرها الله في كتابه في خمسة مواضع في سورتين: اثنان في سورة التوبة وثلاثة في سورة الفتح.

الموضع الأول في سورة التوبة قوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

الموضع الثاني في سورة التوبة أيضاً في وصف الهجرة: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

الموضع الثالث في سورة الفتح: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

الموضع الرابع: في سورة الفتح: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

الموضع الخامس: في سورة الفتح أيضاً وهو قوله سبحانه: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

والسكينة يحتاجها المؤمن أحوج ما يكون عند القلق والاضطراب وكآبة النفس فيما يصيبها من غرور أهل الباطل وعجرفة أهل الدنيا وكبرهم ، فيحتاج المؤمن إلى ربه سبحانه أن يطمئن قلبه ويبث فيه من السكينة وأسباب الثبات واليقين . وقد طمأن النبي ﷺ صاحبَه في مثل هذه اللحظات من القلق عند الهجرة في الغار ، والعدو فوق رأسيهما لو نظر أحدهم إلى ما تحت قدميه لرآهما . وكذلك أنزل الله السكينة على من ثبت مع النبي ﷺ يوم حنين إذ ولّى القوم مدبرين من شدة بأس الكفار ، والثالثة يوم الحديبية وقد ضاقت النفوس من شروط الكفار .

وقد اشتد الهمّ والقلق يوم الخندق وساهم الجميع بحفره حتى شاركهم النبي ﷺ بصوته في ارتجازهم شعر عبد الله بن رواحة يمد صوته بها معهم .

ففي الصحيحين عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : [كان رسول الله ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى اغبَرّ بطنه يقول :

والله لــــولا الله مـــا اهتــــدينـــا ولا تصـــــدقنـــا ولا صلينــــا
فـــأنـــزلـــن سكينـــة علينـــا وثبـــت الأقـــدام إن لاقينـــا
إن الألـــى قـــد بغـــو علينـــا إذا أرادوا فتنـــــة أبينـــــا][1]

وفي رواية يقول البراء : [رأيت النبي ﷺ ينقل من تراب الخندق ، حتى وارى التراب جلدة بطنه ، وهو يرتجز بكلمة عبد الله بن رواحة رضي الله عنه :

لاهُـــمَّ لـــولا أنـــت مـــا اهتـــدينـــا ولا تصـــــدقنـــا ولا صلينـــــا]

إلى آخر الأبيات .

ويوم خيبر ارتجزها عامر بن الأكوع ، فقد روى البخاري عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : [خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر ، فَسِرْنا ليلاً ، فقال رجل من القوم لعامر ، رضي الله عنه : يا عامرُ ألا تُسْمِعُنَا من هُنيهاتِكَ؟ وكان عامر رجلاً شاعراً حدَّاءً ، فنزل يحدو بالقوم يقول :

اللهـــم لـــولا أنـــت مـــا اهتـــدينـــا ولا تصـــــدّقنـــا ولا صلينـــــا

---

(1) السيرة النبوية على منهج الوحيين : القرآن والسنة الصحيحة . د. مأمون حموش ج٢ . ص 724 - 725 .

فـــاغفـــر فـــداءً لـــك مـــا اتقينـــا وثبـــت الأقـــدام إن لاقينـــا
وألقِيَـــنْ سكينـــــة علينـــــا إنـــا إذا صِيـــحَ بنـــا أبينـــا
وبـــالصيـــاح عـــوَّلـــوا علينـــا

فقال رسول الله ﷺ: من هـذا السائق. قالوا: عامِرُ بـن الأكوع. قال: يرحَمُـهُ الله. . . .][1] الحديث.

ومقامات السكينة ثلاثة:

المقام الأول: السكينة المحتاجُ لها: وهي السكينة التي تنزل على القلوب حالة الجزع والخوف والقلق فتسعد بها وتنشط بتذوقها، وتعيد للقلب حيويته وإيمانه بعد تعرضه لشيء من وساوس الشيطان وأهاويل الخوف والحزن والضَجر، ومن أحسن ما ذكر في هذا المقام قول أبي إسماعيل الهروي رحمه الله حيث عرف السكينة بقوله: (هي التي نزلت على قلب النبي ﷺ وقلوب المؤمنين. وهي شيء يجمع قوة وروحا، يسكن إليها الخائف ويتسلى به الحزين والضجر، ويسكن إليه العَصِيُ والجَريء والأبي).

فكانت الروح حياة للقلب، والنور استنارته وإشراقه، والقوة ثباته وعزمه ونشاطه، فوفدت هذه الخيرات الثلاثة على القلب: النور والقوة والروح في حالة فتوره وضعفه أحوج ما كان يحتاج إليها، فبَثَّتْ فيه السكينة وطمأنته، فكانت هذه السكينة تحمل بشائر ثلاث: سكون الخائف إليها، وتسلي الحزين والضجر بها، واستكانة صاحب المعصية والجرأة على المخالفة والإباء إليها.

فالنور خير يميز به المؤمن بين الحق والباطل والشك واليقين والاستقامة والزلل، كما قال جل ثناؤه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: 122]. والروح هو الوحي فيه حياة القلوب كما قال جل ثناؤه: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: 15]. وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: 24].

---

(1) مختصر البخاري (1568) كتاب المغازي، باب: غزوة خيبر.

ثم القوة زاد المؤمن على المضي متحدياً رياح الباطل وهبوبها ، أحوج ما يكون إليها عند الغربة وعندما يعز حُضور أهل الحق في ساحات مقارعة الباطل والظلام ، وبها يضبط المؤمن نفسه عن الجزع والهلع والاسترسال في التفكر في وساوس الشيطان ، وما يدعو إليه من الانهزام والهروب والاستسلام ومغادرة ساحات النصر.

وخير ما ينجد المؤمن من مثل هذه الهَبّات التي تعترض القلب وتحاول أن تثنيه عن عزيمته ومضائه هو الالتجاء إلى القرآن العظيم وقراءة آيات السكينة ، كما قال ابن القيم رحمه الله : (وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ إذا اشتدت عليه الأمور: قرأ آيات السكينة. قال: وقد جربت أنا أيضاً قراءة هذه الآيات عند اضطراب القلب بما يرد عليه فرأيت لها تأثيراً عظيماً في سكونه وطمأنينته) .ـ ثم ذكر أثر نزول السكينة على قلب صاحب المعصية ـ فقال : (فإذا نزلت عليه السكينة اعتاض بلذتها وروحها ونعيمها عن لذة المعصية فاستراحت بها نفسه ، وهاج إليها قلبه ، ووجد فيها من الروح والراحة واللذة ما لا نسبة بينه وبين اللذة الجسمانية النفسانية. فصارت لذته روحانية قلبية. بعد أن كانت جسمانية فانسلب منها ، وحبس عنها وخلصته . فإذا تألقت بروقها قال :

تألق البرق نَجْديا فقلت له ... يا أيها البرق إني عنك مشغول

وإذا طرقته طيوفها الخيالية في ظلام ليل الشهوات ، نادى لسان حاله ، وتمثل بمثل قوله :

طَرَقَتْكَ صائدة القلوب وليس ذا ... وقت الزيارة فارجعي بسلام

فإذا ودّعته وعزمت على الرحيل ، ووعدته بالموافاة ، تمثّل بقول الآخر :

قالت وقد عزمَت على ترحالها ... ماذا تريد؟ فقلت : أن لا ترجعي

قال : فإذا باشرت هذه السكينة قلبه سكنت خوفه وسلت حزنه . قال : فهي سلوة المحزون ومذهبة الهموم والغموم . وكذلك تذهب عنه وخم ضجره ، وتبعث نشوة العزم ، وتحول بينه وبين الجرأة على مخالفة الأمر وتورثه وقاراً وخشوعاً) انتهى .

المقام الثاني : السكينة المنطوق بها : وهي حالة في قلب المؤمن الذي اطمأن بذكر الله وقل تقلبه ، وسكنت جوارحه وخشعت وامتلأت وقاراً ، فانعكست بأثرها

جميعاً على لسانه فأنطقته بإذن الله بالحكمة والحق والمعالي وما يحبه الرحمان سبحانه ويرفعه ويرفع أهله .

وخير مثال يمثل هذا المقام عمر رضي الله عنه ، فقد روى الترمذي في جامعه بسند حسن عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : [إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه][1] .

وعند البيهقي في «دلائل النبوة» عن علي رضي الله عنه قال : [ما كنا نُبْعِدُ أن السكينةَ تنطق على لسان عمر][2] .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : (كنا نتحدث أن السكينة تنطق على لسان عمر وقلبه) .

قال ابن القيم رحمه الله : (وكثيراً ما ينطق صاحب السكينة بكلام لم يكن عن فكرة منه ولا رواية ولا هبة ، ويستغربه هو من نفسه ، كما يستغرب السامع له . وربما لا يعلم بعد انقضائه بما صدر منه . قال : وأكثر ما يكون هذا عند الحاجة وصدق الرغبة من السائل والمُجالس ، وصدق الرغبة منه هو إلى الله ، والإسراع بقلبه إلى بين يديه ، وحضرته مع تجرده من الأهواء ، وتجريده النصيحة لله ولرسوله ولعباده المؤمنين) .

المقام الثالث : السكينة المعمول بها : وتشمل هذه السكينة على محاسبة النفوس وامتثال هدي نبيّها ، وعلى ملاطفة الخلق ومعاملتهم بمدلولها ، وعلى مراقبة الحق وإقامة النفس على ذلك في كل توجهاتها .

ومحاسبة النفس يطهرها من عيوبها والاسترسال في نقائصها ، كما قال الحسن رضي الله عنه : (إن المؤمن ـ والله ـ لا تراه إلا قائماً على نفسه : ما أردت بكلمة كذا؟ ما أردت؟ ما أردت بمدخل كذا ومخرج كذا؟ ما أردت بهذا؟ ما لي ولهذا؟ والله لا أعود إلى هذا . ونحو هذا من الكلام) .

ثم يحملها على امتثال هدي نَبيّها ، فهي السكينة العملية ، كما في الصحيحين

---

(1) صحيح الجامع (1732) .
(2) انظر فضائل عمر في مشكاة المصابيح ، (تخريج المشكاة 6042 - 6043 للألباني) .

عن أبي قتادة عن النبي ﷺ قال: [إذا أتيتم الصلاة فعليكم السكينة ولا تأتوها وأنتم تسعون ، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا][1] . وله شاهد عند الطبراني بسند صحيح عن سعد عن النبي ﷺ قال: [إذا أتيت الصلاة فأتها بوقار وسكينة ، فصلّ ما أدركت واقض ما فاتك][2] .

ثم إن هذه السكينة تحمله على ملاطفة الخلق فيأنسون به ويحبّون مجالسته والسماع إليه ، والناس دوماً بحاجة رؤية صاحب الحلم والسكينة وهم يخوضون في خضم الصراع في هذه الحياة ، فيحبون الوقوف بين الفينة والأخرى على صاحب السكينة الذي امتلأ قلبه قرآناً ونوراً وإشراقاً ، فيبث إلى قلوبهم من الأمل القرآني ما يحملهم على التقلل من الدنيا والسعي وراءها إلى الاطمئنان بذكر الموت والمحشر والاستعداد للقاء الله سبحانه .

ففي المسند عن أسيد بن حضير أن النبي ﷺ قال له: [اقرأ فلان! فإنها السكينة نزلت للقرآن ، أو عند القرآن][3] .

وفي صحيح الإمام مسلم ومسند الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال: [إنه لم يكن نبيّ قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمتَّهُ على ما يعلمُهُ خيراً لهم ، ويُنذرهم ما يعلمه شراً لهم ، وإن أمتكم هذه جُعل عافِيتُها في أوَّلها وسيصيبُ آخرها بلاءٌ شديد وأمور تنكرونها وتجيء فتن فيَرفِقُ بعضُها بعضا ، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه مُهلِكتي ثم تنكشف وتجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه هذه فمن أحب منكم أن يُزحزَحَ عن النار ويدخلَ الجنة فلتأتِه منيّته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس الذي يحبُّ أن يُؤتى إليه ومن بايَعَ إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع فإن جاء آخرُ ينازعُهُ فاضربوا عُنُقَ الآخر][4] .

---

(1) صحيح الجامع (272) ومختصر مسلم (244) .
(2) السلسلة الصحيحة (1198) .
(3) وأصل القصة في صحيح البخاري ، كتاب فضائل القرآن . وانظر مختصر البخاري (1731) . وأما الرواية السابقة فهي في المسند (284/4) وصححها الألباني في السلسلة (1313) .
(4) مختصر مسلم (1199) .

فوصف عليه السلام المؤمن الذي يحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة أنه يأتي إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه ، أي يبادلهم باللطف والإحسان الذي يحبه منهم تجاهه ولا يعاملهم بالعنف والشدة والغلظة فإن ذلك ينفرهم عنه ويغريهم به ، ويفسد عليه قلبه وحاله ودنياه ووقته.

قال ابن القيم رحمه الله: (فليس للقلب أنفع من معاملة الناس باللطف. فإن معاملة الناس بذلك: إما أجنبي فتكسب مودته ومحبته. وإما صاحب وحبيب فتستديم صحبته ومودته. وإما عَدو ومبغض فتُطْفِىءُ بلطفك جمرته. وتستكفىء شره. ويكون احتمالك لمضض لطفك به دون احتمالك لضرر ما ينالك من الغلظة عليه والعنف به).

وهذا المقام من السكينة ملاكه مراقبة الحق سبحانه في القول والعمل وتعظيم أوامره واجتناب مباغضه ، فتوجب هذه المراقبة له دوام صلاح النفس وملاطفة الخلق فيفوح ذلك على ألسنتهم. كما روى ابن ماجه في سننه والطبراني في معجمه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [أهل الجنة من ملأ الله أذنيه من ثناء الناس خيراً وهو يسمع ، وأهل النار من ملأ الله أذنيه من ثناء الناس شراً وهو يسمع][1].
وله شاهد عند الحاكم والديلمي عن أنس قال: [كنت قاعداً مع النبي ﷺ فمر بجنازة فقال: ما هذه الجنازة؟ قالوا: جنازة فلان الفلاني كان يحب الله ورسوله ويعمل بطاعة الله ويسعى فيها فقال رسول الله ﷺ: وجبت وجبت وجبت ، وبجنازة أخرى قالوا: جنازة فلان الفلاني كان يبغض الله ورسوله ويعمل بمعصية الله ويسعى فيها. فقال: وجبت وجبت وجبت فقالوا: يا رسول الله قولك في الجنازة والثناء عليها: أثني على الأول خير ، وعلى الآخر شر ، فقلت فيها: وجبت وجبت وجبت؟ فقال: نعم يا أبا بكر! إن لله ملائكة تنطق على ألسنة بني آدم بما في المرء من الخير والشر][2].

وفي رواية عند ابن منده: [فجاء جبرائيل فقال: إن الرجل ليس كما ذكروا ، ولكن أنتم شهداء الله في الأرض ، وقد غفر له ما لا يعلمون] وصححه الألباني[2].

---

(1) صحيح الجامع (2524).

(2) السلسلة الصحيحة (1312).

وأما الطمأنينة: فهي سكون القلب من عواصف القلق والاضطراب والتقلب. وهي حالة المؤمن الذي رضي بحكم بارئه وصبر لأمره وشكر على نعمه والتمس السكينة في كتابه وهدي نبيه صلوات الله وسلامه عليه. فالطمأنينة من ثمرات الإيمان بأسماء الله وصفاته وتنزيهه كما يليق بجلاله، فهي أثر من الآثار العظيمة لتوحيد الأسماء والصفات.

ومنازل الطمأنينة اثنان: الطمأنينة إلى حكمه الديني سبحانه، والطمأنينة إلى حكمه الكوني.

فالمقام الأول: مقام الطمأنينة إلى حكمه الديني الشرعي، وهذا يكون من العبد بالإكثار من ذكر بارئه والتحدث بنعمائه وتوحيد أسمائه وصفاته، فقد قال جل ثناؤه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]. قال قتادة: (يقول: سكنت إلى ذكر الله واستأنست به). وقال ابن جرير: (ألا بذكر الله تسكن وتستأنِس قلوبُ المؤمنين).

وقد أخرج الإمام أحمد في المسند عن أبي ثعلبة عن النبي ﷺ قال: [البرُّ ما سكنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما لم تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب وإن أفتاك المُفتون][1].

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: (فإنه إذا اطمأن إلى حكمه الديني علم أنه دينه الحق وهو صراطه المستقيم. وهو ناصره وناصر أهله وكافيهم ووليهم).

والمقام الثاني: مقام الطمأنينة إلى حكمه الكوني: وخير ما يكون ذلك أن يوصف به العبد عند الخاتمة ليترجم عن حياته كلها أنها كانت رضاءً عن الله وحكمه وقدره، فيثيبها الله سبحانه بقوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: 27 - 30].

وهذا المقام له علاقة بالقدر وبأن ما قدر سيكون وبأن الله قد فرغ من كتابة المقادير، كما روى الإمام أحمد في المسند عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: [دعاني أبي حين حضره الموت فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن

---

(1) صحيح الجامع (2878).

أول ما خلق الله القلم فقال لـه : اكتب . قال يا رب وما أكتب ؟ قال : اكتب القـدر وما هو كائن إلى الأبد][1] .

قال ابن القيم رحمه الله : (وإذا اطمأن إلى حكمه الكوني : علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له ، وأنه ما يشاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فلا وجه للجزع والقلق إلا ضعف اليقين والإيمان . ثم قال : فلا ريب أن المبتلى إذا قويت مشاهدته للمثوبة سكن قلبه واطمأن بمشاهدة العوض . وإنما يشتد به البلاء إذا غاب عنه ملاحظة الثواب ، وقد تقوى ملاحظة العوض حتى يستلذ بالبلاء ويراه نعمة ، ولا تستبعد هذا ، فكثير من العقلاء إذا تحقق نفع الدواء الكريه فإنه يكاد يلتذ به . وملاحظته لنفعه تغيبه عن تأمله بمذاقه أو تخففه عنه . والعمل المعول عليه : إنما هو على البصائر والله أعلم) . قال : (وأبرد ما تكون الطمأنينة على عبد أدركه الضجر من قوة التكاليف وأعباء الأمر وأثقالـه ولا سيما من أقيم مقام التبليغ عن الله ومجاهدة أعـداء الله ، وقطاع الطريق إليه ، فإن ما يحمله ويتحمله فوق ما يحمله الناس ويتحملونه . فلابد أن يدركه الضجر ويضعف بصره . فإذا أراد الله أن يريحه ويحمل عنه أنزل عليه سكينته فاطمأن إلى حكمه الديني وحكمه القدري ، ولا طمأنينة له بدون مشاهدة الحكمين وبحسب مشاهدته لهما تكون طمأنينته) .

وأما الفرق بين السكينة والطمأنينة : فالطمأنينة هي استقرار السكينة وإقامتها ، فهي سكينة يدعمها أمن كما يقال : اطمأن بالمنزل أو المكان إذا أقام به . وأما السكينة فقد تعتري القلب في بعض الأحيان ولكن دون إقامة ، فالطمأنينة أعم من السكينة وهي تشمل حصول العلم واليقين ، ومن هنا تطمئن القلوب المؤمنة بالقرآن وتهتدي به في ظُلَم الأهواء وكثرة الآراء وتفرع المذاهب وغرق الفلسفة فتحتكم إليه وتطمئن لعزل كل هدي غيره .

فالطمأنينة غاية السكينة وحالة الثبات فيها . كما قال الله عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة : 260] . وأهم أسباب هذه الحالة المنشودة هو صدق تنزيه الله وتوحيده في أسمائه وصفاته ومحامده وصدق العلم بما وصف الله به نفسه وبما

---

(1) تخريج الطحاوية (232) .

أخبر به في كتابه ، وصدق العمل بمقتضى هذا العلم وهذا التوحيد ، فإذا بلغ العبد هذا المقام أورثه الله في قلبه الطمأنينة ، فنسأل الله الثبات على الحق والطمأنينة به إنه هو المنعم وهو المتفضل وهو البرّ الرحيم .

8ـ المحبة والهمة والغربة :

وهذه الصفات هي من ثمار الإيمان بالله ومن أزهار توحيد الأسماء والصفات .

فالمحبة هي حياة قلوب المؤمنين ونور أفئدة الموحدين ولذة عيش الصابرين ، وقرة عيون الغرباء المرابطين لحماية دين الله وشريعة الحق وسنة نبيه الكريم عليه وعلى الأنبياء أفضل السلام والتسليم .

قال ابن القيم رحمه الله : (وهي سِمةُ هذه الطائفة المسافرين إلى ربهم ، الذين ركبوا جناح السفر إليه ، ثم لم يفارقوه إلى حين اللقاء ، وهم الذين قعدوا على الحقائق ، وقعد من سواهم على الرسوم . وهي عنوان طريقتهم ودليلها فإن العنوان يدل على الكتاب ، والمحبة تدل على صدق الطالب ، وأنه من أهل الطريق) .

والمحبة أحب تقسيمها إلى مراتب خمس :

المرتبة الأولى : محبة الله سبحانه ومحبة أسمائه وصفاته : وهذه المحبة كثيراً ما يلهج بها لسان المؤمن فيكثر من ذكر محامد ربه جل ثناؤه وذكر جمال أسمائه ونعمائه وصفاته . ولكن هذه الصفة مرتبطة أيضاً بمحبة نبيّه عليه الصلاة والسلام كما قال جل ذكرُه : ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [آل عمران : 31] . وقد روى النسائي والترمذي واللفظ له عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [أَلِظّوا بيا ذا الجلال والإكرام][(1)] . ومعنى ألظوا : أي الزموا هذه الدعوة وأكثروا بها ليتعلق القلب بهذه الصفة الإلهية فيحبها ويعيش في كنفها والتعلق بمثل هذه الأسماء والصفات خير كبير ، وقد اختص الله منها ما جعله خاصاً للمكروب يُفَرَّج من كربه بها . ففي الصحيحين عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب : [لا إله إلا اللهُ العظيمُ الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله ربّ السماوات ورب

---

(1) صحيح الجامع (1261) .

الأرض ورب العرش الكريم][1]. والحليم معْناه لا يعاجل المذنب بالعقوبة، فمحبة المؤمن هذه الصفات وتعلق قلبه بها يورثه خيراً عظيماً وفرجاً قريباً وأملاً كبيراً. لذلك كان التسمي بعبد الله وعبد الرحمن من أحب الأسماء إلى الله كما في صحيح مسلم عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: [أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبدُ الرحمن][2].

المرتبة الثانية: محبة أوامره سبحانه وشرعه ومحابه: فإذا صدق العبد في محبة أسماء الله وصفاته ومحامده أوصله ذلك إلى محبة أوامره وشرعه فهان عليه الجهاد في سبيله وقهر أعدائه والمعاندين لدعوته وعاش لنصرة نبيه، كما قال ابن القيم رحمه الله: (فتأخر الخلق كلهم. وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه. فطولبوا بعدالة البينة بتزكية ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ﴾ فتأخر أكثر المحبين وقام المجاهدون فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم فهلموا إلى بيعة ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَۚ﴾ فلما عرفوا عظمة المشترى وفضل الثَمن، وجلالة من جرى على يديه عقد التبايع عرفوا قدر السلعة وأن لها شأنا. فرأوا من أعظم الغَبْن أن يبيعوها لغيره بثمن بخس. فعقدوا معه بيعة الرضوان بالتراضي، من غير خيار. وقالوا: والله لا نقيلك ولا نستقيلك. فلما تم العقد وسلموا المبيع قيل لهم: مذ صارت نفوسكم وأموالكم لنا رددناها عليكم أوفر ما كانت وأضعافها معا ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾).

يروي الإمام أحمد في المسند والحاكم في المستدرك وأبو داود والنسائي في السنن بسند جيد عن مجاهد عن أبي عياش الزرقي قال: [كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر فقالوا: قد كانوا على حال لو أصبنا غرَّتَهم ثم قالوا: تأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم. قال: فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قال فحضرت فأمرهم رسول الله ﷺ

---

(1) وانظر مختصر مسلم (1876).

(2) مختصر مسلم (1398).

فأخذوا السلاح ، قال: فصففنا خلفه صفين ، قال: ثم ركع فركعنا جميعاً ثم رفع فرفعنا جميعاً ـ الحديث][1] . فمحبة الله ومحامده وأسمائه وصفاته أورثت أصحاب النبي ﷺ محبة أوامره وهديه وشرعه وقدره ، فكانت الصلاة رغم ظروف الحرب والخوف والعدو أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم ، فرضي الله عنهم وأرضاهم فقد كانوا حماة التوحيد وأهل العزائم والصبر وفئة الحق والجهاد ، حرسوا دين الله في الأرض وساسوا الدنيا به فحمى الله أثرهم وحفظهم في ذكرهم إلى يوم يلقونه ، جعلنا الله من وارثيهم في أعمالهم وجمعنا معهم في ظل محبته سبحانه ومحبة شرعه وهديه وتعظيم أوامره إنه برٌّ غفور .

المرتبة الثالثة : محبة أنبيائه صلوات الله عليهم ومحبة كتبه سبحانه إليهم . وهذه المرتبة من المحبة تنبثق من صدق الإيمان بهم كما أخبر الله عنهم بقوله : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [البقرة : 285] .

وثمرة هذه المحبة في الآخرة أن يجمع الله هؤلاء المؤمنين بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام في مستقر رحمته وفي الغرف التي أعدها لهم في جنته ، كما في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : [إن أهل الجنة ليتراءَون أهل الغُرَفِ من فوقهم كما تتراءَون الكوكب الدّريَ الغابرَ في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم قالوا: يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يَبْلُغُها غيرُهُم؟ قال: بلى والذي نفسي بيده ، رجالٌ آمنوا بالله وصدقوا المرسلين][2] .

وله شاهد عند الترمذي من حديث زِرِّ بن حُبيش الأسدي لما سأل صفوان بن عسال عن المسح على الخفين ثم سأله فقال: [هل سمعته يذْكر في الهوى شيئاً؟ قال: نعم ، كنّا مع رسول الله ﷺ في سَفَر ، فبينا نحن عنده إذ ناداه أعرابي بِصَوْتٍ له جَهْوري: يا محمد ، فأجابه رسول الله ﷺ نحواً من صوته: هاؤم. فقلت له: ويحك اغضُض من صوتك فإنك عند النبي ﷺ وقد نُهيت عن هذا؟ فقال: والله

(1) الصحيح المسند من أسباب النزول . مقبل الوادعي . آية النساء (102) .
(2) مختصر صحيح مسلم (1961) ورواه البخاري .

لا أغضض قال الأعرابي: المرءُ يُحِبُّ القومَ ولما يَلْحَقْ بهم؟ قال النبي ﷺ: المرء مع من أحبّ يومَ القيامة][1]. فمحبة الأنبياء تورث الحياة معهم في الفردوس يوم القيامة، ويلزم من محبتهم اتباعهم واتباع ما أرسلوا به والإيمان بكتبهم ومحبة ما جاء بها فهي كلام الله قبل أن تحرفه البشر، ومن لوازمها محبة القرآن ومحبة ما جاء به خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام من الله سبحانه الذي كتب القدر، كما قال جل ثناؤه ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: 3].

المرتبة الرابعة: محبة أوليائه والصالحين من عباده: وقد وصف الله بهذه المرتبة صحابة نبيه عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9]. ثم ورثها عنهم المؤمنون الماضون على منهاجهم والثابتون على طريقتهم التي مدحها الله ورضي عنها، فلما صدقوا في المحبة فيما بينهم بادلهم الله بها محبة من عنده ترضيهم وترفعهم على منابر من نور يوم القيامة كما في المسند عن عبادة عن النبي ﷺ قال: [قال اللهُ تعالى: حقت محبتي للمتحابين فِيّ، وحقت محبتي للمتواصلين فيّ، وحقت محبتي للمتناصحين فيّ، وحقت محبتي للمتزاورين فيّ، وحقت محبتي للمتباذلين فيّ. المتحابون فيّ على منابر من نور، يغبطهم بمكانهم النبيون والصديقون والشهداء] ورواه الحاكم وسنده صحيح[2].

وله شاهد عند ابن أبي الدنيا في (كتاب الإخوان) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالى: حُقَّتْ محبتي على المتحابين، أُظِلُّهمْ في ظل العرش يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظلي][3].

المرتبة الخامسة: محبة لقائه سبحانه ونعيمه وجنته والنظر إلى وجهه جل ثناؤه. وهذه مرتبة عالية رفيعة، فمحبة لقائه سبحانه دليل صدق الإيمان بأسمائه

---

(1) ويشهد له ما في الصحيحين والمسند من حديث أنس. انظر صحيح الجامع (6565).
(2) صحيح الجامع (4197).
(3) صحيح الجامع (4196).

وصفاته ، وقد وصف الله ما أعدّ لهم بقوله : ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ ﴾[1] .
والحسنى الجنة والزيادة هي النظر إلى وجهه الكريم كما جاء في حديث الإمام مسلم والإمام أحمد عن صهيب بأن النبي ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ ﴾ ثم قال : [إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى : تريدون شيئاً أزيدُكم؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة ، وتُنْجنا من النار؟ فيُكشفُ الحجابُ ، فما أعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم][2] .

ثم إذا أحب المؤمن لقاء ربه بادله الله هذه المحبة وأكرم نزله واستقباله وهيأ له ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خَطر على قلب بشر ، إكراماً لطاعته ومحبة أمره سبحانه .

ففي المسند للإمام أحمد بسند صحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [إذا أحبّ عبدي لقائي أحببت لقاءه وإذا كره لقائي كرِهتُ لقاءَه][3] .

وفيه أيضاً عنه قال عليه السلام : [قال الله تعالى : أعْدَدْت لعبادي الصالحين ما لا عين رأتْ ولا أذُنٌ سمعت ولا خَطَرَ على قلب بشر] وأخرجاه في الصحيحين أيضاً[4] .

وجميل في هذا المقام ما أفاد العلامة ابن القيم رحمه الله حيث قال : (تالله لقد سبق القوم السعاة ، وهم على ظهور الفرش نائمون . وقد تقدموا الركب بمراحل وهم في سيرهم واقفون .

مــن لــي بمثــل سيــرك المــدلــل تمشــي رويــداً؟ وتجــي فــي الأول

أجابوا منادي الشوق إذ نادى بهم : حيّ على الفلاح . وبذلوا نفوسهم في طلب الوصول إلى محبوبهم . تالله لقد حمدوا عند الوصول سُراهم . وشكروا مولاهم على ما أعطاهم . وإنما يحمد القوم السُّرَى عند الصباح .

فحيّــــلاً إن كنـــت ذا همـــة فقـــد حدا بك حادي الشوق فاطْوِ المراحلا

---

(1) يونس (26) .
(2) صحيح الجامع (535) .
(3) صحيح الحامع (4179) .
(4) صحيح الجامع (4183) .

وقــل لمنــادي حبهــم ورضــاهــم ... إذا مــا دعــا (لبيــك) ألفــاً كــوامــلا
ولا تنتظــر بــالسيــر رُفقــة قــاعــد ... ودَعْه ، فإن الشوق يكفيك حاملاً
وخُــذ منهــم زاداً إليهــم وسِــرْ علــى ... طريق الهدى والفقر تصبح واصلا
وخــذ قبسـا مــن نــورهــم ثــم سِــرْ بــه ... فنــورهــم يهــديــك ليــس المشــاعــلا
وخذ يمنة عنها على المنهج الذي ... عليــه ســرى وفــد المحبــة آهــلا
وقل: ساعدي يا نفس بالصبر ساعة ... فعنــد اللقــا ذا الكــدُّ يصبــح زائــلا
فمــا هــي إلا ســاعــة ثــم تنقضــي ... ويصبــح ذو الأحــزان فــرحــان جــاذلا

ثم قال: أول نقدة من أثمان المحبة: بذل الروح ، فما للمفلس الجبان البخيل وسومها؟

بــــدم المحــــب يبــــاع وصلهــــم ... فمــــن الــــذي يبتــــاع بــــالثمــــن؟

تالله ما هُزِلت فيستامها المفلسون. ولا كَسَدَت فيبيعها بالنسيئة المعسرون. لقد أقيمت للعرض في سوق من يزيد ، فلم يرض لها بثمن دون بذل النفوس. فتأخر البطّالون. وقام المحبون ينظرون: أيهم يصلح أن يكون ثمنا فدارت السلعة بينهم ووقعت في يد ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

لما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوىٰ. فلو يُعطى الناس بدعواهم لادعىٰ الخليّ حُرقة الشَجِيِّ فتنوع المدعون في الشهود. فقيل: لا تقبل هذه الدعوى إلا ببيّنة ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ قال بعض السلف: (ادعى قوم محبة الله ، فأنزل الله آية المحنة ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾).

وأما **الهمة**: فهي ثمرة المحبة وأعلى منتوجاتها ، وهي التعلق بالحق منهجاً وسلوكاً ، وهي فِعْلَةٌ من الهم وهو مبدأ الإرادة وهي أثر عال من آثار الحياة مع معاني أسماء الله وصفاته ، فيطير القلب إلى المعالي فتشغله وتحمله على الرغبة في ما عند الله الباقي ، وتزهده عن الرغبة في ما بين أيدي الناس الفاني ، فهي فرار إلى الله كما قال جل ثناؤه: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات: 50].

وأحب تقسيمها إلى ثلاثة **أقسام** ومراتب:

1 ـ **همة في طلب العلم**: وهي أثر التعلق بالله والعلم بمدلول ومعاني أسمائه وصفاته كما وصف نفسه سبحانه، علماً يدفع المؤمن للمزيد من البحث وطلب العلم الموصل إلى رضوانه سبحانه، والذي يحمل على العمل الصالح وابتغاء وجهه جلّ ثناؤه كما قال سبحانه: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: 19]. وكما قال جل وعز: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 9]. وكقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 56]. وفي الصحيحين عن معاوية رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: [من يُرد الله به خيراً يفقّهه في الدين][1].

وروى الطبراني في الأوسط والبزار بإسناد حسن عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: قال رسول لله ﷺ: [فضل العلم خير من فضل العبادة، وخير دينكم الورع][2]. وفي رواية: [فضل العلم أحب إلي من فضل العبادة وخير دينكم الورع].

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلّمها][3].

وروى أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثةُ الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما، إنما

---

(1) صحيح الجامع (6487).
(2) صحيح الجامع (4090).
(3) مختصر مسلم (2108).

ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر][1] .

2 ـ **همة نحو المعالي** : فالقلب المؤمن لا ينبض إلا بالحياة ومعالي الأمور ، ويبتعد عن اللغو وسفساف الأمور ، وهذه المرتبة من الهمة نعمة خاصة من الله على عبده المؤمن ، أن يُشْغِله برفيع الأعمال ويحببها له ويُجنِّبه من دنيء الأعمال ويبغضها له ، كما قال جل وعز : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحجرات : 7 - 8] .

وفي مستدرك الحاكم بإسناد صحيح عن سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : [إن الله يحب معاليَ الأخلاق ويكره سَفْسَافَها][2] .

وعند الطبراني عن الحسين بن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [إن الله تعالى يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره سفسافها] وسنده صحيح[3] .

وكذلك أخرج البيهقي بإسناد حسن عن كليب عن النبي ﷺ قال : [إن الله تعالى يحب من العامل إذا عَمِلَ أن يُحْسِنَ][4] .

3 ـ **همة نحو الجهاد في سبيل الله** : وهي مرتبة تحصل للمؤمن الذي ربط مستقبله بمستقبل الإسلام ، وعلم أن الدنيا دار فناء وحطام ، وأن الآخرة هي دار الحيوان ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : 64] . وقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٣٨ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التوبة : 38 - 39] .

وهذه الهمة لا تبقى على حالها دوما بل يعتريها ما يعتريها من وساوس الشيطان

(1) صحيح الجامع (6173) .

(2) السلسلة الصحيحة (1378) .

(3) صحيح الجامع (1886) والمرجع السابق .

(4) السلسلة الصحيحة (1113) .

وتخويفه وتعليقه بالدنيا وزخارفها ، ولكن يقابل هذه الوساوس داعي الحق في نفس المؤمن وهو ملك من ملائكة الله سبحانه يذكر بالخير ويؤمل فيه ولذلك وصف النبي ﷺ الهمة في حياة المسلم بأروع وصف وأدق تفصيل.

فقد روى ابن أبي عاصم في السنة وابن حبان في صحيحه وأحمد والطحاوي بإسنادين صحيحين عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: [لكل عمل شِرَّةٌ ، ولكل شِرةٍ فترة ، فمن كانت فترتُه إلى سنتي فقد اهتدى ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك](1). والشِرّة: بكسْر الشين المعجمة وتشديد الراء وبعدها تاء تأنيث هي النشاط والهمة ، وشرة الشباب أوله وحدته.

ورواه الترمذي والطحاوي وابن حبان أيضاً من طريق أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: [لكل عمل شرّة ، ولكل شِرَّة فترة ، فإن كان صاحبُها سادَّ أو قارب فارجوه ، وإن أشير إليه بالأصابع فلا تعدُّوه](2).

وكأنه لندرة الثبات على هذه الهمة همة الجهاد في سبيل الله وتهيئة القلب له والعدة لأجله أشار عليه الصلاة والسلام إلى ذلك بقوله: كما روى الإمام مسلم والإمام أحمد عن أبي هريرة قال: [من مات ولم يَغْزُ ولم يحدِّث نفسه بغزو مات على شعبة من نفاق](3). فعلى المؤمن أن يلتمس لحظات الصدق في قلبه فيحدث نفسه بالجهاد فيكتبها الله له برحمته ويزحزحه عن خانة النفاق وأهل النفاق ، والله تعالى نسأل أن يعيننا على الصدق عند اللقاء وعند مدافعة الشيطان وأوليائه إنه نعم المولى ونعم النصير.

وأحب في هذا المقام كلاماً ذكره ابن القيم رحمه الله حيث قال: (والهمام يأنف أن ينزل من سماء مطلبه العالي ، فهو في سفر دائم بالقلب إلى الله ، ليحصل له ويفوز به. فإنه طالب لربه تعالى طلباً تاماً بكل معنى واعتبار ، في عمله وعبادته ومناجاته ونومه ويقظته وحركته وسكونه وعزلته وخلطته وسائر أحواله. فقد انصبغ قلبه بالتوجه إلى الله تعالى أيّما صبغة. وهذا الأمر إنما يكون لأهل المحبة

---

(1) تخريج السنة لابن أبي عاصم (51).

(2) تخريج المشكاة (5325).

(3) مختصر مسلم (1073).

الصادقة. وأحدهم لا يقنع بمجرد رسوم الأعمال، ولا يقف عند عوض ولا درجة، فإن ذلك نزول من همته، ومطلبه أعلى من ذلك. فإن صاحب هذه الهمة قد قصر همته على المطلب الأعلى، الذي لا شيء أعلى منه. والأعواض والدرجات دونه وهو يعلم أنه إذا حصل له فهناك كل عوض ودرجة عالية).

وأما **الغربة**: فهي ضريبة الهمة وغرامة محبة الله ودينه وتعظيم أوامره، وهي من أعظم صفقات التجارة مع الله سبحانه، فهي موسم ربح وفوز وتحصيل، فأهلها هم كبار تجار الآخرة وأصحاب الصفقات العالية، ورأس مالهم في الدنيا هو تعظيم أوامر الرحمان، ومخالفة سبل الشيطان، والاستئناس بالحق والقيام، في زمن قلة السالكين سبيل الحق من الأنام، وفي زمن العكوف على الشهوات ومصاحبة الفاجر من الأقران.

قال شيخ الإسلام: (باب الغربة: قال الله تعالى ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾). وقال ابن القيم رحمه الله: (استشهاده بهذه الآية في هذا الباب: يدل على رسوخه في العلم والمعرفة وفهم القرآن. فإن الغرباء في العالم هم أهل هذه الصفة المذكورة في الآية وهم الذين أشار إليهم النبي ﷺ في قوله: [بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس]).

والغربة اليوم على المؤمن غربتان: **أولاً**: **غربة بين الناس**. **ثانياً**: **غربة بين المسلمين**.

والغربة بين الناس هي غربة الطريق: فإن الناس عكفوا في هذه الأزمان على أنواع الهوى والشهوات وعظموا النظر إلى شاشات الكبائر والفواحش والموبقات، وتنكروا للإسلام في كثير من معالمه وظهرت فيهم الفلسفة وحب الكلام وتأويل مفهوم الحسنات والسيئات.

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ

قال : [إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء][1] .

وفيه عن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : [إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، وهو يأرزُ بين المسجدين كما تأرزُ الحية في جُحْرِها][2] .

وفي مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : [طوبى للغرباء ، أناسٌ صالحون في أناس سوءٍ كثير مَنْ يعصيهم أكثرُ ممنْ يطيعُهُمْ][3] .

فابتغاء الإسلام طريقاً في الحياة يصطدم مع شهوات الناس ومحاريب الهوى التي يعكفون عليها ، يدفع المسلم ثمن ذلك التوجه غربة أولى ، وهي دون الغربة الثانية . وهي :

الغربة بين المسلمين: وهي غربة المنهج . فنحن في زمن كثرت فيه مذاهب المسلمين ورؤيتهم ، وتشعبت فيه مفاهيم الخلاص والنهوض من تخلفهم . وازداد فيه عدد المُدَّعين للإنقاذ وحمل الأمانة لاستخلافهم ، وما زالت الأمة تدفع ثمن التمزق وادعاء العلم من كثير من الذين تنصبوا لإصلاح أمتهم .

ومرّد هذا التخبط غالباً ضآلة العلم وقلة الفقه بميراث النبي صلوات الله وسلامه عليه ، وبمنهاج الأنبياء جميعاً ووحدته في التغيير ومواجهة أهل الباطل والكبر في الأرض .

فكم تمكنت الشبهات من قلوب وعقول كثير من المسلمين ، وكم أجهزت الفلسفة وعلم الخيال والكلام على كثير من أفئدة العاملين ، وكم غلب التعلقُ بعالم الشهادة الإيمانَ بعالم الغيب في صدور كثير من المنتسبين ، وكم ظهر الجدل والرياء والتأويل بلا علم والتفسير بلا رجوع وبلا فهم على ألسنة كثير من المُدَّعين ، فشاع الانحراف في الأمة واغترب أهل الحق ـ أهل السنة والجماعة ـ أتباع النبوة المخلصين .

---

(1) صحيح الجامع (1576) .
(2) مختصر مسلم (72) .
(3) السلسلة الصحيحة (1619) .

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند بإسناد صحيح عن أبي عامر (عبد الله بن يحيى) قال: [حججنا مع معاوية بن أبي سفيان فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر فقال: إن رسول الله ﷺ قال: إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة - يعني الأهواء - كلها في النار إلا واحدة - وهي الجماعة - وإنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله، والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم ﷺ، لغيركم من الناس أحرى أن لا يقوم به][1]. قال ابن القيم: (وكيف لا تكون فرقة واحدة قليلة جداً غريبة بين اثنين وسبعين فرقة ذات أتباع ورئاسات، ومناصب وولايات، ولا يقوم لها سوق إلا بمخالفة ما جاء به الرسول؟ فإن نفس ما جاء به يضاد أهواءهم ولذاتهم وما هم عليه من الشبهات والبدع التي هي منتهى فضيلتهم وعملهم، والشهوات التي هي غاية مقاصدهم وإرادتهم؟).

ومن صفات أهل غربة المنهج:

1 - **إقامة حجة الحق على الناس جميعاً**: فهم بذلك أتباع للأنبياء والرسل، كما قال جل ذكره: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾.

وقد أخرج ابن حبان في صحيحه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره، فإنه ربّ حامل فقه ليس بفقيه، وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث خصال لا يغل عليهن قلب مسلم أبداً: إخلاص العمل لله ومناصحة ولاة الأمر ولزوم الجماعة فإن دعوتهم تحيط من ورائهم وقال: من كان همه الآخرة جمع الله شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت نيته الدنيا فرق الله عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له][2].

---

(1) قد مضى بتمامه.

(2) تخريج الترغيب (63/1). وصحيح الجامع (6642).

فنيتهم الآخرة فلا يتعصبون لشيخ أو جماعة أو طائفة ، بل لله ولرسوله ومنهج أنبيائه صلوات الله عليهم وسلامه ، قد جردّوا التوحيد لله والمتابعة لرسول الله ومن سار على هداه ، فلغربتهم بين هذا الخلق: يعدونهم أهل شذوذ وبدعة ومفارقة للسواد الأعظم.

2 ـ **الإسناد في النقل والضبط في التلقي:** فهم أهل العلم من بحوره ومصادره ، وأهل النقل من ينابيعه وصفائه ، وأهل الوراثة عن الثقات الأبطال ، حفظة الدين من الرجال ، الذين هم أهل المكانة الرفيعة والصدارة المرموقة في نفوس الكبار.

فقد قال الإمام مسلم في مقدمة صحيحه: (واعلم وفقك الله تعالى أنّ الواجب على كل أحد عَرَفَ التمييز بين صحيح الروايات وسقيمها وثقات الناقلين لها من المتهمين أن لا يَرْوِيَ منها إلا ما عَرَف صحة مخارجه والسّتارة في ناقليه وأن يتقي منها ما كان منها عن أهل التُّهمِ والمعاندين من أهل البدع. والدليل على أن الذي قلنا من هذا هو اللازم دونَ ما خالفَهُ قول الله جَلَّ ذكرُهُ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ وقال جل ثناؤه: ﴿مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ وقال عز وجل: ﴿وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ فدلّ بما ذكرنا من هذه الآي أن خبَرَ الفاسق ساقط غيرُ مقبول وأن شهادة غَير العدل مردودة).

ثم قال: (ودلت السنة على نفي رواية المُنْكَرِ من الأخبار كنحو دلالة القرآن على نفي خبر الفاسق وهو الأثـر المشهور عن رسول الله ﷺ: [من حَـدَّث عني بحديث يُرى أنه كذب فهو أحدُ الكاذبين]).

وروى عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: [سيكون في آخر أمتي أناس يحدثونكم ما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم فإياكم وإياهم]. وفي رواية: [يكون في آخر الزمان دجالون كذابون يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم فإياكم وإياهم لا يُضلونكم ولا يفتنونكم][1].

وذكر عن ابن سيرين المتوفى سنة مئة وعشرة للهجرة قوله: (لم يكونوا يسألون

---

(1) تخريج الطحاوية فقرة (31) وصحيح الجامع (8007).

عن الإسناد فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة، فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم).

وروى عن مجاهد قال: (جاء بشير العَدَوي إلى ابن عباس فجعل يُحدّث ويقول قال رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ، فجعل ابنُ عباس لا يأذَنُ لحديثِهِ ولا ينظر إليه، فقال: يا ابن عباس ما لي لا أراك تسمع لحديثي أحدثك عن رسول الله ﷺ ولا تسمع؟! فقال ابن عباس: إنا كنا مرّة إذا سمعنا رجلاً يقول قال رسول الله ﷺ ابتَدَرَتْهُ أبصارُنا وأصغينا إليه بآذاننا فلما ركب الناس الصعبَ والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعْرف).

وروىٰ عن ابن أبي الزِّناد عن أبيه قال: (أدركتُ بالمدينة مائةً كلُهم مأمونٌ ما يؤخَذُ عنهم الحديث يُقال ليس من أهله). وذكر أثراً جميلاً عن عبد الله بن المبارك قال: (الإسناد من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء).

وعن عبد الله يقول: (بيننا وبين القوم القوائِمُ يعني الإسناد).

وروى عن أبي النّضر هاشم بنُ القاسم قال حدثنا أبو عَقيل صاحبُ بُهَيَّة قال: (كنت جالساً عند القاسم بن عبيد الله ويحيى بن سعيد فقال يحيى للقاسم: يا أبا محمّد إنه قبيحٌ على مثلك عظيم أنْ تُسألَ عن شيء من أمر هذا الدين فلا يوجد عندك منه علم ولا فَرج أو علم ولا مخْرجٌ. فقال له القاسم: وعمَّ ذاك قال: لأنك ابنُ إمامَيْ هدى ابنُ أبي بكر وعمرَ قال: يقول له القاسم: أقبح من ذاك عِنْدَ مَنْ عَقَلَ عن الله أن أقولَ بغير علم أو آخذَ عن غير ثقة. قال: فسكت فما أجابه).

3 ـ هم أهل السنة يحزن الناس لفراقهم.

فقد ذكر اللالكائي عن سفيان الثوري رحمه الله (المتوفى 161هـ) قوله: (استوصوا بأهل السنة خيراً فإنهم غرباء). وكان يقول: (إذا بلغك عن رجل بالمشرق صاحب سنة وآخر بالمغرب، فابعث إليهما بالسلام، وادع لهما، ما أقل أهل السنة والجماعة).

وفي الحلية لأبي نعيم عن أبي أيوب السختياني (المتوفى 131هـ) قال: (إني أخبر بموت الرجل من أهل السنة وكأني أفقد بعض أعضائي). وكان يقول: (إن

الذين يتمنون موت أهل السنة يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون).

ولما توفي الإمام عبد العزيز بن محمد الداروردي (187 هـ) جزع سفيان بن عيينة (المتوفى 198 هـ) وأظهر الجزع فقيل له: (ما علمنا أنك تبلغ مثل هذا: قال: إنه من أهل السنة).

وذكر ابن القيم في مدارج السالكين قال: (سئل بعض الأئمة عن السنة فقال: ما لا اسم له سوى السنة).

ـ وذكر السيوطي في الدر المنثور عن مالك بن مغول (المتوفىٰ 159هـ) قال: (إذا تسمىٰ الرجل بغير الإسلام والسنة فألْحقه بأي دين شئت).

ـ وفي (الشرح والإبانة) عن ميمون بن مهران (المتوفى 117هـ) قال: (إياكم وكل اسم يسمىٰ بغير الإسلام).

ـ وفيه أيضاً عن الفضيل بن عياض قوله: (أدركت خيار الناس كلهم أصحاب سُنة ينهون عن أصحاب البدع).

وذكر الدارمي عن الحسن البصري رحمه الله قوله: (فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضىٰ وهم أقل الناس فيما بقي، الذين لم يذهبوا مع أهل الأتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنتهم حتىٰ لقواربهم فكذلك إن شاء الله فكونوا).

ـ وقيل لأبي بكر بن عياش (المتوفى 194هـ): (من السني؟ قال: الذي إذا ذكرت الأهواء لم يتعصب إلى شيء منها) ذكره اللالكائي 65/1.

وذكر أيضاً عن الفضيل بن عياض (المتوفى 187هـ) قوله: (إن لله عباداً يحيي بهم البلاد وهم أصحاب السنة).

وذكر صاحب الشرح والإبانة عن عمرو بن قيس الملائي (المتوفى 143هـ) قوله: (إذا رأيت الشاب أول ما ينشأ مع أهل السنة والجماعة فارجه، وإذا رأيته مع أهل البدع فيئس منه فإن الشاب على أول نشوئه).

وقال: (إن الشاب ينشأ فإن آثر أن يجالس أهل العلم كاد يَسلم ، وإن مال إلى غيرهم كاد يعطب).

وذكر أثراً آخر عن ابن شوذب (المتوفى 120هـ) قوله: (من نعمة الله على الشاب والأعجمي إذا تنسكا أن يوفقا إلى صاحب سنّة).

4 ـ هم أهل الحديث وأهل العلم وهم الجماعة: فجعل الله سبحانه من حرصهم على فهم القرآن بالقرآن وبالحديث وسيرة النبي ﷺ وفهم أصحابه وببركة هذا الاتباع جعل منهم الجماعة ، وهم فئة الحق التي لا تجتمع على ضلالة. فقد جاء في تفسير قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ قال ابن عباس: (فأما الذين ابيضت وجوههم فأهل السنة والجماعة وأما الذين اسودت وجوههم فأهل البدع والأهواء).

وقد نقل القاضي عياض عن الإمام مالك قال: (وسأل رجل مالكاً مَنْ أهل السنة يا أبا عبد الله؟ قال: الذين ليس لهم لقب يعرفون به لا جهمي ولا رافضي ولا قدري).

وجاء في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي: (قال ابن مسعود رضي الله عنه: إنما الجماعة ما وافق طاعة الله وإن كنت وحدك).

وجاء في شرح السنة للبغوي عن عبد الله بن المبارك لما سئل عن الجماعة قال: (أبو بكر وعمر. فقيل له: قد مات أبو بكر وعمر ! قال: ففلان وفلان. قيل: قد مات فلان وفلان. قال ابن المبارك: أبو حمزة السكري[1] جماعة).

وقد فسّر الإمام البخاري الجماعة بأهل العلم ، ونقل ابن حجر في الفتح عن الطبري في تعريف الجماعة قال: (وقال قوم المراد بهم أهل العلم ، لأن الله جعلهم حجة على الخلق ، والناس تبع لهم في أمر الدين) ورواه الإمام أحمد في المسند وإسناده حسن ورجاله ثقات كما أفاد العلامة الألباني رحمه الله.

وفي فتاوى شيخ الإسلام قال رحمه الله: (وسمّوا أهل الجماعة لأن الجماعة هي الاجتماع وضدها الفرقة ، وإن كان لفظ الجماعة قد صار اسما للقوم المجتمعين) (الفتاوى 157/3).

---

(1) يشير إلى محمد بن ميمون المروزي (المتوفى 168 هـ) وهوفي ترجمة أهل العلم فاضل صالح على منهج السلف الصالح رضوان الله عليهم.

5 ـ هم الطائفة المنصورة (خاصةُ الفرقة الناجية) : فالطائفة المنصورة هم طليعة الفرقة الناجية الذين حرسوا دين الله في الأرض وأقاموا أمره وساسوا الدنيا به ، وجاهدوا في سبيل الله لإعلاء كلمته والحكم بِمنهجه . وأما الفرقة الناجية فهم جمهور المسلمين الذين مضوا على منهاج الإسلام ومنهاج أصحاب اليمين بينما تألقت الطائفة المنصورة بمنهاج السابقين الأولين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

ولما سئل الإمام أحمد رحمه الله عن الطائفة المنصورة قال : (إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري مَنْ هُمْ) . وأشار إلى ذلك القاضي عياض رحمه الله حيث قال : (إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة ومن يعتقد مذهب أهل الحديث) .

وفي الصحيحين عن المغيرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : [لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين ، حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون][1] .

وفي صحيح مسلم عن ثوبان عن النبي ﷺ قال : [لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك][2] .

وفي الصحيحين عن معاوية عن النبي ﷺ قال : [لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله ، وهم ظاهرون على الناس][3] .

وفي صحيح الإمام مسلم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : [لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على الحق ، لا يضرهم من خالفهم ، حتى تأتيهم الساعة ، وهم على ذلك][4] .

وفيه عنه أيضاً بلفظ آخر : [لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله ، قاهرين لعدوهم ، لا يضرهم من خالفهم ، حتىٰ تأتيهم الساعة وهم على ذلك][5] .

---

(1) السلسلة الصحيحة (1955) .
(2) مختصر مسلم (1095) .
(3) صحيح الجامع (7167) .
(4) صحيح الجامع (7172) .
(5) مختصر مسلم (1096) .

وفي سنن ابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [لا تزال طائفة من أمتي قوامةً على أمر الله ، لا يضرها من خالفها][1] .

وفيه أيضاً عن قرة بن إياس عن النبي ﷺ قال: [لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم خذلان من خذلهم حتى تقومَ الساعة][2] .

وفي مستدرك الحاكم عن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقومَ الساعة][3] .

6 ـ بقيتهم سيلتقون مع عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام حيث ينزل بينهم فيحكم فيهم بالقرآن وبسنة محمد عليه الصلاة والسلام. فقد روى الإمام مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، فينزل عيسى بن مريم فيقول أميرهم: تعال صل لنا ، فيقول: لا ، إن بعضكم على بعض أميرٌ ، تكرمة الله لهذه الأمة][4] .

7 ـ هم الطائفة التي تجهز على الصليبيّة وعاصمتها يومئذ القسطنطينية ومعهم المهدي آخر خلفاء هذه الأمة ونسبه إلى بيت النبوة ، وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى في الحديث عن معالم الساعة وعودة الخلافة .

8 ـ هم الطائفة التي تقاتل جيش المسيح الدجال مع عيسىٰ بن مريم والمهدي عليهما الصلاة والسلام. فقد أخرج الإمام أحمد في المسند وأبو داود في السنن والحاكم في المستدرك بسند صحيح عن عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ، ظاهرين على من ناوأهم ، حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال][5] .

9 ـ هم الطائفة المؤمنة المقاتلة عقر دارهم الشام: فقد أخرج الإمام أحمد في المسند عن جُبَيْر بن نُفَير أن سلمة بن نفيل أخبرهم أنه أتىٰ النبي ﷺ فقال:

---

(1) السلسلة الصحيحة (1962) .
(2) المرجع السابق وصحيح الجامع (7169) .
(3) صحيح الجامع (7164) .
(4) صحيح الجامع (7170) والسلسلة الصحيحة (1960) .
(5) تخريج المشكاة (3819) .

[إني سئمت الخيل وألقيت السلاح ووضعت الحرب أوزارها ، قلت لا قتال ، فقال له النبي ﷺ: الآن جاء القتال: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس يزيغ الله قلوب أقوام يقاتلونهم ويرزقهم الله منهم حتى يأتي أمر الله عز وجل وهم على ذلك ألا إن عقر دار المؤمنين الشام والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة][1] .

10 ـ **هم القوم يشربون من حوض النبي ﷺ يوم المحشر**: فيوم يشتد الهول والعطش وتدنو الشمس من الخلائق ويحال بين المحدثين المبتدعين الذين أساؤوا وشوهوا وزادوا في دين الله أو حكموا بآرائهم وأهوائهم على شرع الله ، فيسقي الله من حوض نبيه الكريم عليه الصلاة والسلام حماة دينه وحراس شريعته وأمناء حكمه ووحيه. ففي الصحيحين من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [إني فرطكم على الحوض مَنْ مرَّ عليّ شرب ومن شرب لم يظمأ أبداً ، ليردَن علي أقوام أعرفهم ويعرفونني ثم يحال بيني وبينهم فأقول: إنهم مني فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول: سحقاً سحقاً لمن غيّر بعدي][2] .

11 ـ **هم القوم ينتظرون إشارة الله لهم في المحشر**: فقد جعل ساقه سبحانه كلمة السر بينه وبينهم لنجاتهم إذا كشفها خروا له سجداً ، بينما ارتدت ظهور المنافقين الساجدين في الدنيا رياء وسمعة ونفاقا فعادت طبقاً واحداً أحوج ما يكونون إلى السجود وما يتبعه من النجاة من أهوال جهنم ، فأخزاهم الله وأذاقهم الندم.

فقد أخرج الدارمي في سننه بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إذا جمع الله العباد بصعيد واحد نادى مناد: يلحق كل قوم بما كانوا يعبدون ويبقىٰ الناس على حالهم فيأتيهم فيقول: ما بال الناس ذهبوا وأنتم ههنا؟ فيقولون: ننتظر إلهنا فيقول: هل تعرفونه؟ فيقولون إذا تعرف إلينا عرفناه فيكشف لهم عن ساقه فيقعون سجداً وذلك قول الله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن

---

(1) قد مضى بتمامه في بحث الجماعة.
(2) صحيح الجامع (2464).

سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ويبقىٰ كل منافق فلا يستطيع أن يسجد ثم يقودهم إلى الجنة][1].

وخلاصة القول: إن أهل غربة المنهج هم الغرباء حقاً، فقد جمعوا غربتين إلى غربة الدار التي يشترك فيها الناس جميعاً، كما روى الإمام البخاري في صحيحه وأحمد في مسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: [كن في الدنيا كأنك غريبٌ، أو عابرُ سبيل. زاد أحمد: وعد نفسك من أهل القبور][2]. فجمع أهل غربة المنهج إلى غربة الدار وغربة السبيل والطريق غربة، هي الغربة حقاً، وهي الجهاد لإعلاء منهج الله وإبطال مناهج الكفر والشياطين وإدحَاض حجج المبطلين وتأويل الجاهلين وتحريف الغالين، من أجل حراسة الدين. وأحب في هذا المقام ما ذكره ابن القيم في المدارج، قال: (فهؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون. ولقلتهم في الناس جداً: سموا (غرباء) فإن أكثر الناس على غير هذه الصفات، فأهل الإسلام في الناس غرباء، والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء، وأهل العلم في المؤمنين غرباء، وأهل السنة ـ الذين يميزونها من الأهواء والبدع ـ فهم غرباء. والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين: هم أشد هؤلاء غربة. ولكن هؤلاء هم أهل الله حقا، فلا غربة عليهم، وإنما غربتهم بين الأكثرين الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

قال: وهذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان ووقت دون وقت، وبين قوم دون قوم. ولكن أهل هذه الغربة هم أهل الله حقا. فإنهم لم يأووا إلى غير الله. ولم ينتسبوا إلى غير رسوله ﷺ، ولم يدعوا إلى غير ما جاء به. وهم الذين فارقوا الناس أحوج ما كانوا إليهم. فإذا انطلق الناس يوم القيامة مع آلهتهم بقوا في مكانهم فيقال لهم: ألا تنطلقون حيث انطلق الناس؟ فيقولون: فارقنا الناس ونحن أحوج إليهم منا اليوم. وإنا ننتظر ربنا الذي كنا نعبده. فهذه الغربة لا وحشة على صاحبها. بل هو آنَسُ ما يكون إذا استوحش الناس. وأشد ما تكون وحشته إذا استأنسوا. فوليه الله

(1) قد مضى بتمامه في بحث الصفات.
(2) السلسلة الصحيحة (1157).

ورسوله والذين آمنوا ، وإن عاداه أكثر الناس وجفوه. ثم قال: فإذا أراد المؤمن الذي قد رزقه الله بصيرة في دينه ، وفقهاً في سنة رسوله وفهماً في كتابه ، وأراه ما الناس فيه: من الأهواء والبدع والضلالات ، وتنكبهم عن الصراط المستقيم ، الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه. فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط: فليوطن نفسه على قدح الجهال وأهل البدع فيه ، وطعنهم عليه ، وإزرائهم به ، وتنفير الناس عنه ، وتحذيرهم منه. كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه ﷺ.

ثم قال: فهو غريب في دينه لفساد أديانهم ، غريب في تمسكه بالسنة ، لتمسكهم بالبدع ، غريب في اعتقاده لفساد عقائدهم. غريب في صلاته لسوء صلاتهم ، غريب في طريقه لضلال وفساد طرقهم ، غريب في نسبته لمخالفة نِسَبهم ، غريب في معاشرته لهم. لأنه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم.

وبالجملة: فهو غريب في أمور دنياه وآخرته. لا يجد من العامة مساعداً ولا معيناً. فهو عالم بين جهال ، صاحب سنة بين أهل بدع. داع إلى الله ورسوله بين دعاة إلى الأهواء والبدع. آمر بالمعروف ، ناه عن المنكر بين قوم المعروف لديهم منكر والمنكر معروف).

وأحب أن أختم حديث الغربة بحديث النبي ﷺ الذي رواه أبو نُعيم في الحلية وغيرُه بسند صحيح عن أنس رضي الله عنه حيث قال لأصحابه ذات يوم: [أنتم اليوم على بينة من ربكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتجاهدون في سبيل الله ، ثم تظهر فيكم السكرتان: سكرة الجهل وسكرة حبّ العيش وستحولون عن ذلك ، فلا تأمرون بمعروف ولا تنهون عن منكر ولا تجاهدون في سبيل الله ، القائمون يومئذ بالكتاب والسنة لهم أجر خمسين صديقاً. قالوا: يا رسول الله منا أو منهم؟ قال: لا بل منكم][1].

وله شاهد عند ابن نصر في السنة من حديث عتبة بن غزوان ، وكان من الصحابة ، أن رسول الله ﷺ قال: [إن من ورائكم أيام الصبر ، للمتمسك فيهن

(1) قد مضى بتمامه.

يومئذ بما أنتم عليه أجر خمسين منكم، قالوا: يا نبي الله أو منهم؟ قال: بل منكم][1].

وله شاهد آخر عند أبي داود في سننه، وعند الترمذي في جامعه من حديث أبي أمية الشعباني قال: سألت أبا ثعلبة الخشني فقلت: يا أبا ثعلبة، كيف تقول في هذه الآية ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾؟ قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ [وفي رواية: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ فقال: بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيتَ شحّاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مُؤْثَرَةً، وإعجابَ كلِّ ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوامَّ. فإن من ورائكم أيام الصبر. الصبر فيهن مثل قبض على الجمر. للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله. قلت يا رسول الله أجر خمسين منهم؟ قال أجر خمسين رجلاً منكم]. ولفظ الطبراني عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: [إن من ورائكم زمان صبرٍ، للمتمسك فيه أجر خمسين شهيداً منكم][2]. فهذا الأجر العظيم لغربتهم بين الناس، وثمن التمسك بالسنة في ظلمات الأهواء والآراء والشهوات، كما قال عليه الصلاة والسلام فيما روى الترمذي عن أنس مرفوعاً: [يأتي على الناس زمان، الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر][3]. ورواه الضياء المقدسي عن ابن مسعود ولفظه: [المتمسك بسنتي عند اختلاف أمتي كالقابض على الجمر][4]. وفي رواية: [يأتي على الناس زمان المتمسك بسنتي عند اختلاف أمتي كالقابض على الجمر].

ورحم الله القائل:

وصم يومك الأدنىٰ لعلك في غد ... تفوز بعيد الفطر والناس صوم
وأقدم ولا تقنع بعيش مُنَغَّصٍ ... فما فاز باللذات من ليس يقدم

---

(1) قد مضى تخريجه.
(2) السلسلة الصحيحة(494) وصحيح الجامع (2230).
(3) السلسلة الصحيحة(955) وصحيح الجامع (7879).
(4) حسن. السلسلة الصحيحة (957).

وإن ضاقت الدنيا عليك بأسرها ولم يك فيها منزل لك يعلم
فحيَّ على جنات عدن فإنها منازلنا الأولى وفيها المخيّم
ولكننا سبي العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم
وقد زعموا أن الغريب إذا نأى وشطت به أوطانه فهو مغرم
وأي اغتراب فوق غربتنا التي لها أضحت الأعداء فينا تحكم
فمن أجل ذا لا ينعم العبد ساعة من العمر إلا بعد ما يتألم

* * *

-12-

ـ أدلة الأسماء والصفات من الوحيين: الكتاب والسنة ـ

1 ـ الله: لفظ الجلالة، اسم جامد لا اشتقاق له ولا يسمى به غيره.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1]. ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 70].

وفي صحيح أبي داود عن عبد الرحمن بن عوف قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [قال الله: أنا الله، وأنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بَتَتُّه](1).

2 ـ الرحمن: اسم مشتق من الرحمة على وجه المبالغة.

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الملك: 29].

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: 59].

أخرج الإمام أحمد في المسند (498/2) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [قال الله عز وجل: أنا الرحمن وهي الرحم شققت لها من اسمي من يصلها أصله ومن يقطعها أقطعه فأبته](2).

3 ـ الرحيم: اسم مشتق من الرحمة على وجه المبالغة. ورحمان أشد مبالغة من رحيم.

---

(1) وأخرجه أحمد (194/1)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (520/2).

(2) قال الألباني: (وهذا إسناد جيد رجاله ثقات رجال الشيخين) السلسلة 2 ص 38.

قيل: الرحمن لعمومها في الدارين. والرحيم خاصة بالمؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 43].

وقال سبحانه: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: 2].

وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 118].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال الله: حمدني عبدي، فإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الله: أثنى علي عبدي...] الحديث(1).

4 ـ **الملك**: المالك لكل شيء المتصرف فيه.

قال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [طه: 114].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ﴾ [الحشر: 23].

وقال: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ...﴾ [الجمعة: 1].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض](2).

وفي صحيح مسلم عن علي ـ في دعاء استفتاح النبي ﷺ: [اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت...](3).

5 ـ **القُدُّوس**: الطاهر من العيوب المتنزِّه عنها.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ [الحشر: 23].

وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ﴾ [الجمعة: 1].

---

(1) مختصر مسلم 281/ ص 81.

(2) مسلم 126/8.

(3) ورواه الترمذي، انظر صحيح الترمذي 148/3 تحقيق الألباني.

وفي صحيح مسلم عن عائشة : [أن النبي ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده : سبُّوح قدُّوس ربُّ الملائكة والروح][1] .

6ـ **السَّلام** : ذو السَّلام ، أي : الذي سَلِمَ من كل عيب وبرىء من كل آفة .

قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ . . ﴾ [الحشر : 23] .

أخرج البخاري في الأدب المفرد عن أنس عن النبي ﷺ قال : [إنَّ السلام اسم من أسماء الله تعالى وضع في الأرض فأفشوا السلام بينكم][2] .

ورواه البيهقي من حديث ابن مسعود بلفظ : [السلام اسم من أسماء الله وضعه الله في الأرض فأفشوه بينكم . . .][2] .

7ـ **المؤمن** : الذي يصدق عبادَه وعدَه ، فهو من الإيمان : التصديق ، أو يؤمنهم في القيامة من عذابه ، فهو من الأمان ، ضِدُّ الخوف[3] .

قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ . . ﴾ [الحشر : 23] .

قال ابن عباس : (أي : أمن خلقه من أن يظلمهم)[4] .

وقال ابن زيد : (صدق عباده المؤمنين في إيمانهم به)[4] .

8ـ **المهيمن** : الشهيد ، وقيل : الأمين ، وقيل : الرقيب والحافظ .

قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ . . ﴾ [الحشر : 23] .

قال ابن عباس : (أي : الشاهد على خلقه بأعمالهم بمعنى هو رقيب عليهم ، كقوله : ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ وقوله : ﴿ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ وقوله :

---

(1) ورواه أبو داود . انظر صحيح أبي داود (165/1) .
(2) وانظر السلسلة الصحيحة (1894) ، وصحيح الجامع (3591/2) .
(3) جامع الأصول (176/4) .
(4) تفسير ابن كثير . سورة الحشر ، آية 23 .

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ الآية)[1].

9ـ **العزيز**: الغالب القاهر، والعِزَّة: الغَلَبَة.

قال تعالى: ﴿ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ﴾ [الحشر: 23].
وقال سبحانه: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: 1].

قال الحافظ ابن كثير: (العزيز: أي: الذي قد عز كل شيء فقهره وغلب الأشياء فلا ينال جنابه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه)[1].

وفي الصحيحين عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: [يا أيها الناس! إنكم تحشرون إلى الله حُفاة عُراة غُرْلاً ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ ألا وإن أول الخلائق يُكسا يوم القيامة إبراهيم، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول يا رب أصحابي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم][2].

10 ـ **الجبار**: هو الذي أجْبَرَ الخلق وقهرهم على ما أراد من أمر أو نهي. وقيل: هو العالي فوق خلقه. قال قتاده: (الجبار الذي جبر خلقه على ما يشاء). وقال ابن جرير: (الجبار: المصلح أمور خلقه المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم).

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ﴾ [الحشر: 23].

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: [تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة، يتكفَّؤها الجبار بيده كما يتكفَّأ أحدُكم خُبْزَته في السفر نزلاً لأهل الجنة].

وفي لفظ لمسلم: [يأخذ الجبار سماواته وأرضه بيده، ثم يقول: أنا الجبار،

---

(1) تفسير ابن كثير. سورة الحشر، آية (23).

(2) غُرْلاً: أي: غير مختونين. مختصر مسلم 2151 ص 571.

أنا الملك ، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟][1] .

11 ـ **المتكبر**: المتعالي عن صفات الخلق ، وقيل: الذي يتكبَّرُ على عُتاة خلقه إذا نازعوه العظمة فيقصِمَهم ، وقيل: إن المتكبِّر من الكبرياء الذي هو عظمة الله تعالى ، لا من الكِبْر الذي هو مذموم[2] .

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: 23].

قال ابن كثير: (الجبار المتكبر: أي: الذي لا تليق الجبرية إلا له ولا التكبر إلا لعظمته). ثم ذكر قول قتادة: (المتكبر يعني عن كل سوء)[3] .

وفي المسند وصحيح أبي داود وابن ماجه عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالى: الكبرياء رِدائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار][4] .

وفي صحيح مسلم عنه بلفظ: [قال الله تعالى: الكبرياء رِدائي ، والعِز إزاري ، فمن نازعني في شيء منهما عذَّبته][5] .

12 ـ **الخالق**: الخلق التقدير. والخالق هو الذي يقدر وينفذ كما شاء ولا يوصف بذلك إلا الله عز وجل ، فهو الذي إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون على الصفة التي يريد.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾ [الحشر: 24].

وعند الطيالسي والبيهقي بسند صحيح عن أسامة ، عن النبي ﷺ قال: [قاتل الله قوماً يصورون ما لا يخلقون] وصححه الألباني[6] .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالى: ومن أظلم

---

(1) أخرجه مسلم (2788) وله شاهد عن ابن ماجه (198) وأحمد (88/2).
(2) جامع الأصول (177/4).
(3) تفسير القرآن العظيم. سورة الحشر آية 23.
(4) السلسلة الصحيحة (540/2).
(5) صحيح مسلم (35/8 - 36).
(6) السلسلة الصحيحة (996/2).

ممن ذهب يخلق خلقاً كخلقي ، فليخلُقوا حبة ، أو ليخلُقوا ذرَّة ، أو ليخلقُوا شعيرة][1] .

وفي المسند عن أنس ، قال رسول الله ﷺ: [إن الله تعالى هو الخالق القابض الباسط الرازق . . .][2] .

13 ـ **الباريء**: هو الذي خلق الخلق لا عن مثال .

قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ﴾ [الحشر : 24] .

وفي المسند بإسناد صحيح من حديث عبد الرحمن بن خنبش التميمي عن النبي ﷺ قال : [أتاني جبريل ، فقال : يا محمد! قل : قلت : وماذا أقول؟ قال : قل أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق ، وذرأ ، وبرأ . .][3] .

14 ـ **المصور**: هو الذي أنْشأ خَلْقهُ على صُور مختلفة. ومعنى التصوير: التخطيط والتشكيل .

قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الحشر : 24] .

وقال سبحانه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [آل عمران : 6] .

وفي صحيح مسلم من حديث حذيفة بن أسيد عن النبي ﷺ قال : [إذا مرَّ بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة ، بعث الله إليها ملكاً فصوَّرها ، وخلق سمعها وبصرها . . .][4] .

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : [كل مُصَوِّر في النار ، يُجعل له بكل صورة صوَّرها نَفْسٌ فتعذِّبه في جهنم] ورواه أحمد[5] .

وفي لفظ : [إن الله يعذِّب المصورين بما صوَّروا][6] .

---

(1) ورواه أحمد . صحيح الجامع (4209) .
(2) صحيح الجامع (1842) .
(3) برأ : أي أوجد من العدم . وذرأ : أي خلق . صحيح الجامع (74) .
(4) صحيح الجامع (809) .
(5) صحيح الجامع (4430) .
(6) المرجع السابق (1895) .

وفي صحيح النسائي عن علي ، أن رسول الله ﷺ كان إذا سجد يقول : [اللهم لك سجدت ، ولك أسلمت ، وبك آمنت . سجد وجهي للذي خلقه وصوَّره ، فأحسن صورته ، وشقَّ سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين][1] .

15 ـ **الغفَّار** : هو الذي يغفر ذنوب عباده مرَّة بعد مرَّة . وأصل الغَفْر : السَّتْرُ والتغطية ، فالله غافِرٌ لذنوب عباده ساتر لها بترك العقوبة عليها[2] .

قال تعالى : ﴿ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾ [الزمر : 5] .

وقال سبحانه : ﴿ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴾ [المؤمن : 42] .

وقال : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه : 82] .

وفي معجم الطبراني بسند حسن عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : [قال الله تعالى : مَنْ عَلِمَ أني ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرتُ له ولا أبالي ، ما لم يشرك بي شيئاً][3] .

16 ـ **القهار** : الغالب لكل شيء ، الذي يغلب في مراده كل مريد[4] .

قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد : 16] .

وقال تعالى : ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [يوسف : 39] .

وقال سبحانه : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم : 48] .

وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت : سألت رسول الله ﷺ عن قوله ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ ﴾ فأين يكون الناس يومئذ؟ قال : على الصراط][5] .

قال الحافظ ابن كثير : (﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ﴾ : أي : خرجت الخلائق جمعيها من

---

(1) صحيح النسائي (1078) ـ ورواه مسلم .
(2) جامع الأصول (177/4) .
(3) صحيح الجامع 4206 .
(4) تفسير القرطبي . سورة الرعد آية : 16 .
(5) مسلم (2791) وأحمد 35/6 .

قبورهم لله ﴿ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ أي: الذي قهر كل شيء وغلبه، ودانت له الرقاب وخضعت له الألباب)[1].

وفي سنن النسائي عن عائشة قالت: [كان إذا تضوَّر[2] من الليل قال: لا إله إلا الله الواحد القهار، رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار][3].

17 ـ **الوهاب**: كثير الهبة.

قال تعالى: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ﴾ [ص: 9].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [ص: 35].

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8].

أخرج أبو داود والنسائي عن عائشة رضي الله عنها. أن رسول الله ﷺ كان إذا استيقظ من الليل قال: [لا إله إلا أنت، سبحانك، اللهم إني أستغفرك لذنبي، وأسألك رحمتك، اللهم زدني علماً، ولا تُزِغ قلبي بعد إذ هديتني، وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب][4].

14 ـ **الرزَّاق**: كثير الرزق، والرزق لغة: ما يُـنْـتَفَعُ به.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات: 58].

وفي المسند عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: [أقرأني رسول الله ﷺ: «إني أنا الرزاق ذو القوة المتين»] ورواه أبو داود والنسائي والترمذي. قال الحافظ ابن كثير[5]: (وقال الترمذي: حسن صحيح).

---

(1) تفسير القرآن العظيم. سورة إبراهيم. آية 48.
(2) تلوى وتقلَّب.
(3) صحيح الجامع (4569).
(4) أخرجه أبو داود (5061) والنسائي في الكبرى (10701) وإسناده لين وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وله شواهد، انظر تفسير ابن كثير/ آل عمران: 8/ تحقيق عبد الرزاق المهدي.
(5) تفسير سورة الذاريات. آية: 58.

وفي المسند والسنن إلا النسائي عن أنس، عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى هو الخالقُ، القابضُ، الباسِطُ، الرَّازق، المسَعِّرُ، وإني لأرجو أن ألقى الله ولا يطلبني أحدٌ بمظلمةٍ ظلمتها إياه في دمٍ ولا مال] وصححه الألباني(1).

19 ـ **الفتَّاح**: هو الحاكم بين عباده. يقال: فتَحَ الحاكم بين الخَصْمين: إذا فصل بينهما، ويقال للحاكم: الفاتح، وقيل: هو الذي يفتح أبوابَ الرزق والرحمة لعباده، والمُنْغَلِقَ عليهم من أرازقه(2).

قال تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: 26].

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: 89].

قال الحافظ ابن كثير: (﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ أي: الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور)(3).

20 ـ **العليم**: شديد العلم بحقائق الأمور.

قال تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 32].

وقال تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: 54].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا... قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم: 3].

وفي صحيح ابن ماجه عن عثمان: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [ما من عبدٍ يقول، في صباحَ كل يوم ومساء كل ليلة: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، ثلاث مرات، فيضرَّه شيء](4).

---

(1) صحيح الجامع (1842).

(2) جامع الأصول (177/4).

(3) تفسير القرآن العظيم. سورة سبأ. آية: 26.

(4) صحيح ابن ماجه. الألباني (3120).

21ـ **الباسط**: الذي يبسط الرزق لعباده ويوسِّعهُ عليهم بجوده ورحمته.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: 26].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: 30].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ [سبأ: 39].

22ـ **القابض**: الذي يُمسكه عنهم بلطفه، فهو الجامع بين العطاء والمنع.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: 245].

وفي المسند عن أنس عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى هو الخالق، القابض، الباسط، الرازق. . .] وقد مضى بتمامه وسنده صحيح.

وفي الصحيحين عن ابن عمرو عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء. . .] ورواه أصحاب السنن والإمام أحمد(1).

23ـ **الخافض**: هو الذي يخفض الجبارين والفراعنة، أي: يضعهم ويهينهم.

24 ـ **الرافع**: هو الذي يرفع أولياءه ويعزهم، فهو الجامع بين الإعزاز والإذلال.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: 165].

وقال سبحانه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: 32].

وفي صحيح مسلم عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القِسطَ ويرفعه، ويرفع إليه عملُ الليل قبل عمل

---

(1) وانظر صحيح الجامع (1850).

النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه][1] .

25ـ **المعز** : المقوي بعد ذلة وضعف .

26ـ **المذل** : المضعف بعد عز وقوة .

قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : 26] .

وجاء في قنوت الوتر الذي علمه رسول الله ﷺ الحسن بن علي رضي الله عنه : [وإنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت] أخرجه ابن خزيمة وبنحوه أصحاب السنن بسند صحيح .

وفي المسند وصحيح ابن حبان عن المقداد بن الأسود عن النبي ﷺ قال : [ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هـذا الديـن ، بعز عزيـز أو بـذل ذليـل ، عِـزّاً يعـز الله بـه الإسلام ، وذلاً يذل بـه الكفر][2] .

27ـ **السميع** : السامع والمُسْمِع .

قال تعالى : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : 127] .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [غافر : 20] .

وفي المسند وصحيح النسائي عن عروة عن عائشة قالت : [الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول فأنزل الله عز وجل ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ إلى آخر الآية][3] .

وفي صحيح ابن ماجه عن أبان بن عثمان قال : سمعت عثمان بن عفان يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [ما من عبدٍ يقول في صباح كل يوم ، ومساء كل ليلة :

---

(1) أخرجه مسلم (179) وأحمد (395/4) .

(2) انظر السلسلة الصحيحة 3/1 ص 7 .

(3) وانظر الصحيح المسند من أسباب النزول . المجادلة آية 1 . الشيخ مقبل الوادعي .

بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ، ثلاث مرات ، فيضرَّه شيء][1] .

28ـ **البصير** : شديد البصر .

قال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : 11] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء : 1] .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [غافر : 20] .

وقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء : 58] .

وفي صحيح مسلم من حديث عمر ـ قال جبريل للنبي عليه الصلاة والسلام ـ أخبرني عن الإحسان؟ قال : [الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك] ورواه من حديث أبي هريرة[2] .

29ـ **الحَكَمُ** : الحاكم ، وحقيقته : الذي سُلِّمَ له الحُكم ورُدَّ إليه .

قال تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة : 50] .

وقال تعالى : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾ [الأنعام : 57] .

وقال سبحانه : ﴿ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر : 46] .

وفي صحيح أبي داود والنسائي عن هانىء بن يزيد ، عن النبي ﷺ قال : [إن الله هو الحَكَمُ ، وإليه الحُكمُ][3] .

30ـ **العَدْلُ** : هو الذي لا يميل به الهوى فيجور في الحكم ، والعدل ضد الظلم .

قال تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : 90] .

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر ، عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل :

---

(1) صحيح ابن ماجه (3120) .

(2) مختصر مسلم (2/ ص 7) .

(3) الإرواء (2682) ، وصحيح الجامع (1841) .

[قال الله تعالى: يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا. . .][1].

31 ـ **اللطيف**: الذي يوصِلُ إليك أرَبَك في رِفْق. وقيل: هو الذي لَطُفَ عن أن يُدرَكَ بالكيفية[2].

قال تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: 103].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: 34]. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: 16].

وقال جل ثناؤه: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ ﴾ [الشورى: 19].

وفي جامع الترمذي بسند صحيح من حديث الحكم بن أبان، قال: سمعت عكرمة يقول: [سمعت ابن عباس يقول: رأى محمد ربه تبارك وتعالى، فقلت: أليس الله يقول: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ فقال لي: لا أم لك ذلك نوره، الذي هو نوره، إذا تجلَّى بنوره لا يدركه شيء][3].

32 ـ **الخبير**: العالم العارف بما كان وما يكون.

قال تعالى: ﴿ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَـٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [التحريم: 3].

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: 18].

وقال سبحانه: ﴿ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴾ [الفتح: 11].

قال ابن جرير ـ في تفسير آية التحريم 3 ـ: (فلما خبر حفصة نبي الله ﷺ، بما أظهره الله عليه من إفشائها سر رسول الله ﷺ إلى عائشة ﴿ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَـٰذَا ﴾ . . ﴿ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ يقول تعالى ذكره: قال محمد نبي الله لحفصة: خبرني به

(1) مختصر مسلم (1828).

(2) جامع الأصول (178/4).

(3) وانظر تفسير ابن كثير. سورة الأنعام آية: 103.

العليم بسرائر عباده، وضمائر قلوبهم، الخبير بأمورهم، الذي لا يخفى عنه شيء).

33ـ **الحليم**: الحِلم بالكسر الأناة، والحليم شديد الحلم.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: 225].

وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ [الأحزاب: 51].

وفي الصحيحين وجامع الترمذي عن ابن عباس: أن نبي الله ﷺ كان يدعو عند الكرب: [لا إله إلا الله الحليم الحكيم، لا إله إلا الله ربُّ العرش العظيم، لا إله إلا الله ربُّ السماوات والأرض وربُّ العرش الكريم](1).

34ـ **العظيم**: أي: الكبير. وتعظَّم: تكبَّر.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: 255].

وقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: 174].

وفي صحيح البخاري وسنن ابن ماجه عن عبادة بن الصامت، قال: قال رسول الله ﷺ: [من تعارَّ من الليل، فقال حين يستيقظ: لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. سبحان الله، والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ثم دعا: رب اغفر لي، غفر له](2).

وفي صحيح الترمذي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: [ما من عبد مسلم يعود مريضاً لم يحضُرْ أجلُهُ فيقول سبعَ مرات: أسأل الله العظيم ربَّ العرش العظيم أن يشفيك إلا عوفِيَ](3).

35ـ **الغفور**: شديد الغفران. وهو من أبنية المبالغة في الغفران.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: 107].

---

(1) صحيح الترمذي (154/3). تحقيق الألباني.

(2) صحيح ابن ماجه (3128/2). تحقيق الألباني.

(3) صحيح الترمذي (1698/2). تحقيق الألباني.

وقال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الكهف: 58].

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك: 2].

وفي صحيح ابن ماجه عن ابن عمر قال: [كان تُعَدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة من قبل أن يقوم: رب اغفر لي، وتب علي، إنك أنت التواب الغفور][1].

36 ـ **الشكور**: الذي يجازي عباده ويثيبهم على أفعالهم الصالحة، فشكر الله لعباده إنما هو مغفرته لهم وقبوله لعبادتهم[2].

قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: 30]. وقال: ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: 34].

وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [الشورى: 23].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [بينما رجلٌ يمشي بطريق وجد غُصْنَ شوكٍ على الطريق، فأخَّره، فشكر الله لهُ، فغفر له][3].

37 ـ **العلي**: الشريف الرفيع المتعال. والتعالي: الارتفاع.

قال تعالى: ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: 255].

وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الحج: 62].

وقال: ﴿ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ [غافر: 12].

وفي صحيح أبي داود عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: [كان إذا ركع قال: سبحان ربي العظيم وبحمده «ثلاثاً»، وإذا سجد قال: سبحان ربي الأعلى وبحمده «ثلاثاً»][4].

38 ـ **الكبير**: هو الموصوف بالجلال وكِبَرِ الشأن.

---

(1) صحيح ابن ماجه (3814) تحقيق الألباني.
(2) جامع الأصول (178/4).
(3) مختصر مسلم (1082).
(4) صحيح الجامع (4610/2).

قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: 9].

وقال تعالى: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر: 12].

قال الحافظ ابن كثير: (الكبير: الذي هو أكبر من كل شيء، المتعال: أي على كل شيء، قد أحاط بكل شيء علماً، وقهر كل شيء، فخضعت له الرقاب ودان له العباد طوعاً وكرهاً)[1].

39 ـ **الحفيظ**: من الحفظ: الحراسة والمراقبة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: 57].

وقال سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: 21].

وقال جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الشورى: 6].

وفي المسند وجامع الترمذي عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: [يا غلام! إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك...][2].

40 ـ **المقيت**: هو المقتدر، وقيل: هو الذي يُعطي أقوات الخلائق.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء: 85].

قال ابن عباس: (مقيتاً: أي: حفيظاً). وقال مجاهد: (شهيداً). وفي رواية عنه: (حسيباً). وقال السدي وابن زيد: (قديراً). وقال الضحاك: (المقيت: الرزاق)[3].

41 ـ **الحسيبُ**: الكافي. وقيل: هو المحاسب.

قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: 6].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: 86].

قال ابن كثير: (وكفىٰ بالله حسيباً: أي وكفى بالله محاسباً وشاهداً ورقيباً)[4].

42 ـ **الجليل**: العظيم. وجلال الله: عظمته. وجَلَّ: عظم قدره.

قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 27].

---

(1) تفسير القرآن العظيم سورة الرعد آية: 9.

(2) صحيح الجامع (7834).

(3) تفسير ابن كثير. سورة النساء. آية: 85.

(4) المرجع السابق. آية: 6.

وقال تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: 78].

وفي المسند وصحيح الحاكم عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: [إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أُغوي عبادك مادامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني](1).

43ـ **الكريم**: شديد الكرم والجود.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [الانفطار: 6].

وقال تعالى: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: 116].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: 40].

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [كان يدعو عند الكرب: لا إله إلا الله العظيم الحليم. لا إله إلا الله رب العرش العظيم. لا إله إلا اللهُ رب السماوات السبع ورب الأرض، ورب العرش الكريم](2).

44ـ **الرقيب**: هو الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ [المائدة: 117].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: 1].

وقال سبحانه: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴾ [الأحزاب: 52].

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: [يا أيها الناس! إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً . . . ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول يا رب أصحابي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ . .] وقد مضى بتمامه.

---

(1) السلسلة الصحيحة (104).

(2) ورواه أحمد والترمذي، والطبراني وزاد: (اصرف عني شرَّ فلان) صحيح الجامع (4816).

45ـ **المجيب**: الذي يقبل دعاء عباده ويستجيبُ لهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: 61].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 186].

وفي صحيح الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [من سرَّه أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب، فليكثر الدعاء في الرخاء][1].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كلَّ ليلة حين يبقى ثلثُ الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له][2].

46ـ **الواسع**: هو الذي وَسِعَ غِناه كلَّ فَقْر، ووسعت رحمته كل شيء.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 115].

وقال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: 255].

وقال: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: 89].

قال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 156].

وفي المسند عن عائشة قالت: [الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات. لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول..] وقد مضى تخريجه.

57ـ **الحكيم**: العالم وصاحب الحكمة والمتقن للأمور.

قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 73].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 83].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الدهر: 30].

وفي الصحيحين عن ابن عباس: أن نبي الله ﷺ كان يدعو عند الكرب:

---

(1) وحسَّنَـهُ الألباني في السلسلة (595).

(2) مختصر مسلم (1880).

[لا إله إلا الله الحليم الحكيم ، لا إله إلا الله ربُّ العرش العظيم . لا إله إلا الله ربُّ السماوات والأرض ورب العرش الكريم][1] .

48ـ **الودود**: فعولٌ بمعنى: مفعول ، من الوُدِّ ، فالله تعالى مودود أي: محبوب في قلوب أوليائه ، أو هو فعول بمعنى: فاعل ، أي: أن الله تعالى يوَدُّ عباده الصالحين ، بمعنى: يرضى عنهم[2] .

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج: 14] .

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: 90] .

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: 96] .

وفي صحيح الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إني قد أحبَبْتُ فلاناً فأحِبَّهُ، فينادي في السماء، ثم تُنْزل له المحبة في الأرض ، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾][3] .

49ـ **المجيد**: هو الواسع الكرم ، وقيل: هو الشريف .

قال تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج: 15] .

وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: 73] .

وفي الصحيحين وسنن النسائي عن ابن أبي ليلى قال: قال لي كعب بن عُجرة: ألا أُهدي لك هدية؟ قلنا: يا رسول الله ، قد عرفنا كيف السلام عليك ، فكيف نصلي عليك؟ قال: [قولوا: اللهم صل على محمد ، وآل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وآل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد][4] .

---

(1) وقد مضى تخريجه .

(2) جامع الأصول (179/4) .

(3) صحيح الجامع (281) .

(4) ولـه صيغ أخرى مذكورة بتفصيل في صحيح النسائي (1221, 1222, 1223/ ص 276 - 277) تحقيق الألباني .

50ـ **الباعث**: صفة لله سبحانه أنه يبعث الخلق بعد الموت يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [الحج: 7].

وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [النحل: 89].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ [الأنعام: 36].

وفي صحيح مسلم عن جابر، عن النبي ﷺ قال: [يُبعث كلُّ عبد على ما مات عليه][1].

51ـ **الشهيد**: هو الذي لا يغيب عنه شيء. أي أنه حاضر يشاهد الأشياء ويراها.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾ [آل عمران: 98].

وقال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ [الفتح: 28].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: 117].

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس قال رسول الله ﷺ: [... ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول يا رب أصحابي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝١١٧ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم][2].

52ـ **الحق**: هو المتحقِّقُ كونُه ووجوده. فقوله الحق وفعله الحق سبحانه.

قال تعالى: ﴿فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [القصص: 75].

وقال تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: 57].

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل: [اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض،

---

(1) مختصر مسلم (1948).

(2) قد مضى تخريجه.

ولك الحمد ، أنت قيَّام السماوات والأرض ، ولك الحمد ، أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق ، ووعدك الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبْتُ ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت. فاغفر لي ما قدَّمت وما أخَّرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهي ، لا إله إلا أنت](1) .

وفي التنزيل: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ [الأنعام: 62].

وفي صحيح ابن ماجه عن واثلة بن الأسقع ، قال: [صلى رسول الله ﷺ على رجل من المسلمين فأسمعه يقول: اللهم! إن فلان بن فلان في ذمتك ، وحَبْلِ جوارك ، فقِهِ من فتنة القبر وعذاب النار ، وأنت أهل الوفاء والحق. فاغفر له وارحمه إنك أنت الغفور الرحيم](2) .

53 ـ **الوكيل**: هو الكفيل بأرزاق العباد ، وحقيقته: أنه الذي يستقل بأمر الموكول إليه.

قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: 173].

وقال سبحانه: ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٞ ﴾ [الزمر: 62].

وقال: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾ [الأحزاب: 3].

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس: [﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾: قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل].

وروى البخاري عن ابن عباس قال: [كان آخر قول إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار: حسبنا الله ونعم الوكيل](3) .

---

(1) مختصر مسلم (381).

(2) ابن ماجه ـ تحقيق الألباني (1218/1).

(3) وفي لفظ (حسبي الله ونعم الوكيل) أخرجه البخاري (4563).

54ـ **القوي**: القادر، وقيل: التام القُدْرة والقوة، الذي لا يعجزه شيء.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود: 66]. ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [الشورى: 19].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 52].

وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: 25]. قال ابن كثير في التفسير: (أي: بحوله وقوته ردهم خائبين لم ينالوا خيراً، وأعز الله الإسلام وأهله).

55ـ **المتين**: هو الشديد لقوي الذي لا تلحَقُهُ في أفعاله مشقَّة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: 58].

وفي المسند عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: [أقرأني رسول الله ﷺ: «إني أنا الرزاق ذو القوة المتين»] ورواه أبو داود والترمذي وقال الترمذي: حسن صحيح[1].

56ـ **الولي**: الناصر، وقيل: المتولي للأمور القائم بها.

قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ [الشورى: 9].

وقال: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى: 28].

وفي التفاسير عن قتادة قال: (ذكر لنا أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين قحط المطر وقنط الناس، فقال عمر رضي الله عنه: مطرتم، ثم قرأ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾)[2].

قال ابن كثير: (أي: المتصرف لخلقه بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم)[2].

أخرج الطبراني في الأوسط بسند حسن عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يقول: [يا وليَّ الإسلام وأهلِهِ، ثبِّتْني به حتى ألقاك].

في لفظ: [مسِّكني بالإسلام حتى ألقاك][3].

---

(1) انظر تفسير ابن كثير. الذاريات/ آية 58.

(2) المرجع السابق. الشورى/ آية 28.

(3) السلسلة الصحيحة (1823/4).

57 ـ **الحميد**: المحمود الذي استحق الحمد بفعله ، وهو فعليل بمعنى مفعول.

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الشورى: 28]. ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الحج: 64].

وقال سبحانه: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: 15].

قال ابن كثير: (أي: هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له ، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله ويقدره ويشرعه)(1).

وفي صحيح مسلم عن أبي مسعود الأنصاري أنه قال: [أتانا رسول الله ﷺ ، في مجلس سعد بن عبادة ، فقال له بشير بن سعد: أمرنا الله عز وجل أن نصلي عليك يا رسول الله ، فكيف نصلي عليك؟ فسكت رسول الله ﷺ ، حتى تمنينا أنه لم يسأله ، ثم قال: قولوا: اللهم صلّ على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد ، وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم ، في العالمين إنك حميد مجيد. والسلام كما علمتم](2).

58 ـ **المحصي**: هو الذي أحصى كلَّ شيء بعلمه ، فلا يفوته شيء من الأشياء ، دقَّ أو جَلَّ ، وهي صفة لله تعالى.

قال تعالى: ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ [الجن: 28].

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ [المجادلة: 6].

وقال سبحانه: ﴿ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ [مريم: 94].

59 ـ **المبدىء**: الذي أنشأ الأشياء واخترعها ابتداء. وهي صفة لله تعالى. وكذلك:

60 ـ **المعيد**: هو الذي يعيد الخلق بعد الحياة إلى الممات ، وبعد الممات إلى الحياة.

---

(1) تفسير ابن كثير. فاطر/ آية 15.

(2) ورواه الترمذي ، والنسائي وله عنده شواهد. صحيح النسائي (1218 - 1222). ص 275 تحقيق الألباني.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴾ [السجدة: 7].

وقال تعالى: ﴿ يَوۡمَ نَطۡوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٍ نُّعِيدُهُۥۚ ﴾ [الأنبياء: 104].

وقال تعالى: ﴿ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعًاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ [يونس: 4].

وقال: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ [البروج: 13].

وفي الصحيحين عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: [يا أيها الناس! إنكم تحشرون إلى الله حُفاة عراة غُرْلاً ﴿ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٍ نُّعِيدُهُۥۚ ﴾] وقد مضى بتمامه.

61 ـ **المحيي**: هو الذي يخلق الحياة ابتداء، وهي صفة لله تعالى. وكذلك:

62 ـ **المميت**: هو الذي ينهي الآجال ويقبض الأرواح وكل ذلك في كتاب عنده.

قال تعالى: ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡىِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم: 50].

وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحۡىِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [آل عمران: 156].

وقال سبحانه: ﴿ هُوَ يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [يونس: 56].

وفي المسند وصحيح الترمذي عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: [من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حيٌّ لا يموت بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة، وبنى له بيتاً في الجنة] وحسنه الألباني[1].

63 ـ **الحي**: ضد الميت.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلۡحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ﴾ [غافر: 65].

---

(1) صحيح الجامع (6107).

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه: 111].

وقال سبحانه: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان: 58].

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: [أنه أتاه آتٍ يحثو من الصدقة ليلة بعد ليلة، فلما كان في الليلة الثالثة، قال: لأرفعنَّك إلى رسول الله ﷺ، قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ـ وكانوا أحرصَ شيء على الخير ـ فقال: إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ حتى تختمها، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال: صدقك وهو كذوب، ذاك شيطان][1].

64ـ **القيوم**: القائم بنفسه والمقيم لغيره.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: 255].

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [آل عمران: 2].

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه: 111].

وفي صحيح أبي داود والترمذي عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ قال: أستَغفر الله الذي لا إله إلا هو الحيَّ القيوم وأتوب إليه، غُفِرَت ذنوبُه وإن كان قد فرَّ من الزَّحف] وصححه الألباني[2].

65 ـ **الواحد**: هو الفرد الذي لم يزل وحده، ولم يكن معه آخر، وقيل: هو منقطع القرين والشريك.

66ـ **الأحد**: الفرد، والفرق بينه وبين الواحد: أن الواحد منفرد بالذات والأحد منفرد بالمعنى.

---

(1) هو عند البخاري معلق صحيح. مختصر البخاري (392). انظر صحيح الترغيب (606/1). تحقيق الألباني.

(2) صحيح الترمذي (2831/3).

67ـ **الصَّمد**: هو السيد الذي يصمِدُ إليه الخلقُ في حوائجهم أي يقصدونه.

قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ [الإخلاص: 1 – 2].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [ص: 65].

وقال: ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: 48].

وقال سبحانه: ﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر: 16].

وفي صحيح أبي داود والنسائي عن محجن بن الأدرع: أن رسول الله ﷺ دخل المسجد، إذا رجل قد قضى صلاته، وهو يتشهد فقال: [اللهم إني أسألك يا ألله، بأنك الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد: أن تغفر لي ذنوبي، إنك أنت الغفور الرحيم. فقال رسول الله ﷺ: «قد غُفر له» ثلاثاً][1].

وفي صحيح الترمذي عن بريدة: [أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. فقال: لقد سألت الله بالاسم الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب] وسنده صحيح[2].

68 - 70: **بديع السماوات والأرض، الحنَّان، المنَّان**: وهي صفات لله سبحانه.

قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: 117].

وقال تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ [الأنعام: 101].

وقال تعالى: ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم: 13].

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا .. ﴾ [آل عمران: 164].

---

(1) صحيح أبو داود (905) تحقيق الألباني. وصحيح النسائي (1234).

(2) وانظر صحيح ابن ماجه (329/2). تحقيق الألباني.

وقال: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات: 17].

وعند الإمام أحمد على شرط مسلم عن أنس قال: [مرَّ رسول الله ﷺ بأبي عياش وهو يصلي ويقول: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت يا حنَّان يا منَّان يا بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم. فقال رسول الله ﷺ: لقد سألت الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطىٰ].

وفي رواية: [اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، المنان، بديع السماوات والأرض، ذو الجلال والإكرام][1].

71 - 73: **القادر، المقتدر، القدير.**

المقتدر: مفتعل من القدرة، وهو أبلغ من قادر.

قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا ﴾ [الأنعام: 65].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ [الطارق: 8].

وقال تعالى: ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: 42].

وقال سبحانه: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف: 45].

وقال سبحانه: ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [الروم: 54].

وقال: ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ [الفرقان: 54]. ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الأحزاب: 27].

وفي صحيح الترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، أن النبي ﷺ قال: [خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخيرُ ما قلت أنا والنبيون مِنْ قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير][2].

74 ـ **المُقَدِّم**: الذي يُقدِّمُ الأشياء فيضعها في مواضعها.

---

(1) المرجع السابق.

(2) (2837/3). ص 184. والصحيحة (1503).

75 ـ **المؤخِّر**: الذي يؤخرها إلى أماكنها ، فمن استحق التقديم قدَّمه ، ومن استحق التأخير أخَّره .

قال تعالى : ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴾ [ق : 28] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ [المنافقون : 11] .

وقال : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ [إبراهيم : 42] .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾ [هود : 8] .

وفي صحيح مسلم عن علي قال : [وإذا سلم من الصلاة قال : اللهم اغفر لي ما قدَّمت وما أخَّرت ، وما أسررت ، وما أعلنت ، وما أسرفْتُ ، وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدِّم والمؤخِّر ، لا إله إلا أنت][1] .

76ـ **الأول**: هو السابق للأشياء كلها .

77ـ **الآخر**: الباقي بعد الأشياء كلها .

78ـ **الظاهر**: هو الذي ظهر فوق كل شيء وعلاه .

79ـ **الباطن**: هو المحتجبُ عن أبصار الخلائق .

قال تعالى : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد : 3] .

قال البخاري : قال يحيى : (الظاهر على كل شيء علماً والباطن على كل شيء علماً) .

وفي صحيح مسلم عن سهيل قال : [كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع على شقه الأيمن ثم يقول : اللهم رب السماوات ورب الأرض ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى ، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان ، أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته ، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت

---

(1) وانظر صحيح أبي داود (282) .

الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر . وكان يروي ذلك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ][1] .

ورواه أحمد عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم : [اللهم رب . . .] وذكره[2] .

80 ـ **الوالي** : مالك الأشياء ، المتصرف فيها .

قال تعالى : ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد : 11] .

قال ابن جرير : (وما لهؤلاء القوم من دون الله من وال يليهم ويلي أمرهم وعقوبتهم) .

وقال القرطبي في التفسير : (﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ أي : ملجأ . وهو معنى قول السُّدي . وقيل : من ناصر يمنعهم من عذابه ، وقال الشاعر :

* ما في السماء سوى الرحمن من والِ*

ووالٍ ووَليّ كقادر وقدير) .

وفي المعجم الأوسط للطبراني ـ بسند حسنه الألباني ـ من حديث أنس ، أن رسول الله ﷺ كان يقول : [يا وليَّ الإسلام وأهله ، مسِّكني بالإسلام حتى ألقاك] وقد مضى .

81 ـ **المُتَعالي** : هو المتنزِّه عن صفات المخلوقين ، تعالى أن يوصف بها وجَلَّ .

قال تعالى : ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد : 9] .

قال القرطبي في التفسير : («المتعال» عما يقول المشركون ، المستعلي على كل شيء بقدرته وقهْره) .

82 ـ **البَـرُّ** : هو العطوف على عباده بِبرِّه ولُطْفِه .

قال تعالى : ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور : 28] .

قال الحافظ ابن كثير في التفسير : (وقال ابن أبي حاتم : حدثنا عمرو بن عبد الله

---

(1) مسلم (2713) .

(2) أحمد (404/2) وإسناده صحيح .

الأودي ، حدثنا وكيع عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق عن عائشة أنها قرأت هذه الآية : ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فقالت : اللهم منَّ علينا وقنا عذاب السموم إنك أنت البر الرحيم . قيل للأعمش : في الصلاة؟ قال : نعم) .

83 ـ التواب : شديد القبول للتائبين .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة : 104] .

وقال تعالى : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : 37] .

وقال : ﴿ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : 160] .

وقال : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ [النصر : 3] . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : 16] .

وفي صحيح الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنه قال : [إنَّا كنا لنعدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مئة مرة «رب اغفر لي ، وتب علي ، إنك أنت التواب الرحيم»](1) .

84 ـ المنتقمُ : هو المبالغ في العقوبة لمن يشاء ، مفتعل : من نَقَم ينقِم : إذا بلغت به الكراهية حدَّ السُّخْط والغضب .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [السجدة : 22] . ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ [الدخان : 16] . وقال سبحانه : ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [آل عمران : 4] .

وقال سبحانه : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [المائدة : 95] .

قال ابن جرير في التفسير : (﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ يقول ، عز ذكره : والله منيع في سلطانه ، لا يقهره قاهر ولا يمنعه من الانتقام ممن انتقم منه ، ولا من عقوبة من

---

(1) صحيح الترمذي (183/1) .

أراد عقوبته مانع ، لأن الخلق خلقه ، والأمر أمره ، له العزة والمنعة . وقوله ﴿ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ يعني أنه ذو معاقبة لمن عصاه على معصيته إياه) .

85ـ **العفو** : فعول من العفو ، بناء مبالغة ، وهو الصَّفُوح عن الذنوب .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج : 60] .

وقال سبحانه : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء : 99] .

وفي صحيح ابن ماجه عن عائشة : [أنها قالت : يا رسول الله ! أرأيت إن وافقتُ ليلة القدر ما أدعو؟ قال : تقولين : اللهم إنك عفوٌّ تحبُّ العفو فاعف عني][1] .

وفي المسند عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : [إن الله تعالى عفو يحب العفو][2] .

86 ـ **الرؤوف** : هو الرحيم العاطِف برأفته على عباده ، والفرق بين الرأفة والرحمة : أن الرحمة قد تقع في الكراهة للمصلحة ، والرأفة لا تكاد تكون في الكراهة[3] .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة : 143] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران : 30] .

وقال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد : 9] .

قال الحسن البصري في الآية ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ : (من رأفته بهم حذرهم نفسه) .

وقال غيره : (أي رحيم بخلقه ، يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ودينه القويم ، وأن يتبعوا رسوله الكريم) ذكره ابن كثير في التفسير[4] .

وفي صحيح البخاري من حديث البراء رضي الله عنه قال : [. . . وكان الذي

---

(1) صحيح ابن ماجه (328/2) وانظر السلسلة الصحيحة (1138) .
(2) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (1775) .
(3) جامع الأصول (182/4) .
(4) سورة آل عمران آية 30/ تفسير ابن كثير .

مات على القبلة قبل البيت رجال قتلوا فلم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾][1] .

87 ـ **مالك الملك** : صفة لله تعالى لا يوصف بها غيره .

قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : 26] .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [إن أخنع اسمٍ عند الله رجلٌ تسمى ملك الأملاك ، لا مالك إلا الله][2] .

88 ـ **ذو الجلال والإكرام** : الجلال ، مصدر الجليل ، تقول : جليل بيِّن الجلالة والجلال .

قال تعالى : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : 27] .

وفي صحيح ابن ماجه عن عائشة قالت : [كان رسول الله ﷺ إذا سلَّم لم يقعد إلا مقدار ما يقول : اللهم أنت السلام ومِنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام][3] .

89 ـ **الغني** :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [لقمان : 26] .

وقال : ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ ﴾ [الأنعام : 133] .

وقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت : 6] .

وفي صحيح أبي داود والحاكم عن عائشة رضي الله عنها ـ في دعاء الاستسقاء ـ أن النبي ﷺ قال : [الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، لا إله إلا الله يفعل ما يُريد ، اللهم أنت الله لا إله إلا أنت ، أنت الغني ونحن الفقراء ، أنزل علينا الغيث ، واجعل ما أنزلت لنا قوة وبلاغاً إلى حين][4] .

---

(1) أخرجه البخاري (4486) ومسلم (525) والترمذي (340) .

(2) وفي لفظ : [أخنع الأسماء . . .] ورواه أحمد وأبو داود ، وانظر صحيح الجامع (235) .

(3) (1/ ص 152) تحقيق الألباني . وصحيح أبي داود (1354) .

(4) أخرجه أبو داود والحاكم ـ صحيح الكلم الطيب (60) .

90ـ **المغني**:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ [التوبة: 28].

وقال سبحانه: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: 33].

وقال: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: 32].

91ـ **المعطي**:

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: 50].

وقال: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: 1].

وقال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: 5].

وقال: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: 20].

وفي المسند عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [إذا رأيت الله تعالى يُعطي العبد من الدنيا ما يحب، وهو مقيم على معاصيه، فإنما ذلك منه استدراج](1).

92ـ **المانع**: هو الناصر الذي يمنع أولياءه أن يؤذيهم أحد.

قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: 67]. ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ﴾ [الأنبياء: 43].

وفي صحيح ابن حبان بسند حسن عن أبي هريرة قال: [كان رسول الله ﷺ إذا نزل منزلاً نظروا أعظم شجرة يرونها فجعلوها للنبي ﷺ فينزل تحتها وينزل أصحابه بعد ذلك في ظل الشجر، فبينما هو نازل تحت شجرة وقد علق السيف عليها إذ جاء

---

(1) وسنده صحيح. صحيح الجامع (575)، والسلسلة الصحيحة (413).

أعرابي فأخذ السيف من الشجرة ثم دنا من النبي ﷺ وهو نائم فأيقظه فقال: يا محمد من يمنعك مني فقال النبي ﷺ: الله، فأنزل الله عز وجل: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾ المائدة][1].

93ـ الضار.

94ـ النافع.

قال تعالى: ﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [الأنعام: 17].

وقال تعالى: ﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يونس: 107].

وقال سبحانه: ﴿ إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ ﴾ [يس: 23].

وقال: ﴿ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ ﴾ [الفتح: 11].

وفي المسند وصحيح أبي داود عن أبي تميمة عن رجل من قومه، أنه قال: شهدت رسول الله ﷺ وأتاه رجل فقال: أنت رسول الله أو قال: أنت محمد؟ فقال: نعم. قال: فإلامَ تدْعو؟ قال: [أدعو إلى ربك الذي إن مسَّك ضر فدعوته كشف عنك، والذي إن أضللك بأرض قفر فدعوته ردَّ عليك، والذي إن أصابتك سنة فدعوته أنبت لك][2].

95ـ نور السماوات والأرض:

هو الذي يُبصر بنوره ذو العَماية، ويَرشُد بهُداه ذو الغَواية.

قال تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ ﴾ [النور: 35].

---

(1) الصحيح المسند من أسباب النزول. مقبل الوادعي. المائدة آية 67.

(2) وانظر صحيح الجامع (242).

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: 8].

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل: [اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض، ولك الحمد...] وقد مضى بتمامه.

96- قيّام السماوات والأرض.

97- رب السماوات والأرض.

قال تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [ص: 66].

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل: [اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض، ولك الحمد، أنت قيّام السماوات والأرض، ولك الحمد، أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن...] وقد مضى بتمامه.

98- الهادي:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: 54].

وقال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: 31].

وفي المسند وصحيح الترمذي عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة، فألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور يومئذ اهتدى، ومن أخطأه ضل][1].

99- الباقي، الوارث: والوارث هو الباقي بعد فناء الموجودات والخلائق.

قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 27].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ [الحجر: 23].

(1) وانظر السلسلة الصحيحة (1076) وصحيح الجامع (1760).

وقال سبحانه : ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء : 89].

وقال سبحانه : ﴿ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص : 58].

صفات أخرى متفرقة :

1 ـ **الرشيد** : هو الذي أرشد الخلق إلى مصالحهم ، فعيل بمعنى مُفعِل .

2 ـ **الصبور** : هو الذي لا يعاجِلُ العصاة بالانتقام منهم ، بل يؤخر ذلك إلى أجل مسمى ، فمعنى الصَّبور في صفة الله تعالى قريب من معنى الحليم ، إلا أن الفرق بين الأمرين : أنهم لا يأمنون العُقوبة في صفة الصَّبُور ، كما يأمنون منها في صفة الحليم(1) .

3 ـ **الجامع** : هو الذي يجمع الخلائق ليوم الحساب .

4 ـ **المُقْسِط** : هو العادل في حكمه .

الصفات الذاتية

1 ـ صفة الوجه :

قال تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : 26 - 27] .

وقال تعالى : ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص : 88] .

2 ـ صفة النفس :

قال تعالى ـ يخاطب موسى عليه السلام ـ : ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ [طه : 41 - 42] .

وقال سبحانه ـ يحكي قول عيسى عليه السلام ـ : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة : 116] .

---

(1) جامع الأصول (183/4) .

3ـ صفة اليدين :

قال تعالى : ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح : 10] .

وقال تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾ [ص : 75] .

وقال سبحانه : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [المائدة : 64] .

وفي صحيح الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : [إن المقسطين عند الله يومَ القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وُلُّوا][1] .

4ـ صفة العينين :

قال تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ [طه : 39] .

وقال : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور : 48] .

وقال سبحانه : ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ [القمر : 13 – 14] .

وفي الحديث : [وإن ربكم ليس بأعور][2] .

5ـ صفة السمع :

قال تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ﴾ [المجادلة : 1] .

وقال تعالى : ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ [آل عمران : 181] .

وقال تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف : 80] .

---

(1) ورواه أحمد والنسائي . صحيح الجامع (1949) .

(2) رواه الترمذي من حديث أنس . وانظر صحيح الجامع (5665) .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه : 46].

6 ـ صفة الرؤية والبصر :

قال تعالى : ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق : 14].

وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [الشعراء : 218 - 220].

وقال تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ ﴾ [التوبة : 105].

وقال سبحانه : ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشورى : 11].

7 ـ صفة القدم :

أخرج البخاري ومسلم عن أنس عن النبي ﷺ قال : [لا تزال جهنم يلقى فيها وتقولُ : «هل من مزيد» حتى يضع فيها ربُّ العزة قدَمه (وفي لفظ : حتى يضع رب العزة قدمه فيها ـ وفي رواية : عليها قدمه ـ) فينزوي بعضها إلى بعض ، وتقول : قطِ قطِ ، وعزَّتك وكرمك ، ولا يزال في الجنة فضل ، حتى ينشىء الله لها خلقاً آخر ، فيسكنهم في فضُول الجنة](1) .

وعند ابن خزيمة والدارمي بسند صحيح موقوف عن ابن عباس قال : [الكرسي موضع القدمين ، والعرش لا يقدر أحد قدره](2) .

8 ـ صفة الساق :

قال تعالى : ﴿ يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴾ [القلم : 42].

وفي صحيح البخاري عن عطاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً](3) .

---

(1) ورواه أحمد والترمذي . صحيح الجامع (7163).

(2) مختصر العلو (45/ ص 102) ـ تحقيق الألباني .

(3) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري (4919) ومسلم (183) وأحمد (16/3) وغيرهم .

وله شاهد عند الدارمي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إذا جمع الله العباد بصعيد واحد نادى مناد: يلحق كل قوم بما كانوا يعبدون. ويبقى الناس على حالهم، فيأتيهم فيقول: ما بال الناس ذهبوا وأنتم ها هنا؟ فيقولون: ننتظر إلهنا، فيقول: هل تعرفونه؟ فيقولون: إذا تعرف إلينا عرفناه، فيكشف لهم عن ساقه فيقعون سجداً وذلك قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ويبقى كل منافق فلا يستطيع أن يسجد ثم يقودهم إلى الجنة] وصححه الألباني في الصحيحة 584.

9 ـ صفة الكلام:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: 87].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: 122].

وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 110].

وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: 115].

وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164].

وقال تعالى: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة: 253].

وقال سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: 143].

وقال سبحانه: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: 52].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء: 10].

وقال: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ [الأعراف: 22].

وقال جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: 62].

وقال جل ثناؤه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 65].

وقال جل وعز: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: 6].

وقال تعالى: ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 75].

وقال: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ ﴾ [الفتح: 15].

وقال: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ﴾ [الكهف: 27].

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: [يقول الله يا آدم. فيقول: لبيك وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار](1).

10 ـ صفة الفرح:

ففي الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [للهُ أفْرَحُ بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضلَّه في أرض فلاة](2).

وفي رواية لمسلم: [للهُ أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة...].

وفي رواية: [للهُ أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم براحلته](3).

11 ـ صفة الضحك:

ففي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [يضحك الله من رجلين يقتل أحدهما الآخرَ، كلاهما يدخل الجنة](4).

12 ـ صفة الرضا والغضب:

قال الإمام أبو جعفر الطحاوي ـ في عقيدته المدونة ـ: (والله يغضب ويرضى لا كأحد من الورى).

---

(1) أخرجه البخاري (6284) في الأيمان والنذور، ومسلم (2848) في الجنة وصفة نعيمها.
(2) أخرجه البخاري (5949 و 5950) في الدعوات: باب التوبة.
(3) أخرجه مسلم (2744) في التوبة: باب في الحض على التوبة والفرح بها.
(4) أخرجه البخاري (2671) في الجهاد. ومسلم (1890) في الإمارة.

وفي التنزيل: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح: 18]. ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [البينة: 8].

﴿ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ [طه: 81].

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ ﴾ [المائدة: 60].

﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: 61].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ـ في حديث الشفاعة ـ عن النبي ﷺ ـ يقول الأنبياء: [إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله] وسيأتي بتمامه ببحث الإيمان باليوم الآخر.

وفي الصحيحين عن أبي سعيد عن النبي ﷺ: [. . . يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً](1).

وفي معجم الطبراني بسند صحيح عن محجن بن الأدرع عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى رضي لهذه الأمة اليسر، وكَرِهَ لها العسر] وانظر الصحيحة 1635.

13 ـ صفة الجود والكرم:

ففي شعب الإيمان للبيهقي بسند صحيح عن طلحة بن عبيد الله عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى جوادٌ يحبُّ الجود، ويحبُّ معاليَ الأخلاق، ويكره سَفْسَافها](2).

وفي تاريخ ابن عساكر عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال: [إن الله كريم يحب الكرماء، جَوَادٌ يحب الجَوْدَةَ، يحب معاليَ الأخلاق، ويكره سَفْسَافَها](3).

وهو في صحيح الحاكم ومعجم الطبراني من حديث سهل بن سعد بلفظ: [إن

---

(1) وله شاهد في صحيح الحاكم وابن حبان بلفظ: [فيقولون: ربنا وما فوق ما أعطيتنا؟ فيقول: رضواني أكبر]، صحيح الجامع (538).
(2) وصححه الألباني في صحيح الجامع (1740).
(3) وانظر صحيح الجامع (1796).

الله كريم يحب الكرم ، ويحب معاليَ الأخلاق ، ويكره سَفْسَافَها][1] .

14 ـ **صفة الجمال :**

ففي صحيح مسلم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : [إن الله تعالى جميل يحب الجمال] .

وهو عند البيهقي من حديث أبي سعيد بلفظ : [إن الله جميل يحب الجمال ، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده ، ويبغض البؤسَ والتباؤس][2] .

وهو عند الطبراني في الأوسط من حديث جابر بلفظ : [إن الله تعالى جميل يحب الجمال ، ويحب معالي الأخلاق ، ويكره سفسافها][2] .

15 ـ **صفة الحياء والستر :**

ففي المسند وصحيح أبي داود عن يعلى بن أمية ، عن النبي ﷺ قال : [إن الله تعالى حيِّيٌ ستير يحب الحياء والسِّتْرَ ، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر][3] .

وفي المسند وصحيح أبي داود والترمذي وابن ماجه عن سلمان ، عن النبي ﷺ قال : [إن الله تعالى حيي كريم ، يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صِفراً خائبتين][4] .

وهو في صحيح الحاكم بلفظ : [ن الله رحيم ، حَيِيٌّ ، كريم ، يستحِي من عبده أن يرفع إليه يديه ثم لا يضع فيهما خيراً][5] .

16 ـ **صفة الرفق :**

ففي معجم الطبراني من حديث معدان عن النبي ﷺ قال : [إن الله رفيقٌ يحب الرِّفق ، ويرضاه ، ويعين عليه ما لا يُعين على العنف][6] .

---

(1) وانظر الصحيحة (1378 /1626) .
(2) انظر صحيح الجامع (1738 /1739) .
(3) وانظر صحيح الجامع (1752) والإرواء (2393) .
(4) انظر صحيح الجامع (1753) .
(5) صحيح الجامع (1764) .
(6) السلسلة الصحيحة (682) وصحيح الجامع (1766) .

وهو في المسند من حديث علي بلفظ: [إن الله تعالى رفيق يحب الرفق، ويُعطي عليه ما لا يعطي على العُنْف][1].

17 ـ صفة الإحسان:

ففي معجم الطبراني بسند صحيح عن شداد بن أوس عن النبي ﷺ قال: [إن الله مُحْسِنٌ يحب الإحسان، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحَ، وليحِدَّ أحدُكم شفرتَه، ثم ليرِح ذبيحته].

وهو عند ابن عدي عن سمرة بلفظ: [إن الله تعالى محسن فأحسنوا][2].

18 ـ صفة الوتر:

ففي صحيح الترمذي عن علي عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتر، فأوتروا يا أهل القرآن].

وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة بلفظ: [إن الله تعالى وِتْرٌ يحب الوتر].

وعند أبي يعلى بلفظ: [إن الله وتر يحب الوتر، فإذا استجْمَرت فأوْتِر][3].

19 ـ صفة الغيرة:

ففي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى يغار، وإن المؤمن يغار، وغيرةُ الله أن يأتي المؤمن ما حرَّم الله عليه][4].

20 ـ صفة البغض والحب:

قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: 54]. ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 60].

وفي المسند وصحيح أبي داود عن ابن عمرو عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى

---

(1) صحيح الجامع (1767).
(2) صحيح الجامع (1819/ 1820).
(3) رواه عن ابن مسعود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (1826).
(4) ورواه أحمد والترمذي. صحيح الجامع (1897).

يبغضُ البليغ من الرِّجال ، الذي يتخلَّل بلسانه تخلل الباقرةِ بلسانها][1] .

وعند أبي نعيم في الحلية بسند صحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [إن الله تعالى يبغض السائِلَ المُلْحِفَ][2] .

وفي المسند عن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ قال : [إن الله تعالى يبغُضُ الفاحِشَ المتفحِّش][3] .

وعند الحاكم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [إن الله تعالى يبغض كل عالمٍ بالدنيا ، جاهلٍ بالآخرة][4] .

وفي شعب الإيمان للبيهقي بسند حسن عن عائشة عن النبي ﷺ قال : [إن الله يحب إذا عَمِلَ أحدكم عملاً أن يتقنه][5] .

وفي صحيح مسلم عن سعد عن النبي ﷺ قال : [إن الله تعالى يحب العبد التقي الغني الخفي][6] .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : [إن الله تعالى يحب العُطاس ، ويكره التثاؤب][7] .

الصفات الفعليـــة

1 ـ صفة النزول :

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : [ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟] .

---

(1) السلسلة الصحيحة (878) .
(2) السلسلة الصحيحة (1320) .
(3) المرجع السابق (874) .
(4) المرجع السابق (195) .
(5) صحيح الجامع (1876) .
(6) ورواه أحمد . صحيح الجامع (1878) .
(7) ورواه أبو داود والترمذي . صحيح الجامع (1879) . وله شاهد في الإرواء (771) .

وفي رواية: [فيقول: أنا الملك، أنا الملك، من ذا الذي يدعوني فأستجيب له؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفِرَ له؟ فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر] وقد مضى بتمامه في بحث العلو.

وله شاهد صحيح في سنن ابن ماجه من حديث رفاعة الجهني قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله يمهل حتى إذا ذهب من الليل نصفه أو ثلثاه قال: لا يسألنَّ عبادي غيري، من يسألني أستجب له، منْ يسألني أُعْطِه، من يستغفرني أغفرْ لهُ، حتى يطلع الفجر][1].

وشاهد آخر في صحيح مسلم ومسند أحمد من حديث أبي سعيد وأبي هريرة بلفظ: [إن الله تعالى يمهل حتى إذا كان ثلثُ الليل الآخرِ نزل إلى سماء الدنيا فنادى: هل من مستغفرٍ؟ هل من تائب؟ هل من سائل؟ هل من داعٍ؟ حتى ينفجِرَ الفجرُ][2].

2ـ صفة المجيء والاطلاع:

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: 21 - 22].

وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [البقرة: 210].

وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: 158].

وفي صحيح ابن خزيمة بسند جيد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا جمع الله الأولى والآخرة يوم القيامة جاء الرب تبارك وتعالى إلى المؤمنين فوقف عليهم...][3].

وفي صحيح الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [يجمع الله الناس يوم

---

(1) صحيح الجامع (1913).
(2) ورواه أحمد. الإرواء (449) وصحيح الجامع (1914).
(3) السلسلة الصحيحة (756/1).

القيامة في صعيد واحد ، ثم يطَّلع عليهم رب العالمين ، فيقول: ألا يتَّبع كلُّ إنسان ما كان يعبد؟ فيُمثل لصاحب الصليب صليبُه ، ولصاحب التصاوير تصاويره ، ولصاحب النار نارُه ، فيتبعون ما كانوا يعبدون ، ويبقى المسلمون ، فيطلع عليهم ربُّ العالمين ، فيقول: ألا تتبعون الناس؟ فيقولون: نعوذ بالله منك ، ونعوذ بالله منك ، الله ربنا ، وهذا مكاننا ، حتى نرى ربنا ، وهو يأمرهم ويُـثَـبِّـتُهُم ، قالوا: وهل نراه يا رسول الله؟ قال: وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا ، قال: فإنكم لا تُضَارون في رؤيته تلك الساعة ، ثم يتوارىٰ ، ثم يطلع ، فيعرِّفهم نفسه ، ثم يقول: أنا ربكم فاتبعوني ، فيقوم المسلمون ، ويوضع الصراط ، فيمر عليه مثل جياد الخيل والرِّكاب ، وقولهم عليه: سلِّم سلِّم ، ويبقى أهل النار ، فيُطرحُ فيها منهم فوجٌ ، ثم يقال: هل امتلأت؟ فتقول: هل من مزيد؟ ثم يُطرحُ فيها فوجٌ ، فيقال: هل امتلأت؟ فتقول: هل من مزيد؟ حتى إذا أُوعِبوا فيها وضع الرحمن قدمه فيها ، وأزوى بعضها إلى بعض ، ثم قال: قط؟ قالت: قط قط ، فإذا أدخل الله أهل الجنة الجنة ، وأهل النارِ النارَ ، أُتِيَ بالموت مُلَبَّباً ، فيُوقف على السور الذي بين أهل الجنة وأهل النار ، ثم يقال: يا أهل الجنة! فيطَّلعون خائفين ، ثم يقال: يا أهل النار! فيطَّلعون مستبشرين ، يرجون الشفاعة ، فيُقال لأهل الجنة وأهل النار: هل تعرفون هذا؟ فيقول هؤلاء وهؤلاء: قد عرفناه هو الموت الذي وكِّل بنا ، فيُضجع فيذبَحُ ذبحاً على السور ، ثم يقال: يا أهل الجنة! خلودٌ لا موت ، ويا أهل النار! خلودٌ لا موت][1] .

3ـ صفة المشيئة والإرادة:

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: 253].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: 1].

وقال سبحانه: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: 125].

(1) صحيح الجامع (7881).

وفي مسند البزار عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: [إن الله لو شاء أن لا يُعصى ما خلق إبليس][1].

وفي صحيح مسلم من حديث أَبي موسى عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى إذا أراد رحمةَ أمَّةٍ من عباده قبض نبيَّها قبْلها، فجعلَهُ لها فرَطاً وسلفاً بين يديها، وإذا أراد هَلَكَةَ أمَّةٍ عذَّبها ونبيُّها حيٌّ فأهلكَها وهو ينظر فأقرَّ عينَه بهلكتِها حين كذبوه وعصوا أمره][2].

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: [ذا أراد الله خلقَ شيء لم يمنعه شيء][3].

4ـ صفة المكر والكيد بالكافرين:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرعد: 13].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: 15 – 16].

وقال جل ثناؤه: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: 50].

وقال سبحانه: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: 54].

وفي صحيح الترمذي عن أنس عن النبي ﷺ قال: [إذا أراد الله بعبده الخير عجلَ له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشرَّ أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة][4].

وفي صحيح أبي داود عن عائشة عن النبي ﷺ قال: [إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق، إنْ نَسِيَ ذكَّره، وإن ذكر أعانه، وإذا أراد به غيرَ ذلك جعلَ له وزيرَ سوء، إن نسيَ لم يذكِّره، وإن ذكر لم يُعِنْهُ][5].

---

(1) صحيح الجامع (1808).
(2) مختصر مسلم (1596).
(3) صحيح الجامع (307).
(4) السلسلة الصحيحة (1220).
(5) تخريج المشكاة (3707).

وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى ليُملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفلته][1].

* * *

(1) ورواه ابن ماجة والترمذي. صحيح الجامع (1818).

- 13 -

- بعض الآفاق العلمية في مفهوم الصفات[1] -

1 - **الحي القيوم**: قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: 255]. وقال سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: 58]. وقال: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد: 2].

إن الطعام الذي نأكله لا يسمع ولا يبصر ولا يتنفس ولا يتزوج ولا ينام ولا يستيقظ ولا يتحرك ولا ينمو، فإذا دخل جسمك أصبح حياً[2]، وكذلك طعام الحيوان، وكذلك مواد الماء والتراب والهواء التي يتغذى بها النبات لا تنمو ولا تثمر ولا تتنفس ولا تتغذى، فإذا دخلت جسم النبات تحولت إلى نباتات حية، ذاتِ بهجة، فهذه الحياة التي تدُبُّ في كل جِسْم، من نبات أو حيوان أو إنسان، في كل يوم، وفي كل لحظة، تشهد أنها من صُنع واهِب الحياة.

ولقد حاول الإنسان أن يخلق الحياة فباء بالفشل، وأعلن الباحثون في الشرق والغرب عجزهم عن خلق الحياة، وقد تحداهم الله سبحانه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ[3] مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 73 - 74].

2 - **العليم**: قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14].

لو تأملت أجنة الحيوانات سترى أن العُيون تُخلق في أرحام الأمهات حيث

---

(1) أفكار مستفادة من «كتاب الإيمان» قسم التوجيه والتربية الدينية - اليمن/ ط 1982.

(2) أي: يتصف بالصفات السابقة.

(3) الذباب بمجرد أخذه لشيء يصب عليه من لعابه، فيحوله من فوره شيئاً آخر لا يمكن استعادته.

الظلام الشديد ، مع أن العيون لا ترى إلا في الضوء ، فيشهد ذلك أن الذي يخلق العيون ، يعلم أن تلك الأجنة ستخرج إلى عالم فيه النور ، وهكذا يشهد خَلْقُ الأجنحة للطيور داخل البيض: أن الخالق يعلم أنها ستطير في الهواء ، فخلق لها الأجنحة قبل ولادتها ، . . . ، حتى جنين الشجرة (البذرة) يُهيئه الله بجزء يُكَوِّنُ الأوراق والأغصان ، وجُزءٍ يَضْرِبُ في الأرض لامتصاص الماء والتراب (الأملاح) ، ولا يكون ذلك ، إلا من صُنْعِ مَنْ يَعلم أن النبات سيحتاج إلى الماء ، والتراب ، والضوءِ ، والهواء.

وإذا رأيت الذُّكور تُخْلق ، فسترى أن الخالق قد عَلِمَ أعدادها ، فخلق لها من الإناث ما يُكافىء تلك الأعداد ، وسيشهد لك ذلك أنه من صُنع العليم سبحانه ، قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: 49].

والماء العذب إذا كان راكداً تعفَّن ، ولكن العليم بذلك جعل البحار مالحة ، وجعل مَوْجَها مُتحركاً ، حتى لا تَفْسُدَ الحياة على الأرض بعُفونة البحر.

وكل ما في الكون يشهد بأن الخالق لهذا الكون لا شك عليم محيط بكل شيء لا يدخل عليه نسيان ، وعِلْمه لم يسبقْه جهل ، قال تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: 12].

3 ـ **الحكيم**: قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 6].

فلو تأملت في صور المخلوقات ، وجدت أن كلَّ جِنْس يُحْكِمُهُ الخالق سبحانه على مثال واحد. ففي الإنسان: العينان في الوجه ، والأنْفُ بينهما ، واليدان في الجانبين ، والقدمان من أسفل. ولا تجد أن عَيْناً ، نَبَتَت لإنسان في ركبته ، أو يداً ظهرت في رأسه ، وهذا يشهد أنه من صُنْع الحكيم ، الذي أحكم خلق الإنسان. . . وكذلك كل جنس من الحيوان أو النبات ، قد أحكمه ربُّه ، على صورة ومثال واحد.

وإذا تأملت في الهواء الذي تتنفَّسُهُ ، سترى ، أنك تستهلك الهواء الصالح (الأكسجين) ، وتحوِّلهُ إلى هواء فاسد (ثاني أكسيد الكربون) ، ولكن مقدار الهواء الصالح لا ينقُص ، لأن الخالق ، أمر النبات ، أن يُعَوِّضَ الهواء الصالح ، بقدَرِ

مُحْكَمٍ ، بحيث تبقىٰ نِسْبةُ الهواء عند قدر مَعْلوم ، لا تزيد ولا تنقص ، ألا يشهد ذلك : أنه من صُنع العليم الحكيم؟!

وإذا نظرت إلى أنفك ، وجدته قد أُحكم ليتناسب مع وظيفته ، فالهواء يدخل من ثقبين بين العينين ، لكن العليم الحكيم غطَّى هذين الثقبين بالأنف ، وجعل النصف الأعلى من الأنف عظماً ، حتى لا تضغط الرياح على هذا الغطاء ، فيسُدُّ الثقبين ، فيمتنع التنفُّسُ ، كما يُشَارِكُ عظم الأنف في حِماية العينين. وفَتَحَ الأنف باستمرار لدخول الهواء ، إذْ لو كان الأنف كلُّهُ من عِظام لما تمكَّنا من إخراج المُخاط. وجعل الخالقُ جدارَ الأنف مائلاً لكي يَصْطدم الهواء بالجدار المائل ، فيردَّه إلى الحواجز الداخلية ، ليصْطدمَ بها ، فيلامسَ الهواءُ الداخِلُ المُخاطَ المُبَطِّنَ لجدار الأنف ، فتلتصق به الجراثيم ، والأتربة ، فيتصفَّى الهواء قبل دخوله . . . وفي الشتاء تتكاثر الدماء في الأنف ، فنراه مُحْمَرّاً ، وذلك لتدفِئة الهواء الداخل ، وفي الصيف يقوم الأنف بترطيب وتبريد الهواء الجاف ، أو الحار. كل ذلك يشهد أنه من صنع العليم الحكيم. وكذلك ما في السماوات وما في الأرض ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف : 84].

4 ـ **الخبير**: قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : 73].

تأمل في طعامك ، كيف خرج من تراب ، وماء واحد أنواعاً مختلفة الثمار والألوان: ستجد ذلك يشهد لك أنه من صُنع الخبير. وتأمل إلى هذا الطعام: كيف يُكَوِّنُ منه الخبير سبحانه لَحْماً ، ودماً ، وعظماً ، وشحماً ، ولبناً ، وجِلْداً ، وشعراً ، وأصابعَ ، وأظافِرَ ، وأعصابَ ، وسوائل مختلفة.

وتأمل إلى وجهك ، كيف يَخْرُج اللُّعابُ من الفم والمُخَاطُ من الأنف ، والدمعُ من العينين ، والشمع من الأذنين ، وكل هذه الإفرازات من طعام واحد!! فيشهد لك خَلْقُها أنها من صُنْع الخبير. وكيف يكون الحال لو خرجَ اللعاب من الأنف؟! والمخاط من الفم؟ والشمع من العين؟! والدمع من الأذن؟! فمن حدَّد التركيب؟ ومن حدَّد المكان؟ ألا هو العليم الخبير الحكيم.

والنطفة التي خُلِقَ الإنسان منها ، جعلها الخبير العليم الحكيم أعضاءَ متباينة ، وأجهزةً محكمة ، متعاونةً ، لخدمة الإنسان.

والسمك في البحر يحتاج إلى الهواء لتنفُّسه ، فأذاب له الخبير الرحيم الهواء ، مع قطرات المطر ، التي تنزل في البحر ، وأعدَّ السمك بِجِهاز خاص (الخياشيم) لتستخلص به ذلك الهواء الذائب في الماء.

كل ذلك التناسق وكل ما في هذا الكون يشهد أنه من صنع الخبير سبحانه.

5 ـ **الرزَّاق**: قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟[1] فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ [الملك: 21].

عندما كان الإنسان حبيساً في ظلمات الرحم ، ولا يستطيع بشر أن يَمُدَّه بشيء ، من ماءٍ ، أو غِذاء ، حتى الأب ، والأم التي هو في جوفها يتخلَّقُ ، لكنَّ رحمة ربه الرزاق ، ساقت له الرزق ناضجاً مهضوماً ، من أنبوبةٍ هي حَبْل السُّرَّةِ ، وعندما يخرج الطفل وينقطع حبل السُّرَّة ، يُخرجُ الرزاق غذاء ذلك الوليد من ثَدي أمه ، ويُلهمه استخراج ذلك الغِذاء ، (اللبن) بمص الثدي ، وهوَ بَعْدُ لا يبصر ، ولا يسمع ، ولا يعقل.

ثم يرزق الله العباد من النباتات ، والأشجار التي تصنع الطعام من الماء ، والتراب ، والهواء ، ويُسَخِّر الله الشمس للنبات ، لإتمام صُنْع الغِذاء الذي يحتاجُه الإنسان ، والحيوان ، وما كان للغذاء أن يُوفَّرَ ، لولا أن الله يَسوق الماء العذبَ ، ويهيِّىءُ التربة الصالحة للزراعة ، ويوجد الجَوَّ ، والظروف المناسبة ، لإنتاج الغذاء من النباتات ، قال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا[2] ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا[3] ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا[4] ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [عبس: 24 - 32].

---

(1) تمادوا في استكبار وعناد.

(2) قضباً: علفاً رطباً للدواب.

(3) غلباً: بساتين عظيمة متكاثفة الأشجار.

(4) أبا: كلأ وعشباً.

فإذا أكل الإنسان ، أو الحيوانُ الطعامَ ، وتمَّ هَضْمه بما خلق الله لكل كائن من أجهزة هضم ، ساقه الرزاق إلى كل نقطة في جسم الكائن الحي سواءً كانت في وَسَط المُخِّ ، أو على سطح الجِلد ، أو مُخِّ العِظام. . .

لقد ساق الرزاق سبحانه رِزْق بعض الأسماك إلى أعماق البحار ، وساق رِزْقَ بعض الدود إلى جوف الصَّخر ، وساق رزق الأجنَّة إلى ظلمات الأرحام ، وساق رزق جنين النبات ، إلى جوف البَذْرة. . . قال تعالى: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: 6]. وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: 3]. ومن ثم فمن أيقن أن رِزقه موهوب له من خالِقه ، فلن يقدر أحدٌ على سلبه رزقَه ولن يخشى على رزقِه أحداً غيرَ الله.

6 ـ **الهادي**: قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: 2 - 3].

إذا تأملت في أهداب الجَفْن الأعلى في العين ، وجدتها تنحني إلى أعلى ، وأهدابِ الجَفْن الأسفل ، تنحني إلى أسفل ، ولو انعكس الأمر لتشوَّش رُؤية العين. . فمن هدى ويهدي كل شَعْرة في كل جَفْن ، من إنسان أو حيوان ، إلا الهادي سبحانه؟!

من الذي يهدي أسنان الفَكِّ الأسفل أن تتجهَ إلى أعلى ، وأسنان الفك الأعلى أن تتجه إلى أسفل؟ من الذي هدى الأنياب أن تنمو فوق الأنياب؟ والأسنان فوق الأسنان؟ والأضراس (المطاحن) فوق الأضراس؟

من يهدي كُلَّ عضو في كُلِّ جِسم ، مِن نباتٍ أو حيوان أو إنسان إلى أن يأخذ مكانه الصحيح ، بين باقي الأعضاء ، وأن ينمو بالقدر المناسب لباقي الأجزاء؟!.

ومن الذي يَهْدي البَذْرَةَ (الحبَّة) ، وهي تشق التربة عند نُموها أن ترسل العروق (الجذور) إلى أسفل ، والساق والأوراق إلى أعلى؟! ولماذا لم نجد بذرة واحدة ينعكس الأمر فيها؟!.

ثم من يهدي أوراق الشجر إلى التوزع على الساق ، أو الأغصان ، فإذا خرجت الورقة الأولى من جهة ، خرجت الثانية من جهة أخرى؟!.

من الذي يهدي الشمس ، والقمر ، والنجوم في حركاتها ، ويهدي الطيور الرحالة إلى بُلدانها البعيدة؟! .

ألا هو الهادي ﴿[illegible]قَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ والذي يَهْدي الشَّعْرَةَ ، والبَذْرَةَ والورقة ، وأكمل هدايته للإنسان فأرسل له الرسل وأبان له الهُدى .

ومن أيقن أن الله هو الهادي الحكيم فلن يقبل أيَّ فِكرة تُعارض هدى الله ، شِعاره قول الله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام : 71] .

7 ـ **الحافظ** : حفظ الله الجنين في بطن أمه من الأخطار ، كما حفظ المخَّ الضعيف بقفص قوي من عظام الجمجمة ، كما حمى العين بعظام الحاجب والأنف والوَجنة ، وحمى القلب والرئتين بالقفص الصدري .

فالله ـ وحده ـ يحفظ حياتك وييسر لك أسبابها : من طعام ، وماء ، وهواء ، وضوء ، وحرارة وغيرها .

إنه ـ سبحانه ـ لم يكلِّفْكَ بإدخال الهواء إلى جسمك ، أو إخراجه في نومك أو يقظتك ، ولو كلَّفك ذلك لما تمكنت أن تعمل شيئاً ، غير إدخال الهواء وإخراجه ، فإن غلبك النوم ، انقطع عنك الهواء ويأتيك الموت .

إن الحافظ هو الذي يسوق السحب فوق رأسك ، فلا يُنْزِلُها سيولاً تَصُبُّ ، فتهلك الحَرْث والنَّسْل .

إن الحافظ سبحانه هو الذي أحاط الأرض بغلافٍ من الهواء يمنع الأشعة الكونية القاتلة القادمة من الشمس والنجوم ، من أن تُهلِكَ الحياة والأحياء ، وهو الذي جعل غلاف الهواء دِرْعاً واقياً من تدمير الشُّهب ، والنيازك التي تسقط على الأرض بالملايين ، كلَّ يوم وليلة ، وهو الذي ثبَّتَ الأرض ، من أن تميدَ تحت أقدامنا بالجبال الراسيات!!

أفلا نشكر للمولى سبحانه : أن حفظنا من داخلنا ، ومن فوقنا ، ومن تحتنا ، قال تعالى : ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ[1] مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد : 11] .

---

(1) ملائكة تتعاقب على حفظه في الليل والنهار .

ومن ثم فمن أيقن أن الله حافِظُه ، فلا يضرُّهُ من في السماوات والأرض إلا بما قدَّر الله له ، شعاره قولُ الله : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة : 51].

8 ـ **الرحمن الرحيم** : إذا تأملت إلى حنان الأم ، ورحمتها بابنها ، سواء كانت امرأة ، أم أنثى حيوان ، وجدت التضحية البالغة تظهر لك ، حتى إن الدجاجة التي تخاف من صوت الطفل تَنْتَفِشُ ، وتهاجم من أراد فِرَاخَها بسوء .

إن تلك الرحمة التي تُحمىٰ بها صِغارُ المخلوقات تشهد أنها من صنع الرحيم الرحمن .

9 ـ **المصور** : إذا تأملت إلى الطعام الواحد ، تأكله الأسرة ، فيتكون في جسم الرجل رجلاً ، وفي جسم المرأة امرأة وفي جسم الطفل طفلاً . . . فإذا أكله الهِرُّ تحوَّلَ إلى جسم هِر ، وإن أكله الفأر ، أو الكلب ، كان فأراً ، أو كلباً ، مع أنه نفسُ الطعام . . . فسبحان المصور الذي يُصور كيف يشاء .

10 ـ **القوي المهيمن** : إذا تأملت إلى ضخامة المخلوقات : كالنجوم التي هي أكبر من أرضنا بملايين ملايين المرات ، وتأملت إلى أدق المخلوقات التي تجتمع الملايين منها في قطرة ماء ، وسألت نفسك : كيف خضعت كل هذه المخلوقات لسيطرة واحدة ، ونظامٍ مُحكم دقيق؟! عندئذ ستجد الإجابة : بأن هذا من صنع القوي المهيمن سبحانه وتعالى .

11 ـ **الواحد الأحد** : ويقدِّمُ الوجود كلُّه شهادةً بأنه من صُنع الواحد الأحد .

فأنت ترى أن غِذَاءك يتوقف على عمل المَعِدَة ، والأمعاء ، ويقول الأطباء : إن عمل الأمعاء يتوقَّفُ على عمل الدماء ، ويتوقف دوْرُ الدماء على الهواء وحركة التنفس ، ويتوقف الهواء الصالح للتنفس على عمل النباتات ويتوقف عمل النباتات على وجود الشمس ، ووجود الشمس يتوقف على وجود الكواكب المحيطة بها والنجوم الأخرى . . . وهكذا نجد : أن كل شيء يعتمد في وجوده وعمله على غيره من الأشياء وذلك يشهد أن الجميع من صُنْع ربٍّ واحد ، قال تعالى : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون : 91].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[1] [الإخلاص: 1-4].

ولو كان هناك إلهٌ غيرُ الله لحدث الصراع بينهم على تسيير هذه المخلوقات وعندئذ يَدُبُّ الفسادُ إلى الأرض والسماء، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 22].

* * *

(1) أحد: لا معبود سواه ولا رب غيره. الصمد: الغني الذي يقصد في الحوائج ولا يحتاج إلى أحد.

- 14 -

- توحيد التشريع -

هذا هو القسم الرابع من أقسام التوحيد. فالتوحيد أربعة أقسام كما ذكر أهل العلم:

1 - توحيد الربوبية.

2 - توحيد الألوهية.

3 - توحيد الأسماء والصفات.

4 - توحيد التشريع.

ولا يكتمل إيمان عبد حتى يؤمن بهذه المفاهيم الشاملة لمفهوم توحيد الله عز وجل، ويعمل بمقتضاها وبلوازمها، ويقيم أركانها وقواعدها في قلبه وعقله ونفسه وجوارحه وواقع حياته.

لقد قال الله في سورة الأعراف: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 54].

فليس من حقِّ أحد أن يضع قوانين وتشريعات للإنسان إلا الخالق سبحانه، ومن ثم فمن جعل من نفسه أو من غيره مشرعاً لقوانين وأنظمة لم يأذن بها الله فقد أشرك بالله، ودعا إلى عبادة غير الله. قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ﴾ [الشورى: 21]. وتفصيل ذلك:

أولا: الحكم عبادة:

قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ﴾ [يوسف: 40].

قال أبو العالية: (أسَّسَ الدين على الإخلاص لله وحده لا شريك له)(1).

وقال الحافظ ابن كثير: (أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله لله، وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه)(2).

أخرج الدارمي بسند صحيح عن زياد بن حُدَيْر قال: [قال لي عمر: هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قال: قلت: لا. قال: يهدمه زلَّةُ العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحكم الأئمة المضلين](3).

ثانياً: نفي الإيمان عن المعرضين عن التحاكم لمنهج الله وشرعه:

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65].

قال ابن جرير: (فليس الأمر كما يزعمون: أنهم يؤمنون بما أنزل إليك، وهم يتحاكمون إلى الطاغوت، ويصدون عنك إذا دعوا إليك يا محمد... يقول: حتى يجعلوك حكماً بينهم فيما اختلط بينهم من أمورهم، فالتبس عليهم حكمه)(4).

فالمؤمن يستسلم لحكم الله، ويَخْضَع لشريعته بنفس راضية وإلا دخل تحت وعيد الآية.

ففي الصحيحين عن عروة بن الزبير أن عبد الله بن الزبير حدثه: [أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير عند رسول الله ﷺ في شِراج الحرَّة التي يسقون بها النخل، فقال الأنصاري: سرِّح الماء يمر فأبىٰ عليه، فاختصما عند رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: اسْقِ يا زُبير ثم أرسل الماء إلى جارك. فغضب الأنصاري فقال: يا رسول الله! أَنْ كان ابنَ عمتك؟ فتلون وجهُ رسول الله ﷺ ثم قال: يا زُبير، اسقِ. ثم احبس الماء حتى يرجعَ إلى الجَدْر. قال: فقال الزبير: والله إني لأحْسِبُ هذه الآية نزلت في ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا

---

(1) تفسير الطبري. سورة يوسف. آية: 40.
(2) تفسير القرآن العظيم. سورة يوسف آية: 40.
(3) سنن الدارمي (71/1). قال الألباني: وسنده صحيح. تخريج المشكاة (269/1).
(4) تفسير الطبري. سورة النساء آية: 65.

﴿يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾][1] .

ثالثاً : ترك الحكام التحاكم لشرع الله هو عقوبة الله للأمة عند استهتارها :

قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الأنعام : 129] .

قال قتادة : (وإنما يولي الله بين الناس بأعمالهم ، فالمؤمن ولي المؤمن أين كان وحيث كان ، والكافر ولي الكافر أينما كان وحيثما كان. ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي)[2] .

وفي المسند ومعجم الطبراني بسند صحيح عن عابس الغفاري عن النبي ﷺ قال : [بادروا بالأعمال ستاً : إمارةَ السفهاء ، وكثرةَ الشُّرَط ، وبيعَ الحُكم ، واستخفافاً بالدم ، وقطيعةَ الرحم ، ونشواً يتخذون القرآن مزاميرَ ، يقدمون أحدَهم ليغنّيَهُم ، وإن كان أقلَّهم فِقْهاً] وصححه الألباني[3] .

رابعاً : الحكم بغير ما أنزل الله سبب إلى الفقر .

ففي معجم الطبراني بسند حسن عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : [خمسٌ بخمس : ما نقض قومٌ العهدَ إلا سُلِّطَ عليهم عدُوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، ولا ظهرت فيهمُ الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طفَّفُوا المِكيال إلا مُنعِوا النبات ، وأُخذوا بالسنين ، ولا منعوا الزكاة إلا حُبِسَ عنهم القَطر][4] .

خامساً : الحكم بغير ما أنزل الله يتراوح بين الكفر والظلم والفسق .

قال تعالى : ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة : 44] .

﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة : 45] .

---

(1) الشراج : جمع شرجة وهي مسايل الماء . والحرة : أرض ذات حجارة سود . (سرح الماء) : أي أطلقه بعد احتباسه (الجدر) الجدار . قيل المراد ما رفع حول المزرعة كالجدار ، أو قيل أصول الشجر . صحيح ابن ماجه 15 .

(2) تفسير الطبري . سورة الأنعام . آية : (129) .

(3) السلسلة الصحيحة (978) .

(4) صحيح الجامع (3235) .

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: 47].

وعن الشعبي قال: (نزلت الأولى في المسلمين، والثانية في اليهود، والثالثة في النصارى).

التأويل الأول: كفر دون كفر:

فعن عطاء قال: (كفر دون كفر، وفسق دون فسق، وظلم دون ظلم).

وعن طاووس قال: (ليس بكفر ينقل عن الملة). وذكر عن ابن عباس قوله: (هي به كفر، وليس كفراً بالله وملائكته وكتبه ورسله). وفي رواية: (إذا فعل ذلك فهو به كفر، وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر، وبكذا وكذا)[1].

التأويل الثاني: كفر أكبر:

قال السدي: (يقول: ومن لم يحكم بما أنزلتُ، فتركه عمداً وجار وهو يعلم، فهو من الكافرين).

وقال ابن عباس: (من جحد ما أنزل الله فقد كفر، ومن أقرَّ به ولم يحكم، فهو ظالم فاسق)[1].

ووجه الجمع بين التأويلين أن الجحود والاستهزاء بحكم الله كفر أكبر، وأما الإيمان به وتركه ضعفاً وتأولاً أو شبهة فهو كفر دون كفر والله تعالى أعلم.

قال الشيخ محمد بن إبراهيم في رسالته تحكيم القوانين: (إن من الكفر الأكبر المستبين، تنزيل القانون اللعين منزلةَ ما نزل به الروح الأمين، على قلب محمد ﷺ ليكون من المنذرين، ... وتأمل ما في الآية.. ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ كيف ذكر النكِرة وهي قوله ﴿ شَىْءٍ ﴾ في سياق الشَرْط... ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ ﴾ المفيدِ للعموم، فيما يُتصور التنازعُ فيه جِنْساً وقدْراً، ثم تأمل كيف جعل ذلك شرطاً في حصول الإيمان بالله واليوم الآخر... ثمَ قال جل شأنه: ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ فشيء يُطلق الله عليه أنه خيرٌ، لا يتطرَّق إليه شر أبداً... ثم قال: ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أي: عاقبة في الدنيا والآخرة.

وقد نفى الله الإيمان عن من أراد التحاكم إلى غير ما جاء به الرسول ﷺ من

---

(1) تفسير الطبري. المائدة الآيات: 44 - 47.

المنافقين ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ فإن قوله عز وجل : ﴿ يَزْعُمُونَ ﴾ تكذيب لهم فيما ادعوه من الإيمان ، فإنه لا يجتمع التحاكم إلى غير ما جاء به النبي ﷺ مع الإيمان في قلب عبْد أصلاً ، بل أحدهما ينافي الآخر ، والطاغوت مشتق من الطغيان ، وهو : مجاوزة الحدِّ . . . وتأمل قوله عز وجل ﴿ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ ﴾ تعرف منه معاندة القوانين ، وإراداتهم خلاف مراد الله منهم . . فالمراد منهم شرعاً والذي تُعُبِّدوا به هو : الكفر بالطاغوت لا تحكيمه . . . ثم قال : وقد قال عزَّ شأنه . . . مخاطباً نبيه محمداً ﷺ : ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ .

وقال تعالى مخيراً نبيَّه محمداً ﷺ ، بين الحُكم بين اليهود والإعراض عنهم إن جاؤوه لذلك : ﴿ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ والقسط : هو العدل . ولا عَدْل حقاً إلا حكم الله ورسوله ، والحكم بخلافه هو الجورُ ، والظلمُ والضلالُ والكفرُ ، والفسوق ، ولهذا قال تعالى بعد ذلك : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ .

فانظر كيف سجَّل تعالى على الحاكمين بغير ما أنزل الله الكفر والظلم والفسوق ، ومن الممتنع أن يُسمِّيَ الله سبحانه الحاكم بغير ما أنزل الله كافراً ولا يكون كافراً ، بل هو كافر مطلقاً ، إما كفرُ عملٍ وإما كفر اعتقاد ، وما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية من رواية طاووس وغيره يدل أن الحاكم بغير ما أنزل الله كافر إما كفرُ اعتقاد ناقلٌ عن الملة ، وإما كفر عمل لا ينقل عن الملة ، أما الأول ، وهو كفر الاعتقاد فهو أنواع :

أحدها : أن يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله أحقيَّةَ حكم الله ورسوله ، وهو معنى ما رُوي عن ابن عباس ، واختاره ابنُ جرير أن ذلك هو جحودُ ما أنزل الله من الحكم

الشرعي وهذا لا نزاعَ فيه بين أهل العلم ، فإن الأصول المتقررة المتفقَ عليها بينهم أنَّ من جَحَد أصلاً من أصول الدين أو فَرْعاً مُجْمعاً عليه ، أو أنكر حرفاً مما جاء به الرسول ﷺ قطعياً ، فإنه كافر الكفرَ الناقل عن الملة .

الثاني : أن لا يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله كونَ حكم الله ورسوله حقاً ، لكن اعتقد أن حكم غير الرسول ﷺ أحسنُ من حكمه ، وأتمُّ وأشملُ لما يحتاجه الناس من الحكم بينهم عند التنازع ، إما مطلقاً أو بالنسبة إلى ما استجد من الحوادث التي نشأت عن تطور الزمان وتغير الأحوال ، وهذا أيضاً لا ريب أنه كفرٌ ، لتفضيله أحكام المخلوقين التي هي محضُ زبالةِ الأذهان ، وصِرْفُ حُثالة الأفكار ، على حكم الحكيم الحميد .

وحكم الله ورسوله لا يختلف في ذاته باختلاف الأزمان ، وتطور الأحوال ، وتجدد الحوادث ، فإنه ما من قضية كائنة ما كانت إلا وحكمها في كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ ، نصاً أو ظاهراً أو استنباطاً أو غير ذلك ، عَلِمَ ذلك من علمه وجَهِلَه من جهله ، وليس معنى ما ذكره العلماء من تغيُّر الفتوى بتغير الأحوال ما ظنه من قلَّ نصيبُهم أو عدم من معرفة مدارك الأحكام وعِلَلها ، حيث ظنوا أنَّ معنىٰ ذلك بحسب ما يلائم إراداتهم الشهوانية البهيمية ، وأغراضهم الدنيوية وتصوراتهم ، . . . ـ بل ـ مراد العلماء منه : ما كان مُسْتَصْحَبُه فيه الأصول الشرعية ، والعلل المرعية ، والمصالحَ التي جِنْسُها مرادٌ لله تعالى ، ورسوله ﷺ .

الثالث : أن لا يعتقد كونَه أحسنَ من حكم الله ورسوله ، لكن اعتقد أنه مثله ، فهذا كالنوعين اللذين قبله ، في كونه كفراً الكفرَ الناقل عن الملة ، لما يقتضيه ذلك من تسوية المخلوق بالخالق ، والمناقضةِ والمعاندة لقوله عز وجل : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ ونحوها من الآيات الكريمة ، الدالة على تفرد الرب بالكمال ، وتنزيهه عن مماثلة المخلوقين ، في الذات والصفات والأفعال ، والحكم بين الناس فيما يتنازعون فيه .

الرابع : أن لا يعتقد كونَ حُكْمِ الحاكم بغير ما أنزل الله مماثلاً لحكم الله ورسوله ، فضلاً عن أن يعتقد كونه أحسنَ منه ، لكن اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله ، فهذا كالذي قبله يَصْدقُ عليه ما يصدُق عليه ، لاعتقاده جوازَ

ما علم بالنصوص الصحيحة الصريحة القاطعة تحريمُه.

الخامس: وهو أعظمها وأشملها وأظهرُها معاندة للشرع، ومكابرة لأحكامه، ومشاقة لله ولرسوله، ومضاهاة بالمحاكم الشرعية، إعداداً وإمداداً وإرصاداً وتأصيلاً، وتفريعاً وتشكيلاً وتنويعاً وحكماً وإلزاماً، ومراجع ومستندات. فكما أنَّ للمحاكم الشرعية مراجعَ مستمدات، مرجعها كلها إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فلهذه المحاكم مراجعٌ، هي: القانون الملفَّقُ من شرائع شتىٰ، وقوانينَ كثيرة، كالقانون الفرنسي، والقانون الأمريكي، والقانون البريطاني، وغيرها من القوانين، ومن مذاهب بعض البدعيين المنتسبين إلى الشريعة وغير ذلك.

فهذه المحاكم الآن في كثير من أمصار الإسلام مهيأة مكملة، مفتوحة الأبواب، والناس إليها أسراب إثْرَ أسراب، يحكم حكامُها بينهم بما يخالف حُكْمَ السنة والكتاب، من أحكام ذلك القانون، وتلزمهم به، وتقرهم عليه، وتحتِّمُهُ عليهم. فأي كفر فوق هذا الكفر، وأي مناقضة للشهادة بأن محمداً رسولُ الله بعد هذه المناقضة.

ثم قال: فكما لا يسجد الخلق إلا لله، ولا يعبدون إلا إياه، ولا يعبدون المخلوق، فكذلك يجب أن لا يرضخوا ولا يخضعوا أو ينقادوا إلا لحكم العليم الحميد، الرؤوف الرحيم، دون حكم المخلوق، الظلوم الجهول، الذي أهلكته الشكوكُ والشهوات والشبهات، واستولت على قلوبهم الغفلة والقسوة والظلمات.

السادس: ما يحكم به كثير من رؤساء العشائر، والقبائل من البوادي ونحوهم، من حكايات آبائهم وأجدادهم، وعاداتهم التي يسمونها «سلومهم» يتوارثون ذلك منهم، ويحكمون به ويحصلون على التحاكم إليه عند النزاع، بقاء على أحكام الجاهلية، وإعراضاً ورغبة عن حكم الله ورسوله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وأما القسم الثاني من قسمي كُفْر الحاكم بغير ما أنزل الله، وهو الذي لا يُخْرج من الملة، فقد تقدم أن تفسير ابن عباس ـ للآية ـ قد شمل ذلك القسم: (كفر دون

كفر) وقوله أيضاً (ليس بالكفر الذي تذهبون إليه). وذلك أن تحمله شهوته وهواه على الحكم في القضية ، بغير ما أنزل الله ، مع اعتقاده أن حكم الله ورسوله هو الحق ، واعترافه على نفسه بالخطأ ، ومجانبة الهدىٰ. وهذا وإن لم يخرجْهُ كفره عن الملة ، فإنه معصيةٌ عظمىٰ أكبر من الكبائر ، كالزنا وشرب الخمر ، والسرقة واليمين الغموس ، وغيرها ، فإن معصية سماها الله في كتابه: كفراً ، أعظم من معصية لم يسمها كفراً)[1].

* * *

(1) ملخص فتوى العلامة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ المتوفى سنة 1389 هـ.

-15-

ـ حماية الوحي جناب التوحيد وسد كل ذرائع الشرك ـ

لقد نهى الله ورسوله عن أمور كثيرة وبالغ في التحذير منها لكونها ذرائع وطرقاً قد تؤدي إلى الوقوع في الذنب العظيم وهو الشرك بالله ، فإلى تفصيل هذه الأمور :

1 ـ النهي عن الشرك بالله والتحذير من سوء عاقبته :

قال الله في سورة النساء : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء : 48].

قال الحافظ ابن كثير في التفسير : (أي لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك ﴿ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ أي : من الذنوب لمن يشاء من عباده).

والشرك تشبيه للمخلوق بالخالق تعالى وتقدس في خصائص الإلهية : من ملك الضر والنفع ، والعطاء والمنع ، الذي يوجب تعلق الدعاء ، والخوف والرجاء والتوكل وكل أنواع العبادة بالله وحده ، فأقبح التشبيه تشبيه العاجز الفقير بالذات : بالقادر الغني بالذات.

وفي الصحيحين عن معاذ قال : [كنت رُدْفَ رسول الله ﷺ على حمار ليس بيني وبينه إلا مُؤخرة الرحل فقال : يا معاذ! هل تدري ما حق الله على عباده ؟ وما حق العباد على الله؟ قلت : الله ورسوله أعلم! قال : فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً. فقلت : يا رسول الله ! أفلا أبشر به الناس؟ قال : لا تبشرهم فيتكلوا][1].

---

(1) البخاري (300/13) في التوحيد ، ومسلم 30 في الإيمان.

وفي المسند وصحيح البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: [من مات وهو يدعو من دون الله نِدّاً دخل النار][1].

قال ابن القيم: (النـد: الشبيـه، يقال: فلان نـد فلان، ونديـده، أي: مثلـه وشبيهه).

وقال:

والشـرك فـاحـذره، فشـرك ظـاهـر ذا القسـم ليـس بقـابـل الغفـران
وهـو اتخـاذ النـد للـرحمـن أيّـاً كـان، مـن حجـر ومـن إنسـان
يـدعـوه، أو يـرجـوه، ثـم يخـافـه ويحبـه كمحبـة الـديـان[2]

فالحديث يشمل:

أ ـ كل من يجعل لله نـداً في العبادة، يدعوه ويسألـه ويستغيث بـه. وهذا شرك أكبر.

ب ـ ما كان من نوع الشرك الأصغر كقول الرجل: ما شاء الله وشئت، ولولا الله وأنت، وكيسير الرياء.

قال النووي: (أما دخول المشرك النار فهو على عمومه، فيدخلها ويخلد فيها. ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عناداً وغيره، ولا بين من خالف ملة الإسلام وبين من انتسب إليها ثم حكم بكفره بجحده وغير ذلك. وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوعٌ له به. لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مصراً عليها دخل الجنة أولاً، وإن كان صاحب كبيرة مات مصراً عليها فهو تحت المشيئة. فإن عفا الله عنه دخل الجنة أولاً: وإلا عُذب في النار، ثم أخرج من النار وأدخل الجنة)[3].

قلت: ولذلك كان أول ما يدعو إليه المسلم الناس كلمة التوحيد ويعرفهم بعلومها ولوازمها، ويحذرهم من مغبة الشرك بها.

ففي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما: [أن رسول الله ﷺ لما بعث

---

(1) البخاري (132/8) في تفسير سورة البقرة، وأحمد (462/1 و464).
(2) فتح المجيد (83 و 84).
(3) فتح المجيد (85).

معاذاً إلى اليمن قال له: إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب ، فليكن أوَّل ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله (وفي رواية: إلى أن يوحِّدوا الله) ، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمسَ صلواتٍ في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حِجاب][1] .

قال شيخ الإسلام: (وقد عُلِمَ بالاضطرار من دين الرسول ﷺ واتفقت عليه الأمة أن أصل الإسلام وأول ما يؤمر به الخلق: شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فبذلك يصير الكافر مسلماً والعدوّ ولياً ، والمباح دمه وماله معصوم الدم والمال. ثم إن كان ذلك من قلبه فقد دخل في الإيمان ، وإن قاله بلسانه دون قلبه فهو في ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان. قال: وأما إذا لم يتكلم بها مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين باطناً وظاهراً ، عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير العلماء)[2] .

ومن ثمَّ فإن أحسن العمل عند الله هو القيام بلا إله إلا الله ودعوة الخلق إليها ، كما قال تعالى في سورة فصلت: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33]. قال الحسن البصري لما تلاها: (هذا حبيب الله ، هذا وليُّ الله ، هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا أحب أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله في دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته ، وعمل صالحاً في إجابته. وقال إنني من المسلمين).

2 ـ النهي عن انتقاص صفات الله أو الخوض بها بغير علم أو جحود شيء من الأسماء والصفات:

قال الله في سورة الروم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: 27].

(1) البخاري (255/3) في الزكاة ، ومسلم (19) في الإيمان.
(2) فتح المجيد (91 - 92).

وقال في سورة الشورى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: 11].

وقال في سورة الإخلاص: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالى: شتمني ابن آدم، وما ينبغي له أن يشتمني، وكذبني وما ينبغي له أن يُكذبني، أما شتمه إياي فقوله: إن لي ولداً، وأنا الله الأحد الصمد لم ألِدْ ولم أولَدْ ولم يكن لي كفواً أحد، وأما تكذيبه إياي فقوله: ليس يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته](1).

وقد جحد مشركو قريش فيما مضى اسم (الرحمن) عناداً فأنزل الله في سورة الإسراء: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ ﴾ [الإسراء: 110]. و(الرحمن) اسمه وصفته، ويدل على أن الرحمة صفته سبحانه، وهي من صفات الكمال. وقد تصدى العلماء فيما مضى لجهَمْ بن صفوان ومن تبعه حين زعموا أن هذه الأسماء لا تدل على صفة قائمة بالله تعالى وتبعهم على ذلك طوائف من المعتزلة والأشاعرة، فكفَّرهم كثيرون من أهل السنة.

قال ابن القيم رحمه الله:

ولقد تقلَّد كفرهم خمسون في ... عشر من العلماء في البلدان
واللاَّلكائيّ الإمام حكاه عنـ ... ـهم بل حكاه قبله الطبراني

وهؤلاء الجهمية ومن وافقهم على التعطيل جحدوا ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله، وبنوا هذا التعطيل على أصل باطل أصَّلوه من عند أنفسهم، فقالوا: هذه الصفات هي صفات الأجسام. فيلزم من إثباتها أن يكون الله جسماً. فهذا منشأ ضلال عقولهم إذ لم تتسع لتوحيد الله في صفات تليق بجلاله لا تشبه صفات المخلوقين، فشبهوا الله في ابتداء آرائهم الفاسدة بخلقه، ثم عطلوه عن صفات كماله، وشبهوه بالناقصات والجمادات

---

(1) قد مضى تخريجه.

والمعدومات. فشبهوا أولاً ، وعطلوا ثانياً ، وشبهوه ثالثاً بكل ناقص ومعدوم. وتركوا ما وصف الله به نفسه في الوحيين: الكتاب والسنة الصحيحة وأثبته لنفسه من الأسماء والنعوت إثباتاً بلا تمثيل ، وتنزيهاً بلا تعطيل.

وروى عبد الرزاق بإسناد صحيح عن معمر عن ابن طاووس ، عن أبيه ، عن ابن عباس: [أنه رأى رجلاً انتفض ـ لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات ، استنكاراً لذلك ـ فقال ما فَرَقُ هؤلاء؟ يجدون رِقَّة عند مُحكمه ، ويهلكون عند متشابهه][1].

يشير إلى أناس يحضرون مجلسه من عامة الناس ، فإذا سمعوا شيئاً من محكم القرآن ونحوه حصل معهم فَرَق أي: خوف ، فإذا سمعوا شيئاً من أحاديث الصفات انتفضوا كالمنكرين له ، فلم يحصل منهم الإيمان الواجب الذي أوجبه الله تعالى على عباده المؤمنين. ذكره صاحب فتح المجيد ثم قال: قال الذهبي: (حدث وكيع عن إسرائيل بحديث: إذا جلس الرب على الكرسي ، فاقشعر رجل عند وكيع ، فغضب وكيع ، وقال: «أدركنا الأعمش وسفيان يحدثون بهذه الأحاديث ولا ينكرونها» أخرجه عبد الله بن أحمد في كتاب «الرد على الجهمية»)[2].

وربما كان حال هؤلاء الذين وجدوا في صدورهم حرجاً من تلقي هذه الصفات عن الله بالقبول كحال من قال الله فيهم: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ [البقرة: 85].

يروي ابن جرير عن قتادة: (﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ ﴾ قال: فلما كتب الكاتب ـ يعني يوم الحديبية ـ «بسم الله الرحمن الرحيم» قالت قريش: أما الرحمن لا نعرفه ـ وكان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم ـ فقال أصحابه: دعنا نقاتلهم. قال: لا ، ولكن اكتبوا كما يريدون)[3].

وعن مجاهد: (قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَـٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ

(1) إسناده صحيح. تحقيق فتح المجيد (483).
(2) فتح المجيد (485).
(3) تفسير الطبري. سورة الرعد 30.

مَتَابِ﴾ . قال: هذا ما كاتب عليه رسول الله ﷺ قريشاً في الحديبية ، كتب «بسم الله الرحمن الرحيم» فقالوا: لا نكتب الرحمن ، ولا ندري ما الرحمن؟ ولا نكتب إلا باسمك اللهم. قال الله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ﴾ الآية)(1).

وعن ابن عباس قال: (كان رسول الله ﷺ يدعو ساجداً: يا رحمن يا رحيم. فقال المشركون: هذا يزعم أنه يدعو واحداً ، وهو يدعو مثنى مثنى. فأنزل الله: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء: 110])(2).

3ـ النهي عن التحاكم لغير الله:

قال الله في سورة التوبة: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: 31].

وفي جامع الترمذي بسند صحيح: [أن النبي ﷺ تلا هذه الآية على عدي بن حاتم الطائي ، فقال: يا رسول الله ، لسنا نعبدهم. قال: أليس يُحلّون لكم ما حرم الله فتحلونه ، ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟ قال: بلى. قال النبي ﷺ: فتلك عبادتهم](3).

وفي سورة المائدة: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: 50].

وقد ذكر الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾: (قل يا محمد للمشركين الذين عبدوا غير الله ﴿ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ من الأصنام والأنداد ، وارغبوا إليهم ، فإنهم لا يملكون كشف الضر عنكم أي بالكلية ﴿ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ أي ولا أن يحولوه إلى غيركم).

---

(1) المرجع السابق.
(2) المرجع السابق. الإسراء 110.
(3) رواه الترمذي (3094) في التفسير ، ويتقوىٰ بما أخرجه الطبري رقم (16634) عن حذيفة موقوفاً. انظر فتح المجيد (107).

قال ابن عباس: (كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيراً. وهم الذين يدعون: يعني الملائكة والمسيح وعزيراً).

قلت: والتحاكم إلى كل منهاج مخالف لمنهاج الله وشريعته داخل في هذا التحريم، فإن دين الله فيه حكم لكل مسألة أو مشكلة، ومن ثم فالنزول عند الأهواء عند التحاكم داخل في مفهوم الحكم بغير ما أنزل الله الذي نعت أصحابه بالكفر والظلم والفسق.

ففي صحيح مسلم عن أبي مالك الأشجعي عن أبيه عن النبي ﷺ أنه قال: [من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، حَرُم ماله ودمه، وحسابه على الله عز وجل][1].

وفي التنزيل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ[2] وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: 60 - 61]. قال الإمام مالك: (الطاغوت: ما عبد من دون الله). وقال ابن القيم: (هذا دليل على أن من دعي إلى تحكيم الكتاب والسنة فأبى أنه من المنافقين).

4 ـ **النهي عن تعليق التمائم والخيوط بدعوى رفع البلاء:**

فإن هذا من أبواب الشرك، فالله وحده هو القادر على دفع الضر والمصائب ورفع البلاء. فهو الذي أنزله بعدله وهو إذا شاء يرفعه. قال في سورة الزمر: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

قال مقاتل في التفسير: (فسألهم النبي ﷺ فسكتوا، أي: لأنهم لا يعتقدون ذلك فيها).

---

(1) قد مضىٰ تخريجه في بحث شهادة أن لا إله إلا الله.

(2) قال الحافظ ابن كثير: (والآية ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت ها هنا).

وإنما كانوا يدعونها على أنها وسائط وشفعاء عند الله بزعمهم ، فأبطلها النبي ﷺ.

فقد أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن عِمران بن حُصين رضي الله عنه : [أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حلقة من صفر ، فقال : ما هذا؟ قال : من الواهنة . فقال : انزِعها ، فإنها لا تزيدك إلا وهناً ، فإنك لو مِتَّ وهي عليك ما أفلحت أبداً][1] .

والواهنة عرق يأخذ في المنكب وفي اليد ، وقيل مرض يأخذ في العضد ، يصيبُ الرجال دون النساء ، يُرقى منه عادة ، فنهاه النبي ﷺ عن اتخاذ تلك الحلقة فإنها لا تنفعه بل تضره وتزيده ضعفاً بإذن الله .

وفي المسند أيضاً بسند جيد عن عقبة بن عامر مرفوعاً : [من تعلق تميمة[2] فلا أتم الله له[3] . ومن تعلق ودعة فلا وَدَعَ الله له] . وفي رواية : [من تعلق تميمة فقد أشرك][4] .

والتمائم : هي شيء يُعلق على الأولاد يتقون به العين . قال المنذري : (خرزة كانوا يعلقونها يرون أنها تدفع عنهم الآفات ، وهذا جهل وضلالة ، إذ لا مانع ولا دافع غير الله تعالى)[5] .

وقال أبو السعادات : (التمائم جمع تميمة ، وهي خرزات كانت العرب تعلقها على أولادهم يتقون بها العين في زعمهم ، فأبطلها الإسلام . قال : إنما جعلها شركاً لأنهم أرادوا دفع المقادير المكتوبة عليهم ، وطلبوا دفع الأذى من غير الله الذي هو دافعه)[5] .

وأما الوَدْع فشيءٌ يخرج من البحر يشبه الصدف كان الجاهليون يتقون به العين ، فأبطله الإسلام . وبنحو ذلك الخيوط التي كانوا يتقون بها الحمى بزعمهم .

---

(1) ورواه ابن حبان في صحيحه فقال : (إنك إن متُ وكلت إليها) ، وهو في المسند (445/4) ، وهو حديث صحيح .

(2) أي علقها متعلقاً بها قلبه في طلب خير أو دفع شر .

(3) دعاء عليه .

(4) المسند (156/4) وهو حديث صحيح ، انظر فتح المجيد (128) .

(5) فتح المجيد (128 - 129) .

يروي ابن أبي حاتم[1] عن حذيفة: (أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحُمَّى فقطعه وتلا قوله: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾).

وروي عن عروة قال: (دخل حذيفة على مريض، فرأى في عضده سيراً، فقطعه أو ـ انتزعه ـ ثم قال: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾).

وروى وكيع[2] عن حذيفة: (أنه دخل على مريض يعوده فلمس عضده، فإذا فيه خيط، فقال: ما هذا؟ قال: شيء رُقي لي فيه، فقطعه، وقال: لو مت وهو عليك ما صليت عليك)[3].

والصحابة رضوان الله عليهم متأثرون بذلك بما علموه من هدي النبي ﷺ وتحذيره من كل أبواب الشرك صغيره وكبيره.

ففي الصحيحين عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه: [أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولاً أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وَتَر، أو قِلادة إلا قُطعت][4].

والوَتَر: واحد أوتار القوس، وكان أهل الجاهلية إذا اخلولق الوتر أبدلوه بغيره، وقلدوا به الدواب ظناً منهم أنه يدفع عن الدابة العين.

وروي عن مالك: (أنه سئل عن القلادة؟ فقال: ما سمعت بكراهتها إلا في الوتر).

قال البغوي في «شرح السنة»: (تأول مالك أمره عليه الصلاة والسلام بقطع القلائد على أنه من أجل العين. وذلك أنهم كانوا يشدون تلك الأوتار والتمائم والقلائد ويعلقون عليها العوذ، يظنون أنها تعصمهم من الآفات. فنهاهم النبي ﷺ وأعلمهم أنها لا ترد من أمر الله شيئاً).

---

(1) صاحب التفسير مات 327 هـ.

(2) هو ابن الجراح بن وكيع الكوفي: ثقة إمام صاحب تصانيف منها الجامع، روى عنه الإمام أحمد، مات 197 هـ.

(3) ذكره والذي قبله صاحب فتح المجيد (129 - 130).

(4) البخاري (98/6) في الجهاد، ومسلم (2115) في اللباس والزينة.

وفي صحيح أبي داود عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: [إن عبد الله رأى في عنقي خيطاً، فقال: ما هذا؟ قلت: خيط رقي لي فيه، قالت: فأخذه ثم قطعه، ثم قال: أنتم آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الرقى والتمائم والتولة شرك].

وفي رواية لأحمد من حديث قَيْس الأسدي قال: [دخل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه على امرأة فرأى عليها خرزاً من الحمرة فقطعه قطعاً عنيفاً ثم قال: إن آل عبد الله عن الشرك أغنياء. وكان مما حفظنا عن النبي ﷺ: إن الرقى والتمائم والتولة شرك. فقلت: لقد كانت عيني تقذف وكنت أختلف إلى فلان اليهودي فإذا رقىٰ سكنت، فقال عبد الله: إنما ذاك عمل الشيطان كان يخنسها بيده فإذا رقىٰ كف عنها. إنما يكفيك أن تقولي كما كان رسول الله ﷺ يقول: أذهب الباس ربَّ الناس، اشف وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً][1].

والرقىٰ: هي التي تسمى العزائم، وهي ألفاظ جاهلية يُتعوذ بها، فإن خلت من الشرك بالله جاز استخدامها.

ففي صحيح مسلم: (باب لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك). روى فيه عن عوف بن مالك قال: [كنا نرقي في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله، كيف ترى في ذلك؟ فقال: اعرضوا عليَّ رقاكم، لا بأس بالرقىٰ ما لم تكن شركاً][2].

قال الخطابي: (وكان عليه الصلاة والسلام قد رقى ورُقي، وأمر بها وأجازها، فإذا كانت بالقرآن وبأسماء الله فهي مباحة أو مأمور بها، وإنما جاءت الكراهة والمنع فيما كان منها بغير لسان العرب، فإنه ربما كان كفراً أو قولاً يدخله شرك)[3].

قال شيخ الإسلام: (كل اسم مجهول فليس لأحد أن يرقي به. فضلاً عن أن

---

(1) أبو داود (3883) في الطب، باب في تعليق التمائم، وأحمد في المسند (381/1). وهو حديث صحيح. انظر تحقيق فتح المجيد (133).

(2) مسلم (2200) في السلام، باب لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك.

(3) فتح المجيد (134 - 135).

يدعو به ، ولو عرف معناه ، لأنه يكره الدعاء بغير العربية ، وإنما يرخص لمن لا يحسن العربية ، فأما جعل الألفاظ الأعجمية شعاراً فليس من دين الإسلام)[1].

وقال السيوطي: (وقد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاث شروط: أن تكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته ، وباللسان العربي وما يعرف معناه ، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله تعالى)[2].

وأما التولة: فشيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها ، والرجل إلى زوجته.

ففي صحيح ابن حبان عن ابن مسعود قالوا: (يا أبا عبد الرحمن ، هذه الرقىٰ والتمائم قد عرفناها ، فما التولة؟ قال: شيء تصنعه النساء يتحببن به إلى أزواجهن)[3].

وأما تعليق شيء من القرآن فرخص به بعض أهل العلم ولم يجزه آخرون والراجح عدم الجواز لوجوه ذكرها صاحب فتح المجيد ، الأول: عموم النهي ولا مخصص للعموم. الثاني: سد الذريعة ، فإنه يفضي إلى تعليق ما ليس كذلك. الثالث: أنه إذا علق فلا بد أن يمتهنه المعلق بحمله معه في حال قضاء الحاجة والاستنجاء ونحو ذلك.

قال إبراهيم النخعي[4]: (كانوا يكرهون التمائم كلها ، من القرآن وغير القرآن).

وفي المسند وجامع الترمذي بسند حسن عن عبد الله بن عُكيم مرفوعاً: (من تعلق شيئاً وكل إليه)[5].

---

(1) فتح المجيد (135).

(2) فتح المجيد (135).

(3) ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي. تحقيق فتح المجيد (137).

(4) ثقة من كبار الفقهاء. قال المِزِّي: دخل على عائشة ولم يثبت له سماع منها. مات سنة 96 هـ.

(5) أي وكله الله لذلك الشيء. فمن تعلق بالله وأنزل به حوائجه كفاه ومن تعلق بغيره أو سكن إلى رأيه وعقله ودوائه وتمائمه وكله إليها وخذله. قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: 3].

وكذلك في المسند وصحيح أبي داود عن رُويفع قال: [قال لي رسول الله ﷺ: يا رُويفع، لعل الحياة ستطول بك، فأخبر الناس: أن من عقد لحيته أو تقلد وَتَراً أو استنجى برجيع دابة أو عظم، فإن محمداً بريء منه][1].

قال الخطابي: (أما نهيه عن عقد اللحية فيفسر على وجهين: أحدهما: ما كانوا يفعلونه في الحرب، كانوا يعقدون لحاهم، وذلك من زيٍّ بعض الأعاجم يفتلونها ويعقدونها. قال أبو السعادات: تكبراً وعجباً. ثانيهما: أن معناه معالجة الشعر ليتعقد ويتجعد، وذلك من فعل أهل التأنيث)[2].

وقال أبو زرعة بن العراقي: (والأولى حمله على عقد اللحية في الصلاة، كما دلت عليه رواية محمد بن الربيع. وفيه «أن من عقد لحيته في الصلاة»)[2].

5ـ النهي عن التبرك بشجر أو حجر ونحوهما:

فقد عاب الله على المشركين مثل هذا التصور، قال في سورة النجم: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: 19 - 22]. قال الأعمش: (سموا اللات من الإله، والعُزَّى من العزيز).

وقال ابن جرير: (وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله تعالى، فقالوا: اللات مؤنثة منه، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. قال: وكذا العزى من العزيز).

واللات صخرة بالطائف منقوشة عليها بيت له أستار وسدنة، وحوله فِناء تعظمه ثقيف. قال القرطبي في التفسير: (قال هشام: فبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار).

وقد ذكر البخاري عن ابن عباس قال: (كان رجلاً يَلُتّ السويق للحاج)[3]، فلما مات عكفوا على قبره.

وذكره الحافظ في الفتح من رواية ابن أبي حاتم عن ابن عباس وفيه زيادة: (كان يلت السويق على الحجر فلا يشرب منه أحد إلا سمن فعبدوه)[4].

---

(1) صحيح بطرقه، ورواه أبو داود والنسائي. انظر تحقيق فتح المجيد (139).

(2) فتح المجيد (140).

(3) البخاري (470/8) في تفسير سورة النجم.

(4) فتح الباري شرح البخاري (471/8).

قال ابن عباس: (فلما مات ذلك الرجل عبدت ثقيف تلك الصخرة إعظاماً لصاحب السويق) ذكره صاحب فتح المجيد وقال: لا منافاة بين القولين، فإنهم عبدوا الصخرة والقبر تأليهاً وتعظيماً[1].

وأما «العزى» فشجرة عليها بناء وأستار بنخلة[2]، كانت قريش يعظمونها[3].

ففي سنن النسائي عن أبي الطفيل قال: [لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة ـ وكانت بها العزى، وكانت على ثلاث سمرات ـ فقطع السمرات، وهدم البيت الذي كان عليها. ثم أتى النبي ﷺ فأخبره. فقال: ارجع، فإنك لم تصنع شيئاً، فرجع خالد، فلما أبصرته السدنة أمعنوا في الجبل وهم يقولون: يا عزى يا عزى، فأتاها خالد، فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحفن التراب على رأسها فعمها بالسيف فقتلها. ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: تلك العزى][4].

وأما «مناة» فكانت بالمشلَّل عندَ قُديد، بين مكة والمدينة، قالت عائشة رضي الله عنها: (إنها صنم بين مكة والمدينة)[5]. وكانت خزاعة والأوس والخزرج يعظمونها ويهلون منها للحج، وأصل اشتقاقها ـ كما قيل ـ من المنان: اسم الله تعالى، وقيل: لكثرة ما يُمنى ـ أي: يُراق ـ عندها من الدماء للتبرك بها.

قال ابن هشام: (فبعث رسول الله ﷺ علياً فهدمها عام الفتح)[6].

وقوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ هو ما يجعلونه من الولد وينسبونه لله ويختارون له الأنثى، ولهم الذكور، تعالى الله عما ينسبون علواً كبيراً، فتلك قسمة ضيزى أي: جور وباطلة.

---

(1) فتح المجيد (144).
(2) موضع بين مكة والطائف.
(3) ومنه قول أبي سفيان يوم أحد (لنا العزى ولا عزَّى لكم). فقال رسول الله ﷺ: قولوا: (الله مولانا ولا مولى لكم). رواه البخاري عن البراء.
(4) ورواه ابن هشام في السيرة (236/2).
(5) رواه البخاري (472/8).
(6) السيرة (86/1).

وفي المسند وجامع الترمذي بسند صحيح عن أبي واقد الليثي[1] قال: [خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حُنين، ونحن حُدثاء عهد بكفر، وللمشركين سِدرة يَعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم[2]، يقال لها ذاتُ أنواط، فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر[3]، إنها السنن. قلتم، والذي نفسي بيده، كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ لتركبن سَنن من كان قبلكم][4].

قال أبو السعادات: (سألوه أن يجعل لهم مثلها فنهاهم عن ذلك. وأنواط جمع نوط، وهو مصدر سمي به المنوط. ظنوا أن هذا أمر محبوب عند الله وقصدوا التقرب به، وإلا فهم أجلُّ قدراً من أن يقصدوا مخالفة النبي ﷺ)[5].

وقال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل الشافعي: (ومن هذا القسم أيضاً ما قد عمَّ الابتلاء به من تزيين الشيطان للعامة: تخليق الحيطان والعُمد، وإسراج مواضع مخصوصة في كل بلد يحكي لهم حاكٍ أنه رأى في منامه بها أحداً ممن شهر بالصلاح والولاية، فيفعلون ذلك ويحافظون عليه مع تضييعهم لفرائض الله تعالى وسننه، ويظنون أنهم متقربون بذلك، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظم وقع تلك الأماكن في قلوبهم فيعظمونها، ويرجون الشفاء لمرضاهم وقضاء حوائجهم بالنذر لها، وهي من عيون وشجر وحائط وحجر)[6].

6 ـ النهي عن الذبح لغير الله:

قال الله في سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 161 - 162].

---

(1) صحابي اسمه الحارث بن عوف مات سنة 68 هـ وله خمس وثمانون سنة.

(2) يعلقونها عليها للبركة.

(3) وفي رواية: سبحان الله. والمراد تنزيه الله عن هذا الشرك. وكان النبي ﷺ يستعمل التكبير والتسبيح عند التعجب.

(4) الترمذي (2181) في الفتن، وأحمد في المسند (218/5). وهو حديث حسن صحيح. انظر فتح المجيد (147).

(5) فتح المجيد (148).

(6) المرجع السابق (149).

قال مجاهد: (النسك: الذبح في الحج والعمرة). وقال سعيد بن جبير: (﴿ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾: صلاتي وذبيحتي). وقال الضحاك: (الصلاة: الصلاة، والنسك: الذبح). وقال قتادة: (﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ قال: أول المسلمين من هذه الأمة)[1].

وقال الحافظ ابن كثير: (يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون له: بأنه أخلص لله صلاته وذبيحته، لأن المشركين يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم).

وقال جل ثناؤه في سورة الكوثر: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾.

قال شيخ الإسلام: (أمره الله أن يجمع بين هاتين العبادتين، وهما الصلاة والنسك. قال: وأجل العبادات البدنية: الصلاة، وأجل العبادات المالية: النحرُ. وما يجتمع للعبد في الصلاة لا يجتمع له في غيرها، كما عرفه أربابُ القلوب الحية، وما يجتمع له في النحر إذا قارنه الإيمان والإخلاص، من قوة اليقين وحسن الظن: أمر عجيب، وكان النبي ﷺ كثير الصلاة، كثير النحر)[2].

وفي صحيح مسلم: (باب تحريم الذبح لغير الله ولعن فاعله) روى فيه عن علي رضي الله عنه قال: [حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى مُحْدِثاً، لعن الله من غيَّر منار الأرض][3].

وفي رواية عنده وفي المسند عن أبي الطفيل قال: [قلنا لعلي: أخبرنا بشيء أسرَّه إليك رسول الله ﷺ، فقال: ما أسرَّ إليَّ شيئاً كتمه الناس، ولكن سمعته يقول: لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من آوى محدثاً، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من غيَّر تخوم الأرض ـ يعني: المنار][4].

---

(1) لأن إسلام كل نبي متقدم.
(2) فتح المجيد (154).
(3) رواه مسلم رقم (1978) (43) في الأضاحي.
(4) أحمد في المسند (108/1) وهو رواية لمسلم (44).

قال أبو السعادات: (أصل اللعن: الطرد والإبعاد من الله ، ومن الخلق: السبُّ والدعاء)[1].

وقال شيخ الإسلام ما معناه: (إن الله تعالى يلعن من استحق اللعنة بالقول كما يصلِّي سبحانه على من استحق الصلاة من عباده)[2]. قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ . . . وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الأحزاب: 64]. وقال: ﴿ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: 61].

وقوله: «من ذبح لغير الله». قال شيخ الإسلام: (﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ﴾ ظاهره: أنه ما ذبح لغير الله ، مثل أن يقول: هذا ذبيحة لكذا)[2].

قال الزمخشري: (كانوا إذا اشتروا داراً أو بنوها أو استخرجوا عينا ذبحوا ذبيحة خوفاً أن تصيبهم الجن ، فأضيفت إليهم الذبائح لذلك)[3].

وذكر إبراهم المروزي: (أن ما ذبح عند استقبال السلطان تقرباً إليه ، أفتى أهل بخارى بتحريمه ، لأنه مما أهل لغير الله)[3].

وأما قوله: «لعن الله من آوى محدِثاً» ففيه تأويلان:

الأول: (محدِثاً) بالكسر ، أي: منعه من أن يؤخذ منه الحق الذي وجب عليه.

الثاني: (محدَثا) بالفتح أي: من الرضا بالبدعة والإقرار عليها.

قال أبو السعادات: (فمعنى الكسر: مَنْ نصر جانياً وآواه وأجاره من خصمه ، وحال بينه وبين أن يُقْتَصَّ منه. وبالفتح: هو الأمر المبتدَع نفسه ، ويكون معنى الإيواء فيه الرضىٰ به والصبر عليه ، فإنه إذا رضي بالبدعة وأقر فاعلها ولم ينكر عليه فقد آواه)[4].

وأما قوله: «لعن الله من لعن والديه» يعني: أباه وأمه وإن عليا.

---

(1) فتح المجيد (156).
(2) المرجع السابق.
(3) المرجع السابق (157).
(4) أي ضمه إليه وحماه. المرجع السابق.

وفي صحيح البخاري والمسند من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: [من الكبائر شَتْم الرجل والديه، قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: نعم، يَسُبُّ أبا الرجل فيسب أباه، ويَسبُّ أمَّه فيسب أمَّه][1].

وأما قوله: «لعن الله من غير تخوم الأرض» أي: حدودها ومعالمها ليقتطع حق أخيه ظلماً أو يفسد في الأرض. ففيه جواز لعن أهل الظلم من غير تعيين.

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: [من ظلم شبراً من الأرض طُوِّقه يوم القيامة من سبع أرضين][2].

وأما لعن الفاسق المعين: ففيه قولان، أحدهما: أنه جائز. اختاره ابن الجوزي وغيره. والثاني: لا يجوز، اختاره أبو بكر عبد العزيز وشيخ الإسلام[3].

7ـ النهي عن الذبح بمكان يذبح فيه لغير الله:

قال الله في سورة التوبة: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة: 108].

قال ابن جرير رحمه الله: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لا تقم، يا محمد، في المسجد الذي بناه هؤلاء المنافقون، ضراراً وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله).

وقوله: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ ﴾. قال سعيد بن المسيب: (هو مسجد النبي ﷺ). وقال ابن عباس وابن زيد وعطية: (هو مسجد قباء).

وفي صحيح مسلم ومسند أحمد عن أبي سعيد قال: [تمارى رجلان في المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى من أول يوم. فقال رجل: هو مسجد قُباء، وقال

---

(1) البخاري (338/10) في الأدب. باب لا يجاهد إلا بإذن الوالدين. ومسلم (90) في الإيمان وأحمد (164/2).

(2) البخاري (76/5) في المظالم. باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض.

(3) وانظر فتح المجيد (158).

الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: هو مسجدي هذا][1].

قال الحافظ ابن كثير: (ولا منافاة بين الآية والحديث، لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى).

وفي صحيح ابن ماجه عن سهل بن حنيف، عن النبي ﷺ قال: [من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه صلاة كان له كأجر عمرة][2].

وفي الصحيحين والمسند عن عبد الله بن عمر: [أن رسول الله ﷺ كان يزور قباء راكباً وماشياً][3].

والمقصود هنا أنه لما كانت الصلاة في مسجد الضرار معصية لله ومحل غضب وسخط منه، فكذلك المواضع المعدة للذبح لغير الله.

ففي صحيح أبي داود عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال: [نذر رجل أن ينحر إبلاً ببُوانة[4]، فسأل النبي ﷺ، فقال: هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟ قالوا: لا. قال: فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟ قالوا: لا. فقال رسول الله ﷺ: أوْفِ بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم][5].

وفيه المنع من الوفاء بالنذر إذا كان في المكان وثن، ولو بعد زواله، وفيه سد الذريعة وترك مشابهة المشركين.

قال شيخ الإسلام: (العيد: اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد عائد: إما بعود السنة، أو بعود الأسبوع، أو الشهر أو نحو ذلك. والمراد به هنا: الاجتماع المعتاد من اجتماع أهل الجاهلية. فالعيد يجمع أموراً منها: يوم عائد، كيوم الفطر ويوم الجمعة، ومنها: اجتماع فيه، ومنها: أعمال تتبع ذلك من العبادات والعادات. وقد يختص العيد بمكان بعينه، وقد يكون مطلقاً. وكل من هذه الأمور

(1) وهذا لفظ أحمد (8/3). ولمسلم بمعناه رقم (1398) في الحج.
(2) سنن ابن ماجه (1412) وبنحوه أحمد (487/3) وانظر تحقيق فتح المجيد (162).
(3) البخاري (56/3) في أبواب التطوع، ومسلم (1399) في الحج وأحمد في المسند (5/2).
(4) موضع أسفل مكة.
(5) أبو داود (3313) بسند صحيح.

قد يسمى عيداً. فالزمان كقول النبي ﷺ في يوم الجمعة: «إن هذا يوم قد جعله الله للمسلمين عيداً»(1). والاجتماع والأعمال كقول ابن عباس: «شهدت العيد مع رسول الله ﷺ»(2). والمكان، كقول النبي ﷺ: «لا تتخذوا قبري عيداً»(3)، وقد يكون لفظ العيد اسماً لمجموع اليوم والعمل فيه وهو الغالب، كقول النبي ﷺ: «دعهما يا أبا بكر، فإن لكل قوم عيداً»(4))(5).

8ـ النهي عن النذر لغير الله تعالى:

قال الله في سورة البقرة: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: 270].

وقال في سورة الدهر: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الدهر: 7].

قال أهل العلم: فلكونه عبادة يجب الوفاء به إذا نذره لله، ويكون النذر لغير الله تعالى شركاً في العبادة.

يروي البخاري عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: [من نذر أن يُطيع الله فليُطِعْه، ومَنْ نذر أن يعصي الله فلا يعصه](6).

وفي سنن النسائي بسند صحيح عن عِمران بن حُصين، عن النبي ﷺ قال: [النذر نَذْرَان، فما كان من نَذْر في طاعة الله فذلك لله، وفيه الوفاء، وما كان من نذر في معصية الله، فذلك للشيطان ولا وفاء فيه، ويكفره ما يكفِّر اليمين](7).

من ثم فكل نذر يُصرف لمخلوق يقصد به قضاء الحوائج أو تفريج الكروب أو الشفاعة عند الله بواسطة ذلك المخلوق فشرك، كما قال جل ذكره في سورة الأنعام: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ

---

(1) أحمد (303/2) من حديث أبي هريرة وهو حديث صحيح. فتح المجيد (165).
(2) البخاري (387/2).
(3) أحمد عن أبي هريرة (367/2).
(4) البخاري عن عائشة (366/2).
(5) فتح المجيد (166).
(6) البخاري (504/11) في الأيمان والنذور.
(7) صحيح الجامع (6680).

﴿وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: 136].

قال شيخ الإسلام: (وأما ما نذر لغير الله، كالنذر للأصنام والشمس والقمر والقبور ونحو ذلك، فهو بمنزلة أن يحلف بغير الله من المخلوقات. والحالف بالمخلوقات لا وفاء عليه ولا كفارة، وكذلك الناذر بالمخلوقات، فإن كلاهما شرك. والشرك ليس له حرمة، بل عليه أن يستغفر الله من هذا، ويقول ما قال النبي ﷺ: «من حلف وقال: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله»[1])[2].

وقال الشيخ قاسم الحنفي في «شرح درر البحار»: (النذر الذي ينذره أكثر العوام على ما هو مشاهد، كأن يكون للإنسان غائب أو مريض أو له حاجة، فيأتي إلى بعض الصلحاء ويجعل على رأسه سترة، ويقول: يا سيدي فلان، إن رد الله غائبي، أو عوفي مريضي، أو قضيت حاجتي، فلك من الذهب كذا، أو من الفضة كذا، أو من الطعام كذا، أو من الماء كذا، أو من الشمع والزيت كذا. فهذا النذر باطل بالإجماع لوجوه:

منها: أنه نذر لمخلوق، والنذر للمخلوق لا يجوز، لأنه عبادة، والعبادة لا تكون لمخلوق.

ومنها: أن المنذور له ميت والميت لا يملك.

ومنها: أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله. واعتقاد ذلك كفر.

إلى أن قال: إذا علمت هذا، فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها وينقل إلى ضرائح الأولياء تقرباً إليها: فحرام بإجماع المسلمين)[3].

وأما النذر بمباح فجائز، لما روى أبو داود بسند حسن عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: [أن امرأة قالت: يا رسول الله، إني نذرت أن أضرب على رأسك بالدُّف، فقال: أوفي بنذرك] ورواه أحمد عن بريدة[4].

---

(1) رواه البخاري (467/11) من حديث أبي هريرة في الأيمان والنذور.

(2) فتح المجيد (170).

(3) المرجع السابق (171).

(4) أبو داود (3312) في الأيمان والنذور، وأحمد 353/5 وإسناد حسن. فتح المجيد 173.

9 ـ النهي عن الاستعاذة بغير الله :

الاستعاذة لغة : الالتجاء والاعتصام. قال الرازي : (استعاذ به : لجأ إليه ، وهو عِياذُه أي مَلْجؤه). ولهذا يسمى المستعاذ به : معاذاً وملجأ. فالعائذ بالله قد هرب مما يؤذيه أو يهلكه ، إلى ربه ومالكه ، واعتصم واستجار به ، والتجأ إليه ، وهذا تمثيل. قال ابن القيم : (وإلا فما يقوم بالقلب من الالتجاء إلى الله ، والاعتصام به ، والاطراح بين يدي الرب ، والافتقار إليه ، والتذلل له ، أمر لا تحيط به العبارة)(1).

وقال الحافظ ابن كثير في التفسير : (الاستعاذة: هي الالتجاء إلى الله ، والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر. والعياذ يكون لدفع الشر ، واللياذ لطلب الخير).

وفي التنزيل: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت : 36]. ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ ، ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ .

بينما تكون الاستعاذة بغير الله تعالى شركاً كما قال جل ثناؤه : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن : 6].

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام : 128].

فكانت الجن ترىٰ أن لها فضلاً على الإنس لأنهم كانوا يعوذون بهم إذا نزلوا مكاناً موحشاً أو وادياً أو فلاة من البراري فزادوهم بذلك خوفاً وإرهاباً وذعراً.

قال ابن جريج : (كان الرجل في الجاهلية ينزل الأرض فيقول : أعوذ بكبير هذا الوادي ، فذلك استمتاعهم فاعتذروا يوم القيامة)(2).

---

(1) فتح المجيد (175).

(2) تفسير الطبري وغيره ، سورة الجن.

وقال أبو العالية: (﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾: أي: خوفاً)[1]. وقال ابن عباس: (أي: إثماً)[1].

وقال القرطبي: (فاستمتاع الجن من الإنس أن تلذذوا بطاعة الإنس إياهم، وتلذذ الإنس بقبولهم من الجن حتى زنوا وشربوا الخمور بإغواء الجن إياهم)[2].

وقيل: استمتاع الجن بالإنس بما كانوا يُلقون إليهم من الأراجيف والكهانة والسحر.

وقيل: بل استمتاع الجن بالإنس أنهم يعترفون أن الجن يقدرون أن يدفعوا عنهم ما يحذرون.

وقد أجمع أهل العلم على أنه لا يجوز الاستعاذة بغير الله.

قال الشيخ مُلاَّ علي قاري الحنفي: (لا يجوز الاستعاذة بالجن، فقد ذم الله الكافرين على ذلك)[3].

وقال غيره: (إن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية لا يدل على أنه ليس من الشرك).

وفي صحيح مسلم عن خولة بنت حكيم قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [من نزل منزلاً، فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق: لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك][4]. فأرشد سبحانه للاستعاذة بكلماته التامات بدلاً من تعاويذ الجاهلية:

قال القرطبي: (معناه: الكلمات التي لا يلحقها نقص ولا عيب، كما يلحق كلام البشر).

وقال غيره: (معناه: الشافية الكافية).

---

(1) تفسير الطبري، سورة الجن.
(2) تفسير القرطبي.
(3) فتح المجيد (176).
(4) صحيح مسلم (2708) في الذكر والدعاء. باب في التعوذ من سوء القضاء.

وقيل: الكلمات هنا هي القرآن، فقد أخبر الله أنه ﴿ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت: 44].

قال شيخ الإسلام: (وقد نص الأئمة كأحمد على أنه لا يجوز الاستعاذة بمخلوق. وهذا مما استدلوا به على أن كلام الله غير مخلوق)(1).

وقال ابن القيم: (ومن ذبح للشيطان ودعاه، واستعاذ به، وتقرب إليه بما يحب فقد عبده وإن لم يسمّ ذلك عبادة ويسميه استخداماً)(1).

10 ـ النهي عن الاستغاثة بغير الله أو دعاء غير الله:

الاستغاثة لغة طلب الغَوْث. قال الفراء: (يقال أجاب الله دعاءَه وغُوَاثه وغَوائَه).

وقال الرازي: (واستغاثه فأغاثه والاسم الغِياث).

وقيل: (الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب، والدعاء أعم من الاستغاثة، لأنه يكون من المكروب وغيره. فعطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص، فكل استغاثة دعاء، وليس كل دعاء استغاثة).

قال شيخ الإسلام: (الاستغاثة: هي طلب الغَوْث، وهو إزالة الشدة، كالاستنصار: طلب النصر. والاستعانة: طلب العون)(2).

والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة.

فدعاء المسألة: هو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضر، وقد أنكر الله على من يدعو من دونه من لا يملك ضراً ولا نفعاً.

قال سبحانه في سورة المائدة: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [المائدة: 76].

وقال في سورة الأنعام: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى

(1) فتح المجيد (178).
(2) المرجع السابق (180).

﴿ٱلْهُدَى ٱئْتِنَاۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: 71].

وقال في سورة يونس: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: 106].

وفي التحقيق فإن دعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة، كما أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة.

قال جل ذكره: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: 55].

وقال جل ثناؤه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 40 - 41].

وقال سبحانه: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد: 14].

وهذا يدل أن دعاء المسألة يتضمن دعاء العبادة. قال شيخ الإسلام: (لأن السائل أخلص سؤاله لله، وذلك من أفضل العبادات، وكذلك الذاكر لله، والتالي لكتابه ونحوه، طالب من الله في المعنى، فيكون داعياً عابداً). وقال: (فإذا كان على عهد النبي ﷺ ممن انتسب إلى الإسلام من مرق منه مع عبادته العظيمة، فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام والسنة في هذه الأزمان قد يمرق أيضاً من الإسلام لأسباب، منها: الغلو في بعض المشايخ، بل الغلو في علي بن أبي طالب، بل الغلو في المسيح، فكل من غلا في نبي أو رجل صالح، وجعل فيه نوعاً من الإلهية مثل أن يقول: يا سيدي فلان انصرني، أو أغثني أو ارزقني، أو أنا في حسبك، ونحو هذه الأقوال، فكل هذا شرك وضلال)[1].

وقال ابن القيم: (ومن أنواعه ـ يعني الشرك ـ طلبُ الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم والتوجه إليهم. وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً)[2].

---

(1) فتح المجيد (180 - 181).

(2) المرجع انسابق (182).

وفي «الفتاوى البَزازية» من كتب الحنفية: (قال علماؤنا: من قال: أرواح المشايخ حاضرة تعلم: يكفر)[1].

وقال الشيخ صنع الله الحنفي: (هذا وإنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات يدَّعون أن للأولياء تصرفات بحياتهم وبعد مماتهم، ويستغاث بهم في الشدائد والبليات وبهممهم تكشف المهمات، فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات، مستدلين أن ذلك منهم كرامات، وقالوا: منهم أبدال ونقباء، وأوتاد ونجباء، وسبعون وسبعة، وأربعون وأربعة، والقطب: هو الغوث للناس، وعليه المدار بلا التباس، وجوزوا لهم الذبائح والنذور، وأثبتوا لهم فيهما الأجور، قال: وهذا كلام فيه تفريط وإفراط، بل فيه الهلاك الأبدي والعذاب السرمدي، لما فيه من روائح الشرك المحقق، ومصادمة الكتاب العزيز المصدق، ومخالفة لعقائد الأئمة، وما اجتمعت عليه الأمة. وفي التنزيل: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: 115]. ثم قال: فأما قولهم: إن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد الممات، فيردّه قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ [النمل: 61]. ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: 54]. ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [آل عمران: 189]. ونحوها من الآيات الدالة على أنه المتفرد بالخلق والتدبير، والتصرف والتقدير)[2].

وخلاصة القول: إنه لا يستغاث في الشدائد إلا بالله، فالمخلوق لا يملك كشف الضر ولا تحويله، قال سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ [النمل: 62]. وقال جل ذكره: ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفۡيَةً لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٍ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: 63 - 64]. وأما في الأسباب الظاهرة العادية من الأمور الحسية فتجوز الاستغاثة فيما يقدر عليه المخلوق في قتال أو إدراك عدو أو سبع أو نحوه، كقولهم: يالزيد، يا للمسلمين، ونحوها. وأما إن كانت الاستغاثة بالقوة والتأثير أو في الأمور المعنوية من الشدائد، كالمرض

---

(1) فتح المجيد (183).

(2) المرجع السابق (183 - 184).

وخوف الغرق والضيق والفقر وطلب الرزق ونحوه: فمن خصائص الله، لا يطلب فيها غيره. قال سبحانه: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠٦ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: 106 - 107]. وقال جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: 17]. وقال جل ثناؤه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: 5 - 6].

وفي المسند بسند صحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [من لم يسأل الله يغضب عليه](1).

وفي جامع الترمذي وصحيح ابن حبان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها، حتى يسأله شِسْعَ نعله إذا انقطع] وسنده حسن(2).

11 ـ النهي عن الغلو بالصالحين أو بقبورهم:

قال الله في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [النساء: 171].

فاليهود عادوا المسيح عليه السلام وسبُّوه وتنقصوه، والنصارى غَلَوْا فيه وأفرطوا، والخطاب ـ وإن كان لأهل الكتاب ـ فإنه عام يتناول جميع الأمة.

قال شيخ الإسلام: (ومن تشبه من هذه الأمة باليهود والنصارى، وغلا في الدين بإفراط فيه أو تفريط فقد شابههم. قال: وعلي رضي الله عنه حرق الغالية من الرافضة، فأمر بأخاديد خدَّت لهم عند باب كِنْدة فقذفهم فيها. واتفق الصحابة على قتلهم. لكن ابن عباس مذهبه أن يُقتلوا بالسيف من غير تحريق. وهو قول أكثر العلماء).

يروي البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ

---

(1) أحمد (442/2). وله شاهد في صحيح الترمذي من حديث ابن مسعود بلفظ: [سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل] تحقيق فتح المجيد (191).

(2) تحقيق فتح المجيد (192).

﴿ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح : 23]. قال : (هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح. فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم : أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصَاباً ، وسمّوها بأسمائهم ، ففعلوا ، ولم تعبد. حتى إذا هلك أولئك ونُسِيَ العلم عُبِدَت)[1].

قال ابن القيم : (قال غير واحد من السلف : لما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوَّروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم)[2].

وقال القرطبي : (وإنما صور أوائلهم الصور ليتأسوا بهم ، ويتذكروا أفعالهم الصالحة فيجتهدوا كاجتهادهم ، ويعبدوا الله عند قبورهم. ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم ، فوسوس لهم الشيطان أن أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها) تفسير القرطبي.

وفي صحيح البخاري عن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال : [لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم : إنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله][3].

والإطراء مجاوزة الحد في المدح ، أي لا تمدحوني بالباطل.

وروى أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : [إياكم والغلو ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو] وسنده صحيح[4].

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : [هلك المتنطعون[5] ـ قالها ثلاثاً][6].

قال النووي : (فيه : كراهة التقعر في الكلام بالتشدق وتكلف الفصاحة ، واستعمال وحشي اللغة ودقائق الإعراب في مخاطبة العوام ونحوهم).

وفي الصحيحين عن عائشة : [أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها

---

(1) البخاري (8/511, 512) في تفسير سورة نوح.
(2) فتح المجيد (245).
(3) البخاري (6/355) في أحاديث الأنبياء.
(4) المسند (1/215) وانظر تحقيق فتح المجيد (249 - 250).
(5) من التنطع : التعمق في الشيء مع التكلف والمغالاة. مأخوذ من النطع وهو الغار الأعلى من الفم.
(6) رواه مسلم (2670) في العلم ، باب هلك المتنطعون.

بأرض الحبشة وما فيها من الصور ، فقال : أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح ، بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله][1] .

قال شيخ الإسلام : (وهذه العلة التي لأجلها نهى الشارع ﷺ عن اتخاذ المساجد على القبور هي التي أوقعت كثيراً من الأمم ، إما في الشرك الأكبر ، أو فيما دونه من الشرك ، فإن النفوس قد أشركت بتماثيل الصالحين ، وتماثيل يزعمون أنها طلاسم الكواكب ونحو ذلك ، فإن الشرك بقبر الرجل الذي يُعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر .

ولهذا تجد أهل الشرك يتضرعون عندها ويخشعون ويخضعون ، ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله ولا وقت السحر ، ومنهم من يسجد لها ، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه في المساجد ، فلأجل هذه المفسدة حسم النبي ﷺ مادتها ، حتى نهىٰ عن الصلاة في المقبرة مطلقاً ، وإن لم يقصد المصلي بركة البقعة بصلاته ، كما يقصد بصلاته بركة المساجد ، كما نهىٰ عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها ، لأنها أوقات يقصد فيها المشركون الصلاة للشمس ، فنهى أمته عن الصلاة حينئذ وإن لم يقصد ما قصده المشركون ، سداً للذريعة)[2] .

وفي الموطأ للإمام مالك والمسند للإمام أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً : [اللهم لا تجعل قبري وثناً ، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد] هذا لفظ أحمد وسنده صحيح .

ولفظ مالك : [اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد][3] .

وله شاهد عن أبي داود بإسناد حسن من حديث أبي هريرة بلفظ : [لا تجعلوا

---

(1) البخاري (438/1) في الصلاة ، ومسلم (528) في المساجد ومواضع الصلاة .

(2) فتح المجيد (255) .

(3) السيرة النبوية على منهاج الوحيين : القرآن والسنة الصحيحة . مجلد (3 ص 1441) . د . مأمون حموش .

بيوتكم قبوراً ، ولا تجعلوا قبري عيداً ، وصلوا عليَّ ، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم][1] .

12 ـ النهي عن اتخاذ المساجد على قبور الصالحين أو تعمد الصلاة في آثارهم :

قال الله في سورة الجن : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ .

وفي الصحيحين عن عائشة قال : [لما نُزِل برسول الله ﷺ طفِقَ يطرح خميصة[2] له على وجهه ، فإذا اغتمَّ بها كشفها فقال : ـ وهو كذلك ـ لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يحذر ما صنعوا ، ولولا ذلك أُبرِزَ قبره[3] ، غير أنه خشِيَ أن يُتَّخَذَ مسجداً][4] .

قال القرطبي : (وكل ذلك لقطع الذريعة المؤدية إلى عبادة مَنْ فيها ، كما كان السبب في عبادة الأصنام) . قال : (ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي ﷺ فأغلقوا حيطان تربته وسدُّوا المداخل إليها ، وجعلوها محدقة بقبره ﷺ ، ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة إذا كان مستقبل المصلين ، فتصور الصلاة إليه بصورة العبادة فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره)[5] .

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها : [أن أم سلمة رضي الله عنها ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة بأرض الحبشة وذكرت ما رأت فيها من الصور ، فقال ﷺ : أولئك قوم إذا مات منهم العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوَّروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله][6] .

ولمسلم عن جُندب بن عبد الله قال : سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس

---

(1) صحيح الجامع (7103) .
(2) كساء له أعلام .
(3) أي جعل مع قبور الصحابة في البقيع .
(4) البخاري (1/444) في الصلاة ، ومسلم (531) في المساجد ومواضع الصلاة .
(5) فتح المجيد (258) .
(6) البخاري (1/438) في الصلاة ، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ، ومسلم (528) في المساجد ومواضع الصلاة .

وهو يقول: [إني أبْرَأُ إلى الله أن يكون لي منكم خليلٌ، فإن الله قد اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً. ولو كنت مُتَّخِذاً من أمتي خليلاً، لاتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإنَّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك][1].

والخلة فوق المحبة، والخليل هو المحبوب غاية الحب، وهو لغة من الخَلَّة: تخلل المودة في القلب. قال القرطبي: (وإنما كان ذلك لأن قلبه ﷺ قد امتلأ من محبة الله وتعظيمه ومعرفته فلا يسع خلّة غيره)[2].

ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: [إن من شِرار الناس من تُدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد][3].

وفي صحيح ابن حبان عن أبي سعيد مرفوعاً: [الأرض كلها مسجد[4] إلا المقبرة والحمام] ورواه أحمد وسنده صحيح.

قال البغوي في «شرح السنة»: (أراد أن أهل الكتاب لم تبح لهم الصلاة إلا في بِيَعهم وكنائسهم، فأباح الله لهذه الأمة الصلاة حيث كانوا، تخفيفاً عليهم وتيسيراً، ثم خص من جميع المواضع الحمام والمقبرة والمكان النجس)[5].

وقال الشافعي رحمه الله: (أكره أن يعظم مخلوق، حتى يجعل قبره مسجداً، مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس)[6].

وقال شيخ الإسلام: (فلا يصلىٰ في هذا المسجد، سواء صلى خلف القبر أو أمامه بغير خلاف في المذهب)[7].

وقد نهى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في زمانه عن تتبع آثار النبي ﷺ والصلاة عندها خشية الفتنة على دين الأمة.

---

(1) صحيح مسلم (532) في المساجد ومواضع الصلاة. باب النهي عن بناء المساجد على القبور.
(2) فتح المجيد (259).
(3) أحمد في المسند (435/1). تحقيق فتح المجيد (263).
(4) يشهد له ما في الصحيحين من حديث جابر: [وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً].
(5) فتح المجيد (262).
(6) المرجع السابق (265).
(7) المرجع السابق (266).

قال ابن وضاح[1]: سمعت عيسى بن يونس يقول: (أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي ﷺ) فقطعها، لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها، فخاف عليهم الفتنة.

وهذه الحادثة ثابتة ذكرها الحافظ ابن حجر في الفتح وقال: (وجدت عند ابن سعد بإسناد صحيح عن نافع أن ابن عمر بلغه أن قوماً يأتون الشجرة فيصلون عندها فتوعدهم ثم أمر بقطعها فقطعت)[2].

وله شاهد ذكره صاحب فتح المجيد عن المعرور بن سُويد قال: (صليت مع عمر بن الخطاب بطريق مكة صلاة الصبح. ثم رأى الناس يذهبون مذاهب، فقال: أين يذهب هؤلاء؟ فقيل: يا أمير المؤمنين، مسجدٌ صلى فيه النبي ﷺ فهم يصلون فيه، فقال: إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا، كانوا يتتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبيعاً. فمن أدركته الصلاة في هذه المساجد فليصل، ومن لا فليمض ولا يتعمدها)[3].

وفي المسند والسنن بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (لعَنَ رسول الله ﷺ زوَّارات القبور)[4].

والمقصود المبالغة في الزيارة التي تخرج بها المرأة عن المشروع إلى الجزع والندب والنياحة وإيقاد السرج والاختلاط والمخالفات الشرعية.

قال ابن القيم: (اتخاذها مساجد وإيقاد السرج عليها من الكبائر)[5].

وروى أبو يعلى والحافظ الضياء بسند صحيح عن عليّ بن الحسين: [أنه رأى رجلاً يجيء إلى فُرجة كانت عند قبر النبي ﷺ، فيدخل فيها فيدعو، فنهاه، وقال: ألا أحَدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدِّي، عن رسول الله ﷺ، قال: لا تتخذوا

(1) القرطبي الحافظ (199 - 286) هـ، صاحب كتاب «البدع والنهي».
(2) فتح الباري (345/7).
(3) فتح المجيد (270 - 271).
(4) المسند (337/2 و442/3). تحقيق فتح المجيد (275).
(5) فتح المجيد (279).

قبري عيداً ، ولا بيوتكم قبوراً ، وصلُّوا عليَّ ، فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم][1] .

فبيَّن صلوات الله وسلامه عليه أن الصلاة تصل إليه من بُعد وكذلك السلام ، وكره الإمام مالك لأهل المدينة كلما دخل الإنسان المسجد أن يأتي قبر النبي ﷺ ، لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك ، ولم يكونوا يأتون القبر للسلام ، لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه في الصلاة أكمل وأفضل . وإنما كان بعضهم يأتي من خارج فيسلم عليه إذا قدم من سفر . كما كان ابن عمر يفعله .

قال عبيد الله بن عمر عن نافع : (كان ابن عمر إذا قدم من سفر أتىٰ قبر النبي ﷺ فقال : السلام عليك يا رسول الله . السلام عليك يا أبا بكر . السلام عليك يا أبتاه ثم ينصرف) .

قال عبيد الله : (ما نعلم أحداً من أصحاب النبي ﷺ فعل ذلك إلا ابن عمر)[2] .

قال أهل العلم : (وهذا يدل على أنه لا يقف عند القبر للدعاء إذا سلم كما يفعله كثير) .

وقال شيخ الإسلام: (لأن ذلك لم ينقل عن أحد من الصحابة ، فكان بدعة محضة)[3] .

وقال مالك : (لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ ولكن يسلم ويمضي) المبسوط[4] .

وفي الصحيحين عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : [لا تُشَدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى][5] . وفي رواية لمسلم بلفظ : [لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد] .

وفيه دليل على منع شد الرحال إلى قبره ﷺ وإلى غيره من القبور والمشاهد لأن

---

(1) تحقيق فتح المجيد (285) .
(2) فتح المجيد (288) .
(3) المرجع السابق .
(4) نقله في فتح المجيد (288) .
(5) البخاري (57/3) في التطوع ، ومسلم (827) في الحج .

ذلك من اتخاذها أعياداً وفتح باب الإشراك بأصحابها ، وهذا ما فهمه الصحابة رضوان الله عليهم .

ففي الموطأ وغيره من السنن عن بَصْرة بن أبي بصرة الغِفَاري أنه قال لأبي هريرة ـ وقد أقبل من الطور ـ : (لو أدركتك قبل أن تخرج إليه لما خرجت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [لا تُعْمل المَطِيُّ إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى](1) .

قال بعض العلماء : (وأما النهي عن زيارة غير المساجد الثلاثة فغاية ما فيها : أنها لا مصلحة في ذلك توجب شد الرحال ، ولا مزية تدعو إليه) .

13 ـ النهي عن القيام تعظيماً لأحد أو الانحناء له عند التحية :

ففي المسند وجامع الترمذي بسند صحيح عن معاوية ، عن النبي ﷺ قال : [من أحبَّ أن يتمثَّل له الرجال قياماً ، فليتبوأ مقعده من النار](2) .

وفيهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : [لم يكن شخص أحبَّ إليهم من رسول الله ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهيته لذلك](3) .

وأما في غير ذلك ، فيجوز لصاحب البيت القيام إلى الضيف لاستقباله ، والقيام إلى قادم من سفر لمعانقته ، فقد فعله النبي ﷺ وأصحابه .

قال شيخ الإسلام : (وإذا كان من عادة الناس إكرام الجائي بالقيام ولو ترك لاعتقد أن ذلك لترك حقه أو قصد خفضه ولم يعلم العادة الموافقة للسنة فالأصلح أن يقام له ، لأن ذلك أصلح لذات البين ، وإزالة التباغض والشحناء ، وأما من عرف عادة القوم الموافقة للسنة : فليس في ترك ذلك إيذاء له ، وليس هذا القيام المذكور في قوله ﷺ : «من سرَّه أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار» فإن ذلك أن يقوموا له وهو قاعد ، ليس هو أن يقوموا لمجيئه إذا جاء ، ولهذا فرقوا بين

---

(1) مالك في الموطأ (108/1) في الجمعة ضمن حديث طويل . وأحمد في المسند (7/6 و397) . فتح المجيد تحقيق الأرناؤوط (289) .
(2) صحيح الجامع (5833) .
(3) أحمد (132/3) ، والترمذي (125/2) . السلسلة الصحيحة (358) .

أن يقال قمت إليه وقمت له ، والقائم للقادم ساواه في القيام ، بخلاف القائم للقاعد. وقد ثبت في صحيح مسلم: أن النبي ﷺ لما صلى بهم قاعداً في مرضه صلوا قياماً أمرهم بالقعود. وقال: «لا تعظموني كما يعظم الأعاجم بعضها بعضاً» وقد نهاهم عن القيام في الصلاة وهو قاعد ، لئلا يتشبه بالأعاجم الذين يقومون لعظمائهم وهم قعود).

وقال: (وأما القيام لمن يقدم من سفر ونحو ذلك تلقياً له فحسن).

ثم قال: (وجماع ذلك كله الذي يصلح اتباع عادات السلف وأخلاقهم ، والاجتهاد عليه بحسب الإمكان. فمن لم يعتقد ذلك ولم يعرف أنه العادة وكان في ترك معاملته بما اعتاد من الناس من الاحترام مفسدة راجحة: فإنه يدفع أعظم الفسادين بالتزام أدناهما كما يجب فعل أعظم الصلاحين بتفويت أدناهما)[1].

قال: (وأما الانحناء عند التحية: فينهى عنه ، كما في الترمذي عن النبي ﷺ أنهم سألوه عن الرجل يلقى أخاه ينحني له؟ قال: لا) ولأن الركوع والسجود لا يجوز فعله إلا لله عز وجل ، وإن كان هذا على وجه التحية في غير شريعتنا ، كما في قصة يوسف: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ﴾ وفي شريعتنا لا يصلح السجود إلا لله ، بل قد تقدم نهيه عن القيام كما يفعله الأعاجم بعضها لبعض ، فكيف بالركوع والسجود؟ وكذلك ما هو ركوع ناقص يدخل في النهي عنه)[2].

14 ـ النهي عن السحر والكهانة:

قال الله في سورة البقرة: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: 102].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا: يا رسول الله ، وما هنَّ؟ قال: الشرك بالله ، والسحر ،

(1) الفتاوى (376/1).
(2) المرجع السابق (377/1).

وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات][1] .

وفي صحيح مسلم عن بعض أزواج النبي ﷺ ، عن النبي ﷺ قال: [من أتى عرّافاً فسأله عن شيء فصدقه بما يقول ، لم تقبل له صلاة أربعين يوماً][2] .

وروى أحمد بسند صحيح عن أبي هريرة مرفوعاً: [من أتى عرّافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ][3] .

والسحر لغة: هو ما خفي ولطُف سببه. قال الرازي: (السِّحر: الأُخْذَةُ وكل ما لطف مأخذُه ودقّ فهو سحر). وقال أبو عبيد: (أصل السحر صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره). وقيل: إنما سُمِّيَ السَّحَرُ سَحَراً لأنه يقع خفياً آخر الليل.

كما يطلق السحر على القول البليغ المعجز ، ومنه قول النبي ﷺ: [إن من البيان لسحراً][4] .

وأما السحر في الاصطلاح الشرعي والذي عناه الله بالذم في محكم تنزيله: فهو ما كان من عمل فيه اتصال بالشياطين بقصد الفتنة أو الاعتماد على غير الله سبحانه في الدواء وجلب الشفاء. قال الليث: (السحر عمل يتقرب فيه إلى الشيطان ، وبمعونة منه).

وقال المقدسي: (السِّحر عزائم ورقى وعقد يؤثر في القلوب والأبدان، فيمرض ويقتل ، ويفرق بين المرء وزوجه).

وفي التنزيل: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة: 102].

وقال سبحانه: «﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ يعني السواحر اللاتي

(1) البخاري (294/5) في الوصايا ، ومسلم (89) في الإيمان.
(2) ورواه أحمد. صحيح الجامع (5816).
(3) صحيح الجامع (5815).
(4) رواه البخاري عن ابن عمر. قال أبو الخطاب: (ومن السحر السعي بالنميمة والإفساد بين الناس) ، يشير إلى قوله عليه الصلاة والسلام: [ألا هل أنبئكم ما العَضْه؟ هي النميمة ، القالة بين الناس] رواه مسلم عن ابن مسعود.

يعقدن في سحرهن وينفثن في عقدهن. ولو لم يكن للسحر حقيقة لما أمر الله تعالى بالاستعاذة منه.

وقد ثبت في الصحيحين والمسند وبعض السنن أن السحر نزل بالنبي ﷺ حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، ويأتي النساء ولا يأتيهن، كمرض عارض أصابه ثم شفاه الله منه، ولم يؤثر على عصمة تبيلغ الرسالة.

يروي البخاري عن عائشة رضي الله عنها: [أن النبي ﷺ سُحِرَ حتى إنه ليخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، (وفي رواية: حتى كان يرىٰ أنه يأتي النساء ولا يأتيهن)، وأنه قال لها ذات يوم: أتاني ملكان، فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب. قال: ومن طبَّه؟ قال: لبيد بن الأعصم في مشط ومشاطة، وفي جف طلعة ذَكر في بئر ذَرْوان][1].

قال النووي رحمه الله: (قال القاضي عياض: وقد جاءت روايات هذا الحديث مبينة أن السحر إنما تسلط على جسده وظواهر جوارحه، لا على عقله وقلبه واعتقاده، وكل ما جاء من الروايات من أنه يخيل إليه فعل الشيء ولم يفعله، ونحوه، محمول على التخيل بالبصر لا لخلل تطرق إلى العقل، وليس في ذلك ما يدخل لبساً على الرسالة ولا طعناً لأهل الضلالة)[2].

وفي التنزيل: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ [البقرة: 102]. قال ابن عباس: (من نصيب).

وقال قتادة: (وقد علم أهل الكتاب فيما عهد إليهم: أن الساحر لا خلاق له في الآخرة).

وقال الحسن: (ليس له دين). فدل على تحريم السحر في كل الأديان التي نزلت على الرسل صلوات الله وسلامه عليهم. قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: 69].

---

(1) البخاري (201/10) في السحر، ومسلم (2189) في السلام.

(2) شرح مسلم. وذكر نحوه ابن القيم في (بدائع الفوائد) خلاصته: (أن الحديث ثابت عند أهل العلم تلقته الأمة بالقبول، وأن السحر الذي أصابه ﷺ كان مرضاً عارضاً شفاه الله منه، ولا نقص ولا عيب بذلك، فإن المرض يجوز على الأنبياء).

وقد نص أصحاب أحمد أنه يكفر بتعلمه وتعليمه. وذهب إلى كفر الساحر مالك وأبو حنيفة وأحمد رحمهم الله. وقال الشافعي: (إذا تعلم السحر قلنا له: صف لنا سحرك، فإن وصف ما يوجب الكفر، مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة، وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته كفر).

وفي التنزيل قد سماه الله كفراً. قال جل ثناؤه: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: 102]. ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾. قال ابن عباس: (﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾: وذلك أنهما علِما الخير والشر والكفر والإيمان، فعرفا أن السحر من الكفر).

وروى ابن أبي حاتم عن عمر: (﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾: قال: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان)[1].

وكذلك روىٰ عن وهب بن منبه قال: (سألت جابر بن عبد الله عن الطواغيت التي كانوا يتحاكمون إليها، فقال: الطواغيت: كهان، كان ينزل عليهم الشيطان في كل حي واحد. وفي رواية: إن في جهينة واحداً، وفي أسلم واحداً، وفي هلال واحداً، وفي كل حي واحداً، وهم كهان كانت تنزل عليهم الشياطين)[2].

وفي صحيح البخاري عن بَجالة بن عَبَدة قال: (كتب عمر بن الخطاب أنِ اقتلوا كلَّ ساحر وساحرة)[3].

قال: فقتلنا ثلاث سواحر[4].

والمشهور عن أحمد أنه يقتل دون استتابة، وهو قول مالك، لأن علم السحر لا يزول بالتوبة. وفي رواية عن أحمد أنه يستتاب فإن تاب قبلت توبته وهو قول

---

(1) فتح المجيد (316).
(2) المرجع السابق (317).
(3) البخاري (185,184/6).
(4) لم يذكرها البخاري.

الشافعي ، قالوا : لأن ذنبه لا يزيد عن الشرك ، والشرك تقبل توبة صاحبه ، ولذلك صح إيمان سحرة فرعون وتوبتهم .

15 ـ النهي عن التطيُّر :

قال الله في سورة الأعراف : ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1] [الأعراف : 131] .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : [لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ، و(لا نَوْءَ) (ولا غُول)] . ولفظ (لا نوء) من حديث أبي هريرة (مسلم 2220) ولفظ (لا غول) من حديث جابر (مسلم 2222) .

والعدوى من الإعداء ، أي يُصاب الرجل بمثل ما بصاحب الداء ، فأخبر أن ذلك إن حصل فبقدر الله . والطِّيَـرَة من أمر الجاهلية وهي تعليق الخير والشر على حركة طائر .

قال عكرمة : (كنا جلوساً عند ابن عباس ، فمر طائر يصيح ، فقال رجل من القوم : خير خير . فقال ابن عباس : لا خير ولا شر ، فبادره بالإنكار عليه ، لئلا يعتقد تأثيره في الخير والشر) . وخرج طاووس مع صاحب له في سفر ، فصاح غراب ، فقال الرجل : خير . فقال طاوس : وأي خير عند هذا؟ لا تصحبني) .

والهامة : طير من طير الليل كأنه البومة ، كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم[2] .

والصفر : حية تصيب بطن الماشية والناس ، وهي أعدى من الجرب عند العرب .

والنَّوْء : جمعها أنواء وهي منازل القمر ، فكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة يكون مطر .

---

(1) قال ابن عباس : (طائرهم : ما قضيٰ عليهم وقدر لهم . وفي رواية : شؤمهم عندا الله ومن قِبَلِه) أي : إنما جاءهم الشؤم من قبله بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله . ومثله ﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ ﴾ أي : حظكم وما نابكم من شر بسبب أفعالكم .

(2) قال ابن الأعرابي : (يقول : نَعتْ إليَّ نفسي أو أحداً من أهل داري) فأبطله الوحي .

والغول: جنس من الجن والشياطين، تزعم العرب أنه يخرج في الطريق فيضلهم ويهلكهم.

وفي سنن أبي داود بسند صحيح عن ابن مسعود مرفوعاً: [الطِّيرة شرك، الطّيرة شرك، وما منا إلا، ولكن الله يُذهبه بالتوكل][1].

وعند البزار بسند جيد عن عمران بن حصين مرفوعاً: [ليس منا من تطيَّر أو تُطيِّرَ له، أو تكهَّن أو تُكُهِّنَ له، أو سَحَر أو سُحِرَ له. ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ][2].

16 ـ النهي عن التنجيم:

قال الله في سورة الملك: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥].

وقال في سورة النحل: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: 16].

وفي صحيح البخاري عن قتادة قال: [خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يُهتدىٰ بها. فمن تأول غير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه، وكلف ما لا عِلْمَ له به]. رواه البخاري 211/6 معلقاً. قال الحافظ في «الفتح» وصله عبد بن حميد من طريق شيبان عنه.

وروى أحمد بسند صحيح عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: [من اقتبس شعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد][3].

وعند ابن عساكر عن أبي محجن مرفوعاً: [أخاف على أمتي ثلاثاً: حيف السلطان، وإيماناً بالنجوم، وتكذيباً بالقدر] وسنده صحيح[4].

قال البغوي: (العرّاف: الذي يدَّعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة، ونحو ذلك).

---

(1) السلسلة الصحيحة (430).

(2) صحيح الجامع (5311).

(3) أحمد (277/1) وسنده قوي. انظر فتح المجيد (327).

(4) فتح المجيد (367).

وقيل: (هو الكاهن. والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل).

وقيل: (الذي يخبر عما في الضمير).

قال شيخ الإسلام: (العَرَّاف: اسم للكاهن والمُنجِّم والرَّمَّال ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق).

وقال الإمام أحمد: (العرافة: طرَف من السحر. والساحر أخبث).

وقال أبو السعادات: (العرَّاف: المنجم، والحازر: الذي يدعي علم الغيب، وقد استأثر الله تعالى به).

وقال ابن القيم: (من اشتهر بإحسان الزجر عندهم سموه عائفاً، وعرَّافاً).

قلت: وبعض ذلك من الشياطين، وقد يكون بالفأل والزجر والطيرة والضرب بالحصى والخط في الأرض والتنجيم والكهانة والسحر، ونحو هذا من علوم الجاهلية. وقد وصف النبي ﷺ الكهان بأنهم «يكذبون معها مائة كذبة» فيصدقون مرة ويكذبون مائة، فمن صدقهم كان من أولياء الشيطان، فالكرامة أمر غير هذا، إذ هي مما يجريه الله على يد العبد المؤمن التقي إما بدعاء أو بأعمال صالحة ولا قدرة له على التحكم بها أو تكرارها.

وفي صحيح مسلم عن رافع بن جريج عن النبي ﷺ قال: [ثمن الكلب خبيث، ومهر البغي خبيث، وحلوان الكاهن خبيث].

وله شاهد في الصحيحين من حديث أبي مسعود البدري مرفوعاً: [نهى عن ثمن الكلب، ومهر البغي، وحلوان الكاهن].

فالمنجمون في التحقيق صنف من السحرة والكهان، وهم من أكذب الخلق على وجه الأرض، وبعضهم يقوم بعبادة الكواكب السبعة السيارة: الشمس والقمر وزحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد، ويلبسون لباساً خاصاً لكل كوكب، ويصومون أياماً معينة، ويحلقون رؤوسهم، ويشعلون البخور ويخاطبون القمر ويزعمون أنهم بذلك يستنزلون روحانيات الكواكب. وقد كانوا فيما مضى يسمون المولود حسب الشهر الذي يولد فيه ويدَّعون أن لذلك دلالة خاصة في كشف أحواله وشؤونه ومستقبله، ثم تطور الأمر فاخترعوا تقسيمات لأشهر السنة على شكل

أبراج ، ويلعبون بعقول الناس الذين أفلسوا ولفظتهم الحياة ، فيوصلونهم بآمال كاذبة حسب أبراجهم.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قيل له : [إن منا قوماً يأتون الكهان ، فقال : إنهم ليسوا بشيء ، فقالوا : يا رسول الله! إنهم يحدثونا أحياناً بالشيء فيكون حقاً. فقال رسول الله ﷺ: تلك الكلمة من الحق يسمعها الجني يقرها في أذن وليه].

وفي صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم : أنه قال لرسول الله ﷺ: [ومنا أناس يتطيرون. قال : ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم]. أي تأذيه وتشاؤمه إنما هو من نفسه واعتقاده لا في المتطير به.

وفي المسند بسند صحيح عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: [ثلاثة لا يدخلون الجنة(1): مُدمِن الخمر ، ومصدق بالسحر(2) ، وقاطع الرحم].

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : [كان لأبي بكر غلام يأكل من خراجه ، فجاء يوماً بشيء ، فأكل منه أبو بكر ، فقال له الغلام : تدري ممَّ هذا؟ قال: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية ، وما أحسن الكهانة ، إلا أني خدعته ، فلقيني فأعطاني بذلك فهذا الذي أكلت منه ، فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه].

وقد أفاد شارح الطحاوية أن من يفعل أفعالاً من هذه خارجة عن الكتاب والسنة أحد أربعة أصناف :

أ ـ أهل تلبيس وخداع : كالذي يظهر طاعة الجن له أو يدعي الحال من أهل المحال : (كالمشايخ النصابين والفقراء الكاذبين) فيستحقون العقوبة البليغة.

ب ـ أهل زندقة وانحراف : كمن يدعي النبوة بهذه الخزعبلات أو يطلب تغيير شيء من الشريعة ، وهذا يستحق القتل.

---

(1) قال في فتح المجيد : (هذا من نصوص الوعيد التي كره السلف تأويلها ، وقالوا : أمِرُّوها كما جاءت ، ومن تأولها فهو على خطر من القول على الله بلا علم. وأحسن ما يقال : إن كل عمل دون الشرك والكفر المخرج من ملة الإسلام فإنه يرجع إلى مشيئة الله ، فإن عذبه فقد استوجب العذاب ، وإن غفر له فبفضله وعفوه ورحمته) (370).

(2) أي : مطلقاً ، ومنه التنجيم.

ج ـ أهل سحر واتصال بمردة الجن: فيتكلمون على سبيل الجد والحقيقة بأنواع السحر، ويجب قتل الساحر عند الجمهور.

د ـ أهل ادعاء للكشوف والفتوح: قوم منهمون بالأحوال الشيطانية وأن لهم خوارق وكشوفاً تقتضي بزعمهم أنهم أولياء الله. قال الشافعي رحمه الله: (إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تغتروا حتى تعرضوا أمره على الكتاب).

وذكر أهل العلم أنه يجب على ولي الأمر السعي لإزالة هؤلاء المنجمين والكهان والعرافين وأصحاب الضرب بالرمل ومنعهم من الجلوس في الحوانيت والطرقات، ويكفي من يعلم تحريم ذلك ولا يسعى في إزالته قوله تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ وقوله عليه الصلاة والسلام: [إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه].

وكذلك فإنه ليس للإنسان أن يستدعي ما يكون سبب زوال عقله، ولم يكن في الصحابة والتابعين من يفعل ذلك، ولو عند سماع القرآن، بل كما وصفهم الله بقوله: ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: 2]. ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 23]. ومن ثم فمن يدعي تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدُني كما بقصة موسى مع الخضر فهو ملحد زنديق. فإن موسى لم يكن مبعوثاً إلى الخضر ولم يكن الخضر مأموراً بمتابعته، ولهذا قال له: أنت موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم. ومحمد ﷺ مبعوث إلى جميع الثقلين.

17 ـ النهي عن النُّشرة:

النُّشْرة في لغة العرب من نَشَر إذا قطع. قال الرازي: (والتنشير من «النُّشْرة» وهي كالتعويذ والرقية. وفي الحديث أنه قال: (فلعلَّ طِبّاً أصابه يعني سِحْراً ثم «نشَّره» بقل أعوذ برب الناس) أي: رقاه، وكذا إذا كتب له النُّشْرة). فسميت نشرة لأنه ينشر بها عنه ما خامره من الداء، أي: يكشف ويزال.

قال الحسن: (النشرة من السحر). وقال ابن الجوزي: (النشرة: حل السحر عن المسحور. ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر).

وفي المسند وسنن أبي داود بإسناد حسن عن جابر : [أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة؟ فقال : هي من عمل الشيطان][1] .

قال أبو داود : (سئل أحمد عنها؟ فقال : ابن مسعود يكره هذا كله) .

وفي صحيح البخاري عن قتادة : [قلت لابن المسيب : رجل به طِب[2] أو يؤخذ عن امرأته ، أيُحَلّ عنه أو يُنشر؟ قال : لا بأس به ، إنما يريدون به الإصلاح ، فأما ما ينفع فلم ينه عنه][3] .

والمراد نوع من النشرة لا يعلم أنه سحر . قال ابن القيم : (النشرة حل السحر عن المسحور ، وهي نوعان : أحدهما : حل بسحر مثله ، وهو الذي من عمل الشيطان . وعليه يحمل قول الحسن ، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب ، فيبطل عمله عن المسحور . والثاني : النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة . فهذا جائز) فتح المجيد 346 .

وقال الإمام الطحاوي : (ولا نصدق كاهناً ولا عرافاً ، ولا من يدعي شيئاً يخالف الكتاب والسنة وإجماع الأمة) متن الطحاوية .

18 ـ النهي عن الاستسقاء بالأنواء :

الأنواء : جمع نَوْء[4] وهي منازل القمر ، فكانوا في الجاهلية ينسبون السقيا ومجيء المطر إليها . قال أبو السعادات : (وهي ثمان وعشرون منزلة ، ينزل القمر كل ليلة منزلة منها) .

وفي التنزيل : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾ [يس : 39] . أي : الأنواء ، فيسقط في الغرب كل ثلاث عشرة ليلة منزلة مع طلوع الفجر ، وتطلع أخرى مقابلتها ذلك

---

(1) أحمد في المسند (294/3) ، وأبو داود (3868) وإسناده حسن . انظر تحقيق فتح المجيد (343) .

(2) الطب من الأضداد . يقال لعلاج الداء : طب ، والسحر من الداء يقال له : طب . يقال : طُبَّ الرجل : إذا سُحر ، وكنوا عن السحر بالطب تفاؤلاً . كما يقال للديغ : سليم .

(3) رواه البخاري معلقاً (198/10) في الطب . ووصله أبو بكر الأثرم كما ذكر الحافظ في الفتح .

(4) إنما سمي نوْءاً : لأنه إذا سقط الساقط منها ناء الطالع بالمشرق ، أي : نهض وطلع .

الوقت من المشرق ، فتنقضي جميعها مع انقضاء السنة. فكان أهل الجاهلية يزعمون أن المطر يجيء مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها ويقولون مطرنا بنوء كذا وكذا فأكذبهم الوحي.

ففي الصحيحين عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: [صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحُديبية على إثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: أتدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بي ، كافر بالكوكب ، وأما من قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا ، فذلك كافر بي ، مؤمن بالكوكب][1].

وقد صنَّفه الإمام مسلم في صحيحه في الإيمان ، (باب بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء).

ثم روى عن ابن عباس بمعناه وفيه: (قال بعضهم: لقد صدق نَوء كذا وكذا. فأنزل الله هذه الآيات: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾[الواقعة: 75 - 82]).

وكذلك في الباب في صحيح مسلم عن ابن عباس قال: [مطر الناس على عهد النبي ﷺ ، فقال النبي ﷺ: أصبح من الناس شاكر ، ومنهم كافر. قالوا: هذه رحمة الله. وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا. قال: فنزلت هذه الآية ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾][2].

قال ابن جرير: (قال بعض أهل العربية: معنى قوله: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ فليس الأمر كما تقولون ، ثم استؤنف القسم بعد ، فقيل: أقسم بمواقع النجوم)[3].

وجواب القسم: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ والتقدير: ليس الأمر كما زعمتم في القرآن

---

(1) البخاري (277/2) في صفة الصلاة. ومسلم (71) في الإيمان.

(2) مسلم من حديث ابن عباس رقم (73).

(3) تفسير الطبري. الواقعة 75 - 82.

أنه سحر أو كهانة ، بل هو قرآن كريم ، والله سبحانه يقسم بما شاء من خلقه على ما شاء .

قال مجاهد : (مواقع النجوم : مطالعها ومشارقها) . والمراد أنه كما يهتدىٰ بالنجوم في ظلمات البر والبحر فكذلك آيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الغي والجهل ، فالأولى هداية حسية والثانية معنوية . والنجوم لها زينة ظاهرة ، وآيات القرآن لها زينة باطنة ، والنجوم رجوم للشياطين ، وكذلك القرآن رجومه أشد على شياطين الإنس والجن ، والنجوم آيات مشهودة عينية ، وآيات القرآن متلوة سمعية . ومن ثم فإن النجوم مقهورة بأمر الله ماضية بإذنه كما وصف الله في القرآن . وقوله : ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ قال ابن عباس : (الكتاب الذي في السماء . وفي رواية : ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ يعني : الملائكة) . وقال قتادة : (لا يمسه عند الله إلا المطهرون) . فإنه يمسه في الدنيا المجوسي والمنافق . وقال ابن زيد : (زعمت قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين ، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسه إلا المطهرون ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ [الشعراء : 210 - 212] . قال الحافظ ابن كثير : وهو قول جيد . وقال البخاري في صحيحه في هذه الآية : (لا يجد طعمه إلا من آمن به) . قال ابن القيم : (هذا من إشارة الآية وتنبيهها ، وهو أنه لا يلتذ به ، وبقراءته ، وفهمه ، وتدبره ، إلا من يشهد أنه كلام الله تكلم به حقاً ، وأنزله على رسوله وحياً)[1] .

وكذلك يشهد للنهي عن الاستسقاء بالأنواء ما في سورة الواقعة ، قول الله سبحانه : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ .

ففي المسند وجامع الترمذي بإسناد صحيح عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ يقول : شكركم ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ تقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا ، بنجم كذا وكذا][2] .

---

(1) فتح المجيد (381) .
(2) أحمد (89/1) والترمذي (3291) في التفسير . وهو صحيح كما في تحقيق فتح المجيد (371) .

قال الحسن: (تجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون، وخسر عبد لا يكون حظه من القرآن إلا التكذيب)[1].

وفي صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة][2].

وفي المسند بسند صحيح من حديث جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [أخاف على أمتي ثلاثاً: استسقاءً بالنجوم، وحَيْفَ السلطان، وتكذيباً بالقدر][3].

19 ـ النهي عن ترك الواجبات خوفاً من الناس:

فقد قال الله في سورة آل عمران: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 175].

فالخوف من أفضل مقامات الدِّين وأجلها، وأجمع أنواع العبادة وأرْفعها، ولا بد من إخلاص ذلك لله سبحانه، فقد أمر به ومدح أهله.

قال في سورة الأنبياء: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: 28].

وقال في سورة النحل: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: 50].

وقال في سورة الرحمن: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: 46].

وقال في سورة البقرة: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: 40].

وقال في سورة المائدة: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: 44].

قد قسم العلماء الخوف إلى ثلاثة أقسام:

الأول: خوف السر، وهو أن يخاف العبد غير الله أن يصيبه بمكروه أو ينزل به

(1) فتح المجيد (372).

(2) مسلم (943) في الجنائز.

(3) وقد مضى نحوه من رواية ابن عساكر عن أبي محجن مرفوعاً.

أذى، استقلالاً وابتداء، كخوفه من طاغوت أو وثن أو قبر أو جان. فهذا ينافي التوحيد وإخلاص التعظيم لله.

وقد عاب الله في القرآن على قوم هود إذ قالوا: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾. ومدح نبيَّه هوداً عليه الصلاة والسلام بجوابه لهم: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: 54 - 56].

وقال جل ثناؤه في سورة الزمر: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: 36].

الثاني: خوف الناس وكلامهم، وترك بعض الواجبات لإرضائهم.

وهذا محرم وداخل في أعمال الشرك، فإن كمال التوحيد يقتضي عدم الاكتراث بموافقتهم أو مخالفتهم.

ففي التنزيل: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ۝١٧٤ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 173 - 175].

قلت: وفي سورة العنكبوت: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: 10]. فلم ينفعهم قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ مع عدم صبرهم على أذى من عاداهم وتحملهم لإقامة أوامر الله، ومن ثم فلا ينفع القول والتصديق بدون العمل. وفيه ردٌّ على المرجئة والكرامية، فإن الإيمان الشرعي لا يصدق إلا باجتماع الثلاثة: التصديق بالقلب وعمله، والقول باللسان، والعمل بالأركان. وهذا قول أهل السنة والجماعة.

وفي صحيح ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: [أن النبي ﷺ قال: لا يحقر أحدكم نفسه. قالوا: يا رسول الله! كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: يرى أمراً لله عليه فيه مقال، ثم لا يقول فيه، فيقول الله عز وجل له يوم

القيامة: ما منعك أن تقول في كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس ، فيقول الله: فإياي كنت أحق أن تخشى][1].

وفي صحيح الترمذي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لمعاوية: [من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس ، ومن التمس رضىٰ الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس].

ورواه ابن حبان في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: [من التمس رِضى الله بسخط الناس ، رضي الله عنه وأرضى عنه الناس ، ومن التمس رضىٰ الناس بسخط الله ، سخِطَ الله عليه وأسخط عليه الناس] وهو حديث صحيح[2].

ورواه أبو نعيم في الحلية بنحو رواية الترمذي عن رجل من أهل المدينة قال: [كتب معاوية رضي الله عنه إلى عائشة رضي الله عنها: أن اكتبي لي كتاباً توصيني فيه ، ولا تكثري عليَّ ، فكتبت عائشة رضي الله عنها إلى معاوية: سلام عليك ، أما بعد: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من التمس رضىٰ الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس ، ومن التمس رضىٰ الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس). والسلام عليك][3].

قال شيخ الإسلام: (وكتبت عائشة إلى معاوية ، وروي أنها رفعته «من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس ، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً» هذا لفظ المرفوع. ولفظ الموقوف: «من أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس ، ومن أرضى الناس بسَخط الله عاد حامده من الناس له ذاماً» وهذا من أعظم الفقه في الدين ، فإن من أرضى الله بسخطهم كان قد اتقاه وكان عبده الصالح ، والله يتولى الصالحين ، والله كاف عبده ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ والله يكفيه مؤونة الناس بلا ريب)[3].

---

(1) ابن ماجه في الفتن (4008) باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهو حديث صحيح. وانظر تحقيق فتح المجيد (402).
(2) فتح المجيد (405).
(3) فتح المجيد (410).

وقد أحسن من قال:

إذا صح منك الود يا غاية المنىٰ　　فكل الذي فوق التراب تراب

قال ابن رجب رحمه الله: (فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب فهو تراب، فكيف يقدم طاعة من هو تراب على طاعة رب الأرباب؟ أم كيف يرضي التراب بسخط الملك الوهاب؟ إن هذا لشيء عجاب)(1).

قال في فتح المجيد: (وفي الحديث: عقوبة من خاف الناس وآثر رضاهم على الله، وأن العقوبة قد تكون في الدين. عياذاً بالله من ذلك. كما قال تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: 77])(2).

الثالث: الخوف الطبيعي:

وهو الخوف من عدو أو سبع أو أمر مفزع، فهو نوع من الخوف فطر الله الناس عليه، ولا يُذَمُّ مَنْ يشعر به ولا يعاب عليه إلا أن يتجاوز حدوده أو يبالغ فيه. ويُمَثَّل له بقوله تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: 21]. وبقوله جل ثناؤه: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [الشعراء: 21]. وبقوله جل ذكره: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ [ص: 22].

والمقصود في التصنيف هنا أن يخلص العبد خوفه لله فيقيم أمره ولا يخاف في الله لومة لائم.

قال ابن القيم رحمه الله: (ومن كيد عدو الله: أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه، لئلا يجاهدوهم، ولا يأمروهم بمعروف، ولا ينهوهم عن منكر. وأخبر تعالى أن هذا من كيد الشيطان وتخويفه، ونهانا أن نخافهم).

ثم فسّر قول الله في سورة الزمر: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ قال: (والمعنى عند جميع المفسرين: يخوفهم بأوليائه. قال قتادة: يعظمهم في صدوركم. فكلما قوي إيمان العبد زال خوف أولياء الشيطان من قلبه، وكلما

---

(1) فتح المجيد (410).

(2) المرجع السابق.

ضعف إيمانه قوي خوفه منهم. فدلت هذه الآية على أن إخلاص الخوف من كمال شروط الإيمان)[1].

وفي التنزيل: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ[2] وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: 18].

قال ابن عطية: (يريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة، ولا محالة أن الإنسان يخشى المحاذير الدنيوية، وينبغي أن يخشى في ذلك كله قضاء الله وتصريفه).

وقال ابن القيم: (الخوف عبودية القلب، فلا يصلح إلا لله، كالذل والإنابة والمحبة والتوكل والرجاء وغيرها من عبودية القلب)[3].

20 ـ النهي عن القنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله:

قال الله في سورة الحجر: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: 56].

وقال في سورة الأعراف: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: 99].

فالقنوط: استبعاد الفرج واليأس منه. وهو يقابل الأمن من مكر الله. وكلاهما ذنب عظيم ينافي كمال التوحيد، فإن المؤمن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء.

قال الحسن البصري: (من وسَّع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأي له).

وقال قتادة: (بَغَت القومَ أمرُ الله، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سَلْوتهم ونعمتهم وغِرَّتهم. فلا تغتروا بالله).

---

(1) فتح المجيد (402).

(2) وفي الحديث: [إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾] رواه أحمد والترمذي والحاكم عن أبي سعيد. لكن في سنده ضعف. قال بعض المحدِّثين: (وللحديث شاهد من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، عند الديلمي بلفظ: «إذا رأيتم الرجل يلزم المسجد فلا تتحرجوا أن تشهدوا له أنه مؤمن» ولعله يقوى به). فتح المجيد (402).

(3) فتح المجيد (403).

يروي الطبراني بسند صحيح عن عقبة بن عامر رضي الله عنه ، قال رسول الله ﷺ : [إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب ، فإنما هو استدراج][1] .

وفي رواية : [إذا رأيت الله تعالى يُعطي العبد من الدنيا ما يحب ، وهو مقيم على معاصيه ، فإنما ذلك منه استدراج] .

وله شاهد في مسند الإمام أحمد عن عقبة بن عامر مرفوعاً : [إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج ، ثم تلا : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾[2]] .

قال إسماعيل بن رافع : (من الأمن من مكر الله : إقامة العبد على الذنب ، يتمنى على الله المغفرة) .

والمقصود : أن الله سبحانه يستدرج الظالمين بالنعم ويملي لهم ، ثم ينتقم منهم فيأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

ففي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : [إن الله تعالى ليُملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يُفلته] . وفي لفظ مسلم : (ثم قرأ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾)[3] .

وعند الطبراني ورجاله ثقات عن ابن عباس : [أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر؟ فقال : الشرك بالله ، واليأس من رَوْح الله ، والأمن من مكر الله][4] .

وروى عبد الرزاق عن ابن مسعود قال : [أكبر الكبائر الإشراك بالله ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، واليأس من رَوْحِ الله][5] .

---

(1) تحقيق فتح المجيد (421) .
(2) الأنعام . والحديث صححه الألباني في السلسلة (414/1) .
(3) مختصر مسلم (1831) .
(4) وإسناده صحيح . انظر تحقيق فتح المجيد (422) .
(5) المرجع السابق (424) .

وفي التنزيل: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: 87].

قال أبو السعادات: («والقنوط من رحمة الله» هو أشد اليأس).

وقال أبو سليمان الداراني: (ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإذا غلب الرجاء الخوف فَسَدَ القلب)[1].

21ـ النهي عن النياحة على الميت وضرب الخدود وشق الجيوب:

فقد قال الله جل ثناؤه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 155 - 157].

وقال جل ذكره: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: 11].

قال علقمة[2]: (هو الرجل تصيبُه المصيبة فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم) ذكره البخاري معلقاً عن علقمة عن ابن مسعود رضي الله عنه بمعناه.

وأورد الحافظ ابن حجر في الفتح رواية أخرى عزاها للبرقاني عن علقمة قال: (شهدنا عنده ـ يعني عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ـ عرض المصاحف فأتى على هذه الآية: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ قال: هي المصيبات تعقب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيسلم ويرضى).

وعند ابن جرير عن ابن عباس قال: (المعنىٰ: يهدي قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: [اثنتان في الناس هما بهم كفر[3]: الطعن في النسب والنياحة على الميت][4].

---

(1) المرجع السابق (424).

(2) هو علقمة بن قيس النخعي الكوفي ولد في حياة النبي ﷺ وسمع من الخلفاء الأربعة وسعد وابن مسعود وعائشة وغيرهم، وهو من كبار التابعين وأجلائهم وعلمائهم. مات بعد الستين.

(3) أي من أعمال الكفر في الجاهلية.

(4) أي رفع الصوت بالندب وتعداد فضائل الميت، ففيه تسخط بالقدر. والحديث رواه مسلم (67) في الإيمان.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود مرفوعاً: [ليس منا من ضَرَبَ الخدود وشقَّ الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية][1].

قال الحافظ: (خصَّ الخد لكونه الغالب، وإلا فضرب بقية الوجه مثله).

وقوله: «وشق الجيوب»: هو الذي يدخل فيه الرأس من الثوب. وقد كانت هذه من عادات الجاهلية عند مصيبة الموت والحزن على الميت.

وفي صحيح ابن ماجه عن أبي أمامة: [أن رسول الله ﷺ لعن الخامشة وجهها، والشاقة جيبها، والداعية بالويل والثبور][2].

وقوله: «ودعا بدعوى الجاهلية» قال شيخ الإسلام: (هو ندب الميت). وقال غيره: (هو الدعاء بالويل والثبور). وقال ابن القيم: (الدعاء بدعوى الجاهلية، كالدعاء إلى القبائل والعصبية، ومثله التعصب إلى المذاهب والطوائف والمشايخ، وتفضيل بعضهم على بعض، يدعو إلى ذلك، ويوالي عليه ويعادي. فكل هذا من دعوى الجاهلية)[3].

وإنما الواجب عند المصيبة الصبر والرضا بقدر الله وأمره، فإن المصائب مكفرات للذنوب.

ففي جامع الترمذي بسند حسن عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: [إذا أراد الله بعبده الخير عَجَّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشرَّ أمسك عنه بذنبه حتى يُوافىٰ به يوم القيامة][4].

قال شيخ الإسلام: (المصائب نعمة، لأنها مكفِّرات للذنوب، وتدعو إلى الصبر فيثاب عليها. وتقتضي الإنابة إلى الله والذل له، والإعراض عن الخلق، إلى غير ذلك من المصالح العظيمة)[5].

---

(1) البخاري (131/3 و132) في الجنائز، ومسلم (103) في الإيمان.
(2) سنن ابن ماجه (1585) في الجنائز. وهو حديث حسن. فتح المجيد تحقيق الأرناؤوط (429).
(3) فتح المجيد (429).
(4) الترمذي (2398) في الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء. والحديث صحيح بشواهده. تحقيق فتح المجيد (431).
(5) فتح المجيد (431).

وفي جامع الترمذي وسنن ابن ماجه بسند حسن عن أنس ، قال رسول الله ﷺ: [إن عِظَمَ الجزاء مع عِظَم البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا(1) ، ومن سخطَ فله السخط].

قال أبو السعادات: (السخط: الكراهية للشيء وعدم الرضا به). أي: من سخط على الله فيما قدَّره وأراده فله السخط من الله ، وقد جاء الأمر بالصبر في الكتاب والسنة).

قال شيخ الإسلام: (وأعلى من ذلك ـ أي من الرضا ـ أن يشكر الله على المصيبة لما يرىٰ من إنعام الله عليه بها)(2).

22 ـ النهي عن الرياء وحب الرياسة والشهرة والتعظيم:

قال جل ثناؤه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: 110]. ولقاء الله يتضمن رؤيته سبحانه يوم القيامة كما ذكر أهل العلم ، وقد ربط الله ذلك بالعمل الخالص من الرياء والمقيد بالسنة.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: [قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركتُه وشِرْكه](3).

وفي المسند ومستدرك الحاكم بسند حسن عن شداد بن أوس مرفوعاً: [من صلىٰ يرائي فقد أشرك ، ومن صام يرائي فقد أشرك ، ومن تصدق يرائي فقد أشرك ، وإن الله عز وجل يقول: أنا خير قسيم لمن أشرك بي ، فمن أشرك بي شيئاً فإن حشده عمله وقليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به. أنا عنه غني](4).

قال ابن رجب رحمه الله: (واعلم أن العمل لغير الله أقسام: فتارة يكون رياء محضاً كحال المنافقين. كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ

---

(1) قال شيخ الإسلام: (ولم يجىء الأمر به كما جاء الأمر بالصبر ، وإنما جاء الثناء على أصحابه) والحديث حسن الإسناد. انظر فتح المجيد (432).

(2) فتح المجيد (434).

(3) مسلم (2985) في الزهد والرقائق.

(4) أحمد (126/4) والحديث حسن بشواهد. تحقيق فتح المجيد (438).

﴿النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 142]. وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر عن مؤمن في فرض الصلاة والصيام. وقد يصدر في الصدقة أو الحج الواجب أو غيرهما من الأعمال الظاهرة، أو التي يتعدَّىٰ نفعها، فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة. وتارة يكون العملُ لله ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه.

ثم قال: فإن خالط نية الجهاد مثلاً نية غير الرياء، مثل أخذ أجرة للخدمة أو أخذ شيء من الغنيمة أو التجارة، نقص بذلك أجر جهاده، ولم يبطل بالكلية[1]. قال: وأما إن كان أصل العمل لله، ثم طرأ عليه نية الرياء: فإن كان خاطراً ثم دفعه فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه فهل يحبط عمله أم لا، فيجازىٰ على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء)[2].

وقد ثبت أن النبي ﷺ سمَّى الرياء بالشرك الأصغر كما سمَّاه بالشرك الخفي أو شرك السرائر، لأن صاحبه يظهر أن عمله لله وقد قصد غيره أو شركه فيه بتزيين العبادة لأجله.

فقد أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن محمود بن لَبيد[3]: أن رسول الله ﷺ قال: [إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء. قال الله تعالى يوم القيامة إذا جازىٰ الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً][4]؟

---

(1) قال الإمام أحمد: (التاجر والمستأجر والمكري أجرهم على قدر ما يخلص من نياتهم في غزواتهم، ولا يكونون مثل من جاهد بنفسه وماله لا يخلط به غيره). أما إن أعطي ولم يطلب جاز له أخذه.

(2) رجح الإمام أحمد أنه لا يبطل. وفي صحيح مسلم عن أبي ذر عن النبي ﷺ: [أنه سئل عن الرجل يعمل العمل من الخير يحمده الناس عليه، فقال: تلك عاجل بشرى المؤمن] ذكره في باب «إذا أثني على الصالح فهي بشرى ولا تضره». وانظر فتح المجيد (439).

(3) رأى النبي ﷺ ولم يصح له منه سماع وذكر البخاري أن له صحبة مات 96 هـ وله تسع وتسعون سنة.

(4) صحيح الجامع (1551).

وفي المسند أيضاً عن أبي سعيد مرفوعاً: [ألا أخبركم بما هو أخوفُ عليكم عندي من المسيح الدجال؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: الشرك الخفي: يقوم الرجل فيصلي فيُزين صلاته، لما يرىٰ من نظر رجل] وسنده حسن[1].

وهو عند ابن خزيمة من حديث محمود بن لبيد قال: [خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس، إياكم وشرك السرائر، قالوا: يا رسول الله وما شرك السرائر؟ قال: يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر الرجل إليه. فذلك شرك السرائر][2].

قال ابن القيم: (وأما الشرك الأصغر فكيسير الرياء والتصنع للخلق والحلف بغير الله، وقول الرجل للرجل: ما شاء الله وشئت، وهذا من الله ومنك، وأنا بالله وبك، ومالي إلا الله وأنت، وأنا متوكل على الله وعليك، ولولا الله وأنت لم يكن كذا وكذا. وقد يكون هذا شركاً أكبر بحسب حال قائله ومقصده) فتح المجيد 441.

وخلاصة القول: لا بد من إخلاص التوجه لله وصرف العبادة له وحده، كما قال الفضيل بن عياض رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ قال: (أخلصه وأصوبه). قيل: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: (إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، فالخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنة).

وفي المسند بسند حسن عن بَهْز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال للنبي ﷺ: والله يا رسول الله ما أتيتك إلا بعد ما حلفتُ عدد أصابعي هذه: أن لا آتيك. فبالذي بعثك بالحق، ما الذي بعثك به؟ قال: الإسلام. قال: وما الإسلام؟ قال: أن تُسلم قلبك لله، وأن تُوجِّه وجهك إلى الله، وأن تصلي الصوات المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة].

وأما حب الظهور فإنه كما قيل يقطع الظهور، وكذلك حب الرياسة وإرادة الشهرة، فإنه من شر ما يسيطر على العبد ويبعده عن الإخلاص لربه عز وجل.

---

(1) أحمد في المسند (30/3).

(2) ورواه البيهقي في السنن (290/2)، وهو حديث حسن: فتح المجيد (440).

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [تَعِسَ عبدُ الدينار ، تَعِسَ عبدُ الدرهم ، تَعِسَ عبدُ الخميصة[1] ، تعِس عبد الخميلة[2] ، إن أُعطي رضيَ ، وإن لم يُعط سَخِط ، تعِسَ وانْتكَس ، وإذا شيكَ فلا انْتقشَ ، طوبى لعبدٍ أخذ بِعنان فَرَسه في سبيل الله ، أشعث رأسهُ ، مغبرةٌ قدماه . إن كان في الحراسة كان في الحراسة[3]. وإن كان في الساقة كان في الساقة ، إن استأذنَ لم يُؤذن له ، وإن شفع لم يُشَفَّع][4].

فدعا النبي ﷺ بالهلاك على عبد الشهوة والدنيا ، لأنه توجه بقصده لغير الله . قال الطيبي : (فيه الترقي بالدعاء عليه ، لأنه إذا تعس انكب على وجهه)[5].

وقوله: «وإذا شيك»: أي: أصابته شوكة «فلا انتقش» أي: فلا يقدر على إخراجها بالمنقاش. وطوبى شجرة في الجنة ، مسيرة مائة سنة ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها كما جاء في المسند وغيره ، وقد وصف ذلك النبي ﷺ لرجل شغله الجهاد في سبيل الله عن الدنيا ، فهو أشعث الرأس أي : طائر الشعر قد شغله الجهاد عن التنعم بالإدهان وتسريح الشعر ، وهو لا يبالي أكان في حماية الجيش والمقدمة ، أم كان في الساقة أي : المؤخرة ، فهو يقلب نفسه في مصالح الجهاد ، وهو مثل لنسيان حظ النفس وشهواتها .

قال ابن الجوزي : (وهو خامل الذكر لا يقصد السموَّ)[6]. وقال الخلخالي : (المعنى : ائتماره بما أمر ، وإقامته حيث أقيم. لا يفقد من مقامه ، وإنما ذكر الحراسة والساقة لأنهما أشد مشقة)[6].

وفي المسند بسند حسن عن عثمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ

---

(1) ثوب خَزّ أو صوف .
(2) ذات الخمل .
(3) تمثل به العرب لمن قام بالأمر على وجه الكمال .
(4) رواه البخاري (61/6) في الجهاد .
(5) فتح المجيد (447) .
(6) المرجع السابق (452) .

يقول: [حرسُ ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها][1].

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن المبارك: قال عبد الله بن محمد قاضي نصيبين: (حدثني محمد بن إبراهيم بن أبي سكينة أنه أملى عليه عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس وواعده الخروج. وأنشدها معه إلى الفضيل بن عياض في سنة سبع وسبعين ومائة. قال:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا	لعلمتَ أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه	فنحورنا بدمائنا تتخضب
أوكان يتعب خيله في باطل	فخيولهم يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم، ونحن عبيرنا	رَهَج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا	قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي غبار خيل الله في	أنف امرئٍ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا	ليس الشهيد بميِّت لا يكذب

قال: فلقيت الفضيل بكتابه في المسجد الحرام، فلما قرأ ذرفت عيناه، فقال: صدق أبو عبد الرحمن ونصحني، ثم قال: أنت ممن يكتب الحديث؟ قلت: نعم، قال لي: اكتب هذا الحديث، وأملىٰ عليَّ الفضيلُ بن عياض: حدثنا منصور بن المعتمر، عن أبي صالح، عن أبي هريرة: [أن رجلاً قال: يا رسول الله، علمني عملاً أنال به ثواب المجاهدين في سبيل الله. فقال: هل تستطيع أن تصلي فلا تفتر، وتصوم فلا تفطر؟ فقال: يا رسول الله أنا أضعف من أن أستطيع ذلك، ثم قال النبي ﷺ: فوالذي نفسي بيده لو طُوِّقت ذلك ما بلغت فضل المجاهدين في سبيل الله. أما علمت أن فرس المجاهد لَيستَنّ في طِوَله فيكتب له بذلك حسنات][2].

23ـ **النهي عن تقديم قول أحد أو رأي إمام على قول الله ورسوله:**

فقد قال الله في سورة الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: 1].

---

(1) أحمد في المسند (61/1 - 65). ورواه ابن ماجه في الجهاد (2766) باب فضل الرباط في سبيل الله وكذلك الترمذي والنسائي. قال في تحقيق فتح المجيد: وهو حديث صحيح بطرقه.

(2) وله شاهد عند البخاري (3/6) في الجهاد. وأحمد (344/2) في المسند من حديث أبي هريرة.

وقال في سورة النساء: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: 65].

ولما عارض بعض الناس حديث رسول الله ﷺ لرأي أبي بكر وعمر صرخ فيهم ابن عباس قائلاً: (يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟)(1).

وذلك أن أبا بكر وعمر كانا لا يريان التمتع بالعمرة إلى الحج، ويريان أن إفراد الحج أفضل، وكان ابن عباس يرى أن التمتع بالعمرة إلى الحج واجب، لقول النبي ﷺ - كما في الصحيحين عن جابر -: (افعلوا ما أمرتكم به، فلولا أني سُقْت الهدي لفعلت مثل الذي أمرتكم). ولحديث عائشة - الذي في الصحيحين - أن النبي ﷺ قال: (لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت، ولولا أن معي الهدي لأحللت).

وكان ابن عباس يقول: (إذا طاف بالبيت وسعىٰ بين الصفا والمروة سبعة أشواط فقد حلَّ من عمرته شاء أم أبى).

وثبت عن الإمام الشافعي القول: (أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد)(2).

وكذلك ثبت عن الإمام مالك القول: (ما منا إلا رادّ ومردود عليه، إلا صاحب هذا القبر ﷺ)(3).

---

(1) فتح المجيد (456).

(2) كان طلب الأحاديث في عصر الأئمة الأربعة رحمهم الله ممن هي عنده باللقى والسماع، ويسافر الرجل في طلب الحديث إلى الأمصار عدة سنين. ثم حصلت العناية بالتصنيف والتدوين والأسانيد مع بيان صحة الأحاديث وضعفها فسهل الأمر على طالب العلم تتبع الدليل الصحيح وخاصة مع الاستفادة من العلماء المحققين الذين أتوا بعد الأئمة الأربعة رحمهم الله جميعاً.

(3) فتح المجيد (457).

وفي المسند عن ابن عباس قال: (ليس منا أحد إلا يؤخذ من قوله ويدع ، غير النبي ﷺ)[1].

قال الإمام أحمد: (عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته ، ويذهبون إلى رأي سفيان. والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 63]. أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك. لعله إذا رَدَّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك)[2].

وروى الفضل بن زياد عن الإمام أحمد أنه قال: (نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول ﷺ في ثلاث وثلاثين موضعاً ، ثم جعل يتلو: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ الآية. فذكر من قوله: الفتنة: الشرك ـ إلى قوله ـ فيهلك) ثم جعل يتلو هذه الآية: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[3].

وروى أبو طالب عن الإمام أحمد وقيل له: «إن قوماً يدعون الحديث ويذهبون إلى رأي سفيان وغيره» ، فقال: (أعجب لقوم سمعوا الحديث وعرفوا الإسناد وصحته يدعونه ، ويذهبون إلى رأي سفيان[4] وغيره ، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الكفر. قال الله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾[5] فيدعون الحديث عن رسول الله ﷺ وتغلبهم أهواؤهم إلى الرأي)[6].

وقال أبو حنيفة رحمه الله: (إذا جاء الحديث عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس

---

(1) المرجع السابق (458).
(2) فتح المجيد (459).
(3) المرجع السابق.
(4) هو سفيان الثوري الإمام الزاهد ، العابد الثقة الفقيه ، وكان له أصحاب يأخذون عنه ومذهبه مشهور في كتب العلماء كالتمهيد لابن عبد البر ، والاستذكار له ، والمحلى لابن حزم ، والمغني لابن قدامة.
(5) سورة البقرة آية 217.
(6) فتح المجيد (459).

والعين ، وإذا جاء عن الصحابة رضي الله عنهم فعلى الرأس والعين ، وإذا جاء عن التابعين فنحن رجال وهم رجال) .

وقال : (إذا قلت قولاً وكتاب الله يخالفه ، فاتركوا قولي لكتاب الله . قيل : إذا كان قول رسول الله ﷺ يخالفه؟ قال : اتركوا قولي لخبر رسول الله ﷺ . قيل : إذا كان قول الصحابة يخالفه؟ قال : اتركوا قولي لقول الصحابة)(1) .

وقال الربيع : (سمعت الشافعي رحمه الله يقول : إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ فخذوا بسنة رسول الله ﷺ ودعوا ما قلت) .

وقال الشافعي : (إذا صح الحديث بما يخالف قولي فاضربوا بقولي الحائط)(2) .

وقال مالك : (كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ)(2) .

وأما طاعة الأمراء فواجبة في غير مخالفة شرعية أو معصية ، ولا عذر للأمة عند الله في ترك هدي النبي ﷺ لآراء الطغاة وأهوائهم .

فقد روى الدارمي بسند حسن في المقدمة (باب في كراهية أخذ الرأي) عن زياد بن حُدير قال : قال لي عمر رضي الله عنه : (هل تعرف ما يهدمُ الإسلام؟ قلت : لا . قال : يهدمه زَلَّة العالم ، وجدال المنافق بالقرآن ، وحكم الأئمة المضلين)(3) .

أعاذنا الله سبحانه من متابعة أهل الهوى والبغي والضلال ، وجعلنا من الذين يهدون بالحق وبه يعدلون ، إنه بر مُجيب رحيم .

24 ـ النهي عن جحود النعم أو نسبها إلى النفس ونسيان المنعم سبحانه :

قال الله في سورة النحل : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [النحل : 83] . وذكر ابن جرير عن السدي : (﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ قال : محمد ﷺ) .

وعن مجاهد : (قال : هي المساكن والأنعام وما يرزقون منها ، والسرابيل من

---

(1) المرجع السابق (462) .
(2) المرجع السابق .
(3) رواه الدارمي (71/1) في المقدمة ، وإسناده حسن . تحقيق فتح المجيد (465) .

الحديد والثياب ، تعرف هذا كفار قريش ثم تنكره ، بأن تقول: هذا كان لآبائنا فورَّثونا إياه).

وقيل: (معنى ذلك أن الكفار إذا قيل لهم: من رزقكم؟ أقروا بأن الله هو الذي يرزقهم ، ثم ينكرونه بقولهم: رزقنا ذلك بشفاعة آلهتنا).

وقيل: بل المعنى: (إنكارهم إياها: أن يقول الرجل: لولا فلان ما كان كذا وكذا ، ولولا فلان ما أصبت كذا وكذا).

وبنحوه ذَكَرَ مجاهد[1] ، قال: (هو قول الرجل: هذا مالي ، ورثته عن آبائي).

وقال عون بن عبد الله: (يقولون: لولا فلان لم يكن كذا).

وقال قتيبة: (يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا).

قال شيخ الإسلام: (بعد ذكر حديث زيد بن خالد ، الذي فيه قول الله تعالى: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر» قال: وهذا كثير في الكتاب والسنة ، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به. قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبة ، والملاَّح حاذقاً. ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثير)[2].

وعند ابن أبي حاتم عن ابن عباس: (﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال: الأنداد: هو الشركُ ، أخفىٰ من دبيب النمل على صَفاةٍ سوداء في ظُلمة الليل. وهو أن تقول: والله ، وحياتك يا فلان ، وحياتي ، وتقول: لولا كُليبةُ هذا لأتانا اللصوص ، ولولا البَطُّ في الدار لأتانا اللصوص. وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت ، وقول الرجل: لولا الله وفلان ، لا تجعل فيها فلاناً. هذا كلُّه به شرك)[3].

وفي المسند وجامع الترمذي بسند صحيح عن الحارث الأشعري: [أن نبي الله ﷺ قال: إن الله أمر يحيىٰ بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات: أن يعمل

---

(1) هو شيخ التفسير مجاهد بن جَبْر المكي مولى بني مخزوم. قال الفضل بن ميمون: سمعت مجاهداً يقول: (عرضت المصحف على ابن عباس مرات ، أقفه عند كل آية ، وأسأله: فيم نزلت؟ وكيف نزلت؟ وكيف معناها؟) توفي سنة 102 هـ وله ثلاث وثمانون سنة.

(2) فتح المجيد (492).

(3) فتح المجيد (496).

بهن ، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن ، وأنه كاد أن يبطىء بها . فقال له عيسىٰ عليه السلام : إن الله أمرك بخمس كلمات : أن تعمل بهن ، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن ، فإما أن تبلغهن ، وإما أن أبلغهن ، فقال : يا أخي إني أخشىٰ إن سبقتني أن أعذب أو يخسف بي . قال : فجمع يحيىٰ بن زكريا بني إسرائيل في بيت المقدس ، حتى امتلأ المسجد وقُعد على الشرف . فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن الله أمرني بخمس كلمات : أن أعمل بهن ، وآمركم أن تعملوا بهن .

أولاهن : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، فإن مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو وَرِق ، فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده ، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك ؟ وإن الله خلقكم ورزقكم ، فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً .

وآمركم بالصلاة ، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا . وآمركم بالصيام ، فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك . وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من المسك .

وآمركم بالصدقة ، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يديه إلى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال لهم : هل لكم أن أفتدي نفسي منكم ؟ فجعل يفتدي بالقليل والكثير حتى فكَّ نفسه .

وآمركم بذكر الله كثيراً ، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره ، فأتىٰ حصناً حصيناً فتحصن فيه ، وإن العبد أحصنُ ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله . قال : وقال رسول الله ﷺ : وأنا آمركم بخمس ، الله أمرني بهن : الجماعة ، والسمع ، والطاعة ، والهجرة ، والجهاد في سبيل الله . فإنه من خرج من الجماعة قِيْدَ شبر فقد خلع رِبْقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع ، ومن دعا بدعوىٰ الجاهلية فهو من جُثىٰ جهنم . قالوا : يا رسول الله وإن صلىٰ وصام ؟ فقال : وإن صلىٰ وصام ، وزعم أنه مسلم ، فادعوا المسلمين بأسمائهم التي سمَّاهم الله عز وجل : المسلمين المؤمنين ، عبادَ الله][1] .

---

(1) أحمد في المسند (202/4) ، والترمذي (2867) وهو حديث صحيح كما في صحيح الجامع . وانظر تحقيق فتح المجيد (495) .

والشاهد هنا قوله: (وإن الله خلقكم ورزقكم، فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً).

وأنشد ابن المعتز في هذا المعنى:

فيا عجباً كيف يُعصَى الإلـ ـه، أم كيف يجحده الجاحد؟
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وأنشد أبو نواس كذلك:

تأمل في نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لُجين ناظرات بأحداق هي الذهب السبيك
على قُضُب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

25ـ النهي عن الحلف بغير الله، وقول الرجل لصاحبه ما شاء الله وشئت:

قال الله في سورة البقرة: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 22].

وفي صحيح الترمذي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: [مَنْ حَلَفَ بغير الله فقد كفر، أو[1] أشرك] ورواه أحمد[2].

قال ابن مسعود: (لأن أحلف بالله كاذباً أحبُّ إليَّ من أن أحلف بغيره صادقاً).

قال في فتح المجيد: (ومن المعلوم أن الحلف بالله كاذباً كبيرة من الكبائر، لكن الشرك أكبر من الكبائر وإن كان أصغر. قال: فإذا كان هذا حال الشرك الأصغر، فكيف بالشرك الأكبر الموجب للخلود في النار؟ كدعوة غير الله والاستغاثة به، والرغبة إليه، وإنزال حوائجه به، كما هو حال الأكثر من هذه الأمة في هذه الأزمان وما قبلها: من تعظيم القبور، واتخاذها أوثاناً، والبناء عليها، واتخاذها مساجد، وبناء المشاهد باسم الميت لعبادة من بنيت باسمه وتعظيمه، والإقبال عليه بالقلوب والأقوال والأعمال)[3].

---

(1) قيل «أو» شَكٌّ من الراوي. ويحتمل أن تكون بمعنى الواو، أي: قد كفر وأشرك، ويكون من الكفر الذي هو دون الكفر الأكبر. كما هو من الشرك الأصغر.

(2) أحمد في المسند (69/2). والترمذي (1535) في النذور والأيمان. و هو حديث صحيح. تحقيق فتح المجيد (496).

(3) فتح المجيد (497).

وفي صحيح أبي داود عن حُذيفة ، عن النبي ﷺ قال: [لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان][1].

فالعطف يعني تسوية المعطوف بالمعطوف عليه[2] ، وهذا شرك. وفي التنزيل: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: 97 - 98].

وفي الأثر عن إبراهيم النخعي: (أنه يكره أن يقول: أعوذ بالله وبك. ويجوز أن يقول: بالله ثم بك[3] ، قال: ويقول: لولا الله ثم فلان. ولا تقولوا: لولا الله وفلان).

وفي المسند وصحيح النسائي عن قُتَيلة بنت صيفي الأنصارية أو الجهنية رضي الله عنها: [أن يهودياً أتىٰ النبي ﷺ ، فقال: إنكم تشركون تقولون: ما شاء الله وشئت ، وتقولون: والكعبة. فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: وربِّ الكعبة. وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت][4].

وفي المسند بسند صحيح عن ابن عباس: [أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت ، فقال: أجعلتني لله نداً ، ما شاء الله وحده][5].

وهو عند ابن ماجه بلفظ: [إذا حلف أحدكم فلا يقل: ما شاء الله وشئت ، ولكن ليقل ما شاء الله ثم شئت][6].

وله شاهد عنده من حديث الطفيل بن سَخْبَرَة أخي عائشة لأمها قال: [رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود ، قلت: إنكم لأنتم القوم ، لولا أنكم تقولون: عُزير ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم ، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. ثم

---

(1) أبو داود (4980) في الأدب ، ورواه أحمد في المسند (384/5) وهو حديث صحيح. تحقيق فتح المجيد (499).
(2) أي تسوية المخلوق بالخالق عز وجل.
(3) والمراد الحي الحاضر الذي له قدرة وسبب في الشيء. وأما الأموات فلا يقال في حقهم ذلك.
(4) أحمد (371/6). والنسائي (6/7) في الأيمان والنذور. وهو حديث صحيح كما في تحقيق فتح المجيد (503).
(5) أحمد (214/1).
(6) ابن ماجه (2117) في الكفارات. باب النهي أن يقال: شاء الله وشئت. وهو حديث صحيح.

مررت بنفرٍ من النصارى فقلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبحتُ أخبرتُ بها من أخبرت. ثم أتيتُ النبي ﷺ فأخبرته، قال: هل أخبرت بها أحداً؟ قلت: نعم. قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعدُ، فإن طُفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده][1].

ورواه من حديث ربعي بن حِرَاش عن حذيفة: [أن رجلاً من المسلمين رأى في النوم أنه لقي رجلاً من أهل الكتاب فقال: نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون، تقولون ما شاء الله وشاء محمد، وذُكر ذلك للنبي ﷺ فقال: أما والله إن كنت لأعرفها لكم. قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد][2].

ثم ختام هذا البند أنه لا بد لمن حُلِفَ له بالله أن يرضىٰ ويقنع، وقد صنَّفَ ابن ماجه باباً بهذا في الكفارات، فروىٰ بسند حسن عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: [لا تحلفوا بآبائكم، من حُلِفَ له بالله فليصدق، ومن حُلِفَ له بالله فليرْضَ، ومن لم يرض فليس من الله][3].

وهذا باب واسع لإعادة المحبة بين المتخاصمين واجتماع القلوب على طاعة الله، فإن من حق المسلم على المسلم أن يقبل منه إذا حلف له معتذراً أو متبرئاً من تهمة. وفي الأثر عن عمر: (ولا تظنن بكلمة خرجت من مسلم شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً).

26 ـ النهي عن سب الدهر:

قال الله في سورة الجاثية: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الدهر: 24].

---

(1) ابن ماجه (2118) في الكفارات. وانظر تحقيق فتح المجيد (506).

(2) ورواه أحمد (72/5) والدارمي (295/2). فتح المجيد تحقيق الأرناؤوط، قال: وهو حديث حسن.

(3) ابن ماجه (2101) في الكفارات، وهو حديث صحيح.

فيه إخبار عن دهرية الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يَسُبُّ الدهر، وأنا الدهرُ، أقلب الليل والنهار][1].

وفي رواية: [لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر][2].

فالدهريون من المشركين ومن سار على منهاجهم من الفلاسفة يقولون: ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولا قيامة، ومنهم الفلاسفة الدهرية الدورية، ينكرون الصانع، ويزعمون أنه في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه، وزعموا أن هذا تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول.

قال الشافعي وبعض المفسرين لقوله عليه السلام: (لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر): (كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا: يا خيبة الدهر، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله تعالى. فكأنهم سبوا الله سبحانه).

27ـ النهي عن التسمي بقاضي القضاة وملك الأملاك ونحوه:

ففي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [إنَّ أخْنَعَ اسمٍ عند الله رجلٌ تسمى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله]. قال سفيان: (مثل شاهان شاه)[3]. فإن هذا اللفظ إنما يصدق على الله تعالى فهو قاضي القضاة وملك الأملاك سبحانه، لا ملك أعظم ولا أكبر منه، بل كل ملوك الدنيا مقهورون بأمره وإرادته جل ثناؤه. وفي رواية للحديث بلفظ: (أغْيظُ[4] رجل على الله يوم القيامة وأخبثه).

---

(1) البخاري (441/8) تفسير سورة الجاثية. ومسلم (2246) في الألفاظ من الأدب.

(2) مسلم (2246).

(3) هي عند العجم تعني ملك الأملاك. والحديث رواه البخاري (486/10) في الأدب، ومسلم (2143) في الآداب.

(4) من الغيظ كالغضب والبغض. وأخنع يعني أوضع. وهذه الصفات لله سبحانه تُمَرَّ كما جاءت، فهي كما يليق بالله وجلاله.

قال أهل العلم : وفيه التحذير من كل ما فيه تعاظم .

وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه قال : [اشتكىٰ رسول الله ﷺ فصلينا وراءه ، وهو قاعد ، وأبو بكر يسمع الناس تكبيره ، فالتفت إلينا فرآنا قياماً ، فأشار إلينا فقعدنا ، فصلينا بصلاته قعوداً ، فلما سلم قال : إن كدتم آنفاً تفعلون فعل فارس والروم يقومون على ملوكهم وهم قعود فلا تفعلوا ، ائتموا بأئمتكم ، إن صلى قائماً فصلوا قياماً ، وإن صلى قاعداً فصلوا قعوداً][1] .

وفي المسند وصحيح أبي داود عن أبي مِجْلز قال : [خرج معاوية رضي الله عنه على ابن الزبير وابن عامر . فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير . فقال معاوية لابن عامر : اجلس ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : من أحب أن يتمثَّل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار][2] .

ويشمل النهي التسمي أو التكني[3] بأسماء لا تليق إلا بالله تعالى ، سواء هي من أسمائه سبحانه أو من صفاته ، ومن ثم فإنه لا بد من تغييرها كما فعل رسول الله ﷺ .

ففي سنن أبي داود والنسائي بإسناد جيدٍ عن أبي شريح : [أنه كان يكنى أبا الحَكَم ، فقال له النبي ﷺ : إن الله هو الحَكَم وإليه الحُكْم . فقال : إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم ، فرضي كلا الفريقين . فقال : ما أحسن هذا . فمالك من الولد؟ قلت : شريح ومسلم وعبد الله . قال : فمن أكبرهم؟ قلت : شريح . قال : فأنت أبو شريح][4] .

وفيه تقديم الأكبر في الكنية وغيرها غالباً ، وفي السنة مما يدل على ذلك كثير .

---

(1) مسلم في صحيحه (413) في الصلاة . باب ائتمام المأموم بالإمام .

(2) أبو داود في الأدب (5229) وأحمد في المسند (91/4) من حديث معاوية . وانظر تحقيق فتح المجيد (515) .

(3) الكنية : ماصُدِّر بأب أو أم ونحو ذلك ، واللقب ما ليس كذلك ، كزين العابدين ونحوه . فتح المجيد .

(4) أبو داود في الأدب (4955) والنسائي (226/8) في آداب القضاء . وإسناده جيد كما في تحقيق فتح المجيد (517) .

28 ـ النهي عن الهزل بشيء من ذكر الله أو القرآن أو الدين أو الرسول.

فإن هذا مما نعته الله بالكفر ، قال جل ذكره: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [التوبة : 65].

أخرج ابن أبي حاتم بسند جيد عن عبد الله بن عمر قال: (قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يوماً: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء لا أرغبَ بطوناً ولا أكذبَ ألسنة ولا أجبنَ عند اللقاء ، فقال رجل في المجلس: كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله ﷺ ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ونزل القرآن. قال عبد الله: فأنا رأيته متعلقاً بحِقْب ناقة رسول الله ﷺ تنكُبه الحجارة وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: ﴿ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [التوبة: 65 _ 66])[1].

قال شيخ الإسلام: (فقد أخبر أنهم كفروا بعد إيمانهم مع قولهم: إنما تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له ، بل إنما كنا نخوض ونلعب ، وبين أن الاستهزاء بآيات الله كفر ، ولا يكون هذا إلا ممن شرح صدراً بهذا الكلام ، ولو كان الإيمان في قلبه لمنعه أن يتكلم بهذا الكلام ، والقرآن يبين أن إيمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه ، كقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: 47])[2].

وفي هذا بيان خُطورة الكلمة إن خرجت من فم صاحبها عبثاً ودون مبالاة فإنها قد تهلكه وترديه ، وقد تخرجه عن ملة الإسلام وتصليه النيران يوم القيامة.

ففي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً يهوي بها سبعين خريفاً في النار][3].

وفي المسند وبعض السنن بسند صحيح عن بلال بن الحارث عن النبي ﷺ قال: [إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغَ ما بلغتْ ، فيكتبُ

---

(1) الصحيح المسند من أسباب النزول. مقبل الوادعي. آية التوبة 65.

(2) فتح المجيد (522 - 523).

(3) ورواه ابن ماجه والترمذي. صحيح الجامع (1614).

الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة][1] .

قال في فتح المجيد : (وفيه[2] : بيان أن الإنسان قد يكفر بكلمة يتكلم بها أو عمل يعمل به ، وأشدها خطراً إرادات القلوب ، فهي كالبحر الذي لا ساحل له ، ويفيد الخوف من النفاق الأكبر ، فإن الله تعالى أثبت لهؤلاء إيماناً قبل أن يقولوا ما قالوه ، كما قال ابن أبي مليكة : «أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه» نسأل الله السلامة والعفو في الدنيا والآخرة)[3] .

29ـ النهي عن قول السلام على الله :

ففي الصحيحين وبعض السنن عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : [كنا إذا جلسنا مع رسول الله ﷺ في الصلاة ، قلنا : السلام على الله قبل عباده ، السلام على فلان وفلان. وفي رواية : (كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة ، قلنا : السلام على الله من عباده ، السلام على فلان وفلان) فقال النبي ﷺ: لا تقولوا : السلام على الله ، فإن الله هو السلام[4]][5] .

وفي صحيح مسلم من حديث ثوبان رضي الله عنه قال : [كان النبي ﷺ إذا انصرف من الصلاة المكتوبة يستغفر ثلاثاً ، ويقول : اللهم أنت السلام ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام][6] .

وفي التنزيل : ﴿ سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾ [يس : 58] .

قال ابن القيم في «بدائع الفوائد» : (السلام اسم مصدر ، وهو من ألفاظ الدعاء ، يتضمن الإنشاء والإخبار ، فجهة الخبرية فيه لا تناقض الجهة الإنشائية ، وهو معنى السلام المطلوب عند التحية ، وفيه قولان مشهوران.

---

(1) ورواه مالك في الموطأ. السلسلة الصحيحة (886) .
(2) أي تفسير آية التوبة السابقة .
(3) فتح المجيد (523) .
(4) أي سالم سبحانه من كل نقص أو تمثيل ، فهو الموصوف بكل كمال ، المنزه عن كل عيب ونقص .
(5) البخاري (266/2) في صفة الصلاة ، ومسلم (58) في الصلاة .
(6) مسلم (591) في المساجد ومواضع الصلاة .

الأول: أن السلام هنا هو الله عز وجل، ومعنى الكلام: نزلت بركته عليكم، ونحو ذلك. فاختير في هذا المعنى من أسمائه عز وجل اسم «السلام» دون غيره من الأسماء.

الثاني: أن السلام مصدر بمعنى السلامة، وهو المطلوب المدعو به عند التحية، ومن حجة أصحاب هذا القول: أنه يأتي مُنَكَّراً، فيقول المسلِّم: «سلام عليكم» ولو كان اسماً من أسماء الله لم يستعمل كذلك، ومن حجتهم أنه ليس المقصود من السلام هذا المعنىٰ، وإنما المقصود منه: الإيذان بالسلامة خبراً ودعاءً.

قال: وفصل الخطاب أن يقال: الحق في مجموع القولينِ).

وخلاصة القول: يتضمن لفظ السلام معنيين: ذكر الله، ودعاء بالسلامة.

30 ـ النهي عن قول: اللهم اغفر لي إن شئت أو ارحمني إن شئت:

ففي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: [لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزِم المسألة، فإن الله لا مُكرِه له][1].

وفي رواية لمسلم: [وليُعْظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه].

وفي رواية أخرى له: [ليعزم في الدعاء، فإن الله صانع ما شاء لا مكره له].

والمقصود النهي عن الاستثناء في الدعاء فإن الله لا مكره له، بخلاف العبد، فإنه قد يعطي السائل لحاجته إليه أو لخوفه أو رجائه، فيعطيه وهو كاره.

قال في فتح المجيد: (فاللائق بالسائل للمخلوق أن يعلق حصول حاجته على مشيئة المسؤول، مخافة أن يعطيه وهو كاره، بخلاف رب العالمين، فإنه تعالى لا يليق به ذلك لكمال غناه عن جميع خلقه، وكمال جوده وكرمه، وكلهم فقير إليه، محتاج لا يستغني عن ربه طرفة عين، وعطاؤه كلام. قال: فاللائق بمن سأل الله أن يعزم المسألة، فإنه لا يعطي عبده شيئاً عن كراهة، ولا عن عظم

---

(1) البخاري (118/11) في الدعوات، ومسلم (2679) في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

مسألة. قال: العبد يعطي تارة، ويمنع أكثر، ويعطي كرهاً، والبخل عليه أغلب. قال: وأما ما يعطيه الله تعالى عباده فهو دائم مستمر، يجود بالنوال قبل السؤال، من حيث وضعت النطفة في الرحم. فنعمهُ على الجنين في بطن أمه دارَّة، يربيه أحسن تربية، فإذا وضعت أمه عطف عليه والديه ورباه بنعمه حتى يبلغ أشدَّه، يتقلب في نعم الله مدة حياته، فإذا كانت حياته على الإيمان والتقوى ازدادت نعم الله تعالى عليه إذا توفاه أضعاف أضعاف ما كان عليه في الدنيا من النعم التي لا يقدر قدرها إلا الله، مما أعده الله تعالى لعباده المؤمنين المتقين. وكل ما يناله العبد في الدنيا من النعم وإن كان بعضها على يد مخلوق، فهو بإذن الله وإرادته وإحسانه. قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: 53](1).

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [يمينُ الله ملأىٰ، لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض؟ فإنه لم يغض ما في يمينه، وفي يده الأخرى القسط يخفضه ويرفعه](2).

وقوله في الرواية الأخرى: (وليعظم الرغبة) أي: في سؤاله فإن الله يعطي العظائم كرماً وجوداً وإحساناً.

يروي الطبراني بسند صحيح عن عائشة عن النبي ﷺ قال: [إذا سأل أحدكم فليكثر، فإنما يسأل ربه](3). وفي لفظ (إذا تمنىٰ) بدل (إذا سأل).

وكذلك يروي عن العرباض عن النبي ﷺ قال: [إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه سرّ الجنة] وسنده صحيح(4).

31 ـ النهي عن قول الرجل للرقيق: عبدي وأمتي.

ففي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: [لا يقل أحدكم: أطعِمْ

---

(1) فتح المجيد (546).
(2) البخاري (265/8) في تفسير سورة هود.
(3) صحيح الجامع (605 و 450).
(4) صحيح الجامع (606).

ربك ، وضِّىء ربك ، وليقل: سيدي ومولاي ، ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي ، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي][1] .

وقد صنَّفه الإمام البخاري في العتق فقال: «باب كراهية التطاول على الرقيق وقوله عبدي وأمتي». فنهى النبي ﷺ عن هذه الألفاظ تحقيقاً للتوحيد وسداً لذرائع الشرك ، لما فيها من التشريك في اللفظ ، فالله وحده رب العباد جميعهم.

32ـ النهي عن ردِّ من سأل بوجه الله.

ففي المسند وصحيح أبي داود عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: [من سأل بالله فأعطوه ، ومن استعاذ بالله فأعيذوه ، ومن دعاكم فأجيبوه ، ومن صَنَعَ إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له ، حتى تروا أنكم قد كافأتموه][2] .

وعِند الطبراني بسند صحيح من حديث عبد الله بن عياش عن النبي ﷺ قال: [ملعونٌ من سأل بوجه الله ، وملعونٌ من يُسأل بوجه الله ثم مَنَعَ سائله ما لم يسأله هُجْراً][3] .

والمقصود النهي عن اتخاذ وجه الله للسؤال في التسول أو الكذب أو دنايا الأمور ، فإن سأل بوجه الله تعظيماً له وتكريماً لأمر مهم فلا حرج ، ومن ثمَّ فعلىٰ من سُئِلَ بوجه الله أن يعظم المسألة ويلبي حاجة سائله[4] ما لم يسأله حراماً ، فلا بد من تعظيم وجه الله سبحانه وعدم استخدام ذلك في أي أمر أو التجارة باسمه جل ثناؤه.

33ـ النهي عن قول (لو) التي تفتح عمل الشيطان.

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: [احرص على

---

(1) البخاري (129/5 - 131) في العتق. ومسلم (2249) في الألفاظ من الأدب.
(2) أحمد (68/2) ، وأبو داود (1672) في الزكاة. وإسناده صحيح كما في فتح المجيد (550).
(3) صحيح الجامع (5766).
(4) يلبيه حسب قدرته وعلى حسب حال السائل دون أن يضر نفسه وعائلته. وفيه حث على الإنفاق في سبيل الله لعظم نفعه وتعديه وكثرة ثوابه.

ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تَعْجزْ . وإن أصابك شيءٌ فلا تقل : لو أني فعلتُ كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدَّر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان][1] .

قال شيخ الإسلام: (لا تعجز عن مأمور ، ولا تجزع من مقدور ، ومن الناس من يجمع كلا الشرين ، فأمر النبي ﷺ بالحرص على النافع والاستعانة بالله ، والأمر يقتضي الوجوب ، وإلا فالاستحباب . ونهى عن العجز)[2] .

وفي الأثر عن علي رضي الله عنه: (الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد)[3] .

قال الإمام أحمد: (ذكر الله الصبر في تسعين موضعاً من القرآن)[3] .

قال ابن القيم: (فإن فاته ما لم يقدر له فله حالتان: عجز ، وهو مفتاح عمل الشيطان ، فيلقيه العجز إلى «لو» ولا فائدة من «لو» ها هنا ، بل هي مفتاح اللوم والعجز والسخط والأسف والحزن ، وذلك كله من عمل الشيطان . فنهاه ﷺ عن افتتاح عمله بهذا الافتتاح ، وأمره بالحالة الثانية ، وهي النظر إلى القدر وملاحظته ، وأنه لو قدر له : لم يفته ولم يغلبه عليه أحد ، فلم يبق له ها هنا أنفع من شهود القدر ، ومشيئة الرب النافذة . . . ولهذا قال : «فإن غلبك أمر فلا تقل : لو أني فعلت لكان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل» فأرشده إلى ما ينفعه في الحالتين : حالة حصول المطلوب ، وحالة فواته ، فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغني عنه العبد أبداً ، بل هو أشد إليه ضرورة ، وهو يتضمن إثبات القدر ، والكسب والاختيار ، والقيام بالعبودية ظاهراً وباطناً في حالتي حصول المطلوب وعدمه ، وبالله التوفيق)[4] .

34ـ النهي عن سب الريح .

يروي الترمذي بسند صحيح عن أُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : [لا تَسبُّوا الريح ، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا : اللهم إنا نسألك من خير هذه

---

(1) مسلم (2664) في القدر .
(2) فتح المجيد (561) .
(3) المرجع السابق .
(4) فتح المجيد. (564) .

الريح وخير ما فيها ، وخير ما أمرت به ، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها ، وشر ما أمرت به][1].

فالريح تهب بإذن الله وخلقه وأمره ، فمسبتها مسبة للفاعل ، وهو الله سبحانه.

35 ـ النهي عن التصوير وما فيه مضاهاة خلق الله ، والنهي عن البناء على القبور وتجصيصها.

قال الله في سورة النساء: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء: 48].

في صحيح مسلم عن أبي الهَيَّاج قال: [قال لي عَلِيٌّ: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ ألا تدع صورة إلا طمستها ، ولا قبراً مُشْرِفاً إلا سَوَّيته][2].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلُقُ كخلقي ، فليخلقوا ذرَّة ، أو ليخلقوا حبة ، أو ليخلقوا شعيرة][3].

وعند البخاري عن عائشة ، أن رسول الله ﷺ قال: [أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله][4].

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [كل مصور في النار ، يُجعلُ له بكل صورة صورها نفسٌ يعذب بها في جهنم][5].

---

(1) وله شاهد عند الإمام مسلم من حديث عائشة. تحقيق فتح المجيد (565).

(2) أما الصور فلمضاهاتها لخلق الله ، وأما تسوية القبور فلما في تعليتها من الفتنة بأربابها وتعظيمها ، وهو من ذرائع الشرك. والحديث رواه مسلم (969) في الجنائز. باب الأمر بتسوية القبر.

(3) البخاري (324/10) في اللباس ، ومسلم (2111) في اللباس والزينة.

(4) البخاري (325/10) في اللباس.

(5) البخاري (345/4)في البيوع ، ومسلم (2210) في اللباس والزينة.

وفيهما عنه مرفوعاً: [من صور صورة في الدنيا كُلِّفَ أن ينفخَ فيها الروح وليس بنافخ][1].

وقد جاء الأمر بتسوية القبور كما جاء في النهي عن تجصيصها والبناء عليها.

ففي صحيح مسلم من حديث ثمامة بن شُفَيٍّ رضي الله عنه قال: [كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم برودس، فتُوفي صاحب لنا، فأمر فضالة بقبره فسوّي، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها][2].

وفي صحيح مسلم عن جابر، قال: [نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص[3] القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنىٰ عليه].

وعند الترمذي بسند صحيح عن جابر قال: [نهى النبي ﷺ أن تجصص القبور، وأن يكتب عليها، وأن يبنىٰ عليها، وأن توطأ][4].

قال إبراهيم النخعي: (كانوا يكرهون الآجر على قبورهم).

وقال أبو محمد المقدسي: (ولأن تجصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب إليها، وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم، والتمسح بها، والصلاة عندها).

وقد آل الأمر بهؤلاء الضلال أن شرعوا للقبور حجا، ووضعوا لها مناسك، حتى صنَّف غلاتهم كتاباً في ذلك سماه «مناسك حج المشاهد» مضاهاة منه القبور بالبيت الحرام، وهذا مفارقة لدين الإسلام من جهات كثيرة:

1 ـ تعظيم الموقع بالافتتان بها.

2 ـ اتخاذها أعياداً.

3 ـ السفر إليها.

---

(1) البخاري (330/10) في اللباس، ومسلم (2110) في اللباس والزينة.

(2) رواه مسلم (968) في الجنائز.

(3) الجصّ: بفتح الجيم وكسرها ما يُبنى به وهو مُعَرَّب. والحديث رواه مسلم (970) في الجنائز.

(4) الترمذي (1052) في الجنائز. وهو حديث صحيح. انظر تحقيق فتح المجيد (586).

4 ـ العكوف عليها والمجاورة عندها وسدانتها.

5 ـ النذر لها ولسدنتها.

6 ـ الاعتقاد أنها تكشف البلاء وتنصر على الأعداء وتستنزل بها الأمطار وتقضىٰ الحوائج.

7 ـ الدخول بلعنة الله ورسوله باتخاذها مساجد وإيقاد السرج عليها.

8 ـ الشرك الأكبر الذي يفعل عندها.

9 ـ إحياء البدع وإماتة السنن.

10 ـ تفضيلها عل خير البقاع عند الله(1).

وكان رسول الله ﷺ قد نهىٰ عن زيارة القبور أول الإسلام خشية هذه الفتن، فلما تمكن التوحيد أذن بزيارتها لأنها تذكر الموت.

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [زوروا القبور، فإنها تذكر الموت](2).

36 ـ النهي عن كثرة الحلف لإنفاق السلعة ونحوها.

قال الله في سورة المائدة: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: 89].

قال ابن جرير: (لا تتركوها بغير تكفير). وقال ابن عباس: (يريد لا تحلفوا). وقيل: المراد حفظها عن الحنث فلا تحنثوا.

ولا شك أنه يلزم من كثرة الحلف كثرة الحنث مع ما في ذلك من الاستخفاف وعدم التعظيم وغير ذلك مما ينافي التوحيد.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [الحلف مَنْفَقَةٌ للسِّلعة، ممحقة للكسب](3).

---

(1) ذكرته مختصراً عن فتح المجيد.

(2) جزء من حديث رواه مسلم (976) في الجنائز.

(3) أي: يحلف كذباً ليرفع الثمن فيمحق الله البركة بالغش والكذب. والحديث رواه البخاري (266/4) في البيوع، ومسلم (1606) في المساقاة.

وفي معجم الطبراني بسند صحيح عن سلمان: أن رسول الله ﷺ قال: [ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أُشَيْمِط زانٍ، وعائلٌ مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه](1).

وقد سمَّىٰ الأول أشيمط تصغيراً له وتحقيراً، لأن الحامل له على الزنا وهو شيخ كبير حب المعصية لا قوة الشهوة كالشاب. وكذلك العائل المستكبر ليس له ما يدعوه إلى الكبر، لأن الداعي في الغالب إلى الكبر كثرة المال والنعم والرياسة، والعائل الفقير ليس له ذلك فعظمت عقوبته إذ كان الكبر طبيعة له. ثم عطف عليهما من استخدم اسم الله بالحلف به بكل صغيرة وكبيرة ولأجل كل مصلحة، وهذا يدل على ضعف توحيده وتعظيمه لله جل ثناؤه.

وعند البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [خير أمتي قرْني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ـ قال عمران: فلا أدري: أذكرَ بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً؟ ـ ثم إن بعدكم قومٌ يشهدون ولا يُستشهدون(2)، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السِّمَن](3).

وفي لفظ من حديث ابن مسعود: [خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينَه، ويمينُه شهادَته].

قال إبراهيم النخعي: (كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار).

37 ـ النهي عن إخفار ذمة الله وذمة نبيّه عليه الصلاة والسلام.

قال الله في سورة النحل: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: 91].

والمراد الأيمان الداخلة في العهود والمواثيق لا الأيمان الواردة على حث أو

(1) ورجاله رجال الصحيح. انظر تحقيق فتح المجيد 594.
(2) لاستخفافهم بالشهادة وعدم تحريهم الصدق نتيجة قلة دينهم.
(3) لرغبتهم في الدنيا وتعظيم شهواتها عندهم وغفلتهم عن الآخرة. والحديث رواه البخاري (190/5) في الشهادات.

منع التي يمكن التحلل منها بالتكفير عنها وإتيان الذي هو خير. ولذلك قال مجاهد في تفسير الآية: (يعني الحلف أي: حلف الجاهلية).

ففي صحيح مسلم عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: [لا حِلْفَ(1) في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدَّة].

ورواه البخاري عن عاصم الأحول، قال: قلت لأنس بن مالك: [أبلغك أن النبي ﷺ قال: لا حلف في الإسلام. فقال: قد حالف رسول الله ﷺ بين قريش والأنصار في داري](2). والمراد بقوله ﷺ (لا حِلفْ في الإسلام) إبطال أحلاف الجاهلية إلا ما كان في الخير ونصرة الحق والمظلوم وصلة الأرحام(3).

وقال في فتح المجيد: (ومعناه أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه)(4).

وفي صحيح مسلم عن بُريدة بن الحُصيب الأسلمي قال: [كان رسول الله ﷺ، إذا أمَّر أميراً على جيش أو سَرِيَّة، أوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، فقال: اغزوا بسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله. اغزوا ولا تَغُلُّوا ولا تغدِروا، ولا تَمْثُلوا(5)، ولا تقتلوا وليداً. وإذا لقيت عدوَّك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصال ـ أو خلال ـ فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقْبل منهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين. فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله تعالى، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية. فإن هم

---

(1) الحلف: العهد والميثاق. والحديث رواه مسلم رقم (2530) في فضائل الصحابة.
(2) البخاري (387/4) باب الكفالة في القرض.
(3) وتفصيل ذلك في كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (1056/3).
(4) فتح المجيد (601).
(5) أي: لا تشوهوا القتلى بقطع الأنوف والآذان.

أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم. فإن هم أبوا فاستعن بالله، وقاتلهم. وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم، أهوَنُ من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه. وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تُنزلهم على حُكم الله، فلا تنزلهم، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري: أتصيب فيهم حكم الله أم لا؟][1].

38ـ النهي عن التألي على الله:

روى مسلم عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل: مَنْ ذا الذي يتألّى عليَّ أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له، وأحبطتُ عملك][2].

وفي الحديث بيان خطر اللسان وما يجب على العبد أن يتحرز من الكلام، كما في حديث معاذ عند الترمذي وغيره، قال له النبي ﷺ: (وهل يَكُبُّ الناس في النار على وجوههم أو قال على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم)[3].

وقوله (يتألى) أي: يحلف. والحديث ذكره البغوي في (شرح السنة) بالسند إلى عكرمة بن عمار، قال: [دخلت مسجد المدينة فناداني شيخ قال: يا يمامي، تعال، وما أعرفه، قال: لا تقولن لرجل: والله لا يغفر الله لك أبداً ولا يدخلك الجنة. قلت: ومن أنت يرحمك الله؟ قال: أبو هريرة، فقلت: إن هذه كلمة يقولها أحدنا لبعض أهله إذا غضب، أو لزوجته أو لخادمه، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن رجلين كانا في بني إسرائيل متحابين[4]، أحدهما مجتهد في العبادة، والآخر، كأنه يقول مذنب، فجعل يقول: أقصر عما أنت فيه. قال فيقول: خلِّني وربي، قال: فوجده يوماً على ذنب استعظمه فقال: أقصر، فقال:

---

(1) مسلم (1731) في الجهاد والسير.

(2) مسلم (2621) في البر والصلة والآداب.

(3) وهو في المسند (231/5). وهو حديث صحيح بطرقه. انظر تحقيق فتح المجيد (607).

(4) وهو عند أبي داود بلفظ: متآخيين، فكان أحدهما يذنب، والآخر مجتهد في العبادة. فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول: أقصر.

خلني وربي ، أبعثت عليَّ رقيباً ، فقال: والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة أبداً. قال: فبعث الله إليهما ملكاً ، فقبض أرواحهما ، فاجتمعا عنده ، فقال للمذنب: ادخل الجنة برحمتي ، وقال للآخر: أتستطيع أن تحظر على عبدي رحمتي[(1)]؟ قال: لا يا رب ، قال: اذهبوا به إلى النار. قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده ، لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته].

39 ـ النهي عن تعظيم النبي ﷺ بألفاظ لا تليق إلا بالله العظيم وكراهة المبالغة في المديح.

ففي صحيح أبي داود عن عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه قال: [انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ ، فقلنا: أنت سيدنا. فقال: السيد الله تبارك وتعالى ، قلنا: وأفضلنا فضلاً ، وأعظمنا طَوْلاً ، فقال: قولوا بقولكم ، أو بعض قولكم ، ولا يستجرينَّكم الشيطان][(2)].

وفي المسند بسند صحيح عن أنس رضي الله عنه: [أن ناساً قالوا: يا رسول الله ، يا خيرنا ، وابن خيرنا ، وسيدَنا وابن سيدنا. فقال: يا أيها الناس ، قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد عبد الله ورسوله ، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل][(3)].

وتقدم حديث عمر الذي في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: [لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم: إنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله].

فمقام العبودية يقتضي كراهة المدح ، فإنما الواجب إخلاص المحبة والتذلل لله سبحانه ، ومن هنا كان نهي النبي ﷺ عن مدح الرجل صاحبه في وجهه خشية تعاظم الممدوح في نفسه ووقوعه في حبائل العجب والكبر والعياذ بالله.

ففي صحيح أبي داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [قال الله عز وجل:

(1) وفي لفظ أبي داود (4901): (فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالماً ، أو كنت على ما في يدي قادراً؟) فقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة ، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار). وانظر المسند (323/2).

(2) أبو داود في الأدب (4806).

(3) المسند (153/3) وهو حديث صحيح كالذي قبله. تحقيق فتح المجيد (613).

الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار] .

وهو في صحيح مسلم بلفظ : [العز إزاره[1] ، والكبرياء رداؤه ، فمن ينازعني عذبته] .

وفي صحيح مسلم من حديث ابن مسعود ، أن النبي ﷺ قال : [لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرَّة من كبر][2] . ورواه أبو داود والترمذي بلفظ : [لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر][3] .

قال ابن القيم في «بدائع الفوائد» : (اختلف الناس في جواز إطلاق السيد على البشر . فمنعه قوم ، ونقل عن مالك ، واحتجوا بقول النبي ﷺ لما قيل له : يا سيدنا . قال : السيد الله تبارك وتعالى . وجوَّزه قوم ، واحتجوا بقول النبي ﷺ للأنصار : قوموا إلى سيدكم . وهذا أصح من الحديث الأول . قال هؤلاء : السيد أحد ما يضاف إليه ، فلا يقال للتميمي سيد كندة ، ولا يقال المَلَك سيد البشر . قال : وعلى هذا فلا يجوز أن يطلق على الله هذا الاسم ، وفي هذا نظر ، فإن السيد إذا أطلق عليه تعالى فهو في منزلة المالك ، والمولى ، والرب ، لا بمعنى الذي يطلق على المخلوق) .

وقد ذكره[4] في فتح المجيد ثم قال : (قلت : فقد صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في معنى قول الله تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا ﴾[5] أي : إلهاً وسيداً . وقال في قول الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ أنه السيد الذي كمل في جميع أنواع السؤدد . وقال أبو وائل : هو السيد الذي انتهى سؤدده .

قال : وأما استدلالهم بقول النبي ﷺ للأنصار : «قوموا إلى سيدكم» فالظاهر :

(1) الضمير يعود إلى الله تعالى .
(2) مسلم (91) في الإيمان .
(3) أبو داود (4091) في اللباس ، والترمذي (1999) في البر والصلة .
(4) أي : أثر ابن القيم .
(5) الأنعام : 164 .

أن النبي ﷺ لم يواجه سعداً به ، فيكون في هذا المقام تفصيل ، والله أعلم) انتهى[1] .

40 - النهي عن تكفير أحد من أهل القبلة بذنب لم يستحله .

قال الله في سورة الحجرات : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ ﴾ [الحجرات : 9] .

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ ﴾ [الحجرات : 10] .

فسماهم بالمؤمنين رغم اقتتالهم .

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود ، عن النبي ﷺ قال : [سباب المسلم فسوق وقتاله كفر][2] . فهو كفر عمل لا كفر اعتقاد .

قال الإمام الطحاوي رحمه الله : (ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ، ما لم يستحله ، ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله ، ونرجو للمحسنين من المؤمنين أن يعفو عنهم ويدخلهم الجنة برحمته ، ولا نأمن عليهم ولا نشهد لهم بالجنة ، ونستغفر لمسيئهم ونخاف عليهم ولا نقنِّطهم . والأمن والإياس ينقلان عن الملة وسبيل الحق بينهما لأهل القبلة) متن الطحاوية .

وكلام الطحاوي ردٌّ على المرجئة والخوارج والمعتزلة في انحراف فهمهم في هذه المسألة : قالت المرجئة : لا يضر مع الإيمان ذنب كما لا ينفع مع الكفر طاعة .

وقالت الخوارج : نكفر المسلم بكل ذنب أو بكل ذنب كبير .

وقالت المعتزلة : يحبط إيمانه كله بالكبيرة فلا يبقى معه شيء من الإيمان .

ولكن الخوارج قالوا : يخرج من الإيمان ويدخل في الكفر ، فأوجبوا له الخلود في النار .

---

(1) فتح المجيد (617) .

(2) ورواه أحمد والترمذي وابن ماجه والنسائي ، ورواه الطبراني وزاد . (وحُرْمة مالِه كحرمة دمه) . انظر صحيح الجامع (3590) .

بينما ذهب المعتزلة إلى القول: يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر.

وتوسط أهل السنة القول: من قال قول كذا وكذا مما ينافي الإيمان فهو كافر. وكذلك لو أظهر إنكار الواجبات المتواترة والمحرمات المعلومة يستتاب فإن تاب وإلا قتل مرتداً، والنفاق والردة مظنتها البدع والفجور، ومن ثم فأعمال القلوب أصل لعمل الجوارح وأعمال الجوارح تبع. وقد تواترت النصوص أنه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان، ثم الشخص المعين يمكن أن يكون مجتهداً مخطئاً مغفوراً له، أو من لم يبلغه ما وراء ذلك من النصوص، أو يكون له إيمان عظيم وحسنات أوجبت له رحمة الله كما غفر الله للذي قال: (إذا مت فاسحقوني ثم ذروني في يوم عاصف) وكان يظن أن الله لا يقدر على جمعه أوشك بذلك أو أراد إهانة نفسه.

فقد أخرج الشيخان والإمام أحمد عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: [إن رجلاً كان قبلكم، رغَسَهُ الله مالاً[1]، فقال لبنيه لما حُضِرَ: أيَّ أبٍ كنْتُ لكم؟ قالوا: خيرَ أب، قال: إني لم أعمل خيراً قطُّ، فإذا مُتُّ فاحرِقوني، ثم اسحقوني ثم ذرّوني في يوم عاصف، ففعلوا، فجمعه الله، فقال: ما حملك؟ قال مخافتك، فتلقاه برحمته][2].

ولكن هـذا التوقف في أمر الآخرة لا يمنعنا ـ كما ذكر أهل العلم ـ من معاقبته في الدنيـا لمنع بدعتـه أو استتابته فإن تاب وإلا قُتل. ومن ثم فلا يكفر إلا الزنديـق، وقد صنَّف الله الخلق في كتابه ثلاثة أصناف وهي مذكورة في أول سورة البقرة.

أ ـ صنف كفار من المشركين ومن أهل الكتاب وهم الذين لا يقرون بالشهادتين.

ب ـ صنف المؤمنون ظاهراً وباطناً.

ج ـ صنف أقروا به ظاهراً لا باطناً.

---

(1) أي: أكثر له منه وبارك له فيه.

(2) صحيح الجامع (2073).

وقد سمَّى الشارع بعض الذنوب كفراً ، ففي التنزيل : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة : 44] .

وفي السنة الصحيحة :

1 ـ يروي الشيخان عن جرير بن عبد الله البجلي أن النبي ﷺ قال له في حجة الوداع : استنصت الناس ، فقال : [لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض][(1)] .

2 ـ أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : [من أتى كاهناً فصدقه بما يقول ، أو أتى امرأة حائضاً ، أو أتى امرأة في دبرها ، فقد كفر بما أنزل على محمد][(2)] .

3 ـ أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : [لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا ينهبُ نُهبة ذاتَ شرفٍ يرفَعُ الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبُها وهو مؤمن][(3)] .

4 ـ وفي الصحيحين أيضاً عنه ، قال رسول الله ﷺ : [سباب المسلم فسوق وقتاله كفر][(4)] .

5 ـ وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : [إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما] . وله شاهد عند الطبراني من حديث عمران بن حصين بلفظ : [إذا قال الرجل لأخيه : يا كافر فهو كقتله ، ولعن المؤمن كقتله][(5)] .

6 ـ وفي صحيح أبي داود عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [إذا زنى العبد خرج منه

---

(1) ورواه النسائي من حديث ابن عمر وزاد : (ولا يؤخذ الرجل بجريرة أبيه ولا بجريرة أخيه) . صحيح الجامع (7154) .

(2) ورواه أهل السنن . تخريج المشكاة (551) .

(3) ورواه أحمد (317/2 و386) وزاد : (ولا يغُلُّ أحدكم حين يغل وهو مؤمن ، فإياكم إياكم) .

(4) مختصر مسلم (66) .

(5) صحيح الجامع (723) .

الإيمان فكان على رأسه كالظلة ، فإذا أقلع رجع إليه]. وفي رواية: [فإذا انقلع منها رجع إليه الإيمان][1].

7 ـ وفي صحيح مسلم عن جابر ، قال رسول الله ﷺ: [بين المسلم وبين الكفر ترك الصلاة][2].

8 ـ وفي صحيح الترمذي عن عمر ، عن النبي ﷺ قال: [من حلف بغير الله فقد كفر][3].

9 ـ وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب والنياحة على الميت][4].

فهذه بعض أعمال سمَّاها الشارع كفراً والمقصود أنها من أعمال الكفر ، فهي كفر عملي لا يخرج صاحبها من الملة إلا أن يستبيح العمل المحرم ، ومن ثم فلا يجوز لعن صاحبها كما لا يجوز تكفيره:

ففي صحيح البخاري عن أسلم مولى عمر ، عن عمر رضي الله عنه: [أن رجلاً كان على عهد النبي ﷺ كان اسمه: عبد الله وكان يلقب: حماراً ، وكان يُضحك رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ قد جلده في الشراب فأُتي به يوماً فأمر به فجلد ، فقال رجل من القوم: اللهم العنه! ما أكثر ما يؤتىٰ به ، فقال رسول الله ﷺ: لا تلعنه ، فوالله ما علمت إنه يحب الله ورسوله].

ومن ثمَّ فمن عيوب أهل البدع تكفير بعضهم بعضاً ، ومن مادح أهل العلم أنهم يخطِّئون ولا يكفِّرون ، وأهل السنة متفقون كلهم أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفراً ينقل عن الملة بالكلية كما قالت الخوارج ، إذ لو كان كفراً مخرجاً من الملة لكان مرتداً يقتل على كل حال ولا يقبل عفو ولي القصاص ولا تجري الحدود في الزنا والسرقة وشرب الخمر ، وهذا معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام. ومتفقون على أنه لا يخرج من الإيمان والإسلام ولا يدخل في الكفر

---

(1) السلسلة الصحيحة (509).
(2) مختصر مسلم (204).
(3) أو في لفظ (فقد أشرك). صحيح الجامع (6080).
(4) مختصر مسلم (55).

ولا يستحق الخلود مع الكافرين كما قالت المعتزلة إذ جعل الله مرتكب الكبيرة من المؤمنين.

ففي التنزيل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ . . . فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [البقرة: 178]. فلم يخرج القاتل من الذين آمنوا وجعله أخاً لولي القصاص والمراد أخوة الدين.

والمعتزلة وافقت الخوارج بحكم الآخرة هنا أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار، لكن قالت الخوارج نسميه كافراً وقالت المعتزلة نسميه فاسقاً، فالخلاف لفظي بينهم. وأما أهل السنة فمتفقون أنه يستحق الوعيد المرتب على الذنب لا كما يقول المرجئة لا يضر مع الإيمان ذنب ولا ينفع مع الكفر طاعة. وأما الاختلاف بين أهل السنة بعد ذلك فلفظي لا يترتب منه فساد، وهو هل يكون الكفر على مراتب كفراً دون كفر كما اختلفوا هل الإيمان على مراتب إيماناً دون إيمان، وقد نشأ هذا من اختلافهم هل الإيمان قول وعمل يزيد وينقص أم لا؟ لكنهم أقروا أن من سماه الله ورسوله كافراً نسميه كافراً. فمن قال: الإيمان يزيد وينقص قال: هو كفر عملي لا اعتقادي، والكفر عنده مراتب كفر دون كفر كما الإيمان مراتب، وأما من قال الإيمان هو التصديق ولا يدخل العمل بمسمىٰ الإيمان، والكفر هو الجحود، ولا يزيدان ولا ينقصان قال: هو كفر مجازي غير حقيقي إذ الكفر الحقيقي هو الناقل عن الملة، وكذلك يقول في تسمية بعض الأعمال بالإيمان: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ أي: صلاتكم إلى بيت المقدس، فسميت إيماناً لتوقف صحتها على الإيمان أو لدلالتها على الإيمان[1].

وأما الحكم بغير ما أنزل الله فقد يكون كفراً ينقل عن الملة وقد يكون معصية كبيرة أو صغيرة، ويكون كفراً إما مجازياً وإما كفراً أصغر على القولين المذكورين بحسب حال الحاكم. وتفصيل ذلك كما ذكر أهل العلم:

1 ـ لو اعتقد أن الحكم بما أنزل الله غير واجب وأنه مخير فيه أو استهان به مع تيقنه أنه حكم الله فهو كفر أكبر.

---

(1) شرح العقيدة الطحاوية.

2 ـ وإن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله وعلمه في هذه الواقعة ثم عدل عنه مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهو عاص ويسمىٰ كافراً كفراً مجازياً أو كفراً أصغر.

3 ـ وإن جهل حكم الله فيها مع بذل جهده واستفراغ وسعه في معرفة الحكم وأخطأه فهذا مخطىء له أجران على اجتهاده، وخطؤه مغفور.

قال الطحاوي رحمه الله: (ونرى الصلاة خلف كل بر وفاجر من أهل القبلة، ونصلي على من مات منهم ولا نُنْزِل أحداً منهم جنة ولا ناراً، ولا نشهد عليهم بكفر ولا إشراك ولا نفاق ما لم يظهر منهم من ذلك شيء، ونذر سرائرهم إلى الله تعالى) متن الطحاوية 69 - 70.

وفي صحيح البخاري: (أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان يصلي خلف الحجاج بن يوسف الثقفي، وكذا أنس بن مالك، وكان الحجاج فاسقاً ظالماً).

وكذلك في الصحيح عن النبي ﷺ: [يصلون لكم فإن أصابوا فلكم ولهم، وإن أخطؤوا فلكم وعليهم] البخاري وأحمد عن أبي هريرة[1].

ومن ثم فيجوز للرجل أن يصلي خلف من لم يعلم منه بدعة ولا فسقاً باتفاق الأئمة، وليس من شرط الائتمام أن يعلم المأموم اعتقاد إمامه، ولا أن يمتحنه، فيقول ماذا تعتقد؟ بل يصلي خلف المستور الحال، ولو صلى خلف مبتدع يدعو إلى بدعته، أو فاسق ظاهر الفسق كان إماماً راتباً، فإنه لا يعيد صلاته بل هي صحيحة، ومن ثم فإن من يترك صلاة الجمعة والجماعة خلف الإمام الفاجر فهو مبتدع عند أكثر العلماء، فإن ابن عمر وأنس وغيرهما صلوا خلف الحجاج، وكان عبد الله بن مسعود وغيره يصلون خلف الوليد بن عُقبة بن أبي معيط وكان يشرب الخمر، حتى إنه صلى بهم الصبح مرة أربعاً ثم قال أزيدكم؟ فقال له ابن مسعود: ما زلنا معك منذ اليوم في زيادة[2].

وفي صحيح البخاري: [أن عثمان بن عفان رضي الله عنه لما حُصِرَ صلى بالناس شخصٌ فسأل سائل عثمان: إنك إمام عامة، وهذا الذي صلىٰ بالناس إمام فتنة؟

---

(1) وانظر صحيح الجامع (7955).
(2) شرح العقيدة الطحاوية.

فقال: يا ابن أخي ، إن الصلاة من أحسن ما يعمل الناس ، فإذا أحسنوا فأحسن معهم ، وإذا أساؤوا فاجتنب إساءتهم][1].

وكذلك أمر الجنة والنار ، فلا نقول عن أحد معين من أهل القبلة إنه في الجنة أو النار في الآخرة ، إلا من أخبر به الصادق ﷺ أنه من أهل الجنة كالعشرة ، والناس في الشهادة بالجنة على ثلاثة أقوال:

أ ـ أن لا يُشهد لأحد بالجنة إلا للأنبياء. «محمد بن الحنفية ، والأوزاعي».

ب ـ أنه يشهد بالجنة لكل مؤمن جاء فيه النص: «كثير من العلماء وأهل الحديث».

ج ـ أنه يُشهد بالجنة لهؤلاء ولمن شهد له المؤمنون. كما في الصحيحين عن أنس: [مُرَّ على النبي ﷺ بجنازة ، فأثني عليها خيراً فقال نبي الله ﷺ: وَجَبَتْ ، وجبت ، وجبت ، ومُرَّ بجنازة فأُثني عليها شراً ، فقال نبي الله ﷺ: وجبت ، وجبت ، وجبت. فقال عمر: فدىً لك أبي وأمي ، مُرَّ بجنازة فأثني عليها خيراً ، فقلت: وَجَبَت ، وجبت ، وجبت ، ومُرَّ بجنازة فأثني عليها شراً ، فقلت: وجبت ، وجبت ، وجبت؟ فقال رسول الله ﷺ: من أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة ، ومن أثنيتم عليه شراً وجبت له النار . . .][2].

وفي صحيح ابن ماجه عن ابن عباس ، قال رسول الله ﷺ: [أهل الجنة من ملأ الله أذنيه من ثناء الناس خيراً وهو يسمع. وأهل النار من ملأ الله أذنيه من ثناء الناس شراً وهو يسمع][3].

وله شاهد في المسند بلفظ: [توشكون أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار ، قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: بالثناء الحسن والثناء السيء][4].

ويكفي الحكم في ذلك بالظاهر ، فقد نُهينا عن الظن واتباع ما ليس لنا به علم ،

---

(1) وانظر تحقيق الطحاوية فقرة (69).

(2) مختصر مسلم (484). والبخاري (3/177 - 178). وانظر أحكام الجنائز (26) للروايات المختلفة.

(3) صحيح الجامع (2524).

(4) وإسناده قابل للتحسين كما ذكر الألباني رحمه الله في تخريج الطحاوية.

وفي التنزيل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات: 12].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ [الحجرات: 11].

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: 36].

41 ـ النهي عن الخروج على أئمة المسلمين طالما لم يأمروا بمعصية أو كفر بواح.

قال الإمام الطحاوي رحمه الله: (ولا نرى السيف على أحد من أمة محمد ﷺ إلا من وجب عليه السيف. ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا، وإن جاروا، ولا ندعو عليهم، ولا ننزع يداً من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة، ما لم يأمروا بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة. ونتبع السنة والجماعة، ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة. ونحب أهل العدل والأمانة، ونبغض أهل الجور والخيانة. ونقول: الله أعلم، فيما اشتبه علينا علمه) متن الطحاوية.

وفي التنزيل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء: 59].

وفي الصحيحين عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: [لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدىٰ ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة](1).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني](2).

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قال: [إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع وإن

---

(1) وهو في مختصر مسلم برقم (1023).

(2) مختصر مسلم (1223).

كان عبداً حبشياً مجدع الأطراف]. وهو عند البخاري بلفظ: (ولو لحبشي كأن رأسه زبيبة)[1].

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر: [على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أُمِرَ بمعصية فلا سمع ولا طاعة][2].

وقد فصَّل النبي ﷺ بعض معالم انحراف الحكم في حديث عظيم، ترك لنا في آخره وصاياه العطرة:

ففي الصحيحين عن حذيفة قال: [كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم. فقلت: هل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم وفيه دخن. قال: قلت: وما دخنُه؟ قال: قوم يستنُّون بغير سنتي ويهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر، فقلت: هل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها. فقلت: يا رسول الله صفهم لنا؟ قال: نعم قوم من جلدتنا يتكلمون بألسنتنا، قلت: يا رسول الله فما ترىٰ إن أدركني ذلك؟ قال: تلزمُ جماعة المسلمين وإمامهم، فقلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك][3].

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: [من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات فميتته جاهلية][4].

وفي لفظ أحمد: (فقد خلع رِبْقَةَ الإسلام من عنقه).

---

(1) وله شاهد عند الإمام مسلم من حديث أم الحصين بلفظ: (إن أُمِّرَ عليكم عبدٌ مُجَدَّعٌ - حسبتها قالت - أسود، يقودكم بكتاب الله تعالى، فاسمعوا له وأطيعوا) مختصر مسلم (1224).

(2) وهو في مختصر مسلم برقم (1226).

(3) البخاري في الفتن، ومسلم في الإمارة. ورواه ابن ماجه. صحيح الجامع (2991).

(4) ورواه البخاري وأحمد بلفظ: (فإنه ليس أحدٌ يفارق الجماعة شبراً فيموت، إلا مات ميتةً جاهلية). وهو في صحيح الجامع برقم (6125).

وفي صحيح مسلم أيضاً من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخِرَ منهما][1] .

وكذلك في صحيح مسلم عن عوف بن مالك عن النبي ﷺ قال : [خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم ، فقلنا : يا رسول الله أفلا ننابذهم بالسيف عند ذلك ، قال : لا ما أقاموا فيكم الصلاة ، ألا من ولي عليه والٍ فرآه يأتي شيئاً من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ، ولا ينزعن يداً من طاعته][2] .

والخلاصة كما ذكر أهل العلم : لقد دلَّ الكتاب والسنة على وجوب طاعة أولي الأمر ما لم يأمروا بمعصية ، وأما لزوم طاعتهم وإن جاروا فلأنه يترتب على الخروج من طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم ، بل في الصبر على جورهم تكفير السيئات ومضاعفة الأجور ، فإن الله تعالى ما سلَّطهم علينا إلا لفساد أعمالنا ، والجزاء من جنس العمل ، فعلينا الاجتهاد في الاستغفار والتوبة وإصلاح العمل. ففي التنزيل : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : 30] .

﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران : 165] .

﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء : 79] .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام : 129] .

* * *

(1) مختصر صحيح مسلم برقم (1200) .
(2) مختصر صحيح مسلم برقم (1228) .

-16-

ـ الإيمان بالملائكة ـ

كل الحمد لله الذي لا يبلغ كمال مدحته القائلون ، ولا يحصي نعماءه العادّون ، ولا يؤدي حقه المجتهدون . وكل الشكر لله الذي أول الدين معرفته ، وكمال معرفته توحيده ، وكمال توحيده الإخلاص له .

وكل الفضل لله الذي أنشأ الخلق بعلمه وقدرته ، ولأم بين مخلوقاته ، وغرّز غرائزها عالماً بها قبل ابتدائها . وكل المنة لله الذي فتق ما بين السماوات العلا ، فملأهن أطواراً من ملائكته ، منهم سجود لا يركعون ، وركوع لا ينتصبون ، وصافون لا يتزايلون ، ومسبحون لا يسأمون ، لا يغشاهم نوم العيون ، ومنهم أمناء على وحيه وألسنة إلى رسله ، ومنهم الحفظة لعباده ، والسدنة لأبواب جنانه ، ومنهم الثابتة في الأرضين السفلى أقدامهم والمارقة من السماء العليا أعناقهم ، والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم ، ومنهم المقاتلون مع المؤمنين في ساحات قتالهم ، الذين يبثون الرعب في قلوب أعدائهم ، ويزلزلون الأرض من تحت أقدامهم .

فقد قال الله جل ثناؤه في سورة فاطر : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

فكل الحمد لله الذي لا تصلح العبادة إلا له ، فهو مبدع السماوات والأرضين من العدم ، ومنشىء الملائكة بأجنحة يطيرون بها ، جعلهم سبحانه رسلاً بينه وبين أنبيائه ليبلغوا عنه مراده من أمره أو نهيه .

فقوله : ﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ فيه وصف لبعض هيئات هؤلاء الملائكة . قال قتادة : (بعضهم له جناحان وبعضهم ثلاثة وبعضهم أربعة) .

وقوله: «رسلاً» مفعول به ثان لجاعل. قال يحيىٰ بن سلام: (جاعل الملائكة رسلاً: إلى الأنبياء). وقال السدي: (إلى العباد برحمة أو نقمة)(1). فمن هؤلاء الرسل جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت.

والإيمان بالملائكة هو الركن الثاني من أركان الإيمان، كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه وبلقائه وبرسله وتؤمن بالبعث الآخر](2).

وفي صحيح مسلم من حديث عمر بلفظ: [الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره](3).

ورواه البيهقي عنه بلفظ آخر: [الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وتؤمن بالجنة والنار والميزان، وتؤمن بالبعث بعد الموت، وتؤمن بالقدر خيره وشره](4).

والملائكة في أصل اللغة جمع مَلأك، ولكن اشتهر في كلام العرب بغير الهمز، فيقولون في واحدهم: ملك من الملائكة، وأصل الملأك في لغة العرب: الرسالة. ولأك إليه يلأك إذا أرسل إليه رسالة، كما قال عدي بن زيد:

أبلغ النعمان عني ملأكاً ... إنه قد طال حبسي وانتظاري

فسميت الملائكة ملائكة بالرسالة، لأنها رُسل الله بينه وبين أنبيائه.

والملائكة هم خلق لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، منهم قوم اختصهم الله بالاستغفار للمؤمنين والصلاة عليهم، ومنهم مَن اختصهم سبحانه بحمل عرشه، ومنهم قوم يصطفون مع المؤمنين في صلاتهم، ومنهم ملأ اختصهم سبحانه بالحج في البيت المعمور في السماء السابعة، ومنهم قوم اختصهم سبحانه بالقتال مع المؤمنين في ساحات المعارك، ومنهم ملأ جوّالون يلتمسون حلق الذكر

(1) تفسير الطبري وتفسير ابن كثير. فاطر: 1.
(2) ورواه أحمد وابن ماجه. صحيح الجامع (2793).
(3) قد مضى تخريجه.
(4) صحيح الجامع (2795). تحقيق الألباني.

والعلم ، ومنهم ملائكة يبيتون مع المؤمنين في فرشهم ويلامسون أجسادهم إذا ناموا متطهرين ، ومنهم ملائكة اختصهم سبحانه بالسجود في طبقات السماء ، ومنهم ملائكة مرافقة مسلحة لبعض المؤمنين ، إلى غير ذلك من الاختصاصات التي قسمها الله بينهم. فإلى تفصيل ذلك من هدي الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة:

1 ـ ملائكة مختصون بالاستغفار للمؤمنين والصلاة عليهم والدعاء لهم:

فقد قال الله جل ثناؤه في سورة غافر: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر: 7 ـ 9].

وفي المسند للإمام أحمد، بسند صحيح عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا عاد الرجل أخاه المسلم مشى في خرافة الجنة[1] حتى يجلس، فإذا جلس غمرته الرحمة، فإن كان غدوة صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي، وإن كان عشياً صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح][2].

وكذلك أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ قال: [إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول][3]. وفي رواية: [إن الله وملائكته يصلون على الصف المقدَّم، والمؤذن يغفر له مدَّ صوته ويصدقه من سمعه من رطب ويابس، وله مثلُ أجر من صلّى معه][4].

وفي رواية النسائي: [إن الله وملائكته يصلون على الصفوف المقدمة][5].

---

(1) أي في اجتناء ثمرها.

(2) ورواه البيهقي والحاكم. صحيح الجامع (695). السلسلة الصحيحة (1367).

(3) ورواه أبو داود وابن ماجه والحاكم. انظر صحيح أبي داود (670).

(4) تخريج الترغيب (108/1).

(5) صحيح الجامع (1838).

وفي معجم الطبراني بإسناد جيد عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: [إن الله وملائكته حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على مُعلم الناسِ الخير][1].

وفيه أيضاً عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: [إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول، سوّوا صفوفكم وحاذوا بين مناكبكم، ولينوا في أيدي إخوانكم، وسُدّوا الخَلَل فإن الشيطان يدخل فيما بينكم مثل الحَذَف[2]].

وفي صحيح ابن حبان عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: [إن الله تعالى وملائكته يصلون على الذين يصلون الصفوف، ومن سَدَّ فرجة رفعه الله بها درجة][3].

وكذلك روى بسند حسن عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى وملائكته يصلون على المتسحرين][4].

2ـ ملائكة موكلون بالأرحام والكتابة في بطون الأمهات:

ففي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [إن أحدكم يُجمع خلقُهُ في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثلَ ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً، ويؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتِب عمله، ورزقه، وأجله، وشقي أو سعيد، ثم ينفُخُ فيه الروح، فإن الرجل منكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى لا يكونُ بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار، فيدخل النار. وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخل الجنة][5].

وله شاهد في المسند بسند صحيح عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [إن

---

(1) تخريج الترغيب (60/1).
(2) غنم صغار سود. والحديث في صحيح الجامع برقم (1836).
(3) قال الألباني: حديث حسن. وهو في صحيح أبي داود (680).
(4) تخريج الترغيب (93/2). السلسلة الصحيحة (1654).
(5) ورواه أصحاب السنن. صحيح الجامع (1539).

الله تعالى وكَّلَ بالرحم ملكاً يقول: أي رب نطفة ، أي رب علقة ، أي رب مضغة ، فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال: أي رب شقي أم سعيد؟ ذكر أو أنثى؟ فما الرزق ، فما الأجل؟ فيكتبُ كذلك في بطن أمه][1] .

3 ـ ملائكة موكلون بحمل العرش:

فقد وصفهم الله سبحانه في كتابه فقال في سورة المؤمن: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [غافر: 7].

وقال في سورة الحاقة: ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ [الحاقة: 17].

وأما في السُّنة فالحديث عنهم شيق ومثير:

فقد أخرج الطبراني بسند جيد عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [أذن لي أن أُحدِّثَ عن ملك من حملة العرش رجلاه في الأرض السفلى وعلى قرنه العرش ، وبين شحمة أذنيه وعاتقِه خفقان الطير سبعمائة عام ، يقول ذلك الملك: سبحانك حيث كنت][2] .

وله شاهد عند أبي داود بإسناد صحيح من حديث جابر بلفظ: [أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله تعالى حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة سنة][3] .

4 ـ ملائكة تشارك المؤمنين صفوفهم في صلاتهم:

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [أقيموا الصفوف فإنما تُصفّون بصفوف الملائكة ، وحاذوا بين المناكب وسدوا الخلل ولينوا بأيدي إخوانكم ، ولا تذروا فرجات

---

(1) وهو رواية أخرى في الصحيحين. صحيح الجامع (1833).
(2) صحيح الجامع (866).
(3) رواه أبو داود (4727). وانظر السلسلة الصحيحة (151).

للشيطان ، ومن وصل صفا وصله الله ، ومن قطع صفا قطعه الله عز وجل] ورواه أبو داود(1) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ: [يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون](2) .

5ـ ملائكة تشارك المؤمنين قتالهم في ساحات المعارك والقتال:

فهم يبثون الرعب في قلوب أعدائهم ، ويحملون عليهم بسيوفهم وأسلحتهم ، فيفرقون جموعهم ويمزقون صفوفهم ويهدّون صناديدهم ويقتلون ويأسرون .

لقد وصفهم الله في سورة الأنفال يوم بدر ، فقال جل ذكره مخاطباً أصحاب نبيّه ليتذكروا نعمة الله عليهم وعنايته بهم: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: 9ـ12] .

ثم قال جل ثناؤه: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 17] .

كما خاطب الأصحاب ثانية في سورة آل عمران فقال لهم سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ

---

(1) صحيح أبي داود (672) وتخريج الترغيب (173/1) .

(2) قد مضى تخريجه في بحث صفة العلو .

﴿قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١٢٦ لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾ [آل عمران: 123 ـ 127].

فشارك الملائكة في وفد خاص منهم قتال بدر، وبثوا الرعب في قلوب المشركين، وجعلوا يقتلون ويأسرون، حتى انهزمت جموع الكافرين وتصدعت صفوفهم.

ففي المسند بسند حسن عن علي رضي الله عنه قال: [فقتلنا منهم سبعين وأسرنا سبعين، فجاء رجل من الأنصار قصير بالعباس بن عبد المطلب أسيراً. فقال العباس: يا رسول الله! إن هذا والله ما أسرني، لقد أسرني رجل أجْلَحُ[1] من أحسن الناس وجهاً على فرسٍ أبلق ما أُراه في القوم. فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله. فقال اسكت فقد أيدك الله تعالى بملك كريم][2].

قال الربيع بن أنس: (كان الناس يوم بدر يعرفون قتلىٰ الملائكة ممن قتلوهم بضرب فوق الأعناق وعلى البنان، مثل سمة النار قد أحرق به)[3].

وفي مسند البزار بسند صحيح عن علي قال: [قال لي النبي ﷺ ولأبي بكر يوم بدر: مع أحدكما جبريل ومع الآخر ميكائيل، وإسرافيل ملك عظيم يشهد القتال، أو يكون في الصف][4].

وفي مسند أبي يعلى بسند صحيح عنه قال: [كنت على بئر فكنت يوم بدر أميح وأمتح[5] منه، فجاءت ريح شديدة، ثم جاءت ريح شديدة، فلم أر ريحاً أشد منها إلا التي كانت قبلها، ثم جاءت ريح شديدة، فكانت الأولى ميكائيل في ألف من الملائكة عن يمين النبي ﷺ، والثانية إسرافيل في ألف من الملائكة عن يسار

(1) أي: منحسر الشعر على جانبي رأسه.
(2) أحمد (117/1) وأخرجه أبو داود في الجهاد باب في المبارزة رقم (2665) وإسناده صحيح كما قال الحافظ في الفتح (298/7). وانظر صحيح السيرة النبوية لإبراهيم العلي (174).
(3) السيرة النبوية على منهج الوحيين القرآن والسنة الصحيحة د. مأمون حموش (478).
(4) وانظر المسند للإمام أحمد (147/1). ورواه أبو يعلى 340. وإسناده صحيح كما في تحقيق السيرة النبوية لإبراهيم العلي (181).
(5) متح الدلو: إذا جذبها متسقياً لها.

النبي ﷺ ، والثالثة جبريل في ألف من الملائكة ، وكان أبو بكر عن يمينه ، وكنت على يساره. . .][1] .

ثم إن الله سبحانه قد رفع من شأن الملائكة الذين شاركوا في قتال بدر وجعل لهم مكانة خاصة بين ملائكته ، فصاروا يُعرفون بخير الملائكة لأنهم حازوا شرف القتال مع المؤمنين لأعداء الله المشركين .

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند صحيح عن رفاعة بن رافع الزرقي رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [جاء جبريل فقال: ما تعدون من شهد بدراً فيكم؟ قلت: خيارنا ، قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة هم عندنا خيار الملائكة][2] .

لقد أفرز منهاج الإيمان بالملائكة في حياة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام رجالاً مؤمنين ، شاركتهم الملائكة في حياتهم وصافحتهم في مجالسهم وقاتلت معهم أعداءهم في ساحات قتالهم ، فعوّضت لهم الفرق في المال والعتاد بينهم وبين عدوهم ، فهانت عليهم الدنيا ومصائبها وما فيها من آلام ، وهان عليهم اليهود والطغاة في الأرض وما بيّتوا من مكر وإجرام ، فأحْيوا ليلهم بالصلاة والبكاء وشاركتهم بذلك الملائكة في القيام ، وتحركوا بعد طلوع الفجر فلاقوا مع الملائكة عدوَّ الإسلام ، وأحبّوا الشهادة في سبيل الله فغسلتهم الملائكة الكرام ، ونالوا في الآخرة جنة النعيم وما فيها من حور حسان .

6 ـ ملائكة تنزل عند احتضار المؤمن في لحظات مفارقة الحياة الدنيا ، ثم ملكان ينزلان للسؤال في القبر :

هؤلاء ملائكة الرحمة كما وُصفوا في حديث النبي ﷺ ، فيبثون الأمل والأمن على المستقبل في قلوب المؤمنين وهم يغادرون الحياة الدنيا إلى حياة البرزخ ومن ثم إلى الحياة الآخرة .

فقد قال الله جل ثناؤه في سورة فصلت : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ

(1) حديث رجاله ثقات. صحيح السيرة: إبراهيم العلي (182).
(2) ورواه البخاري وابن ماجه. صحيح الجامع (3081).

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: 30 ـ 32].

وعن مجاهد ـ من المفسرين ـ قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ قال: (هم الذين قالوا ربنا الله ثم لم يشركوا به حتى لقوه) وفي قوله: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قال: (عند الموت).

والمعنى، تتنزل عليهم قائلة: لا تخافوا ولا تحزنوا، ويجوز أن يكون التأويل: تتنزل عليهم الملائكة بأن لا تخافوا ولا تحزنوا، فأن في موضع نصب.

وقوله: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ أي لا تخافوا المستقبل ولا تحزنوا على ما تركتم. قال مجاهد: (لا تخافوا ما تقدمون عليه من أمر الآخرة ولا تحزنوا على ما خلفتم من دنياكم من أهل وولد، فإنا نخلفكم في ذلك كله).

وإن أعظم حديث يصور دقائق الاحتضار ونزول الملائكة وعجائب الغيب في ذلك هو حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الذي رواه جمع من أئمة الحديث[1] في الأمة بإسناد صحيح، فقد رواه الإمام أحمد في مسنده، وأبو داود في سننه، والحاكم في مستدركه، والطيالسي في مسنده، وروى قسماً منه الإمام ابن ماجه والنسائي وهذا لفظ الإمام أحمد: قال البراء: [خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يُلحد، فجلس رسول الله ﷺ مستقبل القبلة وجلسنا حوله وكأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت في الأرض، فجعل ينظر إلى السماء وينظر إلى الأرض، وجعل يرفع بصره ويخفضه ثلاثاً، فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر، مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر (ثلاثاً) ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدّ البصر ثم يجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة (وفي رواية:

(1) وانظر تفاصيل الروايات المختلفة في أحكام الجنائز ص (157).

المطمئنة) اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان. قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها، حتى إذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وفتحت له أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله أن يعرج بروحه من قبلهم، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، فذلك قوله تعالى: ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملإ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح لهم فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي به إلى السماء السابعة فيقول الله عز وجل: (اكتبوا كتاب عبدي في عليين. وما أدراك ما عليون. كتاب مرقوم. يشهده المقربون) فيكتب كتابه في عليين ثم يقال: أعيدوه إلى الأرض فإني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى. قال: فيرد إلى الأرض وتعاد روحه في جسده فإنه يسمع خفق نعال أصحابه إذا ولوا عنه مدبرين. قال: فيأتيه ملكان شديدا الانتهار فينتهرانه ويجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ، فيقولان له: وما عملك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت. فينتهره فيقول: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن فذلك حين يقول الله عز وجل: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيّي محمد ﷺ. فينادي مناد في السماء: أن صدق عبدي فافرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة. قال: فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مدّ بصره. ويأتيه (وفي رواية: ويمثل له) رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول: أبشر بالذي يسرك، أبشر برضوان من الله وجنات فيها نعيم مقيم، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: وأنت فبشرك الله بخير من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير. فيقول: أنا عملك الصالح، فوالله ما علمتك إلا كنت سريعاً في إطاعة الله بطيئاً في معصية الله فجزاك الله خيراً. ثم يفتح له باب من الجنة وباب من النار فيقال: هذا

منزلك لو عصيت الله أبدلك الله به هذا ، فإذا رأى ما في الجنة قال : رب عجّل قيام الساعة كيما أرجع إلى أهلي ومالي . فيقال له : اسكن] .

وله شاهد في صحيح الترمذي عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : [إذا قبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر ، وللآخر النكير ، فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول : ما كان يقول هو : عبد الله ورسوله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول ، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ، ثم ينوَّرُ له فيه ، ثم يقال : نَمْ ، فيقول : أرجع إلى أهلي فأخبرهم ، فيقولان : نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحبُّ أهله إليه ، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك] وحسّنه الألباني(1) .

وهنا يبني الإيمان بالملائكة ـ رجاء الله تعالى ـ أن يجعل قبره روضة من روضات الجنة بعد أن يثبته عند سؤال الملكين وتجاوز آخر امتحان .

7 ـ ملائكة تنزل عند احتضار الكافر تسمى ملائكة العذاب :

قال تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال : 50] .

وقال تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام : 93] .

وقال جل ذكره يقارن بين احتضار المؤمن وما ينتظر الكافر : ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل : 32 ـ 33] .

إن الإيمان بالملائكة يبني في نفس المؤمن تعظيم الله ـ تعالى ـ والخوف منه عندما يعلم أن الله سخرها لمعاقبة الكافرين عند الموت ، وتعذيبهم في قبورهم إلى يوم يبعثهم .

---

(1) صحيح الجامع (737) .

ففي حديث الترمذي السابق: [وإن كان منافقاً قال: سمعت الناس يقولون قولاً ، فقلت مثله ، لا أدري ، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك ، فيقال للأرض: التئمي عليه ، فتلتئم عليه ، فتختلف أضلاعه ، فلا يزال فيها معذباً ، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك].

وإلى تفصيل ذلك في حديث البراء المتقدم:

قال: [وإن العبد الكافر (وفي رواية: الفاجر) إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة غلاظ شداد سود الوجوه معهم المُسوحُ من النار فيجلسون منه مدّ البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب ، قال: فتفرق في جسده فينتزعها كما يُنتزعُ السَّفودُ الكثير الشعب من الصوف المبلول فتقطع معها العروق والعصب فيلعنه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وتغلق له أبواب السماء ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله ألا تعرج روحه من قبلهم ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملإٍ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا ، حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى. ثم يقال: أعيدوا عبدي إلى الأرض فإني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى ، فتطرح روحه من السماء طرحاً حتى تقع في جسده ثم قرأ: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ .

فتعاد روحه في جسده. قال: فإنه يسمع خفق نعال أصحابه إذا ولّوا عنه. ويأتيه ملكان شديدا الانتهار فينتهرانه ويجلسانه فيقولان له: من ربك ؟ فيقول: هاه هاه لا أدري ، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان: فما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم فلا يهتدي لاسمه فيقال: محمد! فيقول: هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون ذاك! فيقال لا دريت ولا تلوت. فينادي مناد من

السماء أن كذب فافرشوا له من النار وافتحوا له باباً إلى النار ، فيأتيه من حرِّها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه . ويأتيه (وفي رواية : يمثل له) رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوؤك ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول: وأنت فبشرك الله بالشر من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر فيقول: أنا عملك الخبيث ، فوالله ما علمت إلا كنت بطيئاً عن طاعة الله سريعاً إلى معصية الله فجزاك الله شراً. ثم يقيض له أعمى أصم أبكم في يده مرزبة لو ضرب بها جبل كان تراباً فيضربه ضربة حتى يصير تراباً ، ثم يعيده الله كما كان ، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين ، ثم يفتح له باب من النار ويمهد من فرش النار فيقول: رب لا تقم الساعة][1] .

فهؤلاء الملائكة الكرام ، ملائكة الرحمة ، مختصون بالحضور عند احتضار المؤمن ، يبثون الأمل والنور والطمأنينة والأمن على المستقبل في قلبه ، أحوج ما يكون إلى مثل هذه الطمأنينة ومثل هذا الأمن .

وأولئك ملائكة العذاب مختصون بالحضور عند احتضار الفاجر والكافر ، يبثون إلى قلبه الرعب والخوف والقلق والفزع من المستقبل وما ينتظره من الأهوال ، أحوج ما يحتاج إلى غير ذلك ، عقاباً من الله له أن ضيّعَ حياته في الشهوات والسهر الحرام ، أو في الشبهات وتأويل الوحي بالفلسفة وعلم الجدل والكلام ، أو في الاستهزاء بأوامر الله وأكل السحت والربا والمكر والإجرام . وقد أحسن القائل :

يا نفس توبي فإن الموت قد حانا	واعصي الهوى فالهوى ما زال فتّانا
أما ترين المنايا كيف تلقِطنا	لقْطا فَتُلحِقُ أخرانا بأولانا
في كل يوم لنا ميت نشيعه	نرى بمصرعه آثار موتانا
يا نفس مالي وللأموال أتركها	خلفي وأخرجُ من دنياي عُريانا
أبعد خمسين قد قَضَيْتها لعبا	قد آن أن تقصري قد آن قد آنا

* * *

(1) أحمد (287/4, 288, 295, 296). وأبو داود (281/2). وصححه الألباني في أحكام الجنائز ص (159).

ما بالنا نتعامى عن مصائرنا ... ننسى بغفلتنا من ليس ينسانا
نزداد حرصاً وهذا الدهر يزجُرُنا ... كأن زاجرنا بالحرص أغرانا
أين الملوك وأبناء الملوك ... ومَنْ كانت تخر له الأذقان إذعانا
صاحت بهم حادثات الدهر فانقلبوا ... مستبدلين من الأوطان أوطانا
خلّوا مدائن كان العزُ مفرشَها ... واستُفْرشوا حُفَراً غبراً وقيعانا

* * *

يا راكضا في ميادين الهوى مَرِحا ... ورافلاً في ثياب الغي نشوانا
مضى الزمان وولّى العمر في لعب ... يكفيك ما قد مضى قد كان ما كانا

8 ـ ملائكة منتشرون في طبقات السماء المختلفة يسبحون ويهللون ويعظمون الله ويقدسونه لا يفترون:

فقد قال الله في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: 30ـ32].

وقوله: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ ﴾ أي يخلف بعضهم بعضاً، فإنه في لغة العرب: خلف فلان فلاناً في الأمر إذا قام مقامه فيه بعده. فيكون معنى الآية: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ ﴾ كمفهوم قوله جل ثناؤه في سورة يونس: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: 14].

وبنحوه في سورة النمل: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: 62].

وكقوله في سورة الزخرف: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ [الزخرف: 60].

وكذلك في سورة مريم: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم: 59].

وقد أبعد النجعة بعض المفسرين حين اختاروا المعنى الآخر، وهو قولهم

الإنسان أو المؤمن خليفة الله ، فإن الله لا يغيب حتى يخلفه أحد ، فهو الله الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، وإن كان بعضهم قد تأولها بأن المؤمن يخلف الله في الأرض بالحكم بأمره وإقامة شرعه ، ولكن مع ذلك فلا يستقيم المفهوم فإن الله سبحانه يقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ ومن ثمّ فهو معنا سبحانه بعلمه وصفاته ، يعين على الطاعة ويحبها ، ويكره المعصية ويبغضها ، فهو سبحانه لا يغيب عن المؤمنين به ، بل هو معهم أينما كانوا يوفقهم بهداية التوفيق والإلهام ، ويعينهم على امتثال الحق والحكم به.

والخلاصة: فإن مفهوم قوله سبحانه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ هو كما ذكر الحافظ ابن كثير رحمه الله: (أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل).

ويبدو أن الله سبحانه قد أعلم الملائكة بطبيعة ما سيخلق ، ومن ذلك قولهم: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾. قال قتادة: (كان الله أعلمهم أنه إذا كان في الأرض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء ، فذلك حين قالوا: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾).

وروي عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة: (أن الله جل ثناؤه قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ قالوا: ربنا وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً).

فقالوا رضوان الله عليهم: ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾. قال مجاهد: (نعظِّمك ونكبِّرك). وقال الضحاك: (التقديس: التطهير). أي طهارة له سبحانه مما ينسبه له أهل الكفر والمعصية ، وتعظيم وتمجيد يليق بجلاله وكبريائه جل ثناؤه.

لقد أخرج الإمام أحمد في المسند ، والترمذي في الجامع ، وابن ماجه في السنن بسند حسن عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون ، أطَّت السماء وحُقَّ لها أن تئِطَّ ، ما فيها موضِعُ أربع أصابعَ إلا وملك واضع جبهته لله تعالى ساجداً ، والله لو تعلَمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ،

ولبكيتم كثيراً ، وما تلذذتم بالنساء على الفُرُش ولخرجتم إلى الصُّعُدات تجأرون إلى الله][1].

9 ـ ملائكة يحجون إلى البيت المعمور:

فقد صحّ الخبر عن رسول الله ﷺ بأنه يحج إلى البيت المعمور في السماء السابعة كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة لا يعودون إليه إلى يوم القيامة.

ففي مسند الإمام أحمد بسند صحيح عن أنس عن النبي ﷺ قال: [البيت المعمور في السماء السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه حتى تقوم الساعة][2].

10 ـ ملائكة يحضرون تلاوة المؤمن للقرآن في قيام الليل:

فهم يلتمسون تلاوة الذكر في القيام ، وحيث الناس نيام ، ليشاركوا المؤمن تلاوته ، وليضعوا أفواههم على أفواه المؤمنين القائمين الباكين الخاشعين ، وهم يتلون آيات القرآن ويخافون ربهم من فوقهم ويذكرون أمر الآخرة فيزيدهم ذلك خشوعاً.

فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أسيد بن حضير رضي الله عنه قال: [بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة ـ وفرسه مربوطة عنده ـ إذ جالت الفرس فسكت فسكنت ، فقرأ فجالت الفرس فسكت فسكنت ، ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف وكان ابنه يحيى قريباً منها فأشفق أن تصيبه ، فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها ، فلما أصبح حدّث النبي ﷺ فقال: اقرأ يا ابن حضير. قال: قد أشفقت يا رسول الله على يحيى وكان منها قريباً فرفعت رأسي وانصرفت إليه فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فخرجت حتى لا أراها. قال: وتدري ما ذاك؟ قال: لا ، قال: تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأتَ لأصبَحَتْ ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم][3].

---

(1) تخريج المشكاة (5347). وانظر السلسلة الصحيحة (1059 و1060) وصحيح الجامع (2445).

(2) صحيح الجامع (2888).

(3) البخاري (5018) ومسلم (796) وأحمد (81/3). والبخاري أخرجه تعليقاً ولكنه في صحيح مسلم موصول صحيح.

وروى البيهقي في السنن الكبرى عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي رضي الله عنه قال: [أمرنا بالسواك. وقال مرفوعاً: إن العبد إذا قام يصلي أتاه الملك فقام خلفه يستمع القرآن ويدنو فلا يزال يستمع ويدنو حتى يضع فاه على فيه فلا يقرأ آية إلا كانت في جوف الملك]. زاد البزار في رواية: [فطهروا أفواهكم للقرآن](1).

11 ـ ملائكة تسمع مديح الله لعباده الذاكرين:

وذلك حين يذكرهم سبحانه أثناء ذكرهم ويفخر بهم أمام هؤلاء الملائكة.

فقد روى الطبراني بسند حسن عن معاذ بن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالى: لا يذكرني عبد في نفسه إلا ذكرته في ملإٍ من ملائكتي، ولا يذكرني في ملإٍ إلا ذكرتهُ في الرفيق الأعلى](2).

وله شاهد في مسند الإمام بسند صحيح من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [قال الله تعالى: يا ابن آدم! إن ذكرتني في نفسك ذكرتُكَ في نفسي، وإن ذكرتني في ملإٍ ذكرتك في ملإٍ خير منهم، وإن دنوتَ مني شبراً دنوت منك ذراعاً، وإن دنوت مني ذراعاً، دنوت منك باعاً، وإن أتيتني تمشي، أتيت إليك أهرول](3).

12 ـ ملائكة سيّارة تشهد مجالس العلم والإيمان مع المؤمنين:

ففي الصحيحين والمسند عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [إن لله ملائكة سيّاحين في الأرض فُضْلاً عن كُتّاب الناس يطوفون في الطرق يلتسمون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجاتكم فيحفّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم: ما يقول عبادي؟ فيقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك، فيقول: هل رأوني؟ فيقولون: لا والله ما رأوك، فيقول: كيف لو رأوني؟ فيقولون: لو رأوك كانوا أشد

---

(1) حسن. صحيح الترغيب (212/1) ص 91.
(2) حسن. صحيح الجامع (4211).
(3) صحيح الجامع (4213)، والسلسة الصحيحة (2012).

لك عبادة وأشد لك تمجيداً ، وأكثر لك تسبيحاً ، فيقول: فما يسألوني؟ فيقولون: يسألونك الجنة ، فيقول: وهل رأوها ؟ فيقولون: لا والله يا رب ما رأوها ، فيقول: فكيف لو أنهم رأوها؟ فيقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشدَّ عليها حرصاً ، وأشدَّ لها طلباً ، وأعظم فيها رغبة ، قال: فمِمَّ يتعوذون؟ فيقولون: من النار ، فيقول الله: هل رأوها؟ فيقولون: لا والله يا رب ما رأوها ، فيقول: كيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً وأشدَّ لها مخافة ، فيقول: فأشهدكم أني قد غفرتُ لهم ، فيقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجة! فيقول: همُ القوم لا يشقىٰ بهم جليسهم][1] .

13 ـ ملائكة سيّاحون يبلغون النبي ﷺ في قبره من أمته السلام:

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [إن لله تعالى ملائكة سيّاحين في الأرض ، يبلغوني من أمتي السلام][2] .

وعند الديلمي بسند حسن عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه مرفوعاً: [أكثروا الصلاة عليَّ ، فإن الله وكَّلَ بي ملكاً عند قبري ، فإذا صلّى عليّ رجل من أمتي قال لي ذلك الملك: يا محمد! إن فلان بن فلان صلّى عليك الساعة][3] .

وفي معجم الطبراني بسند حسن عن عمار بن ياسر عن النبي ﷺ قال: [إن لله تعالى ملكاً أعطاه سمعَ العباد ، فليس من أحدٍ يصلي عليَّ إلا أبلغنيها ، وإني سألت ربي أن لا يصليَ عليَّ عبدٌ صلاة إلا صلَّى عليه عشر أمثالها][4] .

14 ـ ملائكة تنادي المسلمين إلى صلاة الجماعة ، وتسأل عنهم حالة غيابهم ، وتزورهم حال مرضهم وتعينهم عند حاجتهم:

فقد أخرج الطبراني بسند حسن عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(1) صحيح الجامع (2169).
(2) صحيح الجامع (2170).
(3) حسن. صحيح الجامع (1218). والسلسلة الصحيحة (1530).
(4) حسن. صحيح الجامع (2172) والسلسلة الصحيحة (1530).

[إن لله ملكاً ينادي عند كل صلاة: يا بني آدم! قوموا إلى نيرانكم التي أوقدتموها فأطفئوها][1].

وروى الحاكم بإسناد صحيح عن عبد الله بن سلام موقوفاً: [إن للمساجد أوتاداً هم أوتادها ، لهم جلساء من الملائكة ، فإن غابوا سألوا عنهم ، وإن كانوا مرضى عادوهم ، وإن كانوا في حاجة أعانوهم][2].

15 ـ ملائكة تنادي المؤمنين كل يوم إلى الإنفاق في سبيل الله ، وتشجعهم على الزكاة والصدقات:

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً][3]. قال النووي في شرح مسلم: (قال العلماء هذا في الإنفاق في الطاعات ومكارم الأخلاق وعلى العيال والضيفان والصدقات ونحو ذلك ، بحيث لا يذم ولا يسمى سرفاً ، والإمساك المذموم هو الإمساك عن هذا).

ورواه ابن حبان في صحيحه بلفظ: [إن ملكاً بباب من أبواب الجنة يقول: من يُقرض اليوم يُجْزَ غداً. وملك بباب آخر يقول: اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً][4].

ورواه الطبراني بنحو ما رواه ابن حبان ، إلا أنه قال: [بباب من أبواب السماء][4].

16 ـ ملائكة يبيتون مع المؤمنين المتطهرين في فرشهم ، ويزورونهم في بيوتهم ، ويصافحونهم بأكفهم:

فقد روى الطبراني بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: [طهروا هذه الأجساد طهركم الله ، فإنه ليس من عبد يبيت طاهراً إلا بات معه

(1) حسن. صحيح الترغيب (355/1). ص 142.
(2) صحيح الترغيب (327/1) ص 131.
(3) مختصر مسلم (549). صحيح مسلم (83/3 - 84).
(4) صحيح الترغيب (905/1 ص 383).

في شعاره ملك ، لا ينقلب ساعة من الليل إلا قال: اللهم اغفر لعبدك فإنه بات طاهراً][1].

وفي صحيح مسلم عن حنظلة الأَسَيدي رضي الله عنه قال: [لقيني أبو بكر فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قلت: نافق حنظلة. قال: سبحان الله ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنها رأي عين ، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافَسْنا الأزواج والأولاد والضَّيعات فنسينا كثيراً. قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا. فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ. قلت: نافق حنظلة يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: وما ذاك؟ قلت: نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنها رأي عين ، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيراً ، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده ، إنْ لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فُرُشكم وفي طُرُقِكم. ولكن يا حنظلة: ساعة وساعة ، ثلاث مرات][2].

17 ـ ملائكة مرافقة مسلحة لبعض المؤمنين:

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند عن خالد بن معدان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [من قال حين يصبح: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، عشر مرات ، كتب الله له بكل واحدة قالها عشر حسنات ، وحطّ الله عنه عشر سيئات ، ورفعه الله بها عشر درجات ، وكنّ له كعشر رقاب ، وكنّ له مسلحة من أول النهار إلى آخره ، ولم يعمل يومئذ عملاً يقهرهن ، فإن قال حين يمسي فمثل ذلك][3].

18 ـ ملائكة تكتب أعمال العباد:

قال الله في سورة (ق): ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 17 ـ 18].

---

(1) حسن. صحيح الجامع (3831). وتخريج الترغيب (207/1).
(2) مختصر مسلم (1887).
(3) صحيح الترغيب (656/1 ص 272).

والمعنى كما ذكر ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ونحن أقرب إلى الإنسان من وريد حلقه، حين يتلقى الملكان، وهما المتلقيان ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ وقيل: عني بالقعيد: الرصد).

قال مجاهد: (عن اليمين الذي يكتب الحسنات، وعن الشمال الذي يكتب السيئات).

وقال إبراهيم التيمي: (صاحب اليمين أمير أو أمين على صاحب الشمال، فإذا عمل العبد سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: أمسك! لعله يتوب).

وفي معجم الطبراني بسند حسن عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: [إن صاحب الشمال ليرفع القلم ستَّ ساعات عن العبد المسلم المخطىءِ، فإن ندم واستغفر الله منها ألقاها، وإلا كُتبت واحدة][1].

وعن قتادة قال: (تلا الحسن ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ قال: فقال: يا ابن آدم بُسطت لك صحيفة، ووكل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك، والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك، فاعمل بما شئت أقلل أو أكثر، حتى إذا متّ طويت صحيفتك، فجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقول: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾، عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك) تفسير الطبري.

وفي التنزيل: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: 10 ـ 12].

وفي المسند بسند صحيح عن بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة

---

(1) صحيح الجامع (2093). والصحيحة (1209).

من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه][1] .

19 ـ ملائكة حفظة للعبد معقبات من بين يديه ومن خلفه :

قال الله في سورة الرعد : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾ [الرعد : 11] .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله : (أي للعبد ملائكة يتعاقبون عليه ، حرس بالليل وحرس بالنهار ، يحفظونه من الأسواء والحادثات ، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال ، صاحب اليمين يكتب الحسنات ، وصاحب الشمال يكتب السيئات ، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه ، واحد من ورائه وآخر من قدامه ، فهو بين أربعة أملاك بالنهار ، وأربعة آخرين بالليل ، بدلاً حافظان وكاتبان ، كما جاء في الصحيح : «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم : كيف تركتم عبادي؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون)[2] .

وعن ابن عباس : (والمعقبات من الله هي الملائكة ، ﴿ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾ قال : ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه) .

وقال مجاهد : (ما من عبد إلا له ملك موكل ، يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام ، فما منها شيء يأتيه يريده ، إلا قال له : الملك وراءك ، إلا شيء أذن الله فيه فيصيبه)[3] .

20 ـ ملائكة خزنة جهنم :

فقد قال الله في سورة التحريم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا

---

(1) صحيح الجامع (1615) ، والصحيحة (886) .
(2) تفسير ابن كثير . سورة الرعد . آية : 11 .
(3) انظر تفسير الطبري . سورة الرعد آية : 11 .

﴿ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم : 6].

وقال في سورة غافر : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر : 49 ـ 50].

قال ابن جرير : (يقول تعالى ذكره : وقال أهل جهنم لخزنتها وقوّامها ، استغاثة بهم من عظيم ما هم فيه من البلاء ، ورجاء أن يجدوا من عندهم فرجاً ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ لنا ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ واحداً ، يعني قدر يوم واحد من أيام الدنيا ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ الذي نحن فيه. وإنما قلنا : معنى ذلك قدر يوم من أيام الدنيا ، لأن الآخرة يوم لا ليل فيه ، فيقال : خفف عنهم يوماً واحداً)[1].

وقال تعالى في سورة الزخرف : ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزخرف : 77 ـ 78].

وفي صحيح مسلم في حديث الإسراء عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [. . . فحانت الصلاة فأممتهم ، فلما فرغت من الصلاة قال لي قائل : يا محمد! هذا مالك خازن النار فسلّم عليه ، فالتفت إليه فبدأني بالسلام][2].

21 ـ ملائكة خزنة الجنة :

الخازن هو المؤتمن على الشيء الذي قد استحفظه ، وقد أخبر الله سبحانه في القرآن الكريم عن خزنة الجنة ، فقال في سورة الزمر : ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر : 73].

وفي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [آتي

---

(1) تفسير الطبري. سورة غافر. آية : 49 - 50.

(2) السيرة النبوية على منهج الوحيين ، القرآن والسنة الصحيحة د. مأمون حموش (ج 1/ 311).

باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد. فيقول: بكَ أُمرتُ لا أفتح لأحد قبلك][1].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [من أنفق زوجين في سبيل الله دعاه خزنة الجنة كل خزنة باب أي فهلم. قال أبو بكر: يا رسول الله ذاك الذي لا توى عليه (أي لا خسارة ولا هلاك) فقال النبي ﷺ: إني لأرجو أن تكون منهم][2].

وقد سمى الله سبحانه كبير الخزنة (رضوان) وهو اسم مشتق من الرضا. جعلنا الله من أهل الرضوان، إنه بالمؤمنين رؤوف رحيم.

وفي سورة الرعد: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: 23-24].

لقد أفرز منهاج النبوة في تربية المؤمنين على الإيمان بالملائكة رجالاً مؤمنين في حياة النبي عليه الصلاة والسلام، شاركتهم الملائكة حياتهم ونزلت بالسكينة على قلوبهم فزاد تعلقها بالإسلام، فبذلوا الغالي والنفيس لأجل هذا الدين وتفانوا في طريق إرضاء الرحمان، فقاتلوا في سبيل الله حق القتال، وصدقوا عند اللقاء، وزَلزلوا الأرض من تحت المستكبرين اللئام، وما خافوا في الله لومة لائم، وما زُلزلوا لما رأوا تفوق العَدد والعُدد في جيوش أهل المكر والإجرام. بل علموا أن الملائكة تشاركهم قِتالهم وتعوض لهم الفرق في المال والعتاد بينهم وبين جند الطغام. فاستبسلوا أكثر، ونفروا في الحر والبرد، وفي أصعب الليالي والأيام. وقد أَحيوا ليلهم بالصلاة والبكاء والتذلل والتضرع لله العظيم وشاركتهم الملائكة ليلهم والقيام، ثم تحركوا بعد الفجر وقد امتلأت قلوبهم طمأنينة وسكينة وعزيمة وعُمرت بالصدق والإيمان، لقد أحبُّوا الشهادة في سبيل الله فأكرمهم بها وغسلت بعضهم الملائكة الكرام، وهيأ لهم ربهم في الآخرة جنة عرضها السماوات والأرض وما فيها من الحور الحسان، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم يا أهل السلام.

* * *

---

(1) رواه أحمد. صحيح الجامع (1)، والسلسلة الصحيحة (775).

(2) وله شاهد فيه تفصيل أجمل، في صحيح الجامع (5985). ورواه أحمد والترمذي والنسائي.

-17-

ـ الإيمان بالكتب ـ

الحمد لله الذي انفرد بصفات الكمال والجمال ، فلا يبلغ كمال مدحته صاحب علم أو حجة أو مقال ، فهو الذي أنشأ الخلق وما أفاد من فكر ولا تجربة ولا أمثال ، ثم إنه سبحانه لم يتركهم هملاً بل بعث فيهم رسلاً منهم يتلون عليهم آيات الله ويذكروهم بالله الكبير المتعال ، ألاَّ يخضعوا لغيره ولا يحتكموا لغير منهاجه فقد دانت له السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب والجبال ، وأنزل على رسله كلاماً تكلم به سبحانه ووحياً ليتحاكموا إليه فما للعباد من دون الله من وال ، فأنزل الزبور والتوراة والإنجيل والقرآن ليهدي بها قلوب عباده ليجتنبوا سبل الشياطين والضلال ، فأصاب غير القرآن من الكتب ما أصابها من تحريف أهل الهوى والزيغ من الأحبار ، وحفظ الله القرآن إلى يوم القيامة ألا يمسه صاحب بدعة أو شبهة أو إبطال ، وجعله سبحانه منهج الحكم في الأمة لا يقبل منها أن تتحاكم لغيره يحاسبها على ذلك في الدنيا والآخرة يوم لا ينفع النفاق ولا الجدال .

لقد قال الله جل ثناؤه في سورة البقرة : ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا
فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ
وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ
ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ
إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا

﴿تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 284 - 286].

وفي صحيح الإمام مسلم ومسند الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ثم بركوا على الركب فقالوا: أي رسولَ الله كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أُنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها. قال رسول الله ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فلما اقترأها القوم ذلت بها ألسنتهم (وفي رواية أحمد: فلما أقر بها القوم وزلت بها ألسنتهم) فأنزل الله في أثرها ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى فأنزل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال نعم (وفي رواية أحمد، قال: قد فعلت)، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ قال نعم (وفي رواية: قد فعلت)، ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ قال نعم (وفي رواية: قد فعلت) ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾][1].

فالإيمان بالكتب هو الركن الثالث من أركان الإيمان كما روى الإمام مسلم من حديث عمر: [الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره][2].

ورواه البيهقي عنه بلفظ: [الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله،

---

(1) مختصر صحيح مسلم (2125) ص(564 -565) كتاب التفسير.

(2) قد مضى تخريجه.

وتؤمن بالجنة والنار والميزان ، وتؤمن بالبعث بعد الموت ، وتؤمن بالقدر خيره وشره][1].

وله شاهد في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه وبلقائه وبرسله وتؤمن بالبعث الآخر][1].

فالله جلت أسماؤه قد أنزل وحياً على أنبيائه ، كتباً من كلامه وبيانه ، بيَّن فيها أمرَه ونهيَه ووعده ووعيده ، وهي كلام الله تعالى حقيقة بدأت منه بلا كيفية قولاً ، وأنزلها على قلوب رسله وحياً. ودليل ذلك قوله جل ثناؤه لخاتم أنبيائه محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: 163 - 166].

وكذلك قوله يصف نبيّه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم: 3 - 5].

من تلك الكتب التي أنزلها سبحانه: التوراة والإنجيل والزبور والقرآن ، وصحف إبراهيم وموسى. وتفصيل ذلك:

أولاً: التوراة.

وهو كتاب الله سبحانه أنزله على كليمه موسى عليه الصلاة والسلام لبيان الأحكام الشرعية والعقائد الصحيحة المَرْضية ، والتبشير بظهور نبي من بني إسماعيل تختم به النبوة إلى البشرية ويهديهم إلى شرع الكمال.

قال الله في سورة آل عمران: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ

(1) قد مضى تخريجه.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [آل عمران: 1 - 4].

وقال في سورة الأعراف: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 157].

ولكن التوراة الموجودة اليوم بين أيدي اليهود محرفة أصابها ما أصابها فلم تعد كلام الله تعالى، وإنما لعب فيها الأحبار وحرَّفوا وبدَّلوا لتتماشىٰ مع أهواء اليهود وكبرهم ومكرهم في الأرض، وقد وصف الله في القرآن ما اجترحته أيديهم فلعنهم وغضب عليهم، فقال جل ذكره في سورة المائدة: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 13].

ومما يدل على تحريفها أنه ليس فيها ذكر الجنة والنار، وحال البعث والحشر والجزاء، مع أن ذلك أهم ما يذكر في الكتب الإلهية، ومما يدل على تحريفها أيضاً ذكر وفاة موسىٰ عليه الصلاة والسلام فيها في الباب الأخير منها، والحال أنه هو الذي أنزلت عليه.

لقد أخرج الطبراني بسند حسن عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: [إن بني إسرائيل كتبوا كتاباً فاتبعوه وتركوا التوراة][1].

وما أشبه حال أكثر المسلمين اليوم بِمن قبلهم، فقد تركوا القرآن والحديث وأكثروا من تتبع آراء العلماء وقصص المشايخ، فيقضي المتفقه منهم دهراً طويلاً لا يعلم أدلة الكتاب والسنة في المسائل التي يتفقه فيها، ولكنه يستطيع أن يسرد في المسألة أقوالاً عديدة فيها كل الاحتمالات الممكنة من الأحكام: من حلال وحرام أو واجب ومندوب أو مكروه ومباح، جمعها من أقوال العلماء على اختلاف مدارسهم ومناهلهم ومناهجهم، ثم رمى بها أمام المستفتي له ليضعه في حيرة من

(1) صحيح الجامع (2040).

أمره ، وليصور بذلك لعامة الناس بشكل أو بآخر أن الدين هو مجموعة كبيرة من المتناقضات ، فما شئت من الجواب تجده لك ، ولربما أفتاه بعضهم بالترخص في أخذ الأسهل عليه من هذه الأقوال والأربح لتجارته والأنسب لحاله والأليق بظرفه بدعوىٰ أن كل ذلك صحيح يخرج من مشكاة واحدة فبأيها أخذت فقد نجوت .

وليته بدأ فعلم ما في المسألة من كلام الله وكلام نبيه نصاً ودليلاً ، ثم تتبع آثار العلماء بعدها حول هذه النصوص فهماً وتفسيراً وتأويلاً . ثم استعان بالله وبما نوَّر في عقله وبصيرته ليرجح منها أقوى الأدلة وأقربها إلى مقاصد الشرع منهجاً وقولاً جميلاً .

لقد انتهت الأمة بهذا التخبط إلى غياب بعد حضور ، وإلى عزلة بعد سيادة ، وإلى همل وغثاء بعد قيادة ، لما ضاع منهج النبوة في التفسير والفقه وأصول الفقه والسيرة والسياسة الشرعية وعلوم الأحكام ، فحق عليها ما حق على بني إسرائيل إذ ضيَّعوا دينهم ، كما يروي الطبراني بسند صحيح عن خباب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [إن بني إسرائيل لما هلكوا قصُّوا][1] .

أي : لما هلكوا بتركهم العلم النافع وتحريفهم الوحي وإهمال العمل بما نزل عليهم أخلدوا إلى القصص ولجؤوا إلى الحكايات المفتراة والروايات الكاذبة ، وإلى تحويل الدين من علم إلى أساطير وخرافات. فأصاب المسلمين اليوم ما أصاب من قبلهم ، كما روىٰ الحاكم بسند جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : [لتركبن سُنَنَ من كان قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو أن أحدهم دخل جُحْر ضب لدخلتم ، وحتى لو أن أحدهم جامع امرأته بالطريق لفعلتموه][2] .

روى مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : [مرَّ على النبي ﷺ يهودي محمَّماً مجلوداً ، فدعاهم ﷺ فقال : هكذا تجدون حدَّ الزاني في كتابكم؟ قالوا : نعم. فدعا رجلاً من علمائهم فقال : أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسىٰ ، أهكذا تجدونَ حدَّ الزاني في كتابكم؟ قال : لا ، ولولا

---

(1) السلسلة الصحيحة (1681) وصحيح الجامع (2041) .

(2) السلسلة الصحيحة (1348) وصحيح الجامع (4943) .

أنك نشدتني بهذا لم أخبرك ، نجده الرجم ، ولكنه كثرُ في أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد. قلنا تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع ، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم. فقال رسول الله ﷺ: اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه ، فأمر به فرجم فأنزل الله عز وجل: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ ﴾ يقول: ائتوا محمداً ﷺ فإن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوه وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا ، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ ، ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ ، ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾][1] .

وخلاصة القول: إن أمة الإسلام اليوم قد أصابها ما أصاب أمة اليهود من ترك العلم واتباع الهوى ، وترك النص والدوران عليه بآراء الناس ومنامات الشيوخ وخيالات الدجالين وهذيانات الأفاكين ، فانقسمت الأمة نتيجة لذلك كما انقسمت أمة اليهود جزاء من الله لها ، لما ضيَّعت وحيها ومنهاج نبيِّها.

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن أبي عامر ـ عبد الله بن يحيىٰ ـ قال: حججنا مع معاوية بن أبي سفيان فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر فقال: إن رسول الله ﷺ قال: [إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة ـ يعني الأهواء ـ كلها في النار إلا واحدة ـ وهي الجماعة ـ وإنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله. والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم ﷺ لغيركم من الناس أحرى أن لا يقوم به][2] .

ومن ثم فإن الله سبحانه قد سلط أمة اليهود على أمة الإسلام التي ضيعت هدي

(1) أخرجه مسلم (1700) وأحمد (286/4).

(2) وله شواهد كثيرة صحيحة. انظر صحيح الجامع (1093 و1094).

ربها ومنهاج نبيها ، عقاباً لها ، وأذاقها ذل الفقر وتحكم الأعداء وذل الطغيان ، فها هي يهود تعربد في بيت المقدس وما بارك الله حوله من البلاد الطيبة التي تتابع عليها الوحي وعاش في كنفها الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وليهَدَّدَ المسجد الأقصى بذنوب أمة تخلَّتْ ، وبانحراف أجيال تردَّتْ ، وبمسخ الفطرة في حياة الشباب ممن تعلقت قلوبهم بالموضات وعادات الغرب الشقي إذ أقبلت وتدلَّتْ .

قول القائل :

يا ويحنا ماذا أصاب رجالنا	أو ما لنا سعد ولا مقداد
نامت ليالي الغافلين وليلنا	أَرَقٌ يذيب قلوبنا وسهاد
سلت سيوف المعتدين وعربدت	وسيوفنا ضاقت بها الأغماد
هذا هو الأقصى يلوك جراحه	والمسلمون جموعهم آحاد
دمع اليتامى فيه شاهد ذلة	وسواد أعينهن فيه حداد
أوّاه يا أبتي على أمجادنا	يختال فوق رفاتها الجلاَّد
خمسون عاماً أتخمت سنواتها	ذلاً فكل زمانها إخلاد
ها نحن يا أبتي نسير وراءنا ليل	له فوق السواد سواد
ها نحن يا أبتي نبيت هنا ولا	طنب لخيمتنا ولا أوتاد

ثانياً : الزبور .

وهو كتاب الله سبحانه أنزله على داود عليه الصلاة والسلام كما قال جل ثناؤه : ﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴾ [النساء : 163] .

والزبور : كلام الله سبحانه فيه أدعية وأذكار ومواعظ وحكم ، وليس فيه أحكام شرعية ، لأن داود عليه الصلاة والسلام كان مأموراً باتباع الشريعة الموسوية . وكان داود عليه السلام قد أوتي صوتاً جميلاً يردد فيه آيات الوحي ويُسمع بذلك أهله .

ففي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال

لـه: [لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحـة ، لقد أوتيت مزماراً من مزاميـر آل داود][1].

وكان يكثر من الصلاة والدعاء بالليل ويوقظ أهله ، ويكثر من الصيام وكان خير الصيام صيامه ، كما أخبرنا نبينا محمد ﷺ.

ففي الصحيحين والسنن عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: [أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، ويصوم يوماً ويفطر يوماً][2].

وكان صلوات الله وسلامه عليه يحب أن يأكل من عمل يده ، وهي خصلة من أرفع الخصال مدحه بها نبينا محمد عليه الصلاة والسلام.

فقد روىٰ البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [إن داودَ النبيَّ كان لا يأكلُ إلا من عمل يده][3].

ثالثاً: الإنجيل.

وهو كتاب الله سبحانه أنزله على المسيح عيسىٰ بن مريم ﷺ ، كما قال جل ثناؤه في سورة المائدة: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: 46 - 47].

وقال في موضع آخر من نفس السورة: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: 65 - 66].

---

(1) مختصر صحيح مسلم (2112). وهو في صحيح مسلم (193/2). ورواه البخاري.
(2) وله شاهد في المسند بلفظ مقارب ، انظر إرواء الغليل (450) وصحيح الجامع (168).
(3) صحيح الجامع (2063).

فالإنجيل كلام الله العظيم ، فيه دعوة الخلق لتوحيد الخالق الكريم ، ونسخ بعض أحكام التوراة الفرعية حسب الاقتضاء والظروف التي أوحي بها إلى عيسى بن مريم عليه أفضل الصلوات والتسليم.

والإنجيل المتداول في العالم له أربع نسخ معروفة ، ألّفها أربعة من البشر ، وبعضهم لم ير المسيح عليه السلام أصلاً، وهم: (متّى، ومرقص، ولوقا، ويوحنا).

متّى: هو أحد حواريي المسيح عيسى عليه السلام الاثني عشر ، وقد جال في البلاد مبشراً حتى وصل الحبشة ، فأقام فيها نحواً من ثلاث وعشرين سنة إلى أن قتل سنة سبعين للميلاد.

مرقص: ويقال اسمه (يوحنا) ولقبه (مرقص) وهو ليس من الحواريين ، إلا أنه لازم خاله (برنابا) ، وقد قتل في سجنه سنة اثنين وستين للميلاد. قيل لأنه كان يكره القول بألوهية المسيح عليه السلام.

لوقا: ولد في أنطاكية ودرس الطب ونجح فيه ، ولم ير المسيح عليه السلام ولم يسمع منه ، وإنما لازم بولس (المسمى بالرسول) والمعروف بتحريفه الديانة النصرانية ، وقد حدثت أكثر المجازر بتخطيطه فقد كان يهودياً.

يوحنا: هو أحد الحواريين الاثني عشر ، مات سنة خمس وستين للميلاد بعد اضطهاد.

وهذه الأناجيل الأربعة يناقض بعضها بعضاً في كثير منها ، وقد كان للنصارى أناجيل كثيرة أخرى ، ولكن بعد رفع المسيح عليه السلام للسماء بأكثر من مائتي سنة تم إلغاؤها عدا هذه الأربعة تخليصاً من التناقض ، وكان ذلك في مجمع نيقيا سنة (325) للميلاد حيث اجتمع كثير من البطارقة والأساقفة وتوصلوا بعد نقاش إلى الإذعان للملك قسطنطين ومن قال بألوهية المسيح ونسخ جميع الأناجيل عدا الأربعة المذكورة.

والخلاصة: إن المسيح عيسى عليه الصلاة والسلام قد بشّر بخاتم الأنبياء محمد صلوات الله وسلامه عليه ، لتنسخ بذلك جميع الكتب السماوية إلا القرآن الذي سيبقى حجة الله على الناس إلى يوم القيامة.

يروي ابن عساكر بإسناد جيد عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [أنا دعوة إبراهيم ، وكان آخرَ من بشَّرَ بي عيسى بن مريم][1].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [أنا أولىٰ الناس بعيسىٰ بن مريم في الدنيا والآخرة ، ليس بيني وبينه نبي ، والأنبياء أولاد علات ، أمهاتهم شتىٰ ودينهم واحد][2]. وبنو العلات: هم أولاد الرجل الواحد من نساء شتىٰ.

وفي رواية: [الأنبياء إخوة من علات].

رابعاً: القرآن الكريم.

وهو آخر كتاب من الله إلى البشر ، أنزله على نبيِّه محمد ﷺ وحياً ، فيه ذِكرُ صِفات الله سبحانه ومحامده ، وفيه خبر الخلق وخبر الأمم الماضية ونبؤ الدار الآخرة ، وفيه أحكام الشريعة وضوابط التقوى والفصل بين الحلال والحرام ، فصلاً مجملاً مبيَّناً تفسيره وتفصيله في سنة النبي ﷺ وهديه وسيرته ، وهو أكبر معجزة في الأرض إلى قيام الساعة.

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيتهَ وحياً أوحاه الله إليَّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة][3].

ومن صفاته:

1 ـ إنه يأتي يوم القيامة شافعاً لأهله يحاج عن صاحبه.

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه][4].

---

(1) السلسلة الصحيحة (1546) وصحيح الجامع (1476).
(2) ورواه أحمد وأبو داود. صحيح الجامع (1465).
(3) مسلم (92/1 - 93) ، وهو في مختصر صحيح مسلم برقم (19). ورواه البخاري.
(4) مختصر صحيح مسلم برقم (2095).

وفي جامع الترمذي ومستدرك الحاكم بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [يجيء القرآن يوم القيامة فيقول: يا رب حَلِّهِ، فيُلبَسُ تاج الكرامة، ثم يقول: يا رب زده، فيُلبس حُلَّةَ الكرامة، ثم يقول: يا رب ارضَ عنه فيرضىٰ عنه فيقول: اقرأ وارق ويُزاد بكل آية حسنة][1].

2 ـ إنه شديد التفلت فلا بد من تعاهده.

ففي الصحيحين عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [تعاهدوا هذا القرآن، فوالذي نفسُ محمدٍ بيده لهو أشد تفلتاً من الإبل في عُقُلها].

وفي رواية: [تعاهدوا القرآن، فوالذي نفسي بيده، لهو أشد تفصياً من قلوب الرجال من الإبل مِن عقلها][2].

أي: تعاهدوه بالمحافظة على قراءته وتلاوته ومذاكرته، والعُقُل: جمع عقال، وهو حبل يشد به البعير في وسط الذراع.

وللحديث طريق آخر عند الإمام أحمد، ولفظه: [تعلموا كتاب الله وتعاهدوه واقتنوه وتغنوا به، فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفلتاً من المخاض في العقل][3].

ولهذا نصح عليه الصلاة والسلام صاحب القرآن بملازمته بالقيام به بالليل والنهار لئلا ينساه. فقد أخرج ابن نصر في (قيام الليل) عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: [إذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره، وإن لم يقم به نسيه]. وإسناده صحيح رجاله كلهم ثقات كما أفاد العلامة الألباني رحمه الله[4].

وفي المسند للإمام أحمد، بإسناد حسن عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً جاءه فقال: أوصني، فقال: سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك: [أوصيك بتقوى الله تعالى فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام،

---

(1) حسن. ورواه الحاكم. تخريج الترغيب (207/2)، وصحيح الجامع (7886).
(2) ورواه أحمد بهذا اللفظ. وهو في صحيح الجامع برقم (2953).
(3) صحيح. من حديث عقبة بن عامر. تخريج الترغيب (214/2).
(4) السلسلة الصحيحة (597 ص 149).

وعليك بذكر الله تعالى وتلاوة القرآن ، فإنه رَوْحُك في السماء وذكرك في الأرض][1] .

3 ـ القرآن خيرُ ما تُغني به وحُسِّن له الصوت .

فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً وجمالاً ، ويزداد المستمع له تأثراً ، فيزداد القلب بذلك تعلقاً وخشية .

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [ما أذِنَ الله لشيءٍ ما أذِنَ لنبي حسنِ الصوت يتغنىٰ بالقرآن يجهر به][2] .

وهو بمعنى : ما استمع الله لشيء من كلام الناس كما استمع لمن تغنى بالقرآن إشارة إلى الرضىٰ والقبول .

وكذلك في الصحيحين واللفظ للإمام مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه : [أن رسول الله ﷺ قال له : لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة ، لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود. فقال أبو موسى : لو علمت مكانك لحبَّرت لك تحبيراً][3] .

وأصل الزمر الغناء ، والمراد الصوت الحسن ، وآل داود هو داود نفسه ، وقوله : لحبَّرت : يريد تحسين الصوت وتحزينه .

وفيهما أيضاً عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : [سمعت النبي ﷺ قرأ في العشاء بالتين والزيتون ، فما سمعت أحداً أحسنَ صوتاً منه][4] .

وفي صحيح الحاكم عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [زينوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسنَ يزيد القرآن حُسْناً][5] .

---

(1) السلسلة الصحيحة (555) وصحيح الجامع (2540) .
(2) مختصر صحيح مسلم برقم (2111) .
(3) قد مضى تخريجه .
(4) مختصر صحيح البخاري (418) ص 137 .
(5) ورواه أبو داود . صحيح أبي داود (1320) . وهو في السلسلة الصحيحة (772) وفي صحيح الجامع (3575) .

وعند أبـي داود عن أبي لبابـة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: [من لم يتغـنَّ بالقرآن فليس منا](1).

وقد أخرج ابن ماجه والدارمي والطبراني بسند جيد عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [إن من أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذي إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشىٰ الله](2).

وقد سالت دموع رسول الله ﷺ على خدَّيه الشريفين يوم طلب من ابن مسعود أن يقرأ عليه القرآن، فقرأ عليه قراءة عطرة ذرفت لها عيناه.

ففي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: [قال لي النبي ﷺ: اقرأ عليَّ القرآن، فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أُنْزل؟ قال: إني أحب أن أسمعه من غيري. فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ قال: حسبك الآن. فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان](3).

4ـ القرآن العظيم هو سبب القوة في حياة المسلمين.

فهو سر العزة التي ملأت علىٰ المؤمنين حياتهم، وسر الشجاعة التي يورثها القيام به في الليل في قلوبهم، وسِرُّ الخوف الذي يعتري عدوهم فيحسب لهم ألف حساب.

فقد أخرج ابن أبي شيبة بسند صحيح عن أبي شريح الخزاعي قال: [خرج علينا رسـول الله ﷺ فقـال: أبشـروا أبشـروا، أليـس تشهـدون أن لا إلـه إلا الله وأنـي رسول الله؟ قالوا: نعم. قال: فإن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً](4).

---

(1) ورواه البخاري عن أبي هريرة بلفظ: [ليس منا من لم يتغن بالقرآن] وانظر صحيح أبي داود (1321)، (1323).

(2) تخريج الترغيب (215/2)، وصحيح الجامع (2198).

(3) أخرجه البخاري (5050) ومسلم (800) وأحمد (380/1).

(4) وله شاهد عند الطبراني من حديث جبير، صححه الألباني في السلسلة (712)، وانظر صحيح الجامع (34).

وفي صحيح مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال: [صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة ، فافتتح البقرة ، فقلت: يركع عند المائة ، ثم مضى ، فقلت: يصلي بها في ركعة فمضى ، فقلت: يركع بها ، ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران فقرأها يقرأ مترسلاً إذا مرَّ بآية فيها تسبيح سبَّح ، وإذ مرَّ بسؤال سأل ، وإذا مرَّ بتعوذ تعوَّذ ، ثم ركع فجعل يقول: سبحان ربي العظيم. فكان ركوعه نحواً من قيامه. ثم قال: سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد. ثم قام قياماً طويلاً قريباً مما ركع ثم سجد فقال: سبحان ربي الأعلى ، فكان سجوده قريباً من قيامه](1).

لقد أفرز منهج الإيمان بالكتب والقرآن العظيم ، رجالاً مؤمنين تفانت قلوبهم في التعلق بآيات الذكر الحكيم ، فعمروا لياليهم بالتلاوة والبكاء والقيام لله العزيز العليم ، فأورثهم سبحانه بالقرآن شجاعة في قلوبهم لاقوا بها عدوهم فدكوا بها فارس والروم ومعاقل اليهود والمجرمين ، وقدَّموا أرواحهم في سبيل دينهم وحراسة القرآن والشرع القويم. وقد أحسن القائل حيث قال:

هُزُّوا سيوف الحق في زمن على ... كتفيه من ظلم العدى ما يُجحف
وقلوبنا مشحونة باليأس ... في زمن يداس به الضعيف ويُجْرف
يتطلع الأقصى إليَّ وحوله ... عين تراقبه وسمع مرهف
ويد مجمَّدة على الرشاش لم ... تغسل بماء منذ ساء الموقف
في وجه صاحبها نفور صارخ ... وعزيمة للغدر ليست توصف
هذا هو الأقصى وطائر مجده ... يشدو بألحان الهدى ويُرفرف

* * *

تتحلق الأعوام في ساحاته ... حِلقاً تُسبِّح للإله وتهتف
واليوم يرقبنا بطرف حاسر ... ويداه من هول المصيبة ترجف
يا مركب القرآن في بحر الأسى ... هذي يدي رغم القيود تجدف
وبوارج الأعداء تختزن الردى ... رُبَّانها متطاول متعجرف
واجهت يا أبتي الخطوب وعدتي ... قلب عصامي وحسٌّ مرهف

---

(1) وانظر صحيح أبي داود (ج1/ ص165) (باب: ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده).

وتـوجـه لله يجعـل هـامتـي أعلـى   وإن جـار الطغـاة وأسـرفـوا
أبتـاه لـن يحمـي حمـى أوطـانـنـا   إلا حسـام لا يُفَـلُّ ومصحـف

5 ـ نزول القرآن منجَّماً مفرقاً على الوقائع .

وهي صفة لازَمَتْ زمن التنزيل ليكون ذلك أثبت في الفهم والحفظ والتدبر ، فكان الصحابة لا يتجاوزون العشر آيات حتى يتقنوا تلاوتها وحفظها ويقوموا بها ويعملوا بمقتضاها ، ثم يغادروا إلى عشر آيات غيرها ، وهو أمر حَرِيّ بالمسلمين اليوم أن ينتبهوا له عند تعليمهم أبناءهم كتاب الله في المساجد أو البيوت أو حلق العلم والذكر ، فلا يكون الهدف هو التسابق في الحفظ فحسب لِيُنسى بعد أيام أو سنين إن لم يتعاهده صاحبه من التفلت ، وكذلك لا يكون الجهد كله منصباً على حراسة الحفظ فحسب دون العناية بالفهم والتفسير والأحكام والواجبات وربط القرآن بالحياة ، فهذا أمر غفل عنه كثير من المسلمين اليوم ، فإذا جاءت الفتن فلا ينفع الحفظ الذي لم يقترن بالتفسير وفهم سنن الله وأحكامه في الأمم ، ونواميس التغيير في الأحوال والنعم ، ومعرفة الله بأسمائه وصفاته ومحامده ووعده ووعيده وما أَخَّر للمسرفين من العذاب والنقم ، ولكن إذا اقترن الحفظ وحسن التلاوة بحسن الفهم والعمل ثم الانتقال بعد ذلك إلى غيرها من الآيات كان أقرب لطريقة النبي ﷺ مع أصحابه رضوان الله عليهم .

قال جل ثناؤه في سورة الإسراء : ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ [الإسراء : 105 - 111] .

فقوله سبحانه : ﴿ وَقُرْءَانًا ﴾ منصوب بفعل محذوف يفسره ما بعده . وأما قوله ﴿ فَرَقْنَٰهُ ﴾ ففيه قراءتان :

فقد قرأه عامة قراء الأمصار بتخفيف الراء من (فَرَقناه) أي : أحكمناه وفصَّلناه

وبيَّناه وأوضحناه وفرقنا فيه بين الحق والباطل. والقراءة الثانية بتشديد الراء (فرَّقناه) أي: أنزلناه شيئاً بعد شيء لا جملة واحدة، وهي قراءة ابن عباس وابن مسعود والشعبي وقتادة.

فعن ابن عباس: (أنه قرأ: «فرَّقناه» بالتشديد، أي: أنزلناه آية آية مُبيَّناً مُفسَّراً).

وعن الحسن: (أنه قرأ: «وقرآناً فرَقناه» خففها: فرق الله بين الحق والباطل).

قال ابن عباس: (أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة، قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾. ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾).

وخلاصة المعنى لمن قرأها بالتخفيف كما قال الحافظ ابن كثير في التفسير: (فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ثم نزل مفرقاً منجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة).

وأما قوله «على مكث» يعني على مهل وتثبت وترسُّل. قال ابن جرير: (يقول: لتقرأه على الناس على تُؤدة، فترتله وتبيّنه، ولا تعجل في تلاوته، فلا يفهم عنك).

ورُوي عن ابن عباس: («على مكث» يقول: على تأييد). وعن مجاهد: (قال على ترتيل).

وعن ابن زيد: (﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ قال: التفسير الذي قال الله: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾). وذكر ابن جرير بسنده عن سفيان، عن عبيد المُكتِّب، قال: (قلت لمجاهد: رجل قرأ البقرة وآل عمران وآخر قرأ البقرة، وركوعهما وسجودهما واحد، أيهما أفضل؟ قال الذي قرأ البقرة، وقرأ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾).

وقد أفاد الإمام القرطبي في التفسير حيث قال: (فيعطي القارىء القراءة حقَّها من ترتيلها وتحسينها وتطييبها بالصوت الحسن ما أمكن من غير تلحين ولا تطريب مؤد إلى تغيير لفظ القرآن بزيادة أو نقصان فإن ذلك حرام).

ثم ذكر قول مالك: (على مكث: على تثبت وترسُّلٍ) أي: على مهل وفهم وعلم. فكان إرشاده سبحانه لنبيِّه بالقراءة لأصحابه على مهل وتثبت وعمق فهم

وتفسير كإرشاده بعده له بعدم الجهر به حالة الضعف بل قراءة تسمع أصحابه فلا يتطاول المشركون على القرآن إذا سمعوه.

ففي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما: [قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ قال: نزلت ورسول الله ﷺ مختف بمكة، كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع المشركون سبّوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبيّه ﷺ: « وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ » أي: بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ عن أصحابك فلا تُسمعهم ﴿ وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾][1].

وقد أخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: [أنزل ذلك في الدعاء][2].

وخلاصة القول: لقد أفاد أصحاب النبي ﷺ من نزول القرآن منجماً فكانوا لا يغادرون العشر آيات حتى يتعلموها تلاوة ويتقنونها حفظاً ويفهمونها تفسيراً وتأويلاً، ويلتزمونها عملاً ويقيمونها منهاجاً، ثم يغادرون إلى غيرها.

جاء في سير أعلام النبلاء عن حمَّاد بن زيد: عن عطاء بن السائب، أن أبا عبد الرحمن قال: (أخذنا القرآن عن قومٍ أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلَّموا عشرَ آيات لم يجاوزوهُنَّ إلى العشر الأُخر حتى يعلموا ما فيهنَّ، فكنا نتعلم القرآن والعمل به، وسيرِثُ القرآن بعدَنا قوم يشربونه شُرْبَ الماء لا يجاوز تراقِيَهم).

وجاء فيه عن حمَّاد بن نجيح: عن أبي عِمران الجَوْني، عن جُندب، قال: كنا غِلماناً حزاورة[3] مع رسول الله ﷺ، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلَّمَ القرآن، ثم تَعَلَّمنا القرآن، فازددنا به إيماناً).

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: [قال لي رسول الله ﷺ: اقرأ القرآن في كل شهر. قال: قلت: إني أجد قوة. قال: فاقرأه في

---

(1) الصحيح المسند من أسباب النزول. مقبل الوادعي. الإسراء آية: 110. البخاري (4722) ومسلم (446).

(2) الصحيح المسند من أسباب النزول. الإسراء آية: 110 - 111. تفسير ابن كثير (191/4) تحقيق عبد الرزاق المهدي.

(3) جمع حزَوَّر وهو الغلام إذا قارب البلوغ.

عشرين ليلة. قال: قلت: إني أجد قوة. قال: فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك][1].

قال الذهبي: (وصحَّ أن رسول الله ﷺ نازله إلى ثلاث ليال، ونهاه أن يقرأ في أقل من ثلاث).

قلت: وهو يشير إلى ما رواه أبو داود بسند صحيح من حديث عبد الله بن عمرو: [أنه قال: يا رسول الله، في كم أقرأ القرآن؟ قال: في شهر. قال: إني أقوىٰ من ذلك، وتناقصه حتى قال: اقرأه في سبع. قال: إني أقوى من ذلك، قال: (لا يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَهُ في أَقَلَّ من ثلاث)][2].

6ـ القرآن خير ما تعلَّم المسلم وعلَّم، وأجر ذلك أعلى الأجور.

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [خيركم من تعلم القرآن وعلَّمه][3].

وفي صحيح مسلم عن عقبة بن عامر قال: [خرج رسول الله ﷺ ونحن في الصُّفَّة[4]، فقال: أيكم يحبُّ أن يغدو كلَّ يوم إلى بُطحانَ أو العقيق فيأتي بناقتين كَوْماوَيْن في غير إثم ولا قطع رحم؟ فقلنا: يا رسول الله! كلنا يحب ذلك. فقال: أفلا يغدو أحدُكم إلى المسجد فيعلمَّ أو يقرأ آيتين من كتاب الله خيرٌ له من ناقة أو ناقتين، وثلاثٌ خيرٌ له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل][5].

وفيه أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [أيحب أحدُكم إذا رجع إلى

---

(1) ورواه أحمد وأبو داود. انظر صحيح أبي داود (1255). وله شاهد في صحيح الجامع (1168) بلفظ يشبه الحديث الذي بعده.

(2) صحيح الجامع (1168) والسلسلة الصحيحة (1513).

(3) ورواه أحمد وأصحاب السنن إلا النسائي، انظر السلسلة الصحيحة (1172)، (1173) وصحيح الجامع (3314).

(4) مكان في مؤخر المسجد أُعِدَّ لنزول الغرباء فيه ممن لا مأوىٰ له ولا أهل.

(5) ورواه أحمد وأبو داود. انظر صحيح أبي داود (1309) وصحيح الجامع (2694).

أهله أن يجد فيه ثلاثَ خَلِفاتٍ[1] عظام سمانٍ؟ قلنا: نعم. قال فثلاثُ آياتٍ يقرأ بهن أحدُكم في صلاته خيرٌ له من ثلاث خلفَات عظام سمان][2].

7ـ القرآن يرفع الله به ذكر القائم به العامل بمنهاجه.

ففي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضَعُ به آخرين][3].

وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [لا حسد إلا على اثنين: رجُل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجلٍ آتاه الله مالاً، فهو يُنفق منه آناء الليل وآناء النهار][4].

وفيهما عن أبي موسىٰ الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: [مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأُتْرُجَّةِ، ريحُها طيب، وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثلُ التمرة، لا ريح لها وطعمها حلو، ومثلُ المنافق الذي يقرأ القرآنَ مثلُ الرَّيْحانَةِ، ريحها طيب وطعمها مُرٌّ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة، ليس لها ريح وطعمها مُرٌّ][5].

وفي رواية: [المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمَلُ به كالأُتْرُجَّةِ[6]، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن ويعمل به كالتمرة].

وفي الصحيحين عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: [الماهر بالقرآن مع السَّفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويَـتَـتَـعْتَـعُ[7] فيه، وهو عليه شاق، له أجران][8].

---

(1) الحوامل من النوق.
(2) ورواه ابن ماجه. صحيح الجامع (2657).
(3) ورواه ابن ماجه. صحيح الجامع (1892).
(4) البخاري (491/4). ومسلم (201/2) وأحمد (9/2).
(5) ورواه أحمد وأصحاب السنن. صحيح الجامع (5716). وله شاهد عند النسائي وابن ماجه من حديث أنس كما في صحيح الجامع (5715).
(6) ثمر معروف يقال له (تربخ) جامع لطيب الطعم والرائحة.
(7) التعتعة: التردد من حصر وعيٍّ.
(8) ورواه أبو داود وابن ماجه. صحيح الجامع (6546).

8 ـ **في القرآن سور خاصة لها خصائص وفضائل متميزة.**

أولاً: الفاتحة.

فقد روى البخاري عن أبي سعيد بن المُعَلَّى قال: [كنت أصلي في المسجد فدعاني النبي ﷺ فلم أجبه حتى صليت ثم أتيته، فقلت: يا رسول الله! إني كنت أصلي، قال: ألم يقل الله: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ ثم قال: ألا أعلمك أعظمَ سورةٍ في القرآن قبل أن تخرج من المسجد؟ فأخذ بيدي، فلما أردنا أن نخرج قلت: يا رسول الله! إنك قلتَ لأعلمنك أعظم سورة من القرآن. قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته][1].

وفي صحيح مسلم وسنن النسائي ـ واللفظ له ـ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: [بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذ سمع نقيضاً فوقه فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال: هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط. قال: فنزل منه ملك فأتى النبي ﷺ فقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لم تقرأ حرفاً منها إلا أوتيته][2].

وأخرج الدارقطني والبيهقي والديلمي بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا قرأتم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فاقرؤوا ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، إنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني و﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إحداها][3].

وعند الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني والقرآن العظيم][4].

ثانياً: سورة البقرة.

يروي الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تجعلوا بيوتكم مقابر. إنَّ الشيطان يَنْفِرُ من البيت الذي يُقْرأُ فيه سورة البقرة].

---

(1) أخرجه البخاري (4474) وأحمد (211/3).

(2) أخرجه مسلم (806) والنسائي (138/2).

(3) وفي رواية: (إحدى آياتها) صحيح الجامع (742)، والسلسلة الصحيحة (1183).

(4) ورواه أبو داود. انظر صحيح أبي داود (1310)، (1311).

وفي رواية: [لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، فإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان][1] .

وعند الحاكم والدارمي بسند صحيح عن ابن مسعود موقوفاً ومرفوعاً: [إن لكل شيء سناماً ، وسنام القرآن سورة البقرة ، وإن الشيطان إذا سمع سورة البقرة تقرأ خرج من البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة][2] .

زاد الدارمي في رواية ـ موقوفاً على ابن مسعود ـ: [وإن لكل شيء لباباً ، وإن لباب القرآن المفصل][3] .

وفي الصحيحين واللفظ للبخاري عن أبي سعيد الخدري ، أنَّ أُسَيْدَ بنَ حُضير قال: [بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة ، وفرسه مربوطة عنده ، إذ جالت الفرسُ ، فسكت فسكنت ، فقرأ فجالت ، فسكت فسكنت ، ثم قرأ فجالت الفرس ، فانصرف ، وكان ابنه يحيى قريباً منها ، فأشفق أن تصيبه ، ولما أَخَّرَه رفع رأسه إلى السماء فإذا مثل الظُّلة ، فيها أمثال المصابيح ، فلما أصبح حدَّثَ النبي ﷺ ، فقال: اقرأ يا ابن حُضير! اقرأ يا ابن حضير. قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيىٰ. وكان منها قريباً ، فانصرفت إليه ، ورفعت رأسي إلى السماء ، فإذا مثل الظلة ، فيها أمثال المصابيح ، فخرجت حتى لا أرها. قال: وتدري ما ذاك؟ قال: لا. قال: تلك الملائكة دَنَتْ لصوتِكَ ، ولو قرأت لأصبحتَ ينظرُ الناس إليها لا تتوارىٰ منهم][4] .

وفي لفظ للإمام مسلم: [عَرَجَتْ في الجوِّ ، بدل: فخرجت على صيغة المتكلم].

وروى الترمذي والنسائي والحاكم بسند صحيح عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالىٰ كتب كتاباً قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفي

---

(1) أخرجه مسلم (780). والترمذي (2877).
(2) السلسلة الصحيحة 588.
(3) أخرجه الدارمي (447/2). قال الألباني. وإسناده حسن. الصحيحة 2/ ص136.
(4) قد مضى تخريجه.

عام ، وهو عند العرش ، وإنه أنزل منه آيتين ، ختم بهما سورة البقرة ، ولا يقرآن في دار ثلاثَ ليال فيقربها الشيطان][1] .

وأصل معناه في الصحيحين عن أبي مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: [الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأ بهما في ليلة كفتاه][2] .

ثالثاً: البقرة وآل عمران .

فإن فيهما فضائل مشتركة عظيمة جاءت بها السنة الصحيحة :

فقد أخرج الإمام مسلم عن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يومَ القيامة شفيعاً لأصحابه ، اقرؤوا الزهراوين: البقرة وآل عمران ، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان[3] أو فِرْقان[4] من طير صوافَّ تحاجان عن أصحابهما ، اقرؤوا سورة البقرة ، فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة][5] .

وروى مسلم عن النواس بن سمعان قال: سمعت النبي ﷺ يقول: [يؤتىٰ بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به ، تقدُمُهُ سورة البقرة وآل عمران ، كأنهما غمامتان أو ظُلَّتان سودَوان بينهما شرق[6] ، أو كأنهما فِرْقان من طير صوافَّ تحاجان عن صاحبهما][7] .

---

(1) حسن . أخرجه الترمذي (2882) والنسائي في الكبرى (10802) . وانظر تفسير ابن كثير . البقرة (285 - 286) تحقيق عبد الرزاق المهدي .

(2) وفي رواية (من قرأ بالآيتين من آخر . . .) أخرجه البخاري (5009) ومسلم (807) وأحمد 121/4 .

(3) ما يكون أدون منهما بالكثافة وأقربَ إلى رأس صاحبهما .

(4) الفِرْق: طائر ، أي بطائفتين من الطير .

(5) أي: السحرة . قيل لا تستطيع حفظها . وقيل لا تستطيع النفوذ إلى صاحبها . والحديث رواه مسلم (804) .

(6) أي: ضوء ونور .

(7) صحيح . أخرجه مسلم (805) وأحمد (183/4) . وانظر تفسير ابن كثير ، تحقيق عبد الرازاق المهدي .

وفي صحيح مسلم أيضاً عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: [يا أبا المنذر! أتدري أيُّ آية من كتاب الله تعالى معك أعظم؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: يا أبا المنذر! أتدري أيُّ آية من كتاب الله تعالىٰ معك أعظم؟ قلت: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾. قال: فضرَب في صدري وقال: لِيَهْنِكَ العلمُ يا أبا المنذر][1].

وهذا المعنى ثابت حتى في علم الشياطين، فيعلمون أنهم لا يستطيعون الاقتراب ممن يلتزمها، فلا يقدرون على مقاومة آية الكرسي، ومن ثمَّ فإن الاحتراس والحذر منهم هو بتلاوتها عند النوم وفي أوقات النهار.

ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: [وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته، وقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ. قال: إني محتاج، وعليَّ عيال. ولي حاجة شديدة، قال: فخليت عنه، فأصبحت، فقال النبي ﷺ: يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟ قلت: يا رسول الله! شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمتُه، فخليت سبيله. قال: أما إنه قد كذبك وسيعود. فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ (إنه سيعود) فرصدتُهُ، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ. قال: دعني فإني محتاج وعليَّ عيال، لا أعود، فرحِمته فخليْتُ سبيله. فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: يا أبا هريرة! ما فعل أسيركَ؟ قلت: يا رسول الله! شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمته، فخليت سبيله. فقال: أما إنه قد كذبك وسيعود. فرصدته، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، وهذا آخر ثلاثِ مرات إنك تزعمُ لا تعود ثم تعود. قال: دعني أعلمُك[2] كلمات ينفعك الله بها: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾ حتى تختم الآية، فإنك لن يزالَ عليكَ من الله حافظ، ولا يقربُكَ شيطان حتى تصبح، فخَلَّيت سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول الله ﷺ: ما فعل أسيرُك؟

(1) مختصر صحيح مسلم (2096).

(2) وفي رواية بالجزم «أعلِمْك».

قلت: زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني اللهُ بها. قال: أما إنه قد صدقك، وهو كذوب، وتعلمُ من تخاطبُ منذ ثلاث ليال؟ قلت: لا. قال: (ذاك شيطان)][1].

رابعاً: سورة الكهف.

فقد ورد في شأنها فضائل عديدة:

ففي صحيح مسلم عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: [من حفظ عَشْرَ آياتٍ من أول سورة الكهف عُصِمَ من الدجال][2]. وفي لفظ عند الحاكم: [عصم من فتنة الدجال].

وأخرج النسائي بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: [من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين][3].

ورواه الدارمي موقوفاً على أبي سعيد ولفظه: [من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاءَ له من النور ما بينه وبين البيت العتيق][4].

وفي حديث الإمام مسلم عن النواس بن سمعان قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال فقال: [إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب قطط عينه طافية كأني أشبهه بعبد العزىٰ بن قطن، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه بفواتح سورة الكهف فإنها جواركم من فتنته..][5].

وفي الصحيحين عن البراء قال: [كان رجل يقرأ سورة الكهف، وإلى جانبه حصان مربوط بشطنين[6]، فتغشته سحابة، فجعلت تدنو وتدنو، وجعل فرسه ينفِر، فلما أصبح أتىٰ النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فقال: تلك السكينة تنزلت بالقرآن][7].

---

(1) صحيح. أخرجه البخاري (2311) تعليقاً، ووصله النسائي في الكبرىٰ (10795).

(2) مختصر صحيح مسلم (2098).

(3) ورواه الحاكم. تخريج الترغيب 261/1 وتخريج المشكاة 2175.

(4) المصادر السابقة، وصحيح الجامع 6347.

(5) مختصر صحيح مسلم (2048) باب الفتن.

(6) الشطن: الحبل الطويل الشديد الفتل.

(7) مختصر صحيح مسلم (2106) كتاب فضائل القرآن. باب: تنزل السكينة لقراءة القرآن.

خامساً: سورة السجدة.

فقد كان صلوات الله وسلامه عليه لا ينام حتى يقرأها مع سورة الملك.

ففي المسند وجامع الترمذي وسنن النسائي بسند صحيح عن جابر: [أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾][1].

وفي الصحيحين أنه: [كان يصليها (يعني الفجر) يوم الجمعة بـ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة، في الركعة الأولى، وفي الثانية بـ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾][2].

سادساً: سورة الزمر.

فقد صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه كان لا ينام حتى يقرأها مع سورة (بني إسرائيل). ففي المسند وجامع الترمذي بإسناد صحيح عن عائشة رضي الله عنها: [أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ (بني إسرائيل) و(الزمر)][3].

سابعاً: سورة (ق).

فإنه كان يقرأ بها ـ عليه الصلاة و السلام ـ في خطبة الجمعة، فيقرؤها على الناس وهو على المنبر، لاشتمالها على صفات الله سبحانه ووعده ووعيده.

ففي صحيح مسلم عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت: [لقد كان تنّورنا وتنّور رسول الله ﷺ واحداً سنين ـ أو سنة وبعض سنة ـ وما أخذت ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ إلا عن لسان رسول الله ﷺ، يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس][4].

وكذلك فإنه كان يقرأ بها مع سورة القمر في صلاة العيدين.

ففي صحيح مسلم وسنن أبي داود عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: [أنه سأل أبا واقد الليثي: ما كان يقرأ به رسول الله ﷺ في الأضحى والفطر؟ فقال: كان يقرأ

---

(1) صحيح الجامع (4749).

(2) صفة الصلاة ص 82. الطبعة الثالثة.

(3) السلسلة الصحيحة (641) وصحيح الجامع (4750).

(4) مختصر صحيح مسلم (413).

فيهما بـ﴿ قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴾ و﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴾][1] .

وصح أنه كان يقرؤها في صلاة الفجر أحياناً .

ففي صحيح مسلم وجامع الترمذي عن جابر بن سمرة أن النبي ﷺ : [كان يقرأ في الفجر بـ﴿ قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴾ وكانت صلاته بعدُ تخفيفاً][2] .

ثامناً : سورة (الجمعة) وسورة (المنافقون) .

فقد كان يقرؤهما أحياناً في صلاة الجمعة ، كما جاء ذلك في صحيح مسلم وسنن أبي داود : [كان ﷺ يقرأ ـ أحياناً ـ في الركعة الأولى بسورة (الجمعة) وفي الأخرى ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ ﴾ وتارة يقرأ ـ بدلها ـ ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ﴾][3] .

تاسعاً : سورة الملك .

وقد ورد في فضائلها الكثير ، فهي تشفع لصاحبها في القبر ويوم القيامة حتى يغفر له .

يروي الطبراني في الأوسط بسند حسن عن أنس عن النبي ﷺ قال : [سورةٌ من القرآن ما هي إلا ثلاثون آية خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة ، وهي تبارك][4] .

وأخرج الحاكم وابن مردويه وصححه الألباني عن ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [سورة تبارك هي المانعة من عذاب القبر][5] .

وفي المسند وعند أهل السنن بسند حسن عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : [إن سورة في القرآن ، ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غُفِر له ، وهي ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ ﴾][6] . وفي لفظ : [إن سورة من كتاب الله ما هي إلا

---

(1) مختصر صحيح مسلم (429) .
(2) مختصر صحيح مسلم (285) .
(3) صفة الصلاة ص 96 . الطبعة الثالثة . ومختصر مسلم 422 .
(4) صحيح الجامع (3538) وانظر صحيح أبي داود (1265) .
(5) السلسلة الصحيحة (1140) .
(6) تخريج المشكاة (2153) .

ثلاثون آية ، شفعت لرجل فأخرجته من النار ، وأدخلته الجنة][1] .

وروى أحمد والترمذي بسند صحيح عن جابر ، أن النبي ﷺ : [كان لا ينام حتى يقرأ : ﴿ الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ ﴾ و ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾][2] .

عاشراً: سورة الدهر .

فقد كان يصلي الفجر ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فيقرأ في الركعة الأولى بالسجدة وفي الثانية بالدهر كما ثبت في الصحيحين .

حادي عشر : سورة المرسلات وعم يتساءلون والواقعة وهود والتكوير .

يروي الترمذي والحاكم بسند صحيح عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : [شيَّبتني هود ، والواقعة ، والمرسلات ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت][3] .

ورواه ابن مردويه عن عمران بلفظ : [شيَّبتني هود وأخواتها من المفصل][4] .

ورواه من طريق آخر عن أبي بكر بلفظ : [شيَّبتني هود وأخواتها قبل المشيب][5] .

ورواه الطبراني عن عقبة بن عامر ولفظه : [شيَّبتني هود وأخواتها][6] .

ثاني عشر : سورة الأعلى والغاشية .

فقد كان يقرأ بهما أحياناً في صلاة الجمعة والعيدين ، يقرأ في الأولى بـ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ وفي الثانية : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ ﴾ ، كما روى مسلم وأبو داود عن النعمان بن بشير رضي الله عنه : [أن النبي ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة والعيد بسبح والغاشية وربما اجتمعا في يوم فقرأ بهما فيهما][7] .

---

(1) تخريج الترغيب (222/2) وصحيح الجامع (2088) والحديث حسن .
(2) قد مضى تخريجه .
(3) صحيح الجامع (3617) .
(4) المصدر السابق (3616) .
(5) المصدر السابق (3615) .
(6) السلسلة الصحيحة (953) .
(7) مختصر صحيح مسلم (422) .

ثالث عشر: سورة الكافرون.

فقد ثبت أنه كان يقرأ بها في الركعة الأولى من سنة الفجر والمغرب، ويقرأ في الثانية بـ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾.

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة: [أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر][1].

وأخرج ابن عدي في الكامل والحاكم بسند صحيح عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [قل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن][2].

وفي صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ: [قرأ بهذه السورة وبقل هو الله أحد في ركعتي الطواف][3].

وعند الترمذي بسند حسن عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [من قرأ: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ عدلت له بربع القرآن، ومن قرأ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ عدلت له بثلث القرآن][4].

رابع عشر: سورة الإخلاص والمعوذتين.

يروي الإمام البخاري عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: [قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن][5].

وله شاهد عند الطبراني في الكبير بسند صحيح عن عبد الله بن خبيب ولفظه: [﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تعدل ثلث القرآن، و﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ تعدِلُ رُبعَ القرآن][6].

---

(1) مختصر صحيح مسلم (360).
(2) السلسلة الصحيحة (588).
(3) مختصر صحيح مسلم (707) باب حجة النبي ﷺ.
(4) حسن. صحيح الجامع (6342).
(5) ورواه أحمد وأبو داود والنسائي عنه. صحيح الجامع (4280).
(6) ورواه عن ابن عمر. السلسلة الصحيحة (588).

وشاهد آخر في مسند الإمام أحمد من حديث أبيّ ولفظه: [من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن][1].

وفي صحيح أبي داود عن عقبة بن عامر، قال: [بينما أنا أسير مع رسول الله ﷺ بين الجُحْفةِ والأبواء، إذ غَشِيَتْنا ريح وظلمة شديدة، فجعل رسول الله ﷺ يتعوذ بـ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ويقول: يا عقبة! تعوذ بهما، فما تعوذ متعوذ بمثلهما][2].

وروى أبو داود والترمذي والنسائي بإسناد صحيح عن عبد الله بن خُبيب قال: [خرجنا في ليلة مطرٍ وظلمة شديدة نطلب رسول الله ﷺ، فأدركناه، فقال: قل: قلتُ: ما أقول؟ قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين، حين تصبح وحين تُمسي ثلاث مرات تكفيك من كل شيء][3].

وفي المسند بسند صحيح عن معاذ بن أنس عن النبي ﷺ قال: [من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ عشرَ مرات بنىٰ الله له بيتاً في الجنة][4].

وفي رواية: [من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يختمها عشر مرات بنى الله له قصراً في الجنة][5].

وأخرج الإمام أحمد أيضاً عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: [اقرؤوا المعوذات في دُبُر كل صلاة][6].

وعند النسائي بسند صحيح عن ابن عابس الجهني أن النبي ﷺ قال له: [يا ابن عابس! ألا أخبرك بأفضل ما تعوَّذَ به المتعوذون؟ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ هاتين السورتين][7].

---

(1) تخريج الترغيب (225/2).
(2) ويشهد له ما في صحيح الجامع (4272).
(3) تخريج المشكاة (2163).
(4) صحيح الجامع (6348).
(5) السلسلة الصحيحة (591).
(6) ورواه أبو داود وابن حبان. السلسلة الصحيحة (1514).
(7) صحيح الجامع (7716).

9 ـ ثناء الله على القرآن بألفاظ هي في منتهى الفخامة.

فقد أثنى الله سبحانه على القرآن في كتابه فوصفه بأوصاف عالية. وتفصيل ذلك:

1 ـ مبين: ﴿الٓر تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [يوسف: 1].

2 ـ عظيم: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾ [الحجر: 87].

3 ـ مجيد: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: 1].

4 ـ حكيم: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يس: 1 ـ 2].

5 ـ ذو ذكر: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ [ص: 1].

6 ـ كريم: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾ [الواقعة: 77 - 78].

7 ـ مبارك: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ﴾ [الأنعام: 92].

8 ـ روح: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشورى: 52].

9 ـ بشير ونذير: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [فصلت: 1 - 4].

10 ـ عزيز: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾ [فصلت: 41].

11 ـ علي: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: 4].

هذا الثناء من الله سبحانه على كتابه قد لفت انتباه المسلم الصحابي فأفرده بمكانة خاصة في حياته حفظاً وتلاوة وتدبراً وعملاً.

10 ـ القرآن معجز لا قدرة لأحد أن يأتي بسورة من مثله.

قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة: 23]. ولم يقل فأتوا بحرف أو بكلمة. وأقصر سورة في القرآن ثلاث آيات. ولهذا قال أبو يوسف ومحمد: (إن أدنى ما يجزىء في الصلاة ثلاث آيات قصار أو آية طويلة، لأنه لا يقع الإعجاز بدون ذلك).

محنة خلق القرآن :

لقد كان تعظيم القرآن سبباً في قوة المسلمين وشوكتهم ونصرهم على أعدائهم ، كما كان فهم الصحابة للقرآن عبر السنة المطهرة ومن خلال سيرة النبي ﷺ مصدر عز ومنعة للأمة ضد المبطلين والغالين . فأراد الطامعون في الرياسة والدنيا زمن بني العباس صرف المسلمين عن تعظيمه فنادوا بالقول بخلق القرآن .

ويبدو من خلال البحث والتحقيق أن للمسألة بُعْدَيْن :

البعد الأول: بُعْدٌ عَقَدي ، وهو كنتيجة لإقحام الفلسفة وعلم المنطق والكلام في مفاهيم الدين الحنيف ، فاستذل الشيطان بعض قليلي البضاعة في علوم القرآن والحديث وبعض المعجبين بعقولهم بالتعامل مع نصوص الوحيين من القرآن والسنة الصحيحة تعاملاً نقدياً عن طريق قواعد عقلية فلسفية ومسلمات منطقية ، وغفلوا عن أمر عظيم : وهو أن الدين توقيفي ولا يصح لعلم المخلوق أن يحكم على كلام الخالق وصفاته سبحانه .

البعد الثاني: بُعْدٌ سياسي ، وهو أمر يبدو أن الطامعين في السلطة آنذاك قد بيّتوه ، وكأنهم أرادوا القول بأنه طالما القرآن مخلوق فهو كبقية المخلوقات يخطىء ويصيب ، ومن ثم فلا يُوصف بالعصمة المطلقة ، وعندئذ فلا داعي للاحتجاج به والإنكار على السلاطين والحكام ما يرونه ويذهبون إليه ، إذ لم يعد القرآن دليلاً على تخطئة هؤلاء فهو يخطىء كغيره ، ومازال الناس تتفاوت قدراتهم في الفهم والذكاء والإدراك ، إذاً لا ينكر أحد على أحد . هذا البعد السياسي يبدو أنه كان مقصوداً من وراء تلك الفلسفة وليس مجرد خيالات قادتهم إليها عقولهم ، بل ثمة مصالح خفية إن لم يظهروها بأفواههم كشفتها أعمالهم ودعواتهم وحركاتهم .

قال الصابئة والمتفلسفة : (كلام الله هو ما يفيض على النفوس من معان إما من العقل الفعال أو غيره) .

وقالت المعتزلة : (هو مخلوق خلقه الله منفصلاً عنه) .

بينما ذهبت طائفة من أهل الكلام إلى أن القرآن : (حروف وأصوات أزلية) .

وكذبوا جميعاً فيما قالوا وفيما تصوَّروا وذهبوا إليه ، والفصل في المسألة هو

الذي ثبت عليه العلماء الراسخون في صدر الإسلام من أن القرآن كلام الله على الحقيقة ، فهو من صفاته سبحانه وليس من مخلوقاته .

قال الإمام أبو جعفر الطحاوي ـ في عقيدته المدوّنة ـ: (وإنَّ القرآن كلام الله تعالىٰ بدأ بلا كيفية قولاً ، وأنزله على نَبِيِّه وحياً ، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً . وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة . ليس بمخلوق ككلام البرية ، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر ، وقد ذمَّه الله تعالى وعابه ، وأوعده عذابه حيث قال : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ فلما أوعد الله سقر لمن قال : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ علمنا أنه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر)(1) .

لقد أثبت الله سبحانه الكلام لنفسه فقال : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء : 164] .

قال بعضهم لأبي عمرو بن العلاء ـ أحد القراء السبعة ـ أريد أن تقرأ وكلم اللهَ موسى بنصب اسم الله ليكون موسى هو المتكلم لا الله . فقال أبو عمرو : (هب أني قرأت هذه الآية كذا فكيف تصنع بقوله : «﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾؟) فبهت المعتزلي .

يريدون أن ينفوا الكلام عن الله ، وينفوا أن القرآن كلامه وصفة من صفاته ـ هكذا استذلهم الشيطان بفكر أجنبي دخيل ـ والله يقول : ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس : 58] .

ويقول : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران : 77] .

ويقول : ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون : 108] . أي لا يكلمهم تكليم تشريف بل يخرسهم وأما المؤمنون فيكلمهم .

وأما استدلالهم على أن القرآن مخلوق بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾

---

(1) متن العقيدة الطحاوية .

قالوا فالمجعول مخلوق! فهو استدلال فاسد تصدى له أهل العلم وأثبتوا جهل المدَّعين في لغة العرب.

قالوا: إن جعل - في كلام العرب - إذا تعدى إلى مفعول واحد كان بمعنىٰ خلق، وإذا تعدىٰ إلى مفعولين لم يكن بمعنى خلق.

ومثال الأول: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: 1].

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: 32].

﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: 31].

فهنا «جعل» تعدى إلى مفعول واحد فهو بمعنىٰ خلق.

ومثال الثاني: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: 29].

﴿وَلَا تَجْعَلُوا ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة: 224].

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: 3].

فهنا جعل تعدى إلى مفعولين، فلم يعد بمعنى خلق.

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: [ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بوحي يُتلىٰ][1].

وقد كان رسول الله ﷺ يقول: [أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن برٌّ ولا فاجر][2]، ويقول: [أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق]، ويعلم ذلك أصحابه. فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده والإمام مسلم في صحيحه والإمام أبو داود في سننه والترمذي في جامعه عن خولة بنت حكيم عن النبي ﷺ قال: [من نزل منزل فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شَرِّ ما خَلَق، لم يَضُرَّه شيءٌ، حتى يرتَحِل من منزله][3]، وكلمات الله هي القرآن، والمسلم لا يستعيذ

---

(1) حديث الإفك. السيرة النبوية على منهج الوحيين القرآن والسنة الصحيحة ص 698 - 719. د. مأمون حموش.

(2) أخرجه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن خنبش.

(3) صحيح الجامع (6443).

بمخلوق ، فدَّل هذا عند أهل العلم على أن كلام الله صفة من صفاته وأن القرآن غيرُ مخلوق.

لقد نزل القرآن على رسول الله ﷺ فصدع بما يؤمر ، وبشر به وأنذر ، وحفظه الصحابة بقلوبهم وعقولهم وشغلوا بالعمل به عن الجدل ، ووعوه وعيَ من سُحر ببيانه ، وعظمة أحكامه ، وقوة برهانه ، ودقة كلامه. وقاموا بمنهاجه ، فامتد الإسلام ، وكثرت الفتوحات شرقاً وغرباً ، واختلطت الأمم بالعرب وجلبوا معهم أفكارهم وفلسفاتهم فخدع بها ضعاف النفوس والعلم بالوحي ، فعُظّمت العقول ، وأوِّلت النصوص لتناسب ما دار في العقول والكلاميات والمنطق ، وضعف الإيمان بالغيب ، ودفعت الأمة الثمن غالياً ببعدها عن منصة الحكم والقيادة وترك الأمر لمن في دينه ودعاوىٰ فكره خلل.

وقد أتيح للمعتزلة الاقتراب من خلفاء بني العباس في أوائل حكمهم ، فأعجبوا بفصاحتهم وعقولهم وحسن تأتِّيهم ، فنشطوا في بث دعوتهم منتظرين فرصة تعرض لهم ، حتى جاء المأمون فاستهووه إلى طريقتهم وبثوا الحماس في نفسه حتى حمل الناس على المحنة وإكراههم بالقول بخلق القرآن.

لقد كان أول من أظهر هذا القول الغريب الجعدُ بن درهم. قال الذهبي عنه في ميزان الاعتدال: (مبتدع ضال ، زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى).

وفي لسان الميزان أن جعداً هذا أخذ قارورة فجعل فيها تراباً وماء ، فاستحال دوداً وهَوَامَّ فقال: أنا خلقت هذا ، لأني كنت سبب كونه ، فبلغ ذلك جعفر بن محمد فقال: ليقل: كم هي؟ وكم الذكران منها والإناث؟ إن كان خلقه.

وأما قوله بخلق القرآن فقد أظهره أيامَ هشام بن عبد الملك الذي أرسله إلى خالد القسري أمير العراق يأمره بقتله فحبسه ولم يقتله ، فكتب هشام إلى خالد يلومه ويَعزم عليه قتله ، فأخرجه خالد من الحبس في وثاقه فلما كان يوم الأضحى صلى بالناس صلاة العيد ثم خطبهم وقال في آخر خطبته: (انصرفوا وضحُّوا يقبلِ الله منكم ، فإني أريد أن أضحيَّ اليوم بالجعد بن درهم ، ونزل وذبحه).

وقد أخذ جهم بن صفوان هذا القول عن الجعد بن درهم فوجد له صدىً في

نفسه ، ويقال بأن الجعد أخذه عن أبان بن سمعان عن طالوت عن خاله لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي ﷺ ، والله أعلم بصحة هذا السند فما فيهم ثقة. وكان جهم يوافق المعتزلة في نفي الصفات الأزلية ويزيد ويقول: (لا يجوز أن يوصف الباري تعالى بصفة يوصَفُ بها خلقُه ، لأن ذلك يقتضي تشبيهاً) فنفى كونه حياً عالماً ، وأثبت كونه قادراً فاعلاً خالقاً ، وجهم هذا من الجبرية الخالصة أظهر بدعته بترمِذ ، ويتشابه المعتزلة والجهمية في نفي الصفات.

وممن سبق إلى القول بخلق القرآن بشر بن غياث المرِّيسي الفقيه الحنفي المتكلم ، وكان قد أخذ الفقه عن القاضي أبي يوسف الحنفي لكنه اشتغل بالكلام وجرَّد القول بخلق القرآن وحُكي عنه بذلك أقوال شنيعة ، وكان مُرجئاً ، وإليه تنسب الطائفة المَريّسية وكان يقول: (السجود للشمس والقمر ليس بكفر ، ولكنه علامة الكفر. ويقال: إن أباه كان يهودياً صباغاً بالكوفة) ، ولخوفه من هارون الرشيد فقد أخفىٰ نحلته حتى أتى المأمون بعد الأمين فأظهر القول بخلق القرآن وكان ممن أثَّر على عقيدة المأمون ، مع أنه كان يلحَن لحنا فاحشاً ، لأنه كان لا يعرف النحو.

لقد كان للمعتزلة أصولٌ خمسة بنوا عليها مذهبهم وهي: 1 ـ التوحيد. 2ـ العدل. 3 ـ الوعد والوعيد. 4 ـ القول بالمنزلة بين المنزلتين. 5 ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والتوحيد الذي ينادون به هو ما نقله الشيخ (أبو الحسن الأشعري) شيخ الأشاعرة حيث قال: (أجمعت المعتزلة على أن الله واحد ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وليس بجسم ، ولا شَبَح ، ولا جُثة ، ولا صورة ، ولا لحم ، ولا دم ، ولا شخص ، ولا جوهر ، ولا عرض ، ولا بذي لون ولا طعم ، ولا رائحة ولا مَجَسَّةٍ ولا بذي حرارة ، ولا رطوبة ، ولا يبوسة ، ولا طول ولا عرض ولا عمق ولا اجتماع ولا افتراق ، ولا يتحرك ولا يسكن. . .) إلى آخر كلام لا فائدة منه بل هو بعيد عن تنزيه الله سبحانه تنزيهاً يليق بجلاله ، فإن تنزيهه سبحانه لا يكون بأية طريقة ولا بأي وسيلة ولا باختيار أي كلام ، بل هو بطريقة الوحي والقرآن ، كما رضي لنفسه سبحانه أن يوصف كما بدؤوا قولهم بقوله سبحانه

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ لا كما تابعوا في كلام مذموم ظنوه مدحاً. فالله سبحانه لم يتكلم عن نفسه الكريمة بهذا الوصف التافه، فما قال عن ذاته العظيمة بأنه ليس بذي حرارة ولا رطوبة، ولا لحم ولا دم، ولا جثة ولا صورة ولا رائحة... إلى آخر هذا النتاج العقلي الساقط الذي لا يليق أن يوصف به ملك من ملوك الدنيا، فكيف بملك السماوات والأرض وما فيهن وخالق ملوك البشر ومبدلهم عبر الدهور والأزمان. فلو قال أحد الحاشية المقربين من أحد الملوك يصفه أمام الناس: إنك يا فخامة الملك لست بذي حرارة ولا رطوبة ولست شبحاً ولا جثة وأنت أحسن حالاً من المجرمين والجاهلين والكاذبين بل لا سبيل لمقارنتك بهم فالفرق واضح شاسع بينك وبينهم! فهل يكون قد امتدحه بذلك أم ذمّه؟ إنه يكون بذلك قد ذمّه ولم يمدحه ولربما أوقعَ به عند سماعه لمثل هذا الكلام المذموم عرفاً والتافه بياناً فكيف بهؤلاء المعتزلة يصفون به الله سبحانه الذي امتلأ كتابه بمعالي الثناء وكمال المدح والتعظيم له جل ذكره؟ إنه لا غرابة بذلك إذا علمت أن الفلسفة إذا أراد صاحبها أن يحاكم الوحي أو يحكم بها عليه تهبط به أدنىٰ من ذلك، فالعقل إذا لم يسلم كثيراً لآيات الغيب، ويوصف بالتسليم أكثر مما يوصف بالتدقيق والتشكيك يوقعه الله في حبائل الفوضىٰ ومسالك الجهل ودروب التخبط والسقوط والزلل. إذا علمت هذا فاسمع كيف وصف الله نفسه في كتابه العظيم. قال في سورة البقرة:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: 255].

وقال في سورة الأنعام: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: 1 - 3].

وقال فيها أيضاً: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ

﴿الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾. وقال فيها أيضاً: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: 101 - 102].

وقال في سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾، ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: 54]. وقال فيها أيضاً: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾. وقال أيضاً: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: 61-62].

وقال في سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

وقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال رسول الله ﷺ: [قال الله تعالى: كذبني ابنُ آدم، ولم يَكُنْ له ذلك، وشتمني، ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إيايَ فزعم أني لا أقدِر أن أعيدَه كما كان، وأما شَتْمُهُ إيايَ، فقوله: لي ولد، فسبحاني أن أتخِذَ صاحبة أو ولداً][1].

وقد خرَّج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يقول: يا خيبة الدهر! فلا يقولَنَّ أحدُكم: يا خيبة الدهر! فإني أنا الدهرُ، أقلِّبُ ليله ونهارَه، فإذا شئت قبضتهما][2].

وروى الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن أنس عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالى: يا ابن آدم! إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي، وإن ذكرتني في مَلإٍ ذكرتك في ملإٍ خير منهم، وإن دنوتَ مني شبراً دنوتُ منك ذراعاً، وإن دنوتَ مني

---

(1) قد مضى تخريجه.

(2) مختصر صحيح مسلم 1813.

ذراعاً ، دنوتُ منكَ باعاً ، وإن أتيتني تمشي ، أتيتُ إليك أهرولُ][1].

فلم يصف سبحانه نفسه بقرآنه العظيم أو بحديث نبيه الكريم أنه ليس بذي حرارة ولا بذي رطوبة وأنه ليس بذي لون ، ولا طعم ولا رائحة وإلى غير هذه التفاهات التي أتتْ بها الفلسفة وأهلها ، كلا بل كما سمعت وقرأت وصف نفسه بأوصاف هي في منتهى الفخامة وهي أوصاف الجمال والكمال.

وخلاصة القول بأن المعتزلة وأشباههم خاضوا المعركة ضد نور الوحي بسلاح الفلسفة المهلهل وهم يدرون أو لا يدرون ، فأنتجت لهم عقولهم كلاماً معاباً في حق الله سبحانه وفي حق كتابه لا يليق بمقام وجلال الله العظيم فقالوا: إذا قلنا إن القرآن كلام الله ، وكلام الله صفة من صفاته ، والله وصفاته وحدة لا تنفصل ، إذا قلنا ذلك فقد وقعنا في المحال ، ذلك لأن القرآن إذا كان أزلياً ، وهو صفة من صفات الله ، فكيف نقول بما فيه من الأوامر والنواهي ، والأوامر والنواهي لا قيمة لها ما لم تصادف مأمورين ومنهيين ، ولم يكن في الأزل مأمورون ومنهيون.

واحتجوا بقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ قالوا: والمسموع حادث لأنه لا يكون إلا حرفاً. واحتجوا بقوله: ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ ﴾ قالوا: ولا يُتصور النسخُ إلا في الحادث. وأولوا بعقولهم قوله: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ قالوا: أي خلقه وأحدثه في الشجرة ظلماً منهم وزوراً ، بل كلَّم الله موسى على الحقيقة بنفسه تكليماً. وسبق أن احتجوا بقوله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ قالوا: فالمجعول مخلوق وقد مضى بيان جهلهم بلغة العرب إذ يكون جعل بمعنى خلق إذا تعدى إلى مفعول واحد ، وأما إذا تعدى إلى مفعولين كما هو في الآية السابقة لم يعد بمعنى خلق. إلى ما هنالك من الأدلة العقلية والتأويلات للأدلة النقلية بما يناسب فهم عقولهم لا بما يناسب منهاج الوحي والتحاكم إليه كما مضىٰ على ذلك علماء سلف الأمة الذين ردوا المتشابه إلى المحكم وفسروا النص بالنص والوحي بالوحي وأقلوا من الدخول بعقولهم وآرائهم فكانوا كما وصف الله المتقين بقوله في سورة البقرة: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ ، فلم يدخلوا في ظلماتٍ اللهُ أعلم بمهاولها ومخاوفها ، ولم يسبحوا في اليابسة وصحرائها ، وإنما التزموا النقل في

---

(1) السلسلة الصحيحة (2012) وصحيح الجامع (4213).

الحديث عن صفات الله العظيم كما ورد في القرآن وكما ورد في السنة ومنهاجها.

فمن الذين قالوا بأن القرآن غير مخلوق وبأن من قال بخلقه كافر علماء كبار في صدر الأمة: كمالك بن أنس والشافعي وأصحابه، وأحمد بن حنبل، والثوري، والليث بن سعد، وسفيان بن عيينة، وعبد الرحمن بن مهدي وأبو بكر بن عياش، ووكيع، وأبو عاصم النبيل، وغيرهم.

وبدأت المحنة بعدما كان قد مضى على هذا الجدال قرناً كاملاً ما تجاوزه وما تعداه عن البحث والمناظرة وما تدخل فيه الخلفاء. يقول الحافظ بن كثير في البداية والنهاية (332/10): (ولم يكن في الخلفاء من بني أمية وبني العباس خليفةٌ إلا على مذهب السلف ومنهاجهم). وفي المناقب عن هارون الرشيد أنه كان يقول: (بلغني أن بشراً المريسي زعم أن القرآن مخلوق، عليَّ إن أظفرني الله به لأقتلنَّه قِتلة ما قتلتها أحداً قط). وقال أيضاً: (بلغني أن بشرَ بن غياث ـ وهو المريسي ـ يقول: القرآن مخلوق، ولله عليَّ إن أظفرني الله به لأقتلنَّه قِتلة ما قتلتها أحداً).

قال الإمام أحمد: (فكان بشر متوارياً أيامَ هارون نحواً من عشرين سنة، حتى مات هارون، فظهر ودعا إلى الضلالة).

فبدأت المحنة حين جاء الخليفة المأمون إلى الحكم وقد استحوذ عليه جماعة من المعتزلة، فأزاغوه عن طريق الحق، وفُتِنَ بهم وجعلهم خاصته، ونفذوا إليه بفلسفتهم وعقائدهم وعقلياتهم، ومنها فكرة خلق القرآن، ومازالوا به حتى أشاع بها القول سنة اثنتي عشرة ومائتين، وأضاف إليها تفضيل عليٍّ على أبي بكر وعمر، فاشمأزت النفوس منه، وكاد البلد يفتتن، كما يروي الطبري في تاريخه وكذلك الإمام السيوطي، ولكنه لم يلزم أحداً بل ترك الناس أحراراً فيما يعتقدون، إلى أن أعلن في سنة ثماني عشرة حَمْلَ العلماء على القول بِخلق القرآن، فاستهجن أهل العلم وعلماء الحديث في الأمة بدعته في ذلك وجرأته على ذلك.

فقد جاء في المناقب (395 - 396)، عن أحمد بن عمر بن عيسىٰ قال: سمعت أبي يقول: (ما رأيت مجلساً يجتمع فيه المشايخ أنبلَ من مشايخ اجتمعوا في مسجد جامع الكوفة في وقت الامتحان، فقال أبو نعيم: أدركت ثمانمائة شيخ، ونيفاً وسبعين شيخاً، منهم الأعمش فمن دونه، ما رأيت خلقاً يقول بهذه المقالة ـ يعني

بخلق القرآن ـ ولا تكلم أحد بهذه المقالة إلا رُمِيَ بالزندقة ، فقام أحمد بن يونس فقبل رأس أبي نعيم وقال: جزاك الله عن الإسلام خيراً).

وعن محمد بن يونس قال: (لما أدخل أبو نعيم على الوالي ليمتحنه قال: أدركت الكوفة وبها أكثر من سبعمائة شيخ ـ الأعمش فمن دونه ـ يقولون: القرآن كلام الله ، وعنقي عندي أهونُ من زري هذا ، فقام إليه أحمد بن يونس فقبل رأسه ، وكان بينهما شحناء ، وقال: جزاك الله من شيخ خيراً). المناقب (396).

فحمل المأمون الناس حتى يقولوا بقوله بخلق القرآن وبقول المبتدعة الذين كانوا يدعمون حكمه ومنهَجه ، وأما من أبىٰ أن يقول مقالتهم فدُعي إلى مناظرة مُظلَّلَة بالسيف ، مفروشة بالنطع والحديد ، تحيط بها مخاوف السجن أو الموت تحت السياط.

وكانت البداية بأن كتب المأمون إلى رئيس شرطة بغداد وهو إسحاق بن إبراهيم يأمره بامتحان القضاة والمحدثين فقال في كتابه كما أورده الطبري في تاريخه: (أما بعد: فإن حق الله على أئمة المسلمين وخلفائهم الاجتهاد في إقامة دين الله الذي استحفظهم ، ومواريث النبوة التي أورثهم ، وأثرِ العلم الذي استودعهم ، والعمل بالحق في رعيتهم ، والتشمير لطاعة الله فيهم ، والله يسأل أمير المؤمنين أن يوفقه لعزيمة الرشد وصريمته ، والإقساطِ فيما ولّاه الله من رعيته برحمته ومنته.

وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم ، والسوادَ الأكبر من حَشْوِ الرعية ، وسَفِلة العامة ممن لا نظر له ولا رويَّة ، ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته ، والاستضاءة بنور العلم وبرهانه في جميع الأقطار والآفاق ، أهل جهالة بالله ، وعمًى عنه ، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به ، ونكوب عن واضحات أعلامه ، وواجب سبيله ، وقصور أن يقدروا الله حقَّ قدره ، ويعرفوه كنه معرفته ، ويفرقوا بينه وبين خلقه ، لضعف آرائهم ، ونقص عقولهم ، وجفائهم عن التفكر والتذكُّر ، وذلك أنهم ساوَوا بين الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من القرآن ، فأطبقوا مجتمعين ، واتفقوا غير متعاجمين ، على أنه قديم لم يخلقه الله ويُحْدِثه ويخترعه ، وقد قال الله عز وجل في محكم كتابه: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ فكل ما جعله الله فقد خلقه ، وقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ

ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ وقال عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ﴾ فأخبر أنه قصص لأمور أحدثه بعدها، وتلا به متقدمها وقال: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ وكل محكم مفصَّل، فله محكم ومفصِّل، والله مُحْكِم كتابه ومفصله، فهو خالقه ومبتدعه... إلى أن قال: فاجمع من بحضرتك من القضاة، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون، وتكشيفهم عما يعتقدون، في خلق الله القرآن، وإحداثه). ثم كتب له كتاباً آخر لامتحان العلماء، فأحضر إسحاق بن إبراهيم لذلك جماعة من الفقهاء والحكام والمحدثين وأحضر بشر بن الوليد الكندي، وأحمد بن حنبل ومحمد بن نوح، وشيخاً من ولد عمر بن الخطاب ـ كان قاضي الرقة ـ وأبا نصر التمار وعبد الرحمن بن اسحاق وعلي بن أبي مقاتل، وأبو حسان الزيادي، وسجَّادة، والقواريري، وابن الفَرُّخان وقتيبة وعلي بن الجعد وغيرهم. فقرأ عليهم كتاب المأمون حتى فهموه ثم قال لبشر بن الوليد: ما تقول في القرآن؟ فقال: قد عرَّفت مقالتي لأمير المؤمنين غير مرة.

قال: فقد تجدَّد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى.

فقال: أقول: القرآن كلام الله.

قال: لم أسألك عن هذا، أمخلوق هو؟

قال: الله خالق كل شيء.

قال: ما القرآن شيء؟

قال: هو شيء. قال: فمخلوق؟

قال: ليس بخالق.

قال: ليس أسألك عن هذا، أمخلوق هو؟

قال: ما أحسن غير ما قلت لك، وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه، وليس عندي غير ما قلت لك.

ثم سأل علي بن أبي مقاتل، ما تقول يا علي؟

قال: قد سمَّعتُ كلامي لأمير المؤمنين في هذا غير مرة ، وما عندي غير ما سمع ، فامتحنه فقال له : القرآن مخلوق؟

قال : القرآن كلام الله .

قال : لم أسألك عن هذا .

قال: هو كلام الله ، وإن أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا .

ثم سأل أبا حسان الزيادي فقال: القرآن كلام الله والله خالق كل شيء وما دون الله مخلوق ، وأمير المؤمنين إمامنا. ثم عاد إلى الإمام أحمد بن حنبل فقال له: ما تقول في القرآن؟ قال: هو كلام الله . قال: أمخلوق هو؟ قال: هو كلام الله لا أزيد عليها. فحمل إسحاق ما أفادوه إلى المأمون الذي أمره أن يتابع الامتحان لهم حتى يقولوا مقالته في خلق القرآن أو يُحملوا مُوثقين إلى عسكر أمير المؤمنين ، فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعاً على السيف .

فأجاب القوم كلهم إلا أربعة نفر: منهم أحمد بن حنبل ، وسجَّادة ، والقواريري ، ومحمد بن نوح المضروب. فأمر بهم إسحاق فشدوا بالأغلال والحديد ، فلما كان من الغد دعاهم وهم في قيودهم وأعاد عليهم المحنة ، فأجابه سجَّادة إلى أن القرآن مخلوق فأمر بإطلاق قيده ، وخلىٰ سبيله ، وأصر الآخرون ، فدعاهم من الغد ، فأجابه القواريري إلى أن القرآن مخلوق فأمر بإطلاق قيده ، وخلىٰ سبيله ، بينما أصر أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح العجلي ولم يرجعا عن قولهم فَشُدَّا في الحديد إلى (طرسوس) حيث كان يصطاف المأمون وهي مدينة جنوب تركيا اليوم . وهكذا بدأت المحنة زمن المأمون بمساعدة الجهمية والمعتزلة الذي ساعدوه في الوصول إلى الحكم من قبل ، ومكثوا يتربصون الفرصة المناسبة حتى أوعزوا له امتحان العلماء ليقولوا بقوله وقولهم واختاروا كما مضى من علماء بغداد (عاصمة الخلافة) ما يقرب من عشرين عالماً منهم أحمد بن حنبل ليحملوهم على تلك المقولة ، فترخص معظمهم وخافوا السيف ، وما ثبت في المحنة على قول الحق إلا أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح العجلي ، أحد كبار علماء بغداد ، ومن أصحاب الإمام أحمد فحملا إلى طرسوس .

وهناك من لم يجب في المحنة غير الإمام أحمد ومحمد بن نوح لكنهم لم يكونوا

في واجهة الملحمة وفي جبهة المعركة ، يقول أبو الحسين بن المنادي : (وممن لم يجب : أبو نعيم الفضل بن دكين ، وعفان والبويطي ، وإسماعيل بن أبي أويس ، وأبو مصعب المدنيان ، ويحيىٰ الحماني) المناقب (393 - 394) .

وكذلك جاء في المناقب عن أبي العباس سعيد المروذي قال : (لم يصبر في المحنة إلا أربعةٌ كلهم من مرو : أحمد بن حنبل ، وأحمد بن نصر ، ومحمد بن نوح ، ونعيم بن حماد) (393) .

ويؤرخ في هذا الإمام الذهبي ويقول : (في سنة ثماني عشرة ومائتين توفي شيخ دمشق وعالمها أبو مسهر عبد الأعلى بن مسهر الغساني ببغداد في حبس المأمون لكونه لم يجب إلى القول بخلق القرآن) .

لقد كان الثبات على كلمة الحق ومواجهة المحنة هو الأمضى والأمثل في حراسة دين الأمة وصيانة عرضها وتاريخها . ومع أن الناس ليسوا في الصبر والتحمل سواء ، فقد لجأ بعض العلماء والمحدثين إلى الترخص خوفاً من السيف ، بينما حفظ الله ذكر الإمام أحمد وأمثاله الذين نظروا بعيداً إلى مستقبل الأمة فآثروا دين الأمة وحفظه وحمايته على أنفسهم وأموالهم ودنياهم ، فثبتوا على كلمة الحق ، لتثبت في نفوس الأمة وأبنائها من بعدهم ، بأن الحق يعلو ولا يُعلىٰ عليه ، وبأن الدنيا تهون وترخص من أجل خدمة دين الله وإعلاء كلمته وحراسة دينه في الأرض ، وبأن الجنة والفردوس لا تنال إلا بالمعالي ، وبأن رضاءَ الله أعلى وأجل من رضاء الناس مهما بلغت مناصبهم في دنياهم فإن الله هو القوي الكبير المتعال .

لقد رأى هؤلاء النخبة من العلماء في صدر الأمة بأن الثبات على كلمة الحق ومواجهة المحن وتفنيد وإبطال حجج الباطل فيه تربية للأمة أن لا تترك الوحي إلى الفلسفة ، وألا تزل وتضعف أمام عواء الباطل ، وأن لا يموت الجهاد في قلوبها ، فهي إن رضخت لما يريده ويحبه لها أعداؤها ، فالذل والدمار يكون عاقبتها ، وتكون قد اختارت الهوان والضعف بنفسها .

لذلك شقت إجابة بعض هؤلاء المترخصين من العلماء علىٰ الإمام أحمد ، أمثالِ أبي نصر التمار ويحيىٰ بن معين ، وأبي خيثمة ، فقد كانوا عنده في أعلى مرتبة ، وما كان ينتظر منهم ذلك الترخص .

فقد جاء في المناقب (386) عن أبي حفص ابن أخت بشر بن الحارث قال: (قال لي بشر في اليوم الذي أحضِرَ فيه أبو نصر التمار إلى دار إسحاق بن إبراهيم: تعرَّف لي خبر أبي نصر؟ فقلت له: إنه قد أجاب، فاسترجع مراراً ثم قال: ما كان أحسنَ تلك اللحية لو خُضبت ـ يعني بالدم ـ ولم يجب حتى يُقتل).

ومنهم من استصغر نفسه لما ضعفت وعاتبها لما خافت. ففي المناقب أيضاً يقول عبيد الله بن شريك: (كان أبو معمر القطيعي من شدة إدلاله بالسنة يقول: لو تكَلَّمَتْ بغلتي لقالت إنها سنيَّة. قال: فأُخِذ في المحنة، فأجاب، فلما خرج قال: كفرنا وخرجنا) المناقب (387).

وبنحوه يقول سهل بن محمد وهو المعروف بابن عسكر قال: (لما دُعيَ سعدويه (وهو سعيد بن سليمان الواسطي) للمحنة رأيته لما خرج من دار المعتصم، قال: يا غلام قدم الحمارَ فإن مولاك قد كفر) المناقب (387).

وخلاصة القول: فقد سِيرَ بالإمام أحمد إلى الخليفة المأمون الذي أمر بذلك، فَحُمِل هو ومحمد بن نوح مُقَيَّدَيْن متعادِلَيْن فوق محمل على بعير واحد. قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (346/10): (فلما كانا ببلاد الرحبة جاءهما رجل من الأعراب من عبادهم يقال له جابر بن عامر (وهو شاعر ربيعة)، فسلم على الإمام أحمد وقال له: يا هذا إنك وافد الناس فلا تكن شؤماً عليهم، وإنك رأس الناس اليوم فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه فيجيبوا، فتحمل أوزارهم يوم القيامة، وإن كنت تحب الله فاصبر على ما أنت فيه، فإنه ما بينك وبين الجنة إلا أن تقتل، وإنك إن لم تقتل تمت، وإن عشت عشت حميداً.

قال أحمد: وكان كلامه مما قوىٰ عزمي على ما أنا فيه من الامتناع الذي يدعونني إليه).

قلت: وهذه هي بشائر في الطريق للثبات على الحق، وكان الإمام أحمد قد استقبل قبلها بشارة أجمل، فقد روىٰ البيهقي عن الربيع قال: (بعثني الشافعي بكتاب من مصر إلى أحمد بن حنبل، فأتيته وقد انفتل من صلاة الفجر فدفعت إليه الكتاب فقال: أقرأته؟ فقلت: لا! فأخذه فقرأه فدمعت عيناه، فقلت: يا أبا عبد الله وما فيه؟ فقال: يذكر أنه رأى رسول الله ﷺ في المنام فقال: اكتب إلى عبد الله

أحمد بن حنبل واقرأ عليه مني السلام وقل له: إنك ستمتحن وتدعىٰ إلى القول بخلق القرآن فلا تجبهم ، يرفع الله لك علماً إلى يوم القيامة. قال الربيع: فقلت حلاوة البشارة. فخلع قميصه الذي يلي جلده فأعطانيه ، فلما رجعت إلى الشافعي أخبرته فقال: إني لست أفجعك فيه ، ولكن بله بالماء وأعطنيه حتى أتبرك به) ذكرها الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (345/10)[1].

ثم قال: (فلما اقتربا من جيش الخليفة ونزلوا دونه بمرحلة جاء خادم وهو يمسح دموعه بطرف ثوبه ويقول: يعز عليَّ يا أبا عبد الله إن المأمون قد سل سيفاً لم يسله قبل ذلك ، وأنه يقسم بقرابته من رسول الله ﷺ لئن لم تجبه إلى القول بخلق القرآن ليقتلنك بذلك السيف. قال: فجثىٰ الإمام أحمد على ركبتيه ورمق بطرفه إلى السماء وقال: سيدي غر حلمك هذا الفاجر حتى تجرأ على أوليائك بالضرب والقتل ، اللهم فإن يكن القرآن كلامك غير مخلوق فاكفنا مؤنته. قال: فجاءهم الصريخ بموت المأمون في الثلث الأخير من الليل. قال أحمد: ففرحنا).

ولكنه مع ذلك فقد تُرك في سجن الرقة مدة إلى أن يُنْظر في أمره ، فجاءه عمه إسحاق ينصحه بالتقية قائلاً: إن أصحابك قد أجابوا ، وقد أعذرت بينَك وبين الله. فقال أحمد: (وكيف تصنعون بحديث خبَّاب: إن من كان قبلكم كان يُنْشَرُ أحدهم بالمنشار ثم لا يصدُّه ذلك عن دينه؟! فيئسوا منه فقال أحمد: لست أبالي بالحبس ، ما هو ومنزلي إلا واحدٌ ولا قتلاً بالسيف ، إنما أخاف فتنة السوط ، وأخاف ألا أصبر ، فسمعه بعض أهل الحبس وهو يقول ذلك ، فقال: لا عليك يا أبا عبد الله ، فَمَا هو إلا سوطان، ثم لا تدري أين يقع الباقي ، فكأنه سُرِّي عنه) (المناقب: 316).

توفي المأمون بعيداً عن عاصمة ملكه وهو يرابط على الثغور يجاهد الروم وأعداء الإسلام ، وكان يكفيه هذا قربة إلى الله تعالى ، دون الخوض في فتنة أشعلها أهل الفلسفة والرأي ضد أهل العلم والحلم ، لتستمر المحنة من بعد موته فيحمل أوزارها هو وخلفه المعتصم الذي عهد إليه فيها وأوصىٰ بالاهتمام بأعتىٰ أدواتها قاضيه أحمد بن أبي دؤاد.

---

(1) وفي سنده ضعف.

لقد رُدَّ الإمام أحمد وصاحبه محمد بن نوح من الرقة إلى بغداد ، ولكن محمد بن نوح كان مريضاً يرسُفُ بالأغلال ، فتوفي ودُفِنَ في الطريق بعد أن صلى عليه الإمام أحمد كأول شهيد في تلك المحنة التي استطردت أكثر من عشر سنوات. ثم وصل الإمام أحمد وهو مقيد إلى بغداد ومكث بالياسرية ـ بلدة ببغداد ـ أياماً ، ثم صار إلى الحبس.

وجاء المعتصم وكان كما وصفه السيوطي عَرِيّاً عن العلم فاستغل فيه ذلك ابن أبي دؤاد مستفيداً من جهله وعنفوانه . قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (347/10): (لما أحضره المعتصم من السجن زاد في قيوده ، قال أحمد: فلم أستطع أن أمشي بها فربطتها في التكة وحملتها بيدي ، ثم جاؤني بدابة فحملت عليها فكدت أن أسقط على وجهي من ثقل القيود وليس معي أحد يمسكني ، فسلم الله حتى جئنا دار المعتصم. ثم قال: فمكثت ساعة ثم قلت: يا أمير المؤمنين! إلى ما دعا إليه ابن عمك رسول الله ﷺ؟ قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله. قلت: فإني أشهد أن لا إله إلا الله. قال: ثم ذكرت له حديث ابن عباس في وفد عبد القيس ثم قلت: فهذا الذي دعا إليه رسول الله ﷺ. وفي رواية: ثم قلت: إن جدَّك ابن عباس يقول: لما قدِمَ وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ سألوه عن الإيمان ، فقال: أتدرون ما الإيمان؟ قالوا: الله ورسوله أعلم ، قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأن تعطوا الخمس من المغنم.

ثم قال المعتصم: لولا أنك كنت في يد من كان قبلي لم أتعرض إليك ، ثم قال: يا عبد الرحمن ألم آمرك أن ترفع المحنة؟ قال أحمد: فقلت: الله أكبر ، هذا فرج للمسلمين ، ثم قال: ناظره يا عبد الرحمن ، كلمه. فقال لي عبد الرحمن: ما تقول في القرآن؟ فلم أجبه ، فقال المعتصم: أجبه فقلت: ما تقول في العلم؟ فسكت فقلت: القرآن من علم الله ، ومن زعم أن علم الله مخلوق فقد كفر بالله ، فسكت فقالوا فيما بينهم: يا أمير المؤمنين كفرك وكفرنا ، فلم يلتفت إلى ذلك ، فقال عبد الرحمن: كان الله ولا قرآن ، فقلت: كان الله ولا علم؟ فسكت. فقلت: يا أمير المؤمنين أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله حتى أقول به ، فقال ابن أبي دؤاد: وأنت لا تقول إلا بهذا وهذا؟ فقلت: وهل يقوم الإسلام إلا بهما. وفي

رواية: فقال لي بعضهم: أليس قد قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ والقرآن أليس هو شيئاً؟

فقلت: قال الله: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ فدمرت إلا ما أراد الله؟!

فقال بعضهم: قال الله عز وجل: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ أفيكون مُحدَثا إلا مخلوقاً؟

فقلت: قال الله: ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ فالذكر هو القرآن، وتلك ليس فيها ألف ولا لام (أي: تلك نكرة خصوصاً أنها في سياق النفي فتفيد العموم).

ثم أحضروه في اليوم الثاني وناظروه أيضاً في اليوم الثالث، وفي ذلك كله يعلو صوته عليهم وتغلب حجته حججهم. قال: فإذا سكتوا فتح الكلام عليهم ابن أبي دؤاد، وكان من أجهلهم بالعلم والكلام، قال: فجعلوا ينكرون الآثار ويردون الاحتجاج بها، وسمعت منهم مقالات لم أكن أظن أن أحداً يقولها. وقد تكلم معي ابن غوث بكلام طويل ذكر فيه الجسم وغيره بما لا فائدة فيه، فقلت: لا أدري ما تقول، إلا أني أعلم أن الله أحد صمد، ليس كمثله شيء، فسكت عني. وقد أوردت لهم حديث الرؤية في الدار الآخرة فحاولوا أن يضعفوا إسناده ويلفقوا عن بعض المحدثين كلاماً يتسلقون به إلى الطعن فيه، وهيهات، وأنىٰ لهم التناوش من مكان بعيد؟ وفي غبون ذلك كله يتلطف به الخليفة ويقول: يا أحمد أجبني إلى هذا حتى أجعلك من خاصتي وممن يطأ بساطي. فأقول: يا أمير المؤمنين يأتوني بآية من كتاب الله أو سنة عن رسول الله ﷺ حتى أجيبهم إليها.

واحتج أحمد عليهم حين أنكروا الآثار بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ وبقوله: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ وبقوله: ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾ وبقوله: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ ونحو ذلك من الآيات. فلما لم يقم لهم معه حجة عدلوا إلى استعمال جاه الخليفة، فقالوا: يا أمير المؤمنين هذا كافر ضال مضل. وقال له إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد: يا أمير المؤمنين ليس من تدبير الخلافة أن تخلي سبيله ويغلب خليفتين، فعند ذلك حمي واشتد غضبه، وكان ألينهم عريكة، وهو يظن أنهم على شيء. قال أحمد فعند ذلك قال لي: لعنك الله، طمعت فيك أن تجيبني فلم تجبني، ثم

قال: خذوه واخلعوه واسحبوه. قال أحمد: فأخذت وسحبت وخلعت وجيء بالعقابين[1] والسياط وأنا أنظر ، وكان معي شعرات من شعر النبي ﷺ مصرورة في ثوبي ، فجردوني منه وصرت بين العقابين ، فقلت: يا أمير المؤمنين الله الله ، إن رسول الله ﷺ قال: [لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله إلا بإحدى ثلاث] وتلوت الحديث ، وأن رسول الله ﷺ قال: [أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم]. فبم تستحل دمي ولم آت شيئاً من هذا؟ يا أمير المؤمنين اذكر وقوفك بين يدي الله كوقوفي بين يديك ، فكأنه أمسك. ثم لم يزالوا يقولون له: يا أمير المؤمنين إنه ضال مضل كافر ، فأمر بي فقمت بين العقابين وجيء بكرسي فأقمت عليه وأمرني بعضهم أن آخذ بيدي بأي الخشبتين فلم أفهم ، فتخلعت يداي وجيء بالضرابين ومعهم السياط ، فجعل أحدهم يضربني سوطين ويقول له ـ يعني المعتصم ـ: شد قطع الله يديك ، ويجيء الآخر فيضربني سوطين ، ثم الآخر كذلك ، فضربوني أسواطاً فأغمي عليَّ وذهب عقلي مراراً ، فإذا سكن الضرب يعود عليَّ عقلي ، وقام المعتصم إليّ يدعوني إلى قولهم فلم أجبه وجعلوا يقولون: ويحك! الخليفة على رأسك ، فلم أقبل وأعادوا الضرب ثم عاد إليَّ فلم أجبه ، فأعادوا الضرب ثم جاء إليَّ الثالثة ، فدعاني فلم أعقل ما قال من شدة الضرب ، ثم أعادوا الضرب فذهب عقلي فلم أحس بالضرب ، وأرعبه ذلك من أمري وأمر بي فأطلقت. وفي رواية [قال الإمام أحمد: ضربت بالأسواط أول يوم فطفقت أعد سبعة عشر سوطاً ثم أغمي علي ولم أدر ما كان من بعدي ـ يقول من غسَّل الإمام أحمد لما مات بعد هذه الحادثة بأكثر من عشرين عاماً: رأيت آثار السياط تلك في ظهره يوم مات سنة 241 هـ ـ وفي اليوم الثاني: عُلِّقْتُ بالسقف من رجلي وبيني وبين الأرض مسافة ذراع ، فكانوا يعذبونني على هذه الشاكلة فانقطع الحبل بي ودُقَّت عُنقي بالأرض ، وأغمي علي ولم أدر ما وراء ذلك. وفي اليوم الثالث: جيء به فلُّفَ في حصيرة وظلوا يدوسون عليه حتى أغمي عليه]. يقول الإمام أحمد: ولم أشعر إلا وأنا في حجرة من بيت ، وقد أطلقت الأقياد من رجلي ، وكان ذلك في اليوم الخامس والعشرين

(1) العقابان: خشبتان يشبح الرجل بينهما للجلد.

من رمضان من سنة إحدى وعشرين ومائتين ، ثم أمر الخليفة بإطلاقه إلى أهله ، وكان جملة ما ضرب نيفاً وثلاثين سوطاً ، وقيل ثمانين سوطاً ، لكن كان ضرباً مبرحاً شديداً جداً. وقد كان الإمام أحمد رجلاً طوالاً رقيقاً أسمر اللون كثير التواضع رحمه الله. وفي رواية: (فقال لي رجل ممن حضر: إنا كببناك على وجهك وطرحناك على ظهرك ودسناك. قال: أحمد: فما شعرت بذلك). ولما حمل من دار الخلافة إلى دار إسحاق بن إبراهيم وهو صائم ، أتوه بسويق ليفطر من الصوم فامتنع من ذلك وأتم صومه (وفي رواية قال أحمد: فأتوني بسويق فقالوا لي: اشرب وتقيأ ، فقلت: لا أفطر) وحين حضرت صلاة الظهر صلى معهم فقال له ابن سماعة القاضي: وصليت في دمك! فقال له أحمد: قد صلى عمر وجرحه يثعب دماً ، فسكت.

ويروىٰ أنه لما أقيم ليضرب انقطعت تكة سراويله فخشي أن يسقط سراويله فتكشف عورته فحرك شفتيه فدعا الله فعاد سراويله كما كان، ويروى أنه قال: يا غياث المستغيثين ، يا إله العالمين ، إن كنت تعلم أني قائم لك بحق فلا تهتك لي عورة.

ولما رجع إلى منزله جاءه الجرايحي فقطع لحماً ميتاً من جسده وجعل يداويه والنائب في كل وقت يسأل عنه ، وذلك أن المعتصم ندم على ما كان منه إلى أحمد ندماً كثيراً ، وجعل يسأل النائب عنه والنائب يستعلم خبره ، فلما عوفي فرح المعتصم والمسلمون بذلك ، ولما شفاه الله بالعافية بقي مدة وإبهاماه يؤذيهما البرد ، وجعل كل من آذاه في حل إلا أهل البدعة ، وكان يتلو في ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ﴾ ويقول: ماذا ينفعك أن يعذب أخوك المسلم بسببك؟ وقد قال تعالى: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ وينادي المنادي يوم القيامة: (ليقم من أجره على الله فلا يقوم إلا من عفا). وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [ثلاث أقسم عليهن: ما نقص مال من صدقة ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، ومن تواضع لله رفعه الله].

وقيل لأحمد يوماً: ادع على ظالمك فقال: ليس بصابر من دعا على ظالمه. قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية: (وكان الذين ثبتوا على الفتنة فلم يجيبوا بالكلية أربعة: أحمد بن حنبل وهو رئيسهم ، ومحمد بن نوح بن ميمون

الجنديسابوري ، ومات في الطريق. ونعيم بن حماد الخزاعي ، وقد مات في السجن. وأبو يعقوب البويطي وقد مات في سجن الواثق على القول بخلق القرآن ، وكان مثقلاً بالحديد. وأحمد بن نصر الخزاعي).

لقد ثبت هؤلاء وأمثالهم من أعلام هذه الأمة ، ليواجهوا انحرافاً أصاب دين الأمة فأبوا إلا أن يدفعوه ، فواجهوا الانحراف بأجسامهم وكلماتهم ومواقفهم لتثبت الأمة من بعدهم وليفوِّتوا على الباطل جولته ومحاولاته.

لقد قال يوماً للإمام أحمد أحد تلامذته وهو ابن أبي زهير: (أيها الإمام! ما عليك ألا تجيب ، لك عيال ، ولك أولاد ، ولك كذا ، فلو أجبتهم والنية عند الله. فنظر إليه الإمام أحمد نظرة ملية وقال له: يا أبا سعيد: إذا كان هذا عقلك فقد استرحت).

فهو لا يبصر رُؤيةَ العالِم إلى المستقبل ، ولا يعي أن ذلك الرجل يرسم بحركته وبموقفه معالم التاريخ ، لتضم هذه المواقف إلى دين الأمة كأمثلة ناصعة على حملة لوائه ، ولتسجل بذلك أرقاماً جديدة في صفحات المتسابقين إلى رضوان الله ، الماضين على منهاج أنبيائه وأصحابهم رضوان الله عليهم.

يجيء آخر من تلامذته فيقول له: أيها الإمام ما عليك أن تجيب؟ فيقول له: نعم ، انظر من خلال الشرفة وأخبرني ماذا ترى؟ فيقول: إني أرى أهل بغداد قد اجتمعوا كل بيده القرطاس والقلم ينتظرون ما تفوه به. قال: (أفأنجو بنفسي وأضل جميع هؤلاء).

وجيء يوماً بأبي نُعيم (الفضل بن دكين) وكان شيخاً من شيوخ البخاري رحمه الله ، وكان من أئمة الحديث الكبار بالكوفة ، وكان شيخاً كبيراً قد تجاوز السبعين من عمره ، جيء به إلى المعتصم فقال له المعتصم: أقطع عطاءك! (يعني إن لم يجبه إلى مقولته) ، فمدَّ الشيخ يده إلى زرّ ثوبه فَسَلَّهُ ثم وضعه بين إصبعين من أصابعه ورمىٰ به على المعتصم قائلاً له: والله ما دنياك عندي إلا أهون من زِرٍّ قميصي هذا. فهاب المعتصم أن يفعل به شيئاً لشيخوخته ولشهرته بين الناس.

وخشي المعتصم غضبة الناس ، فدعا بعم أحمد بن حنبل ، ثم قال للناس:

أتعرفونه؟ قالوا: نعم. فقال المعتصم: قد سلمته إليكم صحيح البدن، فلما قال ذلك هدأ الناس وسكنوا.

وجميل ما ذكره الشيخ عبد الغني الدقر في كتابه (أحمد بن حنبل ـ إمام أهل السنة) حيث قال: (وما كان الإمام أحمد إلا سجين الجسم مُؤذىً فيه، ولكنه طليق الروح، صحيح النفس مادام لا يعدل بأنسه بالله شيئاً، فهو بهذا جدُّ طليق، والمسجونون حقاً هم أولئك الذين سعوا إلى سجنه وإيذائه، مسجونون بوحشة من الله، ومقيدون بأفكار وعقائد لم يأتِ بها الله، بل مكبلون بدخائل مريضة تريد أن تنتقم من حبر الأمة ورأس السنة، من رضي عن الله ورضي الله عنه).

ثم مات المعتصم فولي الواثق من بعده فحضه ابن أبي داؤد أن يواصل المسار بحمل العلماء على القول بخلق القرآن، فاستجاب لذلك كما فعل أبوه وعمه من قبل، ولكن الواثق خشي من أن يتعرض لأحمد فأرسل له يقول: لا تساكني بأرض، فاختفى أحمد بقية حياة الواثق ينتقل من مكان إلى مكان إلى أن أوى إلى منزله فاختفى فيه إلى أن مات الواثق.

ولكن زمن الواثق مع ذلك قد حفل ببعض الأزمات وسيء الصفحات، فقد جيء بالعالم الجليل أحمد بن نصر الخزاعي وهو من شيوخ الإمام البخاري، وكان الإمام أحمد لا يرى صبرَه يقاس بصبر أحمد بن نصر الخزاعي. فقد قيل له يوماً: (صبرت يا أبا عبد الله في المحنة، فقال: ما صبرت، الذي صبر أخي أحمد بن نصر الخزاعي، وذلك أنهم أغلظوا له القول فأغلظ لهم فضربوا عنقه وما خافهم) (طبقات الحنابلة).

فجيء بأحمد بن نصر إلى الواثق بعد أن أخبره والي بغداد بأن ابن نصر ينكر القول بخلق القرآن، فقال له الواثق: دع ما أخذناك له، قل القرآن مخلوق أقوم وأفك قيدك بيدي وأعفو عنك، وأجعلك من خاصتي. فأبى. فقال: إذاً لا يقتلك غيري. فقام الواثق وهو خليفة فقتله بسيفه، وعلق رأسه على باب بغداد سبع سنوات كاملة، وعلقت جثته بغير رأسه على باب سامراء. وفي رواية: فسأله عن رؤية الله فأقرها ـ والمعتزلة ينكرونها ـ فغضب الواثق، ودعا بالسيف وقال: إني أحتسب خطاي إلى هذا الكافر الذي يعبد ربّاً لا نعْبده، ولا نعرفه بالصفة التي

وصفه بها ، ثم مشى إليه فضرب عنقه ، وأمر به فحُمِلَ رأسُه إلى بغداد!! فنصبه بالجانب الشرقي شهوراً ، وبالجانب الغربي شهوراً ، ولما صُلِبَ كتب الواثق ورقة وَعُلِّقَت في أذنه ، وفيها : (هذا رأس أحمد بن نصر بن مالك ، دعاه عبد الله الإمام هارون ـ وهو الواثق ـ إلى القول بخلق القرآن ونفي التشبيه فأبى إلا المعاندة ، فَعَجَّلَهُ الله إلى ناره ، ووكل بالرأس من يحفظه ويصرفُه عن القبلة) .

هكذا بلغت المحنة ذروتها زمن الواثق ، وقُدِّم لها أخيار الأمة وكبار رجالها ، فثبتوا على قول الحق وحراسة الدين ، لتثبت مواقفهم وكلماتهم في حياة الأمة إلى يوم يرث الله الأرض ومن عليها ، ولتكون هذه المواقف وذاك الرسوخ مصدر إيمان وثبات في قلوب من أتىٰ بعدهم من المؤمنين الراجين أمر الله أن يعلو ، ودين الله أن يزهو ، ومنهج الوحي أن يحكم الناس .

وكلما اشتدت الأزمة اقترب الفرج ، ففي أواخر حكم الواثق الذي دام خمس سنوات ، أحضر الواثق شيخاً من أهل أذرمة كما يقول الخطيب البغدادي وهو أبو عبد الرحمن عبد الله بن محمد الأذرمي شيخ أبي داود والنسائي كما ذكر السيوطي في تاريخ الخلفاء ، فأدخل مقيداً ، وهو جميل حسن الشيبة. قال المهتدي ـ ابن الواثق ـ: فرأيت الواثق استحيىٰ منه ، ورقَّ له ، فما زال يُدنيه حتى قرُب منه وجلس ، فقال له : ناظر ابنَ أبي دؤاد. فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، إنه يضعف عن المناظرة. فغضب الواثق وقال : أبو عبد الله يضعف عن مناظرتك أنت؟! قال الشيخ : هوِّن عليك ، وائذنْ لي في مناظرته. فقال : ما دعوناك إلا لذلك. فقال الشيخ : احفظ عليَّ وعليه .

ثم قال الشيخ : يا ابن أبي دؤاد : أخبرني عن مقالتك هذه؟ أهي مقالة واجبة داخلة في عَقد الدين فلا يكون الدين كاملاً حتى يقال فيه ما قلت؟ قال ابن أبي دؤاد : نعم .

فقال الشيخ : أخبرني عن رسول الله ، حين بعثه الله هل ستر شيئاً مما أمر به؟ قال أحمد : لا .

فقال الشيخ : فدعا إلى مقالتك هذه؟ فسكت أحمد بن أبي دؤاد .

قال الشيخ : يا أمير المؤمنين . واحدة .

فقال الواثق: واحدة.

فقال الشيخ: أخبرني عن الله تعالى حين قال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾، أكان الله هو الصادق في إكمال دينه، أم أنت الصادق في نقصانه حتى تُقال مقالتُك؟

فسكت ابن أبي دؤاد.

فقال الشيخ: ثنتان، فقال الواثق: نعم.

فقال الشيخ: أخبرني عن مقالتك هذه، أعلمها رسول الله ﷺ أم جهلها؟. فقال ابن أبي دؤاد: علمها.

فقال الشيخ: فدعا الناس إليها؟ فسكت ابن أبي دؤاد.

فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين ثلاث، قال الواثق: نعم.

قال الشيخ: فاتَّسع لرسول الله ﷺ إن عَلِمها أن يمسِك عنها، ولم يطالب أمته بها؟ فقال ابن أبي دؤاد: نعم.

فقال الشيخ: واتَّسَعَ لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ذلك؟. قال ابن أبي دؤاد: نعم.

فأعرض الشيخ عنه، وأقبل على الواثق وقال: يا أمير المؤمنين، قد قدمت القول إن أحمد يصبو ويضعف عن المناظرة.

يا أمير المؤمنين إن لم يتسع لك من الإمساك عن هذه المقالة كما زعم هذا أنه اتسع للنبي ﷺ ولأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، فلا وسَّعَ الله عليك، قال الواثق: نعم كذا هو، قَطِّعوا قيد الشيخ، فلما قَطَّعوه ضرب الشيخ بيده إلى القيد فأخذه، فقال الواثق: لم أخذته؟ فقال: إني نويت أن أتقدم إلى من أوصي إليه إذا أنا مِت أن يجعلَهُ بيني وبين كفني حتى أخاصِمَ به هذا الظالم عند الله يوم القيامة، فأقول: يا رب لم قيدني ورَوَّع أهلي؟! ثم بكىٰ، فبكىٰ الواثق وبكينا، ثم سأله الواثق أن يجعله في حل، وأمر له بصلة، فقال: لا حاجة لي بها!!

قال المهتدي بن الواثق ـ وهو أحد شهود هذه المناظرة ـ: فرجعت عن هذه المقالة وأظن أن الواثق رجع عنها من يومئذ.

ويروىٰ في هذه المناسبة أن عبادة المخنث دخل على الواثق وقال: (يا أمير المؤمنين أعظم الله أجرك في القرآن. قال: ويلك! القرآن يموت؟ قال: يا أمير المؤمنين، كلٌّ مخلوق يموت، بالله يا أمير المؤمنين، من يصلي بالناس التراويح إذا مات القرآن؟ فضحك الخليفة وقال: قاتلك الله أمسك) طبقات الشافعية.

ثم مات الواثق وولي المتوكل سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، فاستبشر الناس خيراً، إذ كان محباً للسنَّة وأهلها، ما لبث أن رفع المحنة وأمر بكشفها، وكتب إلى الآفاق: لا يتكلم أحد في القول بخلق القرآن، فارتفع قدره حتى قيل: أبو بكر في الردة، وعمر بن عبد العزيز في ردِّه المظالم، والمتوكل في إحياء السنة وإماتة التجهُّم. ذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية. وقال السيوطي في تاريخ الخلفاء: بويع له في ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين بعد المائتين فأظهر الميل إلى السنة، ونصر أهلها، وذلك في سنة أربع وثلاثين، واستقدم المحدِّثين إلى سامُرا وأجزل عطاياهم، وأكرَمهم، وأمرهم بأن يحدثوا بأحاديثِ الصفات والرؤية. ثم قال: واشتد على الجهمية، فقد بعث في سنة سبع وثلاثين إلى نائب مصر أن يحلق لحية قاضي القضاة بمصر محمد بن أبي الليث، وأن يضربه، ويطوف به على حمار ففعل، يقول السيوطي: ونعم ما فعل فإنه كان ظالماً من رؤوس الجهمية.

قال ابن كثير: (فلما وُلِّيَ المتوكل على الله الخلافة استبشر الناس بولايته، فإنه كان محباً للسنة وأهلها، ورفع المحنة عن الناس، وكتب إلى الآفاق لا يتكلم أحد في القول بخلق القرآن، ثم كتب إلى نائبه ببغداد ـ وهو إسحاق بن إبراهيم أن يبعث بأحمد بن حنبل إليه، فاستدعى إسحاق بالإمام أحمد إليه فأكرمه وعظمه، لما يعلم من إعظام الخليفة له وإجلاله إياه، وسأله فيما بينه وبينه عن القرآن فقال له أحمد: سؤالك هذا سؤال تعنت أو استرشاد. فقال: بل سؤال استرشاد. فقال: هو كلام الله منزل غير مخلوق، فسكن إلى قوله في ذلك، ثم جهزه إلى الخليفة.

ثم إن رجلاً من المبتدعة يقال له ابن البلخي وشىٰ إلى الخليفة شيئاً فقال: إن رجلاً من العلويين قد أوى إلى منزل أحمد بن حنبل وهو يبايع له الناس في الباطن. فأمر الخليفة نائب بغداد أن يكبس منزل أحمد من الليل. فلم يشعروا إلا والمشاعل قد أحاطت بالدار من كل جانب حتى من فوق الأسطحة، فوجدوا الإمام أحمد

جالساً في داره مع عياله فسألوه عما ذكر عنه فقال: ليس عندي من هذا علم ، وليس من هذا شيء ولا هذا في نيتي ، وإني لأرى طاعة أمير المؤمنين في السر والعلانية ، وفي عسري ويسري ومنشطي ومكرهي ، وأثرة علي ، وإنه لأدعو الله له بالتسديد والتوفيق ، في الليل والنهار ، في كلام كثير. ففتشوا منزله حتى مكان الكتب وبيوت النساء والأسطحة وغيرها فلم يروا شيئاً. فلما بلغ المتوكل ذلك وعلم براءته مما نسب إليه علم أنهم يكذبون عليه كثيراً ، فبعث إليه يعقوب بن إبراهيم (أحد الحجبة) بعشرة آلاف درهم من الخليفة ، وقال: هو يقرأ عليك السلام ويقول: استنفق هذه ، فامتنع من قبولها. فقال: يا أبا عبد الله إني أخشى من ردِّك إياها أن يقع وحشة بينك وبينه ، والمصلحة لك قبولها ، فوضعها عنده ثم ذهب فلما كان من آخر الليل استدعىٰ أحمد أهله وبني عمه وعياله وقال: لم أنم هذه الليلة من هذا المال ، فجلسوا وكتبوا أسماء جماعة من المحتاجين من أهل الحديث وغيرهم من أهل بغداد والبصرة ، ثم أصبح ففرقها في الناس ما بين الخمسين إلى المائة والمائتين ، فلم يبق منها درهما، وأعطى منها لأبي أيوب وأبي سعيد الأشج، وتصدق بالكيس الذي كانت فيه، ولم يعط منها لأهله شيئاً وهم في غاية الفقر والجهد ، وجاء ابن ابنه فقال: أعطني درهماً. فنظر أحمد إلى ابنه صالح فتناول صالح قطعة فأعطاها الصبي فسكت أحمد. وبلغ الخليفة أنه تصدق بالجائزة كلها حتى كيسها ، فقال علي بن الجهم: يا أمير المؤمنين إنه قد قبلها منك وتصدق بها عنك ، وماذا يصنع أحمد بالمال؟ إنما يكفيه رغيف فقال: صدقت.

فلما مات إسحاق بن إبراهيم وابنه محمد ولم يكن بينهما إلا القريب ، وتولى نيابة بغداد عبد الله بن إسحاق ، كتب المتوكل إليه أن يحمل إليه الإمام أحمد ، فقال لأحمد في ذلك فقال: إني شيخ كبير وضعيف ، فرد الجواب على الخليفة بذلك ، فأرسل يعزم عليه لتأتيني ، وكتب إلى أحمد: إني أحب أن آنس بقربك وبالنظر إليك ، ويحصل لي بركة دعائك. فسار إليه الإمام أحمد ـ وهو عليل ـ في بنيه وبعض أهله ، فلما قارب العسكر تلقاه وصيف الخادم في موكب عظيم ، فسلم وصيف على الإمام أحمد فرد السلام وقال له وصيف: قد أمكنك الله من عدوك ابن أبي دؤاد. فلم يرد عليه جواباً ، وجعل ابنه يدعو الله للخليفة ولوصيف. فلما وصلوا إلى العسكر بسر من رأى ، أنزل أحمد في دار إيتاخ ، فلما علم بذلك ارتحل

منها وأمر أن يستكرى له دار غيرها. وكان رؤوس الأمراء في كل يوم يحضرون عنده ويبلغونه عن الخليفة السلام، ولا يدخلون عليه حتى يقلعون ما عليهم من الزينة والسلاح. وبعث إليه الخليفة بالمفارش الوطيئة وغيرها من الآلات التي تليق بتلك الدار العظيمة.

وأراد منه الخليفة أن يقيم هناك ليحدث الناس عوضاً عما فاتهم منه في أيام المحنة وما بعدها من السنين المتطاولة، فاعتذر إليه بأنهُ عليلٌ وأسنانه تتحرك وهو ضعيف، وكان الخليفة يبعث إليه في كل يوم مائدة فيها ألوان الأطعمة والفاكهة والثلج، مما يقاوم مائة وعشرين درهماً في كل يوم، والخليفة يحسب أنه يأكل من ذلك، ولم يكن أحمد يأكل شيئاً من ذلك بالكلية، بل كان صائماً يطوي، فمكث ثمانية أيام لم يستطعم بطعام، ومع ذلك هو مريض، ثم أقسم عليه ولده حتى شرب قليلاً من السويق بعد ثمانية أيام، وجاء عبيد الله بن يحيىٰ بن خاقان بمال جزيل من الخليفة جائزة له فامتنع من قبوله، فألح عليه الأمير فلم يقبل. فأخذها الأمير ففرقها على بنيه وأهله، وقال: إنه لا يمكن ردها على الخليفة. وكتب الخليفة لأهله وأولاده في كل شهر بأربعة آلاف درهم، فمانع أبو عبد الله الخليفة، فقال الخليفة: لابد من ذلك، وما هذا إلا لولدك. فأمسك أبو عبد الله عن ممانعته ثم أخذ يلوم أهله وعمه، وقال لهم: إنما بقي لنا أيام قلائل، وكأننا قد نزل بنا الموت، فإما إلى جنة وإما إلى نار، فنخرج من الدنيا وبطوننا قد أخذت من مال هؤلاء. في كلام طويل يعظهم به. فاحتجوا عليه بالحديث الصحيح «ما جاءك من هذا المال وأنت غير سائل ولا مستشرف فخذه». وأن ابن عمر وابن عباس قبلا جوائز السلطان. فقال: وما هذا وذاك سواء. ولو أعلم أن هذا المال أخذ من حقه وليس بظلم ولا جور لم أبال. (وكان مسير أحمد إلى المتوكل في سنة سبع وثلاثين ومائتين).

ولما استمر ضعفه جعل المتوكل يبعث إليه بابن ماسويه المتطبب لينظر في مرضه، فرجع إليه فقال: يا أمير المؤمنين إن أحمد ليس به علة في بدنه، وإنما علته من قلة الطعام وكثرة الصيام والعبادة. فسكت المتوكل ثم سألت أم الخليفة منه أن ترىٰ الإمام أحمد، فبعث المتوكل إليه يسأله أن يجتمع بابنه المعتز ويدعو له، وليكن في حجره. فتمنع من ذلك ثم أجاب إليه رجاء أن يعجل برجوعه إلى

أهله ببغداد ، وبعث الخليفة إليه بخلعة سنية (أي رفيعة) ومركوب من مراكبه ، فامتنع من ركوبه لأن عليه ميثرة نمور (أي جلد نمور) ، فجيء ببغل لبعض التجار فركبه وجاء إلى مجلس المعتز ، وقد جلس الخليفة وأمه في ناحية في ذلك المجلس ، ومن وراء ستر رقيق. فلما جاء أحمد قال: سلام عليكم . وجلس ولم يسلم عليه بالإمرة ، فقالت أم الخليفة: الله الله يا بني في هذا الرجل ترده إلى أهله ، فإن هذا ليس ممن يريد ما أنتم فيه . وحين رأى المتوكل أحمد قال لأمه: يا أمه قد تأنست الدار . وجاء الخادم ومعه خلعة سنية وثوب وقلنسوة وطيلسان ، فألبسها أحمد بيده ، وأحمد لا يتحرك بالكلية . قال الإمام أحمد: ولما جلست إلى المعتز قال مؤدبه: أصلح الله الأمير هذا الذي أمر الخليفة أن يكون مؤدبك . فقال: إن علمني شيئاً تعلمته ، قال أحمد: فتعجبت من ذكائه في صغره لأنه كان صغيراً جداً فخرج أحمد عنهم وهو يستغفر الله ويستعيذ بالله من مقته وغضبه .

ثم بعد أيام أذن له الخليفة بالانصراف وهيأ له حرَّاقة (وهي السفينة فيها مرامي نيران يُرْمى بها العدو) فلم يقبل أن ينحدر فيها ، بل ركب في زورق فدخل بغداد مختفياً ، وأمر أن تباع تلك الخلعة وأن يتصدق بثمنها على الفقراء والمساكين. وجعل أياماً يتألم من اجتماعه بهم ويقول: سلمت منهم طول عمري ثم ابتليت بهم في آخره . وكان قد جاع عندهم جوعاً عظيماً كثيراً حتىٰ كاد أن يقتله الجوع . وقد قال بعض الأمراء للمتوكل: إن أحمد لا يأكل لك طعاماً ، ولا يشرب لك شراباً ، ولا يجلس على فرشك ، ويحرم ما تشربه . فقال: والله لو نشر المعتصم وكلمني في أحمد ما قبلت منه . وجعلت رسل الخليفة تفد إليه في كل يوم تستعلم أخباره وكيف حاله ، وجعل يستفتيه في أموال ابن أبي دؤاد فلا يجيب بشيء ، ثم إن المتوكل أخرج ابن أبي دؤاد من سر من رأىٰ إلى بغداد بعد أن أشهد عليه نفسه ببيع ضياعه وأملاكه وأخذ أمواله كلها.

وكان ابن أبي دؤاد قد أصيب بالشلل وكانت عينه فقط هي التي تتحرك ، ومن ثم يقولون حبس في جلده ، ولبث أياماً طويلة كذلك ثم مات كمداً. وأما أحمد بن عبد الملك الزيات فقد كان رافضياً سباباً للصحابة لأبي بكر وعمر ، وكان قد اخترع آلة يسميها التنور يعذب بها علماء الحديث ، وهي عبارة عن بابين من الخشب ، دُقَّ بأحِدها المسامير من خارجها حتى ظهرت من داخلها ، فيأتي بالمحدث ويضعه بين

البابين ويطبق عليه ويدعه ينزف حتىٰ تلتهب جروحه ويموت موتاً بطيئاً من بعد ليال. فقال له المتوكل: أأنت صنعت هذا بيدك؟ قال: نعم. أأنت عذبت به الناس؟ قال: نعم. قال: إذاً لا أقتلك إلا بما صنعت يدك. وكان آخر يسمىٰ هرثمة وهو من القواد الذين فيهم جاهلية وعصبية وعاث في الأرض فساداً، وكان هو الذي سعى في قتل أحمد بن نصر الخزاعي، فهرب وظل يطوف الصحراوات هرباً لعله يصل إلى بدو ليس للخليفة عليهم سلطان، فنزل على بعض البدو فاستضافوه، ثم قالوا له من بعد أيام من أنت؟ قال أنا فلان، قالوا: سبحان الله! أو تدري من نحن؟ نحن خزاعة، فقتلوه بقتيلهم، وتفرق الآخرون شذر مذر من أولئك الذين شاكسوا أبطال الإسلام.

وكان ممن تناوشته المحن البطل أبو دلف زكرياء العجل قائد الجيوش العباسية، وكان تحت إمرته من الخيالة كما يقال ثلاثمائة ألف فارس، فلما رأى الأمور تُعطىٰ لهؤلاء ركب فرسه ولوى عنقه وقال ثلاثة أبيات بليغة:

ومقام الكريم في بلدِ الهو ... ن إذا أمكن الرحيل مُحال
حيث لا رافعاً سيفاً من ... الظلم ولا للكماة فيه مجال
في بلاد يُذل فيها عزيزُ ... القوم حتىٰ يناله الأنذال

ثم ذهب واعتزل بالكرخ (وهي في طريق كرمنشاه بإيران حيث كانت معسكراً كبيراً للجيش الإسلامي). ولم تكن عزلته هي الأمثل، بل الثبات وتحمل المحنة هو الأفضل، لكن نبله أبىٰ أن يجعله صابراً على الضيم.

ثم جاء المتوكل إلى الإمام أحمد فأخرج له أدراج الدولة (أي أرشيفها) وقال له: أيها الإمام ادرس هذه الأدراج فثبِّت من شئت واترك من شئت وأصلح أمر الدولة، فلبث الإمام أحمد مدة يفتش في الأسماء، فما من قاض مبتدع أو عامل أو وال أو ظالم إلا وعزله وعين مكانه من يُشهد له بالعدل والصلاح، حتىٰ مات المتوكل وقبله مات الإمام أحمد سنة 241 هـ.

ولهذا يقول الإمام أحمد: (إنما مثل المتوكل في بني العباس كمثل عمر بن عبد العزيز في بني أمية).

وانتهت بذلك ملحمة دامت سنيناً طويلة بين الحق والباطل، تُوِّجَ فيها النصر

بالنهاية ، نتيجة ثبات أبطال الإسلام وعلماء الأمة ، وببركة صدقهم ، ومواقفهم ونبلهم ، وجزىٰ الله من أجاد في وصف هذه المحنة خيراً حيث قال في بطلها أحمد بن حنبل :

مـن أيـن أبـدأ شعـري أيهـا البطـل ... وأنـت أبعـد ممـا تطلـب الجمـل
كل القوافي التي استنفرتها وقفت ... مبهـورة وبـدا فـي وجههـا الـوجـل
ماذا تقول وصرح العلم سامقة أركـ ... ـانـه وبنـاء المجـد مكتمـل
ماذا تقول قوافي الشعر عن رجل ... كـل يقـول لـه هـذا هـو الـرجـل
أنـت الجـدير بِتصـوير البطـولـة فـي ... حيـاة شهـم بـه الأمجـاد تحتفـل
يسيـر فـي هيبـة الإيمـان تحـرسـه ... عنـايـة الله لا جنـد ولا خـول
ما كان يأكل إلا الخبز مأتدماً بالخـ ... ـلّ وهـو بجلـد الضـأن ينتعـل
وليس في كفـه سيـف يُـذل بـه مـن ... لا يطيـع ولا فـي ثـوبـه بلـل
لكنهـا طـاعـة الـرحمـان عزّ بهـا عزّاً ... لـه فـي حيـاة المصطفـىٰ مثـل
كـأنمـا هـو والهـامـاتُ خـاضعـةٌ ... شـدا إليـه جبـال التُّهـم تـرتحـل

* * *

هـذا ابـن حنبـل نفس المجـد راضيـة ... بـه وقُصَّـادهُ مـن علمـه نهلـوا
نـاديتـه ورمـال الـدهـر واقفـة ... مـن تحتهـا جثـث الأيـام تُنْتشَـلُ
يا قامعَ البدعة النكراء في زمن غد ... ت بـه فـرص التضليـل تُهْتَفَـلُ
يـا زاهـداً وعيـون المـال شـاخصـة ... تـرنـو إليـه فمـا تـدنـو ومـا تصـل
يـا شـامخـاً ورؤوس القـوم تخفضِهـا ... أطمـاعهـا واتبـاع الغـيِّ والـزلـل
بـاتـوا وألسنـة الـركبـان تلعنُهـم ... وبِـتَّ تـدعـو لـك السـادات والهَمَلُ

* * *

إنـي أراك ووجـه الظلـم منتقِـعٌ ... أمـام حـزمـك والغـاوون قـد فَشَلـوا
أراك تهفـو إلـى عـدل يُصـان بـه ... حـق وتسعـىٰ إلـى تطبيقـه الـدول
من أين تطلب عدلاً في مخاصمة ... ومـن يُحَكَّـمُ فـي دعـواك معتـزل
ومـن يُحكَّـمُ فـي دعـواك مبتـدع ... فـي دينـه مـن دعـاوى فكـره خلـل

ومـن يُحَكِّـمُ فـي دعـواك منهجـه | في الحكم متصفٌ بالظلم مُرْتَجل
قـوم تسيّـرهـم أحقـادهـم وبهـم | تشقـىٰ قلـوب وتـأتـي منهـم العلـل
لقـد قـرأنـا السجـلات التـي كتبـوا | فيمـا مضـىٰ والأفـاعيـل التـي فعلـوا
فمـا رأينـا صـلاحـاً فـي أئمتهـم | ولا رأينـاه فـي النسـل الـذي نسلـوا
جـاؤوا إلينـا بعقـلانيـة سقطـت | عمـادهـا سفسطـات القـول والجـدل
فظـن أصحـابهـا أن الضـلال هـدى | وأن نملتهـم فـي دربهـا جَمَـلُ

* * *

إنـي لأعجـب مـن إصرار معتصـم | وكنـت أحْسَبُـهُ للحـق يمتثـل
مـاذا أصـاب أبـا إسحـاق[1] كنت بـه | مُسْتبشـراً فلمـاذا استسلـم الـرجـل
أغـرّه مـن دعـاة الشـر مَنْطِقُهـم | فـأيـن إيمـانـه بـالله والمُثُـلُ
إنـي لأسـألـه والنفـس عـاتبـة | والقلـب ينبـت فيـه الشـوك والأثَـلُ
إذا أخـذنـا بـدعـوى كـل مبتـدع | فـأيـن يـذهـب مـا جـاءت بـه الـرسـل
ماذا جرىٰ يا أبا إسحاق كيف سرىٰ | في عقلك الحر هذا الوهم والدَّجَلُ
أإن شـدا قبلـك المـأمـون فلسفـة | بهـا أُعِـدَّ لأهـل البـدعـة النُّـزُل
وباسِمها انتشرت في الفكر زندقة | ونـوقشـت بـاسمهـا الأقـدار والأزل
غدوت تَهذي بما قالوا وما نشروا | ولست تعقل في التضليل ما عَقَلوا
ألسـت معتصمـاً بـالله تعبُـدُه | وتستعيـن بـه إن ضـاقـت الحيـل
ألـم تُجِبْ أمسِ صوتَ المستجيرةِ | مِـن تسلـط الـروم حتـىٰ غـرّد الأمـل
كتـائِـبٌ نحـو عمـوريـةَ انطلقـت | سـريعـة ومـزاج الـروم معتـدل
فمـا تنفـس صبـح فـي مـرابعهـم | حتـىٰ تحـرك فيهـا السهـل والجبـل
ولا أتـمّ جبيـن الشمـس طلعتَـه | إلا وجيشـك بـالتحـريـر يحتفـل
أجَبْتهـا يـا أبـا إسحـاق متخـذاً | مـن الحميـة مـا يحلـو بـه الأجـل
فكيـف تسمـع أصـوات التقـاة ولـم | تجب ومـا اقترفـوا ذنبـاً ومـا جهلـوا
أمِثْلُ أحمـد تـدميـه السيـاط علـى مـ | ـرأىٰ مـن النـاس هـذا حـادث جَلَـلُ
أمِثْـلُ أحمـدَ يُلقـىٰ بيـن طـائفـة | علـى بصـائـرهـا مـن غيِّهـا ظُلَـلُ

---

(1) هو لقب المعتصم.

قــاضـي قضـاتـك مـزهـو بسلطتـه ... لمـــا رآك علـــى الأوبـــاش تتكـــل
غــدا يُــزيّــن فــي عينيـك مــذهبـه ... يا ليت شعري أيزكو عندك الخطل

* * *

يا ضيعة الحق من قوم تسيرهم بطا ... نـــةُ السـوء مـا قــالــتْ بــه فعلـوا
إذا ارتمىٰ حـاكِـمٌ في حضـن رغبتـه ... فحكمُـهُ فـي عيـون النـاس مبتـذل
مــا بــال أمتنــا صــارت معلقــة ... مــا بيــن ذي ثــورة يسطـو وينفعـل
وبيــن حــاكــم قــوم يستـديـر إلـى ... أعـدائـه قـابـلا فـي الحكـم ما قبلـوا
وبيـن صـاحـب علـمٍ صـار مِمْسَحَـةً ... للظـالميـن فكـم أفتـىٰ وكـم نقلـوا
يـا حـائـديـن عـن الإسـلام أسكـركـم ... لهـوٌ وأعمـاكُـمُ عـن ديننـا الـزلـل
سلـوا رجـال الحـديـث المخلصيـن ... ومن تحروا الصدق في كل الذي نقلوا
هـل جـاء فـي ديننـا معنـىٰ يعـارضـه ... عقـل سليـم مـن الآفـات معتـدل
وهـل يُعَـدُّ لـدينـا عـالمـاً فطِنـاً ... مــن يكتـم العلـم مختـاراً وينعـزل
يــا مقلـة الشعـر مـا أمعنـتِ فـي ... نظر إلا وحركتِ جرحاً كاد يندمل
هـذا ابـن حنبـل لـم يعلـن تمـرّده ... علـى الـولاة ولـم يُخْـدع بمـا بـذلـوا
ولـم ينـافـق ولـم يستجـد رحمتهـم ... بـل كـان كـالطـود والتعـذيـب متصـل
ولـــم يَثُــرْ ثــورة نكــراء منتقمـــاً ... لنفســه شــأن مـن فــي قلبـه دَغَــلُ
لـو شـاءهـا ثـورة تجـري الـدمـاء لهـا ... لمــا تــأخــر عــن تــأييــده رجــل
لكنــه مـؤمــن صفّــى سـريـرتــه لله ... واتّضَحــت فــي ذهنــه السبــل
بــلاؤه كــان فــي ذات الإلــه وفــي ... ذات الإلــه همـوم الأرض تُحتمـل

* * *

قـد قـالهـا وعيـون القـوم شـاخصـة ... والسوط في جرحه الرَّعَاف يغتسل
لا لن أقول لكم ما ترغبون ولن أغالطَ ... النفـس هــذا شــأن مــن سَفُلــوا
قــرآننـا ليـس مخلـوقـاً وإن وَرِمَـتْ ... أنـو فُكـم ليس مثـلَ الـوردة البصـلُ
يا قامع البدعة النكراء طعم فمي ... مـرٌّ وذكـرك عنـدي طعمـه العسَـلُ
إن كنـت واجهـت عقـلانيـة مكثـت ... تثيـر فـي النـاس أوهـامـاً وتفتعـل
فنحـن نشقـىٰ بعَلمـانيـة يـدهـا ممـد ... ودة ولهــا فــي عصـرنــا كُتَــلُ
تشــابــه القـوم فـي التضليـل واجتـ ... ـمعوا على التنكر للإسلام واتصلوا

يـا مُبْحـراً وريـاحُ البحـر هـائجـةٌ   وزورق الصبـر مشـدودُ القُـوىٰ جَـدِلُ
إنــي أنــاديــك والتــأريــخ متّــزر   بثـوبـه وشـريـط العمـر مختـزل
أبْحِـرْ إلينـا ففـي شطـآننـا سفُـ   ـنٌ تـآكلـت وعليهـا فـرّخ الملـل
ما خاضها في خِضَمٍّ البحر سائسها   نحـو المعـالي ولا حـراسهـا امتثلـوا
أبحر إلينا لعل الله يمنحنا من فيضِ   عـزمـك مـا يمحـىٰ بـه الفشـل
وابعـث إلينـا خطـابـاً منـك نـرفعـه   مـع التحيـة منـا لـلألـىٰ غَفَلـوا
مشائخ العصر باتوا في مجالسهم   يفـاخـرون بمـا نـالـوا ومـا أكلـوا
هم يصعدون وراء القوم إن صعدوا   وينـزلـون وراء القـوم إن نـزلـوا
لـو حـدثتنـا بمـا تلقـىٰ عمـائِمُهُـمْ   من الخضوع لأغضىٰ طرفَهُ الخَجَلُ
حقيقـة بعضهـا يبـدو لـذي بصـر   وبعضهـا فـوقـه الأستـار تنسـدِلُ

* * *

يـا صـامـداً وسيـاط القـوم نـاهلـة   مـن جـرحـه ولظـى الآلام يشتعـل
أسلمـت ظهـرك للحجّام يقطـع مـن   جـراحـه أثـر السـوط الـذي فتلـوا
وكنـت تـدعـو إذا آذتـك شفـرتُـهُ   بـالخيـر للنـاس لـم تعبـأ بمـا فعلـوا
جُبِلْـتَ أنـتَ علـى عطـف ومـرحمـة   وهـم علـى ثـورة الأحقـاد قـد جُبِلـوا
لله جـوهـرك الحـر الـذي عَجَـزَتْ   أن تستـدل إلـى أمثـالـه المُثُـلُ
خـذنـي إليـك إذا لـم تـأتنـي فـأنـا   أكـاد أخـرج مـن عصـري وأنتقـل
أكـاد أصنـع مـن ذكـراي طـائـرة   نفـاثـة وإلـى بغـداد أرتحـل
آتـي أقبـل رأسـاً ظـل مـرتفعـاً   ولـم يُنكسْ لمـن جـاروا ومـن قتلـوا
آتي أشم أريج المجد أشرب من ينبو   عـه قبـل أن يمضـي بـي الأجـل
وكـدت أغـرق فـي وهمـي فـأنقـذنـي   صـوت تـدفـق منـه المنطـق المَثَـلُ
أصغيت والصوت يدعوني كأن على   حـروفـه عسـلاً أو أنهـا العسـل
بُنَـيَّ وَجِّـه إلـى الـرحمـان قلبـك فـي   صدق ودع عنك من خانوا ومن خَتلوا
عشْ في الحياة بقلبِ الحر يسلم من   حقد ويدعو إلى الإيمان من شُغِلوا

* * *

منهج التفسير عند الراسخين من المفسرين
وأئمة العلم من الصحابة والتابعين

أما بعد: الحمد لله الذي تفضل على عباده فعرفهم غاية الخلق وطرق النجاة وسبل السلام، فبعث للناس رسلاً يبلغون عنه معنىٰ الأمن في الدنيا والآخرة وزوّدهم لأجل ذلك بالحُجَج والبيان، ثم ختم فيهم سبحانه الرسالة والنبوة بإمام وقائد الأمم محمد عليه الصلاة والسلام، وجعل أمته أمةَ القيادة في الأرض والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتقود الأمم إلى شاطىء النجاة والأمان، وحفظ الله قرآنه وعلومه وتفسيره وكذلك هدي نبيّه بقادة وعلماء من ذرية هذه الأمة وبأئمة كرام، فكانوا سَيْفاً مسلطاً على أعداء الأمة المحاولين العبث بالدين والتطاول والادعاء في تأويله في كل زمان، فقد قال الله جل ثناؤه في سورة آل عمران: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾. [آل عمران: 1 ـ 8].

فَعَنْ ابن عباس رضي الله عنه قال: (أما الآيات المحكمات فهن الناسخات التي يعمل بهن، وأما المتشابهات فهن المنسوخات). وقيل: المحكم ما لم يحتمل من التأويل غير وجه واحد، والمتشابه ما احتمل من التأويل أوجها.

وقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ قال محمد بن جعفر بن الزبير: (أي ميل عن

الهدى). وقال مجاهد: (أي شك). «فيتبعون ما تشابه منه» قال ابن عباس: (فيحملون المحكم على المتشابه، والمتشابه عل المحكم، ويلبِّسون فلبَّسَ الله عليهم). وقوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ قال مجاهد: (الشبهات بها أهلكوا). ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ ليناسبَ أهواءهم وما ذهبوا إليه. وقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾. قيل: قوله ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ تمَّ ثم تستأنف بما بعده ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ يقولون آمنا بالمحكم والمتشابه كل من عند الله. وقيل بل الراسخون يعلمون تأويله ومع علمهم يقولون آمنا به.

فقد رُوي عن ابن عباس قوله: (أنا ممن يعلم تأويله).

ورسوخ الشيء في الشيء ثبوته وولوجه فيه، كذا في لغة العرب، فكان منهج الراسخين في العلم في الأمة رد المتشابه إلى المحكم، وليس ضرب الآيات بعضها ببعض من غير علم، كما يفعل أهل الأهواء اليوم أو غير الراسخين من طلبة العلم.

يروي الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [يكون في آخر الزمان دجّالون كذّابون، يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإيّاهم، لا يُضِلوّنكم ولا يفتنونكم][1].

فحذّر صلوات الله وسلامه عليه من ظهور دعاة الخرافة والتفسير بالضلال والجهل القاصم، دون رسوخ في العلم وبقواعده وأصوله ذات الأسس والأركان والدعائم. فقد أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن عقبة بن عامر الجهني قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [هلاك أمتي في الكتاب واللّبن، قالوا: يا رسول الله ما الكتاب واللبن؟ قال: يتعلمون القرآن فيتأولونه على غير ما أنزل الله عز وجل، ويحبون اللَّبن فيدعون الجماعات والجمعَ، ويبدون][2]. أي يذهبون إلى البادية والمراعي من أجل اللبن، كناية عن اهتمامهم بالدنيا أكثر من أمر الله والآخرة.

قال الإمام الطحاوي رحمه الله: (ولا نجادل في القرآن ونعلم أنه كلام رب

---

(1) صحيح الجامع (8007).

(2) السلسلة الصحيحة (2778).

العالمين ، نزل به الروح الأمين ، فعلمه سيد المرسلين محمداً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، وكلام الله تعالى لا يساويه شيء من كلام المخلوقين)(1).

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: [سمعت رجلاً قرأ آية سمعت رسول الله ﷺ يقرأ خلافها فأخذت بيده فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فعرفت في وجهه الكراهة وقال: كلاكما محسن ، لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا](2).

فلا نجادل في القرآن بإلقاء الشبهات كما يفعل أهل الزيغ ليدحضوا الحق ، بل لابد من التكلم بعلم ورسوخ عند مدارسته ومحاولة فهمه ، وكذلك لا نجادل في القراءة الثابتة بل نقرؤه كما ثبت وصح ، وقيل إن ترتيب السور لم يكن واجباً عليهم منصوصاً ، لذا فترتيب مصحف عبد الله غير الترتيب العثماني ، أما ترتيب آيات السور فمنصوص عليه.

وقد بلغ الأمر أن يفسر للأمة اليوم قرآنها ، متطرف له غاية أو مصلحة ، أو معاصر لم يُتّهم يوماً بالعلم أو الصلاح ، بل ماضيه ملطّخ بالفساد والجهل والتخبط والسفاح . فقد أخرج الإمام أحمد في المسند عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: [لقد جلست أنا وأخي مجلساً ما أحب أن لي به حُمْرَ النَّعَم ، أقبلت أنا وأخي وإذا مَشْيخة من صحابة رسول الله ﷺ جلوس عند باب من أبوابه ، فكرهنا أن نفرق بينهم ، فجلسنا حَجْرَةً ، إذ ذكروا آية من القرآن فتماوروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم ، فخرج رسول الله ﷺ مُغْضَباً قد احمرّ وَجْهُهُ يرميهم بالتراب ويقول: مَهْلاً يا قوم بهذا أُهْلِكَتْ الأممُ من قبلكم باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهمُ الكتبَ بعضها ببعض ، إن القرآن لم يَنْزِل يُكَذِّبُ بعضُه بعضا ، بل يُصَدِّقُ بعضه بعضها ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه](3).

والله جل ثناؤه قد حرم على الأمة القول بغير علم. فقال في سورة

---

(1) متن العقيدة الطحاوية فقرة 56.

(2) تخريج الطحاوية فقرة56.

(3) صحيح. تخريج الطحاوية فقرة 56.

الأعراف: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: 33].

وقال في سورة الإسراء: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: 36].

وقال في سورة الحج: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [الحج: 8-9].

وفي الصحيحين عن عائشة عن النبي ﷺ قال: [إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم][(1)].

وفي جامع الترمذي عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: [ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ثم تلا: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ﴾][(2)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مقدمة التفسير: (يجب أن يُعْلَمَ أن النبي ﷺ بين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه، فقوله تعالى: ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ يتناول هذا وهذا، وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن: كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتىٰ يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً، ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة، وقال أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جل في أعيننا، وأقام ابن عمر على حفظ البقرة عدة سنين، قيل: ثمان سنين ذكره مالك. قال: وذلك أن الله تعالى قال: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ وقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ وقال: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾ وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن. وكذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وعقل الكلام متضمن لِفهمه).

---

(1) مختصر مسلم (1052)، ورواه البخاري.

(2) حسن. تخريج المشكاة (180).

قلت: فمنهج التفسير للقرآن عند الراسخين في العلم يتضمن القواعد والأصول التالية:

أولاً: تفسير النص بالنص: فقوله سبحانه: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ يفسره قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾.

وقوله جل ثناؤه في سورة إبراهيم: ﴿الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ يفسره قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ وقوله في سورة المائدة: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. قال شيخ الإسلام: (فكان القرآن هو الإمام الذي يقتدى به ولهذا لا يوجد في كلام أحد من السلف أنه عارض القرآن بعقل ورأي وقياس ولا بذوق ووجد ومكاشفة، ولا قال قط قد تعارض فيه هذا العقل والنقل فضلاً عن أن يقول: فيجب تقديم العقل).

ثانياً: تفسير القرآن بالحديث:

فقوله سبحانه في سورة الصف: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾. يفسره ما في الصحيحين عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [يؤتىٰ بالرجل يوم القيامة فَيُلقىٰ في النار فتندلق أقتاب[1] بطنه فيدور بها كما يدور الحمار في الرحىٰ فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر:

---

(1) جمع قِتَب: وهي الأمعاء.

فيقول: بلىٰ ، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهىٰ عن المنكر وآتيه][1] .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : (ومما ينبغي أن يعلم أن القرآن والحديث إذا عرف تفسيره من جهة النبي ﷺ لم يُحْتَجْ في ذلك إلى أقوال أهل اللغة ، فإنه قد عرف تفسيره وما أريد بذلك. ثم قال: ولهذا قال الفقهاء: الأسماء ثلاثة أنواع: نوع يعرف حده بالشرع كالصلاة والزكاة ، ونوع يعرف حده باللغة كالشمس والقمر ، ونوع يعرف حدّه بالعرف كلفظ القبض ولفظ المعروف في قوله: (وعاشروهن بالمعروف). قال: ولم يكن السلف يقبلون معارضة الآية إلا بآية أخرىٰ تفسرها وتنسخها ، أو بسنة الرسول ﷺ تفسرها ، فإن سنة رسول الله ﷺ تبين القرآن وتدل عليه وتعبر عنه وكانوا يسمون ما عارض الآية ناسخاً لها .

وقال في موضع آخر: والنقل يعني القرآن والحديث وأقوال الصحابة والتابعين . قال: ولا فيهم (أي في سلف الأمة وعلمائها) من يقول: إن له ذوقاً أو وجداً أو مخاطبة أو مكاشفة تخالف القرآن والحديث ، فضلاً عن أن يدعي أحدهم أنه يأخذ من حيث يأخذ الملك الذي يأتي الرسول ، وأنه يأخذ من ذلك المعدن علم التوحيد ، والأنبياء كلهم يأخذون عن مشكاته) الفتاوىٰ ـ مقدمة التفسير (29) .

ثالثاً: تفسير النص بأسباب النزول: فقوله سبحانه في سورة يس : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ مفسّر بما روى ابن ماجه بإسناد جيد عن ابن عباس رضي الله عنه قال: [كانت الأنصار بعيدةً منازلهم من المسجد ، فأرادوا أن يقتربوا ، فنزلت ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ ﴾ فثبتوا][2] .

وقوله سبحانه في سورة البقرة: ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ ﴾ مفسّر بما أخرج الإمام أحمد في المسند عن صفوان بن يعلىٰ بن أمية عن أبيه قال: [جاء إلى رسول الله ﷺ وقال: كيف تأمرني يا رسول الله في عمرتي فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ ﴾ فقال رسول الله ﷺ: من السائل عن العمرة فقال: أنا ، فقال: ألق ثيابك واغتسل واستنشق ما استطعت وما كنت صانعاً في حجتك فاصنع في عمرتك][3] .

---

(1) مختصر صحيح مسلم 1238 ورواه البخاري .

(2) الصحيح المسند من أسباب النزول ، مقبل الوادعي ، سورة يس آية 12 .

(3) المرجع السابق. سورة البقرة، آية 196 .

وقوله جل ثناؤه في سورة البقرة: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ مفسّر بما روى الإمام البخاري في صحيحه أسباب النزول لهذه الآية عن كعب بن عُجْرة قال: [وقفت على رسول الله ﷺ بالحديبية ورأسي يتهافت قمْلاً. فقال: يؤذيك هوامُّك[1]. قلت: نعم. قال فاحلق رأسك قال: فيّ نزلت هذه الآية ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ إلى آخرها، فقال النبي ﷺ كما في رواية: ما كنت أرىٰ أن الجهد بلغ بك هذا، أما تجد شاة؟ قلت لا. قال: صُمْ ثلاثة أيام أو أطعم ستةَ مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام واحلق رأسك][2].

رابعاً: التفسير برد المتشابه إلى المحكم:

فقد قال جل ثناؤه في سورة آل عمران: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

فقوله سبحانه في سورة الحديد: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ مفسر برده إلى المحكم ليفهم معنىٰ المعيّة لله التي تليق بجلاله وبكماله كما في سورة طه: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾، فهو معهم سبحانه بصفاته وبعلمه لا بذاته، فهو الرحمن قد استوى على العرش ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وكذلك قوله في سورة البقرة يحكي عن بني إسرائيل لما أمرهم: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾. فإذا عدنا إلى المحكم في السنة فهمنا ما تشابه علينا من القرآن، فقد أخرج البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [قيل لبني إسرائيل (ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة) فبدّلوا، فدخلوا يزحفون

---

(1) أي القمل.

(2) مختصر البخاري (837) أبواب الإحصار وجزاء الصيد ص 261.

على أستاهِهِمْ ، وقالوا: حَبَّة في شعيرة][1] استهزاء منهم وسخرية بأمر الله فأخزاهم الله في الدنيا وأوعدهم نيرانه في الآخرة .

خامساً: التفسير بأقوال الصحابة ومن سمع منهم من التابعين:

فلفهم قوله سبحانه في سورة البقرة: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ ﴾ ، تقرأ في صحيح الإمام مسلم عن ابن عمر رضي الله عنه قال: [كان رسول الله ﷺ يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه وفيه نزلت ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ ﴾][2] .

وإذا مررت بقول الله سبحانه في سورة الطور: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ ﴾ قَرَأْتَ في تفسير الإمام الطبري بسند صحيح عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: [إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقرّ بهم عينه ثم قرأ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ ﴾ . قال: هم ذرية المؤمن يموتون على الإيمان ، فإن كانت منازل آبائهم أرفع من منازلهم ألحقوا بآبائهم ولم ينقصوا من أعمالهم التي عملوها شيئاً][3] .

قلت: ويعضده ويقويه ما روى الإمام أحمد في المسند والبيهقي بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الرجل لترفع درجته في الجنة ، فيقول: أنّى لي هذا؟ فيقال: باستغفار ولدك لك][4] .

قال شيخ الإسلام في مقدمة التفسير (الفتاوى 332/13): (ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه ، فالقرآن أولى بذلك ، وأيضاً فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا في فن من العلم ، كالطب والحساب ، ولا يستشرحوه ، فكيف بِكلام الله الذي هو عصمتهم ، وبه نجاتهم وسعادتهم ، وقيام دينهم ودنياهم؟ ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلاً جداً ،

---

(1) مختصر مسلم (2123) .
(2) الصحيح المسند من أسباب النزول . البقرة (115) .
(3) السلسلة الصحيحة (2490) .
(4) صحيح الجامع (1613) والسلسلة الصحيحة (1598) .

وهو وإن كان في التابعين أكثر منه في الصحابة فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم ، وكلما كان العصر أشرف كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيان فيه أكثر ، ومن التابعين من تَلَقّىٰ جميع التفسير عن الصحابة ، كما قال مجاهد : عرضت المصحف على ابن عباس أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها ، ولهذا قال الثوري : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به ، ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من أهل العلم وكذلك الإمام أحمد وغيره ممن صنف في التفسير يكرر الطرق عن مجاهد أكثر من غيره .

قال : والمقصود أن التابعين تلقوا التفسير عن الصحابة كما تلقوا عنهم علم السنة ، وإن كانوا قد يتكلمون في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال ، كما يتكلمون في بعض السنن بالاستنباط والاستدلال) .

ولما سئل : فما أحسن طرق التفسير أجاب : (إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن ، فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر ، وما اختصر من مكان فقد بسط في موضع آخر ، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له ، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي : كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، ولهذا قال رسول الله ﷺ: (ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه) يعني السنة ، قال : والسنة أيضاً تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن ، لا أنها تتلى كما يتلىٰ . ثم قال : وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة ، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن ، والأحوال التي اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام ، والعلم الصحيح ، والعمل الصالح ، لاسيما علماؤهم وكبراؤهم ، كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين ، والأئمة المهديين : (مثل عبد الله بن مسعود) قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري : حدثنا أبو كريب ، قال أنبأنا جابر بن نوح ، أنبأنا الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال : قال عبد الله يعني ابن مسعود : والذي لا إله غيره ، ما نزلت آية من كتاب الله

إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت ، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناوله المطايا لأتيته . وقال الأعمش أيضاً عن أبي وائل عن ابن مسعود قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتىٰ يعرف معانيهن والعمل بهن .

قال ومنهم الحبر البحر «عبد الله بن عباس» ابن عم رسول الله ﷺ وترجمان القرآن ، ببركة دعاء رسول الله ﷺ حيث قال: «اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل». وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار ، أنبأنا وكيع ، أنبأنا سفيان عن الأعمش عن مسلم عن مسروق ، قال: قال عبد الله يعني ابن مسعود: نعم ترجمان القرآن ابن عباس. (ثم ذكر رواية أخرىٰ): نعم الترجمان للقرآن ابن عباس . ثم قال: وقد مات ابن مسعود في سنة ثلاث وثلاثين على الصحيح ، وعَمَّر بعده ابن عباس ستاً وثلاثين سنة ، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود؟ وقال الأعمش عن أبي وائل: استخلف عليٌّ عبد الله بن عباس على الموسم فخطب الناس فقرأ في خطبته سورة البقرة ، وفي رواية سورة النور ، ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا . قال: ولهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في تفسيره عن هذين الرجلين: ابن مسعود وابن عباس ، ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب التي أباحها رسول الله ﷺ حيث قال: (بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو ، ولهذا كان عبد الله بن عمرو قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك ، ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد ، فإنها على ثلاثة أقسام:

(أحدها) ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح .

و(الثاني) ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه .

و(الثالث) ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل ، فلا نؤمن به ولا نكذبه وتجوز حكايته لما تقدم) .

قلت: ويشهد لهذا ما روى أبو داود وابن حبان والإمام أحمد بإسناد صحيح عن

ابن أبي نَمْلَةَ الأنصاري عن أبيه قال: كنت عند النبي ﷺ إذ دخل عليه رجل من اليهود فقال: يا محمد أتُكلِّم هذه الجنازة؟ فقال النبي ﷺ: الله أعلم. فقال اليهودي: أنا أشهد أنها تكلم. فقال النبي ﷺ: [ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا: آمنا بالله وكتبه ورسله، فإن كان حقاً لم تكذبوهم، وإن كان باطلاً لم تصدقوهم]. ويشهد له ما في الصحيحين: [إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تكذبوهم ولا تصدقوهم ولكن قولوا: آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم][1].

ولكن غالب ما جاء من هذه الإسرائيليات مما لا فائدة منه، فلكم خاضوا في أشياء سكت الله عنها ولو شاء لأعلم الناس بها، وكم سودوا في كتبهم من الأخبار عن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم مما لا يليق بمقام النبوة والوحي والرسالة، فنسبوا لداود عليه السلام التعلق بنساء بعض جنوده حتىٰ دفعه إلى أرض القتال فقتل فتزوج امرأته، ونسبوا لسليمان عليه السلام قصصاً من العشق والغرام مع بلقيس ملكة سبأ، ونسبوا ليوسف صلوات الله وسلامه عليهم حكايات من الحب والمراهقة مع امرأة العزيز وما تأدبوا مع أكرم الخلق والذرية وهو نبي ابن نبي ابن نبيّ، كما خاضوا في أسماء أهل الكهف ولون كلبهم وعدتهم، وخاضوا في عصا موسىٰ من أي الشجر كانت؟ وفي نوع الشجرة التي كلم الله منها موسىٰ عليه السلام إلى غير ذلك مما أبهمه الله في القرآن مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم فضلاً عن أخراهم.

سادساً: التفسير بمعرفة الناسخ والمنسوخ:

ومثال ذلك، ما جاء في صحيح الإمام البخاري عن زيد بن أرقم قال: [كنا نتكلم في الصلاة يكلم أحدنا أخاه في حاجته حتىٰ نزلت هذه الآية ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ فأمرنا بالسكوت][2].

وفي المسند للإمام أحمد وكذلك عند الطبراني ورجاله رجال الصحيح عن ابن

(1) تفسير ابن كثير، سورة البقرة آية 4. تحقيق عبد الرزاق المهدي.

(2) البخاري (4534) ومسلم (539).

عباس في قول الله تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ قال: [كانوا يتكلمون في الصلاة يجيء خادم الرجل إليه فيكلمه بحاجته وهو في الصلاة فنهوا عن الكلام][1].

وكذلك في سورة الأنفال قوله تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ فقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: [لما نزلت ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ﴾ شق ذلك على المسلمين حين فرض ألا يفر واحد من عشرة، فجاء التخفيف فقال: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ﴾][2].

سابعاً: التفسير بالسياق والسباق:

فقوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ ليس المقصود بالسلطان العلم كما زعم بعض المعاصرين ووجهوا الآية إلى الاكتشافات العلمية الحديثة، وظنوا أن الإنسان اخترق بها أقطار السماوات والأرض! ولا أدري إلى أين يخترقها؟ بل ما زال هو وعلومه التي فرح بها ضمن أقطار السماوات والأرض التي يحكمها الله عز وجل ويهيمن عليها.

وسبب هذا التجرؤ على التفسير الجهل بعلوم القرآن وبيانه ومنهج التأويل الذي ارتضاه الله لكتابه ومضى عليه نبيه ﷺ وأصحابه والتابعون لهم بإحسان.

والباحث في القرآن في سورة الرحمن يجد أن هذه الآية جزءٌ من سياق آيات تتحدث عن ما بعد الموت ومشهد الحشر وأهوال القيامة، فهي تبدأ من قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ إلى أن يقول سبحانه ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾. فهو خطاب تحد من الله يعقبه قوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾. وكأنه يقول لهم سبحانه وقد اجتمعوا إليه في أرض المحشر: اهربوا الآن إن استطعتم ولكن أين المفر: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾. ثم قال: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ

---

(1) انظر المسند (415/1) وابن حبان (2243) بألفاظ متقاربة تشهد للمعنى.

(2) الصحيح المسند من أسباب النزول. مقبل الوادعي، سورة الأنفال آية (65).

﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ . قال : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْئَلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن : 26-45].

قال الحافظ ابن كثير عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ . قال : (أي لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره ، بل هو محيط بكم ، لا تقدرون على التخلص من حكمه ، ولا النفوذ عن حكمه فيكم ، أينما ذهبتم أحيط بكم . وهذا في مقام المحشر ، الملائكة مُحْدِقَةٌ بالخلائق ، سبع صفوف من كل جانب ، فلا يقدر أحد على الذهاب ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي : إلا بأمر الله) . وقال ابن عباس : (الشواظ هو لهب النار) . وقال مجاهد : (النحاس : الصفر ، يُذاب فَيُصَبُّ على رؤوسهم) . فيكون المعنىٰ : لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار والنحاس المُذاب عليكم لترجعوا ، ولهذا قال : ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ .

ثامناً : التفسير باللغة العربية :

فالقرآن كلام عربي أنزله الله بلغة العرب ، فإن تعذر فهم كلمة أو آية وفق قواعد المنهج السابقة فيستأنس بفهم العرب لجذور هذه الكلمة ولمفهوم البيان المراد .

فقوله تعالى في سورة النور : ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ فإن الإِرْب والإربة في لغة العرب الحاجة ، فيكون المعنىٰ : غير أصحاب الحاجة إلى النساء والقدرة على ملا مستهن . قال سعيد بن جبير : (هو المعتوه) .

وقوله تعالىٰ في سورة الأحقاف : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ قال أهل اللغة : (والعارض : السحاب يعترض في الأفق . وقوله ممطرنا : أي مُمْطِرٌ لنا لأنه معرفة لا يجوز أن يكون صفة لعارضٍ وهو نكرة) .

وقوله تعالى في سورة الأحزاب : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ما مفهوم كان هنا هل هي للماضي فلا يكون غفوراً رحيماً الآن؟ !

قال أهل اللغة : (كان لها حالات مختلفة منها :

أ ـ ناقصة : وتحتاج إلى خبر .

ب ـ تامة : بمعنىٰ حدث ووقع ولا تحتاج إلى خبر ، كقولك : أنا أعرِفه مُذ كان : أي مذ خُلق ، وكقولك : ما شاء الله كان .

جـ ـ وقد تقع زائدة للتأكيد كقولك : كان زيد منطلقاً ومعناه زيدٌ منطلقٌ ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾) .

وكذلك قوله تعالىٰ في سورة الفتح : ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

فقال سبحانه «عليهُ» بالضم وليس (عليهِ) بالكسر .

وقد سألت والدي عنها يوماً ـ وهو من أعمدة الاختصاص بالنحو والصرف في هذا الزمان ـ فقال لي : (الياء في (عليه) عند النحويين حاجز غير حصين ، أي يحفظ حركة اللام ، لتضم الهاء بعدها ، نحو (كتابَهُ) فاعتبروا الياء غير موجودة. ثم إن لفظ (عليه) في الآية حين تصبح (عليهِ الله) لفظ رقيق ، أما (عليهُ الله) ففيه تفخيم للفظ الجلالة ، فهي عملية نغمية إيقاعية ترتيلية ، وهي وإن كان لغة يجوز (عليهِ) بالكسر ، لكن هنا جاءت للتفخيم وإظهار قوة العهد مع الله سبحانه فلا يجوز مخالفة قراءتها إلى اللغة) .

وأما ترك هذا المنهج في التفسير واللجوء إلى شاذ اللغة من بين الأوجه الكثيرة ، أو اللجوء إلى العقل وما يتصور من تصورات كبيرة أو صغيرة ، أو التفسير بالفلسفة وما فيها من خيالات وشطحات خطيرة ، فهو منهج الدمار الذي لحق بالمسلمين ، وهو منهج التفلت والخضوع للأهواء والشهوات ليأتي التفسير بذلك تخبطاً وليفرز إلى واقع الحياة إسلاماً لا تكاليف فيه ، وديناً متماشياً مع مغريات الحياة والاختلاط وتفلت الناس من كل قيد ، وتحكيم الشهوات والملذات غير المنضبطة عن طريق طرح الشبهات والكلام في القرآن بغير علم ، وما زالت الأمة تدفع الثمن إلى يومنا هذا بسبب محاولة عزل منهج النبوة عن واقع الحياة .

وقد ذهب الإمام الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أئمة الحديث إلى أن علم الجدل والكلام بدعة وحرام ، محتجين بقوله عليه السلام الذي رواه مسلم عن ابن مسعود : [هلك المتنطعون] أي المتعمقون بالبحث والاستقصاء دون

منهج ومثل أعلى . وكلما بعد العهد ، ظهرت البدع وكثر التحريف الذي سمّوه تأويلاً ليُقبل منهم ، وقل من يهتدي للفرق بين التحريف والتأويل ، وهنا راج الفساد . وقد بدأ التخلف في الأمة يوم أصغىٰ بعض المسلمين إلى شبه المبطلين وخاضوا في الكلام المذموم الذي حذّر منه وعابه السلف ونهوا عن النظر فيه والاشتغال به وبعلومه أو الإصغاء إليه امتثالاً لأمر ربهم جل ثناؤه في سورة الأنعام: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ فإن معنىٰ الآية يشملهم .

وإنما الواجب على الأمة وعلمائها وقادتها ، العلم بما جاء به النبي ﷺ فهو كاف وكامل ، ويدخل فيه كل حق ولا تنقصه حكمة ولا فائدة ولا وجه من وجوه الخير ، وإنما وقع التقصير من كثير من المنتسبين إليه فلم يعلم ما جاء به رسول الله ﷺ في كثير من الأمور الغيبية والإيمانية ، ولا في كثير من المسائل العبادية ، ولا في كثير من مسائل الإمارة والحكم بالشريعة في مختلف الأحوال السياسية ، ولم يخصصوا الوقت لذلك لفهم المنهج الذي حفظه الله في معرفة دلالات وتفاسير آياته القرآنية والنصوص النبوية ، بل فُتِنوا بالأجنبي وفنونه كما فتنت الأمة اليوم به ، وأصبحت خجلة من دينها وأصولها ، يحاول أبناؤها تطعيم الإسلام وأصوله وأحكامه بمستجدات الواقع الفاسد وانحرافه يريدون ألا يشعروا بالغربة ، ولسان حالهم يقول: إن الإسلام يتسع لكل الفنون ولكل ألوان الحضارة ، وليتهم فرقوا بذلك بين ما يرضي الله وبين ما يسخطه ، فإذا ظهر في الحياة ما يخدم الإسلام ومستقبله رحبّ به الشرع طالما كان سبيله مشروعاً ، وإذا ظهر من الصرعات والموضات ما تخدم الشيطان و أهواء أتباعه أغلق الإسلام عليه بابه تعففاً وترفعاً ، فإن الطهارة لا تشبه النجاسة .

فعن أبي يوسف رحمه الله أنه قال لبشر المريسي الفقيه المعتزلي المبتدع: (العلم بالكلام هو الجهل ، والجهل بالكلام هو العلم ، وإذا صار الرجل رأساً في الكلام قيل زنديق ، أو رمي بالزندقة) .

وكان أبو يوسف رحمه الله أيضاً يقول: (من طلب الدين بالكلام تزندق ، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس ، ومن طلب غريب الحديث كذب) .

وقد صح الخبر عن الإمام الشافعي رحمه الله أنه كان يقول: (حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام.

وقال: لقد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننت مسلماً يقوله، ولأن يبتلىٰ العبد بكل ما نهى الله عنه ـ ما خلا الشرك بالله ـ خيرٌ له من أن يبتلىٰ بالكلام)[1]. وقال:

كل العلوم سوى القرآن مشغلة ... إلا الحديث وإلا الفقه في الدين
العلم ما كان فيه قال حدثنا ... وماسوى ذلك وسواس الشياطين

وقال آخر:

أيها المغتدي ليطلب علماً ... كل علم عبدٌ لعلم الرسول
تطلب الفرع كي تصحح أصلاً ... كيف أغفلت علم أصل الأصول

وقال آخر:

العلم قال الله قال رسوله ... قال الصحابة ليس بالتمويه
ما العلم نصبك للخلاف سفاهة ... بين الحديث وبين قول فقيه

وقال آخر:

وقدم أحاديث الرسول ونصّه ... على كل قول قد أتىٰ بإزائه
فإن جاء رأي للحديث معارض ... فللرأي فاطرح واسترح من عنائه
فهل مع وجود البحر يكفي تيمم ... لمن ليس معذوراً لدى فقهائه
وهل يوقِدُ الناس المصابيح للضيا ... إذا ما أتىٰ ردؤ الضحىٰ بضيائه
سلامي على أهل الحديث فإنهم ... مصابيح علم بل نجوم سمائه
ومن يكن الوحي المطهر عِلمُهُ ... فلا ريب في توفيقه واهتدائه
فما يستوي تالي الحديث ومن تلا ... زخارف من أهوائه وهذائه

قال شارح الطحاوية رحمه الله: (ونبينا ﷺ أوتي فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه، فبعث بالعلوم الكلية والعلوم الأولوية والأخروية على أتم الوجوه،

---

(1) قد مضىٰ تخريجه في شرح الطحاوية.

ولكن كلما ابتدع شخص بدعة اتسعوا في جوابها ، فلذلك صار كلام المتأخرين كثيراً ، قليلَ البركة ، بخلاف كلام المتقدمين ، فإنه قليل كثيرُ البركة ، لا كما يقوله ضُلال المتكلمين وجهلتهم: إن طريقة القوم أسلم وإن طريقتنا أحكم وأعلم! ولا كما يقوله من لم يقدرهم من المنتسبين إلى الفقه: إنهم لم يتفرغوا لاستنباط الفقه وضبط قواعده وأحكامه اشتغالاً منهم بغيره! والمتأخرون تفرغوا لذلك فهم أفقه.

فكل هؤلاء محجوبون عن معرفة مقادير السلف ، وعمق علومهم ، وقلة تكلفهم ، وكمال بصائرهم ، وتالله ما امتاز عنهم المتأخرون إلا بالتكلف والاشتغال بالأطراف التي كانت همة القوم مراعاة أصولها ، وضبط قواعدها ، وشد معاقدها ، وهممهم مشمرة إلى المطالب العالية في كل شيء ، فالمتأخرون في شأن ، والقوم في شأن آخر ، وقد جعل الله لكل شيء قدراً).

ولقد أجاد الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي المتوفىٰ سنة (321 هـ) حين كتب للأمة أصول دينها فتلقت ذلك عنه بالقبول والتقدير ، كما قال السبكي رحمه الله: (جمهور المذاهب الأربعة على الحق يقرون عقيدة الطحاوي التي تلقاها العلماء سلفاً وخلفاً بالقبول). فكان فيما كتبه أبو جعفر قوله: (ولا يثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام ، فمن رام عِلْمَ ما حُظِرَ عليه ولم يقنع بالتسليم فَهْمُه ، حَجَبَهُ مرامه عن خالص التوحيد وصافي المعرفة وصحيح الإيمان ، فيتذبذب بين الكفر والإيمان ، والتكذيب والإقرار والإنكار موسوساً تائهاً ، زائغاً شاكاً ، لا مؤمناً مصدقاً ولا جاحداً مكذباً).

قلت: وهو كلام نافع جامع ، فيه بيان أنه لا يثبت إسلام من لا يسِّلم لنصوص الوحْيين ، وينقاد إليها ، ولا يعترض عليها برأيه أو بعقله أو بقياسه أو بفلسفته وخياله.

فقد قال الله جل ثناؤه في سورة المائدة: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾. وقال في سورة إبراهيم: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾. وقال في سورة يوسف: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى

﴿وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. وقال في سورة النحل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

ثم فيه تحذير أن يُتكلَّم في أصول الدين بغير حجة وعلم، وتحذير أن يُفسَّر الوحي بالرأي والعقل دون البحث عن المعنىٰ من ينابيعه وأصوله وأسباب نزوله وما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه وأتباعه. فقد قال الله في سورة الإسراء ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾، وقال في سورة الحج: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾، وقال فيها أيضاً: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾. وقال في سورة القصص: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وقال في سورة النجم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

ولقد كان أصحاب النبي ﷺ يخافون أن يتكلموا في التفسير أوالحديث تذكراً منهم لما توعّد النبي ﷺ من قال عليه مالم يقل، فتراهم يمسكون عن النقل والتحديث والتفسير تاركين غيرهم أن يتصدىٰ لذلك من أعلام الصحابة ورؤوسهم وعلمائهم، وقد بّوب الإمام البخاري في صحيحه باباً في ذلك سماه (باب إثم من كذب على النبي ﷺ) وأورد فيه آثاراً عظيمة منها:

ما جاء عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال: [قلت للزبير: إني لا أسمعك تُحدِّث عن رسول الله ﷺ كما يحدِّث فلان وفلان؟ قال: أما إني لم أفارقه ولكن سمِعْتُه يقول: مَنْ كَذَبَ عليَّ فليتبوأ مقعدَه من النار][1].

ثم ذكر قول أنس رضي الله عنه: [إنه ليمنعني أن أحدِّثكم حديثاً كثيراً أن النبي ﷺ قال: من تعمّد عليَّ كذباً فليتبوأ مقعده من النار][1].

وذكر عن سلمة بن الأكوع قال: سمعت النبي ﷺ يقول: [من يَقُل علي مالم أقُلْ فليتبوأ مقعدَه من النار][1].

---

(1) صحيح البخاري (باب: إثم من كذب على النبي ﷺ).

وكذلك أفرد ابن ماجه في سننه باباً سماه «باب التوقي في الحديث عن رسول الله ﷺ» فذكر فيه آثاراً عن أئمة الصحابة والتابعين وورعهم وخوفهم من الإقدام على الحديث والتفسير والفتيا. فروى عن عمرو بن ميمون قال: (ما أخطأني ابن مسعود عشيـة خميس إلا أتيته فيـه . قال: فما سمعته يقول بشيء قط قال رسول الله ﷺ . فلما كان ذات عشيـة قال: قال رسول الله ﷺ. قال: فنكس. قال: فنظرت إليه فهو قائم مُحللة أزرارُ قميصه ، قد اغرورقت عيناه ، وانتفخت أوداجُه ، قال: أو دون ذلك أو فوق ذلك ، أو قريباً من ذلك أو شبيهاً بذلك][1] .

وروى عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ قال: [قلنا لزيد بن أرقم: حدثنا عن رسول الله ﷺ . قال: كبرنا ونسينا والحديث عن رسول الله ﷺ شديد][2] .

ثم ذكر عن ابن عباس قوله: [إنا كنا نحفظ الحديث ، والحديث يُحْفَظ عن رسول الله ﷺ ، فأما إذا ركبتم الصعبَ والذلول فهيهات][2] .

والمراد بقول ابن عباس (نحفظ الحديث) أي نأخذه عن الناس فنحفظه اعتماداً على صدقهم . وهو حقيقٌ بأن يعتنىٰ به ، وهو قوله ، (والحديث يحفظ عن رسول الله ﷺ) . فأما وقد انتشر التفريط والإفراط في النقل وما بقي بين الناس من يعتمد عليهم في نقلهم فهيهات أن يؤخذ من هؤلاء أو يعتمد على حفظهم .

وذكر تحت باب (اجتناب البدع والجدل) حديثا عن عائشة قالت: [تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فقال: يا عائشة! إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عناهم الله فاحذروهم][3] .

ولذلك خاف الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ضياع العلم والتفسير

(1) صحيح ابن ماجه . تحقيق الألباني . (باب التوقي في الحديث عن رسول الله ﷺ) .
(2) المرجع السابق .
(3) صحيح ابن ماجه . تحقيق الألباني (باب اجتناب البدع والجدل) .

والحديث فكتب إلى أبي بكر بن حزم كما روى البخاري يقول له: [انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإني خفتُ دروس العلم وذهاب العلماء، ولا يُقْبل إلا حديث النبي ﷺ، وليُفْشُوا العلمَ، ولْيَجْلِسُوا حتى يُعَلَّمَ من لا يعلمُ، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرّاً](1).

فهذه كانت صفات علماء الأمة في زمن النبوة، وفي زمن القرن الذي تلاهم، وإنما دخل الفساد في الأمة كما دخل في الأمم التي قبلها من ثلاث فرق كما قال عبد الله بن المبارك:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدينَ إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها

قال شارح الطحاوية ما ملخصه: (فالملوك الجائرة يعترضون على الشريعة بالسياسات الجائرة ويقدمونها على حكم الله ورسوله. وأحبار السوء وهم العلماء الخارجون عن الشريعة بآرائهم وأقيستِهم الفاسدة المتضمنة تحليل ما حرم الله ورسوله وتحريمُ ما أباحه، واعتبارُ ما ألغاه، وإلغاء ما اعتبره، وإطلاق ما قيده وتقييد ما أطلقه. والرهبان وهم جهال المتصوفة المعترضون على حقائق الإيمان والشرع بالأذواق والمواجيد والخيالات والكشوفات الباطلة الشيطانية المتضمنة شرع دين لم يأذن به الله، وإبطال دينه الذي شرعه على لسان محمد ﷺ، والتعوض عن حقائق الإيمان بجذع الشيطان وحظوظ النفس.

فقال الأولون: إذا تعارضت السياسة والشرع قدمنا السياسة. وقال الآخرون: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل. وقال أصحاب الذوق: إذا تعارض الذوق والكشف وظاهرُ الشرع قدمنا الذوق والكشف).

وإنما السبيل سبيل المؤمنين وهم الموصوفون بهذا اللفظ في كتاب الله، أصحاب نبيه ﷺ، فإن العلم ما علموه، وإن التفسير ما فسروه، وإن الفهم ما فهموه، وإن التأويل ما تأولوه، وإن الخير ما جمعوه، وقد قرّر الله ذلك في سورة النساء بقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ

---

(1) صحيح البخاري (باب كيف يقبض العلم).

ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ . فمن قال برأيه وذوقه وخياله وسياسته مع وجود النص ، أو عارض النص ونحّاه ليقول بالمعقول وما تعارف عليه عامة الناس ، فقد ضاهىٰ إبليس حيث لم يسلم لأمر ربه ، بل قال ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ . فإن التحاكم عند الاختلاف في الفهم يكون بالرجوع لكتاب الله وتفسيره بتفسير من رضي الله عنهم ورضوا عنه ، فقد فسّروه بآيات من الكتاب نفسه أو بالوحي الثاني وهو سنة نبيهم صلوات الله وسلامه عليه وسيرته وأقواله وأفعاله . كما قال جل ثناؤه في سورة النساء : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ . وكما قال سبحانه في سورة آل عمران : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . وكما قال جل وعز في سورة النساء : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ . وبقوله أيضاً فيها . ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ .

قال الضحاك في قوله : ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ ﴾ قال : إثماً ، ﴿ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ ، يقول : (ويسلموا لقضائك وحكمك ، إذعاناً منهم بالطاعة ، وإقراراً لك بالنبوة تسليماً) .

وقال ابن جرير رحمه الله : (يقول : لا يجدوا في أنفسهم ضيقاً مما قضيت ، ثم لا تحرَج أنفسهم مما قضيت ، أي : لا تأثم بإنكارها ما قضيتَ ، وشكّها في طاعتك ، وأن الذي قضيت به بينهم حق لا يجوز لهم خلافه) .

وهاهم قادة الكلام وأساتذة الفلسفة والرأي ونجوم علومها وفنونها ، أغرقوا في مصطلحاتها وقوالبها ، فما حصدوا في قلوبهم في نهاية المطاف إلا قسوة وجموداً ، وقلقاً واضطراباً وشكوكاً ، فندموا على السنين الطويلة التي أنفقوها والأيام والساعات الكثيرة التي ضيعوها ، وقد خلا القلب من رقة القرآن وعبير الحديث والسنة وسكينتها ، وقد مرت الليالي المتعاقبة من هذا العمر القصير لا صلاة ولا قيام ولا قرآن فيها ، لا خشوع ولا بكاء ولا دعاء في جوف أسحارها وظلماتها ، ليجدوا في نهاية العمر واقتراب الأجل نفساً أحكمت بالكبر وحب

الرياسة ونافذ القول في مسائلها ، وحب الظهور والكلام بالرأي والعقليات التي تكثر الآراء والفوضىٰ فيها ، فإذا بالحسرة والندامة تأكل القلب عند معاينة الأجل وقد حَلَّ وقته ونادىٰ منادي الرحيل لمغادرة أراضيها .

فهذا الغزالي قد انتهىٰ إلى الحيرة والوقف في المسائل الكلامية ، فأعرض عن تلك السبل والطرق وأقبل منكباً على أحاديث الرسول ﷺ فمات وصحيح الإمام البخاري على صدره . وهذا الرازي (أبو عبد الله محمد بن عمر) غار في تلك الطرق الموحشة وقضىٰ من حياته فيها زماناً ، وأخذت الفلسفة من عمره عقوداً وأياماً ، وَفَقَدَ الوحي وروعة أثره وتأثيره وعمق حجته وسموه حتىٰ قال في آخر حياته كلاماً وبياناً :

نهاية إقدام العقول عِقال ... وغاية سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذىٰ ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
فكم قد رأينا من رجال ودولة ... فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها ... رجالٌ ، فزالوا والجبال جبال

ثم قال : (لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تُشفي عليلاً ولا تُرْوي غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقةَ القرآن ، أقرأ في الإثبات : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ ، ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ ، وأقرأ في النفي : ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾ ، ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ﴾) .

وهذا الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الشهرستاني أَقَرَّ في آخر العمر أنه ما وجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم . وأخذ ينشد ويقول :

لعمري لقد طفت المعاهد كلها ... وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كفَّ حائر ... على ذَقَن أو قارعاً سنّ نادم

وكذلك أبو المعالي الجويني[1] ، نصح أصحابه في نهاية المطاف فقال : (يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام ، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ

(1) هو إمام الحرمين عالم الشرق أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني الشافعي «418-478» هـ.

ما اشتغلت به) . وقال عند موته: (لقد خضت البحر الخضم ، وخليت أهل الإسلام وعلومهم ، ودخلت في الذي نهوني عنه ، والآن فإن لم يتداركني ربي برحمته ، فالويل لابن الجويني ، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي . أو قال: «على عقيدة عجائز نيسابور») .

وإنما الدواء النافع ، والبلسم الناجع ، لكل من ابتلي بهذه السبل وهذه المحيّرات أن ينزلوا طوعاً لطبيب القلوب محمد ﷺ ، فقد كان إذا قام من الليل افتتح صلاته بهذا الدعاء العظيم ، وهذا الثناء الكريم الذي يَبُثُّ فيه إلى ربه العزيز العليم ، ما أهمّه وأغمه ، فيكشف له سبحانه بمنّه وكرمه طريق الفرج والمخرَج القويم .

فقد روى مسلم في صحيحه ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: سألت عائشة أم المؤمنين بأيِّ شيء كان نبيُّ الله ﷺ يفتَتحُ صلاتَه إذا قام من الليل . قالت: [كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: اللهم ربَّ جبرائيل ومِيكائل وإسرافيل فاطِرَ السماوات والأرض عالِمَ الغيب والشهادة أنت تحكُم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهْدِني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم][1] .

وهو صلوات الله وسلامه عليه يوحىٰ إليه ، والحق يأتي من الله بين يديه ، طيباً سهلاً لا اختلاف فيه ، ومع ذلك فهو يفتتح صلاته بالليل بهذا الدعاء العظيم ، (اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم) ، وذلك لتنتبه الأمة من بعده كيف يفعلون عند الاختلاف ، وكيف يترفعون عن حظوظ النفس والشيطان ويُبْقون على الأخوة والمحبة بينهم والائتلاف ، فيخلصون أولاً في ردّ العلم إلى أهله أهل العلم بالوحيين وفقه الاستنباط والقياس ، ثم يتجردون من حظوظ النفس وما يعرض لها بالإقبال على الله في وقت تنام فيه الناس ، واللجوء إليه في السحر ووقت القيام بركعتين فيها دعاء ورجاء ، وتجرد وإخلاص ووفاء ، (أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم) . فهو خطاب للأمة على لسان نبيّها .

---

(1) ورواه أبو داود . انظر صحيح أبي داود (694) .

قال الإمام ابن أبي العز الحنفي شارح الطحاوية: (لقد توسل صلوات الله وسلامه عليه إلى ربه بربوبية جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ليهديه إلى الحق وهو حياة القلوب ، وهؤلاء الثلاثة موكلون بالحياة :

فجبرائيل موكل بالوحي الذي هو سبب حياة القلوب . وميكائيل موكل بالقطر الذي هو سبب حياة الأبدان وسائر الحيوان . وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي هو سبب حياة العالم وعودة الأرواح إلى أجسادها. فالتوسل إلى الله سبحانه بربوبية هذه الأرواح العظيمة الموكلة بالحياة له تأثير عظيم في حصول المطلوب والله المستعان).

واليوم تعود الفلسفة والخيالات لتدخل في منهج الفهم عند المسلمين ، لتفقد الأمة أعز أبنائها وخيرة شبابها صرعى فكر المبطلين ، ولتُجْهِزَ على عقول الشباب وقلوبهم وأفئدتهم تقليداً لمناهج المفسدين . ليشدوا الأمة إلى الخلف مرة ثانية كما شدوها بالأمس لتحتضر ولتعتبر في عداد الميتين.

لقد قرأنا السجلات التي كتبوا فيما ... مضىٰ والأفاعيل التي فعلوا

فما رأينا صلاحاً في أئمتهم ... وما رأيناه في النسل الذي نسلوا

جاؤوا إلينا بعقلانية سقطت ... عمادها سفسطات القول والجدل

فظن أصحابها أن الضلال هدى ... وأن نملتهم في دربها جمل

جاؤوا إلينا بعقلانية سقطت ... عمادها سفسطات القول والجدل

ونحن نشقىٰ بعلمانية يذها ... ممدودة ولها في عصرنا كتل

إذا أخذنا بدعوى كل مبتدع ... فأين يذهب ما جاءت به الرسل

* * *

-18-

ـ الإيمان بالرسل ـ

الحمد لله الذي تفضل على عباده فعرّفهم غاية الخلق وطرق النجاة وسبل السلام ، فأرسل للناس رسلاً يبلغون عنه معنى الأمن في الدنيا والآخرة وزوّدهم لذلك بالحجج والبيان . لقد اصطفاهم لشرف الرسالة وأخذ على الوحي ميثاقهم ، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم ، لما بدّل أكثر الناس عهد الله إليهم ، واجتالتهم الشياطين عن دينهم ، وصرفتهم إلى وسائط تثنيهم عن إفراد التعظيم لربهم ، فبعثهم سبحانه إلى الناس ليَسْتأدوهم ميثاق فطرته ، ويذكِّروهم مَنْسِيَّ نعمته ، وليحتجوا عليهم بإثارة دفائن العقول ، وصرفهم لرؤية آيات المقدرة: من سقف فوقهم مرفوع ، ومهاد تحتهم موضوع ، ومعايش تحييهم ، وأوصاب تُهرمهم ، وأحداث تتابع عليهم ، ليرجعوا إليه في كل صباح ومساء ، وليتحاكموا لشرعه ويُحَكِّموا منهاجه الذي أحب لنفسه وشاء ، وقد ختم فيهم النبوة والرسالة بإمام وقائد الأمم محمد عليه الصلاة والسلام ، بعثه سبحانه على حين فترة من الرسل ، وأهل الأرض يومئذ ملل متفرقة ، وأهواء منتشرة ، فهداهم به من الضلالة ، وأنقذهم بالوحي من الجهالة ، وحكم فيهم بالشرع العظيم الذي لااعوجاج فيه ولا إمالة ، ثم اختار الله لنبيّه لقاءه ، فقبضه إليه كريماً ﷺ وآله ، وخلّف في الأمة العلماء وهم ورثة الأنبياء ، وخصوم أهل البدع والأهواء ، يرفعهم الله فينبلون في الأمة بما رَوَوْا عن الرسول ، وهم المأمونون عليه العدول ، حفظة الدين وخزنته ، وأوعية العلم وحملته ، قال سبحانه ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ .

والإيمان بالرسل هـو الركن الرابـع من أركان الإيمان ، كما جاء فـي صحيح الإمام مسلم من حديث عمـر ، ولفظه : [الإيمان أن تؤمـن بالله وملائكتـه وكتبـه

ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره][1].

ورواه البيهقي بلفظ آخر: [الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه وبلقائه وبرسله وتؤمن بالبعث الآخر][1].

الحكمة من إرسال الرسل:

1 ـ تعريف الناس بربهم وخالقهم، ودعوتهم إلى إفراده سبحانه بالعبادة والكفر بما يعبد من دونه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[2] [النحل: 36].

وقال سبحانه: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: 45].

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25].

2 ـ إقامة الدين والحفاظ عليه والنهي عن التفرق فيه والحكم بما أنزل الله.

قال تعالىٰ: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورىٰ: 13].

وقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: 105].

3 ـ تبشير المؤمنين بجنات النعيم، والكافرين بعذاب الجحيم، وإسقاط عذر المعتذرين. قال تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 165].

4 ـ إعطاء المثل الأعلى للناس والأسوة الحسنة في العبادة الصحيحة والسلوك القويم، والأخلاق الفاضلة، والاستقامة على الهدىٰ.

---

(1) قد مضىٰ تخريجه.

(2) الطاغوت: كل معبود باطل يعبد من دون الله، وكل داع إلى الضلالة، فالشيطان طاغوت، والشهوات والهوىٰ طاغوت.

قال تعالىٰ ـ في نبينا ـ ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : 21].

5 ـ إنقاذ البشر من الاختلاف في أصول حياتهم ، وهدايتهم إلى الحق الذي يريد خالقهم.

قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل : 64].

6 ـ بيان الأعمال الصالحة التي تزكي النفس وتطهرها وتغرس فيها الخير.

قال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : 2].

صفات الرسل :

1 ـ سمّو الفطرة.

2 ـ صحة العقل.

3 ـ الصدق في القول.

4 ـ الأمانة في التبليغ.

5 ـ العصمة من كل ما يشوِّه السيرة البشرية.

6 ـ سلامة البدن مما تنْبو عنه الأبصار وتَنْفُرُ منه الأذواق السليمة.

7 ـ قوة الروح فلا تستطيع نفس إنسانية أو جنية السيطرة عليه بسَطْوة روحية.

8 ـ الاعتزاز بالوحي والجرأة في امتثال الحق وتحدي الكفار المعاندين.

9 ـ الشجاعة والإقدام في الحروب.

10 ـ الصبر على لأواء الدعوة وآلام الطريق.

وإنما لزِمَتْ هذه الصفات للرسل ـ كما دلَّ عليها الكتاب والسنة ـ لأنه لو انحّطت فِطرْتهم عن فِطرة خير أهل زمانهم ، أو مَسَّ عُقولَهم شيء من الضعف ، أو تضاءلت أرواحُهم لسلطانِ نفوس أخرىٰ ، أو ضعفت نفوسهم وإراداتهم عن تنفيذ أوامر الله ونواهيه والتزام طاعته ، لما كانوا أهلاً لهذا الاختصاص الإلهي.

أما فيما عـدا ذلك فالرسول بشر يعتريـه ما يعتري سائِـرَ أفـراد هذا النـوع من المخلوقات ، فهو يأكل ، ويشرب ، وينام ، وينكِحُ ، ويَمْرَض ، وقد ينسى فيما لا علاقـة لـه بتبليغ ما أمره الله بتبليغـه ، وقد يخطىء فـي تصريف بعض الأمـور الإنسانية التي تدخل في باب الاجتهاد المأذون به ، ولكنه يُنَبَّهُ للخطأ عن طريق الوحي حتىٰ لا يكون الخطأ (بمقتضى وجوب التأسِّي به) هو الصواب ، وقد تمتد إليـه أيدي الظلمـة ، وينالُـهُ الاضطهاد والتعذيب وقد يُقتـل منهم من لم يؤمَـرْ بالجهاد[1] .

الرسل السابقون:

منهم من قصّه الله علينا ، فذكرهم بأسمائهم ، ومنهم مَنْ لم يَقصُصْه علينا ، قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: 164] ، فنؤمن بجميعهم تفصيلاً فيما فصّل الله ، وإجمالاً فيما أجْمَلَ .

فأما الذين قصّهم الله علينا فهم المذكورون في قوله تعالىٰ : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: 83-86] .

وفـي قولـه : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: 33] .

وفي قوله : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ ﴾ [هود: 50] .

وفي قوله : ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنبياء: 85] . وقال : ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ ﴾ [هود: 61] .

---

(1) انظر «كتاب الإيمان» قسم التوجيه والتربية الدينية . اليمن/ ط 1982 . ص 176-177 .

وقال: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: 40].

هؤلاء الرسل أرسلهم الله إلى الأمم في جميع العصور المتطاولة فلم تَخْلُ أمّةٌ من رسول يدعوها إلى الله ويرشِدُها إلى الحق، يقول سبحانه: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [النحل: 63]، ويقول سبحانه: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: 24]، وقال: ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد: 7].

منهج الرسل:

لقد اشترك الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين في منهج واحد، ودعوا إلى دين واحد، وهو دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده، وسيسألهم عنه يوم يقفون بين يديه أتحاكموا إليه وجاهدوا في الله حق جهاده، أم انتكسوا واستذلهم الشيطان بأهوائه وعناده، فوحدة المنهج هي من وحدة الوحي ومن وحدة مشكاة الحق والعلم. قال الله في سورة النساء: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: 163-166].

وقال جل ذكره في سورة الحديد: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾. ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾.

فعطف الله سبحانه ذكر بعضهم على بعض، فكُلُّهم قد اصطفاهم من خيرة

خلقه ، أمناء على وحيه ، وجعلهم رسلاً وأنبياء يستقون من مشكاة واحدة ، ومن نبع واحد ، ويدعون لعبادة الله الواحد .

فقد أخرج الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [أنا أولى الناس بعيسىٰ بن مريم في الدنيا والآخرة ، ليس بيني وبينه نبي ، والأنبياء أولادُ علّات (وفي رواية: الأنبياء إخوة من علات) أمهاتهم شتىٰ ودينهم واحد](1) .

وبنو العلات هم أولاد الرجل الواحد من نساءٍ شتىٰ ، لذلك أمرنا نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه بالصلاة عليهم كما نصلي عليه ، فقد روى البيهقي في شعب الإيمان بإسناد حسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [صلوا على أنبياء الله ورُسله ، فإن الله بعثهم كما بعثني](2) .

وله شاهد عن ابن عساكر بسند حسن عن وائل بن حجر ولفظه: [صلوا على النبيين إذا ذكرتموني ، فإنهم قد بُعِثوا كما بُعثت](3) .

فربط صلوات الله وسلامه عليه منهاجه بمنهاجهم ، وأمرنا بالصلاة عليهم كلما ذكرناه وصلينا عليه ، فإنهم قد بعثوا جميعاً بدين واحد ومنهج واحد ، وقد قال الله له آمراً إياه بالاقتداء والسير على طريقهم بقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ فصلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

لقد جمع القرآن الكريم معالم وحدة المنهج في حياة الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين ، ومعالم منهج التغيير الإلهي الذي ساروا عليه واغتربوا من أجله وصبروا على لأوائِه حتى جاءهم النصر والتمكين من عند الله . وإن الناظر والباحث في القرآن الكريم وفي هدي خير المرسلين يمكنه رؤية هذه المراحل الخمس التي تشكل هذا المنهج .

المرحلة الأولى: مرحلة البلاغ المبين ، وإقامة الحجة على الناس ، حجة الحق وحجة الوحي وحجة النور الإلهي المبين .

---

(1) قد مضى تخريجه .
(2) حسن . تخريج فضل الصلاة 42 وصحيح الجامع (3676) .
(3) صحيح الجامع (3675) .

المرحلة الثانية: مرحلة المفاصلة بعد استهزاء الملإِ الكافر ، والترفع بالحق والصبر عليه ، وهنا يحصل الابتلاء .

المرحلة الثالثة: مرحلة الإعداد وبناء الجماعة المؤمنة ، وقد اشتمل الإعدادُ: الإعداد الروحي الإيماني ، والإعداد العقلي ، والإعداد النفسي ، والإعداد الجسدي ، والإعداد الحركي الواقعي ، وقد يُحتاج إلى الهجرة .

المرحلة الرابعة: مرحلة اللقـاء ، الذي يفصل الله فيه في يوم من أيامـه ، بين أوليائه وبين أعدائه ، عند اكتمال بناء جماعة الحق واستحقاقها النصر ورضا الله عن حالها وبنائها ودينها .

المرحلة الخامسة: مرحلة الاستخلاف والتمكين ، وحماية النصر وحراسة الدين ، والحكم بمنهج الوحي .

ونستعين بالله مفصلين ، في هذا المنهج العظيم ، الذي اختاره الله للأنبياء والمرسلين ، ونبدأ بالمرحلة الأولى :

أولاً: مرحلة البلاغ المبين ، وإقامة الحجة على الناس :

فلقد تلخصت دعوة المرسلين ، إلى إفراد الله بالعبادة والتعظيم ، فخاطبوا أقوامهم :

ـ ليس هناك شركاء ولا شفعاء ولا وسطاء ، ومن حق كل امرىء أن يهرع إلى ربه عز وجل ، وأن ينكر من أقاموا أنفسهم أو أقيموا من غيرهم زلفىٰ إلى الله من البشر والحجارة .

ـ وإذا كُنتم تُقرّون بأنه الخالق ، فلم تخضعون لغيره .

ـ وإذا كنتم تُقرّون بأنه المحيي والمميت ، فلم تنكرون البعث والحشر بأمره .

ـ وإذا كنتم تُقرّون بأنه الرازق ، فلم تسألون حجراً أو قبراً أو صالحاً مضىٰ ، لا يملك لنفسه حياة ولا نشوراً .

ـ وإذا كنتم تُقِرّون بأنه الممطر أرضكم ، المخصب زرعكم ، فلم تشكرون غيره .

ـ وإذا كنتم تقرّون بأنه وحدَه يُلجأ إليه في الشدائد والنائبات والكرب ، فلم تسجدون لغيره ، ولم تستغيثون بغيره ، ولم تنافقون لبشر من خلقه ، ولم تحتكمون لغير شرعه ولغير منهاجه .

فاحتج الأنبياء والرسل على أقوامهم بإقرارهم بالربوبية ، لماذا لم يفردوه سبحانه بالألوهية ، ثم لماذا لم ينزهوه في صفاته سبحانه وأسمائه؟! فوصف الأنبياء والرسل لأقوامهم رَبَّهم جل ثناؤه كما وصف هو نفسه سبحانه من غير تمثيل ولا تأويل ولا تعطيل: فهو الله سبحانه فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه ، ليس في ذاته شيء من مخلوقاته ، كلا ولا في مخلوقاته شيء من ذاته ، بل هو معنا بسمعه وبصره وعلمه ، له وجه ونفس ويد وعين وسمع كما يليق بجلاله وبجماله وبكماله وكل شيء ليس كمثله ، وهو الغني لا يفتقر إلى شيء من خلقه ، بل هو الحامل للعرش ولحملة عرشه ، وإنما ذكر العرش في القرآن لأنه أعظم مخلوقاته. قول النبي ﷺ رواه ابن أبي شيبة بإسناد صحيح من حديث أبي ذر: [ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة](1) .

فقد وسع كرسيه السماوات والأرض بهذه الأبعاد العظيمة والحجوم الكبيرة ، ليعجز العقل عن تخيل بعض مخلوقات الله سبحانه فكيف له عندئذ أن يفكر ويتخيل الخالق بعقله؟ كلا لقد عجز العقل أن يحيط بخالقه علماً ورؤية ، وبصفاته تصوّراً وكيفية ، كما قال جل ثناؤه في سورة البقرة: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: 255].

فسلّم الله سبحانه على المرسلين ، في القرآن العظيم ، لسلامة ما وصفوه من العيوب والنقائص ، بعد أن عاب على أقوامهم سوءَ أدبهم مع ربهم ، ثم حمد نفسَهُ سبحانه على تفرده بأوصاف الكمال والجمال ، فقال جل ثناؤه:

---

(1) قد مضى تخريجه.

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: 180 - 182].

قلت: وربما لم يحتج المسلمون خلال القرون الماضية لمعرفة دقائق هذا المنهج الإلهي في التغيير مثل حاجتهم إليه اليوم، فقد كان الإسلام محكماً في حياتهم، مع الفوارق بين عصر وعصر، وزمن وزمن، ومع احتمالات الضعف أو القوة بين حين وآخر، إلا أن محاور الإسلام كانت قائمة والأمة بمجموعها تحت ظلالِ هذا المنهج، وجيوش المسلمين ترابط على الثغور والجبال، تحمي البلاد ودين العباد، والفتوحات تشتد بين آونة وأخرىٰ، أو تضعف فيدفع المسلمون ثمن التهاون في أمر الجهاد والإقبال على الدنيا غَالياً ومضاعفاً، حتى يعودوا لإقامة الدين وحياة الجهاد.

ولكن والحال اليوم هذا، وقد غاب الإسلام عن منهج الحياة واستُبدل بمناهج أرضية لا تزيد الأمة إلا شقاء، ولا ترىٰ فيها إلا ضنك العيش وقلق النفس والخوف على المستقبل، فصار لزاماً على الأمة ممثلة بعلمائها استنتاج بعض قوانين النفس البشرية من آيات القرآن ومنهج الأنبياء وتربية الأمة على ثوابت هذا المنهج، ثم استخلاص حركة التاريخ في المجتمعات وسنن الله في تغييرها وقوانين الدمار والهلاك أو التمكين والنصر والأستاذية في الأرض. وفي التحقيق فإن الأنبياء والرسل قد اشتركوا جميعهم دون استثناء من لدن آدم إلى محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام بنقطة بدء واحدة، حتى إن الألفاظ التي خاطبوا فيها أقوامهم تكاد تكون واحدة لا تتعدىٰ ثلاث جمل: (لا إله إلا الله)، (اتقوا الله وأطيعون)، (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره).

فنوح في قومه: حكىٰ الله عنه في سورة الأعراف فقال جل ثناؤه: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾. وقال في سورة هود: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾. وقال في سورة الشعراء: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾. وقال في سورة المؤمنون: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟

ﵟٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَﵞ . وقال في سورة نوح : ﵟإِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِﵞ . وستشهد الأمة أمة محمدٍ يوم القيامة مع نبيّها على بلاغ نوح صلوات الله وسلامه عليه وصدق جهاده ، بأنه بَلَّغَ دعوة ربه دعوة الحق والتوحيد والإيمان .

فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه والإمام أحمد في مسنده والترمذي في جامعه عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : [يجيء نوحٌ وأمّته ، فيقول الله : هل بلَّغت؟ فيقول : نعم أي ربِّ! فيقول لأمته : هل بَلَّغكم؟ فيقولون : لا ، ما جاء لنا من نبيّ ، فيقول لنوح : من يشهد لك؟ فيقول : محمدٌ وأمته ، وهو قوله تعالى : ﵟوَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِﵞ والوسط : العدل ، فيُدعَون ، فيشهدون له بالبلاغ ، ثم أشهد عليكم][1] .

ثانياً : هود في عاد : فلقد حكى الله عنه جهاده في قومه ، فقال في سورة الأعراف : ﵟ۞وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَﵞ . وقال في سورة هود : ﵟوَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَﵞ . وقال في سورة الشعراء : ﵟكَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٢٣ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٢٤ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٢٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِﵞ . وقال في سورة الأحقاف : ﵟ۞وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖﵞ . وقال في سورة فصلت : ﵟفَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ١٣ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَﵞ .

ثالثاً : صالح في ثمود : فقد قال الله في سورة الأعراف : ﵟوَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞﵞ .

وقال في سورة هود : ﵟ۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ

---

(1) البخاري (286/6) (139/8) ، وأحمد (32/3) . وصحيح الجامع (7890) .

غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ . وقال في سورة الشعراء : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾﴾ . وقال في سورة النمل : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ .

رابعاً : شعيب في مدين : حكى الله عنه في سورة الأعراف بقوله : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ . وقال في سورة هود : ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ . وقال في سورة الشعراء : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ . وقال في سورة العنكبوت : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ .

خامساً : إبراهيم في قومه : فقد دعا إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه قومه لعبادة الله وحده ، وسحق الأوثان والأصنام ، وأعلن براءته منها ، فحكىٰ القرآن عنه ، فقال في سورة مريم : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ . وقال في سورة الأنبياء : ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ . وقال في سورة الشعراء : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ . وقال في سورة الممتحنة : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ . قال في سورة العنكبوت : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ

﴿ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

سادساً: لوط في قومه: فقد دعاهم إلى تقوى الله والترفع عن التردي في ألوان الفاحشة. قال الله في سورة الأعراف: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾. وقال في سورة هود: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾. وقال في سورة الشعراء: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾. وقال في سورة النمل: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

سابعاً: إلياس في قومه: حكى الله سبحانه عنه في سورة الصافات: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ .

ولقد وصل الله منهج الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم في أكثر من آية، ليظهر بذلك سبحانه وحدة المنهج ووحدة السبيل ووحدة النبع الذي شربوا منه، ووحدة معالم الطريق. قال سبحانه في سورة النحل: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾. وقال في سورة الأنبياء: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ .

ثامناً: خاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ.

لقد سار النبي عليه الصلاة والسلام على منهج إخوته الأنبياء السابقين، فدعا

إلى ما دعوا إليه ، ونادى في قومه أن اعبدوا الله وحده ، واجتنبوا الطاغوت وكل ما يعبد من دونه. فقال الله يحكي عنه في القرآن في سورة هود: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾. وقال في سورة فصلت: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾. وقال في سورة الإسراء: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾. وقال في سورة الزخرف: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾. وقال في سورة محمد: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾.

وكانت كلمة (لا إله إلا الله) هي التي دعا لها مجتمع مكة خاصة والعرب عامة. وأخبرهم أن أسباب القوة في الدنيا منوط بالقيام بها وبلوازمها ، وأن أسباب النجاة في الآخرة بناء على العمل بمقتضياتها.

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه والإمام أحمد في مسنده عن قبيصة بن المخارق وزهير بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قام يوماً فنادى: [يا بني عبد مناف! يا بني عبد مناف! إني نذير ، إنما مثَلي ومَثَلكم ، كمثل رجل رأى العدوَّ ، فانطلق يريد أهله ، فخشي أن يسبقوه إلى أهله ، فجعل يهتِفُ: يا صباحاه ، يا صباحاه! أتِيتم أُتيتم][1].

وفي الصحيحين عن ابن عباس أن النبي ﷺ صعد الصفا فجعل ينادي: [يا بني فِهْر! يا بني عديّ! يا بني عبد منافٍ! يا بني عبد المطّلب! أرأيتكم لو أخبرتُكم أنّ خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم ، أكُنتم مصدقيَّ؟ قالوا: ما جربنا عليك إلا صدقاً ، قال: فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد][2].

(1) صحيح الجامع (7778).

(2) صحيح الجامع (7779).

وله شاهد عند الإمام مسلم من حديث أبي هريرة ولفظه : [يا بني كعب بن لُؤيّ! أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني مُرَّة بن كعب! أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد شمس! أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد مناف! أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد المطلب! أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة! أنقذي نفسك من النار ، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً ، غير أنّ لكم رَحِماً ، سأبُلّها ببلالها][1].

ويروي ابن سعد في الطبقات : [أن وفداً من زعماء قريش قدموا إلى أبي طالب ليلتمسوا إليه أن يكف ابن أخيه فاستدعاه وقال له: يا ابن أخي ، هؤلاء عمومتك وأشراف قومك وقد أرادوا أن ينصفوك. فقال رسول الله ﷺ: قولوا أسمع. قالوا: تدعنا وآلهتنا وندعك وآلهتك. قال أبو طالب: قد أنصفك القوم فاقبل منهم. فقال رسول الله ﷺ: أرأيتم إن أعطيتكم هذه هل أنتم معطي كلمة إن تكلمتم بها ملكتم العرب ودانت لكم العجم؟ فقال أبو جهل: إن هذه كلمة مربحة ، أنعم وأبيك لنقولنها وعشر أمثالها. فقال الرسول ﷺ: قولوا لا إله إلا الله. فاشمأزوا ونفروا منها وغضبوا وقاموا وهم يقولون : اصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد][2].

لقد علم القوم أن (لا إله إلا الله) تعرّيهم وتكشف ما هم عليه في حياتهم من الظلم والاستكبار.

لقد علموا أن (لا إله إلا الله) تحول بينهم وبين استعباد الناس بالقهر والإجبار.

لقد أيقن القوم أن (لا إله إلا الله) تمنعهم من إطلاق شهواتهم وتهددها بالهلاك والدمار.

لقد أدرك القوم أن (لا إله إلا الله) تكشف الأموال الحرام التي عمروا بها قصورهم بالكذب والاستهتار. إذن فليتواصوا فيما بينهم بالصبر على الآلهة المزيفة التي يعبدون ، وإليها يذبحون ويهدون ، ظناً منهم أن هذه الآلهة تمنعهم وتحميهم وتستر عليهم الأموال الحرام التي أكلوها ، أو تغطي على الدماء الحرام التي سفكوها.

---

(1) مختصر صحيح مسلم (98).

(2) طبقات ابن سعد ، (ج1).

لقد بلّغ النبي ﷺ أمته ، كما بلّغ الأنبياء والرسل قبله أممهم بلاغاً مبيناً ، وأوضح لأمته كما أوضحوا لأممهم معنى الأمن في الدنيا والآخرة وسبل النجاة وطرق السلام ، وامتاز صلوات الله وسلامه عليه وأمته عن إخوته الرسل والأنبياء وأممهم بأنه صاحب أمة الشهادة على الناس يوم القيامة ، وصاحب أمة الحجة والإنصاف للرسل من أقوامهم حين يتنكرون لهم ولبلاغهم ولجهادهم ، فيفصل الله بين الأمم وبين رسلهم بشهادة محمد وأمته صلوات الله وسلامه عليه وعلى الأنبياء والرسل أجمعين.

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند والنسائي في السنن وكذلك ابن ماجه عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [يجيء النبيّ يوم القيامة ومعه الرجل ، والنبيُّ ومعه الرجلان ، والنبيّ ومعه الثلاثة ، وأكثر من ذلك ، فيُقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول نعم ، فيُدعىٰ قومه ، فيقال لهم: هل بلّغكم هذا؟ فيقولون: لا ، فيقال له: من يشهدُ لكَ ، فيقول: محمدٌ وأمته ، فيُدعىٰ محمدٌ وأمتُه ، فيقالُ لهم: هل بلَّغَ هذا قومه؟ فيقولون: نعم ، فيُقال: وما عِلْمُكم بذلك؟ فيقولون: جاءَنا نبيُّنا ، فأخبرنا أن الرسل قد بلَّغوا فصدَّقناه ، فذلك قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾] ورواه البخاري(1).

ثانياً: مرحلة المفاصلة بعد استهزاء الملإ الكافر ، والترفع بالحق والصبر عليه وعلى الابتلاء.

فلقد حكىٰ القرآن عن إمام هذه المرحلة في منهج التغيير ، وهو إبراهيم صلوات الله عليه الذي أعلن براءته من شرك قومه ومما هم عليه بعد أن دعاهم وأقام عليهم حجة الله البالغة ، فلما استهزؤوا فاصلهم واعتزلهم ولم يجالسهم ، فمدحه الله في سورة مريم بقوله: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى

(1) انظر صحيح البخاري (286/6) وأحمد (32/2) وصحيح الجامع (7889).

﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ۝٤٦ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ۝٤٧ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ۝٤٨ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ۝٤٩ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ .

فنصح لوالده أن أصغ إلى الوحي تنج ولا تكن للشيطان ولياً. إني أخاف أن تنال عذاب النار كما ينتظر إبليس فإنه كان للرحمان عصيا. قال ابن جرير: (والخوف في هذا الموضع بمعنىٰ العلم، كما الخشية بمعنىٰ العلم في قوله ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾) فيكون المعنىٰ: يا أبت إني أعلم أنك إن متّ على عبادة الشيطان أنه يمسك عذاب من عذاب الله فتكون وَليا للشيطان دون الله فتهلك. فأجابه: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَ﴾ قال السُّدي: (بالشتيمة والقول).

وقال ابن جريج (بالقول، لأشتمنّك). وقال له ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾: قال بعض المفسرين: أي واهجرني حيناً طويلاً ودهراً. قال الحسن: (واهجرني زماناً طويلا). فوجّهوا معنىٰ المليّ إلى المُلاوة من الزمان وهو الطويل منه.

وقال آخرون: بل المعنىٰ: واهجرني سوياً سالماً من عقوبتي إياك، ووجّهوا معنىٰ المليّ إلى الاضطلاع والغنىٰ، فإن العرب تقول: فلان مليّ في هذا الأمر: إذا كان مضطلعاً به غنياً فيه. فيكون المعنىٰ: واهجرني وعرضُكَ وافر من عقوبتي وجسمك معافىٰ من أذاي.

قال ابن عباس: (اجتنبني سويا) وفي رواية: (اجتنبني سالماً قبل أن يصيبك مني عقوبة).

فأجاب إبراهيم أباه بقوله عليه الصلاة والسلام كما حكى الله عنه: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾ قال ابن عباس: (لطيفاً). فالحفي في اللغة اللطيف. ثم وقف إبراهيم على المنهج الصائب منهج الحق فقال لأبيه وقومه المستهزئين المستكبرين المعاندين المصّرين على الشرك والظلم: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي وأعتزلكم وشرككم ﴿وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي

شَقِيًّا﴾ فأخلص له بالعبادة والدعاء فإليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ولا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه.

ثم قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ آنسنا وحشته من فراقهم، وأبدلناه خيراً منهم، ومن هو أفضل وأحسن منهم وأكرم ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ فوهبنا له ابنه إسحاق وابن ابنه يعقوب ابن إسحاق وجعلناهم أنبياء ورزقناهم الثناء الحسن. فلما اعتزل فاسد بني البشر، أبدلناه بخير بني البشر فجعلنا النبوة في ذريته.

فكانت المفاصلة هي المرحلة الثانية في منهج التغيير الإلهي منهج الأنبياء والرسل، صلوات الله وسلامه عليهم، وهي تأتي جواباً على استهزاء الملأ الكافر بهذا الحق العظيم، فينفصل المؤمنون عنهم ويترفعون بالصبر على الوحي وأوامره والاستعلاء بالحق، وبالتحمل لما يصيبهم في هذه المرحلة من مكر المستكبرين ومحاولة الوقوع بهم والإيذاء.

ولنستعرض صفات هذه المرحلة وبعض معالمها في حياة الرسل:

أولاً: نوح صلوات الله وسلامه عليه: فبعد أن أقام حجة الوحي على قومه، وعالج بحجة الله البالغة مشكلة الغرور والاستهزاء والكبر في قومه، قالوا له: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾. فحاججهم ثانية كما حكى الله عنه في سورة هود فقال لهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. فأجابوه مستهزئين: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

ففاصلهم واعتزلهم وما يستهزئون، بعد أن أقام عليهم حجة الحق والوحي، ثم توجه إلى الله العظيم، ليعلن براءته مما يسخرون ويستكبرون، فوصف الله ذلك في سورة القمر بقوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾

﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: 10 - 15].

ثانياً: شعيب صلوات الله وسلامه عليه: فبعد أن دعا قومه إلى إفراد الله بالعبادة وعالج بالوحي وحجة الله البالغة مشاكل حياتهم وعيوبها، كمشاكل التجارة والغش والتلاعب في الميزان والأسعار، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، أجابوه مستهزئين: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾. ففاصلهم وتوجّه إلى الله بقوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: 89]. فجاء الجواب من الله مجيباً راضياً عن منهج المفاصلة من شعيب: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 91 - 92].

ثالثاً: لوط صلوات الله وسلامه عليه: لقد دعا قومه إلى الله وتعظيمه فوق كل ما خلق، وعالج بالوحي والحق مشاكل الانحراف الخلقي فيهم والشذوذ الجنسي يوم ناداهم بقوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾. ويوم ناداهم بقوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾. وحين ناداهم بقوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾. فأجابوه مستهزئين: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾. فأجابهم صلوات الله عليه مفاصلاً: ﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾. فاستجاب الله له راضياً عن مفاصلته، والثبات على منهج إخوانه من الأنبياء والرسل، بأن لا يشارك الملأ الكافر في مجالس استهزائه وعناده، فقال له سبحانه: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

رابعاً: هـود صلوات الله وسلامه عليـه: فاصل بكل اعتزاز ، بعد أن استكمل البلاغ واستهزأ الملأ الكافر. فقد حكى الله عنه في سورة هود لما قال لهم: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴾. فأجابوه مستهزئين: ﴿ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ ﴾. ففاصلهم باعتزاز وقوة: ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾. وفي هذا البيان فوائد عظيمة:

أولاً: أشهد هود صلوات الله وسلامه عليه الله على براءته من دينهم ، وأن الله هو وليه وناصره.

ثانياً: أشهدهم مخالفة رأيهم وتوجههم ودينهم وما يعبدون.

ثالثاً: أكد اعتزازه بالله بالاستهانة بما هم عليه ، وبما هم عاكفون على تعظيمه ، وبأنهم لو اجتمعوا على شفاء غيظهم منه ، وعاجلوه ولم يمهلوه ، لم ينالوا منه إلا ما كتب الله له.

خامساً: موسىٰ صلوات الله وسلامه عليه: فقد كان مثلاً أعلى في المفاصلة لفرعون وملئه وما كانوا يجمعون ، فلقد حكى الله عنه في سورة الأعراف ، كيف حَثَّ المؤمنين معه على الثبات والمفاصلـة بعدما تبين الحـق وسجد السحرة لله رب العالمين: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ

عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 125 - 129].

وذكر سبحانه في سورة يونس تفصيل أعمال المفاصلة وإجراءات الاعتزاز بالحق، فقال جل ذكره: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. فأجابهم الله سبحانه راضياً عن منهج تبرئهم بقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. ثم قال موسى راجياً من الله أن يكسر شوكة المجرمين والحكام المستكبرين أتباع فرعو اللعين: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾. فجاء الجواب من الله بالتأييد إذا ضُمن طريق الاستقامة على منهج المفاصلة والترفع بالحق والصبر على البلاء. فقال سبحانه: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: 89]. أي لا تتبعوا سبيل الطغاة بل فاصلوهم حتىٰ في وجهة بيوتكم فاجعلوها قبلة نحو قبلة الصلاة والدعاء.

سادساً: محمد خاتم الأنبياء والرسل صلوات الله عليه وعليهم أجمعين.

فقد كان النبي محمد عليه الصلاة والسلام مثالاً للولاء والبراء، شأن أبيه إبراهيم والرسل من قبله عليهم السلام، فقد أدىٰ الأمانة وبلغ الرسالة، ونصح لله سبحانه الأمة حتى أيده الله بالنصر والتمكين، وكان الوحي يتنزل عليه يثبته الله على منهج مفاصلة المستهزئين.

فقد أنزل عليه في سورة النساء: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: 140].

وكذلك نزّل عليه في سورة الأنعام: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

قال الحافظ ابن كثير في تفسير آية النساء: (أي إنكم إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم ورضيتم بالجلوس معهم في المكان الذي يكفر فيه بآيات الله ويستهزأ وينتقص بها ، وأقررتموهم على ذلك فقد شاركتموهم في الذي هم فيه فلهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ في المأثم ، كما جاء في الحديث: [من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر]. ثم قال: والذي أحيل عليه في هذه الآية من النهي في ذلك هو قوله تعالى في سورة الأنعام وهي مكية ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ الآية. قال مقاتل بن حيان: نسخت هذه الآية التي في سورة الأنعام. يعني نسخ قوله ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ لقوله ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ . قال: وقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ أي كما أشركوكم في الكفر ، كذلك يشارك الله بينهم في الخلود في نار جهنم أبداً ، ويجمع بينهم في دار العقوبة والنكال والقيود والأغلال وشراب الحميم والغسلين والزلال) انتهى.

قلت: ودعوة محمد ﷺ هي التزام ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، والتي تتضمن التوحيد الاعتقادي والعملي بآن واحد:

فهي أولاً: إخلاص لله في العبادة.

وهي ثانياً: تبرؤ وكفر كامل بكل صور الشرك وأنواعه.

وهي ثالثاً: إظهار العداوة وإبداء البغضاء لكل من تمسك بهذه الصور أو أصر عليها.

وهذه الأمور الثلاثة مجموعة في قوله سبحانه: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة: 4].

وكذلك نزل الله سبحانه في سورة هود على نبيّه محمد صلوات الله وسلامه عليه ما يثبت في قلبه ومنهاجه معنى المفاصلة ، التي هي ثمرة الاعتزاز بالله وبدينه ، فلا يجلس مع قوم يستهزئون بشرعه وأمره ونهيه ، فقال جل ثناؤه: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: 112 - 113].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿ولا تركنوا﴾ قال: (لا تداهنوا). وقال العوفي عن ابن عباس: (هو الركون إلى الشرك). وقال أبو العالية: (لا ترضوا بأعمالهم) وقال غيره: (ولا تميلوا إلى الذين ظلموا).

وكذلك نزل عليه في سورة آل عمران: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

قال ابن كثير في التفسير: (نهى سبحانه عن اتخاذ المنافقين بطانة أي يطلعونهم على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم، والمنافقون بجهدهم وطاقتهم لا يألون المؤمنين خبالاً أي يسعون في مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن، وبما يستطيعون من المنكر والخديعة ويودون ما يعنت المؤمنين ويحرجهم ويشق عليهم).

قلت: والبطانة هم الخاصة، فإن العرب تقول: بطانة الرجل يريدون أهله الذين يطلعون على داخل أمره، فالمراد ألا يطلع غير المؤمنين على خاصة المسلمين. ففي صحيح البخاري عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: [ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان، بطانة تأمره بالخير وتحضّه عليه، وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه، والمعصوم من عصمه الله][1].

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: (حدثنا أبي حدثنا وكيع حدثنا إسرائيل عن سماك بن حرب عن عياض الأشعري عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قلت لعمر رضي الله عنه: إني لي كاتباً نصرانياً. قال: مالك؟ قاتلك الله. أما سمعت الله يقول: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ الآية. ألا اتخذت حنيفياً؟ قال: قلت: يا أمير المؤمنين لي كتابته وله دينه قال: لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزّهم إذ أذلهم الله، ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله]. ورواه البيهقي ولفظه: [لا تؤمنوهم وقد خونهم الله، ولا تقربوهم وقد أبعدهم الله، ولا تُعِزُّوهم وقد أذلهم الله][2].

---

(1) أخرجه البخاري (255/4) وأحمد (39/3) وغيرهما.

(2) أخرجه البيهقي (127/10) وحسنه الألباني في الإرواء (256/8).

ودرج على ذلك الخلفاء الذين لهم ثناء حسن في الأمة كعمر بن عبد العزيز والمنصور والرشيد والمهدي والمتوكل والمقتدر وغيرهم.

وأما من هدي النبي ﷺ، فقد اشتملت السنة الصحيحة على كنوز من الخير ولطائف من الفقه في معنىٰ المفاصلة ومفهوم الولاء والبراء، وهذا سيل من الأحاديث:

الحديث الأول: ما رویٰ الإمام أحمد في المسند والترمذي في الجامع والنسائي في السنن بإسناد صحيح من حديث جابر بن عبد الله: [أن النبي ﷺ قال لكعب بن عجرة: أعاذك الله من إمارة السفهاء. قال: وما إمارةُ السفهاء؟ قال أمراء يكونون بعدي لا يقتدون بهديي ولا يستنون بسنتي، فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم، فأولئك ليسوا مني ولست منهم ولا يردوا على حوضي، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم، فأولئك مني وأنا منهم وسيردوا على حوضي][1].

ولفظ النسائي: عن كعب بن عجرة قال: [خرج إلينا رسول الله ﷺ ونحن تسعة خمسة وأربعة، أحد العددين من العرب والآخرون من العجم. فقال: اسمعوا! هل سمعتم أَنْ ستكون من بعدي أمراء، مَنْ دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه وليس يرد عليّ الحوض، ومن لم يدخل عليهم ولم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه وسيرد عليّ الحوض].

الحديث الثاني: ما في الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه (يعني لما وصلوا الحجْر ديار ثمود فيما بين المدينة والشام): [لا تدخلوا على هؤلاء المعَذَّبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يُصيبُكم ما أصابهم]. وفي رواية: [لما مرّ رسول الله ﷺ بالحجر قال: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين. ثم قَنَّعَ رسول الله ﷺ رأسه وأسرع السير حتىٰ أجاز الوادي][2]. وقد صنف الإمام البخاري في صحيحه باباً سماه: (باب الصلاة في موضع الخَسْف والعذاب ويذكر أنّ علياً رضي الله عنه كره الصلاة بِخَسْفِ بابل).

(1) أحمد في المسند (321/3) وقال أحمد شاكر: صحيح الإسناد 62/8 من المسند.
(2) مختصر مسلم (1834).

الحديث الثالث: ما رواه الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: [من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيدَ غفل، ومن أتىٰ السلطان افتتن][1].

الحديث الرابع: ما روى أحمد والطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [سيكون في آخر الزمان شُرَطة يغدون في غضب الله ويروحون في سخط الله فإياك أن تكون من بطانتهم] وسنده صحيح[2].

الحديث الخامس: ما أخرج ابن حبان في صحيحه عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: [ليأتينّ عليكم أمراء يقربون شرار الناس ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها، فمن أدرك ذلك منكم فلا يكوننّ عريفاً ولا شرطياً ولا جابياً ولا خازناً] وسنده صحيح[3].

الحديث السادس: ما أخرج الطبراني والديلمي عن أبي الأعور السلمي مرفوعاً: [إياكم وأبواب السلطان فإنه قد أصبح صعباً هبوطاً] وسنده حسن[4].

وأما من منهج سلف الأمة وعلمائها ومواقف قادتها وأعلامها، فهذا سيل آخر من كنوز الحكمة والإصابة في غير النبوة ولكن على منهاج النبوة.

الأثر الأول: ما ذكره الإمام النووي في شرحه لصحيح الإمام مسلم عند حديث غزاة الكعبة الذين يهلكهم الله جميعاً كما جاء في الحديث: [فيهم المستبصر والمجبور وابن السبيل يهلكون مهلكاً واحداً ويصدرون مصادر شتى يبعثهم الله على نياتهم][5]. قال النووي رحمه الله: (وفيه من الفقه التباعد من أهل الظلم والتحذير من مجالستهم ومجالسة البغاة ونحوهم من المبطلين لئلا ينالهم ما يعاقبون به. قال: وفيه أن من كثّر سواد قوم جرى عليهم حكمهم في ظاهر عقوبات الدنيا).

---

(1) صحيح الجامع (6172).

(2) السلسلة الصحيحة (1893).

(3) السلسلة الصحيحة (360).

(4) السلسلة الصحيحة (1253).

(5) صحيح مسلم (8/166 - 167).

الأثر الثاني: ما روى عبد الله بن الإمام أحمد في كتاب الزهد لأبيه عن مالك بن دينار قال: (أوحىٰ الله إلىٰ نبي من أنبياء بني إسرائيل، أن قل لقومك: لا تدخلوا مداخل أعدائي، ولا تلبسوا ملابس أعدائي، ولا تركبوا مراكب أعدائي، ولا تطعموا مطاعم أعدائي، فتكونوا أعدائي كما هم أعدائي)[1].

الأثر الثالث: ما روي عن عبد الله بن المبارك قوله:

رأيت الذنوب تميت القلوب   وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب   وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلا الملوك   وأحبار سوء ورهبانها[2]

الأثر الرابع: ما جاء في المقدمة عند ابن ماجه عن أبي هريرة مرفوعاً: (وإن أبغض القراء إلى الله الذين يزورون الأمراء)[3].

قال عمر: (إذا رأيتم القارىء يحب الأغنياء فهو صاحب دنيا، وإذا رأيتموه يلزم السلطان فهو لص)[4].

الأثر الخامس: ما ورد في حلية الأولياء عن حذيفة قال: (إياكم ومواطن الفتن! قيل وما هي؟ قال: أبواب الأمراء، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول ما ليس فيه)[5].

وفي إحياء علوم الدين عن أبي ذر أنه قال لسلمة: (يا سلمة لا تَغْشَ أبواب السلاطين، فإنك لا تصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك أفضل منه)[6].

وفي المسند عن ميمون بن مهران قال: (ثلاث لا تَبْلُوَنَّ نفسك بهن: لا تدخل على سلطان وإن قلت آمره بطاعة الله، ولا تدخل على امرأة وإن قلت أعلمها كتاب

---

(1) الجواب الكافي لابن القيم ص 38 - 39.
(2) المرجع السابق.
(3) رواه ابن ماجه في المقدمة ب: 23.
(4) البداية والنهاية (310/9).
(5) حلية الأولياء (277/1).
(6) الإحياء (142/2).

الله ، ولا تصغيّن بسمعك إلى ذي هوىٰ فإنك لا تدري ما يعلق بقلبك من هواه)[1].

الأثر السادس: ما روي عن جعفر الصادق أنه قال: (الفقهاء أمناء الرسل ، وإذا رأيتم الفقهاء ركنوا للسلاطين فاتهموهم).

وكذلك ما روي عن سفيان الثوري أنه قال: (إياك والأمراء أن تدنو منهم أو تخالطهم في شيء من الأشياء ، وإياك ويقال لك لتشفع وتدرأ عن مظلوم ، أو ترد مظلمة ، فإن ذلك خديعة إبليس ، وإنما اتخذها فجار القراء سلماً).

قلت: وقد يأتي الشيطان هنا بحجة مصلحة الدعوة ويلبس على بعض الدعاة. يقول (سيد) في الظلال: (إن كلمة مصلحة الدعوة يجب أن ترفع من قاموس أصحاب الدعوات ، لأنها مزلّة ومدخل للشيطان ، يأتيهم منه حين يعز عليه أن يأتيهم من ناحية مصلحة الأشخاص ، ولقد تتحول مصلحة الدعوة إلى صَنم يتعبده أصحاب الدعوة وينسون معه منهج الدعوة الأصيل).

الأثر السابع: ما ذكرّه العلامة ابن القيم في زاد المعاد في شأن الذين اتخذوا مسجد الضرار ، ليكون تفريقاً بين المسلمين ، ومركزاً للنفاق ومحاربة الله ورسوله ، وقد جاء في التفاسير أنهم طلبوا من النبي ﷺ أن يصلي به لتحصل المشروعية لهم في اتخاذه والصلاة فيه ، فحذّر الله تعالى بذلك نبيّه وأمره بحرقه فقال جل ثناؤه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: 107 - 108].

قال ابن القيم رحمه الله عقب القصة: (ومنها تحريق أمكنة المعصية التي يعصىٰ فيها الله ورسوله ، وهدمها كما حرّق رسول الله ﷺ مسجد الضرار ، وهو مسجد يصلىٰ فيه ويذكر اسم الله فيه ، لما كان بناؤه ضراراً وتفريقاً بين المؤمنين ومأوى المنافقين ، وكل ما كان هذا شأنه فواجب على الإمام تعطيله إما بهدمه وتحريقه ، وإما بتغيير صورته وإخراجه مما وضع له ، وإذا كان هذا شأن مسجد الضرار ،

(1) البداية والنهاية (315/9).

فمَشاهد الشرك التي تدعو سدنتها إلى اتخاذ مَنْ فيها أرباباً من دون الله أحق بذلك وأوجب).

قلت: وقد ذكر القرطبي في ذلك المعنىٰ، فقال رحمه الله: (قال العلماء: من كان إماماً لظالم لا يُصَلّىٰ وراءه إلا أن يُظهر عذره أو يتوب، فإن بني عمرو بن عوف الذين بنوا مسجدَ قباء سألوا عمرَ بن الخطاب في خلافته ليأذن لمجمع بن جارية أن يُصلي بهم في مسجدهم فقال: لا، ولا نعمة عين، أليس بإمام مسجد الضرار؟ فقال له مجمع: يا أمير المؤمنين! لا تعجل عليّ، فو الله لقد صليت فيه وأنا لا أعلم ما أضمروا عليه. ولو عَلمت ما صليت بهم فيه، كنت غلاماً قارئاً للقرآن، وكانوا شيوخاً قد عاشوا على جاهليتهم، وكانوا لا يقرؤون من القرآن شيئاً، فصليت ولا أحسب ما صنعت إثما، ولا أعلم بما في نفوسهم فعذره عمر رضي الله عنه وصدّقه، وأمره بالصلاة في مسجد قباء).

فتالله كم أضاع المسلمون اليوم منهج المفاصلة منهج الأنبياء الكرام، وصرفوا لياليهم مع قوم مستهزئين مستكبرين، رقصوا معهم واختلطوا بنسائهم الاختلاط الحرام، وضيعوا قلوب أبنائهم وبناتهم بفاحش القول وفاحش النظر والكلام، فطارت قلوب الأبناء والبنات خلف الموضات والدعايات وحركات الشياطين وحول الخيالات والأغاني الماجنة وأفلام الحب والخلاعة والغرام، حتىٰ خوت القلوب من حب المعالي بعد أن فرغت قبل ذلك من القرآن ومن قصص الأنبياء والصالحين الكرام، فامتلأت الحياة بأجيال حيارىٰ يتخبطون كآبائهم تخبط التائه من الأنعام، فإلى الله المشتكى وبالله المستعان.

ثالثاً: مرحلة الإعداد وبناء الجماعة المؤمنة.

ويشمل هذا الإعداد: الإعداد الروحي الإيماني، والإعداد العقلي، والإعداد النفسي الشعوري، والإعداد الجسدي، والإعداد الحركي المادي الواقعي، وقد يُحتاج في هذه المرحلة إلى الهجرة. وتفصيل ذلك:

(1) و(2) ـ الإعداد الروحي الإيماني والإعداد العقلي:

لقد تجسّد هذا الإعداد في حياة الأنبياء والرسل مع أتباعهم، كما حكى القرآن الكريم عنهم:

فنوح صلوات الله عليه خاطب أرواح قومه وقلوبهم ، فآمن من آمن ، واستكبر من استكبر ، وكانت طريقة الخطاب فيها منهج بناء الروح والإيمان التي استفاد منها المؤمنون من بينهم. قال سبحانه يصفها في سورة نوح: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ وبقوله: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح: 1 - 14].

ثم خاطب عقولهم خطاباً استفاد منه المؤمنون منهم في بناء عقولهم وفكرهم على منهج الوحي. فقال جل ثناؤه يحكي عن نوح خطابه: ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ [نوح: 15 - 20].

موسى صلوات الله وسلامه عليه: ناشد الإيمان في قلوب أصحابه ليثيره ويحييه. فقال جل ثناؤه في سورة الأعراف يحكي عنه: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: 128 - 129].

ثم خاطب عقولهم ليثير دفائنها وينمي محاكماتها ويسدد إصابتها. فقال سبحانه يحكي عنه بقوله في نفس السورة: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [الأعراف: 138 - 141].

عيسى بن مريم صلوات الله وسلامه عليه. ناشد الإيمان في قلوب أصحابه ليبعثه في قلوبهم فيحييها وليجدده في صدورهم فينشطها ، فقد حكى الله ذلك في

سورة المائدة بقوله: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١١٢ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝١١٣ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝١١٤ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة: 112 - 115].

ثم خاطب عقولهم ليستحثها لفهم الحق والتعلق به وليثير دفائنها وينمي محاكماتها، فقال سبحانه في سورة الزخرف: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٦٣ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [الزخرف: 63 - 64].

إبراهيم عليه الصلاة والسلام: فقد كان أمة في زمانه، فاصل قومه بعد أن دعاهم بحجة الله البالغة فاستكبروا وأصرّوا على شركهم، فهيّأ نفسه بزيادة اليقين والإيمان بالله، متكلماً بنعم رب العالمين عليه، ومستقبله الذي يرجوه يوم القيامة بين يديه، وعونه سبحانه وتجاوزه عنه، فقال سبحانه في سورة الشعراء يحكي عن إبراهيم قوله: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الشعراء: 75 - 83].

ثم أثنى الله على سموّ عقله ومحاكماته واعتنائه بفكره وقلبه ودقة إصابته، فقال جل ثناؤه يصف ذلك ممتدحاً لإبراهيم عليه السلام في سورة الأنعام: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ۝٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: 76 - 79].

محمد صلوات الله وسلامه عليه: فقد ختم به الرسالة والنبوة سبحانه، وامتدحه

وأثنىٰ على سموّ عقله وقلبه وإيمانه ، وعلى متابعته لمنهاج الأنبياء والرسل إخوانه ، وأفرد في القرآن سورة باسمه سمّاها سورة محمد ، فقال جل ثناؤه : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴾ [محمد : 1- 3] .

ثم قال سبحانه لنبيّه ليقول لأصحابه ما يجدد إيمانهم ويبث الأمل في قلوبهم : ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد : 15] .

ثم هوّن عليهم أمر الطغاة ، فاستبسلوا في قتالهم ، وتطهير الأرض من ظلمهم وعتوهم ، فقال لأصحابه ذات يوم كما أخرج الإمام أحمد في المسند عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ : [يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثالَ الذَّرِّ في صور الرجال ، يغشاهم الذل من كل مكان ، يساقون إلى سجن في جهنم يسمىٰ بُولُس ، تعلوهم نار الأنيار ، يُسْقون من عُصَارةِ أهل النار طينةِ الخبال][(1)] .

ثم علمّهم الصبر على المصائب والاسترجاع عند النوائب ، والثبات على اليقين والثقة بالله العظيم ، كيلا تنال منهم الفتن أو يتعثروا في طريقهم إلى المعالي والجهاد في سبيل الله .

فقد أخرج الإمام مسلم والإمام أحمد واللفظ لأحمد عن أم سلمة عن أبي سلمة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : [ما من مسلم تصيبُه مصيبة فيقول ما أمره الله ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ اللهم آجِرني في مصيبتي ، واخلفْ لي خيراً منها ، إلا آجره الله في مصيبته ، وأخلف الله له خيراً منها][(2)] .

ثم بشّرهم بجنات عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ، فقال جل ثناؤه في سورة آل عمران : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ

---

(1) حسن . صحيح الجامع (7896) .

(2) وهو في مختصر صحيح مسلم بلفظ مقارب برقم (461) باب : ما يقال عند المصيبة .

وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران: 133 - 136].

وقال أيضاً في نفس السورة ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 169 - 171].

ثم قال جل وعز في سورة النساء: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: 57].

وقد خرج الإمام البخاري في صحيحه والإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [إن في الجنة مائةَ درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بينَ الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمان، ومنه تفجّر أنهار الجنة][1].

وفي صحيح الحاكم وشعب الإيمان للبيهقي بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: [أتعلم؟ أولُ زمرة تدخل الجنة من أمتي فقراء المهاجرين، يأتون يومَ القيامة إلى بابِ الجنة ويستفتحون فيقول لهم الخزنة: أوقد حوسبتم؟ قالوا بأي شيء نحاسب، وإنما كانت أسيافنا على عواتقنا في سبيل الله حتىٰ متنا على ذلك؟ فيفتح لهم، فيقيلون فيها أربعين عاماً، قبل أن يدخلها الناس][2].

وأما عقلياً: فقد خاطب محمد صلوات الله وسلامه عليه عقول أصحابه فبناها بناء متوازناً، على أن العقل جزء من تكريم الله للإنسان وليس هو سبب التكريم كله كما بالغ بعضهم، لأن إبليس قال: ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ

(1) ورواه الترمذي (326/3) بلفظ مقارب وكذلك أحمد (316/5).

(2) السلسلة الصحيحة (853).

﴿يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 62]. فلو كان التكريم لآدم بعقله للزم أن يكون إبليس مجنوناً لا عقل له لقوله (هذا الذي كرمت عليّ)، ومن قال هذا فليراجع عقله. ولكن الله سبحانه قد فصّل معنىٰ التكريم بشموله بعد آيات من نفس السورة فقال جل ثناؤه: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾. فكان سبب التكريم للإنسان:

أنّ الله سبحانه خلقه مخلوقاً متكاملاً بيده، ثم نفخ فيه من روحه، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً وعقلاً وهيئة في أحسن تقويم من فضله، ثم أسجد له ملائكته، وسخر له كَوْناً واسعاً يتذلل له ولطاعته، وهيأ له جنة عرضها السماوات والأرض لتستقبل منْ قام بأمره.

قلت: فمن قصر التكريم على العقل فقد ضيّق واسعاً، وإلا للزم أن من سلبه سبحانه عقله فقد أهانه، كلا، فالكل مفتقر إلى رحمته، والكل محفوف بما لا يبصر من نعمه، ولا يعْدِل شيء في الدنيا دخول جنته، خَبَرُ النبي ﷺ أخرجه الإمام أحمد في المسند عن عتبة بن عبد عن النبي صلوات الله وسلامه عليه قال: [لو أن رجلاً يجرّ على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرماً في مرضاة الله تعالى لحقره يوم القيامة][1]. فالكل تحت ألطافه سبحانه والكل محتاج إلى فضله وآلائه.

فكيف بنى الوحيُ عقل المسلم؟ وكيف أسهم النبي ﷺ في هذا البناء والإعداد؟

أولاً: لقد خاطب القرآن العقل خطاباً هزّ أوتاره هزاً عنيفاً، حين دعاه لإفراد التعظيم لله ونبذ كل شرك وظلم فقال جل ثناؤه في سورة الأنبياء: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾. فبيّن سبحانه أن الشرك بالله لا يستقيم مع العقل الصحيح والمنطق القويم، فإن كوناً منظماً في أدق تنظيم وأعلى دقة لابد له من إله واحد يرعى تنظيمه ودقائق بنيانه ونفائس صنعه وإتقانه، إذ لو كان هناك أكثر من إله لاضطرب التنظيم ولظهر الاختلاف ولبدا حبّ الاستئثار بالقيادة والتحكم، فقال جل وعز في سورة المؤمنون: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا

(1) حسن. صحيح الجامع (5125).

بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: 91 - 92].

ثم عاب سبحانه على عبادة آلهة لا تخلق ولا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً ولا موتا ولا حياة ولا نشوراً.

فقال جل ثناؤه في سورة الفرقان: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: 3].

وقال في سورة النحل: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾. وقال فيها أيضاً: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: 73].

ثم وصف سبحانه اتخاذ شركاء لا يستطيعون الخلق والإبداع من دون الله الخالق المبدع المصور بأنه غرور وتعطيل للعقل ودقة قياسه ومحاكماته. فقال سبحانه في سورة فاطر: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: 40].

ثم نعت لهم سبحانه حجم الخسارة يوم القيامة وحجم المغامرة وإهمال العقل وإعمال الفكر في التهاون بأمر الشرك والكبر. فقال سبحانه في سورة فاطر: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: 13 - 14].

ثم عابَ على قوم حكمّوا الهوىٰ وعطّلوا العقل حين قرروا أنثوية الملائكة بزعمهم، ومضىٰ معهم في متسلسلة عقلية وهي أن التقرير يتم بأحد طريقين: حسيّ أو نقلي، فلا وسيلة ثالثة لبناء حكم من الأحكام في أي مجال، فهل التزموا بضوابط منهج التقرير، أم تجاوزوه وأطلقوا الأهواء والشهوات لتحكم لهم، فقال جل وعز في سورة الزخرف: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾. وقال في سورة الصافات: ﴿أَمْ خَلَقْنَا

ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ . وقال في الزخرف أيضاً : ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ . يقيناً لم يشهدوا خلق الملائكة ولا جاءهم علم بذلك أو كتاب ، فقد بنوا حكمهم على الظن والشهوة والخروج عن الضوابط والموازين.

ثم عاب عليهم سبحانه الاستطراد في التفلت من ضوابط العقل الصحيح وميزان العلم السديد ، يوم خصوا الإناث بالله والذكور بهم ، فقال جل ثناؤه يعيب عليهم هذا التردي في المحاكمة : ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل : 57]. وقال في سورة النجم : ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم : 19 - 23]. ثم قال في سورة النجم أيضاً : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢٧ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم : 27 - 28].

أقول: لقد حاصر القرآن العظيم عقول المشركين حصاراً ملجماً استفاد منه النبي ﷺ في بناء عقول المؤمنين وإعداد محاكماتهم وتكامل إصابتهم وتسديدهم ، يوم ناقش معهم منطقية وجود أكثر من إله ، وتبعة ذلك مما يتوقع من الفوضىٰ وفقدان الأمن والنظام ، ثم يوم استغرب اعتقادهم بآلهة لا تخلق ولا تضر ولا تنفع ، ثم يوم دحض حججهم وعاب قصور محاكماتهم في تقرير أنثوية الملائكة.

ثانياً: خاطب القرآن العقل يستثيره للانتباه إلى بعض الحقائق والسنن الكونية وانتظام بنائها.

فحدثه عن ظاهرة البرق وظاهر الرعد ، وما يكمن وراء ذلك من خطر لو تفلّت النظام الذي يحكمها الله به كما تتفلت العقول وتُتَّبَع الأهواء ، فقال جل وعز في سورة الرعد : ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرعد : 13].

وقال في سورة الروم : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم : 24].

وقال في سورة الرعد: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [الرعد: 12].

ثالثاً: ثم ملأ عقل المسلم بحقائق عن عالمي الغيب والشهادة ، عن صفات الله سبحانه ، عن صفات الملائكة ، عن الجان ، عن البعث ، عن أحوال القبر وأهوال يوم القيامة ، والعقل يتشكل بما تضع فيه من حقائق ، وقد أعطته تلك الحقائق سعة ربما لم تتوفر في أي عقل آخر.

فقد قال جل ثناؤه في سورة الأنعام : ﴿ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 13 - 14].

وكقوله في نفس السورة : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: 60 - 65].

فهو يلفت عقول عباده سبحانه إلى حقائق عن عالمي الغيب والشهادة وعن صفاته العظيمة التي تليق بجلاله وجماله وكماله. وقال في سورة البقرة ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: 255].

وقد أخرج محمد بن أبي شيبة والبيهقي وابن جرير في التفسير عن أبي ذر قال: دخلت المسجد الحرام فرأيت رسول الله ﷺ وحده فجلست إليه ، فقلت: يا رسول الله أيما آية نزلت عليك أفضل؟ قال: [آية الكرسي ، ما السماوات السبع

في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة][1] .

قلت: فهذه الحقائق الكونية عن صفات أعظم مخلوقاته سبحانه ، ذلك مما يوسع الله به آفاق ومدارك عقول المؤمنين ليزدادوا به إيماناً ، وليكون هذا إعداداً للعقول المؤمنة على طريق البناء والتربية .

وأما عن صفات الملائكة فقد قال جل ثناؤه في سورة فاطر: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فاطر: 1]. وقال في سورة غافر: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [غافر: 7]. وقال في سورة الأنفال: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال: 9]. وقال في سورة آل عمران: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: 124 - 126].

وفي سنن أبي داود عن جابر عن النبي ﷺ قال: [أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله تعالى حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة سنة][2] .

وفي المسند عن أنس عن النبي ﷺ قال: [البيت المعمور في السماء السابعة ، يدخُله كلَّ يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه حتىٰ تقومَ الساعة][2] .

وجملة القول: إن الله سبحانه قد وصف ملائكته وعظمة خلقهم ودقة اختصاصاتهم ليوسع آفاق فكر المؤمن ومدارك عقله فيزداد إيماناً بعالم الغيب والشهادة ، و يكون هذا التوسيع للآفاق جزءاً من مراحل الإعداد والتربية والبناء .

---

(1) قد مضى تخريجه .
(2) قد مضى تخريجه ببحث الإيمان بالملائكة .

وأما وصفه سبحانه للجن وخلقهم ، مما يوسع به سبحانه عقول عباده المؤمنين ومداركهم ، ليزدادوا إيمانا بالله بارئهم ، فقد قال سبحانه في سورة النمل على لسان سليمان عليه السلام : ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: 38 ـ 40] . وقال في سورة الرحمن: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ [الرحمن: 14 - 15]. وقال في سورة الحجر : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [الحجر : 16 - 18]. ثم قال في نفس السورة يبيّن لعباده عقلية إبليس وفلسفته لئلا يقعوا في حبائلها وفي تقليدها : ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر : 32 - 40].

وفي الصحيحين والمسند عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: [يَعْقِد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاثَ عُقَد ، يضرب مكان كل عقدة: عليك ليلٌ طويلٍ فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلّىٰ انحلتْ عُقَدهُ كُلّها ، فأصبح نشيطاً طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان][1] .

فهذه الآفاق من الوحي الكريم ، مما يوسع الله به مدارك عقل المسلم لئلا يقع في مسالك الشيطان وأعوانه ، وليتخذه عدواً كما أمره الله بقوله : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر : 6].

---

(1) مختصر مسلم (387) ورواه البخاري وأحمد.

وأما عن صفات البعث وأهوال القيامة فسيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى عند الحديث عن الإيمان باليوم الآخر ، ولكن نذكر هنا قوله سبحانه في سورة الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: 1 - 2].

وقد خرّج الإمام مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده عن أنس عن النبي ﷺ قال: [يُؤتىٰ بأنعمِ أهل الدنيا من أهل النار يومَ القيامة ، فيُصْبَغُ في جهنم صَبْغَةً ، ثم يقال له: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مرَّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب ، ويؤتىٰ بأشدّ الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة ، فيصبَغُ في الجنة صبغة ، فيقال له: يا ابن آدم! هل رأيت بؤساً قط؟ هل مرَّ بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب! ما مرَّ بي بؤسٌ قط ، ولا رأيت شدة قط][1].

فبهذه الحقائق العالية عن عالمي الغيب والشهادة ربّى الإسلام عقول رجاله وأفئدتهم ، وبنىٰ بها مداركهم ومحاكماتهم ، فإذا عُرِضَتْ عليهم تجارة الخمر والفاحشة والمال الحرام ، وتجارة تنجيهم من عذاب أليم ، اختاروا تجارةً مع الله رابحة في الدنيا وصفقة في الآخرة ، وإذا عرضت عليهم نظرية النجاة من اقتراح أهل الفلسفة والرأي والتخبط في الأرض ، ومعنىٰ النجاة كما جاءهم به الوحي الكريم ، اختاروا منهج الوحي وحقائقه وقطعياته على منهج أهل الأرض وفلاسفتهم ومفكريّهم ، فقد صقلت عقولهم وبلغت من العلو والرفعة وبعد المحاكمة مبلغاً لا مجال معه للصبية من الناس أن يفتنوهم ، وقد أعطتهم تلك الحقائق سعة في عقولهم ربما لم تتوفر في أي عقل آخر.

رابعاً: جرّأه الإسلام على استغلال الكون ، يوم خاطب الوحي عقل المسلم وأخبره أن الكون مسخر له.

فقال جل ثناؤه في سورة لقمان: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: 20]. وقال في سورة الملك: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: 15].

---

(1) مختصر صحيح مسلم (1986).

قال الحافظ ابن كثير في التفسير عند قوله تعالى في سورة الروم ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ قال: (ومن آياته الدالة على عظمته وكمال قدرته، أنه خلق أباكم آدم من تراب ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ فأصلكم من تراب ثم من ماء مهين، ثم تصور فكان علقة ثم مضغة، ثم صار عظاماً شكله على شكل الإنسان، ثم كسا الله تلك العظام لحماً، ثم نفخ فيه الروح فإذا هو سميع بصير، ثم خرج من بطن أمه صغيراً ضعيف القوى والحركة، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار يبني المدائن والحصون، ويسافر في أقطار الأقاليم، ويركب متن البحور، ويدور أقطار الأرض، ويكتسب ويجمع الأموال، وله فكرة وغور ودهاء ومكر ورأي وعلم واتساع في أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه، فسبحان من أقدرهم وسيرهم وسخرهم وصرفهم في فنون المعايش والمكاسب، وفاوت بينهم في العلوم والفكر، والحسن والقبيح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: 20]).

وقد اعتبر الإسلام هذا السعيَ والاكتشاف في الكون لاستغلال ما أودع الله فيه من أسباب القوة تقرباً إلى الله سبحانه وإعداداً للجهاد في سبيله، ولتفويت الفرصة على أهل الباطل وأعدائه الذين يستفيدون من القوة ليعيثوا في الأرض فساداً.

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلّ خير، احرِص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تَعْجِزْ، وإن أصابك شيء، فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قلْ: قَدّر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان](1).

خامساً: ضرب الوحي له الأمثال من أجل تنمية المحاكمات العقلية.

فقد قال الله سبحانه في سورة الأعراف يشبّه المكذبين المعاندين: ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: 176].

---

(1) مختصر صحيح مسلم (1840).

وقال في سورة إبراهيم يَصفُ أثر الكلمة الطيبة وتأثير الكلمة الخبيثة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: 24 - 26].

وقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عمر قال: [كنا عند رسول الله ﷺ فقال: أخبروني عن شجرة تشبه الرجل المسلم (وفي رواية: كالرجل المسلم) لا يتحاتّ ورقها صيفاً ولا شتاء وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها؟ قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم. فلما لم يقولوا شيئاً قال رسول الله ﷺ: هي النخلة. فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة. قال: ما منعك أن تتكلم؟ قلت: لم أركم تتكلمون فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئاً. قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إلي من كذا وكذا](1).

فشبه المؤمن بالشجرة المثمرة التي لا تزال تثمر في كل وقت وحين، وكذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح صباحاً ومساءً وفي كل وقت وحين. ثم إن الكلمة الطيبة لشدة ثبات جذرها ولشدة تأثيرها في قلوب الناس لا تزال تثمر في حياتهم فيُذكر صاحبها بالإحسان والخير كل حين، بيْنما الكلمة السيئة تترك أثراً مؤذياً في حياة الناس فلا يزال يُعَيَّرُ بها صاحبها، فإن كانت فعلاً سيئاً كالقتل الذي سنّه ابن آدم الأول لحق به شؤم ذاك العمل إلى يوم الدين، إلا إنْ تدارك نفسه بالتوبة ورد الحقوق إلى أصحابها فذاك تحت رحمة أرحم الراحمين، الذي يعلم السر وأخفىٰ ويبدل سيئات المحسنين.

وكذلك من هذه الأمثلة الرائعة والتشبيهات المؤثرة والتصويرات البليغة التي يستخدمها البيان القرآني قوله سبحانه في سورة العنكبوت: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ

---

(1) صحيح أخرجه البخاري (4698) ومسلم (2811).

﴿ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 41]. فشبه سبحانه الشرك وروابطه بأنها في ضعفها وهوانها أذل وأضعف من خيوط بيوت العنكبوت، وإنما العزة لله ولرسوله وللمؤمنين فمن أراد العزة فليتعزز بطاعة الله العزيز.

وكذلك بين الوحي بعض سنن الله في الكون والمجتمعات ودورات العذاب والإمهال وقوانين الهلاك والدمار وسنن الإكرام ونتائج الطاعة والشكر.

فقد قال جل ثناؤه في سورة العنكبوت: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: 20].

وقال في سورة الأنعام: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: 11].

وقال في سورة النمل: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: 69].

وقال في سورة الرعد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

وقال في سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 7].

يروي ابن ماجه بإسناد صحيح عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم](1).

وكذلك أخرج الحاكم عن أبي بردة قال: أعجب من قوم دينهم واحد ونبيهم واحد، ودعوتهم واحدة، وحجهم واحد، وغزوهم واحد، يستحل بعضهم قتل بعض. فقال له رجل من الأنصار: فلا تعجب فإني سمعت والدي أخبرني أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: [أمتي أمة مرحومة، ليس عليها عذاب في الآخرة، عذابها في الدنيا، الفتن والزلازل والقتل](2).

---

(1) صحيح ابن ماجه. تحقيق الألباني، حديث رقم (3235).

(2) السلسلة الصحيحة (957)، وصحيح الجامع (1392).

فعرّف الله الأمة سنن العذاب والهلاك لتدرك بعقولها ثمن المعصية وضريبة الكبر والانحراف عن المنهج ، فمثل لها نبيّها صلوات الله وسلامه عليه بعض صور الانحراف وآثارها بمعادلات رياضية خمسة ، فقال فيما يرويه الطبراني عن ابن عباس : [خمس بخمس : ما نقض قوم العهد إلا سُلِّطَ عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طففوا المكيال إلا مُنعوا النباتَ وأخذوا بالسنين ، ولا منعوا الزكاة إلا حُبِسَ عنهم القطر][1] .

وكذلك من هذه المعادلات حجم المياه النازل فهو متساوٍ في كل عام ، إلا أن تصريفه في الأرض حسب متحولات ومتغيرات : وهي حجم المعاصي وآثار ذنوب العباد ، وصفات قلوب الرجال وتهتك أو تمسك النساء بالحجاب والعفاف ولباس التقوى وغير ذلك من المتحولات .

فقد أخرج الحاكم على شرط الشيخين عن ابن عباس قال : [ما من عام بأكثرَ مطراً من عام ، ولكن الله يُصَرِّفه بين خلقه حيث يشاء ثم قرأ : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾][2] .

وله شاهد عند البغوي عن ابن مسعود يرفعه ولفظه : [ليس من سنة بأمرَّ من أخرىٰ ، ولكن الله قسم هذه الأرزاق ، فجعلها في السماء الدنيا في هذا القطر ، ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ، ووزن معلوم ، وإذا عمل قوم بالمعاصي حول الله ذلك إلى غيرهم ، فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفيافي والبِحار][2] .

سادساً : ثم أمره الإسلام بإعمال حواسه من أجل نماء فكره وعقله .

فقال سبحانه آمراً المسلم باستعمال سمعه وبصره وعقله محملاً له مسؤولية ما يصدر عنه من ذلك : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : 36] .

---

(1) صحيح الجامع (3235) .

(2) السلسلة الصحيحة (2461) .

وقد اعتبر بعض المفسرين كلمة الميزان التي وردت مرتين في القرآن الكريم في سورة الشورى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ وفي سورة الحديد : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ ﴾ بأنها الموازين التي تبني عقول الناس ، وأن الله أرسلها مع الأنبياء كما أرسل معهم الهدى الذي يبني نفوسهم ، وأن الله تعالى أرحم بعباده من أن يكلهم إلى بشر يبنون عقولهم وتفكيرهم .

قلت : ومن هذه الموازين التي أرسلها الله مع الرسل تلك القواعد الكلية التي تندرج تحتها مسائل كثيرة جزئية اكتشفها العلماء الراسخون الذين بحثوا في أصول الفقه الإسلامي ، وكان أول من سبق في هذا المجال الإمام الشافعي رحمه الله حيث ألف كتابه الرسالة ثم مضىٰ على منهاجه أئمة كرام أسهموا في هذا الجانب لينظروا إلى الشريعة وقد قامت على أركان وموازين وأصول فسمّوا بعلماء الأصول .

وقد قال الله سبحانه في سورة الأعراف : ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وقال في سورة الحشر : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . ولكنها كلها موازين للحكم والاعتبار ، لا لمجرد القصص والحكاية والأمثال . فقد أخرج ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه بإسناد صحيح عن سعد رضي الله عنه في قول الله عز وجل : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ الآية . قال : (أنزل الله القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً ، فقالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فأنزل الله : ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ الآية ، فتلاها رسول الله ﷺ زمانا ، فقالوا : يا رسول الله لو حدثتنا فأنزل الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ﴾)(1) .

وكذلك أمْرُ الله لنبيّه في سورة النحل : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . فصرف بذلك الله انتباه المسلم الصحابي إلى أن الذكر

---

(1) الصحيح المسند من أسباب النزول . سورة يوسف آية (1 - 3) .

الأول وهو السنة المُبَيِّن لما نُزِّل للناس من ربهم وهو القرآن مصدر نماء العقل ، وفي كنوزه ميراث الخير وما يرفع بالمحاكمات ووسائل الميزان والقياس والفتوى والقضاء والحكم ، الأمر الذي ولّد في قلوب وعقول العلماء لما امتلأت من الوحيين طاقة داخلية فعّالة ، وحيوية فائقة ، لم يتركها الإسلام لتضيع سدىً ، بل وجهّها نحو الخارج من أجل تطويعه وتلوينه بألوان الداخل ؛ فقننّ لها قاعدتين : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والثانية : إعمار الكون.

أما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : فقد اعتبره القرآن علامة خيريّة هذه الأمة فقال جل ثناؤه في سورة آل عمران : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ .

قال الضحاك : (هم أصحاب رسول الله ﷺ خاصة . وكانوا هم الرواة الدعاةَ الذين أمر الله المسلمين بطاعتهم) . وقال مجاهد : (كنتم خير الناس للناس على هذا الشرط ، أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر وتؤمنوا بالله) .

يروي ابن ماجه بإسناد حسن عن عُبيد الله بن جرير عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : [ما من قوم يُعْمل فيهم بالمعاصي ، هم أعزّ منهم وأمنع لا يغيرون إلا عمهم الله بعقاب][1] .

وروى هو والإمام أحمد بسند صحيح عن قيس بن أبي حازم قال : [قام أبو بكر فحمد الله وأثنىٰ عليه ثم قال : يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ إلى آخر الآية وإنكم تضعونها على غير موضعها ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الناس إذا رأوا المنكر فلم ينكروه (وفي رواية : لا يغيرونه) أوشك أن يعمهم الله بعقابه][2] .

وكذلك روى الإمام مالك في الموطأ عن إسماعيل بن أبي حكيم أنه سمع عمرَ بن عبد العزيز يقول : [كان يقال : إن الله تبارك وتعالى لا يُعَذِّبُ العامة بذنب الخاصة ولكن إذا عمل المنكر جِهاراً استحقوا العقوبة كلُّهم] .

---

(1) تخريج المشكاة (5142) .

(2) تخريج الطحاوية (507) وصحيح الجامع (1970) والسلسلة الصحيحة (1671) .

فمن هنا كان لزاماً على مقدمة الأمة أن تقوم بالأمانة التي ألقاها الله عليها ، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو علامة خيرية هذه الأمة علىٰ الأمم من غيرها ، وهذه القاعدة تعني مواجهة الأخطار والأمراض التي يمكن أن تتولد في الأمة أثناء مسيرتها ، وتعني من جهة أخرى وعْيَ مقدمة الأمة ممثلة بقادتها وعلمائها إلى الواقع الاجتماعي الذي يصل ويربط أبناءها وشرائحها .

لقد تجسدت هذه القاعدة عبر تاريخ الإسلام بعلماء ربانيين تصدوا على مدار التاريخ لكل الانحرافات التي ظهرت وتولدت في الأمة نتيجة الركون إلى الدنيا وقلة الاستزادة من الوحي من جهة ، أو نتيجة الاحتكاك بالأمم الأخرىٰ وما حملته للأمة ونقلته من أشكال انحرافها من جهة ثانية .

ولكن العلماء الراسخين في الأمة واجهوا المحن والفتن وتصدوا لها بأقلامهم وأجسادهم ودمائهم وصححوا مسيرة الأمة باستمرار ووضعوها على الطريق المستقيم. فحفظ الله بذلك القيام فضلهم ، وألمع بهذه المواقف ذكرهم ، ليبقوا في محل الصدارة والقيادة دوماً في قلوب المؤمنين الذين سيأتون من بعدهم .

وأما إعمار الكون فقد كانت صفة ملازمة للجماعة المؤمنة منذ اللحظة الأولى ، وخصلة من خصال المجتمع الإسلامي على مر العصور والأزمان ، وقد تجسدت هذه الصفة بإفراز حضارة ضخمة في مختلف المجالات الزراعية والصناعية والسكنية وغيرها ، كما تجلت بإفراز المنهج التجريبي عند المسلمين والذي يعتبر أساس بناء الحضارة الغربية ، والتي قامت به يوماً فأجهزت على الكنيسة الخرافية ، كما أفرزت أوامر الرحمن إلى العقل عند المسلمين تراثاً ضخماً في مختلف العلوم : كالطب والفيزياء والمثلثات والهندسة والعمارة والكيمياء وغيرها برعَ بها المسلمون يوماً وأصّلوا قواعدها .

يقول سان سيمون : (فما كان العرب يبدؤون إقامتهم في جزء من أوربا حتىٰ أنشؤوا مدارس لتلقين العلوم التي تقوم على الملاحظة) .

حتى إن بعض البابوات قد توجهوا حينئذ إلى قرطبة ليتموا تعليمهم بدراسة العلوم التي تقوم على الملاحظة والتحليل والتجربة على يد أساتذة عرب مسلمين ،

وقد غادرتُ الغربَ يوماً وتركت بفضل الله أثراً في حضارة الأمريكيين والأوربيين وغيرهم يُذَكِّرُ بأستاذية المسلمين في الأرض ، وإنما تخلف المسلمون لما ضيّعوا وبدّلوا.

نعم ، لقد أفرزت أوامر الرحمان إلى العقل ، وضربُ الأمثال ، واعتبار المسلم مسؤولاً عن سمعه وبصره وفؤاده ، أفرزت فيما بعد المنهج التجريبي عند المسلمين ، الذي أنشأوا به وأحيوا كثيراً من العلوم وطوّروا بها حياتهم وواقعهم ومجتمعاتهم متأثرين بأمر النبي ﷺ الذي أخرجه الإمام أحمد في المسند عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ: [إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتىٰ يغْرِسَها فليفعل]. وفي لفظ آخر : [إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فليغرسها فإن له به أجراً][1].

لقد واجه المسلم في الماضي المجتمع وما فيه من شرور وأخطاء وانحرافات بطريقة النبوة فقوّمها وأزالها ، وأقام مع الجماعة المؤمنة مجتمع الحق والعدل والطهر. ثم انصرف إلى الكون فزاد من عمرانه واكتشاف حقائقه وسننه ، فبرع في مختلف المجالات الزراعية والصناعية والحضارية ، فما باله اليوم تردىٰ فصار سلبياً نحو مجتمعه الذي انتكس وَعَلَتْهُ الفوضىٰ والشرور ، ونحو واقعه حيث أصبح مسلم اليوم يستهلك دون أن يعمّر أو ينتج ، ويأخذ دون أن يعطي أو يقدم ، ويخرّب أحياناً ولا يبني؟

إن الناظر في واقع مسلم اليوم يدرك أن سبب هذا التخلف والفرار إنما يعود إلى غياب المنهج الذي أحيا الإسلام فيه نفسه وتفكيره وعقله ، فقد ملأ الإسلام نفس المسلم يوماً بتعظيم الله والخضوع له والخوف من ناره ورجاء رحمته وجنته ، والتعلق بحبه أكثر من محبوبات الدنيا ، فانتكس اليوم حين صار تعظيم الهيئات والأشخاص والشهوات والعادات أكبر في قلبه ، وألصق إلى نفسه.

وقد ملأ الإسلام فكر المسلم وعقله يوماً بحب الاكتشاف والبحث العلمي الذي يوصله لمعرفة أكبر عن الله الخالق العظيم ، تورثه زيادة في الإيمان به سبحانه وزيادة في الإجلال والتعظيم ، وزيادة في القوة في الأرض تورثه أستاذية بين العالمين ،

---

(1) صحيح الجامع (1437) والسلسلة الصحيحة (9).

فقد كشف الله له يوم مضىٰ على سننه أسباب التمكين وقوانين الكون والإعمار وإتقان صنعة الصانعين ، فانتكس اليوم حين صار الأجنبي أستاذاً له فمضىٰ يشيد به ويقلده لا في إتقانه الذي ورثه ذاك الأجنبي من أجداد المسلمين ، بل في رذيلته التي سلط الله عليهم بها أمراضاً استعصت على الأطباء الحاذقين.

(3) ـ الإعداد النفسي الشعوري:

لقد خاطب الوحي الكريم ممثلاً بكتاب الله العظيم وبكلام سيد المرسلين مشاعر النفس المؤمنة وأحاسيسها ، وغار في التأثير في أعماقها معالجاً لأحزانها وما يؤلمها ، منشطاً لها في استئناف الطاعة والتذلل لبارئها ، مسلياً لها عند مصابها ومبشراً لها في صبرها ، ومطمئناً لها بأن مع العسر يسراً وبأن مع الصبر نصراً وفرجاً ومخرجاً.

ولكن القرآن العظيم قد تحدث كثيراً عن نعم الله سبحانه على الإنسان ، ليلفت انتباهه إلى هذه النعم المبثوثة في نفسه ، لتكون في المستقبل القريب بشكرها والتذلل للمنعم المتفضل عليها جزءاً من بنائه الشعوري الداخلي ، ولبنة من لبنات بنيانه النفسي الإحساسي ، ومرحلة من مراحل الإعداد الكلي التوازني.

لقد ذكره الله جل ثناؤه بنعمة الخلق ونعمة العقل ونعمة تسخير ما في هذا الكون من الدواب والطعام والشراب ، وبنعمة الأمن ونعمة الشمس والقمر ، ونعمة الجبال والبحار والشجر ، وغير ذلك مما كان له الأثر في صقل وتربية نفوس أتباع الرسل المؤمنين ، ليكتمل بناؤها يوماً ويصلب عودها ، وتأتي أكلها ، وتسمو بإيمانها وثقتها بالله العظيم ، وهي تتهيأ لمرحلة قادمة على طريق البناء ومنهاج النبوة ، وهي مرحلة اللقاء والحسم الذي ينصر الله فيه أولياءه ويخذل أعداءه ومن طغوا واستكبروا في أرضه. وتفصيل ذلك:

أولاً: نعمة استواء الخلق واكتمال صورته:

فقد قال الله جل ثناؤه في سورة التين: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾. وقال في سورة الانفطار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾. وقال في سورة النحل: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. وقال في

سورة الزمر : ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ . وقال في سورة الأعلى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ . وقال في سورة الأنعام : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ . . ﴾ .

وقد خرّج البخاري في صحيحه عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : [نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ](1) .

وكذلك أخرج الحاكم والبيهقي عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : [اغتنم خمساً قبلَ خمس : حياتَك قبلَ موتك ، وصحتك قبل سقمِكَ ، وفراغك قبل شغلِكَ ، وشبابكَ قبل هرمك ، وغناك قبل فقرك](2) .

قلت : وقد جمع الله هذه النعمة العالية ، وصوّر للإنسان صورة الانحراف إذا ما كان الكبر أو الغرور قد طغىٰ على هذه النفس العاتية . فقد أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن جُبَيْرِ بن نُفَيْر عن بُسْر بن جحّاش القُرَشيِّ أنّ النبي ﷺ بصق يوماً في كفّه فوضع عليها أَصْبُعَهُ ثم قال : [قال الله : ابنَ آدم أنّى تُعْجِزُني وقد خلقتك من مثلِ هذه حتىٰ إذا سَوَّيْتُكَ وعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بين بُردين وللأرض منكَ وئيد ، فجمعت وَمَنَعْتَ حتىٰ إذا بَلَغَتِ التَراقيَ قُلْتَ أتصَدَّقُ وأنىٰ أوانُ الصدقة](3) .

فكانت تسوية الخلق واكتماله وحسن صورته من أجّل النعم التي يحتج الله سبحانه على المؤمن بها ، فيزداد إيماناً بشكر الله لها ويكتمل بناؤه النفسي والشعوري بمعرفته بفضل الله عليه بها .

ثانياً : نعمة الماء والنبات والشجر :

فقد قال سبحانه في سورة النحل : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . وقال في سورة الملك : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴾ [تبارك : 30] .

(1) ورواه الترمذي وابن ماجه . صحيح الجامع (6654) .

(2) صحيح الجامع (1088) .

(3) أحمد في المسند (210/4) وهو حديث صحيح .

وقال في سورة النمل: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وقال في سورة الفرقان: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾. وقال في سورة ق: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾. وقال في سورة عبس: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾.

ومن هنا كانت وصية النبي ﷺ لمعاذ إذا مرّ بشجر أن يذكر الله العظيم المنعم المتفضل. فقد أخرج الطبراني في الكبير عن أبي سلمة قال: قال معاذ: قلت: يا رسول الله أوصني قال: [اعبُد الله كأنك تراهُ، واعدُدْ نَفْسَكَ في الموتىٰ، واذكُر الله عندَ كل حجرٍ، وعند كل شجر، وإذا عملت سيئة بجنبها حسنة، السِّر بالسِّر، والعلانيةُ بالعلانية][1].

ثالثاً: نعمة الدواب والمسكن والملبس:

فقد عطفها سبحانه في سورة الأنعام على النعمة السابقة نعمة النبات والشجر والثمر، فقال جل ثناؤه: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

ووصفها سبحانه في سورة النحل: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ

(1) السلسلة الصحيحة (1475) وصحيح الجامع (1051).

﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: 5 - 9].

ثم قال جل ذكره في نفس السورة يلفت انتباه ومشاعر نفوس المؤمنين إلى هذه النعم الكبيرة التي يمتن بها سبحانه على عباده ليكونوا من الشاكرين والطائعين، وليكمل بها بناء نفوس المسلمين المخبتين: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: 79 - 81].

قلت: فإن كان المسكن واسعا، والدابة وطيئة سريعة، كان ذلك نوراً على نور، وأبلغ في السعادة وراحة النفس، فإن الضيق مما يؤذيها. فقد أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن نافع بن عبد الحارث عن النبي ﷺ قال: [ثلاث خِصالٍ من سعادةِ المرء المسلم في الدنيا: الجار الصالح، والمسكن الواسع، والمركب الهنيء](1). ولفظ الحاكم عن سعد: [ثلاثٌ من السعادة وثلاث من الشقاوة، فمن السعادة: المرأة تراها تعجبك، وتغيب فتأمنها على نفسها ومالك، والدابة تكون وطيئة فتلحقك بأصحابك، والدار تكون واسعةً كثيرةَ المرافق.... الحديث](2).

وكذلك في صحيح الإمام مسلم عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: [يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم

(1) صحيح الجامع (3026).
(2) السلسلة الصحيحة (1803) وصحيح الجامع (3051) والحديث حسن.

جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم . . . الحديث][1] .

رابعاً : نعمة اللبن والعسل والثمر :

فقد وصف الله هذه النعمة في سورة النحل بقوله : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : 66 - 69] .

وقال في سورة الأنعام : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ . وقال أيضاً : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : 95 - 99] .

لقد أخرج الإمام الحاكم بإسناد صحيح عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : [عليكم بألبان البقر ، فإنها ترُمُّ من كل الشجر ، وهو شفاء من كل داء][2] .

وفي رواية : [عليكم بألبان البقر ، فإنها دواء ، وأسمانها فإنها شفاء ، وإياكم ولحومَها ، فإن لحومها داء][3] .

ولفظه عند ابن السني عن صهيب : [عليكم بألبان البقر ، فإنها شفاء ، وسَمْنُها دواء ، ولحمها داء][4] .

وأما العسل فهو دواء ، وفيه بإذن الله مظنة الشفاء ، خبر النبي ﷺ أخرجه أحمد

---

(1) مختصر صحيح مسلم (1828) .

(2) صحيح الجامع (3938) .

(3) السلسلة الصحيحة (1943) .

(4) صحيح الجامع (3940) .

عن عقبة قال: قال رسول الله ﷺ ثلاثاً: [إن كان في شيءٍ شفاء فشرْطة محجَم، أو شربةُ عسلٍ، أو كيّةٌ تصيب ألماً، وأنا أكرَه الكيَّ ولا أحبّه][1].

وأصله في الصحيحين من حديث جابر ولفظه: [إن كان في شيء من أدويتكم خيرٌ ففي شرطة محجم، أو شربة من عسل، أو لذعةٍ بنار توافق داء، وما أُحبُّ أن أكتوي][2].

وفي سنن أبي داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: [كان يأكل البطيخ بالرُّطب، ويقول: يُكسر حرُّ هذا ببرد هذا، وبردُ هذا بحرّ هذا][3].

فسبحان من أخرج الثمر والعسل واللبن، وسبحان من علّم النحل طريقة التنقل بين حقول الثمر والزهر، وسبحان من أخرج من بين فرث ودم هذا اللبن، وجعل فيه وفي العسل شفاء ودواء يشفي بإذن الله أجساد البشر.

خامساً: نعمة الليل والنهار والنجوم والجبال والبحار:

فقد تفضل سبحانه على عباده بهذه النعم العظيمة، فقال في سورة النحل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَـٰمَـٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: 12 - 18].

وقال في سورة الإسراء: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

وقال في سورة القصص: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ

(1) السلسلة الصحيحة (245).

(2) مختصر صحيح مسلم (1480).

(3) السلسلة الصحيحة (57).

مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ . وقال في سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ . وقال في سورة النازعات: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ . وقال في سورة النبأ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ .

وفي صحيح الإمام مسلم ومسند الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [خلق الله التربة يومَ السبت، وخلق فيها الجبال يومَ الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدوابّ يومَ الخميس، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخَلْق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل](1).

وقد خرج الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [تَفْضُلُ صلاة الجميع صلاةَ أحدِكم وحْدَهُ بخمْسٍ وعشرين جزءاً وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر. ثم يقول أبو هريرة: فاقرؤوا إن شئتم ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾(2). قال شعيب: وحدثني نافع عن عبد الله بن عمر قال: تفْضُلُها بسبع وعشرين درجة].

سادساً: نعمة الأمن:

وهي من أجل النعم التي تحتاجها النفس البشرية، وتزيد في إيمان المؤمن وشكره، وهي وإن فقدت تأثرت كل أحوال الحياة وفُقِدت لذاتها والتمتع بنعيمها.

فقد امتنّ الله بها على قريش بقوله في سورة القصص: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ

---

(1) مختصر مسلم (1605).

(2) ورواه النسائي. صحيح الجامع (2971).

أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وقال في سورة العنكبوت: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾. وقال في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾. وقال في سورة قريش: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾.

قال أبو العالية: (وأمنا من العدو، وأن يحمل فيه السلاح، وقد كانوا في الجاهلية يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون لا يسبون).

وقال قتادة: (أو لم يكونوا آمنين في حرمهم، لا يُغْزَون فيه ولا يخافون، يُجبىٰ إليه ثمرات كل شيء).

وقال ابن زيد: (آمناكم به. قال: هي مكة، وهم قريش).

وقد أخرج الترمذي وابن ماجه بسند حسن عن عبد الله بن محصن عن النبي ﷺ قال: [من أصبح منكم آمناً في سِرْبِهِ، مُعَافىً في جسده، عنده قوتُ يومِه، فكأنما حيزَتْ له الدنيا بحذافيرها][1].

ثم بعد بيان هذه النعم العظيمة التي شُكرها جزء من البناء النفسي في حياة المؤمن وتألقه واستقراره، لينهض يوماً إلى مهمات صعبة تحتاج إلى قلوب مصقولة، ونفوس قويمة زكية، وأرواح متألقة ترخص في سبيل الله وفي غاية إعلاء كلمته والمضي على منهاج أنبيائه، فقد دخل الوحي الكريم إلى أعمق الآفاق في هذه النفس ليشاركها أتراحها وأفراحها. وتفصيل ذلك:

أولاً: لقد خاطب الوحي نفس المؤمن ليهيئها، وغار بالتأثير في أعماقها، معالجاً لأحزانها ومصابها، ومشاركاً لها في أفراحها وسرورها، ومسلياً لها في صبرها حالة ضيقها.

فقال جل ثناؤه في سورة البقرة: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾.

---

(1) صحيح الجامع (5918).

وقد أخرج ابن حبان في صحيحه والبيهقي في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [أكثروا ذكر هادم اللذات: الموت، فإنه لم يذكره أحد في ضيق من العيش إلا وسَّعَه عليه، ولا ذكره في سعة إلا ضيّقها عليه] وسنده صحيح[1].

ثم خفف عنها إذا أصابها عنت الفقر وقلة المال، بأنه أقل للحساب، وأسهل لعبور الأهوال يوم القيامة. فقد أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن محمود بن لبيد عن النبي ﷺ قال: [اثنتان يكرههما ابن آدم: يكره الموت والموت خير له من الفتنة، ويكره قلة المال وقلةُ المال أقل للحساب][2].

ثانياً: بارك لها بالغنىٰ إذا حصل، موضحاً أن السعادة بالنفس الطيبة والعافية أكبر من السعادة بالمال. فقد قال الله سبحانه في سورة الكهف: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾.

وفي المسند عن يسار بن عبيد عن النبي ﷺ قال: [لا بأس بالغنىٰ لمن اتقى، والصحة لمن اتقى خير من الغنىٰ، وطيب النفس من النعيم][3].

ثالثاً: ثم دخل الإسلام ممثلاً بالوحيين إلى بيت المسلم ليتأكد من سلامة النفوس فيه.

فقد دعا الزوجة الفاضلة إلى التلطف مع زوجها، وإلى بث الأنس داخل البيت حتى ولو ظلمت، فإن الله هو أعلم كيف خلق نفس الرجل وكيف تضعف، وهو أعلم كيف يعيد البركة والمودة بين الزوجين. فقد قال الله جل ثناؤه في سورة النساء: ﴿فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ قَـٰنِتَـٰتٌ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾.

وقد أخرج الدارقطني والطبراني في الكبير بسند صحيح عن كعب بن عُجرة عن النبي ﷺ قال: [ألا أخبركم برجالكم من أهل الجنة؟ النبي في الجنة، والصِّديق في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة، والرجل يزور أخاه في ناحية

---

(1) الإرواء (682) وتخريج المشكاة (1607).

(2) السلسلة الصحيحة (863) وصحيح الجامع (138).

(3) صحيح الجامع (7059).

المصر لا يزوره إلا لله عز وجل. ونساؤكم من أهل الجنة: الودود الولود العؤود على زوجها التي إذا غضب جاءت حتى تضع يدها في يد زوجها وتقول: لا أذوق غمضاً حتى ترضىٰ].

وفي روايـة: [ألا أخبركم برجالكم من أهل الجنة؟ النبيّ في الجنة، والشهيد في الجنـة، والصديق في الجنة، والمولود في الجنـة، والرجل يزور أخاه فـي ناحية المصر في الله في الجنة. ألا أخبركم بنسائكم من أهل الجنة؟ الودود الولود، العـؤود، التي إذا ظُلمت قالـت: هـذه يدي في يـدِك، لا أذوق غمضـاً حتـى ترضى][1].

فجمع الله بهذا الخير على المؤمن بيته وزوجته، وأثنىٰ على الزوجة الكريمة إذ جاءت ترقق وتلطف وقد تجاوزت مشاعرها وعواطفها وهي تعلم أنها مظلومة لتعيد الأنس والأمن إلى البيت، فأخذت بيد زوجها قائلة له: هذه يدي في يدك، لا أذوق غمضاً حتىٰ ترضىٰ، فرضي الله بذلك عن صنيعها واختارها صنفاً واحداً من النساء ضماناً للجنة، من بين أصناف عدة لرجال أهل الجنة، وحجز لها برحمته وكرمه مقعداً في جناته، وضمن لها الأنس والأمن يوم القيامة في روضاته. ثم إنه بهذا التشريع العظيم، وهذا العلم عن النفس من الوحيين، فقد تمّت حراسة بيوت المؤمنين من الشياطين، لأن ذلك التصرف الرفيع من الزوجة سيحمل الرجل بضعفه على مبادلة ذلك اللطف من زوجته بالكف عن الغضب، وبالرجوع إلى الاستغفار والحلم، فإن الحلم بالتحلم، فياله من علاج رائع تقدم به الوحي إلى النفس المؤمنة من ذكر وأنثى، لتتجاوز هذه المرحلة ولتتهيأ إلى بلوغ المعالي والجهاد في سبيل الله.

رابعاً: عالج الوحي الكريم مشكلة الذنب وأثرها في نفس المؤمن. فقال جل وعز في سورة الشمس: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾. فشجعها على تزكية النفس بالعمل الصالح لتجاوز ما استزلها به الشيطان.

---

(1) صحيح الجامع (2601).

ثم هذّبها كيلا تقع في المعصية. فقد أخرج ابن حبان في صحيحه عن أسامة بن شريك عن النبي ﷺ قال: [ما كرهت أن يراه الناس منك فلا تفعله بنفسك إذا خلوت][1].

ثم واساها إذا وقع الذنب ليعينها على العودة. قول الله سبحانه في سورة الأعـراف: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾.

وفي معجم الطبراني بسند جيد عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: [ما من عبد مؤمن إلا وله ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة، أو ذنب هو مقيم عليه لا يفارقه حتى يفارق الدنيا. إن المؤمن خُلق مفتنا تواباً نسياً إذا ذُكِّرَ ذَكَرَ][2]. فكشف لها دقائق من علم هذه النفس وخبرها ما كان لعلماء الدنيا أن يكشفوها. وله أيضاً بإسناد حسن عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [ما من القلوب قلب إلا وله سحابة كسحابة القمر، بينما القمر يضيء إذ علته سحابة، فأظلم إذ تجلت][3].

ثم كشف لها سرّ قبول المغفرة ليعزيها إذا سقطت أو زلت ووقعت، بأنْ لا تيأس من الاعتراف بالذنب والتذلل أمام أبوابه سبحانه ترجو رحمته وتخاف عذابه، وأصل ذلك في الصحيحين والمسند من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [إن عبداً أصاب ذنباً فقال: ربّ أذْنَبْتُ، فاغفره، فقال ربُّهُ: أعَلِمَ عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله، ثم أصابَ ذنباً، فقال: ربي أذْنَبتُ آخر، فاغفر لي قال: أعلِمَ عبدي أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ به؟ غفرت لعبدي، ثم أصاب ذنباً، فقال: رب أذنبت آخرَ، فاغفر لي، قال: أعلِمَ عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذُ به؟ قدْ غفرتُ لعبدي فَليعمل ما شاء][4].

خامساً: ثم بالغ الإسلام العظيم في إجزال الثواب لمن استطاع أن يدخل السرور على نفس أخيه وقلوب المؤمنين، حرصاً من الشارع سبحانه على الجماعة ومعاني

---

(1) السلسلة الصحيحة (1055) وصحيح الجامع (5535).

(2) صحيح الجامع (2277).

(3) حسن. السلسلة الصحيحة (2268) وصحيح الجامع (5558).

(4) ورواه أحمد. صحيح الجامع (2099).

الإيثار والإحسان وأخوة المسلمين. فقال سبحانه في سورة الحجرات: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾.

يروي الطبراني في الأوسط وابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج وابن عساكر في تاريخ دمشق بسند صحيح عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ وقد سأله رجل من أحب الناس إلى الله قال: [أحب الناس إلى الله أنفعهم، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخلهُ على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينا، أو تطردُ عنه جوعاً، ولأن أمشيَ مع أخي المسلم في حاجة أحبُّ إلي من أن أعتكف في المسجد شهراً، ومن كفّ غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رضا يوم القيامة، ومن مشىٰ مع أخيه المسلم في حاجته حتىٰ يثبتها له أثبت الله تعالى قدمه يوم تزل الأقدام، وإن سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل][(1)].

قلت: ومن أين لعلماء النفس في الغرب والشرق أن يدركوا مثل هذا الكلام الجامع، أو يأتوا بمثل هذه الدقائق النفيسة عن النفس البشرية وعمّا يعتريها ويسعدها ويرفعها أو يُسَفِّلها ويشقيها، وهذا الحديث عندي يصلح أساساً لعلم النفس الذي يتخبط به اليوم علماء الشرق والغرب ولا يكادون يرسون على شاطىء من شطآنه. فلو سألناهم ما العلاقة بين كفّ الغضب وستر العورة؟ فلا تكاد تجد جواباً عندهم فهم مختلفون أولاً في تعريف العورة؟ فما هو تعريف العورة عند علماء النفس في الشرق والغرب؟! لا أدري، وهم لا يدرون! ولكن آخر الإحصاءات يوم كنت أدرس وأتخصص في الولايات المتحدة الأمريكية أن ثلاثين بالمائة من الشعب

(1) السلسلة الصحيحة (903) وصحيح الجامع (174).

الأمريكي يفتعل الفواحش ببناته ، حتى إن التلفزيون الأمريكي عرض يوماً في ندوته الأسبوعية عن الأسرة قصة رجل طلق زوجته وله منها ابنتان فاختارت واحدة منهما أن تبقىٰ مع أبيها في منزله فهو يضاجعها ويفحش بها في حياته اليومية ، ولم يخجل القوم هناك من أن ينشروا فضائحهم هـذه مصورة على التلفاز ، حتى إن المذيع آنذاك تقدم باقتراح جريء فقال للفتاة: أنا مستعد لأن أنفق عليك ولأن أتكفل بحاجات حياتك على أن تتركي والدك وتنقذي سمعة المجتمع الأمريكي ، ولكنها رفضت قائلة: لا أستطيع ، معذرةً! فلقد تعلقت فيه. فها هي إحدى الصور المنحطة التي تدلىٰ لها المجتمع الغربي الذي أعرض عن فطرة الله التي فطر الناس عليها.

وصورة أخرى في ولاية أوكلاهوما في الولايات المتحدة الأمريكية ، وهي قصة رجل متزوج وله أربع بنات يعيشون معه وزوجته في بيت واحد ، إلا أنه يجبر بناته منذ نشأتهن أن ينمن معه فيضاجع كل يوم واحدة ويفحش بها وله من كل بنت أولاد ينادونه كأبيهم ، وقصص كثيرة تملأ مجتمعات الشرق والغرب وتبرز صورة الأسرة الممزقة والحياة المفككة والرذيلة المدمرة.

فإذا ما أخذنا من العلماء العاملين في مجال النفس نتائج أبحاثهم في مجتمعاتهم التي أجروها على تلك العينات وأسقطناها على مجتمعاتنا لأعطت قراراً فاسداً بعيداً عن الدقة ، لأنه لا يوجد في مجتمعنا مثل هذا الانهيار والحمد لله ، وإن كانت تظهر بعض الحوادث بين الفينة والأخرىٰ تشبه ما يجري في الغرب والشرق ، إلا أن الفرق يبقىٰ شاسعاً بين مجتمع يتغذىٰ بالرذيلة صباح مساء ، ويتسابق في تسجيل الأرقام الجديدة البشعة في ذلك المضمار ، وبين مجتمع ما زال مشدوداً إلى مثل عليا ومحاطاً بسياج أخلاق الإسلام ، تمنعه بعض الشيء من محاولة التفلت السريع والتقليد الفاضح.

وجملة القول: فإن أخذ تلك النتائج الجاهزة وإسقاطها مباشرة على مجتمعاتنا المسلمة يظهر عواراً في العلاج وفي محاولة النهوض بالنفس من مطبات الشهوات ، فهي عينات منحازة لا تصلح للإسقاط المباشر ، ناهيك عن طريقتهم في معالجة مشاكلهم القائمة على اقتراحات عقلية قاصرة ورؤىٰ مادية ضيقة ،

لا تكاد تزيد عن معالجة سطوح الجلد المتشقق في جسد يحتاج أصلاً إلى جراحة في القلب الذي تهدّد بالعطب وصاحبه في حالة إسعافية.

ولقد أخبرني بعض علماء النفس في أمريكا وأوربا بأنهم رَمَوْا بكثير مما توصلوا إليه عن النفس بالأمس من نظريات وقواعد وما ظنوه من الثوابت لظهور ما يخالفه ويناقضه اليوم، وهم يحاولون إعادة الإقلاع في هذا العلم من جديد، وبرأيي أنّى لهم الثبات على منهج أو نتائج؟

أقول: ما أنصف المسلمون علمَ النفس من الوحيين: الكتاب والسنة، بل ركضوا يلهثون وراء الأجنبي الذي يتخبط مثلهم ليمدّهم به، فمن الذي يعلم عن النفس أكثر من خالقها الذي كلفها؟ ومن الذي يدرك آفاق النفس أحسن من نبيِّها الذي اختص بها.

(4) و(5) ـ الإعداد الجسمي والمادي الواقعي ومرحلة اللقاء والفصل:

لقد جاءت أوامر الوحي إلى الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام بعد تهيئة الأمة المؤمنة وجماعة الحق تهيئة فيها إحكام لبنائها وتربية على الإيمان واستثارة لدفائن عقولها وتحريك لأحاسيسها وتوجيه لمشاعرها ومراعاة لسلامة نفوسها، فجاءت الأوامر بأخذ أسباب القوة، من أجل الاستعداد ليوم الفصل والتمكين والشوكة، فإن سنة الله في الفريقين أهل الحق وأهل الباطل أن يلتقيا في يوم من أيام الله، يُعِزُّ فيه سبحانه أولياءه، ويكسر فيه شوكة أعدائه، والمستهزئين بشرعه ومنهاجه، فإذا كانت سنة الله قد مضت على هذه الصفة، فلا بد لأهل الإيمان أن يعتنوا بأسباب القوة التي يحمي بها الله الحق وأهله ودولته، ويمكن فيها للمؤمنين ليحكموا بشرعه ومنهاجه. من هنا كانت أوامر الله في هذه المرحلة إلى الرسل. وتفصيل ذلك:

أولاً: نوح في قومه: فبعد أن أقام نوح صلوات الله وسلامه عليه حجة الله البالغة على قومه، وعالج بالوحي وحجة الحق أمراضهم، ثم حين استهزؤوا وأصروا على الكبر فاصلهم، وانصرف يهتم ببناء الجماعة المؤمنة، حتىٰ جاءه الأمر الإلهي بضرورة الإعداد الجسدي والحركي الواقعي، فأمر سبحانه بصناعة سفينة الإيمان والنجاة التي سيركبها المؤمنون، وسيجنّبها المستكبرون المعاندون. فقال جل وعز يحكي ذلك في سورة هود: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن

قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ . ثم وصف سبحانه أمره إلى نوح بالتهيؤ لخوض الملحمة والتزام ذكر الله عند الركوب وصدق الصلة والدعاء ، فقد اقتربت ساعة الصفر ، كما اقترب هول الفاجعة التي ستنزل بمن أسرف ولم يؤمن ، لتعقبها النجاة والفوز وفرحة النصر لمن أخلص النية والعمل لله وأحسن الإيمان. فقال جل ثناؤه : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

ثم عاش نوح مع المؤمنين بعد نجاة سفينة الإيمان يحكم في الأرض بمنهج الله وشريعته ، ويقيم فيهم أوامر وحيه ، فإن بعد العسر يسراً وإن بعد الصبر فرجاً ومخرجاً ، وإن المكر السيء لا يحيق إلا بأهله .

ثانياً : هود في عاد : فبعد أن قام هود بالمراحل السابقة من بلاغ فيه حجة وإحقاق للحق ودليل وبرهان ، ثم مفاصلة للملإ الكافر المستهزىء وإعداد لأهل الإيمان ، وتهيؤ لمعركة الفصل جاءت أوامر الله ببدء مرحلة الاستلام والتسليم والاستبدال والتبديل ، فقال جل ثناؤه يحكي دقائق ذلك في سورة هود : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ .

قلت : وهذا اللقاء قد لا يكون حرباً وقتالاً ، بل قد يكفي الله المؤمنين القتال وينصرهم على عدوهم وينجيهم. كما قال شيخ الإسلام رحمه الله : (فمن أُمِرَ بالحرب نصره الله على عدوه ، ومن لم يكن مأموراً بالحرب مكنه الله من عدوه) .

ثالثاً: صالح في ثمود: قال سبحانه يحكي قصة النصر في سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾. وقال في سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

رابعاً: لوط في قومه: حكى الله سبحانه قصة النجاة وتمكين المؤمنين وشؤم صورة هلاك المجرمين والمستكبرين، فقال في سورة الأعراف: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾. وقال في سورة هود: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾. وقال في سورة الشعراء: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

خامساً: شعيب في مدين: حكى الله سبحانه قصة إنهاء شوكة المستكبرين، وقصة إعلاء شأن المؤمنين وما صاحبه من الشوكة والتمكين. فقال في سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾. وقال في سورة هود: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾.

سادساً: موسىٰ في قوم فرعون: فقد ألقىٰ الله أضواءً على القصة من جوانب مختلفة في مواضع مختلفة من القرآن، ليظهر سبحانه أدنىٰ ما انحطت إليه البشرية في الطغيان، وليصور للناس صورة الذل التي تهيمن على العباد يوم لا يرون بأساً

في تحكم طاغية يستعبد الناس ويغير دين الأنام ، وليبرز سبحانه صفات حاشية السوء الذين باعوا أثمن ما فطرهم الله عليه ليصفقوا لدجال لم يأت مثله على مر الزمان. فها هو موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، قد جاءهم لينذرهم مغبة التدلي في الشرك والكبر فاستهزؤوا ومكروا وجمعوا السحرة وظنوا أن المكر ينجيهم على مر الأيام ، فانتصر موسىٰ وسجد السحرة وآمن الناس لرب العالمين ، رغم أنف فرعون وحاشيته من المبطلين ، ثم فاصلهم وأعدّ جماعة المؤمنين ، ليهيئهم ليوم الفصل يوم يهزم الله المكرة المعاندين. فقال سبحانه يصف هذا الإعداد من موسىٰ عليه السلام في سورة الأعراف : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ .

وقال في سورة يونس: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾. ثم وصف سبحانه يوم اللقاء ، وشؤم هزيمة من كتب عليه الشقاء ، ومن تمادى في الغيّ والكبر والعناد فظن الدوام والبقاء ، فقال في سورة طه : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ .

وفصّل في سورة يونس في وصف دقائق الهزيمة وذل المصيبة التي لحقت بفرعون وملئه فقال جل وعز : ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ .

وقد فصّل جبريل عليه السلام للنبي ﷺ صورة الغرق وشؤمها التي لحقت بفرعون وهو يستغيث بمن كفر به من قبل ، فقد أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : لما أغرق الله فرعون قال آمنت أنه

لا إلٰه إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل. قال جبريل: يا محمد فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة][1].

ثم جاءت المرحلة الخامسة في حياة موسىٰ والمؤمنين الذين أنجاهم الله في البحر يوم أغرق الكافرين، ليحكم بهم موسىٰ بشرع الله ووحيه العظيم. فقال جل ثناؤه يحكي قصة الاستخلاف والتمكين والحكم في حياة موسىٰ ومن معه في سورة الأعراف: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾. وهو الوعد الذي أخذه سبحانه على نفسه في سورة القصص حيث قال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾.

فمضى الباطل إلى غير رجعة، وحكم المؤمنون بالوحي ومنهج الفطرة، منهج الحق والصبر على البناءِ والتصفية والتربية.

سابعاً: محمد صلوات الله وسلامه عليه في أصحابه وأمته:

لقد اضطر النبي ﷺ إلى الهجرة بعد أن أقام الحجة على قومه وفاصلهم لما استهزؤوا، وصبر على رؤية تعذيب بعض أصحابه يوم تطاول المشركون عليهم واستضعفوا وعذبوا، ثم واصل البناء حتىٰ أذن الله له بالهجرة، لإكمال بناء الجماعة المؤمنة، فكانت الهجرة إعداداً حركياً واقعياً، وفهماً عميقاً ورؤية دقيقة من النبي ﷺ لواقعه وواقع خصومه.

فقد هاجر بعد أن أذن لسائر المؤمنين بتقدمه إلى المدينة، واستبقىٰ علياً ليؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس، ثم دخل على صاحبه أبي بكر فقال له كما يروي ابن إسحاق: [إن الله أذن لي في الخروج والهجرة. فقال أبوبكر: الصحبة يا رسول الله؟ قال: الصحبة. قالت عائشة: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكي][2].

---

(1) صحيح الجامع (5082).
(2) سيرة ابن هشام ـ الهجرة إلى المدينة.

وكان الأنصار في كل يوم ينتظرون قدوم نبيّهم ثم يعودون. إلى أن جاء يوم الثاني عشر من ربيع الأول لثلاث عشرة سنة من البعثة ، فبرز الأنصار على عادتهم يتطلعون قدوم نبيهم ، وحميت الظهيرة وهم على ذلك ، وكادوا ييأسون من مجيئه ، إلا أن رجلاً من اليهود صعد على بعض آطام المدينة لبعض شأنه ، فأبصر في الأفق البعيد الرسول وصاحبه يتقاذفهم السراب وتدنو بهم الرواحل رويداً رويداً إلى المدينة إلى وطن الإسلام الجديد ، فصرخ اليهودي بأعلى صوته: (يا بني قبيلة! هذا صاحبكم قد جاء ، هذا جدّكم الذي تنتظرون).

فأسرع الأنصار إلى السلاح يستقبلون به رسولهم ، وسُمِعَ التكبير يَرُجّ أنحاء المدينة. يروي البخاري عن البراء قال: [أول من قدم علينا من أصحاب رسول الله ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم فجعلا يقرئان الناس القرآن. ثم جاء عمار وبلال وسعد. ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين راكباً. ثم جاء رسول الله ﷺ فما رأيت الناس فرحوا بشيء كفرحهم به حتىٰ رأيت النساء والصبيان والإماء يقولون: هذا رسول الله قد جاء][1].

وبهذا المنعطف الحركي من رسول الله ﷺ ، وهو وحي الله وأمره له بالهجرة ، تبدأ أخطر مراحل الإعداد ، لتتهيأ الأمة بعد أدق مراحل البناء والإحكام والإتقان ، لاستقبال دولة الإسلام ، دولة الوحي والفرقان. فكان الأمر أولاً بالاهتمام بالرمي:

يروي الإمام مسلم عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول: [﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي][2].

وقد صنف الإمام البخاري بذلك باباً سماه: (باب التحريض على الرمي وقول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾).

---

(1) السيرة النبوية على منهاج الوحيين. د. مأمون حموش (ج 1) ص 373.
(2) مختصر مسلم (1102).

حتىٰ برزت مهارات عالية في مضمار القوة والرمي والإعداد ، وظهرت أرقام جديْدةٌ نافست الأرقام القديمة. منها ما ذكره البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: [كان أبو طلحة يَتَتَرَّسُ مع النبي ﷺ ، بِتُرْسٍ واحد ، وكان أبو طلحة حسنَ الرمي ، فكان إذا رمىٰ تَشَرَّفَ النبي ﷺ فينظُرُ إلى مَوْضِعِ نبلهِ][1]. ومنها ما رواه الإمام مسلم عن عبدِ الرحمن بن شماسَةَ: [أن فُقَيْماً اللَّخْميَّ قال لعقبة بن عامر: تَخْتَلِفُ بين هذين الغَرَضَيْن وأنت كبير يَشُقُّ عليك؟ قال عقبة: لولا كلام سَمِعْتُهُ من رسولَ الله ﷺ لم أعَانيه. قال الحارث (أحد الرواة): فقلت لابن شَماسَةَ وما ذاك؟ قال إنه قال: من عَلِمَ الرمي ثم تركه فليس منا أو قد عصى][2].

وكذلك روى الترمذي عن عقبة بن عامر : [أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية على المنبر ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ قال: ألا إن القوة الرمي ثلاث مرات ، ألا إن الله سيفتح لكم الأرض وستُكْفَوْنَ المُؤْنَةَ فلا يَعْجَزنَّ أحدُكُم أن يَلْهُوَ بأسْهُمِهِ][3].

وقد روى الإمام النسائي تفصيل هذا الامتثال لهذا الأمر من الوحي ، حين ذكر عن خالد بن يزيدَ الجُهنيِّ قال: [كان عقبةُ بن عامر يَمُرُّ بي ، فيقول يا خالد اخرُج بنا نرمي ، فلما كان ذاتَ يومٍ أبْطأْتُ عنه فقال: يا خالدُ تعالَ أُخْبِرْكَ بما قال رسول الله ﷺ! فأتيته ، فقالَ قال رسول الله ﷺ: إن الله يُدْخِل بالسهم الواحد ثلاثةَ نفرٍ الجنة ، صانِعَهُ يحتسب في صنعه الخير ، والرامي به ، ومُنَبِّلَهُ. وارموا واركبوا ، وأن تَرْمُوا أحبُّ إليَّ من أن تركبوا ، وليس اللهوُ إلا في ثلاثة: تأديبِ الرجل فَرَسَهُ وملاعَبتهِ امرأتَهُ ، ورمْيه بقوسِهِ ونَبْلِهِ ، ومن ترك الرمي بعد ما عَلِمَهُ رَغْبَةً عنه فإنها نعمةٌ كفرها أو قال كفرَ بها]. وفي رواية أبي داود: (فإنها نعمة تركها أو قال كفرها) وبنحوه روى أحمد[4].

وكذلك ساق ابن ماجه في سننه حديثاً عن المغيرة بن نَهيك أنه سمعَ عقبةَ بن

---

(1) ويشهد له حديث أطول في مختصر البخاري (1495).

(2) مختصر مسلم (1104).

(3) القسم الأول منه أصله في صحيح مسلم.

(4) المسند للإمام أحمد (146/4) وانظر تخريج الترغيب (172/2) وصحيح الجامع (6018).

عامر الجُهَنِيّ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [من تعلم الرمي ثم تركه فقد عصاني].

وعند أحمد في المسند عن أبي أمامةَ بنِ سَهْلٍ قال: [كتب عمرُ رضي الله عنه إلى أبي عبيدةَ بن الجراح: أنْ عَلِّمُوا غِلْمَانكُمْ العَوْم، ومُقَاتِلَتكم الرميَ، فكانوا يختلفون إلى الأغراض][1].

وكذلك في المسند عن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ قال: [من عُلِّمَ الرمْيَ ثم تركه بعدما عُلِّمَهُ فهي نعمة كفرها][2].

ثانياً: ثم رغبهم في الفروسية لتتعلق قلوبهم بها، وتنشط نفوسهم لركوب الأهوال وخوض الحروب، فلا تجبن عند اللقاء، ولا تجزع عندما يبسط العدو خيله وعتاده.

ففي الصحيح عن ابن عمر مرفوعاً: [الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والغنيمة].

وفي رواية من طريق عروة البارقي: [الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة، الأجر والمغنم][3].

وله شاهد في مسند الإمام أحمد عن جابر ولفظه: [الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يومِ القيامة، وأهلُها مُعانونَ عليها، فامسحُوا بنواصيها، وادعوا لها بالبركة، وقلِّدوها، لا تقلِّدها الأوتار][4] وسنده حسن. ورواه الطبراني في الأوسط بسند حسن عن جابر ولفظه: [الخيل معقود في نواصيها الخيرُ، واليمنُ إلى يوم القيامة، وأهلها معانون عليها، قَلِّدوها، ولا تقلدوها الأوتار][5].

ثالثاً: اعتبر الوحي الكريم الإنفاق على الخيل لتهيئتها ولاستمرار جاهزيتها

(1) وهو قول مشهور لعمر رضي الله عنه.
(2) ويشهد له ما في صحيح مسلم بلفظ (فليس منا) بدلاً من (نعمة كفرها). وانظر صحيح الجامع (6270).
(3) مختصر صحيح مسلم (1105).
(4) تخريج الترغيب (161/2).
(5) صحيح الجامع (3351).

كالإنفاق في سبيل الله وكأرفع درجات الصدقة. فقد أخرج الطبراني في الأوسط بسند صحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [الخيرُ معقودٌ بنواصي الخيل إلى يوم القيامة، والمنفِقُ على الخيل كالباسط كفَّهُ بالنفقةِ لا يقبضُها][1].

ثم ربطها سبحانه باسمه إذا أعدت للقتال في سبيل الله، وحماية شريعة الله فسَمَّاها فرس الرحمان. ففي المسند للإمام أحمد بسند صحيح عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: [الخيل ثلاثة: ففرسٌ للرحمن، وفرس للشيطان، وفرس للإنسان، فأما فرس الرحمنِ، فالذي يُرْتَبَطُ في سبيل الله، فَعَلَفُهُ وَروْثُهُ وبوْلُهُ في ميزانِه، وأما فرسُ الشيطان فالذي يُقامَرُ أو يُراهَنُ عليه، وأما فرسُ الإنسان فالفرسُ يرتبطُها الإنسان يلتمِسُ بطنها، فهي سِترٌ من الفقر][2].

رابعاً: ثم جعل سبحانه الفرسَ التي ربطت في سبيل الله أجراً لصاحبها في حركتها وفي طعامها، حتى إن آثارها في السهول والجبال والوديان وروثها في طريقها، كل ذلك حسنات لصاحبها يهنأ بها في الدنيا والآخرة.

ففي الصحيحين والموطأ والمسند وأصحاب السنن إلا أبي داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [الخيل لثلاثة: هي لرجُلٍ أجْرٌ، ولرجُلٍ سِترٌ، وعلى رجلٍ وزرٌ، فأما الذي هي له أجرٌ، فَرجلٌ ربَطها في سبيل الله، فأطال لها في مَرْجٍ أو روضة، فما أصابت في طيلها منَ المرجِ والروضة كانت له حسنات، ولو أنها قطَعتْ طيلَها فاستنَّتْ شرَفاً أو شرَفين كانت آثارُها وأرواثُها حسناتٍ له، ولو أنها مرَّتْ بنَهْرٍ فَشَرِبَتْ ولم يُرِدْ أن يَسْقِيَها كان ذلك له حسنات، ورجل رَبطَها تَغَنيّاً، وسِتْراً، وتَعفُّفاً، ثم لم ينْسَ حقَّ الله في رقابها وظهورها فهي له سِتْرٌ، ورجلٌ ربطها فَخْراً ورياءً ونِواءً لأهل الإسلام، فهي له وزرٌ][3].

وعند الخطيب في التاريخ بسند حسن عن ابن عباس مرفوعاً: [الخيل في نواصي شُقرِها الخيْرُ][4]. فالخير كل الخير في الفروسية وتعلمها وتهيئة أسبابها

---

(1) صحيح الجامع (3344).
(2) تخريج الإرواء (1503) تحقيق الألباني.
(3) صحيح الجامع (3347).
(4) تخريج الترغيب (162/2 - 163).

وما يقوم مقامها في كل وقت وعصر وزمان ، فهي من القوة التي أمر الله المؤمنين بإعدادها .

خامساً: ثم رغبهم الوحي الكريم في إتقان التسديد وإحكام الإصابة ورفع الجاهزية وتحري الدقة ، لتكون الأمة في أروع تألقها وفي أشد تفوقها التقني العسكري على خصومها . فقد أخرج الإمام أحمد في المسند عن أبي نجيح السلمي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [من بلغ بسهم فهو له درجة في الجنة ، فبلَّغْتُ يومئذ عشرةَ أسهم] ، وسمعته يقول: [من رمىٰ بسهم في سبيل الله فهو عدل رقبة محررة](1) .

سادساً: ثم رغبَّهم الوحي العظيم الممثل بتقرير سيد المرسلين بتعلم فنون القتال في البحر . كما يروي الحاكم عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: [غزوة في البحر خير من عشر غزوات في البر ، ومن أجاز البحر فكأنما أجاز الأودية كلها ، والمائد فيه كالمتشحط في دمه](2) .

ثم خاض النبي ﷺ مع أصحابه الذين ربَّاهم وأعدَّهم ودرَّبهم ورفع جاهزيتهم حتى بلغوا ذروة الإتقان ودقة الإصابة ، وتألقوا حتى أفرزت مهاراتهم أرقاماً عالية جديدة ما كان لها أن تبرز لولا الوحي الذي عبأهم وملأ عليهم عقولهم وقلوبهم وتخيل آفاق مستقبلهم ، خاض معهم معركة الفصل بين الحق والباطل ، معركة بدر ، لتكون يوماً من أيام الله ، أظهر الله فيه الشوكة لأوليائه وأصحاب نبيه ، وأنزل الهزيمة والخزي وألزمها لأعدائه ، وقد حضرت فيها الملائكة الكرام ، وشاركت المؤمنين قتالهم و نصرهم ، بعدما بَثَّت الرعب في قلوب عدوهم .

ولقد ظهرت في ذلك اليوم عبقرية النبي عليه السلام القيادية ، وملامح من بعد النظر وعمق رؤيته العسكرية ، فلقد هبط الليل وخيَّم فأرسل علياً والزبير وسعداً يتحسسون الأحوال ويأتون بالأخبار ، فأصابوا غلامين لقريش كانا يمدانهم بالماء ، فأتوا بهما وسألوهما ورسول الله ﷺ قائم يصلي فقالا: نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء . فكره القوم هذا الخبر ورجَوْا أن يكونا تبعاً لأبي سفيان

---

(1) تخريج الترغيب (171/2) وتخريج المشكاة (3873) .

(2) تخريج السيرة (226) وصحيح الجامع (4030) .

فمازالت قلوبهم تتعلق بالاستيلاء على القافلة ، فضربوهما ضرباً موجعاً حتى اضطُر الغلامان أن يقولا : نحن لأبي سفيان فتركوهما . قال أنس كما يروي الإمام مسلم : [وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتيه وسلم وقال : إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموهما . صدقا والله إنهما لقريش . ثم قال للغلامين : أخبراني عن قريش؟ قالا : هم وراء هذا الكثيب الذي ترىٰ بالعدوة القصوى . فقال لهما : كم القوم؟ قالا : كثير . قال : ما عدتهم؟ قالا : لا ندري . قال : كم ينحرون كل يوم؟ قالا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً . فقال رسول الله ﷺ : القوم ما بين التسعمائة إلى الألف . ثم قال لهما : فمن فيهم من أشراف قريش؟ قالا : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو البختري بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر ، وطعيمة بن عدي ، والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، وعمرو بن هشام وأمية بن خلف . . . . ، فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال : هذه مكةُ قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها][1] .

قريش تريد أن تحسِم صراع خمسة عشر عاماً ، والنبيّ ﷺ قد نظر حوله فوجد مؤمنين بين مهاجر باع نفسه وماله في سبيل الله ، وما بين أنصاري ربط مصيره وحاضره بهذا الدين الذي افتداه ، وقد كانوا خرجوا لأمر يسير ، وهو الاستيلاء على القافلة وما فيه من حث للهمة على النفير ، فإذا بالموقف الآن قد تغير؟ فلنر مواقف هؤلاء الأصحاب الكرام ، وثمرة تربية وإعداد النبي لهم عليه الصلاة والسلام ، ولنستمع إلى الأرقام الجديدة التي سجلوها والتي نافست الأرقام القديمة في الجاهلية قبل الإسلام ، والتي لم يُعرف ولم يُسمع مثيلها في تاريخ الأنام .

قال ابن إسحاق : [استشار رسول الله ﷺ الناس ، فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن ، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسىٰ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . فوالذي بعثك بالحق ، لو سِرْت بنا إلى بَرْك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . فقال له الرسول خيراً ودعا له . ثم قال : أشيروا عليَّ أيها

---

(1) السيرة النبوية على منهج الوحيين . د. حموش (ج 1) ص 441 .

الناس ـ وإنما يريد الأنصار وذلك أنهم كانوا عدد الناس ، وكانوا بايعوه بالعقبة فقالوا: يا رسول الله إنا برؤاء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرة إلا ممن دهمه بالمدينة ـ فلما قال ذلك قال له سعد بن معاذ:

والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل ، فقال: قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ، ومواثيقنا على السمع والطاعة لك ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقىٰ بنا عدونا غداً. إنا لصُبُرٌ في الحرب صُدُقٌ عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر على بركة الله.

وفي رواية: (لعلك أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله إليك غيره ، فانظر الذي أحدث الله إليك فامض ، فَصِلْ حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وعاد من شئت وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا ما شئت وما أخذت مِنا كان أحبَّ إلينا مما تركت). فَسرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ثم قال: سيروا وأبشروا ، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم][1].

وقضى المسلمون ليلاً هادئاً تخللته أمطار خفيفة قد تساقطت أنعشت صدورهم وأحيا الله بها نفوسهم وجدد الإيمان واليقين والعزيمة في قلوبهم ، وصفها سبحانه في سورة الأنفال بقوله: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال: 11].

ثم باشر النبي ﷺ تنظيم الصفوف وأخذ يتفقد الرجال ، ويذكر بالله والدار الآخرة ويرغب في أجر وثواب القتال ، والصبر عند النزال ، ثم يعود إلى عريش قد

(1) المرجع السابق ص 439.

هيء له فيستغرق في الدعاء . فقد أخرج الإمام مسلم والترمذي وأبو داود عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: [لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيف ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة ، فاستقبل النبي ﷺ القبلة ثم مدَّ يديه وعليه رداؤه وإزاره ، ثم قال: اللهم أين ما وعدتني ، اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً. قال: فمازال يَسْتغيث ربه عز وجل ويدعوه حتى سقط رداؤه فأتاه أبو بكر رضي الله عنه فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه ثم قال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك ، وأنزل الله عز وجل: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾][1] .

وبدأ القتال ، وتزاحف الجمعان ، حين برز من المشركين (الأسود بن عبد الأسد) فوثب على الحوض الذي بناه المسلمون وهو يقول: (أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه) .

فتصدى له حمزة بن عبد المطلب ، فضربه ضربة بالسيف طيَّرت نصف ساقه ، ولكن الأسود حبا رغم ذلك إلى الحوض حبواً يبغي اقتحامه فتبعه حمزة حتى قتله في الحوض وأجهز عليه .

فبرز من المشركين (عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة) فخرج للقائهم فتية من الأنصار فنادوا: (يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا) فقال رسول الله ﷺ كما جاء في المسند وسنن أبي داود: [قم يا عبيدة بن الحارث ، قم يا حمزة ، قم يا عليّ ، فبارز عبيدة عتبة ، وبارز حمزة شيبة ، وبارز علي الوليد ، فأما حمزة فلم يمهل شيبةَ أن قتله ، وكذلك فعل علي مع خصمه ، وأما عبيدة وعتبة فقد جرح كلاهما الآخر ، فكرَّ حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فأجهزا عليه][2] .

واستشاط الكفار غضباً لهذه البداية السيئة ولهذه المفاجأة القاسية ، فحملوا على المسلمين بسهامهم فأمطروهم بوابل كثيف من النبل والسهام ، ثم حمي الوطيس والتقت السيوف وتهاوت فوق الرؤوس ، غير أن النبي ﷺ أمر أصحابه في

---

(1) مختصر صحيح مسلم (1158) .

(2) تخريج السيرة . غزوة بدر . تحقيق الألباني .

باديء الأمر أن يمتصوا هجمات المشركين وأن يفرغوها من شحنتها وأن يكسروا تقدمهم ، كما روىٰ البخاري وأبو داود عن أسيد عن النبي ﷺ قال : [إذا أكْثَبوكم فارموهم بالنَّبل ، واستبقوا نَبْلكمْ]. وفي رواية : [إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل ولا تحملوا عليهم حتى تؤذنوا][1] فاستنفذوا بذلك جهد أعدائهم ، وهو أمر نبوي يبرز التألق القيادي للنبي ﷺ.

قال ابن اسحاق: (خفق النبي ﷺ خفقة في العريش ثم انتبه فقال: أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع).

يروي الإمام مسلم عن أنس بن مالك قال : [بعث رسول الله ﷺ بُسَيْسَةَ عيناً يَنْظُرُ ما صَنَعَتْ عِيرُ أبي سُفيان فجاءَ وما في البيت أحد غيري وغيرُ رسول الله ﷺ . قال : فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابُه حتى سبقوا المشركين إلى بدر وجاء المشركون فقال رسول الله ﷺ: لا يُقَدِّمَنَّ أحَدٌ منكم إلى شيء حتى أكونَ أنا دونَهُ فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ: قوموا إلى جنةٍ عَرْضُها السموات والأرضُ قال: يقول عُمَيرُ بن الحُمَام الأنصاريُّ يا رسول الله جنةٌ عرضها السماوات والأرض قال: نعم. قال: بخ بخ فقالَ رسول الله ﷺ: ما يحملكَ على قولك بخ بخ؟ قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاءَةَ أن أكونَ من أهلِها قال: فإنك من أهلها. فأخرج تمرات من قَرَنِهِ فجَعل يأكل منهن ثم قال: لئن أنا حييتُ حتى آكُلَ تمراتي هذه إنها لحياةٌ طويلة. قال: فرمىٰ بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قُتِل][2].

وفي رواية: (ثم قاتلهم وهو يقول:

ركضـــاً إلـــى الله بغيـــر زاد　　إلا التقـــى وعمـــلُ المعـــاد
والصَبْـرُ فـي الله علـى الجهـاد　　وكـــلُ زاد عـــرضـــة النفـــاد
غيـــرَ التقـــىٰ والبـــر والـــرشـــاد

فما زال حتى قتل).

ثم وهت وتزعزعت صفوف المشركين تحت مطارق هذا الإيمان الزاهد بمتاع

---

(1) المرجع السابق.
(2) مختصر صحيح مسلم(1157).

الحياة الدنيا ، وراعهم شخص محمد ﷺ وقد نزل بنفسه إلى ساحة القتال يهدُّ بسيفه جموع المشركين ويفرقهم ، ويخترق بقوة يمينه صفوفهم ، فيفسح لأصحابه ليتغلغلوا في أعماقهم ، وهو يهتف ويقول : (شاهت الوجوه شاهت الوجوه) . كما روى الطبراني بسند حسن لغيره عن حكيم بن حزام قال : [لما كان يوم بدر أمر رسول الله ﷺ فأخذ كفاً من الحصباء ، فاستقبلنا به فرمانا بها وقال : شاهت الوجوه ، فانهزمنا فأنزل الله عز وجل : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾](1) .

ومضى عليه الصلاة والسلام يزلزل الأرض بإذن الله من تحت أقدامهم ، وهو يبصر ثمرة تربيته وبنائه وإعداده لأصحابه وهم يشتدون نحو عدوهم ، ويرى كبرياء الكفر وهي تمرَّغُ بالتراب أمام أقدامهم . وحاول أبو جهل إيقاف سيل الهزيمة بغروره وعناده فقال : (واللات والعزى لا نرجع حتى نفرقهم في الجبال خذوهم أخذاً) . وأحاطت به فلول من المشركين وهم يقولون : (أبو الحكم لا يُخْلَصُ إليه) ولكنه لا يدري أنه ماض إلى مصيره الفاجع ونهايته المؤلمة .

ففي الصحيحين عن عبد الرحمن بن عوف قال : [إني لفي الصف يوم بدر إذ التفت فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن فكأني لم آمن بمكانهما ، إذ قال لي أحدهما سراً من صاحبه : يا عم أرني أبا جهل! فقلت : يا ابن أخي ما تصنع به؟ قال : عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه . وقال لي الآخر سراً من صاحبه مثله . قال : فما سرَّني أنني بين رجلين مكانهما . فأشرت لهما إليه فشدَّا عليه مثل الصقرين فضرباه حتى قتلاه وهما ابنا عفراء](2) .

وقد لقيَ مِثل هذا المصير الفاجع سبعون صنديداً من صناديد قريش ومن رؤوس الكفر بمكة وطغاتها ، دارت عليهم كؤوس الردى فتجرعوها صاغرين . وسقط في الأسر سبعون آخرون . وفرَّ بقية التسعمائة والخمسين يروون لمن خلفهم أن الظلم مرتعه وخيم ، وأن مخالفة الأنبياء والرسل عذابه أليم .

وأشرقت قلوب المؤمنين بهذا النصر العظيم ، الذي امتَّنَ به الجبار الكريم ،

---

(1) الصحيح المسند من أسباب النزول . سورة الآنفال آية 17 .

(2) تخريج السيرة للغزالي . غزوة بدر . تحقيق الألباني .

على نبيِّه وعباده المخلصين ، ونزل القرآن ينقل لهم فرحة النصر ويصف لهم ما لم يدركوه من دقائق المعركة وسر النصر ، فقال جل ثناؤه في سورة الأنفال: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 12 - 13].

وقال في سورة آل عمران: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: 123 - 128].

وفي المسند للإمام أحمد بسند صحيح عن رفاعة عن النبي ﷺ قال: [جاء جبريل فقال ما تعدون من شهد بدراً فيكم؟ قلت: خيارنا ، قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة هم عندنا خيار الملائكة][1].

فإذا ما أرادت الأمة اليوم أن تعيد ذكرىٰ بدر في حياتها ، فما عليها إلا أن ترجع إلى دينها: كتاب ربها وسنة نبيِّها ، حتى إذا اكتملت جماعة الحق في بنائها ، ورضي الله عن منهجها وتوجهها أعاد لها درس بدر ونصرها على عدوها ، لتعود لها الأستاذية في الأرض من جديد فوق أرجائها شأنها في ذلك أيام نبيِّها.

فهذا هو منهج الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام ، من البلاغ إلى الحكم ، ومن بدء الدعوة إلى الاستقرار والتمكين ، ومن الغربة والابتلاء والصبر ، إلى الجهاد والسياحة في الأرض والحكم بمنهج الوحي ، فَلْتَعْلم الأمة اليوم أن غياب هذا المنهج في حياتها ، هو سبب إخفاق محاولات كثير من المصلحين والدعاة في إعادة الإسلام إلى منصة الحكم بين العالمين.

* * *

---

(1) ورواه البخاري وابن ماجه عنه ، ورواه أحمد وابن ماجه وابن حبان أيضاً من طريق رافع بن خديج ، والحديث في صحيح الجامع برقم (3081).

فهرس أبحاث المجلد الأول

أبحاث في علم النفس
على منهج الوحيين الكتاب والسنة

بناء النفس على منهاج الوحيين
الكتاب والسنة

دراسة تحليلية منهجية لتفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين

الكتاب الأول

تأليف
الدكتور مأمون حموش

السيرة النبوية

على منهج الوحيين

القرآن والسنة الصحيحة

دراسة تحليلية منهجية فقهية شاملة

في محاولة لإسقاطها على الواقع المعاصر

المجلد الأول

تأليف

الدكتور مأمون حموش

أبحاث في علم النفس
على منهج الوحيين الكتاب والسنّة

مَنهَج الوَحيَين

في معالجة زلل النفس وتسلّط الجن

« دراسة تحليليّة منهجيّة لأسباب تسلُّط الجن والمس والسّحر والإصابة بالعين »

- الوقاية والعلاج -

الكتاب الثاني

تأليف
الدكتور مأمون حموش

منـ...

في [illegible] الامراض النفسية و عوامل الشد الى [illegible]

دراسة تحليلية نفسية تربوية

الكتاب الثالث

...موش